


۱۱۹۸۶



ورايت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما احياء لعلوم الدين وكشفا عن مناهج الائمة المتقدمين
وايضاحا لمباهي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين سلام الله عليهم
اجمعين ٥ ولقد اسسته على اربعة ارباع ٥ ربع العبادات وربع العادات وربع
المهلكات وربع المنجيات وصدرت الجملة بكتاب العلم لانه غاية المهم لاكشف اولا
عن العلم الذي تعبد رسول الله صلى الله عليه وآله الاعيان بطلبه اذ قال طلب العلم فريضة
على كل مسلم واميز فيه العلم النافع عن الضار اذ قال صلى الله عليه وآله نعوذ بالله من علم
لا ينفع واحقق ميل اهل العصر عن شاكلة الصواب وانخداعهم بلامع السراب و
اقتناعهم من العلوم بالقشر عن اللباب ويشتمل ربع العبادات على عشرة كتب ٥

قواعد العقائد

كتاب كتاب كتاب كتاب كتاب كتاب كتاب كتاب كتاب كتاب
العلم قواعد العقائد اسرار الطهارة اسرار الصلاة اسرار الزكاة اسرار الصيام اسرار الحج تلاوة القرآن الاذكار والدعوات

وهكذا الارباع الاخر يشتمل كل واحد منها على عشرة كتب ذكرها رحمه الله في الاصل
على التفصيل ثم قال رحمه الله ٥ وانما حملني على تاسيس الكتاب على اربعة ارباع امران
احدهما وهو الباعث الاصلي ان هذا الترتيب في التحقيق والتفهيم كالضروري
لان العلم الذي يتوجه به الى الآخرة ينقسم الى علم المعاملة والى علم المكاشفة واعني
بالمكاشفة ما يطلب منه كشف المعلوم فقط واعني بعلم المعاملة ما يطلب منه مع
الكشف العمل به والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقط دون علم المكاشفة
التي لا رخصة في ايداعها الكتب وان كانت هي غاية مقصد الطالبين ومطمح
نظر الصديقين وعلم المعاملة طريق اليه ولكن لم يتكلم الانبياء مع الخلق
الا في علم الطريق والارشاد اليه واما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه الا بالرمز
والايماء على سبيل التمثيل والاجمال علما منهم بقصور افهام الخلق عن الاحتمال و
العلماء ورثة الانبياء فما لهم سبيل الى العدول عن نهج التاسي والاقتداء ثم ان
علم المعاملة ينقسم الى علم ظاهر اعني العلم باعمال الجوارح والى علم باطن اعني العلم
باعمال القلوب والجاري على الجوارح اما عبادة واما عادة والوارد على القلوب
التي هي بحكم الاحتجاب عن الحواس من عالم الملكوت اما محمود واما مذموم فبالواجب
انقسم هذا العلم الى شطرين ظاهر وباطن والشطر الظاهر المتعلق بالجوارح ا

انقسم الى عبادة وعادة والشطر الباطن المتعلق باحوال القلب واخلاق النفس انقسم
الى محمود ومذموم فكان المجموع اربعة اقسام ولا يشذ نظر في علم المعاملة عن هذه
الاقسام الباعث الثاني اني رايت الرغبة من طلبة العلم صادقة في الفقه الذي صلح
عند من لا يخاف الله للتدرع به الى المباهاة والاستظهار بجاهه ومنزلته في المنافسات
وهو مرتب على اربعة ارباع والمتزيي بزي المحبوب محبوب فلم ابعد ان يكون
تصوير الكتاب بصورة الفقه تلطفا في استدراج القلوب ولهذا تلطف بعض من رام
استمالة قلوب الرؤساء الى الطب فوضعه على هيئة تقويم النجوم موضوعا في الجداول و
الرقوم وسماه تقويم الصحة ليكون انسهم بذلك الجنس جاذبا لهم الى المطالعة والتلطف
في اجتذاب القلوب الى العلم الذي يفيد حياة الابد اهم من التلطف في اجتذابها الى الطب
الذي لا يفيد الا صحة الجسد فثمرة هذا العلم طب القلوب والارواح المتوصل به الى حياة
تدوم ابد الآباد فاين منه الطب الذي يعالج به الاجساد وهي معرضة بالضرورة
للفساد في اقرب الآماد فنسأل الله التوفيق للرشاد والسداد انه الكريم الجواد ٥

كتاب العلم وفيه سبعة ابواب الباب الاول في فضل العلم والتعلم و

التعليم وشواهده من النقل والعقل ٥ اما شواهده من القرآن فقوله تعالى
شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم فانظر كيف بدأ بنفسه وثنى بالملائكة
وثلث باهل العلم وناهيك بهذا شرفا وفضلا وجلاء ونبلا وقال تعالى يرفع الله
الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات قال ابن عباس للعلماء درجات فوق
المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام وقال تعالى هل يستوي الذين
يعلمون والذين لا يعلمون وقال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وقال تعالى قل كفى
بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب وقال تعالى قال الذي عنده علم من الكتاب
انا آتيك به تنبيها على انه اقتدر عليه بقوة العلم وقال تعالى قال الذين اوتوا العلم ويلكم
ثواب الله خير لمن آمن بين ان عظم قدر الآخرة يعلم بالعلم وقال تعالى وتلك الامثال
نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون وقال تعالى ولو ردوه الى الرسول والى اولي الامر
منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم رد حكمه في الوقائع الى استنباطهم والحق رتبتهم برتبة
الانبياء في كشف حكم الله وقيل في قوله تعالى يا بني آدم قد انزلنا عليكم لباسا يواري

سوآتكم يعني العلم وريشا يعني اليقين ولباس التقوى اي الحيا وقال تعم ولقد جئناهم
بكتاب فصلناه على علم وقال فلنقصن عليهم بعلم وقال تعم بل هو آيات بينات في صدور
الذين اوتوا العلم وقال خلق الانسان علمه البيان وانما ذكر ذلك في معرض الامتنان و
اما الاخبار فقد قال رسول الله صلعم من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ويلهمه رشده
وقال عليه السلم العلما ورثة الانبيا ومعلوم انه لا رتبة فوق رتبة النبوة فلا شرف فوق شرف
الوراثة لتلك الرتبة وقال عليه السلم يستغفر للعالم ما في السموات والارض واي منصب يزيد على
منصب من تشتغل الملائكة في السموات والارض بالاستغفار له فهو مشغول بنفسه وهم مشغولون
بالاستغفار له وقال عليه السلم ان الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع المملوك حتى يجلس مجالس
الملوك وقد نبه بهذا على ثمرته في الدنيا ومعلوم ان الاخرة خير وابقى وقال عليه السلم خصلتان
لا تكونان في منافق حسن سمت ولا فقه في الدين ولا تشكن في الحديث لنفاق بعض فقها
الزمان فانه ما اراد به الفقه الذي ظننته وسياتي بيان معنى الفقه وادنى درجات الفقيه ان
يعلم ان الاخرة خير من الدنيا وهذه المعرفة اذا صدقت وغلبت برا ته من النفاق و
الريا وقال عليه السلم افضل الناس المومن العالم الذي ان احتيج اليه نفع وان استغني عنه
اغنى نفسه وقال عليه السلم اقرب الناس من درجة النبوة اهل العلم والجهاد اما اهل العلم
فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل واما اهل الجهاد فجاهدوا باسيافهم على ما جاءت
به الرسل وقال عليه السلم لموت قبيلة ايسر من موت عالم وقال الناس معادن فخيارهم في
الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا وقال توزن يوم القيمة مداد العلما بدم الشهدا
وقال عليه السلم من حفظ على امتي اربعين حديثا لقي الله يوم القيمة فقيها عالما وقال عليه السلم من
تفقه في دين الله كفاه الله همه ورزقه من حيث لا يحتسب وقال عم اوحى الله الى ابرهيم يا
ابرهيم اني عليم احب كل عليم وقال عليه السلم العالم امين الله في الارض وقال صنفان من امتي
اذا صلحوا صلح الناس واذا فسدوا فسد الناس الامرا والفقها وقال عليه السلم اذا اتى على
يوم لا ازداد فيه علما يقربني الى الله فلا بورك لي في طلوع الشمس ذلك اليوم وقال عليه السلم
في تفضيل العلم على العبادة والشهادة فضل العالم على العابد كفضلي على ادنى رجل من اصحابي
فانظر كيف جعل العلم مقارنا لدرجة النبوة وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم وان كان
العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التي يواظب عليها ولولاه لم يكن عبادة وقال عليه السلم فضل العالم

علماً

العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على ساير الكواكب وقال عليه السلم يشفع يوم القيمة
ثلثة الانبيا ثم العلما ثم الشهدا فاعظم برتبة هي تلو النبوة وفوق الشهادة مع ما ورد في فضل
الشهادة وقال عليه السلم ما عبد الله بشي افضل من فقه في دين ولفقيه واحد اشد على
الشيطان من الف عابد ولكل شي عماد وعماد هذا الدين الفقه وقال خير دينكم ايسره وافضل
العبادة الفقه وقال فضل المومن العالم على المومن العابد سبعون درجة وقال عليه السلم
انكم اصبحتم في زمان كثير فقهاوه قليل خطباوه قليل سائلوه كثير معطوه العمل فيه خير من
العلم وسياتي على الناس زمان قليل فقهاوه كثير خطباوه قليل معطوه كثير سائلوه العلم
فيه خير من العمل وقال عليه السلم بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد
المضمر سبعين سنة وقيل له عليه السلم يا رسول الله اي الاعمال افضل فقال العلم بالله عز وجل
فقيل اي الاعمال تريد فقال العلم بالله فقيل نسال عن العمل وتجيب عن العلم فقال ان قليل
العمل ينفع مع العلم وان كثير العمل لا ينفع مع الجهل وقال عليه السلم يبعث الله العباد يوم القيمة
ثم يبعث العلما ثم يقول يا معشر العلما اني لم اضع علمي فيكم الا لعلمي بكم ولم اضع علمي
فيكم لاعذبكم اذهبوا فقد غفرت لكم واما الاثار فقد قال علي عليه السلم يا كميل العلم خير من المال
العلم يحرسك وانت تحرس المال والعلم حاكم والمال محكوم عليه والمال تنقصه النفقة
والعلم يزكو على الانفاق وقال عليه السلم العالم افضل من الصايم القايم المجاهد واذا مات العالم
ثلم في الاسلام ثلمة لا يسدها الا خلف منه وقال ايضا نظما ما الفخر الا لاهل العلم انهم على
الهدى لمن استهدى ادلا وقدر كل امرء ما كان يحسنه والجاهلون لاهل العلم اعدا ففز بعلم
ولا تجهل به ابدا فالناس موتى واهل العلم احيا وقال ابو الاسود الدولي ليس شي اعز من
العلم الملوك حكام على الناس والعلما حكام على الملوك وقال عبد الله بن عباس خير سليمان بن
داود عليهما السلم بين العلم والمال والملك فاختار العلم فاعطي المال والملك معه وسئل ابن
المبارك من الناس فقال العلما قيل فمن الملوك قال الزهاد قيل فمن السفلة قال الذي ياكل
بدينه ولم يجعل غير العالم من الناس لان الخاصية التي بها يتميز الناس عن البهايم هي العلم و
الانسان انسان بما هو شريف لاجله وليس ذلك بقوة شخصه فان الجمل اقوى منه ولا
بعظمه فان الفيل اعظم منه ولا بشجاعته فان السبع اشجع منه ولا باكل فان الجمل اوسع بطنا
منه ولا ليجامع فان اخس العصافير اقوى على السفاد منه بل لم يخلق الا للعلم وقال بعض

فاعظم

نعم يعلم ولا ينبغي لهم

الحكماء ليت شعري اي شيء ادرك من فاته العلم واي شيء فات من ادرك العلم وقال
فتح الموصلي أليس المريض اذا منع الطعام والشراب والدواء يموت قالوا بلى قال كذلك القلب
اذا منع عنه الحكمة والعلم ثلثة ايام يموت ولقد صدق فان غذاء القلب العلم والحكمة وبهما
حيوته كما ان غذاء الجسد الطعام ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم ولكنه لا يشعر به اذ
حب الدنيا وشغله بها ابطل احساسه كما ان غلبة الخوف قد تبطل احساس الم الجرح في الحال وان
كان واقعا فاذا حط الموت عنه اعباء الدنيا احس بهلاكه وتحسر تحسرا لا ينفعه وذلك كاحساس
المفيق من سكره بما اصابه من الجراحات في حالة السكر والخوف فنعوذ بالله من يوم كشف الغطاء
فان الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا وقيل لبعض الحكماء اي الاشياء تقتني قال الاشياء التي اذا
غرقت سفينتك سبحت معك يعني العلم واراد بغرق السفينة هلاك بدنه بالموت وقال الشافعي
ومن شرف العلم ان كل من نسب اليه ولو في شيء حقير فرح به ومن رفع عنه حزن وقال الزبير بن ابي
بكر كتب الي ابي بالعراق عليك بالعلم فانك ان افتقرت كان لك مالا وان استغنيت كان لك
جمالا وقد حكي ذلك في وصايا لقمن لابنه وقال ايضا لابنه يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك
فان الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الارض بوابل السماء وقال بعض الحكماء اذا مات العالم
بكاه الحوت في الماء والطير في الهواء ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره ثم ذكر رحمه الله تعالى فضيلة
التعلم وما ورد لذلك كثير من الآيات والاخبار والآثار وكذا فضيلة التعليم على ما هو دابه رحمه الله
تعم من الاسعاد في جميع ما هو بصدد بيانه اشفاقا على الطالبين وذكر من جملة الاخبار الواردة
لفضيلة التعلم حديث ابي ذر حضور مجلس عالم افضل من صلوة الف ركعة وعيادة الف مريض
وشهود الف جنازة فقيل يا رسول الله ومن قراءة القران فقال وهل ينفع القران الا بالعلم
وقال من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الاسلام فبينه وبين الانبياء في الجنة درجة واحدة
ومن الاخبار الواردة لفضيلة التعليم قوله عليه السلام ان الله لا ينتزع العلم انتزاعا من الناس بعد
ان يؤتيهم اياه ولكن يذهب بذهاب العلماء فكلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم حتى اذا
لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا ان سئلوا افتوا بغير علم فيضلون ويضلون وقوله عليه السلام
مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير اصاب ارضا فكانت منها بقعة قبلت
الماء فانبتت الكلاء والعشب الكثير وكانت منها بقعة امسكت الماء فنفع الله بها الناس شربوا منها
وسقوا وزرعوا وكانت منها بقعة لا تمسك ماء ولا تنبت كلاء فالاول ذكره مثلا للمنتفع بعلمه

فضيلة التعلم والتعليم

الشواهد
بعلمه والثاني ذكره مثلا للنافع والثالث للمحروم منها ثم ذكر بعض ذلك النقص هذا
العقلية قال رحمه الله اعلم ان المطلوب من هذا الباب معرفة فضيلة العلم ونفاسته
وما لم تفهم الفضيلة في نفسها ولم يتحقق المراد منها لم يمكن ان تعلم وجودها صفة للعلم
او لغيره من الخصال فلقد ضل عن الطريق من طمع ان يعرف ان زيدا حكيم ام لا وهو بعد
لم يعرف معنى الحكمة وحقيقتها فالفضيلة ماخوذة من الفضل وهو الزيادة فاذا تشارك
شيئان في امر واختص احدهما بمزيد يقال فضله وله الفضل مهما كانت زيادته فيما هو كمال
ذلك الشيء كما يقال الفرس افضل من الحمار بمعنى انه يشاركه في قوة الحمل ويزيد عليه بقوة الكر
والفر وشدة العدو وحسن الصورة فلو فرض حمار اختص بسلعة زائدة لم يقل انه افضل
لان تلك زيادة في الجسم ونقصان من المعنى وليست من الكمال في شيء والحيوان مطلوب لمعناه
وصفاته لا لجسمه فاذا فهمت هذا لم يخف عليك ان العلم فضيلة ان اخذته بالاضافة الى
سائر الحيوانات بل شدة العدو فضيلة في الفرس وليس فضيلة على الاطلاق والعلم فضيلة
في ذاته وعلى الاطلاق من غير اضافة فانه وصف كمال الله تعالى وبه شرف الملائكة والانبياء بل
الكيس من الخيل خير من البليد فهي فضيلة على الاطلاق من غير اضافة واعلم ان الشيء النفيس
المرغوب فيه ينقسم الى ما يطلب لغيره والى ما يطلب لذاته والى ما يطلب لذاته ولغيره وما يطلب
لذاته اشرف وافضل مما يطلب لغيره والمطلوب لغيره الدراهم والدنانير فانهما حجران لا
منفعة فيهما ولولا ان الله تعالى يسر قضاء الحاجات بهما لكانا والحصباء بمثابة واحدة واما
الذي يطلب لذاته فالسعادة في الآخرة ولذة النظر الى وجه الله تعالى واما الذي يطلب لذاته
ولغيره فكسلامة البدن فان سلامة الرجل مثلا مطلوبة من حيث انها سلامة عن الالم و
مطلوبة للمشي بها والتوصل الى المآرب والحاجات وبهذا الاعتبار اذا نظرت الى العلم
رايته لذيذا في نفسه فيكون مطلوبا لذاته ووجدته وسيلة الى دار الآخرة وسعادتها
وذريعة الى القرب من الله تعالى ولا يتوصل اليه الا به واعظم الاشياء رتبة في حق الآدمي السعادة
الابدية وافضل الاشياء ما هو وسيلة اليها ولن يتوصل اليها الا بالعلم والعمل ولا
يتوصل الى العمل ايضا الا بالعلم بكيفية العمل فاصل السعادات في الدنيا والآخرة هو العلم
فهو اذن افضل الاعمال وكيف لا وقد تعرف فضيلة الشيء ايضا بشرف ثمرته وقد عرفت
ان ثمرة العلم القرب من رب العالمين والالتحاق بافق الملائكة ومقاربة الملا الاعلى هذا

في الاخرة واما في الدنيا فالعز والوقار ونفوذ الحكم على الملوك ولزوم الاحترام في
الطباع حتى ان اغبياء الترك واجلاف العرب يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير
لاشياخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة بل البهيمة بطبعها توقر الانسان
لشعورها بتميز الانسان بكمال مجاوز لدرجتها هذه فضيلة العلم مطلقا ثم تختلف
العلوم كما سياتي بيانه وتتفاوت لا محالة فضائلها بتفاوتها اما فضيلة التعلم والتعليم
فظاهر مما ذكرناه فان العلم اذا كان افضل الامور كان تعلمه طلبا للافضل وكان تعليمه
افادة للافضل وبيانه ان مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا انتظام للدين الا
بنظام الدنيا فان الدنيا مزرعة الاخرة وهي الالة الموصلة الى الله لمن اتخذها آلة و
منزلا لا لمن يتخذها وطنا ومستقرا وليس ينتظم امر الدنيا الا باعمال الادميين واعمالهم و
حرفهم وصناعاتهم تنحصر في ثلثة اقسام **احدها** اصول لا قوام للعالم دونها وهي
اربعة الزراعة وهي للمطعم والحياكة وهي للملبس والبناء وهو للمسكن والسياسة وهي
للتاليف والاجتماع والتعاون على اسباب المعيشة وضبطها **القسم الثاني** ما هي
مهياة لكل واحدة من هذه الصناعات باعداد آلاتها وخادمة لها كالحدادة فانها
تخدم الزراعة وجملة من الصناعات باعداد آلاتها وكالحلاجة والغزل فانها تخدم الحياكة
باعداد محلها **القسم الثالث** ما هي متممة للاصول ومزينة كالطحن والخبز للزراعة
وكالقصارة والخياطة للحياكة وذلك بالاضافة الى قوام امر العالم الارضي مثل اجزاء
الشخص بالاضافة اليه فانها ثلثة اضرب اما اصول كالقلب والكبد والدماغ و
اما خادمة لها كالمعدة والعروق والشرايين والاعصاب والاوردة واما مكملة
لها ومزينة كالاظفار والاصابع والحاجبين واشرف هذه الصناعات اصولها
واشرف اصولها السياسة بالتاليف والاستصلاح ولذلك تستدعي هذه
الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها ما لا يستدعيه سائر الصناعات ولذلك يستخدم
لا محالة صاحب هذه الصناعة سائر الصناع والسياسة في استصلاح الخلق وارشادهم
الى الطريق المستقيم المنجي في الدنيا والاخرة على اربع مراتب **الاولى** وهي العليا
سياسة الانبياء وحكمهم على الخاصة والعامة في ظاهرهم وباطنهم **والثانية**
الخلفاء والملوك والسلاطين وحكمهم على الخاصة والعامة جميعا ولكن على ظاهرهم

ظاهرهم لا على باطنهم **والثالثة** العلماء بالله تعالى وبدينه الذين هم ورثة الانبياء وحكمهم
على باطن الخاصة فقط ولا يرتقي فهم العامة الى الاستفادة منهم ولا ينتهي قوتهم الى
التصرف في ظواهرهم بالالزام والمنع **والرابعة** الوعاظ وحكمهم على بواطن العوام فقط
فاشرف هذه السياسات الاربع بعد النبوة افادة العلم وتهذيب نفوس الناس عن
الاخلاق المذمومة المهلكة وارشادهم الى الاخلاق المحمودة المسعدة وهو المراد بالتعليم
وانما قلنا ان هذا افضل من سائر الحرف والصناعات لان شرف الصناعة يعرف بثلثة
امور **اما** بالالتفات الى الغريزة التي بها يتوصل الى معرفتها كفضل العلوم العقلية
على اللغوية اذ تدرك الحكمة بالعقل واللغة بالسمع والعقل اشرف من السمع **واما** بالنظر
الى عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة **واما** بملاحظة المحل الذي فيه التصرف كفضل
الصياغة على الدباغة اذ محل احدهما الذهب ومحل الاخر جلد الميتة وليس يخفى ان العلوم
الدينية وهي فقه طريق الاخرة انما تدرك بكمال العقل وصفاء الذكاء والعقل اشرف
صفات الانسان كما سياتي بيانه اذ به تقبل امانة الله تعالى وبه يتوصل الى جوار الله تعالى واما
عموم النفع فلا يستراب فيه فان نفعه وثمرته سعادة الاخرة واما شرف المحل فكيف يخفى
والمعلم متصرف في قلوب البشر ونفوسهم واشرف موجود على الارض جنس الانس واشرف
جزء من جواهر الانسان قلبه والمعلم مشتغل بتكميله وتجليته وتطهيره وسياقته الى القرب
من الله تعالى فتعليم العلم من وجه عبادة لله تعالى ومن وجه خلافة لله تعالى وهو من اجل خلافة
فان الله تعالى قد فتح على قلب العالم العلم الذي هو اخص صفاته فهو كالخازن لانفس خزائنه
ثم هو مأذون في الانفاق منه على كل محتاج اليه فاية رتبة اجل من كون العبد واسطة
بينه وبين خلقه في تقريبهم الى الله تعالى زلفى وسياقتهم الى الجنة المأوى

الباب الثاني في العلم المحمود والمذموم واحكامهما واقسامهما وفيه بيان ما هو فرض عين وما
هو فرض كفاية وبيان ان موقع الفقه والكلام من علم الدين الى اي حد هو وتفضيل علم
الاخرة

بيان العلم الذي هو فرض عين قال النبي صلى الله عليه وآله طلب العلم فريضة
على كل مسلم وقال اطلبوا العلم ولو بالصين فاختلف الناس في العلم الذي هو فرض
على كل مسلم فتحزبوا فيه اكثر من عشرين فرقة ولا نطول بنقل التفصيل ولكن حاصله
ان كل فريق نزل الوجوب على العلم الذي هو بصدده فقال المتكلمون هو علم الكلام

اذ به يدرك التوحيد ويعلم ذات الله وصفاته وقال الفقهاء هو علم الفقه اذ به تعرف العبادات
والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحل وعنوا به ما يحتاج اليه الآحاد دون الوقائع
النادرة وقال المفسرون والمحدثون هو علم الكتاب والسنة اذ بهما يتوصل الى العلوم
كلها وقال المتصوفة المراد به هذا العلم فقال بعضهم هو علم العبد بحاله ومقامه من الله
تعالى وقال بعضهم هو العلم بالاخلاص وآفات النفوس وتمييز لمة الملك من لمة الشيطان
وقال بعضهم هو علم الباطن وذلك يجب على اقوام مخصوصين هم اهل ذلك وصرفوا
اللفظ عن عمومه وقال ابو طالب المكي هو العلم بما تضمنه الحديث الذي فيه مباني الاسلام
وهو قوله صلى الله عليه وسلم بني الاسلام على خمس لان الواجب هذه الخمس فيجب العلم بكيفية العمل فيها
وبكيفية الوجوب والذي ينبغي ان يقطع به المحصل ولا يتريب فيه ما نذكره وهو ان العلم
كما قدمناه في خطبة الكتاب ينقسم الى علم معاملة وعلم مكاشفة وليس المراد بهذا العلم الا علم
المعاملة والمعاملة التي كلفها العبد العاقل البالغ على ثلاثة اقسام اعتقاد وفعل وترك
فاذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام او السن ضحوة نهار مثلا فاول واجب عليه تعلم كلمتي
الشهادة وفهم معناها وهو قول لا اله الا الله محمد رسول الله وليس يجب عليه ان يحصل
كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الادلة بل يكفيه ان يصدق به ويعتقده جزما من غير
اختلاج ريب واضطراب نفس وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان
اذ اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اجلاف العرب بالتصديق والاقرار من غير تعلم دليل فاذا
فعل ذلك فقد ادى واجب الوقت وكان العلم الذي هو فرض عليه في الوقت تعلم الكلمتين
وفهمهما وليس يلزمه امر وراء هذا في الوقت بدليل انه لو مات عقيب ذلك مات مطيعا لله
غير عاص وانما يجب غير ذلك بعوارض تعرض وليس ذلك ضروريا في حق كل شخص بل يتصور
الانفكاك عنه وتلك العوارض اما ان تكون في الفعل واما في الترك واما في الاعتقاد
اما الفعل فبان يعيش من ضحوة النهار الى وقت الظهر فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر
تعلم الطهارة والصلاة فان كان صحيحا وكان بحيث لو صبر الى زوال الشمس لم يتمكن من تمام
التعلم والعمل في الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعلم فلا يبعد ان يقال الظاهر بقاؤه
فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت ويحتمل ان يقال وجوب العلم الذي هو شرط العمل بعد
وجوب العمل فلا يجب قبل الزوال وهكذا في بقية الصلوات فان عاش الى رمضان تجدد بسببه

وجوب تعلم الصوم وهو ان يعلم ان وقته من الصبح الى غروب الشمس وان الواجب فيه
النية والامساك عن الاكل والوقاع وان ذلك يتمادى الى رؤية الهلال وان تجدد له مال
او كان له مال عند بلوغه لزمه تعلم ما يجب عليه من الزكاة ولكن لا يلزمه في الحال انما يلزمه عند
تمام الحول من وقت اسلامه فان لم يملك الا الابل لم يلزمه تعلم زكاة الغنم وكذا في سائر الاصناف
فاذا دخل اشهر الحج فلا يلزمه المبادرة الى علم الحج مع ان فعله على التراخي فلا يكون علمه على الفور
ولكن ينبغي لعلماء الاسلام ان ينبهوه على ان الحج فرض على التراخي على كل من ملك الزاد والراحلة
اذا كان هو مالكا حتى ربما يرى الحزم لنفسه المبادرة فعند ذلك اذا عزم عليه لزمه تعلم
كيفية الحج ولم يلزمه الا تعلم اركانه وواجباته دون نوافله فان فعل ذلك نفل فعلمه ايضا نفل
فلا يكون فرض عين وفي تحريم السكوت عن التنبيه على وجوب اصل الحج في الحال نظر يليق بالفقه
وهكذا التدريج في علم سائر الاعمال التي هي فرض عين واما التروك فيجب علم ذلك بحسب ما
يتجدد من الحال وذلك يختلف بحال الشخص اذ لا يجب على الابكم تعلم ما يحرم من الكلام ولا على
الاعمى تعلم ما يحرم من النظر ولا على البدوي تعلم ما يحل الجلوس فيه من المساكن فذلك ايضا
واجب بحسب ما يقتضيه الحال فما يعلم انه ينفك عنه لا يجب تعلمه وما هو ملابس له يجب تنبيهه
عليه كما لو كان عند الاسلام لابسا للحرير او جالسا في غصب او ناظرا الى غير محرم فيجب تعريفه
ذلك وما ليس ملابسا له ولكنه بصدد التعرض له على القرب كالاكل فيجب تعليمه حتى اذا كان
في بلد يتعاطى فيه شرب الخمر واكل لحم الخنزير فيجب تعليمه ذلك وتنبيهه عليه وما وجب تعليمه
وجب عليه تعلمه واما الاعتقادات واعمال القلوب فيجب علمها بحسب الخواطر فان خطر له
شك في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادة فيجب عليه تعلم ما يتوصل به الى ازالة الشك
فان لم يخطر له ذلك ومات قبل ان يعتقد ان كلام الله تعالى قديم وانه مرئي وانه ليس محلا للحوادث
الى غير ذلك مما يذكر في المعتقدات فقد مات على الاسلام اجماعا ولكن هذه الخواطر الموجبة
للاعتقادات بعضها يخطر بالطبع وبعضها بالسماع من اهل البلد فان كان في بلد شاع فيه الكلام
وتناطق الناس بالبدع فينبغي ان يصان في اول بلوغه عن ذلك بتلقين الحق فانه لو القي اليه
الباطل لوجب ازالته عن قلبه وربما عسر ذلك كما انه لو كان هذا المسلم تاجرا وقد شاع في
البلد معاملة الربا وجب عليه تعلم الحذر من الربا فهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين
ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب فمن علم العمل الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذي هو

فرض عين وما ذكره الصوفية من فهم خاطر العدو ولمة الملك حق أيضا ولكن في حق من يتصدى
لها فإذا كان الغالب أن الإنسان لا ينفك عن دواعي الشر والرياء والحسد فيلزمه أن يتعلم علمه
من ربع المهلكات ما يرى نفسه محتاجا إليه وكيف لا يجب وقد قال عليه السلام ثلاث مهلكات شح
مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه ولا ينفك عنها بشر وبقية ما سنذكره من مذمومات
أحوال القلب كالكبر والعجب وأخواتهما تتبع هذه الثلاث المهلكات وإزالتها فرض عين ولا
يمكن إلا بمعرفة حدودها ومعرفة أسبابها ومعرفة علاماتها وعلاجها فإن من لا يعرف الشر يقع
فيه والعلاج هو مقابلة السبب بضده فكيف يمكن دون معرفة السبب والمسبب فأكثر ما ذكرناه
في ربع المهلكات من فروض الأعيان وقد تركه الناس كافة اشتغالا بما لا يعني ومما ينبغي أن
يبادر في إلقائه إليه إذا لم يكن قد انتقل عن ملة أخرى إلى الإيمان بالجنة والنار والحشر والنشر حتى
يؤمن به ويصدق وهو من تتمة كلمتي الشهادة فإنه بعد التصديق بكونه رسولا ينبغي أن يفهم
الرسالة التي هو مبلغها وهو أن من أطاع الله ورسوله فله الجنة ومن عصاه فله النار وإذا
تنبهت لهذا التدريج علمت أن المذهب الحق هو هذا وتحققت أن كل عبد فهو في مجاري أحواله
في يومه وليلته لا يخلو عن وقائع في عباداته ومعاملاته تتجدد عليه لوازم فيلزمه السؤال عن
كل ما يقع له من النوادر ويلزمه المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالبا فإذا تبين
أنه عليه السلام إنما أراد بالعلم المعرف بالألف واللام في قوله طلب العلم فريضة علم العمل الذي هو مشهور
الوجوب على المسلمين لا غير فقد اتضح وجه التدريج في وقت وجوبه بيان العلم الذي هو
فرض كفاية اعلم أن الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم والعلوم بالإضافة
إلى الفرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية وأعني بالشرعية ما استفيد من الأنبياء
صلوات الله عليهم ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب ولا التجربة مثل الطب ولا السماع مثل
اللغة فالعلوم التي ليست شرعية تنقسم إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح
فالمحمود ما يرتبط به مصالح الدنيا كالطب والحساب وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية
وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور
الدنيا كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان على الصحة وكالحساب فإنه ضروري في
المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن
يقوم بها حرج أهل البلد وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين ولا يتعجب من

من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات فإن أصول الصناعات أيضا من فروض
الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة فإنه لو خلا البلد عن الحجام لتسارع
الهلاك إليهم وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد
إلى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله وأما ما يعد فضيلة
لا فريضة فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه ولكنه يفيد زيادة
قوة في القدر المحتاج إليه وأما المذموم منه فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعبذة والتلبيس
وأما المباح منه فالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها وتواريخ الأخبار وما يجري مجراه
أما العلوم الشرعية وهي المقصودة بالبيان فهي محمودة كلها ولكن قد يلتبس بها ما يظن
أنها شرعية وتكون مذمومة فلتنقسم إلى المحمودة والمذمومة أما المحمودة فلها أصول وفروع
ومقدمات ومتممات فهي أربعة أضرب الضرب الأول الأصول وهي أربعة كتاب الله
وسنة رسوله وإجماع الأمة وآثار الصحابة والإجماع أصل من حيث إنه يدل على السنة فهو
أصل في الدرجة الثانية وكذلك الأثر فإنه يدل أيضا على السنة لأن الصحابة قد شاهدوا
الوحي والتنزيل وأدركوا بقرائن الأحوال ما غاب عن غيرهم عيانه وربما لا تحيط العبارات
بما أدرك بالقرائن فمن هذا الوجه رأى العلماء الاقتداء بهم والتمسك بآثارهم وذلك
بشرط مخصوص وعلى وجه مخصوص عند من رآه ولا يليق بيانه بهذا الفن الضرب الثاني
الفروع وهو ما فهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبهت لها العقول
فاتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ وغيره كما فهم من قوله لا يقضي القاضي وهو غضبان
أنه لا يقضي إذا كان حاقنا أو جائعا أو متألما لمرض وهذا على ضربين أحدهما يتعلق بمصالح
الدنيا ويحويه فن الفقه والمتكفل به الفقهاء وهم علماء الدنيا والثاني ما يتعلق بمصالح الآخرة
وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المذمومة والمحمودة وما هو مرضي عند الله وما هو مكروه
هو الذي يحويه الشطر الأخير من هذا الكتاب أعني جملة كتاب إحياء علوم الدين ومنه العلم
بما يترشح من القلب على الجوارح في عباداتها وعاداتها وهو الذي يحويه الشطر الأول الضرب
الثالث المقدمات وهي التي تجري منها مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو فإنهما آلة لعلم
كتاب الله وسنة رسوله وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية في أنفسهما ولكن يلزم
الخوض فيهما بسبب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب وكل شريعة فلا تظهر إلا

بلغة فيعسر تعلم تلك اللغة آلة ومن الآلات علم كتابة الخط الا ان ذلك ليس ضروريا
اذ كان رسول الله صلى الله عليه وآله اميا ولو تصور استقلال الحفظ بجميع ما يسمع
لاستغنى عن الكتابة ولكنه صار بحكم العجز في الغالب ضروريا **الضرب الرابع**
المتممات وذلك في علم القرآن فانه ينقسم الى ما يتعلق باللفظ كعلم القراءات ومخارج
الحروف والى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير فان اعتماده ايضا على النقل اذ اللغة
بمجردها لا تستقل به والى ما يتعلق باحكامه كمعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص
والنص والظاهر وكيفية استعمال البعض منه مع البعض وهو العلم الذي يسمى
اصول الفقه ويتناول السنة ايضا **واما** المتممات في الاخبار والآثار
فالعلم بالرجال واساميهم وباسامي الصحابة وصفاتهم والعلم بالعدالة في الرواة
والعلم باحوالهم ليميز الضعيف عن القوي والعلم باعمارهم ليميز المرسل عن المسند
وكذلك ما يتعلق به فهذه هي العلوم الشرعية وكلها محمودة بل كلها من فروض
الكفايات **فان قلت** لم الحقت الفقه بعلم الدنيا والحقت الفقهاء بعلماء
الدنيا فاعلم ان الله تعالى اخرج آدم من التراب واخرج ذريته من سلالة من
طين ومن ماء دافق فاخرجهم من الاصلاب الى الارحام ومنها الى الدنيا ثم
الى القبر ثم الى العرض ثم الى الجنة او الى النار فهذا مبدأهم وهذه غايتهم وهذه
منازلهم وخلق الدنيا زادا للمعاد ليتناول منها ما يصلح للتزود فلو تناولوها
بالعدل انقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت
منها الخصومات فمست الحاجة الى سلطان يسوسهم واحتاج السلطان الى قانون يسوسهم
به فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق اذا تنازعوا بحكم
الشهوات فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده الى طريق سياسة الخلق وضبطهم لينتظم
باستقامتهم امورهم في الدنيا ولعمري هو متعلق ايضا بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة
الدنيا فان الدنيا مزرعة الآخرة ولا يتم الدين الا بالدنيا والملك والدين توأمان
والدين اصل والسلطان حارس وما لا اصل له فمهدوم وما لا حارس له فضائع ولا يتم
الملك والضبط الا بالسلطان وطريق الضبط في فصل الخصومات بالفقه وكما ان سياسة
الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين في الدرجة الاولى بل هو معين على ما لا يتم الدين

الا به فكذلك معرفة طريق السياسة فمعلوم ان الحج لا يتم الا ببذرقة تحرس
من العرب في الطريق ولكن الحج شيء وسلوك الطريق الى الحج شيء آخر والقيام بالحراسة
التي لا يتم الحج الا بها امر آخر ومعرفة طرق الحراسة وحيلها وقوانينها امر آخر وحاصل
فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة ويدل على ذلك ما روي مسندا لا يفتي الناس
الا ثلاثة امير او مأمور او متكلف فالامير هو الامام وقد كانوا هم المفتون والمأمور نائبه
والمتكلف غيرهما وهو الذي يتقلد تلك العهدة من غير حاجة وقد كان الصحابة يتحرزون
عن الفتوى حتى كان كل واحد منهم يحيل على صاحبه وما كانوا يتحرزون اذا سئلوا عن
علم القرآن وطريق الآخرة وفي بعض الروايات بدل المتكلف المرائي فان من تقلد خطر
الفتوى وهو غير متعين للحاجة فلا يقصد به الا طلب الجاه والمال فان قلت هذا ان
استقام لك في احكام الحدود والجراحات والغرامات وفصل الخصومات فلا يستقيم فيما
يشتمل عليه ربع العبادات من الصيام والصلوة ولا فيما يشتمل عليه ربع المعاملات من بيان
الحلال والحرام فاعلم ان اقرب ما يتكلم الفقيه فيه من الاعمال التي هي اعمال الآخرة ثلثة
الاسلام والصلوة والحلال والحرام فاذا تأملت منتهى نظر الفقيه علمت انه لا يجاوز حدود
الدنيا الى الآخرة واذا عرفت هذا في هذه الثلثة فهو في غيرها اظهر **اما الاسلام**
فيتكلم الفقيه فيما يصح منه وفيما يفسد وفي شروطه وليس يلتفت فيه الا الى اللسان واما
القلب فخارج عن ولاية الفقيه لعزل رسول الله صلى الله عليه ارباب السيوف والسلطنة
عنه حيث قال هلا شققت عن قلبه في الذي قتل من تكلم بكلمة الاسلام معتذرا بانه قال
ذلك من خوف السيف بل يحكم الفقيه بصحة الاسلام تحت ظلال السيوف مع انه يعلم ان
السيف لم يكشف له من شبهته ولم يرفع عن قلبه غشاوة الجهل والحيرة ولكنه مشير على صاحب
السيف فان السيف ممتد الى رقبته واليد ممتدة الى ماله وهذه الكلمة باللسان تعصم رقبته
وماله ما دامت له رقبة ومال وذلك في الدنيا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله
امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم
واموالهم جعل اثر ذلك في الدم والمال واما الآخرة فلا ينفع فيها الاقوال بل انوار القلوب
واسرارها واخلاقها وليس ذلك من فن الفقه وان خاض الفقيه فيه كان كما لو خاض في
الكلام او الطب وكان خارجا عن فنه **واما الصلوة** فالفقيه يفتي بالصحة اذا اتى

بصورة الاعمال مع ظاهر الشروط فان كان غافلا في جميع صلوته من اولها الى آخرها مشغولا
بالتفكر في حساب معاملاته في السوق الا عند التكبير فهذه الصلوة لا تنفع في الاخرة كما
ان القول باللسان في الاسلام لا ينفع ولكن الفقيه يفتي بالصحة اي ان ما فعله حصل به
امتثال صيغة الامر وانقطع به عنه القتل والتعزير فاما الخشوع واحضار القلب الذي هو عمل
الاخرة وبه ينفع العمل الظاهر لا يتعرض له الفقيه ولو تعرض له لكان خارجا عن فنه واما الزكوة
فالفقيه ينظر الى ما يقطع مطالبة السلطان حتى انه اذا امتنع فاخذها السلطان منه قهرا حكم بانه
برئت ذمته وقد حكي ان ابا يوسف كان يهب ماله لزوجته آخر الحول ويستوهب مالها
لاسقاط الزكوة فحكي ذلك لابي حنيفة فقال ذلك من فقهه وصدق فان ذلك من فقه الدنيا
ولكن مضرته في الاخرة اعظم من كل جناية ومثل هذا هو العلم الضار واما الحلال والحرام فالورع
من الحرام من الدين ولكن الورع له اربع مراتب الاولى الورع الذي يشترط في عدالة الشهادة
وهو الذي يخرج بتركه الانسان عن اهلية الشهادة والقضا والولاية وهو الاحتراز عن الحرام
الظاهر الثانية ورع الصالحين وهو التوقي من الشبهات التي يتقابل فيها الاحتمالات قال
عليه السلام دع ما يريبك الى ما لا يريبك وقال الاثم حزاز القلوب الثالثة ورع المتقين
وهو ترك الحلال المحض الذي يخاف منه اداؤه الى الحرام قال عليه السلام لا يكون الرجل من المتقين
حتى يدع ما لا باس به مخافة مما به باس وذلك مثل التورع عن التحدث باحوال الناس خيفة من
الانجرار الى الغيبة والتورع عن اكل الشهوات خيفة من هيجان النشاط والبطر المودي الى
مقارفة المحظورات الرابعة ورع الصديقين وهو الاعراض عما سوى الله خوفا من صرف
ساعة من العمر الى ما لا يفيد زيادة قرب عند الله وان كان يعلم ويتحقق انه لا يفضي الى حرام
فهذه الدرجات كلها خارجة عن نظر الفقيه الا الدرجة الاولى وهي ورع الشهود والقضاة
وما يقدح في العدالة والقيام بذلك لا ينفي الاثم في الاخرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوابصة استفت
قلبك وان افتوك وان افتوك وان افتوك والفقيه لا يتكلم في حزازات القلوب وكيفية
العمل بها بل فيما يقدح في العدالة فقط فاذن جميع نظر الفقيه مرتبط بالدنيا التي بها صلاح
طريق الاخرة فان تكلم في الاثم وصفات القلب واحكام الاخرة فذلك يدخل في كلامه على سبيل
التطفل كما قد يدخل في كلامه شيء من الطب والحساب والنحو والنجوم وعلم الكلام وكما يدخل
الحكمة في النحو والشعر وقد كان سفيان الثوري وهو امام في علم الظاهر يقول ان طلب هذا

هذا ليس من زاد الاخرة كيف وقد اتفقوا على ان الشرف في العلم العمل به فكيف يظن ان
علم اللعان والظهار والسلم والاجارة والصرف ومن تعلم هذه الامور ليتقرب بها
الى الله تعالى فهو مجنون وانما العمل بالقلب والجوارح في الطاعات والشريف هو علم تلك
الاعمال فان قلت فقد سويت بين الفقه والطب اذ الطب ايضا يتعلق بالدنيا وهو
صحة الجسد وذلك يتعلق به ايضا صلاح الدين وهذه التسوية تخالف اجماع المسلمين
فاعلم ان التسوية غير لازمة بل بينهما فرق فان الفقه اشرف منه من ثلثة وجوه احدها
انه علم شرعي اي هو مستفاد من النبوة بخلاف الطب فانه ليس من علم الشرع والثاني
انه لا يستغني عنه احد من سالكي طريق الاخرة البتة لا الصحيح ولا المريض واما الطب فلا
يحتاج اليه الا المرضى وهم الاقلون والثالث ان علم الفقه مجاور لعلم طريق الاخرة
لانه نظر في اعمال الجوارح ومصدر الاعمال ومنشاها صفات القلوب فالمحمود من الاعمال
يصدر من الاخلاق المحمودة المنجية في الاخرة والمذموم يصدر عن المذموم وليس يخفى
اتصال الجوارح بالقلب واما الصحة والمرض فمنشاهما صفات في المزاج والاخلاط وذلك
من اوصاف البدن لا من اوصاف القلب فمهما اضيف الفقه الى الطب ظهر شرفه واذا
اضيف علم طريق الاخرة الى الفقه ظهر ايضا شرف علم الاخرة فان قلت فصل لي علم الاخرة
تفصيلا يشير الى تراجمه وان لم يمكن استقصا تفاصيله فاعلم انه قسمان علم مكاشفة
وعلم معاملة وعلم المكاشفة هو علم الباطن وذلك غاية العلوم فقد قال بعض العارفين
من لم يكن له نصيب من هذا العلم اخاف عليه سوء الخاتمة وادنى النصيب منه التصديق
وتسليمه لاهله وقال آخر من كان فيه خصلتان لم يفتح له بشيء من هذا العلم بدعة او كبر
وقيل من كان محبا للدنيا او مصرا على هوى لم يتحقق به وقد يتحقق بسائر العلوم واقل
عقوبة من ينكره ان لا يذوق منه شيئا وهو علم الصديقين والمقربين اعني علم المكاشفة
فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة وينكشف من ذلك
النور امور كان يسمع من قبل اسماءها فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة فتتضح اذ ذاك
حتى يحصل المعرفة الحقيقية بذات الله وبصفاته الباقيات التامات وبافعاله وبحكمه
في خلق الدنيا والاخرة ووجه ترتيبه الاخرة على الدنيا والمعرفة بمعنى النبوة والنبي و
معنى الوحي ومعنى لفظ الملائكة والشياطين وكيفية معاداة الشيطان للانسان وكيفية

ظهور الملك للانبياء وكيفية وصول الوحي اليهم والمعرفة بملكوت السموات والارض ومعرفة
القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان
ومعرفة الاخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب ومعنى قوله تعالى
كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ومعنى قوله وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون
ومعنى لقاء الله والنظر الى وجهه الكريم ومعنى القرب منه والنزول في جواره ومعنى حصول السعادة
بمرافقة الملأ الاعلى ومقارنة الملائكة والنبيين ومعنى تفاوت درجات اهل الجنان حتى
يرى بعضهم بعضا كما يرى الكوكب الدري في جو السماء الى غير ذلك مما يطول تفصيله اذ للناس
في معاني هذه الامور بعد التصديق باصولها مقامات فبعضهم يرى ان جميع ذلك امثلة
ان الذي اعد الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وانه
ليس مع الخلق من الجنة الا الصفات والاسماء وبعضهم يرى ان بعضها امثلة وبعضها يوافق
حقائقها المفهومة من الفاظها وكذا يرى بعضهم ان منتهى معرفة الله الاعتراف بالعجز عن
معرفته وبعضهم يدعي امورا عظيمة في المعرفة بالله تعالى وبعضهم يقول حد معرفة الله ما انتهى
اليه اعتقاد جميع العوام وهو انه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم فنعني بعلم المكاشفة ان
يرتفع الحجاب حتى تتضح جلية الحق في هذه الامور اتضاحا يجري مجرى العيان الذي لا
يشك فيه وهذا ممكن في جوهر الانسان لولا ان مرآة القلب قد تراكم صداها وخبثها بقاذورات
الدنيا وانما نعني بعلم طريق الآخرة العلم بكيفية تصقيل هذه المرآة عن هذه الاخباث التي
هي الحجاب عن الله وعن معرفة صفاته وافعاله وانما تصفيته وتطهيره بالكف عن الشهوات
والاقتداء بالانبياء في جميع احوالهم فبقدر ما ينجلي من القلب ويحاذى به شطر الحق يتلألأ
فيه حقائقه ولا سبيل اليه الا بالرياضة التي يأتي تفصيلها في موضعه وبالتعلم وهذه هي
العلوم التي لا تسطر في الكتب ولا يتحدث بها من انعم الله عليه بشيء منها الا مع اهله وهو
المشارك فيه على سبيل المذاكرة وبطريق الاسرار وهذا العلم الخفي هو الذي اراده النبي
صلى الله عليه وسلم بقوله ان من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه الا اهل المعرفة بالله فاذا
نطقوا به لم ينكره الا اهل الاغترار بالله فلا تحقروا عالما آتاه الله علما فان الله لم يحقره
اذ آتاه العلم واما القسم الثاني وهو علم المعاملة فهو علم احوال القلب اما ما يحمد منها
فكالصبر والشكر والخوف والرجاء والرضا والزهد والتقوى والقناعة ومعرفة المنة

المنة لله تعالى في جميع الاحوال والاحسان وحسن الظن وحسن الخلق وحسن المعاشرة والصدق
والاخلاص فمعرفة حقائق هذه الاحوال وحدودها واسبابها التي بها تكتسب وثمرتها
وعلاماتها ومعالجة ما ضعف منها حتى يقوى وما زال حتى يعود من علم الآخرة واما
ما يذم فخوف الفقر وسخط المقدور والغل والحسد والحقد والغش وطلب العلو وحب
الثناء وحب طول البقاء في الدنيا للتمتع والكبر والرياء والغضب والانفة والعداوة
والبغضاء والطمع والبخل والرغبة والبذخ والاشر والبطر وتعظيم الاغنياء والاستهانة
بالفقراء والفخر والخيلاء والتنافس والمباهاة والاستكبار عن الحق والخوض فيما لا يعني
وحب كثرة الكلام والصلف والتزين للخلق والمداهنة والعجب والاشتغال عن عيوب
النفس بعيوب الناس وزوال الحزن من القلب وخروج الخشية منه وشدة الانتصار للنفس
اذا نالها ذل وضعف الانتصار للحق واتخاذ اخوان العلانية على عداوة السر والامن من
مكر الله في سلب ما اعطى والاتكال على الطاعة والمكر والخيانة والمخادعة وطول الامل والقسوة
والفظاظة والفرح بالدنيا والاسف على فواتها والانس بالمخلوقين والوحشة لفراقهم
والجفاء والطيش والعجلة وقلة الحياء وقلة الرحمة فهذه وامثالها من صفات القلب مغارس
الفواحش ومنابت الاعمال المحظورة واضدادها وهي الاخلاق المحمودة منبع الطاعات
والقربات فالعلم بحدود هذه الامور وحقائقها واسبابها وثمرتها وعلاجها هو علم الآخرة
وهو فرض عين في فتوى علماء الآخرة والمعرض عنها هالك بسطوة ملك الملوك في الآخرة
كما ان المعرض عن الاعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا بحكم فتوى فقهاء الدنيا
فنظر الفقهاء في فرض العين بالاضافة الى صلاح الدنيا وهذه بالاضافة الى صلاح الآخرة
ولو سئل فقيه عن معنى من هذه المعاني حتى عن الاخلاص مثلا او عن التوكل او عن وجه
الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه مع انه فرض عينه الذي في اهماله هلاكه في الآخرة ولو سألته
عن اللعان والظهار والسبق والرمي لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي
تنقضي الدهور ولا يحتاج الى شيء منها فان احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة
التعب فيها فلا يزال يتعب فيها ليلا ونهارا في حفظها ودرسها ويغفل عما هو مهم نفسه
في الدين واذا روجع فيه قال اشتغلت به لانه علم الدين وفرض الكفاية ويلبس على
نفسه وعلى غيره في تعلمه والفطن يعلم انه لو كان غرضه اداء حق الامر في فرض الكفاية لقدم

عليه فرض العين بل قدم عليه كثيرا من فروض الكفايات فكم من بلد ليس فيه طبيب الا من
اهل الذمة ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالاطباء من احكام الفقه ثم لا نرى احدا
يشتغل به ويتهاترون على علم الفقه لا سيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون
من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين
في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة واهمال ما لا قائم به هل لهذا سبب الا
ان الطب ليس يتيسر التوصل به الى تولي الاوقاف والوصايا والولاية وحيازة
مال الايتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الاقران والتسلط به على الاعداء
هيهات هيهات قد اندرس علم الدين بتلبيس علماء السوء فالله المستعان واليه
الملاذ في ان يعيذنا من هذا الغرور الذي يسخط الرحمن ويضحك الشيطان وقد
كان اهل الورع من علماء الظاهر مقرين بفضل علماء الباطن وارباب القلوب
كان الشافعي يجلس بين يدي شيبان الراعي كما يجلس الصبي في المكتب ويسأله كيف
يفعل في كذا وكذا فيقال له مثلك يسأل هذا البدوي فيقول ان هذا وفق
لما اغفلناه وكان احمد بن حنبل ويحيى بن معين يختلفان الى معروف الكرخي ولم
يكن في علم الظاهر بمنزلتهما وكانا يسألانه وكيف وقد قال النبي صلعم لما قيل له كيف
نفعل اذا جاءنا امر لم نجده في كتاب الله ولا سنة رسوله فقال سلوا الصالحين
واجعلوه شورى بينهم ولذلك قيل علماء الظاهر زينة الارض والملك وعلماء
الباطن زينة السماء والملكوت وقال الجنيد قال لي السري شيخي يوما اذا قمت من عندي
فمن تجالس فقلت المحاسبي فقال نعم خذ من علمه وادبه ودع عنك تشقيقه
للكلام ورده على المتكلمين ثم لما وليت سمعته يقول جعلك الله صاحب حديث
اشار الى ان من حصل الحديث والعلم ثم تصوف افلح ومن تصوف قبل العلم خاطر
بنفسه فان قلت لم تورد في اقسام العلوم الكلام والفلسفة ولم تبين انهما
مذمومان او محمودان فاعلم ان حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الادلة التي
ينتفع بها فالقران والاخبار مشتمل عليه وما خرج عنهما فهو اما مجادلة مذمومة وهي من
البدع كما سيأتي بيانه واما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق وتطويل بنقل
المقالات التي اكثرها ترهات وهذيانات تزدريها الطباع وتمجها الاسماع وبعضها

صوفيا ولا جعلك صوفيا صاحب حديث

وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفا في العصر الاول وكان
الخوض فيه بالكلية من البدع ولكن تغير الآن حكمه اذ حدثت البدع الصارفة عن مقتضى
القران والسنة ونبغت جماعة لفقوا لها شبها ورتبوا فيها كلاما مؤلفا فصار ذلك
المحذور بحكم الضرورة مأذونا فيه بل صار من فروض الكفايات وهو القدر الذي
يقابل به المبتدع اذا قصد الدعوة الى البدعة وذلك الى حد محدود سنذكره في
الباب الذي يلي هذا واما الفلسفة فليست علما برأسها بل هي اربعة اجزاء احدها
الهندسة والحساب وهما مباحان كما سبق ولا يمنع منهما الا من يخاف عليه ان يتجاوز بهما الى
العلوم المذمومة فان اكثر الممارسين لهما قد خرجوا منهما الى البدع فيصان الضعيف عنهما
لا لعينهما كما يصان الصبي عن شاطئ النهر خيفة من الوقوع في النهر وكما يصان حديث
العهد بالاسلام عن مخالطة الكفار خوفا عليه مع ان القوي لا يندب الى مخالطتهم
والثاني المنطق وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه ووجه الحد وشروطه وهما داخلان
في علم الكلام والثالث الالهيات وهو بحث عن ذات الله وصفاته وهو داخل في
الكلام والفلاسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم بل انفردوا بمذاهب بعضها كفر و
بعضها بدعة وكما ان الاعتزال ليس علما برأسه بل اصحابه طائفة من المتكلمين واهل
البحث والنظر وانفردوا بمذاهب باطلة فكذا الفلاسفة والرابع الطبيعيات وبعضها
مخالف للشرع والدين الحق فهو جهل وليس بعلم حتى نورده في اقسام العلوم وبعضها
بحث عن صفات الاجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها وهو شبيه بنظر
الاطباء الا ان الطبيب ينظر في بدن الانسان على الخصوص من حيث يمرض ويصح وهم ينظرون
في جميع الاجسام من حيث تتغير وتتحرك ولكن للطب فضل عليه وهو انه محتاج اليه واما
علومهم في الطبيعيات فلا حاجة اليها فاذن الكلام صار من جملة الصناعات الواجبة على
الكفاية حراسة لقلوب العوام من تخيلات المبتدعة وانما حدث ذلك بحدوث البدع
كما حدثت حاجة استئجار البذرقة في طريق الحج بحدوث ظلم العرب وقطعهم الطريق
ولو ترك العرب عدوانهم لم يكن استئجار الحراس من شروط طريق الحج فكذلك لو ترك
المبتدع هذيانه لما افتقر الى الزيادة على ما عهد في عصر الصحابة وليعلم المتكلم حده من
الدين وان موقعه منه موقع الحارس في طريق الحج فان تجرد الحارس للحراسة لم يكن

الحاج والمتكلم ان تجرد للمناظرة والمدافعة ولم يسلك طريق الاخرة ولم يشتغل بتعهد القلب
واصلاحه لم يكن من جملة علماء الدين اصلا وليس عند المتكلم من الدين الا العقيدة التي
يشاركه سائر العوام فيها وهي من جملة اعمال ظاهر القلب واللسان وانما يتميز عن العامي بصنعة
المجادلة والحراسة فاما معرفة الله وصفاته وافعاله وجميع ما اشرنا اليه في علم المكاشفة فلا
يحصل من علم الكلام بل يكاد ان يكون الكلام حجابا عليه ومانعا منه وانما الوصول اليها بالمجاهدة
التي جعلها الله سبحانه مقدمة للهداية حيث قال والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا

الباب الثالث

فيما تعده العامة من العلوم المحمودة وليس منها وبيان الوجه الذي
يكون به بعض العلوم مذموما وبيان تبديل اسامي العلوم وهي العلم والفقه والتوحيد
والتذكير والحكمة وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم منها بيان
علة ذم العلم المذموم لعلك تقول العلم هو معرفة الشيء المعلوم على ما هو به وهو من
صفات الله سبحانه فكيف يكون الشيء علما ويكون مع كونه علما مذموما فاعلم ان العلم
لا يذم لعينه وانما يذم في حق العباد لاحد اسباب ثلثة الاول ان يكون مؤديا الى ضرر
ما اما لصاحبه واما لغيره كما يذم علم السحر والطلسمات وهو حق اذ شهد القران له وانه سبب يتوصل به
الى التفرقة بين الزوجين وقد سحر رسول الله صلعم ومرض بسببه حتى اخبره جبريل بذلك
واخرج السحر من تحت حجر في قعر بئر وهو نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر وبامور
حسابية في مطالع النجوم فيتخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور ويترصد له وقت
مخصوص من المطالع ويقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع ويتوصل بسببها
الى الاستعانة بالشياطين ويحصل من مجموع ذلك بحكم اجراء الله العادة احوال غريبة في الشخص
المسحور ومعرفة هذه الاسباب من حيث انها معرفة ليست مذمومة ولكنها ليست تصلح الا
للاضرار بالخلق والوسيلة الى الشر شر فكان هو السبب في كونه مذموما بل من اتبع وليا من
اولياء الله ليقتله وقد اختفى منه في موضع حريز اذا سال الظالم عن محله لم يجز تنبيهه عليه بل وجب
الكذب فيه وذكر موضعه ارشاد وافادة علم بالشيء على ما هو عليه ولكنه مذموم لادائه الى
الضرر الثاني قسمان قسم حسابي وقد نطق القران بان سير الكواكب محسوب اذ قال تعالى
الشمس والقمر بحسبان وقال والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم والثاني
الاحكام وحاصله يرجع الى الاستدلال على الحوادث بالاسباب وهو يضاهي استدلال الطبيب بالنبض

بالنبض على ما سيحدث من المرض وهو معرفة لمجاري سنة الله تعالى وعادته في خلقه ولكن قد ذمه
في الشرع قال رسول الله صلعم اذا ذكر القدر فامسكوا واذا ذكر النجوم فامسكوا واذا ذكر اصحابي فامسكوا
وقال صلعم اخاف على امتي بعدي ثلثا حيف الائمة والايمان بالنجوم والتكذيب بالقدر وقال
عمر تعلموا من النجوم ما تهتدوا به في البر والبحر ثم امسكوا وانما زجر عنه من ثلثة اوجه احدها انه
مضر باكثر الخلق فانه اذا القي اليهم ان هذه الاثار تحدث عقيب سير الكواكب وقع في نفوسهم ان
الكواكب هي المؤثرة وانها الالهة المدبرة لانها جواهر شريفة سماوية ويعظم وقعها في القلوب فيبقى القلب
ملتفتا اليها ويرى الخير والشر محذورا او مرجوا من جهتها وينمحي ذكر الله سبحانه عن القلب فان الضعيف
يقصر نظره على الوسائط والعالم الراسخ هو الذي يطلع على ان الشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره سبحانه
ومثال نظر الضعيف الى حصول ضوء الشمس عقيب طلوع الشمس مثال النملة لو خلق لها عقل وكانت
على سطح قرطاس وهي تنظر الى سواد الخط يتجدد فتعتقد انه فعل القلم ولا ترتقي في نظرها الى الاصابع ثم
منها الى اليد ثم منها الى الارادة المحركة لليد ثم منها الى الكاتب القادر المريد ثم منه الى خالق اليد
والقدرة والارادة فاكثر نظر الخلق مقصور على الاسباب القريبة السافلة مقطوع عن الترقي الى مسبب
الاسباب هذا احد اسباب النهي عن النجوم وثانيها ان احكام النجوم تخمين محض ليس يدرك
في حق الاشخاص لا يقينا ولا ظنا فالحكم به حكم بجهل فيكون ذمه على هذا من حيث انه جهل لا
من حيث انه علم فلقد كان ذلك معجزة لادريس عليه السلام فيما يحكى وقد اندرس ذلك العلم وانمحى وما يتفق من
اصابة المنجم على ندور فهو اتفاق لانه قد يطلع على بعض الاسباب ولا يحصل المسبب عقيبها الا
بعد شروط كثيرة ليس في قدرة البشر الاطلاع عليها فان اتفق ان قدر الله تعالى بقية الاسباب وقعت
الاصابة وان لم يقدر اخطأ ويكون ذلك كتخمين الانسان في ان السماء تمطر اليوم مهما راى الغيم يجتمع
وينبعث من الجبال فيتحرك ظنه بذلك وربما يحمى النهار بالشمس ويذهب الغيم وربما يكون بخلافه
ومجرد الغيم ليس كافيا في مجيء المطر وبقية الاسباب لا تدرى وكذلك تخمين الملاح ان السفينة
تسلم اعتمادا على ما الفه من العادة في الرياح ولتلك الرياح اسباب خفية هو لا يطلع عليها
فتارة يصيب في تخمينه وتارة يخطئ ولهذه العلة يمنع القوي عن النجوم ايضا وثالثها انه لا فائدة
فيه فاقل احواله انه خوض في فضول لا يغني وتضييع العمر الذي هو انفس بضاعة الانسان
في غير فائدة وهو غاية الخسران فقد مر رسول الله صلعم برجل والناس مجتمعون عليه فقال ما هذا
قالوا رجل علامة فقال بماذا قالوا بالشعر وانساب العرب فقال علم لا ينفع وجهل لا يضر وقال

انما العلم آية محكمة او سنة قائمة او فريضة عادلة فاذن الخوض في النجوم وما يشبهه اقتحام خطر
وخوض في جهالة من غير فائدة فان ما قدر كائن والاحتراز منه غير ممكن بخلاف الطب فان الحاجة
اليه ماسة واكثر ادلته مما يطلع عليه وبخلاف التعبير وان كان تخمينا لانه جزء من ستة واربعين
جزءا من النبوة ولا خطر فيه السبب الثالث الخوض في علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم فهذا مذموم
في حقه كتعلم دقيق العلوم قبل جليها وكالبحث عن اسرار الالهية اذ تطلع الفلاسفة والمتكلمون
اليها ولم يستقلوا بها ولم يستقل بها وبمعرفة طرق بعضها الا الانبياء والاولياء فيجب كف
الناس عن البحث عنها وردهم الى ما نطق به الشرع ففي ذلك مقنع للموفق فكم من شخص خاض
في العلوم واستضر بها ولو لم يخض فيها لكان حاله احسن في الدين مما صار اليه ولا ينكر
كون العلم ضارا لبعض الناس كما يضر لحم الطير وانواع الحلاوة اللطيفة بالطفل الرضيع بل رب
شخص ينفعه الجهل ببعض الامور فلقد حكي ان بعض الناس شكى الى طبيب عقم زوجته وانها لا تلد فجس
الطبيب نبضها وقال لها لا حاجة بك الى دواء الولادة فانك ستموتين الى اربعين يوما وقد دل
النبض عليه فاستشعرت المرأة خوفا عظيما وتنغص عليها عيشها واخرجت اموالها وفرقتها
واوصت وبقيت لا تاكل ولا تشرب حتى انقضت المدة فلم تمت فجاء زوجها الى الطبيب وقال
لم تمت فقال الطبيب علمت ذلك فجامعها الآن فانها تلد فقال كيف ذلك قال رايتها سمينة
وقد انعقد الشحم على فم رحمها فعلمت انها لا تهزل الا بخوف الموت فخوفتها بذلك حتى هزلت
وزال المانع من الولادة فهذا ينبهك على استشعار خطر بعض العلوم ويفهمك معنى قوله صلى الله عليه وسلم
نعوذ بالله من علم لا ينفع فاعتبر بهذه الحكاية ولا تكن بحاثا عن علوم ذمها الشرع وزجر عنها
ولازم الاقتداء بالصحابة واقتصر على اتباع السنة فالسلامة في الاتباع والخطر في البحث و
الاستقلال ولا تكثر اللهج برأيك ومعقولك ودليلك وبرهانك وزعمك اني ابحث عن
الاشياء لاعرفها على ما هي عليه فاي ضرر في التفكر في العلم فان ما يعود عليك من ضرره اكثر
وكم من شيء تطلع عليه فيضرك اطلاعك عليه ضررا يكاد يهلكك في الآخرة ان لم يتداركك الله برحمته
واعلم انه كما يطلع الطبيب الحاذق على اسرار في المعالجات يستبعدها من لا يعرفها فكذلك الانبياء
اطباء القلوب والعلماء باسباب الحياة الاخروية فلا تتحكم على سننهم بمعقولك فتهلك فكم من
شخص يصيبه عارض في اصبعه فيقتضي عقله ان يطليها حتى ينبهه الطبيب الحاذق ان علاجه
ان يطلي الكف من الجانب الآخر من البدن فيستبعد ذلك غاية الاستبعاد من حيث لا يعلم كيفية

كيفية انشعاب الاعصاب ومنابتها ووجه التفافها على البدن فهكذا الامر في طريق الآخرة وفي
دقايق سنن الشرع وآدابه وفي عقايده التي تعبد الناس بها اسرار ولطايف ليست في سعة العقل
ولا في قوته الاحاطة بها كما ان في خواص الاحجار امورا عجائب غاب عن اهل الصنعة علمها حتى لم يقدر احد
على ان يعرف السبب الذي به يجذب المغناطيس الحديد فالعجايب والغرايب في العقايد و
الاعمال وافادتها لصفاء القلوب ونقائها وطهارتها وتزكيتها واصلاحها للترقي الى جوار الله
وتعرضها لنفحات فضله اكثر واعظم مما في الادوية والعقاقير وكما ان العقول تقصر عن
ادراك منافع الادوية مع ان التجربة سبيل اليها فالعقول تقصر عن ادراك ما ينفع في حياة
الآخرة مع ان التجربة غير متطرقة اليها وانما كانت التجربة متطرقة الى الله زلفى وعن الاعمال
فاخبرنا عن الاعمال المقبولة النافعة المقربة الى الله زلفى وعن الاعمال المبعدة عنه وكذا عن
العقايد وذلك لا يطمع فيه فيكفيك من منفعة العقل ان يهديك الى صدق النبي ويفهمك
موارد اشاراته فاعزل العقل بعد ذلك عن التصرف ولازم الاتباع فلا تسلم الا به و
لذلك قال صلى الله عليه وسلم ان من العلم جهلا وان من القول عيا ومعلوم ان العلم لا يكون
جهلا ولكنه يؤثر تاثير الجهل في الاضرار وقال ايضا قليل من التوفيق خير من كثير العلم وقال
عيسى عليه السلام ما اكثر الشجر وليس كلها بمثمر وما اكثر الثمر وليس كلها بطيب وما اكثر العلوم وليس
كلها بنافع بيان ما بدل من الفاظ العلوم اعلم ان منشأ التباس العلوم المذمومة
بالعلوم الشرعية تحريف الاسامي المحمودة وتبديلها ونقلها بالاغراض الفاسدة الى معان
غير ما اراده السلف الصالح والقرن الاول وهي خمسة الفاظ الفقه والعلم والتوحيد
والتذكير والحكمة فهذه اسامي محمودة والمتصفون بها ارباب المناصب في الدين ولكنها نقلت
الآن الى معان مذمومة فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع
اطلاق هذه الاسامي عليهم اللفظ الاول الفقه فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل
والتحويل اذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقوف على دقايق عللها
واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها فمن كان اشد تعمقا فيها واكثر
اشتغالا بها يقال هو الافقه ولقد كان اسم الفقه في العصر الاول مطلقا على علم طريق
الآخرة ومعرفة دقايق آفات النفوس ومفسدات الاعمال وقوة الاحاطة بحقارة
الدنيا وشدة التطلع الى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب ويدلك عليه قوله تعالى

اليها لو رجع الينا بعض

ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم وما به الإنذار والتخويف هو هذا
الفقه دون تفريعات الطلاق واللعان والسلم والإجارة فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف
بل التجرد له على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد من المتجردين له وقال تعالى
لهم قلوب لا يفقهون بها وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى ولعمري إن الفقه والفهم في
اللغة اسمان بمعنى واحد وإنما يتكلم في عادة الاستعمال به قديما وحديثا قال تعالى لأنتم أشد
رهبة في صدورهم من الله الآية فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم
سطوة الخلق على قلة الفقه فانظر إن كان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوى أو هو نتيجة عدم
ما ذكرناه من العلوم وقال عليه السلام علماء حكماء فقهاء للذين وفدوا عليه وسئل سعد بن
إبراهيم أي أهل المدينة أفقه فقال أتقاهم فكأنه أشار إلى ثمرة الفقه والتقوى ثمرة العلم
الباطن دون الفتاوى والأقضية وقال عليه السلام ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه قالوا بلى قال من
لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤمنهم من مكر الله ولم يؤيسهم من روح الله ولم يدع القرآن
رغبة عنه إلى ما سواه ولما روى أنس بن مالك قوله عليه السلام لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى
من غدوة إلى طلوع الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب قال فالتفت إلى يزيد الرقاشي
وزياد النميري وقال لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه يقص أحدكم ويخطب على أصحابه ويسرد
الحديث سردا إنما كنا نقعد فنذكر الإيمان ونتدبر القرآن ونتفقه في الدين ونعدد نعم الله
علينا فسمى تدبر القرآن وعد النعم تفقها وقال عليه السلام لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس
في ذات الله وحتى يرى للقرآن وجوها كثيرة وروي أيضا موقوفا على أبي الدرداء مع قوله
ثم يقبل على نفسه فيكون لها أشد مقتا وسأل فرقد السبخي الحسن عن شيء فأجابه فقال إن الفقهاء
يخالفونك فقال الحسن ثكلتك أمك فريقد وهل رأيت فقيها بعينك إنما الفقيه الزاهد
في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الورع الكاف عن أعراض
المسلمين العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم ولم يقل في جميع ذلك الحافظ لفروع الفتاوى
ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناولا للفتاوى في الأحكام الظاهرة ولكن كان بطريق
العموم والشمول أو بطريق الاستتباع وكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر فبان من
هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرد له والإعراض عن علم الآخرة وأحكام القلب ووجدوا
على ذلك معينا من الطبع فإن علم الباطن غامض والعمل به عسير والتوصل به إلى طلب الولاية

والقضاء والجاه والمال متعسر فوجد الشيطان مجالا لتحسين ذلك في القلوب
بواسطة تخصيص اسم الفقه الذي هو اسم محمود في الشرع **اللفظ الثاني العلم** وقد كان
يطلق على العلم بالله وبآياته وأفعاله في عباده وخلقه وقد تصرفوا فيه أيضا بالتخصيص حتى
شهروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها فيقال
هو العالم بالحقيقة وهو الفحل في العلم ومن لا يمارس ذلك ولا يشتغل به يعد من جملة
الضعفاء ولا يعدونه في زمرة أهل العلم وهذا أيضا تصرف بالتخصيص ولكن ما ورد
من فضائل العلم والعلماء أكثره في العلماء بالله وبأحكامه وبأفعاله وصفاته وقد صار الآن
يطلق على من لا يحيط من علوم الشرع بشيء سوى رسوم جدلية في مسائل خلافية فيعد
بذلك من فحول العلماء مع جهله بالتفسير والأخبار وعلم المذهب وغيره وصار
ذلك سببا مهلكا لخلق كثير من طلبة العلم **اللفظ الثالث التوحيد** وقد جعل الآن
عبارة عن صناعة الكلام ومعرفة طريق المجادلة والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم
والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات وتأليف الإلزامات حتى
لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد وسمي المتكلمون العلماء بالتوحيد مع أن
جميع ما هو خاصية هذه الصناعة لم يكن يعرف منه شيء في العصر الأول بل كان يشتد
النكير منهم على من يفتح بابا من الجدل والمماراة فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة
الظاهرة التي تسبق الأذهان إلى قبولها في أول السماع فلقد كان ذلك معلوما للكل
وكان العلم بالقرآن هو العلم كله وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر
المتكلمين وإن فهموه لم يتصفوا به وهو أن يرى الأمور كلها من الله رؤية تقطع التفاته
عن الأسباب والوسائط فلا يرى الخير والشر كله إلا منه فهذا مقام شريف إحدى ثمراته
التوكل كما سيأتي بيانه في كتاب التوكل ومن ثمراته ترك شكاية الخلق وترك الغضب عليهم
والرضا والتسليم لحكم الله تعالى وأن يعبده عبادة يفرده بها فلا يعبد غيره ويخرج عن هذا
التوحيد اتباع الهوى فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده قال صلى الله عليه وآله
أبغض إله عبد في الأرض عند الله هو الهوى وعلى التحقيق من تأمل عرف أن عابد الصنم
ليس يعبد الصنم إنما يعبد هواه إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل ويخرج من
هذا التوحيد التسخط على الخلق والالتفات إليهم فإن من يرى الكل من الله كيف يتسخط

على غيره فذلك التوحيد وعبارة عن هذا المقام وهو من مقامات الصديقين فانظر
الى ماذا حول وباي قشر قنع وكيف اتخذ هذا معتصما في التمدح والتفاخر بما اسمه محمود مع
الافلاس عن المعنى الذي يستحق الحمد الحقيقي وذلك كافلاس من يصبح بكرة ويتوجه الى القبلة
ويقول وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض وهو اول كذب يفاتح الله تعالى به
كل يوم ان لم يكن وجه قلبه متوجها الى الله على الخصوص فانه ان اراد بالوجه وجه الظاهر
فما وجهه الا الى الكعبة وما صرفه الا عن سائر الجهات والكعبة ليست جهة للذي فطر السموات
والارض حتى يكون المتوجه اليها متوجها اليه تعالى وان اراد به وجه القلب وهو المطلوب
المتعبد به فكيف يصدق قوله وقلبه متردد في اوطاره وحاجاته الدنيوية ومتصرف في
طلب الحيل في جمع المال والجاه واستكثار الاسباب ومتوجه بالكلية اليها فمتى وجه وجهه للذي
فطر السموات والارض قال الله تعالى قل الله ثم ذرهم وليس المراد به القول باللسان انما اللسان
ترجمان يصدق مرة ويكذب اخرى فانما موقع نظر الله تعالى هو المترجم عنه وهو القلب الذي هو
معدن التوحيد ومنبعه **اللفظ الرابع** الذكر والتذكير فقد قال الله تعالى فذكر فان
الذكرى تنفع المؤمنين وقد ورد في الثناء على مجالس الذكر اخبار كثيرة كقوله عليه السلام
اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها قيل وما رياض الجنة قال مجالس الذكر وفي الحديث
ان لله ملائكة سياحين في الهوا سوى ملائكة الخلق اذا راوا مجالس الذكر ينادي
بعضهم بعضا الا هلموا الى بغيتكم فياتونهم ويحفون بهم ويستمعون الا فاذكروا الله وذكروا
انفسكم فنقل ذلك الى ما ترى اكثر الوعاظ في هذا الزمان يواظبون عليه وهو القصص
والاشعار والشطح والطامات اما القصص فهو بدعة وقد ورد نهي السلف عن الجلوس الى
القصاص وقالوا لم يكن ذلك في زمان رسول الله صلعم ولا في زمان ابي بكر وعمر حتى ظهرت
الفتنة فظهر القصاص واخرج علي عليه السلام القصاص من مسجد البصرة فلما سمع كلام الحسن البصري
لم يخرجه اذ كان يتكلم في علم الاخرة والتفكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وافات
الاعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها ويذكر بالاء الله ونعمائه وتقصير العبد في شكره
ويعرف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرمها وقلة عهدها وخطر الاخرة واهوالها فهذا
هو التذكير المحمود شرعا الذي ورد الحث عليه في حديث ابي ذر حيث قال حضور مجلس ذكر
افضل من صلاة الف ركعة وحضور مجلس علم افضل من شهود الف جنازة فقيل يا رسول الله

التمدح م
مجالس م

ومن قراءة القرآن فقال وهل ينفع قراءة القرآن الا بالعلم واما الاشعار فتكثيرها في المواعظ مذموم
قال الله تعالى والشعراء يتبعهم الغاوون الم تر انهم في كل واد يهيمون وقال وما علمناه الشعر وما ينبغي
له واكثر ما اعتاده الوعاظ من الاشعار ما يتعلق بالتواصف في العشق وجمال المعشوق وروح
الوصال والم الفراق والمجلس لا يحوي الا اجلاف العوام وبواطنهم مشحونة بالشهوات وقلوبهم غير
منفكة عن الالتفات الى الصور المليحة فلا تحرك الاشعار من قلوبهم الا ما هو مستكن فيها فتشتعل
فيها نيران الشهوة فيزعقون ويتواجدون واكثر ذلك او كله يرجع الى نوع فساد فلا
ينبغي ان يستعمل من الشعر الا ما فيه موعظة وحكمة على سبيل استشهاد واستئناس فقال النبي صلى
الله عليه وآله ان من الشعر لحكمة ولو حوى المجلس الخواص الذين وقع الاطلاع على استغراق
قلوبهم بحب الله ولم يكن معهم غيرهم فان اولئك لا يضر معهم الشعر الذي يشير ظاهره الى الخلق
فان المستمع ينزل كل ما يسمعه على ما يستولي على قلبه كما سياتي تحقيق ذلك في كتاب السماع
ولذلك كان الجنيد يتكلم على بضعة عشر فان كثروا لم يتكلم وما تم اهل مجلسه عشرين وحضر
جماعة باب دار ابن سالم فقيل له تكلم فقد حضر اصحابك فقال ما هؤلاء اصحابي انما هم اصحاب
المجلس ان اصحابي هم الخواص **واما الشطح** فنعني به صنفين من الكلام احدثه بعض المتصوفة
احدهما الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله سبحانه والوصال المغني عن الاعمال الظاهرة
حتى ينتهي قوم الى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب
فيقولون قيل لنا كذا وقلنا كذا ويتشبهون فيه بالحسين الحلاج الذي صلب لاجل اطلاقه كلمات
من هذا الجنس ويستشهدون بقوله انا الحق وبما يحكى عن ابي يزيد البسطامي انه قال سبحاني سبحاني
وهذا فن من الكلام عظم ضرره في العوام حتى ترك جماعة من اهل الفلاحة فلاحتهم واظهروا
مثل هذه الدعاوى فان هذا كلام يستلذه الطبع اذ فيه البطالة من الاعمال مع تزكية النفس
بدرك المقامات والاحوال فلا تعجز الاغبياء عن دعوى ذلك لانفسهم ولا عن تلقف كلمات
مخبطة مزخرفة ومهما انكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن ان يقولوا ان هذا انكار مصدره العلم
والجدل والعلم حجاب والجدل عمل النفس وهذا الحديث لا يلوح الا من الباطن بمكاشفة نور الحق
فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره وعظم ضرره ومن نطق بشيء منه فقتله افضل في
دين الله من احياء عشرة واما ابو يزيد البسطامي فلا يصح عنه ما حكي عنه وان سمع ذلك
فلعله كان يحكيه عن الله تعالى في كلام يردده في نفسه كما لو سمع وهو يقول انني انا الله لا اله الا انا

وقد صح اتفاقهم بان الاحباب
المودة والمفيد النعم

فاعبدني فانما كان ينبغي ان يفهم منه ذلك الا على سبيل الحكاية **الصنف الثاني من**
الشطح كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل و
ذلك اما ان يكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله
لقلة احاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الاكثر واما ان يكون مفهومة له ولكنه لا يقدر
على تفهيمها وايرادها بعبارة تدل على ضميره لقلة ممارسته العلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن
المعاني بالالفاظ الرشيقة ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام الا انه يشوش القلوب ويدهش
العقول ويحير الاذهان او يحمل على ان يفهم منها معان ما اريدت بها ويكون فهم كل واحد على مقتضى
هواه وطبعه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون اتريدون ان يكذب
الله ورسوله وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع فكيف فيما لا يفهمه قائله فان كان
يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره وقال عيسى عليه السلام لا تضعوا الحكمة عند غير اهلها فتظلموها ولا
تمنعوها اهلها فتظلموهم كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء في مواضع الداء **واما الطامات**
فيدخلها ما ذكرناه في الشطح وامر آخر يخصها وهو صرف الفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة الى
امور باطنة لا يسبق منها الى الافهام كدأب الباطنية في التاويلات وهذا ايضا حرام وضرره عظيم
فان الالفاظ اذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ومن غير
ضرورة تدعو اليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالالفاظ وسقط به منفعة كلام الله
وكلام رسوله فان ما يسبق منه الى الفهم لا يوثق به والباطن لا ضبط له بل تتعارض فيه الخواطر و
يمكن تنزيله على وجوه شتى وهذا ايضا من البدع الشائعة العظيم ضررها وانما قصد اصحابها
بها الاغراب فان النفوس مائلة الى الغريب ومستلذة له وبهذا الطريق توصل الباطنية الى
هدم جميع الشريعة بتاويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم كما حكيناه من مذهبهم في كتاب المستظهري
المصنف في الرد على الباطنية ومثال تاويل اهل الطامات قول بعضهم في تاويل قوله تعالى اذهب الى
فرعون انه طغى انه اشارة الى قلبه وقال هو المراد بفرعون وهو الطاغي على كل انسان وفي قوله تعالى وان الق
عصاك اي كل ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله فينبغي ان تلقيه وفي قوله عليه السلام تسحروا فان
في السحور بركة اراد به الاستغفار بالاسحار وامثال ذلك حتى يحرفون القرآن من اوله الى آخره
عن ظاهره وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء وبعض هذه التاويلات يعلم بطلانها
قطعا كتنزيل فرعون على القلب فان فرعون شخص محسوس تواتر الينا وجوده ودعوة موسى

له كابي لهب وابي جهل وغيرهما من الكفار وليس من جنس الملائكة والشياطين مما لم يدرك بالحس
حتى يتطرق التاويل الى الفاظه وكذلك حمل التسحر على الاستغفار فانه كان صلى الله عليه وسلم يتناول
الطعام ويقول تسحروا وهلموا الى الغداء المبارك فهذه امور تدرك بالتواتر والحس بعضها
يعلم بغالب الظن وذلك فيما لا يتعلق به الاحساس فكل ذلك حرام وضلالة وافساد للدين
على الخلق ووعظهم فلا يظهر ولم ينقل من ذلك شيء عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصري
مع اكبابه على دعوة الخلق ووعظهم ولا يظهر لقوله عليه السلام من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من
النار معنى الا هذا النمط وهو ان يكون غرضه ورأيه تقرير امر وتحقيقه فيستجر شهادة القرآن اليه
عليه من غير ان يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية او نقلية ولا ينبغي ان يفهم منه انه يجب ان لا
يفسر القرآن بالاستنباط والفكر فان من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معان
وسبعة ونعلم ان جميعها غير مسموع من النبي صلى الله عليه وسلم فانها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع فيكون ذلك
بحسن الفهم وطول الفكر ولهذا قال عليه السلام لابن عباس اللهم فقهه في الدين وعلمه التاويل ومن يستجيز
من اهل الطامات مثل هذه التاويلات مع علمه بانها غير مرادة بالالفاظ ويزعم انه يقصد بها
دعوة الخلق الى الحق يضاهي من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هو في نفسه حق
ولكن لم ينطق به الشرع كمن يضع في كل مسألة يراها حقا حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فذلك ظلم
ضلال ودخول في الوعيد المفهوم من قوله عليه السلام من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار بل الشر في
تاويل هذه الالفاظ اطم واعظم لانها مبطلة للثقة بالالفاظ وقاطعة طريق الاستفادة والفهم من
القرآن بالكلية فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعي الخلق من العلوم المحمودة الى المذمومة وكل
ذلك تلبيس علماء السوء بتبديل الاسامي فان اتبعت هؤلاء اعتمادا على الاسم
المشهور من غير التفات الى ما عرف في العصر الاول كنت كمن طلب الشرف بالحكمة باتباع من
حكيما في هذا العصر وذلك بالغفلة عن تبديل اللفظ **اللفظ الخامس** وهو الحكمة فان اسم الحكيم
صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم حتى على الذي يدحرج القرعة على اكف السوادية في
شوارع الطرق والحكمة هي التي اثنى الله تعالى عليها فقال ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا وقال
عليه السلام كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا فانظر ما الذي كانت الحكمة عبارة عنه والى
ماذا نقل وقس به بقية الالفاظ واحترز عن الاغترار بتلبيسات علماء السوء فان شرهم اعظم على
الدين من شر الشياطين اذ الشيطان بواسطتهم يتدرج الى انتزاع الدين من قلوب الخلق و

لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شر الخلق ابى وقال اللهم غفرا حتى كرروا عليه ثم قال هم علماء السوء فقد
عرفت العلم المحمود والمذموم ومثار الالتباس والخيار اليك في ان تنظر لنفسك فتقتدي
بالسلف او تتدلى بحبل الغرور وتتشبه بالخلف وكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس
وما اكب الناس عليه فاكثره مبتدع محدث وقد صح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بدأ الاسلام غريبا وسيعود
غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء فقيل ومن الغرباء فقال الذين يصلحون ما افسده الناس من
سنتي والذين يحيون ما اماتوه من سنتي وفي خبر اخر هم المتمسكون بما انتم عليه اليوم وفي
حديث اخر الغرباء ناس قليل صالحون بين ناس كثير من يبغضهم اكثر ممن يحبهم وقد صارت
تلك العلوم غريبة بحيث يمقت ذاكرها ولذلك قال الثوري اذا رأيت العالم كثير الاصدقاء فاعلم
انه مخلط لانه ان نطق بالحق ابغضوه

بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة

اعلم ان العلم بهذا الاعتبار ثلاثة اقسام قسم هو مذموم قليله وكثيره وقسم هو محمود قليله
وكثيره وكلما كان اكثر كان احسن وافضل وقسم يحمد منه مقدار الكفاية ولا يحمد الفاضل
عليه والاستقصاء فيه وهو مثل احوال البدن فان منها ما يحمد قليله وكثيره كالصحة والجمال
ومنها ما يذم قليله وكثيره كالقبح وسوء الخلق ومنها ما يحمد الاقتصاد فيه كبذل المال فان
التبذير لا يحمد فيه وهو بذل وكالشجاعة فان التهور لا يحمد فيها وان كان من جنس الشجاعة
فكذلك العلم فالقسم المذموم قليله وكثيره ما لا فائدة فيه في دين ولا دنيا او فيه ضرر يغلب
نفعه كعلم السحر والطلسمات والنجوم فبعضه لا فائدة فيه اصلا وصرف العمر الذي هو انفس ما
يملكه الانسان اليه اضاعة واضاعة النفائس مذموم ومنها ما فيه ضرر يربي على ما يظن انه يحصل
به من قضاء وطر في الدنيا فان ذلك لا يعتد به بالاضافة الى الضرر الحاصل منه واما القسم
المحمود الى اقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله وبصفاته وافعاله وسنته في خلقه
وحكمته في ترتيب الاخرة على الدنيا فان هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به الى سعادة الاخرة
وبذل المقدور فيه الى اقصى الجهد قصور عن حد الواجب فانه البحر الذي لا يدرك غوره وانما
يحوم المحومون على سواحله واطرافه بقدر ما تيسر لهم وما خاض اطرافه الا الانبياء و
الاولياء والراسخون في العلم على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوتهم وتفاوت تقدير
الله تعالى في حقهم وهذا هو العلم المكنون الذي لا يسطر في الكتب ويعين على التنبه له التعلم و
مشاهدة احوال علماء الاخرة كما سيأتي علامتهم في اول الامر ويعين عليه في الاخر المجاهدة

المجاهدة والرياضة وتصفية القلب وتفريغه عن علائق الدنيا والتشبه فيها بالانبياء
والاولياء ليتضح منه لكل ساع الى طلبه بقدر الرزق لا بقدر الجهد ولكن لا غنى فيه
عن الاجتهاد والمجاهدة مفتاح الهداية لا مفتاح لها سواها واما العلوم التي لا يحمد منها
الا مقدار مخصوص فهي العلوم التي اوردناها في فروض الكفايات فان في كل علم منها
اقتصارا هو الاقل واقتصادا هو الوسط واستقصاء فوق الاقتصاد لا مرد له الى اخر
العمر فكن احد رجلين اما مشغولا بنفسك واما متفرغا الى غيرك بعد الفراغ من نفسك
واياك ان تشتغل بما يصلح غيرك قبل اصلاح نفسك فان كنت المشغول بنفسك فلا تشتغل
الا بالعلم الذي هو فرض عليك بحسب ما يقتضيه حالك وما يتعلق منه بالاعمال الظاهرة من
تعلم الطهارة والصلاة والصوم وانما الاهم الذي اهمله الكل علم صفات القلب وما يحمد منها
وما يذم اذ لا ينفك بشر عن الصفات المذمومة من الحرص والحسد والرياء والكبر والعجب
واخوات هذه الخصال وجميع ذلك مهلكات واهمالها مع الاشتغال بالاعمال الظاهرة يضاهي
الاشتغال بطلاء ظاهر البدن عند التأذي بالجرب والدماميل والتهاون باخراج المادة
بالفصد والاسهال وحشوية العلماء يشيرون بالاعمال الظاهرة كما يشير الطرقية من الاطباء بطلاء
ظاهر البدن وعلماء الاخرة لا يشيرون الا بتطهير الباطن وقطع مواد الشر بافساد منابتها
وقلع مغارسها وهي في القلب وانما فزع الاكثرون الى الاعمال الظاهرة عن تطهير القلب
لسهولة اعمال الجوارح واستصعاب اعمال القلوب كما يفزع الى الطلاء الى الاعمال الظاهرة
من تطهير القلوب لسهولة اعمال الجوارح واستصعاب الظاهر من يصعب شرب الادوية
المرة ولا يزال يتعب في الطلاء ويزيد في المواد ويتضاعف به الامراض فان كنت مريدا للاخرة
وطالبا للنجاة وهاربا من هلاك الابد فاشتغل بعلم العلل الباطنة وعلاجها على ما فصلنا
في ربع المهلكات ثم ينجر ذلك الى المقامات المحمودة المذكورة في ربع المنجيات لا محالة
فان القلب اذا فرغ من المذموم امتلأ بالمحمود والارض اذا نقيت من الحشيش نبت فيها اصناف
الزرع والرياحين وان لم يفرغ من ذلك فلا تشتغل بفروض الكفايات لا سيما وفي الخلق
من قد قام به فان مهلك نفسه في صلاح غيره سفيه فما اشد حماقة من دخلت الافاعي و
العقارب داخل ثيابه وهمت بقتله وهو يطلب مذبة يدفع بها الذباب عن غيره ممن لا
يغنيه ولا ينجيه مما يلاقيه من تلك الحيات والعقارب اذا همت به وان تفرغت من نفسك

وتطهيرها وقدرت على ترك ظاهر الإثم وباطنه وصار ذلك ديدناً لك وعادة متيسرة فيك وما أبعد ذلك فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدريج فيها فابتدئ بكتاب الله تعالى ثم بسنة رسوله ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن من علم الناسخ والمنسوخ والمفصول والموصول والمحكم والمتشابه وكذلك في السنة ثم اشتغل بالفروع وهو علم المذهب من علم الفقه دون الخلاف ثم بأصول الفقه وهكذا إلى بقية العلم على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت ولا تستغرق عمرك في فن واحد منها طالباً للاستقصاء فإن العلم كثير والعمر قصير وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها وكل ما يطلب لغيره فلا ينبغي أن ينسى فيه المطلوب ويستكثر منه فاقتصر من شائع علم اللغة على ما تفهم به كلام العرب وتنطق به ومن غريبه على غريب القرآن وغريب الحديث ودع التعمق فيه واقتصر من النحو على ما يتعلق بالكتاب والسنة فما من علم إلا وله اقتصار واقتصاد واستقصاء ونحن نشير إليها في الحديث والتفسير والفقه والكلام لتقيس بها غيرها فالاقتصار في التفسير ما يبلغ ضعف القرآن في المقدار كما صنفه النيسابوري والاقتصاد ما يبلغ ثلاثة أضعاف القرآن وما وراء ذلك استقصاء مستغنى عنه وأما حفظ أسامي الرجال فقد كفيت فيه بما تحمله عنك من قبلك ولك أن تعول على كتبهم وليس يلزمك حفظ متون الصحيحين ولكن تحصل تحصيلاً تقدر به على طلب ما تحتاج إليه عند الحاجة وأما الخلافيات التي أحدثت في هذه الأعصار المتأخرة وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات ما لم يعهد مثلها السلف فإياك وأن تحوم حوله واجتنبه اجتنابك السم القاتل فإنه الداء العضال وهو الذي رد الفقهاء كلهم إلى طلب المنافسة والمباهاة على ما سيأتيك تفصيل غوائله وآفاته

اقتصاد

الباب الرابع

قال رحمه الله بعد ذكر أسباب إقبال الخلق على علم الخلاف في التفصيل **بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق** اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام وإظهار الفضل والشرف عند الناس وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس هي منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله المحمودة عند عدو الله إبليس ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الجاه وغيرها كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنا والقذف والقتل والسرقة وكما أن الذي خير بين الشرب وسائر الفواحش استصغر الشرب فأقدم عليه فدعاه ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش في سكره فكذلك من غلب عليه حب الإفحام والغلبة في المناظرة وطلب الجاه والمباهات دعاه ذلك إلى إضمار الخبائث كلها في النفس وهيج فيه جميع الأخلاق المذمومة وهذه الأخلاق سيأتي أدلة مذمتها من الأخبار والآيات في ربع المهلكات ولكنا نشير الآن إلى مجامع ما تهيجه المناظرة فمنها الحسد وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ولا ينفك المناظر عن الحسد فإنه تارة يَغلب وتارة يُغلب وتارة يحمد كلامه وتارة يحمد كلام غيره فما دام يبقى في الدنيا واحد يذكر بقوة العلم والنظر ويظن أنه أحسن منه كلاماً وأقوى نظراً فلا بد وأن يحسده ويحب زوال النعم عنه وانصراف الوجوه والقلوب عنه إليه والحسد نار محرقة فمن بلي به فهو في العذاب الأليم الدائم في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأعظم ولذلك قال ابن عباس خذوا العلم حيث وجدتموه ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم في بعض فإنهم يتغايرون كما تتغاير التيوس في الزريبة وهكذا ذكر رحمه الله التكبر والحقد والغيبة وتزكية النفس والتجسس وتتبع عورات الناس والفرح بمساءتهم والنفاق والاستكبار والرياء ومع الحظ للخلق والجهد في استمالة قلوبهم على الوجه الذي ذكر في الحسد من ذكر دلائل مذمتها وعدم خلو المناظر عن شيء منها ثم قال رحمه الله والرياء هو الداء العضال الذي يدعو إلى أكبر الكبائر كما سيأتي في كتاب الرياء والمناظر لا يقصد إلا الظهور عند الخلق وانطلاق ألسنتهم بالثناء عليه فهذه عشر خصال من أمهات الفواحش الباطنة سوى ما يتفق لغير المتماسكين منهم من الخصام المؤدي إلى الضرب واللكم وتمزيق الثياب والأخذ باللحى ثم يتشعب من كل واحد من هذه الخصال العشر عشرة أخرى من الرذائل لم نطول بذكرها وتفصيل آحادها مثل الأنفة والغضب والبغضاء والطمع وحب طلب المال والجاه للتمكن من الغلبة والمباهاة والأشر والبطر وتعظيم الأغنياء والسلاطين والتردد إليهم والأخذ من حرامهم والتجمل بالخيول والمراكب والثياب المحظورة واستحقار الناس بالفخر والخيلاء والخوض فيما لا يعني وكثرة الكلام وخروج الخشية والخوف والرحمة من القلب واستيلاء الغفلة عليه حتى لا يدري المصلي منهم في صلاته ما الذي يقوله ومن الذي يناجيه ولا يحس بالخشوع في قلبه واستغراق العمر في العلوم التي تعين في المناظرة مع أنها لا تنفع في الآخرة من تحسين العبارة وتسجيع اللفظ وحفظ النوادر إلى غير ذلك من أمور لا تحصى والمناظرون يتفاوتون فيها على حسب درجاتهم ولهم درجات شتى ولا ينفك أعظمهم ديناً وأكثرهم عقلاً عن جملة من مواد هذه الأخلاق وإنما غايته إخفاؤها ومجاهدة النفس بها واعلم أن هذه الرذائل لازمة للمشتغل

فيما ح

ومنها الحقد فلا يكاد المناظر [illegible]

ومنها الغيبة [illegible]

ومنها تزكية النفس [illegible]

ومنها التجسس [illegible]

بالتذكير والوعظ ايضا اذا كان قصده طلب القبول واقامة الجاه ونيل الثروة والعز وهلاك
ايضا المتجمل بعلم المذهب والفتوى اذا كان قصده طلب القضا وولاية الاوقاف و
التقدم على الاقران وبالجملة هي لازمة لكل من يطلب بالعلم غير ثواب الاخرة فالعلم لا يهمل
العالم بل يهلكه هلاك الابد او يحييه حياة الابد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اشد الناس
عذابا يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه **فان قلت** فهذه الرخصة في المناظرة فايدة وهي
ترغيب الناس في طلب العلم اذ لولا حب الرياسة لاندرست العلوم فقد صدقت فيما
ذكرته من وجه ولكنه غير مفيد اذ لولا الوعد بالكرة والصولجان واللعب بالعصافير
ما رغب الصبيان في المكتب وذلك لا يدل على ان الرغبة فيه محمودة ولولا حب الرياسة
لاندرس العلم ولا يدل ذلك على ان طالب الرياسة ناج بل هو من الذين قال فيهم النبي
ان الله تعالى ليؤيد هذا الدين باقوام لا خلاق لهم وقال ان الله تعالى ليؤيد هذا الدين
بالرجل الفاجر فطالب الرياسة في نفسه هالك وقد يصلح بسببه غيره ان كان
يدعو الى ترك الدنيا وذلك فيمن كان حاله في ظاهر الامر حال علما السلف ولكنه
يضمر قصد الجاه فمثاله مثال الشمع الذي يحترق في نفسه ويستضي به غيره فصلاح غيره
في هلاكه فاما اذا كان يدعو الى طلب الدنيا فمثاله مثال النار المحرقة التي تاكل نفسها و
غيرها فالعلما ثلثة اما مهلك نفسه وغيره وهم المصرحون بطلب الدنيا والمقبلون
عليها واما مسعد نفسه وغيره وهم الداعون الخلق الى الله تعالى ظاهرا و
باطنا واما مهلك نفسه مسعد غيره وهو الذي يدعو الى الاخرة وقد رفض الدنيا
في ظاهره وقصده في الباطن قبول الخلق واقامة الجاه فانظر من اي الاقسام انت ومن
الذي اشتغلت بالاستعداد له ولا تظنن ان الله يقبل غير الخالص لوجهه من العلم
والعمل وسياتيك في كتاب الرياء بل في جميع ربع المهلكات ما ينفي عنك الريبة فيه
ان شا الله تعالى **الباب الخامس في اداب المتعلم والمعلم** اما المتعلم فادابه
ووظايفه كثيرة ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل **الوظيفة الاولى** تقديم طهارة النفس
عن رذايل الاخلاق ومذموم الاوصاف اذ العلم عبادة القلب وصلوة السر وقربة
الباطن الى الله وكما لا تصح الصلوة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة الا بتطهير الظاهر
عن الاحداث والاخباث فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم الا

بعد طهارته عن خبايث الاخلاق وانجاس الاوصاف قال النبي صلى الله عليه وسلم
بني الدين على النظافة وهو كذلك باطنا وظاهرا قال الله تعالى انما المشركون نجس تنبيها
للعقول على ان الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر المدركة بالحس فالمشرك قد يكون
نظيف الثوب مغسول البدن ولكنه نجس الجوهر اي باطنه ملطخ بالخبايث والنجاسة
عبارة عما يجتنب ويطلب البعد منه وخبايث صفات الباطن اهم بالاجتناب فانها
مع خبثها في الحال مهلكات في المال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب
والقلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط اثرهم ومحل استقرارهم والصفات الرديئة مثل الغضب
والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب واخواتها كلاب نابحة فانى تدخله الملائكة
وهو مشحون بالكلاب ونور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب الا بواسطة الملائكة وما كان
لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او من وراء حجاب او يرسل رسولا وهكذا ما يرسل من رحمة
العلوم الى القلوب انما تتولاها الملائكة الموكلون بها وهم المقدسون المطهرون المبرؤن
عن المذمومات فلا يلاحظون الا طيبا ولا يعمرون بما عندهم من خزاين رحمة الله الا طاهرا
ولست اقول والمراد بلفظ البيت هو القلب وبالكلب هو الغضب والصفات المذمومة
ولكني اقول هو تنبيه عليه وفرق بين تعبير الظواهر الى البواطن وبين التنبيه للبواطن من
ذكر الظواهر مع تقرير الظواهر ففارق الباطنية بهذه الدقيقة فان هذه طريق الاعتبار
وهو مسلك العلما والابرار اذ معنى الاعتبار ان يعبر مما ذكر الى غيره فلا يقتصر عليه كما يرى
العاقل مصيبة لغيره فيكون له فيها عبرة بان يعبر منها الى التنبيه لكونه ايضا عرضة للمصايب
وكون الدنيا بصدد الانقلاب فعبوره من غيره الى نفسه ومن نفسه الى اصل الدنيا عبرة
محمودة فاعبر انت ايضا من البيت الذي هو بنا الخلق الى القلب الذي هو بيت من بنا الله
سبحانه ومن الكلب الذي هو مذموم لصفته لا لصورته وهو ما فيه من سبعية ونجاسة الى الروح
الكلبية وهي السبعية واعلم ان القلب المشحون بالغضب والشره الى الدنيا والتكالب عليها
والحرص على التمزيق لاعراض الناس كلب في المعنى وقلب في الصورة فنور البصيرة يلاحظ
المعاني دون الصور والصور في هذا العالم غالبة على المعاني والمعاني باطنة فيها وفي الاخرة
تتبع الصور المعاني وتغلب المعاني فلذلك يحشر كل شخص على صورته المعنوية فيحشر الممزق
لاعراض الناس كلبا ضاريا والشره الى اموالهم ذئبا عاديا والمتكبر عليهم في صورة نمر

وطالب الرياسة في صورة اسد وقد وردت بذلك الاخبار وشهد به الاعتبار عند
ذوي البصاير والابصار فان قلت كم من طالب ردي الاخلاق حصل العلوم فهيهات ما
ابعده عن العلم الحقيقي النافع في الاخرة الجالب للسعادة فان من اوايل ذلك العلم ان يظهر له
ان المعاصي سموم مهلكة وهل رايت من يتناول سما مع علمه بكونه سما انما الذي تسمعه من
المترسمين حديث يلفقونه بالسنتهم مرة ويرددونه بقلوبهم اخرى وليس ذلك من
العلم في شي قال ابن مسعود رضي الله عنه ليس العلم بكثرة الرواية انما العلم نور يقذف في القلب
وقال بعضهم انما العلم الخشية اذ قال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وكانه اشار الى
اخص ثمرات العلم ولذلك قال بعض المحققين معنى قولهم تعلمنا العلم لغير الله فابى العلم ان يكون
الا لله ان العلم ابى وامتنع علينا فلم ينكشف لنا حقيقته وانما حصل لنا حديثه والفاظه
فان قلت اني ارى جماعة من الفقهاء المحققين برزوا في الفروع والاصول وعدوا من جملة الفحول
واخلاقهم ذميمة لم يتطهروا منها فيقال اذا عرفت مراتب العلوم وعرفت علم الاخرة استبان لك
ان ما اشتغلوا به قليل الغنا من حيث كونه علما وانما غناؤه من حيث كونه عملا لله اذا قصد به التقرب
الى الله وقد سبق الى هذا اشارة وسياتيك فيه مزيد بيان وايضاح الوظيفة الثانية
ان يقلل علايقه من اشتغال الدنيا ويبعد عن الاهل والوطن فان العلايق شاغلة وصارفة
وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقايق ولذلك
قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فاذا اعطيته كلك فانت من اعطايه اياك بعضه على
خطر والفكرة المتوزعة على امور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشفت الارض بعضه واختطف الهوا
بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدرع الوظيفة الثالثة ان لا يتكبر على العلم ولا يتامر
على المعلم بل يلقي اليه زمام امره بالكلية في كل تفصيل ويذعن لنصحه اذعان المريض الجاهل للطبيب
المشفق الحاذق وينبغي ان يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته قال النبي صلعم ليس من
اخلاق المومنين التملق الا في طلب العلم فلا ينبغي للطالب ان يتكبر على المعلم ومن تكبره على المعلم
ان يستنكف من الاستفادة الا من المرموقين المشهورين وهو عين الحماقة فان العلم سبب النجاة
والسعادة ومن طلب مهربا من سبع ضار يفترسه لا يفرق بين ان يرشده الى الهرب مشهور او
خامل وضراوة سباع النار بالجهال بالله اشد من ضراوة كل سبع فالحكمة ضالة المومن يغتنمها
حيث ظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها اليه كاينا من كان ولذلك قيل العلم حرب للفتى المتعالي

كالسيل حرب للمكان العالي فلا ينال العلم الا بالتواضع والقاء السمع قال الله تعالى ان في ذلك
لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد ومعنى كونه ذا قلب ان يكون قابلا للعلم فهما
ثم لا تعينه القدرة على الفهم حتى يلقي السمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل كل ما يلقى اليه
بحسن الاصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنة فليكن المتعلم لمعلمه كارض دمثة نالت
مطرا غزيرا فتشربت بجميع اجزايها واذعنت بالكلية لقبوله ومهما اشار عليه المعلم بطريق في التعلم
فليقلده وليدع رايه فان خطا مرشده انفع له من صوابه في نفسه اذ التجربة تطلع على دقايق
يستغرب سماعها مع انه يعظم نفعها فكم من مريض محرور يعالجه الطبيب في بعض اوقاته بالحرارة
ليزيد في قوته الى حد يحتمل صدمة العلاج فيتعجب منه من لا خبرة له وقد نبه الله سبحانه بقصة الخضر
وموسى عليهما السلام حيث قال الخضر انك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ثم شرط
عليه السكوت والتسليم فقال فان اتبعتني فلا تسالني عن شي حتى احدث لك منه ذكرا ثم لم يصبر
ولم يزل في مراجعته الى ان كان ذلك سبب الفراق بينهما وبالجملة كل متعلم استبقى لنفسه رايا واختيارا
دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالاخفاق والخسران فان قلت فقد قال الله تعالى فاسالوا اهل
الذكر فالسؤال مامور به فاعلم انه كذلك ولكن فيما ياذن المعلم في السؤال عنه فان السؤال
عما لم تبلغ رتبتك الى فهمه مذموم ولذلك منع الخضر موسى عن السؤال اي دع السؤال قبل
اوانه فالمعلم اعلم بما انت اهل له وباوان الكشف وما لم يدخل اوان الكشف في كل درجة من مراقي
الدرجات لا يدخل اوان السؤال وقد قال علي كرم الله وجهه ان من حق العالم ان لا تكثر عليه بالسؤال
ولا تعنته في الجواب ولا تلح عليه اذا كسل ولا تاخذ بثوبه اذا نهض ولا تفشي له سرا ولا تغتابن
عنده احدا ولا تطلبن عثرته وان زل قبلت معذرته وعليك ان توقره وتعظمه لله ما دام
يحفظ امر الله ولا تجلس امامه وان كانت له حاجة سبقت القوم الى خدمته الوظيفة
الرابعة ان يحترز الخايض في العلم في مبدا الامر عن الاصغا الى اختلافات الناس سوا كان
ما خاض فيه من علوم الدنيا او علوم الاخرة فان ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر
رايه ويؤيسه عن الادراك والاطلاع بل ينبغي ان يتقن اولا الطريقة الواحدة المرضية عند
استاذه ثم بعد ذلك يصغي الى المذاهب والشبه فان لم يكن استاذه مستقلا باختيار راي
واحد وانما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها فليحذر منه فان اضلاله اكثر من ارشاده
ولا يصلح الاعمى لقود العميان وارشادهم ومن هذا حاله فهو بعد في عمى الحيرة وتيه الجهل ومنع

[illegible]

[illegible]

المبتدي عن الشبه يضاهي منع حديث العهد بالاسلام عن مخالطة الكفار ويندب القوي الشجاع لرد
الغفلة ويندب القوي الى النظر في الاختلافات يضاهي حث القوي على مخالطة الكفار ولذلك
يمنع العاجز عن التهجم على صف الكفار ويندب الشجاع له ومن الغفلة عن هذه الدقيقة ظن بعض
الضعفاء ان الاقتداء بالاقوياء فيما ينقل عنهم من المساهلات جائز ولم يدر ان وظائف الاقوياء
تخالف وظائف الضعفاء وفي ذلك قال بعضهم من رآني في البداية صار صديقا ومن رآني في النهاية
صار زنديقا اذ النهاية ترد الاعمال الى الباطن وتسكن الجوارح الا عن رواتب الفرائض فيتراءى
للناظر انها بطالة وكسل واهمال وهيهات فذلك مرابطة القلب في عين الشهود والحضور وملازمة
الذكر الذي هو افضل الاعمال على الدوام وتشبه الضعيف بالقوي فيما يرى في ظاهره انه هفوة
يضاهي اعتذار من يلقي نجاسة يسيرة في كوز ماء ويتعلل بان اضعاف هذه النجاسة قد يلقى في البحر والبحر اعظم
من الكوز فما جاز للبحر فهو للكوز اجوز ولا يدري المسكين ان البحر بقوته يحيل النجاسة ماء فتنقلب
النجاسة باستيلائه الى صفته والقليل يغلب الكوز ويحيله الى صفته ولمثل هذا جوز للنبي صلى الله عليه وسلم
ما لم يجوز لغيره حتى ابيح له تسع نسوة اذ كان له من القوة ما يتعدى منه صفة العدل الى نسائه
وان كثرن واما غيره فلا يقدر على العدل بل يتعدى ما بينهن من الضرار اليه حتى ينجر الى معصية الله
في طلب رضاهن فما افلح من قاس الملائكة بالحدادين **الوظيفة الخامسة** ان لا يدع طالب العلم
فنا من العلوم المحمودة ولا نوعا من انواعها الا وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته ثم ان
ساعده العمر طلب التبحر فيه والا اشتغل بالاهم منه فاستوفاه وتطرف من البقية فان العلوم
متعاونة وبعضها مرتبط بالبعض ويستفيد منه في الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله
فان الناس اعداء ما جهلوا قال الله تعالى واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم وقال الشاعر
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا فالعلوم على درجاتها اما سالكة بالعبد الى الله
تعالى او معينة على السلوك نوعا من الاعانة ولها منازل مرتبة في القرب والبعد من المقصود
والقوام بها حفظة كحفظة الرباطات والثغور ولكل واحد رتبة وله بحسب درجته اجر في الآخرة
اذا قصد به وجه الله تعالى **الوظيفة السادسة** ان العمر اذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالبا
فالحزم ان ياخذ من كل شيء احسنه ويكتفي منه بشمه ويصرف جمام قوته في الميسور من علمه الى
استكمال العلم الذي هو اشرف العلوم وهو علم الآخرة اعني قسمي المعاملة والمكاشفة فغاية
المعاملة المكاشفة وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى ولست اعني به الاعتقاد الذي يتلقفه العامي

العامي وراثة او تلقفا ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة في تحصين ذلك عن مراوغات
الخصوم كما هو غاية المتكلم بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله في قلب عبد طهر
بالمجاهدة باطنه عن الخبائث حتى ينتهي الى رتبة ايمان لو وزن بايمان العالمين لرجح وعلى
الجملة فاشرف العلوم وغايتها معرفة الله وهو بحر لا يدرك منتهى غوره واقصى درجات
البشر فيه رتبة الانبياء ثم الاولياء ثم الذين يلونهم **الوظيفة السابعة** ان يعرف السبب
الذي به يدرك شرف العلوم وان ذلك يراد به شيئان احدهما شرف الثمرة والثاني
وثاقة الدليل وقوته وذلك كعلم الدين وعلم الطب فان ثمرة احدهما الحياة الابدية
وثمرة الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين اشرف ومثل علم الحساب اشرف لوثاقة
ادلته وقوتها واذا نسب الحساب الى الطب كان الطب اشرف باعتبار ثمرته والحساب اشرف باعتبار ادلته
وملاحظة الثمرة اولى ولذلك كان الطب اشرف وان كان اكثره بالتخمين وبهذا يتبين
ان اشرف العلوم العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل الى هذه
العلوم فاياك ان ترغب الا فيه وتحرص الا عليه **الوظيفة الثامنة** ان يكون قصد
المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفي المآل القرب من الله سبحانه والترقي الى
جوار الملأ الاعلى من الملائكة والمقربين ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء
ومباهاة الاقران واذا كان هذا مقصده طلب لا محالة الاقرب الى مقصوده وهو علم الآخرة
ومع هذا فلا ينبغي ان ينظر بعين الحقارة الى سائر العلوم اعني علم الفتاوى وعلم النحو
واللغة المتعلقين بالكتاب والسنة وغير ذلك مما اوردناه في المقدمات والمتممات من ضروب
العلوم التي هي فرض الكفاية ولا تفهمن من غلونا في الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم
فالمتكفلون بالعلوم كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين في سبيل الله
ومنهم المقاتل ومنهم الردء ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهدهم ولا ينفك واحد منهم عن
اجر اذا كان مقصده اعلاء كلمة الله دون حيازة الغنائم فكذلك العلماء قال الله تعالى يرفع الله الذين
آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات وقال تعالى هم درجات عند الله والفضيلة نسبية
واستحقارنا الصيارفة عند قياسهم بالملوك لا يدل على حقارتهم اذا قيسوا بالكناسين فلا
تظنن ان ما نزل عن الرتبة القصوى فهو ساقط القدر بل الرتبة للانبياء ثم الاولياء ثم
العلماء الراسخين ثم الصالحين على تفاوت درجاتهم وبالجملة من يعمل مثقال ذرة خيرا يره

وعلم النجوم فان الحساب

ومنهم الذي يسقيهم الماء

ومن قصد الله بالعلم اى علم كان نفعه ورفعه لا محالة الوظيفة التاسعة
ان يعلم نسبة العلوم الى المقصد كى لا يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره
ومعنى المهم ما يهمك ولا يهمك الا شانك فى الدنيا والاخرة واذا لم يمكن الجمع بين
ملاذ الدنيا ونعيم الاخرة كما نطق به القران وشهد له من نور البصائر ما يجرى مجرى
العيان فالاهم ما يبقى ابد الاباد وعند ذلك تصير الدنيا منزلا والبدن مركبا و
الاعمال سعيا الى المقصد ولا مقصد الا لقاء الله ففيه النعيم كله وان كان لا يعرف
فى هذا العالم قدره الا الاقلون والعلوم بالاضافة الى سعادة لقاء الله والنظر الى
وجهه الكريم اعنى النظر الذى طلبه الانبياء وفهموه دون ما يسبق الى فهم العوام والمتكلمين
على ثلث مراتب تفهمها بالموازنة بمثال وهو ان العبد الذى علق عتقه وتمكينه من الملك
على الحج وقيل له ان حججت واتممت وصلت الى العتق والملك جميعا وان ابتدات بطريق الحج
والاستعداد وعاقك فى الطريق مانع ضرورى فلك العتق والخلاص من شقاء الرق
فقط دون سعادة الملك فله ثلثة اصناف من الشغل الاول تهيئة الاسباب بشراء
الناقة وخرز الراوية واعداد الزاد والراحلة والثانى السلوك ومفارقة الوطن بالتوجه
الى الكعبة منزلا بعد منزل والثالث الاشتغال باعمال الحج ركنا بعد ركن ثم بعد
النزوع عن هيئة الاحرام وطواف الوداع استحق التعرض للملك والسلطنة وله فى كل
مقام منازل من اول اعداد الاسباب الى اخرها ومن اول سلوك البوادى الى اخرها ومن
اول اركان الحج الى اخره وليس قرب من ابتدا باركان الحج من السعادة كقرب من هو
فى اعداد الزاد والراحلة ولا كقرب من ابتدا بالسلوك بل هو اقرب منه فالعلوم ايضا ثلثة
اقسام قسم يجرى مجرى اعداد الزاد والراحلة وشراء الناقة وهو علم الطب والفقه
وما يتعلق بمصالح البدن فى الدنيا وقسم يجرى مجرى سلوك البوادى وقطع العقبات
وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات وطلوع تلك العقبات الشامخة التى عجز عنها
الاولون والاخرون الا الموفقون فهذا سلوك الطريق وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات
الطريق ومنازله وكما لا يغنى علم المنازل وطرق البوادى دون سلوكها لا يغنى علم تهذيب
الاخلاق دون مباشرة التهذيب لكن المباشرة دون العلم غير ممكن وقسم ثالث
يجرى مجرى نفس الحج واركانه وهو العلم بالله وصفاته وملائكته وافعاله وجميع ما ذكرنا

ماذكرناه فى تراجم علم المكاشفة وههنا نجاة وفوز بالسعادة والنجاة حاصلة لكل سالك
للطريق اذا كان غرضه المقصد وهو السلامة واما الفوز بالسعادة فلا ينالها الا العارفون
فهم المقربون المنعمون فى جوار الله بالروح والريحان وجنة النعيم واما الممنوعون دون ذروة
الكمال فلهم النجاة والسلامة كما قال تعالى فاما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم
واما ان كان من اصحاب اليمين فسلام لك من اصحاب اليمين وكل من لم يتوجه الى المقصد ولم
ينهض له او انتهض الى جهته لا على قصد الامتثال والعبودية بل لغرض عاجل فهو من اصحاب
الشمال ومن الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم واعلم ان هذا هو حق اليقين عند العلماء
الراسخين اعنى انهم ادركوه بمشاهدة من الباطن اقوى واجلى من مشاهدة الابصار وترقوا فيه
عن حد التقليد لمجرد السماع وحالهم حال من اخبر فصدق ثم شاهد فحقق وحال غيرهم
حال من قبل بحسن التصديق والايمان ولم يحظ بالمشاهدة والعيان فالسعادة وراء علم
المكاشفة وعلم المكاشفة وراء علم المعاملة التى هى سلوك طريق الاخرة وقطع عقبات الصفات
وسلوك طريق محو الصفات المذمومة وراء علم الصفات وعلم طريق المعاملة وكيفية السلوك وراء
وراء علم سلامة البدن ومساعدة اسباب الصحة وسلامة البدن بالاجتماع والتظاهر و
التعاون الذى يتوسل به الى المطعم والملبس والمسكن وهو منوط بالسلطان وقانونه فى
ضبط الناس على نهج العدل والسياسة فى ناحية الفقيه واما اسباب الصحة ففى ناحية
الطبيب فان قلت ان الساعى الى الله لينال قربه هو القلب دون البدن الزاد والراحلة
فاعلم ان الساعى الى الله لينال قربه هو القلب دون البدن ولست اعنى بالقلب اللحم المحسوس
بل هو سر من اسرار الله لا يدركه الحس ولطيفة من لطائفه تارة يعبر عنه بالروح وتارة بالنفس
المطمئنة والشرع يعبر عنه بالقلب لانه المطية الاولى لذلك السر وبواسطته صار جميع البدن
مطية وآلة لتلك اللطيفة وكشف الغطاء عن ذلك السر من علم المكاشفة وهو مضنون به بل
لا رخصة فى ذكره وغاية المأذون فيه ان يقال هو جوهر نفيس ودر عزيز اشرف من هذه
الاجرام المرئية وانما هو امر الهى كما قال تعالى ويسئلونك عن الروح قل الروح من امر ربى وكل
المخلوقات منسوبة الى الله ولكن نسبته اشرف من نسبة سائر اعضاء البدن فلله الخلق
والامر جميعا والامر اعلى من الخلق وهذه الجوهرة النفيسة الحاملة لامانة الله المتقدمة
بهذه الرتبة على السموات والارضين اذ ابين ان يحملنها واشفقن منها من عالم الامر

في شرف علم الفقه والطب الابدان

من هذا تعرفنا تقدير قايل بتقديم الارواح معزو وجاهل لا يدري ما يقول وتحقيق
عنان البيان من هذا الفن ليس هو مما نحن بصدده والمقصود ان هذه اللطيفة هي الباقية
او هي اقرب الى ذلك لانها من امر الرب فمنه مصدرها واليه مرجعها واما البدن فمطيتها التي تركبها
وتسعى بواسطتها فالبدن لها في طريق الله كالناقة للبدن في طريق الحج وكالراوية الحاوية
للماء الذي يفتقر اليه البدن فكل علم مقصده مصلحة البدن فهو من جملة مصالح المطية ولا يخفى
ان الطب كذلك فانه يحتاج اليه في حفظ الصحة على البدن ولو كان الانسان وحده لاحتاج اليه
والفقه يفارقه في انه لو كان الانسان وحده ربما كان يستغني عنه ولكنه خلق على وجه لا يمكنه
ان يعيش وحده اذ لا يستقل بالسعي في تحصيل طعامه بالحراثة والزرع والطبخ وفي تحصيل
الملبس والمسكن وفي اعداد الآت ذلك كله فاضطر الى المخالطة والاستعانة ومهما اختلط الناس
وثارت شهواتهم تجاذبوا اسباب الشهوات وتنازعوا وتقاتلوا وحصل من قتالهم هلاكهم
بسبب التنافس من خارج كما يحصل هلاكهم بسبب تضاد الاخلاط من داخل وبالطب يحفظ
الاعتدال في الاخلاط المتنازعة من داخل وبالسياسة والعدل يحفظ الاعتدال في التنافس
من خارج وعلم طريق الاعتدال في الاخلاط طب وعلم طريق اعتدال احوال الناس في
المعاملات والافعال فقه وكل ذلك لحفظ البدن الذي هو مطية فالمتجرد لعلم الفقه او
الطب اذا لم يجاهد نفسه ولم يصلح قلبه كالمتجرد لشراء الناقة وعلفها وشراء الراوية وخرزها
اذا لم يسلك بادية الحج والمستغرق عمره في دقايق الكلام التي تجري في مجالس الفقه كالمستغرق
عمره في دقايق الاسباب التي بها تستحكم الخيوط التي بها تخرز الراوية للحج ونسبة هولاء من السالك
لطريق اصلاح القلب والواصل الى علم المكاشفة كنسبة اولئك الى سالكي طريق الحج او ملابسي اركانه
فتامل هذا واقبل النصيحة مجانا ممن قام عليه ذلك غاليا ولم يصل اليه الا بعد جهد جهيد
وجراة تامة على مباينة الخلق والعامة في النزوع من تقليدهم بمجرد الشهوة فهذا القدر
كاف في وظايف المتعلم **بيان وظايف المعلم** اعلم ان للانسان في علمه اربعة احوال
كالمرء في اقتناء الاموال اذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسبا وحال ادخار
لما اكتسبه فيكون به غنيا عن السوال وحال انفاق على نفسه فيكون به منتفعا وحال بذل
لغيره فيكون به سخيا متفضلا وهو اشرف احواله فكذلك العلم يقتنى كما يقتنى المال فله حال طلب
واكتساب وحال تحصيل يغني عن السوال وحال استبصار وهو التفكر في المحصل والتمتع به وحال

تبصير وهو اشرف الاحوال فمن علم وعمل وعلّم فهو الذي يدعى عظيما في ملكوت السماوات فانه
كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة وكالمسك الذي يطيب وهو طيب والذي يعلم ولا يعمل به
كالدفتر الذي يفيد غيره وهو خال عن العلم والمسن الذي يشحذ غيره ولا يقطع والابرة التي تكسو
غيرها وهي عارية وذبالة المصباح تضيء لغيرها وهي تحترق قال الشاعر ما هو الا ذبالة وقدت
تضيء للناس وهي تحترق ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد امرا عظيما وخطرا جسيما فليحفظ ادابه
ووظايفه **الوظيفة الاولى** الشفقة على المتعلمين وان يجريهم مجرى بنيه قال النبي صلعم انما
انا لكم مثل الوالد لولده بان يقصد انقاذهم من نار الآخرة وهو اهم من انقاذ الابوين ولدهما
من نار الدنيا ولذلك صار حق المعلم اعظم من حق الوالدين فان الوالد سبب الوجود الحاضر
والحياة الفانية ولولا المعلم لساق ما حصل من جهة الاب الى الهلاك الدايم وانما المعلم
هو المفيد للحياة الاخروية الدايمة اعني معلم علوم الآخرة او علوم الدنيا على قصد الآخرة
لا على قصد الدنيا فاما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك واهلاك نعوذ بالله منه وكما ان حق
ابناء الرجل الواحد ان يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد فحق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتواد ولا
يكون الا كذلك ان كان مقصودهم الآخرة ولا يكون الا التحاسد والتباغض ان كان مقصدهم الدنيا
فان العلماء وابناء الآخرة مسافرون الى الله تعالى وسالكون اليه الطريق والدنيا وسنوها
وشهورها منازل الطريق والترافق في الطريق بين المسافرين الى الامصار سبب التواد والتحاب
فكيف السفر الى الفردوس الاعلى والترافق في طريقه ولا ضيق في سعادات الآخرة فلذلك لا يكون
بين ابناء الآخرة تنازع ولا سعة في سعادات الدنيا فلذلك لا ينفك عن ضيق التزاحم والعادلون
الى طلب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى انما المؤمنون اخوة وداخلون في مقتضى قوله تعالى
الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين **الوظيفة الثانية** ان يقتدي بصاحب الشرع
صلوات الله عليه فلا يطلب على افادة العلم اجرا ولا يقصد به جزاء ولا شكرا بل يعلّم لوجه الله
تعالى وطلبا للتقرب اليه ولا يرى لنفسه منة عليهم وان كانت المنة لازمة عليهم بل يرى الفضل لهم
اذ هذبوا قلوبهم لان تتقرب الى الله تعالى بزراعة العلوم فيها كالذي يعيرك الارض لتزرع فيها
لنفسك زراعة فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الارض فكيف تقلده منة وثوابك في التعليم اكثر
من ثواب المتعلم عند الله ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الاجر الا من الله تعالى كما قال
الله تعالى قل لا اسئلكم عليه اجرا فان المال وما في الدنيا خادم للبدن والبدن مركب النفس

والمخدوم هو العلم اذ به شرف النفس ففي طلب المال بالعلم مثال من مسح اسفل مداسه بمحاسنه لينظفه فجعل المخدوم خادما والخادم مخدوما وذلك هو الانتكاس على ام الراس ومثله هو الذي يقوم في العرض الاكبر مع المجرمين ناكسي رؤسهم عند ربهم وعلى الجملة فالفضل والمنة للمعلم فانظر كيف انتهى امر الدين الى قوم يزعمون ان مقصودهم التقرب الى الله تعالى بما هم فيه من علم الفقه والكلام والتدريس فيهما وفي غيرهما فانهم يبذلون المال والجاه ويتحملون اصناف الذل في خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات ولو تركوا ذلك لتركوا ولم يختلف اليهم ثم يتوقع المعلم من المتعلم ان يقوم له في كل نائبة وينصر وليه ويعادي عدوه وينتهض حمارا له في حاجاته ومسخرا بين يديه في اوطاره فان قصر في حقه ثار عليه وصار من اعدى اعدائه فاخسس بعالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ثم يفرح بها ثم لا يستحيي ان يقول غرضي من التدريس نشر العلم تقربا الى الله تعالى ونصرة لدينه فانظر الى الامارات حتى ترى ضروب الاغترارات **الوظيفة الثالثة** ان لا يدع من نصح المتعلم شيا وذلك بان يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي ثم ينبهه على ان الغرض بطلب العلوم القرب الى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ويقدم تقبيح ذلك في نفسه باقصى ما يمكن فليس ما يصلحه العالم الفاجر باكثر مما يفسده فان علم من باطنه انه لا يطلب العلم الا للدنيا نظر الى العلم الذي يطلبه فان كان هو علم الخلاف في الفقه والجدل في الكلام والفتاوى في الخصومات والاحكام فيمنعه من ذلك فان هذه العلوم ليست من علوم الاخرة ولا من العلوم التي قيل فيها تعلمنا العلم لغير الله فابى العلم ان يكون الا لله وانما ذلك علم التفسير وعلم الحديث وما كان الاولون يشتغلون به من علم الاخرة ومعرفة اخلاق النفس وكيفية تهذيبها فاذا تعلمه الطالب وقصد به الدنيا فلا باس ان يتركه فانه يثمر له طمعا في الوعظ والاستتباع ولكن قد يتنبه في اثناء الامر او اخره اذ فيه العلوم المخوفة من الله تعالى المحقرة للدنيا المعظمة للاخرة وذلك يوشك ان يؤدي الى الصواب بالاخرة حتى يتعظ بما يعظ به غيره ويجري حب القبول والجاه مجرى الحب الذي ينثر حوالي الفخ ليقتنص به الطير وقد فعل الله تعالى ذلك بعباده اذ خلق الشهوة ليصل الخلق بها الى بقاء النسل وخلق ايضا حب الجاه ليكون سببا لاحياء العلوم وهذا متوقع في هذه العلوم فاما الخلافيات المحضة ومجادلات الكلام ومعرفة التفريعات الغريبة فلا يزيد التجرد لها مع الاعراض عن غيرها الا قسوة في القلب وغفلة عن الله وتماديا في الضلال وطلبا للجاه الا من تداركه الله برحمته او مزج

او مزج به غيره من العلوم الدينية ولا برهان على هذا كالتجربة والمشاهدة فانظر واعتبر واستبصر لتشاهد تحقيق ذلك في العباد والبلاد والله المستعان وقد رؤي سفيان الثوري رحمه الله تعالى حزينا فقيل له ما لك فقال صرنا متجرا لابناء الدنيا يلزمنا احدهم حتى اذا تعلم جعل عاملا او قاضيا او قهرمانا **الوظيفة الرابعة** وهي من دقائق صناعة التعليم ان يزجر المتعلم عن سوء الاخلاق بطريق التعريض ما امكن ولا يصرح وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث الجراة على الهجوم بالخلاف ويهيج الحرص على الاصرار قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو مرشد كل معلم لو منع الناس عن فت البعر لفتوه وقالوا ما نهينا عنه الا وفيه شي وينبهك على هذا قصة ادم وحوا عليهما السلم وما نهيا عنه فما ذكرت القصة معك لتكون سمرا بل لتتنبه بها على سبيل العبرة ولان التعريض ايضا يميل النفوس الفاضلة والاذهان الذكية الى استنباط معانيه فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة في العلم به ليعلم ان ذلك مما لا يعزب عن فطنته **الوظيفة الخامسة** ان المتكفل ببعض العلوم لا ينبغي ان يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراه كمعلم اللغة اذ عادته تقبيح علم الفقه ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير وان ذلك نقل محض وسماع وهو شان العجايز ولا نظر للعقل فيه ومعلم الكلام ينفر عن الفقه ويقول ذلك فروع وهو كلام في حيض النسوان فاين ذلك من الكلام في صفة الرحمن فهذه اخلاق مذمومة للمعلمين ينبغي ان تجتنب بل المتكفل بعلم واحد ينبغي ان يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره وان كان متكفلا بعلوم فينبغي ان يراعي التدريج في ترقية المتعلم من رتبة الى رتبة **الوظيفة السادسة** ان يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي اليه ما لا يبلغه عقله فينفره او يخبط عليه عقله اقتدا في ذلك بسيد البشر صلوات الله عليه حيث قال نحن معاشر الانبيا امرنا ان ننزل الناس منازلهم ونكلم الناس على قدر عقولهم فليبث اليه الحقيقة اذا علم انه يستقل بفهمها قال النبي صلى الله عليه وسلم ما احد يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم الا كان فتنة على بعضهم وقال علي عليه السلم واشار الى صدره ان ههنا لعلوما جمة لو وجدت لها حملة وصدق رضي الله عنه فقلوب الابرار قبور الاسرار فلا ينبغي ان يفشي العالم كل ما يعلم الى كل احد هذا اذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن اهلا للانتفاع به فكيف فيما لا يفهمه ولذلك قال عيسى عليه السلم لا تعلقوا الجواهر في اعناق الخنازير فان الحكمة خير من الجوهر ومن كرهها فهو شر من الخنازير ولذلك قيل كل لكل عبد بمعيار عقله وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع

ولا اوقع الاكنة لتفاوت العيار وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب فقال السائل اما
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من كتم علما نافعا جاء يوم القيمة ملجما بلجام من نار فقال اترك
اللجام واذهب فان جاء من يفقه وكتمته فليلجمني وقال الله تعالى ولا تؤتوا السفهاء اموالكم
تنبيها على ان حفظ العلم ممن يفسده ويضره اولى وليس الظلم في اعطاء غير المستحق باقل من الظلم
في منع المستحق من منح الجهال علما اضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم الوظيفة السابعة
ان المتعلم القاصر ينبغي ان يلقى اليه الجلي اللائق به ولا يذكر له ان وراء هذا تدقيقا
وهو يدخره عنه فان ذلك يفتر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه ويخيل اليه البخل به عنه اذ
يظن كل احد انه اهل لكل علم دقيق فما من احد الا وهو راض عن الله تعالى في كمال عقله واشدهم
حماقة واضعفهم عقلا هو افرحهم بكمال عقله وبهذا يعلم ان من تقيد من العوام
بقيد الشرع ورسخ في نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل وحسن
مع ذلك سريرته ولم يحتمل عقله اكثر من ذلك فلا ينبغي ان يشوش عليه اعتقاده بل ينبغي ان
يخلى وحرفته الوظيفة الثامنة ان يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله لان
العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالابصار وارباب الابصار اكثر فاذا خالف العمل العلم منع
الرشد وكل من تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه فانه سم مهلك سخر الناس به واتهموه
وزاد حرصهم عليه فيقولون لولا انه اطيب الاشياء والذها لما كان يستأثر به ومثل المعلم المرشد
من المسترشدين مثل النقش من الطين والعود من الظل وكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ومتى
استوى الظل والعود اعوج ولذلك قيل لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك
اذا فعلت عظيم وقال الله تعالى اتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم ولذلك كان وزر العالم
في معاصيه اكثر اذ يزل بزلته عالم كثير ويقتدون به ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها
ووزر من عمل بها ولذلك قال علي رضي الله عنه قصم ظهري رجلان عالم متهتك وجاهل متنسك فالجاهل
يغر الناس بتنسكه والعالم ينفرهم بتهتكه الباب السادس في آفات العلم وبيان علامات
علماء الآخرة وعلماء السوء قد ذكرنا ما ورد في فضائل العلم والعلماء وقد ورد في
العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على انهم اشد الخلق عذابا يوم القيمة فمن المهمات العظيمة
معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة ونعني بعلماء الدنيا علماء السوء الذين
قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل الى الجاه والمنزلة عند اهلها قال النبي صلى الله عليه وسلم اشد الناس

اشد الناس عذابا يوم القيمة عالم لم ينفعه الله بعلمه وقال ايضا يكون في آخر الزمان عباد
جهال وعلماء فساق وقال عليه السلام من كتم علما عنده الجم بلجام من نار وقال ايضا لانا من غير الدجال اخوف
عليكم من الدجال فقيل وما ذلك فقال الائمة المضلين وقال ايضا من ازداد علما ولم يزدد هدى
لم يزدد من الله الا بعدا ونظائره من الاخبار يدل على عظم خطر العلم وان العالم اما متعرض
لهلاك الابد او للسعادة الابد وانه بالخوض في العلم قد حرم السلامة ان لم يدرك السعادة
وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان العالم ليعذب عذابا يطيف به اهل النار استعظاما لشدة عذابه اراد به العالم الفاجر
وقال تعالى في قصة بلعم بن باعورا واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها حتى قال فمثله
كمثل الكلب اي سواء اوتي الحكمة ام لم يؤت فهو يلهث الى الشهوات وقال عيسى عليه السلام مثل علماء السوء
مثل صخرة وقعت على فم النهر لا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص الى الزرع ومثل علماء السوء
مثل قناة الحش ظاهرها جص وباطنها نتن ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى
وذكر رحمه الله كثيرا من الآثار في ذم العلماء السوء ثم قال فهذه الاخبار والآثار تبين ان العالم الذي
هو من ابناء الدنيا اخس حالا واشد عذابا من الجاهل وان الفائزين المقربين هم علماء الآخرة
ولهم علامات فمنها ان لا يطلب الدنيا بعلمه فان اقل درجات العالم ان يدرك حقارة الدنيا
وخستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ويعلم انهما
متضادتان وانهما كالضرتين مهما ارضيت احداهما اسخطت الاخرى وانهما ككفتي الميزان مهما
رجحت احداهما خفت الاخرى وانهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من احدهما بعدت من الآخر
وانهما كقدحين احدهما مملوء فبقدر ما تصب منه في الآخر حتى يمتلئ يفرغ من هذا فان من لا
يعلم حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذاتها بالمها ثم انصرام ما يصفو منها فهو فاسد العقل فان
المشاهدة والتجربة ترشد الى ذلك فكيف يكون من العلماء من لا عقل له ومن لا يعلم عظم امر الآخرة
ودوامها فهو كافر مسلوب الايمان فكيف يكون من العلماء من لا ايمان له ومن لا يعلم مضادة الدنيا
للآخرة وان الجمع بينهما طمع في غير مطمع فهو جاهل بشرائع الانبياء كلهم بل هو كافر بالقرآن من اوله
الى آخره فكيف يعد من زمرة العلماء ومن علم هذا كله ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو اسير الشيطان
قد اهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته فكيف يعد من احزاب العلماء من هذه درجته وفي
اخبار داود عليه السلام ان ادنى ما اصنع بالعالم اذا آثر شهوته على محبتي ان احرمه لذيذ مناجاتي يا
داود لا تسأل عني عالما قد اسكرته الدنيا فيصدك عن طريق محبتي اولئك قطاع الطريق على عبادي

يا داود اذا رايت لي طالبا فكن له خادما وكان يحيى بن معاذ الرازي يقول لعلماء
الدنيا يا اصحاب العلم قصوركم قيصرية وبيوتكم كسروية واثوابكم طاهرية واخفافكم
جالوتية ومراكبكم قارونية واوانيكم فرعونية ومآثمكم جاهلية ومذاهبكم شيطانية
فاين المحمدية وانشد وراعي الشاة يحمي الذئب عنها فكيف اذا الرعاة لها ذئاب و
قال بشر حدثنا باب من ابواب الدنيا واذا سمعت الرجل يقول حدثنا فانما يقول
اوسعوا لي ودفن بشر بن الحرث بضعة عشر ما بين قمطر وقوصرة من الكتب وكان يقول
انا اشتهي ان احدث ولو ذهبت عني شهوة الحديث حدثت وقال هو وغيره اذا اشتهيت
ان تحدث فلا تحدث واذا لم تشته فحدث وهذا لان التلذذ بجاه الافادة ومنصب
الارشاد اعظم من كل تنعم في الدنيا فمن اجاب شهوته فيه فهو من ابناء الدنيا ولذلك قال
الثوري فتنة الحديث اشد من فتنة الاهل والمال والولد وكيف لا تخاف فتنته وقد قيل
لسيد البشر صلوات الله عليه ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا وقال
سهل الناس موتى الا العلماء والعلماء سكارى الا العاملين والعاملون مغرورون الا
المخلصين والمخلص على وجل حتى يختم له به وقال ابو سليمان الداراني اذا طلب الرجل الحديث
او تزوج او سافر في طلب المعاش فقد ركن الى الدنيا وانما اراد به طلب الحديث الذي
لا يحتاج اليه في طريق الاخرة وقال بعض السلف العلماء يحشرون في زمرة الانبياء و
القضاة يحشرون في زمرة السلاطين وفي معنى القضاة كل فقيه قصده طلب الدنيا بعلمه
وروي ان رجلا كان يخدم موسى عم فجعل يقول حدثني موسى صفي الله حدثني موسى نجي الله
حدثني موسى كليم الله حتى اثرى وكثر ماله ففقده موسى فجعل يسال عنه فلا يحس له
اثرا حتى جاءه رجل ذات يوم وفي يده خنزير وفي عنقه حبل اسود فقال له موسى اتعرف
فلانا قال نعم هو هذا الخنزير فقال موسى يا رب اسالك ان ترده الى حاله حتى اساله
بما اصابه هذا فاوحى الله اليه لو دعوتني بالذي دعاني به آدم فمن دونه ما اجبتك فيه
ولكن اخبرك لم صنعت هذا به لانه كان يطلب الدنيا بالدين واغلظ من هذا ما روى
معاذ بن جبل موقوفا ومرفوعا في رواية عن رسول الله صلعم قال من فتنة العالم ان يكون الكلام
احب اليه من الاستماع وفي الكلام تنميق وزيادة ولا يؤمن على صاحبه الخطاء وفي الصمت
سلامة وعلم ومنها ان لا يخالف فعله قوله بل لا يامر بالشيء ما لم يكن هو اول عامل به قال

الله تع اتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وقال تع كبر مقتا عند الله ان
تقولوا ما لا تفعلون وقال تع في قصة شعيب وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم
عنه وقال تع واتقوا الله ويعلمكم الله واتقوا الله واعلموا واتقوا الله واسمعوا
وقال تع لعيسى عم يا ابن مريم عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحي مني
وقال رسول الله صلعم مررت ليلة اسري بي باقوام تقرض شفاههم بمقاريض
من نار فقلت من انتم فقالوا كنا نامر بالخير ولا نفعله وقال ابراهيم بن ادهم مررت
بحجر مكتوب عليه اقلبني تعتبر فقلبته فاذا عليه انت بما لا تعلم لا تعمل فكيف تطلب علم
ما لا تعلم ومنها ان يكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الاخرة المرغب في الطاعات
مجتنبا للعلوم التي يقل نفعها ويكثر فيها الجدال والقيل والقال فمثال المعرض عن علم
الاعمال والمشتغل بالجدال مثال رجل مريض به علل كثيرة وقد صادف طبيبا حاذقا في وقت
ضيق يخشى فواته فاشتغل بالسؤال عن خاصية العقاقير والادوية وغرائب الطب
وترك مهمه الذي هو مؤاخذ به وذلك محض السفه وقد روي ان رجلا جاء الى
رسول الله صلعم فقال علمني من غرائب العلم فقال ما صنعت في راس العلم قال وما راس العلم
قال هل عرفت الرب قال نعم قال وما صنعت في حقه قال ما شاء الله قال هل عرفت الموت
قال نعم قال فما اعددت له قال ما شاء الله قال اذهب فاحكم ما هناك ثم تعال نعلمك
غرائب العلم بل ينبغي ان يكون المتعلم من جنس ما روي عن حاتم الاصم تلميذ شقيق البلخي انه
قال له شقيق منذ كم صحبتني فقال حاتم منذ ثلث وثلثين سنة قال فما تعلمت مني في هذه
المدة قال ثمان مسائل قال شقيق انا لله وانا اليه راجعون ذهب عمري معك ولم
تتعلم الا ثمان مسائل قال يا استاد لم اتعلم غيرها ولا احب ان اكذب فقال هات هذه
الثماني مسائل حتى اسمعها قال حاتم نظرت الى هذا الخلق فرايت كل واحد يحب محبوبا
فهو مع محبوبه الى القبر فاذا وصل الى القبر فارقه فجعلت الحسنات محبوبي فاذا دخلت
القبر دخل محبوبي معي فقال احسنت يا حاتم فما الثانية قال نظرت في قول الله عز وجل
واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي الماوى فعلمت ان قوله سبحانه
هو الحق فاجهدت نفسي في دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تع الثالثة اني نظرت
الى هذا الخلق فرايت كل من معه شيء له قيمة ومقدار رفعه وحفظه ثم نظرت

في قول الله عز وجل ما عندكم ينفد وما عند الله باق فكلما وقع معي شيء له قيمة ومقدار وجهته
اليه ليبقى عنده والرابعة اني نظرت الى هذا الخلق فرايت كل واحد منهم يرجع الى المال
والى الحسب والشرف والنسب فنظرت اليها فاذا هي لا شيء ثم نظرت الى قول الله عز وجل ان اكرمكم
عند الله اتقاكم فعملت في التقوى حتى اكون عند الله كريما والخامسة نظرت الى هذا الخلق وهم
يطعن بعضهم في بعض ويلعن بعضهم بعضا واصل هذا كله الحسد ثم نظرت الى قول الله عز وجل
نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحيوة الدنيا فتركت الحسد واجتنبت الخلق وعلمت ان القسم من
عند الله وتركت عداوة الخلق عني السادسة نظرت الى هذا الخلق يبغي بعضهم على بعض و
يقاتل بعضهم بعضا فرجعت الى قوله تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا فعاديته وحده
واجتهدت في اخذ حذري منه لان الله تعالى شهد عليه انه عدو لي فتركت عداوة الخلق غيره السابعة
نظرت الى هذا الخلق فرايت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل فيها نفسه ويدخل فيما لا يحل له
ثم نظرت الى قوله تعالى وما من دابة في الارض الا على الله رزقها فعلمت اني واحد من هذه الدواب
التي على الله رزقها فاشتغلت بما لله علي وتركت ما لي عنده الثامنة نظرت الى هذا الخلق فرايتهم
كلهم متوكلين هذا على ضيعته وهذا على تجارته وهذا على صناعته وهذا على صحة بدنه وكل مخلوق
متوكل على مخلوق فرجعت الى قوله تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه فتوكلت على الله فهو حسبي
قال شقيق يا حاتم وفقك الله فاني نظرت في علوم التورية والانجيل والزبور والقران العظيم
فهي تدور على هذه الثمان مسائل فمن استعملها فقد استعمل الكتب الاربعة فهذا الفن من العلم
لا يهتم بادراكه والتفطن له الا علماء الاخرة واما علماء الدنيا فيشتغلون بما تيسر به اكتساب المال والجاه
ويهملون امثال هذه العلوم التي بعث الله بها الانبياء كلهم وقال الضحاك بن مزاحم ادركتهم
وما يتعلمون بعضهم من بعض الا الورع وهم اليوم ما يتعلمون الا الكلام ومنها ان يكون غير مائل
الى الترفه في المطعم والتنعم في الملبس والتجمل في الاثاث والمسكن بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك
ويتشبه فيه بالسلف ويميل الى الاكتفاء بالاقل في جميع ذلك وكلما ازداد الى طرف القلة ميله ازداد من
الله تعالى قربه وارتفع في علماء الاخرة حزبه ويشهد لذلك ما حكي عن ابي عبد الله الخواص وكان
من اصحاب حاتم الاصم قال الحكاية ثم قال رحمه الله هذه حكاية حاتم وسياتي من سيرة السلف
الفلانية وترك التجمل ما يشهد لذلك في مواضعه والتحقيق فيه ان التزين بالمباح ليس بحرام
ولكن الخوض فيه يوجب الانس به حتى يشق تركه واستدامة الزينة لا يمكن الا بمباشرة اسباب في الغالب

في الغالب يلزم من مراعاتها ارتكاب المعاصي من المداهنة ومراعاة الخلق ومراياتهم وامور اخرى
محظورة والحزم اجتناب ذلك لان من خاض في الدنيا لا يسلم منها البتة ولو كانت السلامة
مبذولة مع الخوض لكان صلى الله عليه وسلم لا يبالغ في ترك الدنيا حتى نزع القميص المعلم ونزع
خاتم الذهب في اثناء الخطبة الى غير ذلك مما سياتي بيانه ومنها ان يكون منقبضا عن السلاطين
فلا يدخل عليهم البتة ما دام يجد الى الفرار عنهم سبيلا بل ينبغي ان يحترز عن مخالطتهم وان جاؤا اليه
فان الدنيا حلوة خضرة وزمامها بايدي السلاطين والمخالط لهم لا يخلو عن تكلف في طلب مرضاتهم
واستمالة قلوبهم مع انهم ظلمة ويجب على كل متدين الانكار عليهم وتضييق صدورهم باظهار ظلمهم
وتقبيح فعلهم فالداخل عليهم اما ان يلتفت الى تجملهم فيزدري نعمة الله عليه او يسكت عن الانكار
عليهم فيكون مداهنا لهم او يتكلف في كلامه لمرضاتهم وتحسين حالهم وذلك هو البهت الصريح او يطمع
في ان ينال من دنياهم وذلك هو السحت وسياتي في كتاب الحلال والحرام ما يجوز ان ياخذ
من اموال السلاطين وما لا يجوز ومنها ان لا يكون مسارعا الى الفتوى بل يكون متوقفا
ومحترزا ما وجد الى الخلاص سبيلا فان سئل عما يعلمه تحقيقا بنص كتاب او بنص حديث او
اجماع او قياس جلي افتى وان سئل عما يشك فيه قال لا ادري وان سئل عما يظنه باجتهاد و
تخمين احتاط ودفع عن نفسه واحال على غيره ان كان في غيره غنية هذا هو الحزم لان تقلد
الاجتهاد عظيم وفي الخبر العلم ثلثة كتاب ناطق وسنة قائمة ولا ادري قال الشعبي لا ادري
نصف العلم ومن سكت حيث لا يدري لله فليس باقل اجرا ممن نطق لان الاعتراف بالجهل اشد
على النفس وهكذا كانت عادة الصحابة والسلف وقال ابن مسعود ان الذي يفتي الناس في كل
ما يستفتونه لمجنون ومنها ان يكون اكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب ومعرفة طريق
الاخرة وسلوكه وصدق الرجاء في انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة فان المجاهدة تفضي
الى المشاهدة وفي دقائق علم القلوب تتفجر ينابيع الحكمة من القلب واما الكتب والتعليم فلا
تفي بذلك بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعد انما تنفتح بالمجاهدة والمراقبة ومباشرة
الاعمال الظاهرة والباطنة والجلوس مع الله في الخلوة مع حضور القلب بصافي الفكر
والانقطاع الى الله عما سواه فذلك مفتاح الالهام ومنبع الكشف فكم من متعلم طال تعلمه ولم
يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة وكم من مقتصر على المهم في التعلم ومتوفر على العمل ومراقبة
القلب فتح الله له من لطائف الحكم ما تحار فيه عقول ذوي الالباب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم

صلى الله عليه وآله من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم وفي بعض الكتب السالفة يا بني اسرائيل لا
تقولوا العلم في السماء من ينزل به ولا في تخوم الارض من يصعد به ولا من وراء البحار من يعبر
فيأتي به العلم مجعول في قلوبكم تأدبوا بين يدي بآداب الروحانيين وتخلقوا الي باخلاق
الصديقين اظهر العلم من قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم وقال عليه السلام فيما يرويه عن ربه لا يزال
العبد يتقرب الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت له سمعا وبصرا الحديث فكم من معاني
دقيقة من اسرار القران تخطر على قلب المتجردين للذكر والفكر تخلو عنها كتب التفاسير ولا يطلع
عليها افاضل المفسرين واذا انكشف ذلك للمراقب وعرض على المفسرين استحسنوه وعلموا ان ذلك
من تنبيهات القلوب الزكية والطاف الله تعالى بالهمم المتوجهة اليه وكذلك في علوم المكاشفة
واسرار علوم المعاملة ودقائق خواطر القلوب فان كل علم من هذه العلوم بحر لا يدرك عمقه
وانما يخوضه كل طالب بقدر ما رزق وبحسب ما وفق له من حسن العمل وفي وصف هؤلاء العلماء
قال علي عليه السلام في حديث طويل القلوب اوعية وخيرها اوعاها والناس ثلاثة عالم رباني الخ
ومنها ان يكون شديد العناية بتقوية اليقين فان اليقين هو راس مال الدين قال صلى الله
عليه وآله اليقين الايمان كله ولا بد من تعلم علم اليقين اعني اوائله ثم ينفتح للقلب طريقه ولذلك
قال عليه السلام تعلموا اليقين ومعناه جالسوا الموقنين واسمعوا منهم علم اليقين وواظبوا على الاقتداء
بهم ليقوى يقينكم كما قوي يقينهم وقليل من اليقين خير من كثير من العمل وقال عليه السلام لما قيل له رجل
حسن اليقين كثير الذنوب ورجل مجتهد في العبادة قليل اليقين فقال ما من آدمي الا وله
ذنوب ولكن من كان غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب لانه كلما اذنب تاب
واستغفر الله وندم فتكفر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة ولذلك قال عليه السلام ان من اقل ما
اوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن اعطي حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام
النهار وفي وصية لقمان لابنه يا بني لا يستطاع العمل الا باليقين ولا يعمل المرء الا بقدر يقينه
ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه وقال يحيى بن معاذ ان للتوحيد نورا وللشرك نارا
وان نور التوحيد احرق لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين واراد به اليقين
وقد اشار القرآن الى ذكر الموقنين في مواضع دل به على ان اليقين هو الرابطة للخيرات و
السعادات فان قلت فما معنى اليقين وما معنى قوته وضعفه فاعلم ان اليقين لفظ
مشترك يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين اما النظار والمتكلمون فيعبرون به عن عدم الشك

الشك فعلى هذا لا يوصف اليقين بالضعف اذ لا تفاوت في نفي الشك اذ ميل النفس الى
التصديق بالشيء له اربع مقامات الاول ان يعتدل التصديق والتكذيب ويعبر عنه بالشك الثاني
ان تميل نفسك الى احد الامرين مع الشعور بامكان نقيضه ولكنه امكان لا يمنع الترجيح الى
عن هذه الحالة يسمى ظنا الثالث ان تميل النفس الى التصديق بشيء بحيث يغلب عليها ولا
يخطر بالبال نقيضه ولو خطر لأبت النفس عن قبوله ولكن ليس ذلك عن معرفة محققة
اذ لو احسن صاحب هذا المقام التأمل والاصغاء الى التشكيك والتجويز اتسعت نفسه
للتجويز ويسمى هذا اعتقادا مقاربا لليقين وهو اعتقاد العوام في الشرعيات كلها اذ رسخ
في نفوسهم بمجرد السماع حتى ان كل فرقة تثق بصحة مذهبها واصابة امامها ومتبوعها ولو
ذكر لاحدهم امكان خطاء امامه نفر عن قبوله الرابع المعرفة الحقيقية اي المعرفة
الحاصلة بطريق البرهان الذي لا يشك فيه ولا يتصور الشك فيه فاذا امتنع وجود
الشك وامكانه يسمى يقينا عند هؤلاء ومثاله انه اذا قيل للعاقل هل في الوجود شيء هو قديم
ولا يمكنه التصديق به بالبديهة لان القديم غير محسوس لا كالشمس والقمر فانه يصدق بوجودهما
بالحس وليس العلم بوجود شيء قديم ازلي ضروريا مثل العلم بان الاثنين اكثر من الواحد
فحق غريزة العقل ان تتوقف عن هذا التصديق ثم من الناس من يسمع ذلك ويصدق به
تصديقا جزما ويستمر عليه وذلك هو الاعتقاد وهو حال جميع العوام ومن الناس من يصدق
به بالبرهان وهو ان يقال ان لم يكن في الوجود قديم فالموجودات كلها حادثة فهي بلا
سبب او فيها حادث بلا سبب وهو محال وكل علم حصل على هذا الوجه يسمى يقينا سواء
حصل بنظر مثل ما ذكرناه او بحس او بغريزة العقل كالعلم باستحالة حادث بلا سبب او بتواتر
كالعلم بوجود مكة او بتجربة الاصطلاح الثاني اصطلاح الفقهاء والصوفية واكثر العلماء وهو ان لا
يلتفت فيه الى اعتبار التجويز والشك بل الى استيلائه وغلبته على القلب حتى يقال فلان ضعيف
اليقين بالموت مع انه لا يشك فيه ويقال فلان قوي اليقين في اتيان الرزق مع انه قد
يجوز ان لا ياتيه فمهما مالت النفس الى التصديق بشيء وغلب ذلك على القلب واستولى
عليه حتى صار هو المتحكم والمتصرف في النفس بالتجويز والمنع سمي ذلك يقينا ولا شك في ان الناس
يشتركون في القطع بالموت والانفكاك عن الشك فيه ولكن فيهم من لا يلتفت اليه والى الاستعداد له
وكانه غير موقن به ومنهم من استولى ذلك على قلبه حتى استغرق همه بالاستعداد له ولم

فيه يستعمل العبارة فيعبر عن هذه الحالة بقوة اليقين وعلى هذا الاصطلاح يوصف
اليقين بالضعف والقوة ونحن اردنا بقولنا ان من شان علماء الاخرة صرف العناية
الى تقوية اليقين بالمعنيين جميعا وهو نفي الشك ثم تسليط اليقين على النفس فاما اليقين ح
متعلقات اليقين ومجاريه وفيما يطلب اليقين فاعلم ان جميع ما ورد به
عن الانبياء من اوله الى آخره هو من مجاري اليقين فان اليقين عبارة عن معرفة
مخصوصة ومتعلقه المعلومات التي وردت بها الشرائع فلا مطمع في احصائها ولكني
اشير الى بعضها امهاتها فمن ذلك التوحيد وهو ان يرى الاشياء كلها من مسبب الاسباب
ولا يلتفت الى الوسايط بل يرى الوسايط مسخرة لا حكم لها فالمصدق بهذا مومن فان
انتفى عن قلبه مع الايمان امكان الشك فهو موقن باحد المعنيين فان غلب على قلبه
غلبة ازالت عنه الغضب على الوسايط والرضا عنهم والشكر لهم ونزل الوسايط في قلبه
منزلة القلم واليد في حق المنعم بالتوقيع فانه لا يشكر القلم ولا اليد ولا يغضب عليهما
بل يراهما آلتين وواسطتين فقد صار موقنا بالمعنى الثاني وهو الاشرف وهو ثمرة
اليقين الاول وروحه وفايدته ومهما تحقق ان الشمس والقمر والنجوم والجماد والنبات
والحيوان وكل مخلوق فهي مسخرات بامره حسب تسخير القلم في يد الكاتب وان القدرة
الازلية هي المصدر للكل استولى عليه التوكل والرضا والتسليم وصار بريا من الغضب
والحقد والحسد وسوء الخلق فهذا احد ابواب اليقين ومن ذلك الثقة بضمان الله
بالرزق في قوله تعالى وما من دابة في الارض الا على الله رزقها واليقين بان ذلك ياتيه
وان ما قدر له سيساق اليه ومهما غلب ذلك على قلبه كان مجملا في الطلب ولم يشتد
حرصه وشرهه وتاسفه على ما يفوته واثمر هذا اليقين ايضا جملة من الطاعات والاخلاق
الحميدة ومن ذلك ان يغلب على قلبه ان من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال
ذرة شرا يره وهو اليقين بالثواب والعقاب حتى يرى نسبة الطاعات الى الثواب
كنسبة الخبز الى الشبع ونسبة المعاصي الى العقاب كنسبة السموم والافاعي الى الهلاك فكما
يحرص على تحصيل الخبز طلبا للشبع فيحفظ قليله وكثيره فكذلك يحرص على الطاعات قليلها
وكثيرها وكما يجتنب قليل السم وكثيره فيجتنب قليل المعاصي وكثيرها وصغيرها وكبيرها
واليقين بالمعنى الاول قد يوجد لعموم المومنين اما بالمعنى الثاني فيختص به المقربون

المقربون وثمرة هذا اليقين صدق المراقبة في الحركات والسكنات والخطرات وفي
المبالغة في التقوى والاحتراز من السيئات وكلما كان اليقين اغلب كان الاحتراز
حس اشد والتشمر ابلغ ومن ذلك اليقين بان الله مطلع عليك في كل حال ومشاهد لهواجس
ضميرك وخفايا خواطرك وفكرك وهذا متيقن عند كل مومن بالمعنى الاول وهو عدم
الشك واما بالمعنى الثاني وهو المقصود فهو عزيز يختص به الصديقون وثمرته ان يكون الانسان
في خلوته متادبا في جميع احواله كالجالس بمشهد ملك معظم ينظر اليه فانه لا يزال مطرقا متادبا
متماسكا محترزا عن كل حركة تخالف هيئة الادب ويكون في فكرته الباطنة كهو في اعماله الظاهرة
اذ يتحقق ان الله تعالى مطلع على سريرته كما يطلع الخلق على ظاهره فتكون مبالغته في عمارة
باطنه وتطهيره وتزيينه لعين الله الكالية اشد من مبالغته في تزيين ظاهره لساير الناس
وهذا المقام في اليقين يورث الحيا والخوف والانكسار والذل والاستكانة والخضوع و
جملة من الاخلاق المحمودة وهذه الاخلاق تورث انواعا من الطاعات رفيعة فاليقين في
كل باب من هذه الابواب مثل الشجرة وهذه الاخلاق في القلب كالاغصان المتفرعة منها
وهذه الاعمال والطاعات الصادرة من الاخلاق كالثمار وكالانوار المتفرعة من الاغصان
فاليقين هو الاساس والاصل وله مجار وابواب اكثر مما عددناه وسياتي ذلك في ربع
المنجيات وهذا القدر كاف في تفهيم معنى اللفظ الآن ومنها ان يكون حزينا منكسرا
مطرقا صامتا يظهر اثر الخشية على هيئته وكسوته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكوته لا
ينظر اليه ناظر الا وكان نظره مذكرا لله وكانت صورته دليلا على عمله فالجواد عينه فراره وعلماء
الاخرة يعرفون بسيماهم في السكينة والذلة والتواضع وقد قيل ما البس الله عبدا لبسة
احسن من خشوع في سكينة فهي لبسة الانبياء وسيما الصديقين والعلماء فاما التهافت في الكلام
والتشدق والاستغراق في الضحك والحدة في الحركة والنطق فكل ذلك من آثار البطر والامن
والغفلة عن عظيم عقاب الله وشديد سخطه وهو داب ابناء الدنيا الغافلين عن الله دون
العلماء به وهذا لان العلماء ثلثة كما قال سهل التستري عالم بامر الله لا بايام الله وهم المفتون في
الحلال والحرام وهذا العلم لا يورث الخشية وعالم بالله لا بامر الله ولا بايام الله وهم عموم المومنين
وعالم بالله وبامر الله وبايام الله وهم الصديقون والخشية والخشوع انما تغلب عليهم واراد بايام
الله انواع عقوباته الغامضة ونعمه الباطنة التي افاضها على القرون السالفة واللاحقة من

[illegible] ح

امانا يوم القيمة اكثرهم فكرا في

اطلع بذلك عظم خوفه وظهر خشوعه وقال صلى الله عليه وسلم ان اكثر الناس في الاخرة اطولهم حزنا
في الدنيا واكثر الناس ضحكا في الاخرة اكثرهم بكاء في الدنيا واشد الناس فرحا في الاخرة
اطولهم حزنا في الدنيا ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام قيل
ما هذا الشرح فقال ان النور اذا قذف في القلب انشرح له الصدر وانفسح قيل فهل لذلك
من علامة قال نعم التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله

علامة شرح الصدر

ومنها ان يكون اكثر بحثه في علم الاعمال عما يفسدها ويشوش القلوب ويهيج الوسواس ويثير
الشر فان اصل الدين التوقي من الشر ولذلك قيل عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف
الشر من الخير يقع فيه ولان الاعمال الفعلية قريبة واقصاها المواظبة على ذكر الله تعالى بالقلب
واللسان وانما الشان في معرفة ما يفسدها ويشوشها وهذا مما تكثر شعبه ويطول تفريعه
وكل ذلك مما يغلب مسيس الحاجة اليه وتعم به البلوى في سلوك طريق الاخرة واما علماء الدنيا
فانهم يتبعون غرايب التفريع في الحكومات والاقضية ويتعبون في وضع صور تنقضي الدهور
ولا تقع وان وقع ذلك فانما يقع لغيرهم لا لهم واذا وقع كان في القائمين بكثرة ويتركون ما
يلازمهم ويتكرر عليهم آناء الليل واطراف النهار في خواطرهم ووساوسهم واعمالهم وما ابعد عن
السعادة من باع مهم نفسه اللازم بمهم غيره النادر ايثارا للقبول والتقرب من الخلق على التقرب
من الله تعالى وشرها في ان يسميه البطالون من ابناء الدنيا فاضلا محققا عالما بالدقايق و
جزاؤه من الله ان لا ينتفع في الدنيا بقبول الخلق بل يتكدر عليه صفوه بنوايب الزمان ثم
يرد القيمة مفلسا متحسرا على ما يشاهده من ربح العاملين وفوز المقربين وذلك هو الخسران
المبين ولقد كان الحسن البصري رحمه الله اشبه الناس كلاما بكلام الانبياء واقربهم هديا
من الصحابة اتفقت الكلمة في حقه على ذلك وكان اكثر كلامه في خواطر القلوب وفساد الاعمال ووساوس النفوس
والصفات الخفية الغامضة من شهوات النفس وقد قيل له يا ابا سعيد انك تكلم الكلام ليس
تسمع من غيرك فمن اين اخذته فقال من حذيفة بن اليمان وقيل لحذيفة نراك تتكلم لا تسمع من
غيرك من الصحابة فمن اين اخذته فقال خصني به رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الناس يسالونه عن الخير
وكنت اساله عن الشر مخافة ان اقع فيه وعلمت ان الخير لا يسبقني وقال مرة فعلمت ان من لا يعرف
الشر لا يعرف الخير وفي لفظ اخر كان الناس يقولون يا رسول الله ما لمن عمل كذا وكذا يسالونه
عن فضايل الاعمال وكنت اقول يا رسول الله ما يفسد كذا وكذا فلما راني اسال عن افات الاعمال

خصني بهذا

الاعمال خصني بهذا العلم وكان حذيفة ايضا قد خص بعلم المنافقين وافرد بمعرفة علم النفاق و
اسبابه ودقايق الفتن [illegible] عمر رضي الله عنه اذا دعي الى جنازة نظر فان حضر حذيفة صلى عليها والا ترك
كان يسمى صاحب السر فالعناية بمقامات القلب واحواله دأب علماء الاخرة لان القلب هو الساعي
الى قرب الله وقد صار هذا الفن غريبا مندرسا واذا تعرض العالم لشيء منه استغرب واستبعد
وقيل هذا تزويق المذكرين فاين التحقيق ويرون التحقيق في دقايق المجادلات ولقد صدق
من قال الطرق شتى وطريق الحق مفردة والسالكون طريق الحق افراد لا يعرفون ولا تدرى مقاصدهم فهم
على مهل يمشون قصاد والناس في غفلة عما يراد بهم فجلهم عن سبيل الحق رقاد وعلى الجملة لا يميل
اكثر الخلق الا الى الاسهل والاوفق لطباعهم فان الحق مر والوقوف عليه صعب وادراكه شديد
وطريقه مستوعر لا سيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الاخلاق المذمومة فان ذلك
نزع الروح على الدوام وصاحبه ينزل منزلة الشارب للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء
وينزل منزلة من جعل مدة العمر صومه فهو يقاسي الشدايد ليكون فطره عند الموت
ومنها ان يكون اعتماده في علومه على بصيرته وادراكه بصفاء قلبه لا على الصحف والكتب
ولا على تقليد ما يسمعه من غيره وانما المقلد صاحب الشرع صلوات الله عليه فيما امره
وقاله وانما يقلد الصحابة من حيث ان فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم اذا قلد
صاحب الشرع صلوات الله عليه في تلقي اقواله وافعاله بالقبول فينبغي ان يكون حريصا
على فهم اسراره فان المقلد انما يفعل الفعل لان رسول الله صلى الله عليه وسلم فعله وفعله
لا بد وان يكون لسر فيه فينبغي ان يكون شديد البحث عن اسرار الاعمال والاقوال فانه
ان اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم ولم يكن عالما ولذلك كان يقال فلان من اوعية
العلم وكان لا يسمى عالما اذا كان شانه الحفظ من غير اطلاع على الحكم والاسرار ومن كشف
عن قلبه الغطا واستنار بنور الهداية صار في نفسه متبوعا مقلدا فلا ينبغي ان يقلد
غيره ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما ما من احد الا يؤخذ من علمه ويترك الا رسول الله صلى الله عليه وسلم
ومنها ان يكون شديد التوقي من محدثات الامور وان اتفق عليها الجمهور فلا يغره
اطباق الخلق على ما احدث بعد الصحابة وليكن حريصا على التفتيش عن احوال الصحابة و
سيرتهم واعمالهم وما كان فيه اكثر همهم اكان في التدريس والتصنيف والمناظرة و
القضاء والولاية وتولي الاوقاف والوصايا واكل مال الايتام ومخالطة السلاطين و

ومجالستهم في العشرة او في الخوف والحزن والتفكر والمجاهدة ومراقبة الباطن و الظاهر
واجتناب دقيق الاثم وجليه والحرص على ادراك خفايا شهوات النفس ومكايد
الشيطان الى غير ذلك من علوم الباطن حكي عن ابليس انه بث جنوده في وقت
الصحابة فرجعوا اليه محسورين فقال ما شانكم فقالوا ما رأينا مثل هؤلاء ما نصيب
منهم شيئا قد اتعبونا فقال انكم لا تقدرون عليهم قد صحبوا نبيهم وشهدوا تنزيل
ربهم ولكن سياتي بعدهم قوم تنالون منهم حاجتكم فلما جاء التابعون بث جنوده
فرجعوا اليه منكسرين فقالوا ما رأينا اعجب من هؤلاء نصيب منهم الشيء بعد الشيء
من الذنوب فاذا كان اخر النهار اخذوا في الاستغفار فيبدل الله سيئاتهم حسنات
فقال انكم لن تنالوا من هؤلاء شيئا لصحة توحيدهم واتباعهم سنة نبيهم ولكن سياتي
بعد هؤلاء قوم تقر اعينكم بهم تلعبون بهم لعبا وتقودونهم بازمة اهوائهم كيف
شئتم ان استغفروا لم يغفر لهم ولا يتوبون فيبدل الله سيئاتهم حسنات قال فجاء
قوم بعد القرن الاول فبث فيهم الاهواء وزين لهم البدع فاستحلوها و
اتخذوها دينا لا يستغفرون منها ولا يتوبون منها فسلط عليهم الاعداء وقادتهم
اين شاؤا فان قلت من اين عرف قائل هذا ما قاله ولم يشاهد ابليس ولا حدثه
بذلك فاعلم ان ارباب القلوب يكاشفون باسرار الملكوت تارة على سبيل
الالهام بان يخطر لهم على سبيل الورود عليهم من حيث لا يعلمون وتارة على سبيل الرؤيا
الصادقة وتارة في اليقظة على سبيل كشف المعاني بمشاهدة الامثلة كما يكون في المنام
وهذا اعلى الدرجات وهي من درجات النبوة العالية كما ان الرؤيا الصادقة جزء من
ستة واربعين جزءا من النبوة فاياك ان يكون حظك من العلم انكار كل ما جاوز
حد قصورك ففيه هلك المتحذلقون من العلماء الزاعمين انهم احاطوا بعلوم المعقول
والجهل خير من عقل يدعو الى انكار مثل هذه الامور لاولياء الله ومن انكر ذلك
للاولياء لزمه انكاره للانبياء وكان خارجا عن الدين بالكلية وقال بعض العارفين
انما انقطع الابدال في اطراف الارض فاستتروا عن اعين الجمهور لانهم لا يطيقون
النظر الى علماء الوقت لانهم عندهم جهال بالله تعالى وهم عند الجاهلين علماء قال سهل
التستري رحمه الله ان من اعظم المعاصي الجهل بالجهل والنظر الى العامة واستماع كلام

كلام اهل الغفلة فكل عالم خاض في الدنيا فلا ينبغي ان يصغى الى قوله بل ينبغي ان يتهم في كل ما يقول
لان كل انسان يخوض فيما يحب ويدفع ما لا يوافق محبوبه ولذلك قال الله تعالى ولا تطع من
اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطا والعوام العصاة اسعد حالا من الجهال
بطريق الدين المعتقدين انهم من العلماء لان العاصي معترف بتقصيره فيستغفر ويتوب
وهذا الجاهل الظان انه عالم فان ما هو مشتغل به من العلوم التي هي وسائل الى الدنيا عن سلوك
طريق الدين فلا يتوب ولا يستغفر بل لا يزال مستمرا عليه الى الموت واذا غلب هذا على اكثر
الناس الا من عصمه الله وانقطع الطمع من اصلاحهم فالاسلم لذي الدين المحتاط العزلة والانفراد عنهم كما
سياتي في كتاب العزلة بيانه فان مخالطة الناس لا تنفك عن غيبة او عن سكوت على
منكر وحسن احوال الناس يعني علما ولو تامل علم ان المستفيد انما يريد ان يجعل ذلك آلة
في طلب الدنيا ووسيلة الى الشر فيكون هو معينا له ردءا وظهيرا ومهيئا للاسباب كالذي
يبيع السيف من قاطع الطريق فالعلم كالسيف وصلاحه للخير كصلاح السيف للغزو ولذلك
لا يرخص في البيع ممن يعلم بقرائن احواله انه يريد به الاستعانة على قطع الطريق فهذه
اثنا عشر علامة من علامات علماء الآخرة يجمع كل واحدة منها جملة من اخلاق علما
السلف فكن احد رجلين اما متصفا بهذه الصفات او معترفا بالتقصير مع الاقرار
به واياك ان تكون الثالث فتلبس على نفسك بان تبدل آلة الدنيا بالدين وتشبه سيرة البطالين
بسيرة العلماء الراسخين وتلتحق بجهلك وانكارك بزمرة الهالكين الآيسين نعوذ
بالله من خدع الشياطين فبها هلك الجمهور فنسأل الله ان يجعلنا ممن لا تغره الحياة الدنيا
ولا يغره بالله الغرور

الباب السابع في العقل وشرفه وحقيقته واقسامه

بيان شرف العقل اعلم ان هذا ما لا يحتاج الى تكلف في اظهاره لا سيما وقد ظهر
شرف العلم من قبل العقل والعقل منبع العلم ومطلعه واساسه والعلم يجري منه مجرى الثمرة
من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة
في الدنيا والاخرة او كيف يستراب فيه والبهيمة مع قصور تمييزها تحتشم العقل حتى ان
اعظم البهائم بدنا واشدها ضراوة واقواها سطوة اذا راى صورة الانسان احتشمه وهابه
لشعوره باستيلائه عليه بما خص به من ادراك الحيل ولذلك قال عليه السلام الشيخ في قومه
كالنبي في امته وليس ذلك لكثرة ماله ولا لكبر شخصه ولا لزيادة قوته بل لزيادة تجربته التي

او عن سماع غيبة [illegible]

بلغ

من غير عقله ولذلك ترى الاكراد والاتراك واجلاف الخلق مع قرب رتبتهم من البهائم
يوقرون المشايخ بالطبع ولذلك حين قصد كثير من المعاندين قتل رسول الله صلى الله عليه وآله فلما وقعت
اعينهم عليه واكتحلوا بغرته الكريمة هابوه وتراءى لهم ما كان يتلألأ على ديباجة وجهه من نور
النبوة وان كان ذلك باطنا في نفسه بطون العقل وشرف العقل مدرك بالضرورة وانما
القصد ان نورد ما وردت به الاخبار والآيات في ذكر شرفه وقد سماه الله تعالى نورا
في قوله الله نور السموات والارض وسمى العلم المستفاد منه روحا ووحيا وحياة فقال تعالى
اليك روحا من امرنا وقال تعالى او من كان ميتا فاحييناه وحيث ذكر النور والظلمة اراد
العلم والجهل كقوله تعالى يخرجهم من الظلمات الى النور وقال صلى الله عليه وآله اول ما خلق الله
العقل فقال له اقبل فاقبل الخ وعن انس بن مالك قال اثنى قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وآله
كيف عقل الرجل فقالوا نخبرك عن اجتهاده في العبادة واصناف الخير وتسألنا عن عقله
فقال رسول الله صلى الله عليه وآله ان الاحمق يصيب بجهله اعظم من فجور الفاجر وانما يرتفع العباد غدا
في الدرجات والزلفى من ربهم على قدر عقولهم وعن عمر رضي الله عنه قال ما اكتسب رجل مثل فضل عقل
يهدي صاحبه الى هدى ويرده عن ردى وما تم ايمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل
عقله الى غير ذلك من الاخبار والآثار والاحاديث ثم ذكر رحمه الله تعالى بيان حقيقة العقل
واقسامه قال اعلم ان الناس اختلفوا في حد العقل وحقيقته وذهل الاكثرون
عن كون هذا الاسم مطلقا على معان مختلفة فصار ذلك سبب اختلافهم والحق الكاشف
للغطاء فيه ان العقل اسم يطلق بالاشتراك على اربعة معان كما يطلق اسم العين مثلا على
معان عدة وما يجري هذا المجرى فلا ينبغي ان يطلب لجميع اقسامه حد واحد بل يفرد كل قسم
بالكشف عنه فالاول الوصف الذي يفارق الانسان به سائر البهائم وهو الذي
استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية وهو الذي اراده
الحارث المحاسبي رحمه الله حيث قال في حد العقل انه غريزة يتهيأ بها لادراك العلوم النظرية
وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لادراك الاشياء ولم ينصف من انكر هذا ورد
العقل الى مجرد العلوم الضرورية فان الغافل عن العلوم والنائم يسميان عاقلين باعتبار
وجود هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم وكما ان الحياة غريزة بها يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية
والادراكات الحسية فكذلك العقل غريزة بها تتهيأ بعض الحيوانات للعلوم النظرية ولو

ولو جاز ان يسوى بين الانسان والحمار في الغريزة ويقال لا فرق الا ان الله بحكم اجراء العادة
يخلق في الانسان علوما وليس يخلقها في الحمار والبهائم لجاز ان يسوى بين الحمار والجماد
في الحياة ويقال لا فرق الا ان الله يخلق في الحمار حركات مخصوصة بحكم اجراء العادة فانه لو قدر
الحمار جمادا ميتا لوجب القول بان كل حركة تشاهد منه فالله قادر على خلقها فيه على الترتيب
المشاهد وكما وجب ان يقال لم يكن مفارقته للجمادات في الحركات الا بغريزة اختصت به عبر
عنها بالحياة فكذا مفارقة الانسان البهيمة في ادراك العلوم النظرية بغريزة يعبر عنها بالعقل
وهو كالمرآة التي تفارق غيرها من الاجسام في حكاية الصور والالوان بصفة اختصت بها
وهي الصقالة وكذلك العين تفارق الجبهة في هيئات وصفات بها استعدت للرؤية فنسبة
هذه الغريزة الى العلوم نسبة العين الى الرؤية ونسبة القرآن والشرع الى هذه الغريزة في
سياقها الى انكشاف العلوم لها كنسبة نور الشمس الى البصر فهكذا ينبغي ان تفهم هذه الغريزة
الثاني هي العلوم التي تخرج الى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة
المستحيلات كالعلم بان الاثنين اكثر من الواحد وان الشخص الواحد لا يكون في مكانين في
وهو الذي عناه بعض المتكلمين حيث قال في حد العقل انه بعض العلوم الضرورية كجواز
الجائزات واستحالة المستحيلات وهو ايضا صحيح في نفسه لان هذه العلوم موجودة وتسميتها
عقلا ظاهر وانما الفاسد ان ينكر تلك الغريزة ويقال لا موجود الا هذه العلوم
الثالث علوم تستفاد من التجارب بمجاري الاحوال فان من حنكته التجارب وهذبته
المذاهب يقال انه عاقل في العادة ومن لا يتصف به يقال انه غبي غمر جاهل فهذا نوع
آخر من العلوم يسمى عقلا الرابع ان تنتهي قوة تلك الغريزة الى ان يعرف عواقب الامور
ويقمع الشهوة الداعية الى اللذة العاجلة ويقهرها فاذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها
عاقلا من حيث ان اقدامه واحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة
وهذه ايضا من خواص الانسان التي بها يتميز عن سائر الحيوانات فالاول هو الاس
والسنخ والمنبع والثاني هو الفرع الاقرب اليه والثالث فرع الاول والثاني اذ بقوة
الغريزة والعلوم الضرورية يستفاد علوم التجارب والرابع الثمرة الاخيرة وهي الغاية
القصوى فالاولان بالطبع والاخيران بالاكتساب ولذلك قال علي عليه السلام العقل عقلان
مطبوع ومسموع ولا ينفع مسموع اذا لم يكن مطبوع كما لا ينفع الشمس وضوء العين

ممنوع والاول هو المراد بقوله عليه السلام ما خلق الله خلقا اكرم عليه من العقل والاخير هو المراد
بقوله عليه السلام لعلي اذا تقرب الناس بابواب البر فتقرب انت بعقلك وقد ذكر رحمه الله
كثيرا من الاخبار المناسبة للمعاني المذكورة ثم قال وليس الغرض البحث عن اللغة والمقصود ان
هذه الاقسام الاربعة موجودة والاسم يطلق على جميعها ولا خلاف في وجود جميعها الا
في القسم الاول والصحيح وجودها بل هي الاصل وهذه العلوم كانها مضمنة في تلك الغريزة
بالفطرة ولكن تظهر في الوجود اذا جرى سبب يخرجها الى الوجود حتى كان هذه العلوم ليست
شيئا واردا عليها من خارج وكانها كانت مستكنة فيها فظهرت ومثاله الماء في الارض
فانه يظهر بحفر القني ويجتمع ويتميز بالحس لا بان يساق اليها شيء جديد وكذلك الدهن في
اللوز وماء الورد في الورد وكذلك قال تعالى واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم
واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى فالمراد به اقرار نفوسهم لا اقرار الالسنة فطرة
الله التي فطر الناس عليها اي كل آدمي فطر على الايمان بالله بل على معرفة الاشياء على ما هي
عليه اعني انها كالمضمنة فيها لقرب استعدادها للادراك ثم لما كان الايمان مركوزا في
النفوس بالفطرة انقسم الناس الى من اعرض فنسي وهم الكفار والى من اجال خاطره فتذكر
فكان كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثم تذكرها ولذلك قال تعالى لعلهم يتذكرون وليتذكر
اولوا الالباب فاذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به ولقد يسرنا القرآن للذكر
فهل من مدكر وتسمية هذا النمط تذكرا ليس ببعيد وكان التذكر ضربان احدهما ان
يذكر صورة كانت حاضرة الوجود في القلب لكن غابت بعد الوجود والاخر ان يكون
عن صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة وهذه حقائق ظاهرة للناظر بنور البصيرة
ثقيلة على من مستروحه السماع والتقليد دون الكشف والعيان ولذلك تراه يتخبط
في مثل هذه الآيات ويتعسف في تاويل التذكر واقرار النفوس انواعا من التعسفات
ويتخايل اليه في الاخبار والآيات ضروب من المناقضات وربما يغلب ذلك عليه حتى
ينظر اليها بعين الاستحقار ويعتقد فيها التهافت ومثاله مثال الاعمى الذي يدخل
دارا فيعثر فيها بالاواني المصفوفة في الدار فيقول ما لهذه الاواني لا ترفع من الطريق
وترد الى مواضعها فيقال له انها في مواضعها وانما الخلل في بصرك فكذلك خلل البصيرة
يجري مجراه واطم منه واعظم اذ النفس كالفارس والبدن كالفرس وعمى الفارس اضر

اضر من عمى الفرس ومشابهة بصيرة الباطن لبصر الظاهر قال الله تعالى ما كذب الفؤاد ما رأى
وقال وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وسمى ضده عمى فقال فانها لا تعمى
الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وقال تعالى ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة
اعمى واضل سبيلا وهذه الامور التي كشفت للانبياء بعضها كان بالبصر وبعضها بالبصيرة
وسمي الكل رؤية وبالجملة من لم تكن بصيرته الباطنة ثاقبة لم يعلق به من الدين الا قشوره
وامثلته دون لبابه وحقائقه فهذه اقسام ما ينطلق اسم العقل عليه

بيان تفاوت الناس في العقل

قد اختلف الناس في تفاوت العقل ولا معنى للاشتغال بنقل كلام
من قل تحصيله بل الحق الصريح فيه ان التفاوت يتطرق الى الاقسام الاربعة سوى القسم
الثاني وهو العلم الضروري بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات فان من عرف ان
الاثنين اكثر من الواحد عرف ايضا استحالة كون شخص في مكانين وكون الشيء الواحد
قديما وحادثا وكذا سائر النظائر وكل من هو كذلك يدركه ادراكا محققا من غير شك فاما
الاقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرق اليها اما القسم الرابع وهو استيلاء القوة على قمع
الشهوات لا يخفى تفاوت الناس فيه بل لا يخفى تفاوت احوال الشخص الواحد فيه وهذا
التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة اذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات
دون بعض ولكن غير مقصور عليه فان الشاب قد يعجز عن ترك الزنا واذا كبر وتم
عقله قدر عليه وشهوة الرياء والرياسة تزداد قوة بالكبر لا ضعفا واما القسم الثالث
وهو علوم التجارب فتفاوت الناس فيها لا ينكر فانهم يتفاوتون بكثرة الاصابة
وسرعة الادراك ويكون سببه اما تفاوتا في الغريزة واما تفاوتا في الممارسة اما
الاول وهو الاصل اعني الغريزة فالتفاوت فيه لا سبيل الى جحده فانه مثل نور يشرق
على النفس ويطلع صبحه ومبادي اشراقه عند سن التمييز ثم لا يزال ينمو ويزداد نموا خفي
التدريج الى ان يتكامل بقرب الاربعين سنة ومثاله نور الصبح فان اوائله يخفى خفاء
يشق ادراكه ثم يتدرج الى الزيادة الى ان يكمل بطلوع قرص الشمس وتفاوت نور البصيرة
كتفاوت نور البصر فالفرق مدرك بين الاعمش وبين حاد البصر بل سنة الله جارية
في جميع خلقه بالتدريج في الايجاد حتى ان غريزة الشهوة لا تظهر في الصبي عند البلوغ
دفعة وبغتة بل تظهر شيئا فشيئا على التدريج وكذا جميع القوى والصفات ومن انكر

تفاوت الناس في هذه الغريزة فكانه منخلع عن ربقة العقل ومن ظن ان عقل النبي صلى الله عليه وآله
مثل عقل احاد السوادية واجلاف البوادي فهو اخس في نفسه من احاد السوادية وكيف ينكر
تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس في فهم العلوم ولما انقسموا الى بليد لا يفهم
بالتفهيم الا بعد تعب طويل من المعلم والى ذكي يفهم بادنى رمز واشارة والى كامل ينبعث
من نفسه حقايق الامور بدون التعليم كما قال الله تعالى يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار
فذلك مثل الانبياء صلوات الله عليهم اذ يتضح لهم في بواطنهم امور غامضة من غير تعلم
وسماع ويعبر عن ذلك بالالهام وعن مثله عبر نبينا صلى الله عليه وآله حيث قال ان روح القدس نفث
في روعي احبب من احببت فانك مفارقه وعش ما شئت فانك ميت واعمل ما شئت
فانك مجزي به وهذا النمط من تعريف الملائكة للانبياء يخالف الوحي الصريح الذي هو
سماع الصوت بحاسة الاذن ومشاهدة الملك بحاسة البصر ولذلك اخبر عن هذا
بالنفث في الروع ودرجات الوحي كثيرة والخوض فيها لا يليق بعلم المعاملة بل هو من علم
المكاشفة ولا تظنن ان معرفة درجات الوحي تستدعي منصب الوحي اذ لا يبعد ان يعرف
الطبيب المريض درجات الصحة ويعلم الفاسق درجات العدالة وان كان خاليا عنها
فالعلم شيء ووجود المعلوم شيء آخر فلا كل من عرف النبوة والولاية كان نبيا ولا
كل من عرف الورع والتقوى ودقايقه كان تقيا وانقسام الناس الى من يتنبه من نفسه
يفهم والى من لا يفهم الا بتنبيه وتعليم والى من لا ينفعه التعليم ايضا ولا التنبيه كانقسام الارض
الى ما يجتمع فيه الماء فيقوى فيتفجر بنفسه عيونا والى ما يحتاج الى الحفر ليخرج في القنوات و
الى ما لا ينفع فيه الحفر وهو اليابس وذلك لاختلاف جواهر الارض في صفاتها فكذلك
هذا الاختلاف هذا اختلاف النفوس في غريزة العقل ويدل على تفاوت العقل من جهة
النقل ما روي ان ابن سلام سال رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث طويل آخره وصف عظم العرش
وان الملائكة قالت يا رب هل خلقت شيئا اعظم من العرش قال نعم العقل قالوا وما بلغ
من قدره قال هيهات لا يحاط بعلمه هل لكم علم بعدد الرمل قالوا لا قال فاني خلقت العقل
اصنافا شتى كعدد الرمل فمن الناس من اعطي حبة ومنهم من اعطي حبتين ومنهم الثلث و
الاربع ومنهم من اعطي فرقا ومنهم وسقا ومنهم اكثر من ذلك فان قلت فما بال اقوام من
المتصوفة يذمون العقل والمعقول فاعلم ان السبب فيه ان الناس نقلوا اسم العقل والمعقول

الى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والالزامات وهو صنعة الكلام فلم يقدروا
على ان يقرروا عندهم انكم اخطأتم في التسمية اذ كان ذلك لا ينمحي عن قلوبهم بعد تداول
الالسنة فذموا العقل والمعقول وهو المسمى به عندهم واما نور البصيرة الباطنة التي بها
يعرف الله عز وجل ويعرف صدق رسله فكيف يتصور ذمه وقد اثنى الله تعالى عليه و
ان ذم فما الذي بعده يحمد فان كان المحمود هو الشرع فبم علم صحة الشرع فان علم بالعقل المذموم
الذي لا يوثق به فيكون الشرع ايضا مذموما ولا يلتفت الى من يقول انه يدرك بعين اليقين
ونور الايمان لا بالعقل فانا نريد بالعقل ما يريده بعين اليقين ونور الايمان وهي الصفة
الباطنة التي يتميز بها الآدمي عن البهايم حتى ادرك بها حقايق الامور واكثر هذه التخبيطات
انما ثارت من جهل اقوام طلبوا الحقايق من الالفاظ فتخبطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس في
الالفاظ وهذا القدر كاف في بيان العقل والله اعلم آخر كتاب العلم منجما والحمد لله
رب العالمين ويتلوه كتاب قواعد العقايد وذكر فيه بعد جملة كلام وتحقيق ترجمة
عقيدة اهل السنة في كلمتي الشهادة مسئلة هل ان علم الجدل والكلام مذموم كعلم النجوم او
هو مباح او مندوب اليه فاعلم ان للناس في هذا غلوا واسرافا في اطراف فمن قائل انه
بدعة وحرام ومن قائل انه واجب وفرض اما على الكفاية واما على الاعيان وذكر لذلك بيانا
[illegible] ذكر تحقيقا ثانيا فقال فان قلت فما المختار عندك فاعلم ان
ان الحق فيه ان اطلاق القول بذمه في كل حال او بحمده في كل حال خطأ بل لا بد فيه من
تفصيل واعلم اولا ان الشيء قد يحرم لذاته كالخمر والميتة واعني بقولي لذاته ان علة تحريمه
وصف في ذاته وهو الاسكار والموت وهذا اذا سئلنا عنه اطلقنا القول بانه حرام
ولا يلتفت الى اباحة الميتة عند الاضطرار واباحة تجرع الخمر اذا غص الانسان بلقمة ولم
يجد ما يسيغها به سوى الخمر والى ما يحرم لغيره كالبيع على بيع اخيك في وقت الخيار و
البيع وقت النداء وكاكل الطين فانه يحرم لما فيه من الاضرار وهذا ينقسم الى ما يضر قليله
وكثيره فيطلق القول عليه بانه حرام كالسم الذي يقتل قليله وكثيره والى ما يضر
عند الكثرة فيطلق القول عليه بالاباحة كالعسل فان كثيره يضر بالمحرور وكاكل الطين
وكان اطلاق التحريم على الخمر والتحليل على العسل التفاتا الى اغلب الاحوال فان تصدى
شيء تقابلت فيه الاحوال فالاولى والابعد عن الالتباس ان يفصل فنعود الى علم الكلام و

فيه منفعة وفيه مضرة فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلال او مندوب او واجب
كما يقتضيه الحال وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرام اما مضرته فاثارة
الشبهات وتحريك العقائد وازالتها عن الجزم والتصميم فذلك مما يحصل في الابتداء
ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ويختلف فيه الاشخاص فهذا ضرره في الاعتقاد الحق
وله ضرر في تاكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة وتثبيتها في صدورهم بحيث ينبعث دواعيهم ويشتد
حرصهم على الاصرار عليه ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل
لذلك ترى المبتدع العامي يمكن ان يزول اعتقاده باللطف في اسرع زمان الا اذا كان
نشوؤه في بلد يظهر فيه الجدل والتعصب فانه لو اجتمع عليه الاولون والآخرون لم يقدروا
على نزع البدعة من صدره بل الهوى والتعصب وبغض خصوم المجادلين وفرقة المخالفين
يستولي على قلبه ويمنعه من ادراك الحق حتى لو قيل له هل تريد ان يكشف الله لك الغطاء
فيعرفك بالعيان ان الحق مع خصمك كره ذلك خيفة من ان يفرح به خصمه وهذا
هو الداء العضال الذي استطار في العباد والبلاد وهو نوع فساد اثاره المجادلون
بالتعصب فهذا ضرره واما منفعته فقد يظن ان فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على
ما هي عليه وهيهات فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ولعل التخبيط والتضليل
فيه اكثر من الكشف والتعريف وهذا اذا سمعته من محدث او حشوي ربما خطر ببالك
ان الناس اعداء ما جهلوا فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة و
بعد التغلغل فيه الى منتهى درجة المتكلمين وجاوز ذلك الى التعمق في علوم اخر
تناسب نوع الكلام وتحقق ان الطريق الى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود
ولعمري لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وايضاح لبعض الامور ولكن على الندور
في امور جلية تكاد تفهم قبل التعمق في صنعة الكلام بل منفعته شيء واحد وهو
حراسة العقيدة التي ترجمناها على العوام وحفظها عن تشويشات المبتدعة بانواع
الجدل فان العامي ضعيف يستفزه جدل المبتدع وان كان فاسدا الى آخر ما ذكره
رحمه الله ثم قال واذا وقفت الاحاطة بضرره ومنفعته فينبغي ان تكون كالطبيب الحاذق
في استعمال الدواء الخطر اذ لا يضعه الا في موضعه وذلك في وقت الحاجة وعلى قدر
الحاجة وتفصيله ان العوام المشغولين بالحرف والصناعات ان تركوا على سلامة
عقائدهم

عقائدهم التي اعتقدوها مهما تلقنوا الاعتقاد الحق الذي ذكرناه فان تعليمهم الكلام
ضرر محض في حقهم وما نقل عن ابن عباس من مناظرة الخوارج وما نقل عن علي من المناظرة
في القدر وغيره كان من الكلام الجلي الظاهر وفي محل الحاجة وذلك محمود في كل حال نعم
قد يختلف الاعصار في كثرة الحاجة وقلتها فلا يبعد ان يختلف الحكم لذلك فهذا حكم
العقيدة التي تعبد الخلق بها وحكم طريق النضال عنها وحفظها فاما ازالة الشبهة وكشف
الحقائق ومعرفة الاشياء على ما هي عليه ودرك الاسرار التي يترجمها ظاهر الالفاظ هذه
العقيدة فلا مفتاح له الا المجاهدة وقمع الشهوات والاقبال بالكلية على الله وملازمة
الفكر الصافي عن شوائب المجادلات وهي رحمة من الله يفيض على من يتعرض لنفحاتها بقدر
الرزق وبحسب التعرض وبقدر قبول المحل وطهارة القلب وذلك البحر الذي لا يدرك
غوره ولا يبلغ ساحله مسألة المذكورة في الاصل قبل هذا فان قلت هذا الكلام مشير
الى ان هذه العلوم لها ظواهر واسرار وبعضها جلي يبدو اولا وبعضها خفي يتضح
بالمجاهدة والرياضة والطلب الحثيث والفكر الصافي والسر الخالي عن كل شيء من اشغال
الدنيا سوى المطلوب وهذا يكاد يكون مخالفا للشرع اذ ليس للشرع ظاهر وباطن
وسر وعلن بل الظاهر والباطن والسر والعلن واحد فاعلم ان انقسام هذه العلوم
الى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيرة وانما ينكرها القاصرون الذين تلقفوا في اوائل
الصبى شيئا وجمدوا عليه فلم يكن لهم ترق الى شأو العلى ومقامات العلماء والاولياء
وذلك ظاهر من ادلة الشرع قال صلى الله عليه وسلم ان للقران ظاهرا وباطنا وحدا ومطلعا
وقال علي عليه السلام واشار الى صدره ان ههنا علوما جمة لو وجدت لها حملة وقال صلعم
نحن معاشر الانبياء امرنا ان نكلم الناس على قدر عقولهم وقال صلعم ما حدث احد قوما
بحديث لم يبلغه عقولهم الا كان فتنة عليهم وقال تعالى وتلك الامثال نضربها للناس وما
يعقلها الا العالمون وقال النبي صلعم ان من العلوم كهيئة المكنون لا يعرفها الا العالمون
بالله الحديث وقال صلعم لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا فليت شعري ان لم
يكن ذلك سرا منع من افشائه لقصور الافهام عن دركه او لمعنى آخر فلم لم يذكره لهم ولا
شك في انهم كانوا يصدقونه لو ذكره لهم وقال ابن عباس في قوله تعالى الله الذي خلق سبع
سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لو ذكرت تفسيره لرجمتموه وفي لفظ آخر

[illegible] مسئلة فان قلت هذه الآيات والاخبار يتطرق اليها تاويلات فبين كيفية
اختلاف الظاهر والباطن فان الباطن ان كان مناقضا للظاهر ففيه ابطال الشرع وهو
قول من قال ان الحقيقة خلاف الشريعة وهو كفر لان الشريعة عبارة عن الظاهر والحقيقة
عن الباطن وان كان لا يناقضه ولا يخالفه فهو هو فيزول به الانقسام ويخرج عن مقصود
الانقسام ولا يكون للشرع سر لا يفشى بل يكون الخفي والجلي واحدا فاعلم ان هذا السؤال
يحرك خطبا عظيما وينجر الى علوم المكاشفة ويخرج عن مقصود علم المعاملة وهو غرض هذه
الكتب فان العقايد التي ذكرناها من اعمال القلوب وقد تعبدنا بتلقيها بالقبول و
التصديق بعقد القلب عليها لا بان يتوصل الى ان ينكشف لنا حقايقها فان ذلك لم يكلف
كافة الخلق ولولا انه من الاعمال لما اوردناه في هذا الكتاب ولولا انه عمل ظاهر القلب لا عمل
باطنه لما اوردناه في الشطر الاول من الكتاب وانما الكشف الحقيقي هو صفة سر القلب وباطنه
ولكن اذا انجر الكلام الى تحريك خيال في مناقضة الظاهر للباطن فلا بد من كلام وجيز في
حله فمن قال ان الحقيقة تخالف الشريعة او الباطن يخالف الظاهر فهو الى الكفر اقرب منه الى
الايمان بل الاسرار التي يختص المقربون بدركها ولا يشاركهم الاكثرون في علمها ويمتنعون
عن افشائها اليهم ترجع الى خمسة اقسام الاول ان يكون الشي في نفسه دقيقا تكل اكثر
الافهام عن دركه فيختص بدركه الخواص وعليهم ان لا يفشوه الى غير اهله فيصير ذلك فتنة
عليهم حيث تقصر افهامهم عن الدرك واخفا سر الروح وكف رسول الله صلعم عن بيانه من هذا
القسم فان حقيقته مما تكل الافهام عن دركه وتقصر الاوهام عن تصور كنهه ولا تظنن
ان ذلك لم يكن مكشوفا لرسول الله صلعم فان من لم يعرف الروح فكانه لم يعرف نفسه فكيف
يعرف ربه ولا يبعد ان يكون ذلك مكشوفا لبعض الاوليا والعلما وان لم يكونوا انبيا
ولكنهم يتادبون باداب الشرع فيسكتون عما سكت عنه بل في صفات الله تعالى من الخفايا
ما تقصر افهام الجماهير عن دركه ولم يذكر رسول الله صلعم منها الا الظواهر للافهام من العلم و
القدرة وغيرهما حتى فهمها الخلق بنوع مناسبة توهموها الى علمهم وقدرتهم اذ كان لهم
من الاوصاف ما يسمى علما وقدرة فيتوهمون ذلك بنوع مقايسة ولو ذكر من صفاته ما ليس
للخلق مما يناسبه بعض المناسبة شيا لم يفهموه بل لذة الجماع اذا ذكرت للصبي او العنين
لم يفهمها الا بمناسبة الى لذة المطعوم الذي يدركه ولا يكون ذلك فهما على التحقيق والمخالفة بين

بين لذة الجماع والاكل وبالجملة فلا يدرك الانسان الا نفسه وصفات نفسه مما هو حاضر له في
الحال او مما كان له من قبل ثم بالمقايسة اليه يفهم ذلك لغيره ثم قد يصدق بان بينهما تفاوتا
في الشرف والكمال فليس في قوة البشر الا ان يثبت لله ما هو ثابت لنفسه من الفعل والعلم و
القدرة وغيرها من الصفات مع التصديق بان ذلك اكمل واشرف فيكون معظم تحويمه على
صفات نفسه لا على ما اختص الرب تعالى به من الجلال ولذلك قال صلعم لا احصي ثنا عليك انت
كما اثنيت على نفسك وليس المعنى به اني عاجز عن التعبير عما ادركته بل هو اعتراف بالقصور عن
ادراك كنه جلاله ولذلك قال بعضهم ما عرف الله بالحقيقة سوى الله ولنقبض عنان الكلام
عن هذا النمط ولنرجع الى الغرض وهو ان احد الاقسام ما تكل الافهام عن دركه ومن جملته
الروح ومن جملته بعض صفات الله ولعل الاشارة الى مثله في قوله صلى الله عليه وسلم ان
لله سبعين حجابا من نور لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه كل من ادركه بصره القسم الثاني
من الخفيات التي تمتنع الانبيا والصديقون عن ذكرها ما هو مفهوم في نفسه لا يكل الفهم
عنه ولكن ذكره يضر باكثر المستمعين ولا يضر بالانبيا والصديقين وسر القدر الذي منع
اهل العلم عن افشائه من هذا القسم ولا يبعد ان يكون ذكر بعض الحقائق مضرا ببعض
الخلق كما يضر نور الشمس بابصار الخفافيش وكما تضر رياح الورد بالجعل وكيف يبعد هذا
وقولنا ان الكفر والزنا والمعاصي والشرور بقضا الله وارادته ومشيته حق في نفسه وقد
اضر سماعه بقوم اذ اوهم ذلك عندهم انه دلالة على السفه ونقيض الحكمة والرضا بالقبيح والظلم
وقد الحد ابن الراوندي وطائفة من المخذولين بمثل ذلك وكذلك سر القدر لو افشي
لاوهم عند اكثر الخلق عجزا اذ تقصر افهامهم عن ادراك ما يزيل ذلك الوهم عنهم ولو قال
قايل ان القيامة لو ذكر ميقاتها وانها بعد الف سنة او اكثر او اقل لكان مفهوما ولكن
لم يذكر لمصلحة العباد وخوفا من الضرر فلعل المدة اليها بعيدة فيطول الامد واذا استبطات
النفوس وقت العقاب قل اكتراثها ولعلها كانت قريبة في علم الله ولو ذكرت لعظم الخوف
واعرض الناس عن الاعمال وخربت الدنيا فهذا المعنى لو اتجه وصح فيكون مثالا لهذا القسم
القسم الثالث ان يكون الشي بحيث لو ذكر صريحا لفهم ولم يكن فيه ضرر ولكن يكنى
على سبيل الاستعارة والرمز ليكون وقعه في قلب المستمع اغلب وله مصلحة في ان يعظم وقع
ذلك الامر في قلبه كما لو قال قايل رايت فلانا يقلد الدر في اعناق الخنازير وكنى به

عن افشاء العلم ومنع الحكمة عن اهلها فالمستمع تدريجه له فهم ظاهر والمحقق اذا نظر وعلم ان ذلك الانسان لم يكن معه تدرج ولا كان في موضعه حتى ينفتق له درك السر والباطن فيتفاوت الناس بذلك وهذا النوع يرجع الى التعبير عن المعنى بالصورة التي تتضمن عين المعنى ومثاله ومن هذا قوله عليه السلم ان المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي الجلدة على النار وانت ترى ان ساحة المسجد لا تنقبض بالنخامة ومعناه ان روح المسجد ومعناه كونه معظما ورمي النخامة فيه تحقير له فيضاد معنى المسجدية مضادة النار لاتصال اجزاء الجلدة وكذلك قوله عليه السلم اما يخشى الذي يرفع راسه قبل الامام ان يحول الله راسه راس حمار وذلك من حيث الصورة قط لم يكن ولا يكون ولكن من حيث المعنى هو كائن اذ راس الحمار لم يكن بحقيقته لكونه وشكله بل بخاصيته وهي البلادة والحمق ومن رفع راسه قبل الامام فقد صار راسه راس حمار في معنى البلادة والحمق وهما المقصود دون الشكل الذي هو قالب المعنى اذ من غاية الحمق ان يجمع بين الاقتداء وبين التقدم فانهما متناقضان وانما يعرف هذا السر على خلاف الظاهر اما بدليل عقلي او شرعي اما العقلي فان يكون حمله على الظاهر غير ممكن كقوله عم قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن اذ فتشنا عن صدور المؤمنين فلم نجد فيها اصابع فعلم انه كناية عن القدرة التي هي سر الاصبع وروحها الخفي وكنى بالاصبع عن القدرة لان ذلك اعظم وقعا في تفهيم تمام الاقتدار ومن هذا القبيل كناية عن الاقتدار بقوله انما قولنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون فان ظاهره ممتنع اذ قوله كن ان كان خطابا مع الشيء قبل وجوده فهو محال اذ المعدوم لا يفهم الخطاب حتى يمتثل وان كان بعد الوجود فهو مستغن عن التكوين ولكن لما كانت هذه الكناية اوقع في النفوس في تفهيم غاية الاقتدار عدل اليها واما المدرك بالشرع فهو ان يكون اجراؤه على الظاهر ممكنا ولكن يروى انه اريد به غير الظاهر كما ورد في تفسير قوله تعم انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها الاية وان معنى الماء هو القرآن ومعنى الاودية هي القلوب وان بعضها احتمل شيئا كثيرا وبعضها شيئا قليلا وبعضها لم يحتمل والزبد مثل للكفر فانه وان ظهر وطفا على راس الماء فانه لا يثبت والهداية التي تنفع الناس تمكث وفي هذا القسم تعمق جماعة فاولوا ما ورد في الآخرة من الميزان والصراط وغيرهما وهي بدعة اذ لم ينقل ذلك بطريق الرواية وان اجراؤه على الظاهر غير محال فيجب اجراؤه على الظاهر

القسم الرابع ان يدرك الانسان الشيء جملة ثم يدركه تفصيلا بالتحقيق والذوق بان يصير حالا ملابسا له فيتفاوت العلمان ويكون الاول كالقشر والثاني كاللب والاول كالظاهر والاخر كالباطن وذلك كما يتمثل للانسان في عينه شخص في الظلمة او على البعد فيحصل له نوع علم فاذا رآه بالقرب او بعد زوال الظلام ادرك تفرقة بينهما ولا يكون الاخير ضد الاول بل هو استكمال له فكذلك في العلم والايمان والتصديق اذ قد يصدق الانسان بوجود العشق والمرض والموت قبل وقوعه ولكن تحققه به عند الوقوع اكمل من تحققه قبل الوقوع بل للانسان في الشهوة والعشق وسائر الاحوال ثلاثة احوال متفاوتة وادراكات متباينة الاول تصديقه بوجوده قبل وقوعه والثاني عند وقوعه والثالث بعد تصرمه فان تحققنا بالجوع بعد زواله يخالف التحقق قبل الزوال وكذلك من علوم الدين ما يصير ذوقا فيكمل فيكون ذلك كالباطن بالاضافة الى ما قبل ذلك ففرق بين علم المريض بالصحة وبين علم الصحيح بها ففي هذه الاقسام الاربعة تتفاوت الخلق وليس في شيء منها باطن يناقض الظاهر بل يتممه ويكمله كما يتمم اللب القشر والسلم

القسم الخامس ان يعبر بلسان المقال عن لسان الحال فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويعتقده نطقا والبصير بالحقائق يدرك السر فيه وهذا كقول القائل قال الجدار للوتد لم تشقني قال سل من يدقني فلم يتركني وراءي الحجر الذي ورائي فهذا تعبير عن لسان الحال بلسان المقال ومن هذا قوله تعم فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين فالبليد يفتقر في فهمه الى ان يقدر لهما حياة وعقلا وفهما للخطاب وخطابا هو صوت وحرف تسمعه الارض فتجيب بصوت وحرف وتقول اتينا طائعين والبصير يعلم ان ذلك لسان الحال وانه انباء عن كونهما مسخرتين بالضرورة ومضطرتين الى التسخير ومن هذا قوله تعم وان من شيء الا يسبح بحمده فالبليد يفتقر فيه الى ان يقدر للجماد حياة وعقلا ونطقا بصوت وحرف حتى يقول سبحان الله ليتحقق تسبيحه والبصير يعلم انه ما اريد به نطق اللسان بل كونه مسبحا بوجوده ومقدسا بذاته وشاهدا بوحدانيته تعم كما قيل وفي كل شيء

لرأيته يدل على أنه واحد وكما يقال هذه الصنعة المحكمة تشهد لصاحبها بحسن التدبير
وكمال العلم لا بمعنى أنها تقول أشهد ولكن بالذات والحال وكذلك ما من شيء إلا وهو
محتاج في نفسه إلى موجد يوجده ويبقيه ويديم أوصافه ويردده في أطواره فهو
بحاجته يشهد لخالقه بالتقديس يدرك شهادته ذوو الألباب دون الجامدين
على الظواهر ولذلك قال ولكن لا تفقهون تسبيحهم وأما القاصرون فلا يفقهون
أصلاً وأما المقربون والعلماء الراسخون فلا يفقهون كنهها وكمالها إذ لكل شيء شهادات
شتى على تقديس الله تعالى وتسبيحه ويدرك كل واحد بقدر عقله وبصيرته
وتعداد تلك الشهادات لا يليق بعلم المعاملة فهذا الفن أيضاً مما تتفاوت
أرباب الظواهر وأرباب البصائر في علمه وتظهر به مفارقة الباطن الظاهر
ففي هذا المقام لأرباب المقامات إسراف واقتصاد فمن مسرف في رفع الظواهر
انتهى إلى تغيير جميع الظواهر وأكثرها حتى حملوا قوله تعالى وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم
بما كانوا يكسبون وقوله تعالى وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي
أنطق كل شيء وكذلك المخاطبات التي تجري من منكر ونكير وفي الميزان وفي الحساب
ومناظرات أهل النار وأهل الجنة في قولهم أفيضوا علينا من الماء زعموا أن كل
ذلك بلسان الحال وغلا آخرون في حسم الباب منهم أحمد بن حنبل حتى منع تأويل
قوله كن فيكون وزعموا أن ذلك خطاب بحرف وصوت يوجد من الله تعالى فكل
لحظة بعدد كل مكون حتى سمعت بعض أصحابه يقول إنه حسم باب التأويل إلا
لثلاثة ألفاظ قوله الحجر الأسود يمين الله في الأرض وقوله قلب المؤمن بين أصبعين
من أصابع الرحمن وقوله إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن ومال إلى حسم الباب
أرباب الظواهر والظن بأحمد بن حنبل أنه علم أن الاستواء ليس هو الاستقرار
والنزول ليس هو الانتقال ولكنه منع من التأويل حسماً للباب ورعاية لصلاح
الخلق فإنه إذا فتح الباب اتسع الخرق على الواقع وخرج الأمر عن الضبط وجاوز حد
الاقتصاد إذ حد الاقتصاد لا ينضبط ولا بأس بهذا الزجر ويشهد له سيرة السلف فإنهم كانوا
يقولون أمروها كما جاءت حتى قال مالك لما سئل عن الاستواء الاستواء معلوم
والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وذهبت طائفة إلى الاقتصاد وفتحوا

فتحوا باب التأويل في كل ما يتعلق بصفات الله وتركوا ما يتعلق بالآخرة على ظواهرها
ومنعوا من التأويل وهم الأشعرية وزاد المعتزلة عليهم حتى أولوا من صفاته تعالى
تعلق الرؤية به وأولوا كونه سميعاً بصيراً وأولوا المعراج وزعموا أنه لم يكن بالجسد
وأولوا عذاب القبر والميزان والصراط وجملة من أحكام الآخرة ولكن أقروا بحشر الأجساد
وبالجنة واشتمالها على المأكولات والمشروبات والمنكوحات والملاذ المحسوسة
وبالنار واشتمالها على جسم محسوس محرق يحرق الجلود ويذيب الشحوم ومن
ترقيهم إلى هذا الحد زاد الفلاسفة فأولوا كل ما ورد في الآخرة وردوه إلى آلام
عقلية روحانية ولذات عقلية وأنكروا حشر الأجساد وقالوا ببقاء النفوس وأنها
تكون إما معذبة وإما منعمة بعذاب ونعيم لا يدرك بالحس وهؤلاء هم المسرفون وحد
الاقتصاد بين هذا الانحلال كله وبين جمود الحنابلة دقيق غامض لا يطلع عليه إلا
الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهي لا بالسماع ثم إذا انكشفت لهم أسرار
الأمور على ما هي عليه نظروا إلى السمع والألفاظ الواردة فما وافق ما شاهدوه بنور
اليقين قرروه وما خالف أولوه فأما من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرد
فلا يستقر له فيها قدم ولا يتعين له موقف والأليق بالمقتصر على السمع المجرد مقام
أحمد بن حنبل والآن فكشف الغطاء عن حد الاقتصاد في هذه الأمور داخل في علم
المكاشفة والقول فيه يطول فلا نخوض فيه والغرض بيان موافقة الباطن للظاهر
وعدم مخالفته وقد انكشف بهذه الأقسام الخمسة وذكر رحمه الله في تلو الفصل الثالث
من كتاب قواعد العقائد وجعله رسالة مفردة سماها الرسالة القدسية مشتملة على
أربعة أركان يعود كل ركن على عشرة أصول من أراد الاطلاع عليه فليرجع إلى الأصل
الفصل الرابع من كتاب قواعد العقائد في الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال
والانفصال وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان ووجه استثناء السلف فيه وفيه
ثلاث مسائل مسألة اختلفوا في أن الإسلام هو الإيمان أو غيره وإن كان غيره فهو
منفصل عنه يوجد دونه أو هو مرتبط به يلازمه فقيل إنهما شيء واحد وقيل إنهما شيئان
لا يتواصلان وقيل إنهما شيئان ولكن يرتبط أحدهما بالآخر وقد أورد أبو طالب المكي
في هذا كلاماً شديد الاضطراب كثير التطويل فلنهجم على التصريح بالحق من غير تعريج على نقل

بالتحصيل فنقول ان هنا ثلثة مباحث **البحث الاول** في موجب اللغة والحق فيه
ان الايمان عبارة عن التصديق قال الله تعالى وما انت بمؤمن لنا اي بمصدق والاسلام
عبارة عن التسليم والاستسلام بالاذعان والانقياد وترك التمرد والاباء والعناد
وللتصديق محل خاص وهو القلب واللسان ترجمانه واما التسليم فانه عام في القلب واللسان
والجوارح فان كل تصديق بالقلب هو تسليم وترك للاباء والجحود وكذلك الاعتراف باللسان
وكذلك الطاعة والانقياد بالجوارح فموجب اللغة ان الاسلام اعم والايمان اخص فكان
الايمان عبارة عن اشرف اجزاء الاسلام **البحث الثاني** عن اطلاق الشرع والحق فيه ان
الشرع قد ورد باستعمالها على سبيل الترادف والتوارد وورد على
سبيل الاختلاف وورد على سبيل التداخل اما الترادف ففي قوله تعالى فاخرجنا من كان
فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ولم يكن بالاتفاق الا بيت واحد وقال
تعالى ان كنتم امنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين وقال النبي صلى الله عليه بني الاسلام على خمس
وسئل مرة عن الايمان فاجاب بهذه الخمس واما الاختلاف فقوله تعالى قالت الاعراب
آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ومعناه استسلمنا في الظاهر فاراد بالايمان ههنا
تصديق القلب فقط وبالاسلام الاستسلام ظاهرا باللسان والجوارح وفي حديث
جبرئيل عليه السلم لما سئل عن الايمان فقال ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث
بعد الموت وبالحساب وبالقدر خيره وشره فقال فما الاسلام فذكر الخصال الخمس
فعبر بالاسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل وروي انه سئل صلى الله عليه فقيل اي الاعمال
افضل فقال الاسلام فقال اي الاسلام افضل فقال الايمان وهذا دليل على الاختلاف
والتداخل وهو اوفق الاستعمالات في اللغة لان الايمان عمل من الاعمال وهو افضلها والاسلام
هو تسليم اما بالقلب واما باللسان واما بالجوارح وافضلها الذي بالقلب وهو التصديق
الذي يسمى ايمانا والاستعمال لهما على سبيل الاختلاف وعلى سبيل التداخل وعلى سبيل الترادف
كله غير خارج عن طريق التجوز في اللغة اما الاختلاف فهو ان يجعل الايمان عبارة عن التصديق
بالقلب فقط وهو موافق للغة والاسلام عبارة عن التسليم ظاهرا وهو ايضا موافق للغة
فان التسليم ببعض محال التسليم ينطلق عليه اسم التسليم فليس من شرط حصول الاسم عموم المحل
كل محل يمكن ان يوجد المعنى فيه فان من لمس غيره ببعض بدنه يسمى لامسا وان لم يستغرق

فاذن كل تصديق تسليم وليس كل تسليم تصديقا

هي الصلوة والزكوة والحج والصوم والولاية

يستغرق جميع بدنه فاطلاق اسم الاسلام على التسليم الظاهر عند عدم تسليم الباطن مطابق
للسان وعلى هذا الوجه جرى قوله تعالى قالت الاعراب آمنا الاية اما التداخل فموافق ايضا
للغة وهو ان يجعل الاسلام عبارة عن التسليم بالقلب والقول والعمل جميعا والايمان
عبارة عن بعض ما دخل في الاسلام وهو القلب وهو الذي عنيناه بالتداخل وهذا موافق
للغة في خصوص الايمان وعموم الاسلام للكل وعلى هذا خرج قوله الايمان في جواب قول
السائل اي الاسلام افضل لانه جعل الايمان خصوصا من الاسلام فادخله فيه واما استعماله
على سبيل الترادف بان يجعل الاسلام عبارة عن التسليم بالقلب والظاهر جميعا فان كل
ذلك تسليم وكذا الايمان ويكون التصرف في الايمان بالخصوص بتعميمه وادخال الظاهر
في معناه وهو جائز لان تسليم الظاهر بالقول والعمل ثمرة تصديق الباطن ونتيجته وقد
يطلق اسم الشجر ويراد به الشجر مع ثمره على سبيل التسامح فيصير بهذا القدر من التعميم مرادفا
لاسم الاسلام ومطابقا له فلا يزيد عليه ولا ينقص وعليه خرج قوله تعالى فما وجدنا فيها غير
بيت من المسلمين **البحث الثالث** عن الحكم الشرعي وللايمان والاسلام حكمان اخروي ودنيوي
اما الاخروي فهو الاخراج من النار ومنع التخليد قال رسول الله صلى الله عليه يخرج
من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الايمان وقد اختلفوا في ان هذا الحكم على ماذا يترتب
وعبروا عنه بان الايمان ماذا فمن قائل يقول انه مجرد العقد ومن قائل يقول انه عقد
بالقلب وشهادة باللسان ومن قائل يزيد ثالثا وهو العمل بالاركان ونحن نكشف الغطا
عنه ونقول من جمع بين هذه الثلث فلا خلاف في ان مستقره الجنة **الدرجة الثانية**
ان يوجد اثنان وبعض الثالث وهو القول والعقد وبعض الاعمال ولكن ارتكب صاحبه
كبيرة او بعض الكبائر فعند هذا قالت المعتزلة خرج بهذا عن الايمان ولم يدخل في الكفر
بل اسمه الفاسق وهو على منزلة بين المنزلتين وهو مخلد في النار وهذا باطل كما سنذكره
الدرجة الثالثة ان يوجد التصديق بالقلب والشهادة باللسان دون الاعمال بالجوارح
وقد اختلفوا في حكمه فقال ابو طالب المكي رحمه الله العمل من الايمان ولا يتم دونه وادعى الاجماع
فيه واستدل بادلة تشعر بنقيض غرضه كقوله تعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات اذ هذا
يدل على ان العمل وراء الايمان لا من نفس الايمان والا فيكون العمل في حكم المعاد والعجب
انه ادعى الاجماع في هذا وهو مع ذلك ينقل قوله صلى الله عليه لا يكفر احد الا بجحوده لما اقر به

وهذه درجة

المعتزلة قولهم بالتخليد في النار بسبب الكبائر والقائل بهذا قائل بعين مذهب المعتزلة
إذ يقال لمن صدق بقلبه وشهد بلسانه ثم مات في الحال فهل هو في الجنة فلا بد وأن
يقال نعم وفيه حكم بوجود الإيمان دون العمل فنزيد ونقول لو بقي حيا حتى دخل عليه وقت
صلاة واحدة فتركها ثم مات أو زنى ثم مات فهل يخلد في النار فإن قال نعم فهو مراد
المعتزلة وإن قال لا فهو تصريح بأن العمل ليس ركنا من نفس الإيمان ولا شرطا في وجوده
ولا في استحقاق الجنة به وإن قال أردت به أن يعيش مدة طويلة ولا يصلي ولا يقدم
على شيء من الأعمال الشرعية فما ضبط تلك المدة وما عدد الطاعات التي بتركها يبطل الإيمان
وما عدد الكبائر التي بارتكابها يبطل الإيمان وهذا لا يمكن التحكم بتقديره ولم يصر إليه
صائر أصلا الدرجة الرابعة أن يوجد التصديق بالقلب قبل أن ينطق باللسان
أو يشتغل بالأعمال ومات فهل نقول مات مؤمنا بينه وبين الله وهذا مما اختلف
فيه ومن شرط القول لتمام الإيمان يقول هذا مات قبل الإيمان وهو فاسد إذ قال
صلى الله عليه وسلم يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان وهذا قلبه
طافح بالإيمان فكيف يخلد ولم يشترط في حديث جبريل عليه السلام للإيمان إلا التصديق
بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر كما سبق الدرجة الخامسة أن يصدق بالقلب ويساعده
من العمر مهلة النطق بكلمتي الشهادة وعلم وجوبها ولكنه لم ينطق بها فيحتمل أن يجعل
امتناعه عن النطق كامتناعه عن الصلاة ونقول هو مؤمن غير مخلد في النار والإيمان
هو التصديق المحض واللسان ترجمان الإيمان فلا بد وأن يكون الإيمان موجودا بتمامه قبل
اللسان حتى يترجمه اللسان وهذا هو الأظهر إذ لا مستند إلا اتباع موجب الألفاظ
ووضع اللسان أن الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب وقد قال يخرج من النار من
كان في قلبه مثقال ذرة ولا ينعدم الإيمان من القلب بالسكوت عن النطق الواجب
كما لا ينعدم بالسكوت عن الفعل الواجب وقال قائلون القول ركن إذ ليس كلمة
الشهادة إخبارا عن القلب بل هو إنشاء عقد آخر وابتداء شهادة والتزام والأول
أظهر وقد غلا في هذا طائفة المرجئة فقالوا هذا لا يدخل النار أصلا وقالوا إن المؤمن
وإن عصى فلا يدخل النار وسنبطل ذلك عليهم الدرجة السادسة أن يقول بلسانه
لا إله إلا الله محمد رسول الله ولكن لم يصدق بقلبه فلا نشك في أن هذا في حكم

الآخرة من الكفار وأنه مخلد في النار ولا نشك في أنه في حكم الدنيا الذي يتعلق بالأئمة
والولاة من المسلمين لأن قلبه لا يطلع عليه وعلينا أن نظن به أنه ما قال بلسانه إلا وهو منطو
عليه بقلبه وإنما نشك في أمر ثالث وهو الحكم الدنيوي فيما بينه وبين الله تعالى وذلك بأن يموت له
في هذه الحالة قريب مسلم ثم يصدق بعد ذلك بقلبه ثم يستفتي ويقول كنت غير مصدق
بالقلب حالة الموت والميراث الآن في يدي فهل يحل لي بيني وبين الله تعالى أو نكح مسلمة
ثم صدق ثم شك هل تلزمه إعادة النكاح هذا في محل النظر فيحتمل أن يقال أحكام الدنيا
منوطة بالقول الظاهر ظاهرا وباطنا ويحتمل أن يقال تناط بالظاهر في حق غيره لأن باطنه
غير ظاهر لغيره وباطنه ظاهر له في نفسه بينه وبين الله والأظهر والعلم عند الله أنه
لا يحل له ذلك الميراث ويلزمه إعادة النكاح فإن قلت فما شبهة المعتزلة والمرجئة وما
حجة بطلان قولهم فأقول شبهتهم عمومات القرآن أما المرجئة فقالوا لا يدخل المؤمن
النار وإن أتى بكل المعاصي لقوله تعالى فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا ولقوله
والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون إلى غير ذلك من الآيات ثم قال
بعد ذكرهما فلا حجة لهم في ذلك فإنه حيث ذكر الإيمان في هذه الآيات أريد به الإيمان
مع العمل إذ بينا أن الإيمان قد يطلق ويراد به الإسلام وهو الموافقة بالقلب والقول
والعمل ويدل على هذا التأويل أخبار كثيرة في معاقبة العاصين ومقادير العقاب
وقوله يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان فكيف يخرج إذا لم يدخل
ومن القرآن قوله تعالى إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فا
لاستثناء بالمشيئة يدل على الانقسام وقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله فإن له نار
جهنم وتخصيصه بالكفر تحكم إلى غير ذلك من الآيات ثم قال وحيث هذه العمومات
معارضة بعمومات ولا بد من تسليط التخصيص والتأويل على الجانبين لأن الأخبار مصرحة
بأن العصاة يعذبون بل قوله تعالى وإن منكم إلا واردها كالصريح في أن ذلك لا بد منه
للكل إذ لا يخلو مؤمن عن ذنب يرتكبه وأما المعتزلة فشبهتهم قوله تعالى وإني لغفار
لمن تاب وآمن وعمل صالحا وقوله والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا
الصالحات وقوله وإن منكم إلا واردها ثم قال ثم ننجي متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها
أيضا مخصوصة بدليل قوله تعالى ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فينبغي أن يبقى له مشيئة في

الذين اتقوا وقوله ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم وكل آية فيها ذكر العمل الصالح مقرونا بالإيمان وقوله ومن يقتل مؤمنا صح

مغفرة ما سوى الشرك وكذلك قوله يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من الايمان
الى غير ذلك من الآيات التي ذكرناها فان قلت فقد مال الاختيار الى ان الايمان عقد
دون العمل وقد اشتهر عن السلف قولهم الايمان عقد وقول وعمل فما معناه قلنا
لا يبعد ان يعد العمل من الايمان لانه مكمل له ومتمم كما يقال التسبيحات والتكبيرات الراس
اليد من الانسان ومعلوم انه يخرج عن كونه انسانا بعدم الراس ولا يخرج عنه بكونه
مقطوع اليد وكذلك يقال التسبيحات والتكبيرات من الصلوة وان كانت لا تبطل
بفقدها فالتصديق بالقلب من الايمان كالراس من وجود الانسان اذ ينعدم
بعدمه وبقية الطاعات كالاطراف وبعضها اعلى من بعض وقد قال صلى الله عليه وسلم لا يزني
الزاني حين يزني وهو مؤمن والصحابة ما اعتقدوا مذهب المعتزلة في الخروج من
الايمان بالزنا ولكن معناه غير مؤمن حقا ايمانا تاما كاملا كما يقال للعاجز المقطوع
الاطراف هذا ليس بانسان اي ليس له الكمال الذي هو وراء حقيقة الانسانية
فان قلت فقد اتفق السلف على ان الايمان يزيد وينقص بالطاعة والمعصية
فاذا كان التصديق هو الايمان فلا يتصور فيه زيادة ونقصان فاقول
السلف هم الشهود العدول وما لاحد عن قولهم عدول فما ذكروه حق وانما الشان
في فهمه وفيه دليل على ان العمل ليس من اجزاء الايمان واركان وجوده بل هو مزيد
عليه يزيد به والزائد موجود والناقص موجود والشي لا يزيد بذاته فلا يجوز
ان يقال الانسان يزيد براسه بل يقال يزيد بلحيته وسمنه ولا يجوز ان يقال
الصلوة تزيد بالركوع والسجود بل تزيد بالآداب والسنن فهذا تصريح بان الايمان
له وجود ثم بعد الوجود يختلف حاله بالزيادة والنقصان فان قلت فالاشكال
قائم في ان التصديق كيف يزيد وينقص وهو خصلة واحدة فاقول اذا تركنا
المداهنة ولم نكترث بتشغيب من تشغب وكشفنا الغطاء ارتفع الاشكال فنقول
الايمان اسم مشترك يطلق من ثلثة اوجه الاول انه يطلق للتصديق بالقلب
على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف وانشراح صدر وهو ايمان العوام بل
الخلق كلهم الا الخواص وهذا الاعتقاد عقدة على القلب تارة تشتد وتقوى
وتارة تضعف وتسترخي كالعقدة على الخيط مثلا ولا تستبعد هذا واعتبر باليهودي

باليهودي في صلابته في عقيدته التي لا يمكن نزوعه عنها بتخويف وتحذير ولا
بتخييل ووعظ ولا تحقيق وبرهان وكذلك النصارى والمبتدعة ومنهم من يمكن تشكيكه
بادنى كلام ويمكن استنزاله عن اعتقاده بادنى استمالة او تخويف مع انه غير شاك
في عقده كالاول ولكنهما متفاوتان في شدة التصميم وهذا موجود في الاعتقاد
الحق ايضا والعمل يؤثر في نماء هذا التصميم وزيادته كما يؤثر سقي الماء في نماء الاشجار
ولذلك قال تعالى فزادتهم ايمانا وقال تعالى ليزدادوا ايمانا مع
ايمانهم وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما يروى في بعض الاخبار الايمان يزيد وينقص وذلك بتاثير
الطاعات في القلب وهذا لا يدركه الا من راقب احوال نفسه في اوقات المواظبة
على العبادة والتجرد لها بحضور القلب مع اوقات الفتور وادراك التفاوت في السكون
الى عقائد الايمان في هذه الاحوال حتى يزيد عقده استعصاء على من يريد حله بالتشكيك
بل من يعتقد في اليتيم معنى الرحمة اذا عمل بموجب اعتقاده فمسح راسه وتلطف به ادرك
من باطنه تاكد الرحمة وتضاعفها بسبب العمل وكذلك معتقد التواضع اذا عمل بموجبه مقبلا
او ساجدا لغيره احس من قلبه بالتواضع عند اقدامه على الخدمة وهكذا جميع صفات
القلب تصدر منها اعمال الجوارح ثم يعود اثر الاعمال عليها فيؤكدها ويزيدها وسياتي
هذا في ربع المهلكات والمنجيات عند بيان وجه تعلق الباطن بالظاهر والاعمال بالعقائد
والقلوب فان ذلك من جنس تعلق الملك بالملكوت واعني بالملك عالم الشهادة المدرك
بالحواس واعني بالملكوت عالم الغيب المدرك بنور البصيرة والقلب من عالم الملكوت والاعضاء
واعمالها من عالم الملك ولطف الارتباط ودقته بين العالمين انتهى الى حد ظن بعض الناس
اتحاد احدهما بالآخر وظن آخرون انه لا عالم الا عالم الشهادة وهو هذه الاجسام المحسوسة
ومن ادرك الامرين وادرك تعددهما ثم ارتباطهما عبر عنه وقال رق الزجاج ورقت
الخمر فتشابها وتشاكل الامر فكانما خمر ولا قدح وكانما قدح ولا خمر ولنرجع الى المقصود
فان هذا العلم خارج عن علم المعاملة ولكن بين العالمين ايضا اتصال وارتباط فلذلك
ترى علوم المكاشفة تتسلق كل ساعة على علوم المعاملة الى ان تكف عنها بالتكلف فهذا
وجه زيادة الايمان بالطاعة بموجب هذا الاطلاق ولهذا قال علي كرم الله وجهه ان الايمان
ليبدو لمعة بيضاء فاذا عمل العبد الصالحات نمت وزادت حتى يبيض القلب كله وان

النفاق ليبد نكتة سوداء فاذا انتهك الحرمات نمت وزادت حتى تسود القلب كله فيطبع
على قلبه فذلك الختم وتلا كلا بل ران على قلوبهم الآية الاطلاق الثاني ان يراد به التصديق
والعمل جميعا كما قال الايمان بضع وسبعون بابا وكما قال لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن
واذا دخل العمل في مقتضى لفظ الايمان لم يخف زيادته ونقصانه وهل يؤثر ذلك في زيادة
الايمان الذي هو مجرد التصديق هذا فيه نظر وقد اشرنا الى انه مؤثر فيه الاطلاق الثالث
ان يراد به التصديق اليقيني على سبيل الكشف وانشراح الصدر والمشاهدة بنور البصيرة وهذا
ابعد الاقسام عن قبول الزيادة ولكني اقول الامر اليقيني الذي لا شك فيه تختلف طمأنينة
النفس اليه فليس طمأنينة النفس الى ان الاثنين اكثر من الواحد كطمأنينتها الى ان العالم مصنوع
حادث وان كان لا شك في واحد منهما بل اليقينيات تختلف في درجات الايضاح ودرجات
طمأنينة النفس اليها وقد تعرضنا لهذا في فصل اليقين من كتاب العلم في باب علامات علماء الآخرة
فلا حاجة الى الاعادة وقد ظهر في جميع الاطلاقات ان ما قالوه من زيادة الايمان ونقصانه حق
وكيف لا وفي الاخبار انه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الايمان وفي بعض المواضع في خبر
آخر مثقال دينار فاي معنى لاختلاف مقاديره ان كان ما في القلب لا يتفاوت ثم ذكر علله
وجه قول السلف انا مؤمنون ان شاء الله والاستثناء شك والشك في الايمان كفر وقول سفيان
الثوري من قال انا مؤمن عند الله فهو من الكذابين ومن قال انا مؤمن حقا فهو بدعة فكيف
يكون كاذبا واصل ذلك بوجوه اربعة احدها من كونهم محترزين من الجزم خيفة ما فيه من تزكية النفس
والثاني التأدب بذكر الله في كل حال واحالة الامور كلها الى مشيئة الله فقال لنبيه فلا
تزكوا انفسكم وقال تعالى الم تر الى الذين يزكون انفسهم ثم قال انظر كيف يفترون على الله الكذب
وقد ادب الله سبحانه نبيه فقال ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله ثم
لم يقتصر على ذلك فيما لا شك فيه بل قال لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين
وكان الله عالما بانه يدخله لا محالة وانه شاءه ولكن المقصود تعليمه ذلك فتأدب رسول الله
في كل ما كان يخبر عنه معلوما كان او مشكوكا الثالث مرجعه الى الشك لا في الاصل بل في كمال
الايمان وذلك ليس بكفر فان النفاق مزيل لكمال الايمان لا الاصل
لا يتحقق البراءة منه والايمان يكمل باعمال الطاعات ولا يدري وجودها على الكمال الرابع
خوف الخاتمة فانه لا يدري ايسلم له الايمان عند الموت ام لا فان ختم له بالكفر حبط الايمان السابق

السابق لانه موقوف على سلامة الآخر وكما ان النهار ميقات تمام الصوم فالعمر ميقات
تمام الصحة للايمان فلهذا لو سئل الصائم في ضحوة النهار عن صحة صومه فقال انا صائم قطعا فلو
افطر بعد ذلك تبين كذبه وصغر بالعقل قبل آخر بناء على الاستصحاب بصحة كونه فيه
وانما فيه خوف ولاجلها كان اكثر بكاء الخائفين لاجل انها ثمرة القضية السابقة والمشيئة
الازلية التي لا تظهر الا بظهور المقضي به ولا مطلع عليه لاحد من البشر فخوف الخاتمة كخوف
السابقة وربما يظهر في الحال ما سبقت الكلمة بنقيضه فمن الذي يدري انه من الذين سبقت لهم
منا الحسنى

كتاب اسرار الطهارة

قال النبي صلى الله عليه وسلم بني الدين على النظافة
وقال مفتاح الصلاة الطهور وقال الله تعالى فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب
المطهرين وقال النبي عم الطهور نصف الايمان وقال تعالى ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج
ولكن يريد ليطهركم فتفطن ذوو البصائر بهذه الظواهر ان اهم الامور تطهير السرائر
اذ يبعد ان يكون المراد بقوله الطهور نصف الايمان عمارة الظاهر بالتنظيف بافاضة
الماء وتخريب الباطن وابقاؤه مشحونا بالاخباث والاقذار هيهات هيهات فالطهارة
لها اربع مراتب الاولى تطهير الظاهر عن الاحداث والاخباث والفضلات والثانية
تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام والثالثة تطهير القلب عن الاخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة
والرابعة تطهير السر عما سوى الله تعالى وهي طهارة الانبياء والصديقين والطهارة في كل
رتبة نصف العمل الذي فيها فان الغاية القصوى في عمل السر ان ينكشف له جلال الله
وعظمته ولن تحل معرفة الله بالحقيقة في السر ما لم يرتحل ما سوى الله عنه ولذلك قال تعالى
قل الله ثم ذرهم لانهما لا يجتمعان في قلب وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه واما عمل القلب
فالغاية القصوى عمارته بالاخلاق المحمودة والعقائد المشروعة ولن يتصف بها ما لم
ينظف عن نقائضها من العقائد الفاسدة والرذائل المذمومة فتطهيره احد
شطري الايمان وهو الشطر الاول الذي هو شرط في الثاني فكان الطهور شطر الايمان بهذا
المعنى وكذلك تطهير الجوارح عن المناهي احد الشطرين وعمارتها بالطاعات الشطر الثاني
وهذه مقامات الايمان ولكل مقام طبقة ولن ينال العبد الطبقة العالية الا ان يجاوز
الطبقة السافلة فلا يصل الى طهارة السر عن الصفات المذمومة وعمارته بالمحمودة ما لم
يفرغ عن طهارة القلب عن الخلق المذموم وعمارته بالمحمود ولن يصل الى ذلك من لم يفرغ

عن طهارة الجوارح عن المناهي وعمارتها بالطاعات وكلها عزّ المطلب وشرف صعب المسلك وطال
الطريق وكثرت عقباته فلا تظنن ان هذا الامر يدرك بالمنى وينال بالهوينا نعم من عميت بصيرته
عن تفاوت هذه الطبقات لم يفهم من مراتب الطهارة الا الدرجة الاخيرة التي هي كالقشر
الاخير بالاضافة الى اللب المطلوب فصار يمعن فيها ويستقصي في مجاريها ويستوعب جميع
اوقاته في الاستنجاء وغسل الثياب وتنظيف الظاهر وطلب المياه الجارية الكثيرة ظنا منه
بحكم الوسوسة وخيال العقل ان الطهارة المطلوبة الشريفة هي هذه فقط وجهلا بسيرة
الاولين واستغراقهم جميع الهم والفكر في تطهير القلوب وتساهلهم في امر الظاهر حتى انهم
كانوا يغسلون ايديهم من الدسومات والاطعمة بل كانوا يمسحون اصابعهم باخمص اقدامهم وعدوا
الاشنان من البدع المحدثة ولقد كانوا يصلون على الارض في المساجد ويمشون حفاة في
الطرقات ومن كان لا يجعل بينه وبين التراب حاجزا في مضجعه كان من اكابرهم وكانوا
يقتصرون على الحجارة في الاستنجاء فقال اول ما ظهر من البدع بعد رسول الله صلعم اربعة
المناخل والاشنان والموائد والشبع ولم ينقل عن واحد منهم سؤال في دقائق النجاسات
بل هكذا كان تساهلهم فيها وقد انتهت النوبة الآن الى طائفة يسمون الرعونة نظافة و
يقولون هي مبنى الدين فاكثر اوقاتهم في تزيينهم الظواهر كفعل الماشطة بعروسها والباطن
خراب مشحون بخبائث الكبر والعجب والجهل والرياء والنفاق ولا يستنكرون ذلك ولا يتعجبون
منه ولو اقتصر مقتصر على الاستنجاء بالحجر او مشى على الارض حافيا او صلى على الارض او
على بواري المسجد من غير سجادة مفروشة او مشى على الفرش من غير غلاف للقدم من ادم
او توضأ من آنية عجوز او رجل غير متقشف اقاموا عليه القيامة وشددوا عليه النكير ولقبوه
بالقذر واخرجوه من زمرتهم واستنكفوا من مؤاكلته ومخالطته فسموا البذاذة التي هي من
الايمان قذارة والرعونة نظافة فانظر كيف صار المنكر معروفا والمعروف منكرا وكيف
اندرس من الدين رسمه كما اندرس حقيقته وعلمه فان قلت افتقول ان هذه العادات
التي احدثها الصوفية في هيئاتهم ونظافتهم من المحظورات او المنكرات فاقول حاش لله
ان اطلق القول فيه من غير تفصيل ولكني اقول ان هذا التكلف والتنظف باعداد الاواني
والآلات واستعمال غلاف القدم والازار المقنع به لدفع الغبار وغير ذلك من هذه الاسباب
ان وقع النظر الى ذاتها على سبيل التجرد فهي من المباحات وقد تقترن بها احوال ونيات

الاقدام

تلحقها تارة بالمعروفات وتارة بالمنكرات فاما كونه مباحا في نفسه فلا يخفى
اذ صاحبه متصرف به في ماله وبدنه وثيابه فليفعل به ما يريد اذا لم يكن فيه اضاعة
واسراف واما مصيره منكرا فبان يجعل ذلك اصل الدين ويفسر به قوله صلعم بني الدين على النظافة
حتى ينكر به على من يتساهل فيه تساهل الاولين او يكون القصد به تزيين الظاهر للخلق
وتحسين موقع نظرهم فان ذلك هو الرياء المحظور فيصير منكرا بهذين الاعتبارين واما
كونه معروفا فبان يكون القصد منه الخير دون التزيين وان لا ينكر على من ترك ذلك
ولا يؤخر بسببه الصلوة عن اول الاوقات ولا يشتغل به عن عمل هو افضل منه او عن
علم او غيره فاذا لم يقترن به شيء من ذلك فهو مباح يمكن ان يجعل قربة بالنية
ولكن لا يتيسر ذلك الا للبطالين الذين لو لم يشتغلوا بصرف الاوقات اليه لاشتغلوا
بنوم او حديث فيما لا يعني فيصير شغلهم به اولى لان الاشتغال بالطهارات يجدد ذكر
الله وذكر العبادات فلا باس به اذا لم يخرج الى منكر او اسراف واما اهل العلم والعمل
فلا ينبغي ان يصرفوا من اوقاتهم اليه الا قدر الحاجة والزيادة عليه منكر في حقهم وتضييع
للعمر الذي هو انفس الجواهر واعزها في حق من قدر على الانتفاع به ولا يتعجب من ذلك
فان حسنات الابرار سيئات المقربين فلا ينبغي للبطال ان يترك النظافة وينكر
على المتصوفة ويزعم انه يتشبه بالصحابة اذ التشبه بهم في ان لا يتفرغ الا لما هو اهم منه
كما قيل لداود الطائي لم لا تسرح لحيتك قال اني اذا لفارغ فلهذا لا ارى للعالم ولا
للعامل ان يضيع وقته في غسل الثياب احترازا عن ان يلبس الثياب المقصورة توهما
بالقصار تقصيرا في الغسل فقد كانوا في العصر الاول يصلون في الفراء المدبوغة ولم يعلم
منهم فرق بين المدبوغة والمقصورة في الطهارة والنجاسة بل كانوا يجتنبون النجاسة
اذا شاهدوها ولا يدققون نظرهم في استنباط الاحتمالات الدقيقة بل كانوا يتأملون
في دقائق الرياء والظلم حتى قال سفيان الثوري لرفيق له كان يمشي معه فنظر الى باب
دار مرفوع معمور لا تنظر اليه فان الناس لو لم ينظروا اليه لكان صاحبه لا يتعاطى
هذا الاسراف فالناظر اليه معين له على الاسراف فكانوا يعدون من جمام الذهن لاستنباط
مثل هذه الدقائق لا في احتمال النجاسات ولو وجد العالم عاميا يتعاطى
له غسل الثياب محتاطا فهو افضل فانه بالاضافة الى التساهل خير وذلك العامي ينتفع

بتعاطيهما ان يشتغل بنفسه الامارة بالسوء بعمل مباح في نفسه فتمتنع عليه المعاصي فان النفس
والتقوى ان لم تشتغل شغلت صاحبها واذا قصد به التقرب الى العالم صار بذلك عنده من
افضل القربات فوقت العالم اشرف من ان يصرف الى مثله فيبقى محفوظا واشرف وقت
العامي ان يشتغل بمثله فيتوفر الخير من الجوانب وليتفطن بهذا المثال لنظايره من الاعمال
وترتيب فضايلها ووجه تقديم البعض منها على البعض فتدقيق الحساب في حفظ لحظات
العمر بصرفها الى الافضل اهم من التدقيق في اموال الدنيا بحذافيرها ثم ذكر رحمه الله
في بيان نظافة الظاهر عن الخبث بعد بيان ان الماء يخرج عن الطهارة بالتغير وانه ان
لم يتغير احد اوصافه وكان قريبا من مايتين وخمسين منا وهو خمسماية رطل بالعراقي لم ينجس
لقوله صلى الله عليه وسلم اذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا وان كان دونه صار نجسا ان هذا مذهب
الشافعي رحمه الله وكنت اود ان يكون مذهبه كمذهب مالك في ان الماء وان قل لا ينجس
الا بالتغير اذ الحاجة ماسة اليه ومثار الوسواس اشتراط القلتين ولاجله شق على الناس
ذلك وهو لعمري سبب المشقة ويعرفه من يجربه ويتاملها ومما لا اشك فيه ان ذلك لو كان
شرطا لكان اولى المواضع بتعسر الطهارة مكة والمدينة اذ لا يكثر بها المياه الجارية ولا
الراكدة الكثيرة ومن اول عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى آخر عصر الصحابة لم ينقل واقعة في الطهارة
ولا سؤال عن كيفية حفظ الماء عن النجاسة وكانت اواني مياههم يتعاطاها الصبيان
والاماء والذين لا يحترزون عن النجاسات وايضا انا نعرض على ان غسالة النجاسة طاهرة
اذا لم يتغير ونجس ان تغير واي فرق بين ان يلاقي الماء النجاسة بالورود عليها او بورودها
عليه واي معنى لقول القائل ان قوة الورود تدفع النجاسة مع ان الورود لم يمنع مخالطة
النجاسة وايضا اذا وقع رطل من البول في قلتين ثم فرقنا فكل كوز يغترف منه طاهر ومعلوم
ان البول منتشر فيه وهو قليل فليت شعري تعليل طهارته بعدم التغير اولى ام بقوة كثرة
الماء بعد انقطاع الكثرة وزوالها مع تحقق بقاء اجزاء النجاسة فيها وذكر امورا اخر
ثم قال فهذه الامور مع الحاجة الشديدة تقوي في النفس انهم كانوا ينظرون الى عدم التغير
معولين على قوله صلى الله عليه وسلم خلق الماء طهورا لا ينجسه شيء الا ما غير طعمه او ريحه وهذا فيه تحقيق
وهو ان طبع كل مايع ان يقلب الى صفة نفسه كل ما يقع فيه فكان مغلوبا من جهته فكما نرى الكلب
يقع في المملحة فيستحيل ملحا يحكم بطهارته لصيرورته ملحا وزوال صفة الكلبية فكذلك الخل

الخل يقع في الماء واللبن يقع فيه وهو قليل فيبطل صفته ويصير بصفة الماء وينطبع
بطبعه الا اذا كثر وغلب ويعرف غلبته بغلبة طعمه او لونه او ريحه فهذا المعيار رده
الشرع اليه في الماء القوي على ازالة النجاسة فهو جدير بان يعول عليه فيندفع به الحرج
ويظهر به معنى كونه طهورا اذ يغلب غيره فيطهره كما صار كذلك فيما بعد القلتين وفي الغسالة
وفي الماء الجاري واما قوله عليه السلام لا يحمل خبثا فهو في نفسه مبهم فانه يحمل اذا تغير فان
قيل اراد به اذا لم يتغير فيمكن ان يقال اراد به انه في الغالب لا يتغير بالنجاسات المعتادة
ثم هو تمسك بالمفهوم فيما اذا لم يبلغ قلتين وترك المفهوم باقل من الادلة التي ذكرناها ممكن
وقوله لا يحمل خبثا ظاهره نفي الحمل اي يقلبه الى صفته كما يقال المملحة لا تحمل كلبا ولا غيره اي
يقلب وذلك لان الناس قد يستنجون في المياه القليلة في الغدران ويغمسون الاواني
النجسة فيها ثم يترددون في انها تغيرت تغيرا مؤثرا ام لا فتبين انه اذا كان قلتين لا يتغير بهذه
النجاسات وعلى الجملة فينبغي في امور النجاسات المساهلة فهذا من سيرة الاولين وحسما
لمادة الوسواس والمزيل للوسواس ان نعلم يقينا ان الاشياء خلقت طاهرة فالا ما شاهدت
نجاسة عليه ولا نعلمها يقينا فصل معه ولا ينبغي ان يتوصل بالاستنباطات الى تقدير النجاسات
ثم ذكر رحمه الله آداب قضاء الحاجة وكيفية الاستنجاء وكيفية الوضوء فقال اذا
فرغ من الاستنجاء اشتغل بالوضوء فلم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم قط خارجا من الغائط الا توضا
ويبتدي بالسواك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان افواهكم طرق القرآن فطيبوها بالسواك فينبغي
ان ينوي عند السواك تطهير فمه لقراءة الفاتحة وذكر الله في الصلوة وقال صلى الله عليه وسلم صلوة على اثر
السواك افضل من خمس وسبعين صلوة بغير سواك وقال لولا ان اشق على امتي لامرتهم بالسواك
عند كل صلوة وقال صلى الله عليه وسلم ما لي اراكم تدخلون علي قلحا استاكوا اي صفر الاسنان وكان يستاك
في الليل مرارا وقال عليه السلام السواك يزيد الحفظ ويذهب البلغم وكيفية ان يستاك ...

كتاب اسرار الصلوة قال رحمه الله بعد الخطبة اما بعد فان الصلوة عماد الدين وعصام
اليقين وراس القربات وغرة الطاعات وقد رتبه رحمه الله على سبعة ابواب الباب الاول
في فضائل الصلوة والسجود والجماعة والاذان وغيرها فاورد لفضيلة كل منها اخبارا و
احاديثا وآيات كثيرة ثم ذكر فضيلة الخشوع ثم فضيلة المسجد ومواضع الصلوة كذلك
والباب الثاني في كيفية الاعمال الظاهرة والباب الثالث في الشروط الباطنة من اعمال

القلب قال رحمه الله ولنذكر في هذا الباب ارتباط الصلوة بالخشوع وحضور القلب ثم لنذكر
المعاني الباطنة وحدودها واسبابها وعلاجها ثم لنذكر تفصيل ما ينبغي ان يحضر في كل
ركن من الصلوة لتكون صالحة لزاد الاخرة بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب اعلم
ان ادلة ذلك كثيرة الخ **بيان المعاني الباطنة التي بها تتم حيوة الصلوة** اعلم ان هذه
المعاني تكثر العبارات عنها ولكن يجمعها ست جمل وهي حضور القلب والتفهم والتعظيم
والهيبة والرجاء والحياء فلنذكر تفصيلها ثم اسبابها ثم العلاج في اكتسابها **اما التفاصيل** فالاول
حضور القلب ونعني به ان يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به فيكون العلم بالفعل
والقول مقرونا بهما ولا يكون الفكر جائلا في غيرهما ومهما انصرف الفكر عن غير ما هو فيه وكان
في قلبه ذكر لما هو فيه ولم يكن فيه غفلة عن كل شيء فقد حصل حضور القلب ولكن التفهم
لمعنى الكلام امر وراء حضور القلب فربما يكون القلب حاضرا مع اللفظ ولا يكون حاضرا
مع معنى اللفظ فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذي اردناه بالتفهم وهذا مقام
يتفاوت الناس فيه اذ ليس يشترك الناس في تفهم المعاني للقرآن والتسبيحات وكم من معان
لطيفة يفهمها المصلي في اثناء صلوته ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله ومن هذا الوجه كانت
الصلوة ناهية عن الفحشاء والمنكر فانها تفهم امورا تلك الامور تمنع من الفحشاء لا محالة واما
التعظيم فهو امر وراء حضور القلب والفهم اذ الرجل يخاطب عبده بكلام هو حاضر القلب
فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون معظما له فالتعظيم زائد عليهما واما الهيبة
فزائدة على التعظيم بل هي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم لان من لا يخاف لا يسمى هائبا
والمخافة من العقرب وسوء خلق العبد وما يجري مجراه من الاسباب الخسيسة لا يسمى مهابة
بل الخوف من السلطان المعظم يسمى مهابة فالهيبة خوف مصدره الاجلال واما الرجاء
فلا شك انه زائد فكم من معظم ملكا من الملوك يهابه او يخاف سطوته ولكن لا يرجو مثوبته
والعبد ينبغي ان يكون راجيا بصلوته ثواب الله كما انه خائف بتقصيره عقاب الله واما الحياء
فزائد على الجملة لان مستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب ويتصور التعظيم والخوف والرجاء
من غير حياء حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب **اما** اسباب هذه المعاني الستة
فاعلم ان حضور القلب سببه الهمة فان قلبك تابع لهمك فلا يحضر الا فيما يهمك ومهما
اهمك امر حضر القلب شاء ام ابى فهو مجبول عليه ومسخر فيه والقلب اذا لم يحضر في الصلوة لم يكن
متعطلا

متعطلا بل كان حاضرا فيما الهمة مصروفة اليه من امور الدنيا فلا حيلة ولا علاج لاحضار
القلب الا بصرف الهمة الى الصلوة والهمة لا تنصرف اليها ما لم يتبين ان الغرض المطلوب منوط بها
وذلك هو الايمان والتصديق بان الاخرة خير وابقى وان الصلوة وسيلة اليها فاذا اضيف
هذا الى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومهماتها حصل من مجموعهما حضور القلب في الصلوة
وبمثل هذه العلة يحضر قلبك اذا حضرت بين يدي بعض الاكابر ممن لا يقدر على مضرتك و
منفعتك فاذا كان لا يحضر عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملكوت والنفع
والضر فلا تظنن ان له سببا سوى ضعف الايمان فاجتهد الآن في تقوية الايمان وطريقه
يستقصى في غير هذا الموضع واما التفهم فسببه بعد حضور القلب ادمان الفكر وصرف
الذهن الى ادراك المعنى وعلاجه ما هو علاج احضار القلب مع الاقبال على الفكر والتشمر
لدفع الخواطر الشاغلة وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها اعني النزوع عن تلك الاسباب
التي تنجذب الخواطر اليها وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر فمن احب شيئا اكثر
من ذكره فذكر المحبوب يهجم على القلب بالضرورة فلذلك ترى ان من احب غير الله لا تصفو له
صلوة عن الخواطر واما التعظيم فهي حالة للقلب تتولد من معرفتين احداهما معرفة
جلال الله وعظمته وهو من اصول الايمان فان من لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه
الثانية معرفة حقارة النفس وخستها وكونها عبدا مسخرا مربوبا حتى يتولد من المعرفتين
الاستكانة والانكسار والخشوع فيعبر عنه بالتعظيم وما لم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة
جلال الله لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع فان المستغني عن غيره الآمن على نفسه يجوز ان يعرف
من غيره صفات العظمة ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله لان القرينة الاخرى وهي معرفة
حقارة النفس وحاجتها لم تقترن اليه واما الهيبة والخوف فحالة للنفس تتولد من المعرفة
بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به وانه لو اهلك الاولين والآخرين
لم ينقص من ملكه ذرة هذا مع مطالعة ما يجري على الانبياء والاولياء من المصائب وانواع
البلاء مع القدرة على الدفع على خلاف ما يشاهد من ملوك الارض وبالجملة كلما زاد العلم
بالله زادت الخشية والهيبة وسيأتي اسباب ذلك في كتاب الخوف من ربع المنجيات واما
الرجاء فسببه معرفة لطف الله وكرمه وعميم انعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه
في وعده الجنة بالصلوة فاذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعهما

الرجاء لا محالة واما الحياء فباستشعاره التقصير في العبادة وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله تعالى ويقوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها وقلة اخلاصها وخبث دخلتها وميلها الى الحظ العاجل في جميع افعالها مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله والعلم بانه مطلع على السريرة وخطرات القلب وان دقت وخفيت وهذه المعارف اذا حصلت يقينا انبعث منها بالضرورة حالة تسمى الحياء فهذه اسباب هذه الصفات وكل ما طلب تحصيله فعلاجه احضار سببه ففي معرفة السبب معرفة العلاج ورابطة جميع هذه الاسباب الايمان واليقين واعني به هذه المعارف التي ذكرناها ومعنى كونها يقينا انتفاء الشك واستيلاؤها على القلب كما سبق في بيان اليقين من كتاب العلم وبقدر اليقين يخشع القلب ولذلك قالت عائشة كان صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فاذا حضرت الصلوة فكانه لم يعرفنا ولم نعرفه وقد روي ان الله عز وجل اوحى الى موسى عليه السلام يا موسى اذا ذكرتني فاذكرني وانت تنتفض اعضاؤك وكن عند ذكري خاشعا مطمئنا واذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك واذا قمت بين يدي فقم قيام العبد الذليل وناجني بقلب وجل ولسان صادق وروي ان الله تعالى اوحى اليه قل لعصاة امتك لا يذكروني فاني آليت على نفسي ان من ذكرني ذكرته فاذا ذكروني ذكرتهم باللعنة هذا في عاص غير غافل في ذكره فكيف اذا اجتمعت الغفلة والعصيان وباختلاف المعاني التي ذكرناها في القلوب انقسم الناس الى غافل يتمم صلوته ولم يحضر قلبه في لحظة منها والى من يتمم ولم يغب قلبه في لحظة بل ربما كان مستوعب الهم بها بحيث لا يحس بما يجري بين يديه ولذلك لم يحس مسلم بن يسار بسقوط اسطوانة في المسجد اجتمع الناس عليها وبعضهم حضر الجماعة مدة فلم يعرف قط من على يمينه ويساره وقد كان وجيب قلب ابراهيم الخليل عليه السلام يسمع على ميلين وجماعة كانت تصفر وجوههم وترتعد فرائصهم فكل ذلك غير مستبعد فان اضعافه مشاهد في همم اهل الدنيا وخوف ملوك الدنيا مع عجزهم وضعفهم وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم حتى يدخل الواحد على ملك او وزير فيحدثه بمهمته ثم يخرج ولو سئل عمن حواليه وعن ثوب الملك لكان لا يقدر على الاخبار عنه لاشتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حوله ولكل درجات مما عملوا فحظ كل واحد من صلوته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه فان موضع نظر الله القلوب دون ظاهر الحركات ولذلك قال بعض الصحابة يحشر الناس يوم القيمة على مثال هيئتهم في الصلوة من الطمانينة

الطمانينة والهدوء ومن وجود النعيم بها واللذة ولقد صدق فانه يحشر كل على ما مات عليه ويموت على ما عاش عليه ويراعى في ذلك حال قلبه لا حال شخصه فمن صفات القلوب تصاغ الصور في الدار الاخرة ولا ينجو الا من اتى الله بقلب سليم بيان الدواء النافع في حضور القلب اعلم ان المؤمن لا بد وان يكون معظما لله وخائفا له وراجيا ومستحيا من تقصيره فلا ينفك عن هذه الاحوال بعد ايمانه وان كانت قوتها بقدر قوة يقينه فانفكاكه عنها في الصلوة لا سبب له الا تفرق الفكر وتقسيم الخاطر وغيبة القلب عن المناجاة والغفلة عن الصلوة ولا يلهي عن الصلوة الا الخواطر الواردة الشاغلة فالدواء في احضار القلب هو دفع تلك الخواطر ولا يدفع الشيء الا بدفع سببه فليعلم سببه وسبب موارد الخواطر اما ان يكون امرا خارجا او امرا في ذاته باطنا اما الخارج فما يقرع السمع او يظهر للبصر فان ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم تنجر منه الفكر الى غيره ويتسلسل ويكون الابصار سببا للافتكار ثم يصير بعض تلك الافكار سببا للبعض ومن قويت نيته وعلت همته لم يلهه ما جرى على حواسه ولكن الضعيف لا بد وان يتفرق به فكره وعلاجه قطع هذه الاسباب بان يغض بصره او يصلي في بيت مظلم او لا يترك بين يديه ما يشغل حسه ويقرب من حائط عند صلوته حتى لا تتسع مسافة بصره ويحترز من الصلوة على الشوارع وفي المواضع المنقوشة المصنوعة وعلى الفرش المصبوغة ولذلك كان المتعبدون يتعبدون في بيت صغير مظلم سعته بقدر السجود ليكون ذلك اجمع للهم والاقوياء منهم كانوا يحضرون المساجد ويغضون البصر ولا يجاوزون به موضع السجود ويرون كمال الصلوة في ان لا يعرف احدهم من على يمينه وشماله وكان ابن عمر لا يدع في موضع الصلوة مصحفا ولا سيفا الا نزعه ولا كتابا الا محاه واما الاسباب الباطنة فهي اشد فان من تشعبت به الهموم في اودية الدنيا لم ينحصر فكره في فن واحد بل لا يزال يطير من جانب الى جانب وغض البصر لا يغنيه فان ما وقع في القلب من قبل كاف للشغل فهذا طريقه ان يرد النفس قهرا الى فهم ما يقرؤه في الصلوة ويشغلها به عن غيره ويعينه على ذلك ان يستعد له قبل التحريم بان يجدد على نفسه ذكر الاخرة وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدي الله وهول المطلع ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلوة عما يهمه فلا يترك لنفسه شغلا يلتفت اليه خاطره قال النبي صلى الله عليه وسلم لعثمن بن شيبة اني نسيت ان اقول لك ان تخمر القدر الذي

في البيت فانه لا ينبغي ان يكون في البيت شي يشغل الناس عن صلوتهم فهذا طريق تسكين الافكار
فان كان لا يسكن هايج افكاره بهذا الدوا المسكن فلا ينجيه الا المسهل الذي يقمع مادة
الدآ من اعماق العروق وهو ان ينظر في الامور الشاغلة الصارفة له عن احضار القلب
ولا شك في انها تعود الى مهماته وانها انما صارت مهمة بشهواته فيعاقب نفسه بالنزوع
عن تلك الشهوات وقطع تلك العلايق فكل ما يشغله عن صلوته فهو ضد دينه وجند ابليس
عدوه فامساكه اضر عليه من اخراجه فيتخلص منه باخراجه كما روي عنه صلعم انه لما لبس الخميصة
التي اتاه بها ابو جهم وعليها علم وصلى بها نزعها بعد صلوته وقال اذهبوا بها الى ابي جهم
فانها الهتني انفا عن صلوتي وايتوني بانبجانية ابي جهم وامر صلعم بتجديد شراك نعله
ثم نظر اليه في الصلوة اذ كان جديدا فامر ان ينزع منها ويرد الشراك الخلق وكان عليه السلم
قد احتذى نعلا فاعجبه حسنها فسجد وقال تواضعت لربي كيلا يمقتني ثم خرج بها فدفعها
الى اول سايل لقيه ثم امر عليا ان يشتري له نعلين سبتيتين جردوين فلبسهما وكان فعله
ذلك قطعا لمادة الفكر وكفارة لما جرى من نقصان الصلوة وهذا هو الدوا القامع لمادة
العلة ولا يغني غيره فان ما ذكرناه من التلطف بالتسكين والرد الى فهم الذكر ينفع في الشهوات
الضعيفة والهمم التي لا يشغل الا حواشي القلب فاما الشهوة القوية المرهقة فلا ينفع معها
التسكين بل لا يزال تجاذبها وتجاذبك ثم تغلبك وينقضي جميع صلوتك في شغل التجاذب ومثاله
رجل تحت شجرة اراد ان يصفو له فكره وكانت اصوات العصافير تشوش عليه فلم يزل يطيرها
بخشبة هي في يده ويعود الى فكره فتعود العصافير فيعود الى التنفير بالخشبة فقيل له ان هذا سير
السواني ولا ينقطع فان اردت الخلاص فاقلع الشجرة فكذلك شجرة الشهوة اذا تشعبت
وتفرقت اغصانها انجذبت اليها الافكار انجذاب العصافير الى الاشجار وانجذاب الذباب الى
الاقذار والشغل يطول في دفعها فان الذباب كلما ذب اب ولاجله سمي ذبابا فكذلك الخواطر
وهذه الشهوات كثيرة وقلما يخلو العبد عنها ويجمعها اصل واحد وهو حب الدنيا وذلك راس
كل خطيية واساس كل نقصان ومنبع كل فساد ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال الى شي
منها لا ليتزود منها ولا ليستعين بها على الاخرة فلا يطمعن في ان تصفو له لذة المناجاة في الصلوة
فان من فرح بالدنيا لا يفرح بالله وبمناجاته وهمة الرجل مع قرة عينه فان كانت قرة عينه
في الدنيا انصرف لا محالة اليها همه ولكن مع هذا فلا ينبغي ان يترك المجاهدة ورد القلب الى الصلوة

الصلوة ويقلل الاسباب الشاغلة فهذا هو الدوا المر ولمرارته استبشعته اكثر الطباع وبقيت العلة
مزمنة وصار الدا عضالا حتى ان الاكابر اجتهدوا ان يصلوا ركعتين لا يحدثوا انفسهم فيها
بامور الدنيا فعجزوا عن ذلك فاذن لا مطمع فيه لامثالنا وليته سلم لنا من الصلوة شطرها او ثلثها
من الوسواس لنكون ممن خلطوا عملا صالحا واخر سيا وعلى الجملة فهمة الدنيا وهمة الاخرة في
القلب مثل الما الذي يصب في قدح مملو بالخل فبقدر ما يدخل فيه من الما يخرج من الخل لا محالة ولا
يجتمعان

بيان تفصيل ما ينبغي ان يحضر في القلب عند كل ركن وشرط من اعمال الصلوة

فنقول حقك ان كنت من المريدين للاخرة ان لا تغفل اولا عن التنبيهات التي في شروط الصلوة
واركانها اما الشروط السوابق فهي الاذان والطهارة وستر العورة واستقبال القبلة والانتصاب
قايما والنية فاذا سمعت ندآ المؤذن فاحضر في قلبك هول الندآ يوم القيمة وتشمر بظاهرك
وباطنك للاجابة والمسارعة فان المسارعين الى هذا الندآ هم الذين ينادون باللطف يوم
العرض الاكبر فاعرض قلبك على هذا الندا فان وجدته مملوا بالفرح والاستبشار مشحونا
بالرغبة الى الابتدار فاعلم انه ياتيك الندا بالبشرى والفوز يوم القضآ ولذلك قال صلى الله
عليه وسلم ارحنا يا بلال اي ارحنا بها وبالندآ اليها اذ قرة عينه فيها واما الطهارة فاذا اتيت
بها في مكانك وهو ظرفك الابعد ثم في ثيابك وهي غلافك الاقرب ثم في بشرتك وهي قشرك
الادنى فلا تغفل عن لبك الذي هو ذاتك وهو قلبك فاجتهد له تطهيرا بالتوبة والندم على
ما فرط وتصميم العزم على الترك في المستقبل فطهر بها باطنك فانه موقع نظر معبودك واما
ستر العورة فاعلم ان معناه تغطية مقابح بدنك عن ابصار الخلق فان ظاهر بدنك موقع نظر
الخلق فما رايك في عورات باطنك وفضايح سرايرك التي لا يطلع عليها الا ربك فاحضر تلك
الفضايح ببالك وطالب نفسك بسترها وتحقق انه لا يستر عن عين الله ساتر وانما يكفرها
الندم والحيا والخوف فتستفيد باحضارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والحيا من مكامنها
فتذل بها نفسك ويستكين تحت الخجلة قلبك وتقوم بين يدي الله تعالى قيام العبد المجرم
المسي الابق الذي ندم فرجع الى مولاه ناكسا راسه من الحيا والخوف واما الاستقبال فهو
صرف لظاهر وجهك عن ساير الجهات الى جهة بيت الله افترى ان صرف القلب عن ساير الامور
الى امر الله ليس مطلوبا منك هيهات فلا مطلوب سواه وانما هذه الظواهر تحريكات للبواطن
وضبط للجوارح وتسكين لها بالاثبات في جهة واحدة حتى لا تبغي على القلب فانها اذا بغت

ظلت في حركاتها والتفاتاتها الى جهاتها استتبعت القلب وانقلبت به عن وجه الله عز وجل فليكن
وجه قلبك مع وجه بدنك واعلم انه كما لا يتوجه الوجه الى جهة البيت الا بالصرف عن غيرها
فلا ينصرف القلب الى الله الا بالتفرغ عما سوى الله عز وجل فقد قال صلى الله عليه وسلم اذا قام العبد الى
صلوته فكان هواه ووجهه وقلبه الى الله تعالى انصرف كيوم ولدته امه واما الاعتدال قائما
فهو مثول بالشخص والقلب بين يدي الله عز وجل فليكن راسك الذي هو ارفع اعضائك
مطرقا مستطأطأ متكسرا وليكن وضع الراس عن ارتفاعه تنبيها على الزام القلب التواضع
والتذلل والتبري عن الترؤس والتكبر وليكن على ذكرك ههنا خطر المقام بين يدي الله عز وجل وهول
المطلع عند العرض للسؤال واعلم في الحال انك قائم بين يدي الله وهو مطلع عليك فقم بين
يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان ان كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله بل قدر في دوام
قيامك في صلوتك انك ملحوظ ومرقوب بعين كالئة من رجل صالح من اهلك او ممن ترغب
ان يعرفك بالصلاح فانه تهدأ عند ذلك اطرافك وتخشع جوارحك وتسكن جميع اجزائك
خيفة ان ينسبك ذلك العاجز المسكين الى قلة الخشوع واذا احسست من نفسك بالتماسك عند
ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك وقل لها انك تدعين معرفة الله وحبه افلا تستحيين من
استجرائك عليه مع توقيرك عبدا من عباده او تخشين الناس ولا تخشينه وهو احق ان يخشى ولذلك
لما قال ابو هريرة كيف الحياء من الله فقال صلى الله عليه وسلم تستحيي منه كما تستحيي من رجل صالح من قومك
واما النية فاعزم على اجابة الله بامتثال امره بالصلوة واتمامها والكف عن نواقضها و
مفسداتها واخلاص جميع ذلك لوجه الله رجاء لثوابه وخوفا من عقابه وطلبا للقربة منه متقلدا
للمنة منه بالاذن في المناجاة مع سوء ادبك وكثرة عصيانك وعظم في نفسك قدر مناجاته
وانظر من تناجي وكيف تناجي وبماذا تناجي وعند هذا ينبغي ان يعرق جبينك من الخجل
وترتعد فرائصك من الهيبة ويصفر وجهك من الخوف واما التكبير فاذا نطق به لسانك فينبغي
ان لا يكذبه قلبك فاذا كان في قلبك شيء هو اكبر من الله تعالى فالله يشهد انك لكاذب وان كان
الكلام صدقا كما شهد على المنافقين في قولهم انه رسول الله فان كان هواك اغلب عليك من
امر الله وانت اطوع له منك لله فقد اتخذته الهك وكبرته فيوشك ان يكون قولك الله اكبر كلاما
باللسان المجرد وقد تخلف القلب عن مساعدته وما اعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار
وحسن الظن بكرم الله تعالى وعفوه واما دعاء الاستفتاح فاول كلماته قولك وجهت وجهي للذي

فطر السموات والارض وليس المراد بالوجه الوجه الظاهر فانك انما وجهته الى جهة القبلة والله
سبحانه يتقدس عن ان تحده الجهات حتى تقبل عليه بوجه بدنك وانما وجه القلب هو الذي
تتوجه به الى الله فاطر السموات فانظر اليه امتوجه هو الى امانيه وهمته في البيت والسوق متبع
للشهوات واياك ان يكون اول مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق ولن ينصرف
الوجه الى الله الا بانصرافه عما سواه فاجتهد في الحال في صرفه اليه وان عجزت عنه على الدوام
ليكون قولك في الحال صادقا واذا قلت حنيفا مسلما فينبغي ان يخطر ببالك ان المسلم هو الذي
سلم المسلمون من لسانه ويده فان لم يكن كذلك كنت كاذبا فاجتهد ان تعزم عليه في
الاستقبال وتندم على ما سبق من الاحوال واذا قلت وما انا من المشركين فاخطر ببالك
الشرك الخفي فان قوله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة
ربه احدا نزل فيمن يقصد بعبادته وجه الله وحمد الناس وكن مشفقا من هذا الشرك
واستشعر الخجلة في قلبك ان وصفت نفسك بانك لست من المشركين من غير براءة من هذا
الشرك فان اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه واذا قلت محياي ومماتي لله فاعلم ان
هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود لسيده وانه ان صدر ممن رضاه وغضبه وقيامه
وقعوده ورغبته في الحيوة ورهبته من الموت لامور الدنيا لم يكن ملائما للحال واذا قلت اعوذ
بالله من الشيطان الرجيم فاعلم انه عدوك ومترصد لصرف قلبك عن الله حسدا لك على
مناجاتك مع الله وسجودك له مع انه لعن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها وان
استعاذتك بالله منه بترك ما يحبه وتبديله بما يحب الله تعالى لا بمجرد قولك فان من قصده
سبع او عدو ليفترسه او يقتله فقال اعوذ منك بذلك الحصن الحصين وهو ثابت على مكانه
فان ذلك لا ينفعه بل لا يعيذه الا تبديل المكان فكذلك من يتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان
ومكاره الرحمن فلا يغنيه مجرد القول فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عن شر
الشيطان وحصنه لا اله الا الله اذ قال الله تعالى فيما اخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم لا اله الا الله حصني والمتحصن
به من لا معبود له سوى الله فاما من اتخذ الهه هواه فهو في ميدان الشيطان لا في حصن
الله واعلم ان من مكايده ان يشغلك في الصلوة بفكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات ليمنعك عن فهم
ما تقرأ فاعلم ان كل ما يشغلك عن معاني قراءتك فهو وسواس فان حركة اللسان غير مقصودة
بل المقصود معانيها واما القراءة فالناس فيها ثلثة رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل ورجل

يجري لسانه وقلبه يتبع اللسان فيسمع ويفهم منه كأنه يسمعه من غيره وهي درجة أصحاب
اليمين ودرجة يسبق قلبه إلى المعاني أولاً ثم يخدم اللسان قلبه فيترجمه ففرق بين أن يكون
اللسان ترجمان القلب ويكون معلم القلب والمقربون لسانهم ترجمان يتبع القلب ولا يتبعه
القلب وتفصيل ترجمة المعاني أنك إذا قلت بسم الله الرحمن الرحيم فانو به التبرك لابتداء القراءة
لكلام الله وافهم أن معناه أن الأمور كلها بالله وأن المراد هاهنا بالاسم هو المسمى وإذا كانت
الأمور بالله فلا جرم كان الحمد لله ومعناه أن الشكر لله إذ النعم من الله ومن يرى من غير الله
نعمة ويقصد غير الله بشكر لا من حيث إنه مسخر من الله ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر
التفاته إلى غير الله فإذا قلت الرحمن الرحيم فأحضر في قلبك أنواع لطفه لتتضح لك رحمته
فينبعث به رجاؤك ثم استثر من قلبك التعظيم والخوف بقولك مالك يوم الدين أما العظمة
فلأنه لا ملك إلا له وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكه ثم جدد الإخلاص
بقولك إياك نعبد وجدد العجز والاحتياج والتبري عن الحول والقوة بقولك وإياك
نستعين وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا بإعانته وأن له المنة إذ وفقك لطاعته
واستخدمك لعبادته وجعلك أهلاً لمناجاته ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين
مع الشيطان اللعين ثم إذا فرغت من التعوذ بقولك بسم الله ومن التحميد ومن إظهار
الحاجة إلى الإعانة مطلقاً فعين سؤالك ولا تطلب إلا أهم حاجاتك وقل اهدنا الصراط
المستقيم الذي يسوقنا إلى جوارك ويفضي بنا إلى مرضاتك وزده شرحاً وتفصيلاً وتأكيداً
واستشهاداً بالذين أفاض عليهم نعمة الهداية من النبيين والصديقين والصالحين دون
الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين من اليهود والنصارى والصابئين ثم التمس الإجابة
وقل آمين فإذا تلوت الفاتحة كذلك فيشبه أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم فيما أخبر عنه
النبي صلى الله عليه وسلم قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي يقول
العبد الحمد لله رب العالمين فيقول الله حمدني عبدي وأثنى علي وهو معنى قوله سمع الله
لمن حمده إلى آخر الحديث فلو لم يكن لك من صلاتك حظ سوى ذكر الله لك في جلاله
وعظمته فناهيك به غنيمة فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله وكذلك ينبغي أن تفهم
ما تقرؤه من السورة كما سيأتي في كتاب تلاوة القرآن فلا تغفل عن أمره ونهيه ووعده
ووعيده ومواعظه وأخبار أنبيائه وذكر منته وإحسانه فلكل واحد حق فالرجاء حق

الوعد والخوف حق الوعيد والعزم حق الأمر والنهي والاتعاظ حق الموعظة و
الشكر حق ذكر المنة والاعتبار حق أخبار الأنبياء وروي أن زرارة بن أوفى انتهى
إلى قوله تعالى فإذا نقر في الناقور فخر ميتاً وكان إبراهيم إذا سمع قوله إذا السماء انشقت
اضطرب حتى تضطرب أوصاله وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم ويكون الفهم
بحسب وفور العلم وصفاء القلب ودرجات ذلك لا تنحصر والصلاة مفتاح القلوب
فيها تنكشف أسرار الكلمات فهذا حق القراءة وهو حق الأذكار والتسبيحات أيضاً ثم يراعي
الهيئة في القراءة فيرتل ولا يسرد فإن ذلك أيسر للتأمل ويفرق بين نغماته في آية
الرحمة والعذاب والوعد والوعيد والتحميد والتعظيم ويروى أنه يقال لصاحب القرآن
اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا وأما دوام القيام فهو تنبيه على إقامة القلب مع الله
على نعت واحد من الحضور قال صلى الله عليه وسلم إن الله مقبل على المصلي ما لم يلتفت وكما تجب حراسة
الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات فكذلك تجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير
الصلاة فإن التفت إلى غيره فذكره باطلاع الله عليك وقبح التهاون بالمناجاة عند غفلة
المناجي ليعود إليه والزم الخشوع القلب فإن الخلاص عن الالتفات باطناً وظاهراً
ثمرة الخشوع ومهما خشع الباطن خشع الظاهر قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى مصلياً عابثاً
بلحيته أما هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه فإن الرعية بحكم الراعي ولهذا ورد في الدعاء
اللهم أصلح الراعي والرعية وهو القلب والجوارح وكان الصديق رضي الله عنه في صلاته كأنه وتد
وكان ابن الزبير كأنه عود وبعضهم كان يسكن في ركوعه بحيث يقع العصافير عليه كأنه
جماد وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدي من يعظم من أبناء الدنيا فكيف لا يتقاضاه بين
يدي ملك الملوك عند من يعرف ملك الملوك ومن يطمئن بين يدي غير الله خاشعاً ثم
يضطرب أطرافه بين يدي الله تعالى فذلك لقصور معرفته عن جلال الله وعن اطلاعه على
سره وضميره قال عكرمة في قوله تعالى الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين قال قيامه
وركوعه وسجوده وجلوسه وأما الركوع والسجود فينبغي أن تجدد عندهما ذكر كبرياء
الله تعالى وترفع يديك مستجيراً بعفو الله من عقابه متبعاً سنة نبيه ثم تستأنف له ذلاً
وتواضعاً بركوعك وتجتهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك وتستشعر ذلك وعز
مولاك واتضاعك وعلو ربك وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك فتسبح ربك

وتشهد لها العظمة وانه اعظم من كل عظيم وتكرير ذلك على قلبك لتؤكده بالتكرار ثم ترتفع من
ركوعك راجيا انه راحم لك ومؤكدا للرجاء في نفسك بقولك سمع الله لمن حمده اي اجاب الله
لمن شكره ثم تردف ذلك بالشكر المتقاضي للمزيد فتقول ربنا لك الحمد وتكثر الحمد بقولك
ملأ السموات والارض ثم تهوي الى السجود وهو اعلى درجات الاستكانة فتمكن اعز اعضائك
وهو الوجه من اذل الاشياء وهو التراب وان امكنك ان لا تجعل بينهما حائلا فتسجد على
الارض فافعل فانه اجلب للخضوع وادل على الذل واذا وضعت نفسك موضع الذل فاعلم
انك وضعتها موضعها ورددت الفرع الى الاصل فانك من التراب خلقت واليه رددت فعند
هذا جدد على قلبك عظمة الله وقل سبحان ربي الاعلى واكده بالتكرار فان الكرة الواحدة
ضعيفة الاثر فاذا رق قلبك وظهر ذلك فليصدق رجاؤك في رحمة ربك فان رحمته
تتسارع الى الضعف والذل لا الى التكبر والبطر فارفع رأسك مكبرا وسائلا حاجتك
قائلا رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم او ما اردت من الدعاء ثم اكد التواضع بالتكرار
فعد الى السجود ثانيا كذلك واما التشهد فاذا جلست له فاجلس متأدبا وصرح بان جميع
ما تدلي به من الصلوات والطيبات اي الاخلاق الطاهرة لله وكذا الملك لله وهو معنى
التحيات واحضر في قلبك النبي صلعم وشخصه الكريم وقل سلام عليك ايها النبي ورحمة الله
وبركاته وليصدق املك في انه يبلغه ويرد عليك ما هو اوفى منه ثم سلم على نفسك وعلى جميع
عباد الله الصالحين وتأمل ان يرد الله عليك سلاما وافيا بعدد عباده الصالحين ثم تشهد لله
بالوحدانية ولمحمد صلى الله عليه وآله بالرسالة واحمد الله باعادة كلمتي الشهادة
مستأنفا للتحصن بهما ثم ادع في آخر صلوتك بالدعاء المأثور مع التواضع والخشوع والضراعة
والابتهال وصدق الرجاء بالاجابة واشرك في دعائك ابويك وسائر المؤمنين واقصد
عند التسليم السلام على الملائكة والحاضرين وانو ختم الصلوة به واستشعر شكر الله على توفيقه
لاتمام هذه الطاعة وتوهم انك مودع لصلوتك هذه وانك ربما لا تعيش لمثلها قال عليه السلام
صل صلوة مودع ثم اشعر قلبك الوجل والحياء من التقصير في الصلوة وخف ان لا تقبل
صلوتك وان يكون ممقوتا بذنب ظاهر وباطن فترد صلوتك في وجهك وترجو مع ذلك
ان تقبلها بفضله وكرمه كان يحيى بن وثاب اذا صلى مكث ما شاء الله يعرف عليه كآبة
الصلوة وكان ابراهيم يمكث بعد الصلوة ساعة كانه مريض فهذا تفصيل صلوة الخاشعين الذين هم

قال عم اذا صليت صلوة فصله صلوة مودع اي مودع نفسه مودع اهله مودع لعمره الى مولاه

الذين هم على صلوتهم يحافظون والذين هم على صلاتهم دائمون والناس فيها متفاوتون
على قدر استطاعتهم في العبودية فليعرض الانسان نفسه على هذه الصلوة فبالقدر الذي
يتيسر له منها ينبغي ان يفرح وعلى ما يفوته ينبغي ان يتحسر وفي مداواة ذلك ينبغي ان يجتهد
واما صلوة الغافلين فانها مخطرة الا ان يتغمده الله برحمته والرحمة واسعة والكرم فائض
فنسأل الله تعالى ان يغمرنا برحمته ويتغمدنا بمغفرته اذ لا وسيلة لنا الا الاعتراف بالعجز
عن القيام بطاعته واعلم ان تخليص الصلوة عن الآفات واخلاصها لوجه الله واداءها
بالشروط الباطنة التي ذكرناها من الخشوع والتعظيم والحياء سبب لحصول انوار في
القلب يكون تلك الانوار مفاتيح علوم المكاشفة فاولياء الله المكاشفون بملكوت الارض
ملكوت السموات والارض واسرار الربوبية انما يكاشفون في الصلوة لا سيما في السجود
اذ يتقرب العبد بالسجود من ربه ولذلك قال تعالى واسجد واقترب ويكون مكاشفة كل مصل
على قدر صفائه عن كدورات الدنيا ويختلف ذلك بالقوة والضعف والقلة والكثرة و
بالجلاء والخفاء حتى ينكشف لبعضهم الشيء بعينه وينكشف لبعضهم الشيء بمثاله كما كوشف بعضهم
بالدنيا في صورة جيفة والشيطان في صورة كلب جاثم عليها يدعو اليها ويختلف ايضا فيما
فيه المكاشفة فبعضهم ينكشف له من صفات الله وجلاله وبعضهم من افعاله وبعضهم من
دقائق علوم المعاملة ويكون لتعيين تلك المعاني في كل وقت اسباب خفية لا تحصى و
اشدها مناسبة الهمة فانها اذا كانت مصروفة الى شيء معين كان ذلك اولى بالانكشاف
ولما كانت هذه الامور لا تتراءى الا في المرآة الصقيلة وكانت المرآة كلها صدئة احتجبت
عنها الهداية لا لبخل من جهة المنعم بالهداية بل لخبث تراكم على معدن الهداية تسارعت الالسنة
الى الانكار اذ الطبع مجبول على انكار غير الحاضر ولو كان للجنين عقل لانكر
امكان وجود الانسان في متسع الهواء ولو كان للطفل تمييز ربما انكر ما يزعم العقلاء
ادراكه من ملكوت السماء والارض وهكذا الانسان في كل طور يكاد ينكر ما بعده ومن
انكر طور الولاية لزمه ان ينكر طور النبوة وقد خلق الخلق اطوارا فلا ينبغي ان ينكر
احد ما وراء درجته نعم لما طلبوا هذا من الجدال والمباحثة المشوشة ولم يطلبوه من
تصفية القلب عما سوى الله فقدوه وانكروه ومن لم يكن من اهل المكاشفة فلا اقل من ان
يؤمن بالغيب ويصدق به الى ان يشاهد بالتجربة ففي الخبر ان العبد اذا قام الى الصلوة

رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه وقامت الملائكة من لدن منكبيه الى الهواء يصلون بصلوته ويؤمنون على دعائه وان المصلي لينثر عليه البر من اعنان السماء الى مفرق راسه وينادي مناد لو علم المصلي من يناجي ما التفت وان ابواب السماء لتفتح للمصلين وان الله تعالى يباهي ملائكته بصدق المصلي فتفتح ابواب السماء ومواجهة الله اياه بوجهه كناية عن الكشف الذي ذكرناه وقال تعالى قد افلح المؤمنون الذين هم في صلوتهم خاشعون فمدحهم بعد الايمان بصلوة مخصوصة وهي المقرونة بالخشوع ثم ختم اوصاف المفلحين بالصلوة ايضا فقال في آخرها والذين هم على صلوتهم يحافظون ثم قال في ثمرة تلك الصفات اولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس فوصفهم بالفلاح اولا وبورث الفردوس آخرا وما اعني ان تحرك اللسان مع غفلة القلب ينتهي درجته الى هذا الحد لذلك قال تعالى في اضدادهم ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين فالمصلون هم ورثة الفردوس وهم المشاهدون لنور الله والمتمتعون بقربه ودنوه من قلوبهم نسئل الله تعالى ان يجعلنا منهم وان يعيذنا من عقوبة من تزينت اقواله وقبحت افعاله انه الكريم المنان القديم الاحسان

حكايات واخبار في صلوة الخاشعين اعلم ان الخشوع ثمرة الايمان ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله سبحانه ومن رزق ذلك فانه يكون خاشعا في الصلوة وغير الصلوة بل في خلوته وفي بيت الماء عند قضاء حاجته فان موجب الخشوع معرفة اطلاع الله على العبد ومعرفة جلاله ومعرفة تقصير العبد فمن هذه المعارف يتولد الخشوع وليست مختصة بالصلوة ولذلك روي عن بعضهم انه لم يرفع راسه الى السماء اربعين سنة حياء من الله وخشوعا له وكان الربيع بن خثيم من شدة غض البصر واطراقه يظن بعض الناس انه اعمى وكان يختلف الى منزل ابن مسعود عشرين سنة فاذا رأته جاريته قالت لابن مسعود صديقك ذلك الاعمى قد جاء فكان يضحك ابن مسعود من قولها وكان اذا دق الباب تخرج الجارية اليه فتراه مطرقا غاضا بصره وكان ابن مسعود اذا نظر اليه يقول وبشر المخبتين اما والله لو رآك محمد لفرح بك وفي لفظ آخر لاحبك ومشى ذات يوم مع ابن مسعود في الحدادين فلما نظر الى الاكوار تنفخ والى النيران تلتهب صعق وسقط مغشيا عليه وقعد ابن مسعود عند راسه الى وقت الصلوة فلم يفق فحمله على ظهره الى منزله فلم يزل مغشيا عليه الى الساعة التي صعق فيها ففاتته خمس صلوات

وابن مسعود عند راسه يقول هذا والله الخوف وكان عامر بن عبد الله من خاشعي المصلين فقيل له ارايت يوما هل تحدث نفسك في الصلوة بشيء قال نعم بوقوفي بين يدي الله تعالى ومنصرفي الى احدى الدارين قيل له فهل تجد شيئا مما نجده من امور الدنيا فقال لان تختلف الاسنة في احب الي من ان اجد في الصلوة ما تجدون وكان يقول لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا وبعضهم تآكل طرف من اطرافه فاحتيج فيه الى القطع فلم يمكن منه فقيل انه في الصلوة لا يحس بما يجري عليه فقطع وهو في الصلوة وقال بعضهم الصلوة من الآخرة فاذا دخلت في الصلوة خرجت من الدنيا وقيل لآخر هل تحدث نفسك في الصلوة بشيء من الدنيا فقال لا في الصلوة ولا في غيرها وسئل بعضهم هل تذكر في الصلوة شيئا فقال وهل شيء احب الي من الصلوة فاذكره فيها **واعلم** ان الصلوة قد يحسب بعضها ويكتب بعضها دون بعض كما دلت الاخبار عليه وان كان الفقيه يقول ان الصلوة في الصحة لا تتجزى ولكن ذلك له معنى آخر ذكرناه وهذا المعنى دلت عليه الاحاديث اذ ورد خبر بنقصان الفرائض بالنوافل وفي الخبر قال عيسى عم يقول الله تعالى بالفرائض نجا مني عبدي وبالنوافل تقرب الي عبدي وقال النبي صلى الله عليه وآله قال الله تعالى لا ينجو مني عبدي الا باداء ما افترضته عليه وهذه صفة الخاشعين فدلت هذه الاخبار والحكايات مع ما سبق على ان الاصل في الصلوة الخشوع وحضور القلب وان مجرد الحركات مع الغفلة قليل الجدوى في المعاد

الباب الرابع في الامامة والقدوة وذكر رحمه الله فيه وظائف الامام والقراءة والاركان على التفصيل

الباب الخامس في فضيلة الجمعة وآدابها وسننها وشروطها قال رحمه الله في فضيلتها اعلم ان هذا يوم عظيم عظم الله به الاسلام وخص به المسلمين قال الله تعالى اذا نودي للصلوة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع فحرم الاشتغال بامور الدنيا وكل صارف عن السعي الى الجمعة وقال عم من ترك الجمعة ثلثا من غير عذر طبع الله على قلبه وفي لفظ آخر فقد نبذ الاسلام وراء ظهره وامثال ذلك من الاخبار والآثار وتقدم ما شرط الجمعة وذكر بيان آدابها على ترتيب العادة قال رحمه الله وهي عشر جمل **الاولى** ان يستعد لها يوم الخميس عزما عليها واستقبالا لفضلها فيشتغل بالدعاء والاستغفار والتسبيح بعد العصر يوم الخميس لانها ساعة قوبلت بالساعة المبهمة في يوم الجمعة قال بعض السلف ان لله تعالى فضلا سوى ارزاق العباد

من ذلك الفضل الا من يراعيه عشية الخميس ويوم الجمعة ويستقبل هذا اليوم شاكرا وتنظيفها
ولتعاطي الطيبات لم يكن عنده وتفرغ القلب عن الاشغال التي تمنعه من البكور الى الجمعة
وينوي في هذه الليلة صوم يوم الجمعة فان له فضلا وليكن مضموما الى يوم الخميس او السبت
لا مفردا فانه مكروه وليشتغل باحياء هذه الليلة بالصلوة وختم القرآن فلها فضل كثير
وينسحب عليها فضل يوم الجمعة ويجامع اهله في هذه الليلة او في يوم الجمعة فقد
استحب ذلك قوم وحملوا عليه قوله صلعم رحم الله من بكر وابتكر وغسل واغتسل وهو
حمل الاهل على الغسل وقيل معناه غسل ثيابه فروي بالتخفيف واغتسل لجسده وبهذا
يتم اداب الاستقبال ويخرج عن زمرة الغافلين الذين اذا اصبحوا قالوا ما هذا اليوم
قال بعض السلف اوفى الناس نصيبا من الجمعة من انتظرها وراعاها من الامس
واخسهم نصيبا من اذا اصبح قال ايش اليوم وكان بعضهم يبيت ليلة الجمعة في الجامع
لاجل الجمعة الثانية اذا اصبح اغتسل بعد طلوع الفجر وان كان لا يبكر فاقربه الى
الرواح احب ليكون اقرب عهدا بالنظافة فالغسل مستحب استحبابا مؤكدا وذهب بعض
العلماء الى وجوبه قال صلعم غسل الجمعة واجب على كل محتلم وكان اهل المدينة يتسابون
بينهم فيقول احدهم لصاحبه لانت شر ممن لا يغتسل يوم الجمعة ومن اغتسل للجنابة فليفض
الماء على بدنه مرة اخرى على نية غسل الجمعة فان اكتفى بغسل واحد اجزاه وحصل الفضل
اذا نوى كليهما ودخل غسل الجمعة في غسل الجنابة ومن اغتسل ثم احدث توضأ ولم
يبطل غسله والاحب ان يحترز عن ذلك الثالثة الزينة وهي مستحبة في هذا اليوم
وهي ثلثة الكسوة والنظافة وتطييب الرائحة اما النظافة فبالسواك وحلق الشعر
وقلم الظفر وقص الشارب وساير ما سبق في كتاب الطهارة قال ابن مسعود من قلم
اظفاره يوم الجمعة اخرج الله منه داء وادخل فيه شفاء وليتطيب في هذا اليوم باطيب
طيب عنده ليغلب بها الروايح الكريهة ويوصل به الروح والراحة الى مشام الحاضرين
في جواره قيل من نظف ثوبه قل همه ومن طاب ريحه زاد عقله واما الكسوة
فاحبها البيض من الثياب اذ احب الثياب الى الله البياض ولا يلبس ما فيه شهرة
ولبس السواد ليس من السنة ولا فيه فضل بل كره جماعة النظر اليه لانه بدعة محدثة
بعد رسول الله صلعم والعمامة مستحبة في هذا اليوم وذكر روايته الرابعة البكور

البكور الى الجامع ويستحب ان يقصد الجامع من فرسخين وليبكر ويدخل وقت البكور
بطلوع الفجر وفضل البكور عظيم وينبغي ان يكون في سعيه الى الجمعة خاشعا متواضعا
ناويا للاعتكاف في المسجد الى وقت الصلوة قاصدا للمبادرة الى جواب نداء الله تعالى اياه
الى الجمعة والمسارعة الى مغفرته ورضوانه وقال صلعم من راح الى الجمعة في الساعة الاولى
فكانما قرب بدنة ومن راح في الساعة الثانية فكانما قرب بقرة ومن راح في الساعة
الثالثة فكانما قرب كبشا اقرن ومن راح في الرابعة فكانما اهدى دجاجة وفي الخامسة اهدى بيضة
فاذا خرج الامام طويت الصحف ورفعت الاقلام واجتمعت الملائكة عند المنبر يستمعون
الذكر فمن جاء بعد ذلك فانما جاء لحق الصلوة ليس له من الفضل شيء وكان في القرن
الاول ترى الطرقات سحرا وبعد الفجر مملوة من الناس يمشون في السرج ويزدحمون
بها الى الجامع كايام العيد حتى اندرس ذلك فقيل اول بدعة احدثت في الاسلام ترك
البكور الى الجامع وكيف لا يستحيي المؤمنون من اليهود والنصارى وهم يبكرون الى البيع
والكنايس يوم السبت والاحد وطلاب الدنيا كيف يبكرون الى رحاب الجوامع للبيع
والربح فلم لا يسابقهم طلاب الاخرة ويقال ان الناس يكونون في قربهم عند النظر
الى وجه الله تعالى على قدر بكورهم الى الجمعة الخامسة في هيئة الدخول ينبغي ان لا
يتخطى رقاب الناس ولا يمر بين ايديهم والبكور يسهل عليه ذلك فقد ورد وعيد
شديد في تخطي الرقاب وهو انه يجعل جسرا يوم القيمة يتخطاه الناس الى غير ذلك
من الاخبار السادسة ان لا يمر بين يدي الناس ويجلس الى قرب اسطوانة
او حايط حتى لا يمر الناس بين يديه اعني بين يدي المصلي فان ذلك لا يقطع الصلوة
لكنه منهي عنه فان لم يجد اسطوانة فلينصب بين يديه شيئا طوله قدر ذراع ليكون
ذلك علامة لحده [illegible] الايات والاخبار السابعة ان يطلب الصف
الاول فان فضله كثير كما رويناه وان كان يرى في الخطيب منكرا يعجز عن تغييره
من لبس حرير من الامام او غيره او صلوة في سلاح كثير ثقيل شاغل او غير ذلك مما
يجب فيه الانكار فالتاخر له اسلم واجمع للهم فعل ذلك جماعة من العلماء طلبا للسلامة
وقيل لبشر بن الحرث نراك تبكر وتصلي في آخر الصفوف فقال انما يراد قرب الاجساد
اشار به الى ان ذلك اسلم لقلبه ويكره الصلوة في الاسواق والرحاب الخارجة

القلوب لا قرب صح

المسجد وكان بعض الصحابة يضرب الناس ويقيمهم من الرحاب. الثامنة ان يقطع
الصلوة عند خروج الامام ويقطع الكلام ايضا بل يشتغل بجواب المؤذن ثم باستماع الخطبة
وقد جرت عادة بعض العوام بسجود عند قيام المؤذنين ولا يثبت له اصل في خبر ولا
اثر. التاسعة ان يراعي في قدوة الجمعة ما ذكرناه في غيرها فاذا سمع قراءة الامام
لم يقرأ الا الفاتحة ويستحب ان يقول بعد صلوة الجمعة اللهم يا غني يا حميد يا مبدئ يا معيد يا رحيم الرحيم
يا ودود اغنني بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك فيقال من داوم على هذا الدعاء
اغناه الله عن خلقه ورزقه من حيث لا يحتسب. العاشرة ان يلازم المسجد حتى يصلي
العصر فان وقف الى المغرب فهو الافضل فان له اجرا من التمتع ودخول الامر عليه نظر
الملك الى الامكنة فان خاف الخوض فيما لا يعني فالافضل ان يرجع الى بيته ذاكرا لله تعالى متفكرا
في الائه شاكرا على توفيقه خائفا من تقصيره مراقبا لقلبه ولسانه الى غروب الشمس حتى
لا تفوته الساعة الشريفة ولا ينبغي ان يتكلم في الجامع وغيره من المساجد بحديث الدنيا قال
يأتي على الناس زمان يكون حديثهم في مساجدهم امر دنياهم ليس لله تعالى فيهم حاجة فلا
تجالسوهم. بيان الاداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذي يعم جميع
النهار وهي سبعة امور. الاول ان يحضر مجالس العلم بكرة او بعد الصلوة او بعد
العصر ولا يحضر مجالس القصاص فلا خير في كلامهم ولا ينبغي ان يخلو المريد في جميع يوم الجمعة
عن الخيرات والدعوات حتى يوافيه الساعة الشريفة وهو في خير ولا ينبغي ان يحضر الحلق
قبل الصلوة وروى عبد الله بن عمر ان النبي صلعم نهى عن التحلق يوم الجمعة قبل الصلوة
الا ان يكون عالما بالله يذكر بايام الله ويفقه في دين الله يتكلم في الجامع بالغداة
فيجلس اليه فيكون جامعا بين البكور وبين الاستماع واستماع العلم النافع في الاخرة
افضل من اشتغاله بالنوافل فقد روى ابو ذر ان حضور مجلس علم افضل من صلوة الف
ركعة قال انس بن مالك في قوله تعالى فاذا قضيت الصلوة فانتشروا في الارض وابتغوا
من فضل الله اما انه ليس بطلب الدنيا ولكن عيادة مريض وشهود جنازة وتعلم علم
وزيارة اخ في الله وقد سمى الله تعالى العلم فضلا في مواضع قال تعالى وعلمك ما لم تكن تعلم وكان
فضل الله عليك عظيما وقال تعالى ولقد آتينا داود منا فضلا يعني العلم فتعلم العلم
وتعليمه في هذا اليوم من افضل القربات والصلوة افضل من مجالس القصاص. الثانية

ان يكون حسن المراقبة للساعة الشريفة ففي الخبر المشهور ان في الجمعة ساعة لا يوافقها
عبد مسلم يسأل الله تعالى فيها شيئا الا اعطاه واختلف فيها فقيل انها عند طلوع
الشمس وقيل عند الزوال وقيل مع الاذان وقيل اذا صعد الخطيب المنبر واخذ في الخطبة
وقيل اذا قام الناس الى الصلوة وقيل اخر وقت العصر اعني وقت الاختيار وقيل قبل
غروب الشمس وكانت فاطمة رضي الله عنها تراعي ذلك الوقت وتأمر خادمها ان تنظر الى الشمس
فتؤذنها بسقوطها فتأخذ في الدعاء والاستغفار الى ان تغرب وتخبر بان تلك الساعة
هي المنتظرة وتأثره عن ابيها وقال بعض العلماء هي مبهمة في جميع اليوم مثل ليلة القدر حتى
تتوفر الدواعي على مراقبتها وقد قيل انها تنتقل في ساعات يوم الجمعة كتنقل ليلة القدر
تصلها والاشهر ولهذا سر لا يليق بعلم المعاملة ذكره ولكن ينبغي ان يصدق بما قال
صلى الله عليه وآله ان لربكم في ايام دهركم نفحات الا فتعرضوا لها ويوم الجمعة من جملة
ربع تلك الايام فينبغي ان يكون العبد في جميع نهاره متعرضا لها باحضار القلب وملازمة
الذكر والنزوع عن وساوس الدنيا فعساه يحظى بشيء من تلك النفحات. الثالث
يستحب ان يكثر الصلوة على رسول الله صلعم في هذا اليوم فقد قال صلى الله عليه وآله من
صلى علي في يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين سنة قيل يا رسول الله كيف
الصلوة عليك قال تقول اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الامي و
تعقد واحدة وان قلت اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلوة تكون لك رضا ولحقه
اداء واعطه الوسيلة والمقام المحمود الذي وعدته واجزه عنا ما هو اهله واجزه
افضل ما جزيت نبيا عن امته وصل على جميع اخوانه من النبيين والصالحين يا ارحم الراحمين
تقول هذا سبع مرات فقد قيل من قالها في سبع جمع في كل جمعة سبع مرات وجبت له
شفاعته صلعم. الرابع قراءة القران فليكثر منه وليقرأ سورة الكهف خاصة فقد
الجمعة روى ابن عباس مرفوعا ان من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة او يوم الجمعة اعطي نورا من حيث
يقرأها الى مكة وغفر له الى الجمعة الاخرى وفضل ثلثة ايام وصلى عليه سبعون الف ملك
حتى يصبح وعوفي من الداء والدبيلة وذات الجنب والبرص والجذام وفتنة الدجال.
الخامس الصلوات يستحب اذا دخل الجامع ان لا يجلس حتى يصلي اربع ركعات يقرأ
فيهن قل هو الله احد مائتي مرة في كل ركعة خمسين مرة فقد نقل عن رسول الله صلعم انه

من فطرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة او يرى له ولا يدع ركعتي التحية وان كان
الامام يخطب ولكن يخففهما امر رسول الله صلعم بذلك السادس الصدقة مستحبة في
هذا اليوم خاصة فانها تتضاعف الا على من سال والامام يخطب وكان يتكلم في كلام
الامام فهذا مكروه السابع ان يجعل يوم الجمعة للاخرة فيكف فيه عن جميع اشغال الدنيا
ويكثر فيه الاوراد ولا يبتدى فيه السفر فقد روي ان من سافر ليلة الجمعة دعا
عليه ملكاه وهو بعد طلوع الفجر حرام الا اذا كانت الرفقة تفوت وبالجملة فينبغي ان
يزيد في الجمعة في اوراده وانواع خيره فان الله اذا احب عبدا استعمله في الاوقات
الفاضلة بفواضل الاعمال واذا مقته استعمله في الاوقات الفاضلة بسيئ الاعمال
ليكون اوجع في عقابه واشد لمقته لحرمانه بركة الوقت وانتهاكه حرمة الوقت ويستحب
في الجمعة دعوات سياتي ذكرها في كتاب الدعوات انشاء الله تعالى وذكر رحمه الله
في الباب السادس مسائل متفرقة تعم البلوى بها ويحتاج المريد الى معرفتها
فمن جملتها مسئلة الوسوسة قال رحمه الله الوسوسة في نية الصلوة سببها خلل في العقل
او جهل بالشرع لان امتثال امر الله مثل امتثال امر غيره وتعظيمه كتعظيم غيره في حق القصد
ومن دخل عليه عالم فقام له فلو قال نويت ان انتصب قائما تعظيما لدخول زيد الفاضل
لاجل فضله متصلا بدخوله مقبلا عليه بوجهي سفه في عقله بل كما يراه ويعلم فضله
تنبعث داعية التعظيم فتقيمه ويكون معظما الا اذا قام لشغل آخر او في غفلة واشتراط
كون الصلوة ظهرا اداء فرضا في كونها امتثالا كاشتراط كون القيام مقرونا بالدخول
مع الاقبال بالوجه على الداخل وانتفاء باعث آخر سواه وقصد التعظيم به ليكون تعظيما
فانه لو قام مدبرا عنه او صبر فقام بعد ذلك بمدة لم يكن معظما ثم هذه الصفات لابد
وان تكون معلومة وان تكون مقصودة ثم لا يطول حضورها في النفس في لحظة واحدة
وانما يطول نظم الالفاظ الدالة عليها اما تلفظا باللسان واما تفكرا بالقلب فمن لم يفهم
نية الصلوة على هذا الوجه فكانه لم يفهم النية فليس فيها الا انك دعيت الى ان تصلي في
وقت فاجبت وقمت فالوسوسة محض الجهل فان هذه القصود وهذه العلوم تجتمع
في النفس في حالة واحدة ولا تكون مفصلة الاحاد في الذهن بحيث تطالعها النفس
وتتاملها وفرق بين حضور الشيء في النفس وبين تفصيله بالفكر فالحضور مضاد

للعزوب والغفلة وان لم يكن مفصلا فان من علم الحادث مثلا فيعلم بعلم واحد في حالة
واحدة ضمنا العلم فيتضمن علوما هي حاضرة وان لم تكن مفصلة فان من علم الحادث فقد
علم الموجود والمعدوم والتقدم والتاخر والزمان وان التقدم للعدم والتاخر للوجود
فهذه العلوم منطوية تحت العلم بالحادث بدليل ان العالم بالحادث اذا لم يعلم غيره
لو قيل له هل علمت التقدم فقط او التاخر او العدم او تقدم العدم او تاخر الوجود او الزمان
المنقسم الى التقدم والتاخر فقال ما عرفته قط كان كاذبا وكان قوله مناقضا لقوله
اني اعلم الحادث ومن الجهل بهذه الدقيقة يثور الوسواس فان الموسوس يكلف
نفسه ان يحضر في قلبه الظهرية والادائية والفرضية في حالة واحدة مفصلة بالفاظها
وهو يطالعها وذلك محال ولو كلف نفسه ذلك في القيام لاجل العالم لتعذر عليه فبهذه
المعرفة يندفع الوسواس وهو ان يعلم ان امتثال امر الله في النية كامتثال امر
غيره ثم ازيد عليه على سبيل التسهيل والرخصة فاقول لو لم يفهم الموسوس النية
الا باحضار هذه الامور مفصلة ولم يتمثل في نفسه الامتثال دفعة واحدة في
احضر جملة ذلك في اثناء التكبير من اوله الى آخره بحيث لا يفرغ من التكبير الا
وقد حصلت النية كفاه ذلك ولا نكلفه ان يقرن الجميع باول التكبير او آخره فان
ذلك تكليف شطط ولو كان مامورا به لوقع للاولين سؤال عنه ولوسوس
واحد من الصحابة في النية فعدم وقوع ذلك دليل على ان الامر على التساهل
فبما تيسرت النية للموسوس ينبغي ان يقنع به حتى يتعود ذلك وتفارقه الوسوسة
ولا يطالب نفسه بتحقيق ذلك فان التحقيق يزيد فيه وقد ذكرنا في الفتاوى
وجوها من التحقيق في تفصيل العلوم والقصود المتعلقة بالنية يفتقر العلماء الى
معرفتها فاما العامل فربما يضره سماعها ويهيج عليه الوسواس فلذلك تركنا ذكرها
ثم ذكر رحمه الله بعد ذكر المسائل باسرها الباب السابع في النوافل من
الصلوات قال رحمه الله اعلم ان ما عدا الفرائض من الصلوات ينقسم الى ثلثة اقسام
سنن ومستحبات وتطوعات ونعني بالسنن ما نقل عن رسول الله صلعم المواظبة
عليه كالرواتب عقيب الصلوات وصلوة الضحى والوتر والتهجد وغيرها لان السنة
عبارة عن الطريقة المسلوكة ونعني بالمستحبات ما ورد الخبر بفضله ولم ينقل

وذكر رحمه الله من جملة الشروط الظاهرة الواجبة على مؤدي الزكوة النية والبدار عقيب
الحول قال رحمه الله الثالث ان لا يخرج بدلا باعتبار القيمة بل يخرج المنصوص عليه فلا
يجزي ورق عن ذهب ولا ذهب عن ورق وان زاد عليه في القيمة ولعل بعض من لا يدرك
غرض الشافعي يتساهل في ذلك ويلاحظ المقصود من سد الخلة فما ابعده عن التحصيل
فان سد الخلة مقصود وليس هو كل المقصود بل واجبات الشرع ثلثة اقسام قسم
هو تعبد محض لا مدخل للحظوظ والاغراض فيه وذلك كرمي الجمرات مثلا اذ لا حظ للجمرة
في وصول الحصا اليها فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر العبد رقه وعبوديته
بفعل ما لا يعقل له معنى لان ما يعقل معناه فقد يساعده الطبع عليه ويدعو اليه فلا يظهر به
خلوص الرق والعبودية اذ العبودية تظهر بان تكون الحركة لحق امر المعبود فقط لا لمعنى
آخر واكثر اعمال الحج كذلك ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في احرامه لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا تنبيها على ان
ذلك اظهار العبودية بالانقياد لمجرد الامر وامتثاله كما امر من غير استيناس العقل منه بما
يميل اليه ويحث عليه والقسم الثاني من واجبات الشرع ما المقصود منه حظ معقول
ليس يقصد منه التعبد كقضاء دين الآدميين ورد المغصوب فلا جرم لا يعتبر فيه فعله
ونيته ومهما وصل الحق الى مستحقه باخذ المستحق او ببدل عنه عند رضاه تادى الوجوب
وسقط خطاب الشرع فهذان قسمان لا تركيب فيهما يشترك في دركهما جميع الناس والقسم
الثالث هو المركب الذي يقصد منه الامران جميعا وهو حظ العباد وامتحان المكلف
بالاستعباد فيجتمع فيه تعبد رمي الجمار وحظ رد الحقوق فهذا قسم في نفسه معقول
فان ورد الشرع به وجب الجمع بين المعنيين ولا ينبغي ان ينسى ادق المعنيين وهو التعبد
والاسترقاق بسبب اجلاهما ولعل الادق هو الاهم والزكوة من هذا القبيل ولم يتنبه
له غير الشافعي فحظ الفقير مقصود في سد الخلة وهو جلي سابق الى الافهام وحق
التعبد في اتباع التفاصيل مقصود للشرع وباعتباره صارت الزكوة قرينة الصلوة
والحج في كونها من مباني الاسلام ولا شك في ان على المكلف تعبا في تمييز اجناس امواله
واخراج حصة كل مال من نوعه وجنسه وصفته ثم توزيعه على الاصناف الثمانية كما سيأتي
والتساهل فيه غير قادح في حظ الفقير ولكنه قادح في التعبد ثم [illegible] عليه
مستقلة في صلوات الايام والليالي والاسبوع وكالصلوة عند الخروج من المنزل

من المنزل او الدخول فيه وامثال ذلك فيفنى بالتطوعات ما وراء ذلك مما لم يرد
في عينه خبر ولكنه تطوع به العبد من حيث رغب في مناجاة الله بالصلوة التي ورد
الشرع بفضلها مطلقا فالتطوع من الشرع ونسمي الاقسام الثلثة نوافل من حيث ان النفل
هو الزيادة وجملتها زائدة على الفرائض فلفظ النافلة والسنة والمستحب والتطوع اردنا
الاصطلاح عليه لتعريف هذه المقاصد ولا حرج على من يغير هذا الاصطلاح فلا
مشاحة في الالفاظ بعد فهم المقاصد وكل قسم من هذه الاقسام تتفاوت درجاته
في الفضل بحسب ما ورد فيه من الاخبار والآثار المعرفة لفضله وبحسب طول مواظبة
رسول الله صلى الله عليه وسلم وبحسب صحة الاخبار الواردة فيه واشتهارها ثم ذكر رحمه الله رواتب
الصلوات الخمس وغيرها من صلوة الاستخارة والتسبيح والحاجة على التفصيل
ثم ذكر رحمه الله كتاب اسرار الزكوة بعد ذكر اقسامها واحكامها وشروطها ذكر
بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكوة قال رحمه الله اعلم ان على مريد طريق
الآخرة بزكوته وظائف الاولى فهم وجوب الزكوة ومعناها ووجه الامتحان فيها
وانها لم جعلت من مباني الاسلام مع انها تصرف مالي وليست من عبادة الابدان
وفي ذلك ثلثة معان الاول ان التلفظ بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد وشهادة
بافراد المعبود وشرط تمام الوفاء به ان لا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد
فان المحبة لا تقبل الشركة والتوحيد باللسان قليل الجدوى وانما يمتحن درجة الحب
بمفارقة المحبوبات والاموال محبوبة عند الخلق لانها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يانسون
بهذا العالم وينفرون من الموت مع ان فيه لقاء المحبوب فامتحنوا بتصديق دعواهم
في المحبوب واستنزلوا عن المال الذي هو مرموقهم ومعشوقهم ولذلك قال الله تعالى
ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة وذلك بالجهاد وهو
مسامحة بالمهجة شوقا الى لقاء الله عز وجل والمسامحة بالمال اهون ولما فهم هذا المعنى
في بذل الاموال انقسم الناس الى ثلثة اقسام فقسم صدقوا التوحيد ووفوا بعهده ونزلوا
عن جميع اموالهم فلم يدخروا دينارا ولا درهما فابوا ان يتعرضوا لوجوب الزكوة عليهم
حتى قيل لبعضهم كم يجب من الزكوة في مائتي درهم فقال اما على العوام بحكم الشرع فخمسة
دراهم واما نحن فيجب علينا بذل الجميع القسم الثاني درجتهم دون هذا هم الممسكون

نفاق
احوالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات فيكون قصدهم في الادخار الا على قدر الحاجة دون التنعم وصرف الفاضل عن الحاجة الى وجوه البر مهما ظهر وجوهها وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكوة وقد ذهب جماعة من التابعين الى ان في المال حقوقا سوى الزكوة واستدلوا بقوله تعالى ومما رزقناهم ينفقون وبقوله وانفقوا مما رزقناكم وبقوله تعالى واتى المال على حبه ذوي القربى الاية وزعموا ان ذلك غير منسوخ باية الزكوة بل هو داخل في حق المسلم على المسلم ومعناه انه يجب على الموسر مهما وجد محتاجا ان يزيل حاجته فضلا عن مال الزكوة والذي يصح في الفقه من هذا انه مهما ارهقت حاجته كانت ازالتها فرض كفاية اذ لا يجوز تضييع مسلم ولكن يحتمل ان يقال ليس على الموسر الا تسليم ما يزيل الحاجة قرضا ولا يلزمه بذله بعد ان اسقط الزكوة عن نفسه والاقراض نزول الى الدرجة الاخيرة من درجات العوام وهي درجة القسم الثالث الذين يقتصرون على اداء الواجب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون منه وهي اقل الرتب وقد اقتصر جميع العوام على ذلك لبخلهم بالمال وميلهم اليه وضعف حبهم للاخرة قال تعالى ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويحفكم اي يستقصي عليكم فكم بين عبد اشترى منه ماله ونفسه بان له الجنة وبين عبد لا يستقصي عليه لبخله فهذا احد معاني امر الله سبحانه عباده ببذل المال المعنى الثاني التطهير من صفة البخل فانه من المهلكات قال صلى الله عليه وسلم ثلث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وقال تعالى ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون وسياتي في ربع المهلكات وجه كونه مهلكا وكيفية التفصي عنه وانما تزول صفة البخل بان يتعود بذل المال فحب الشيء لا ينقطع الا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير ذلك اعتيادا فالزكوة بهذا المعنى طهرة اي تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك وانما طهارته بقدر بذله وبقدر فرحه باخراجه واستبشاره بصرفه الى الله تعالى المعنى الثالث شكر النعمة فان لله على عبده نعمة في نفسه وفي ماله فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن والمالية شكر لنعمة المال وما اخس من ينظر الى الفقير وقد ضيق الرزق عليه واحوج اليه ثم لا تسمح نفسه بان يؤدي شكر الله تعالى على اغنائه عن السؤال واحواج غيره اليه بربع العشر او العشر من ماله الوظيفة الثانية في وقت الاداء ومن اداب ذوي الدين التعجيل عن وقت الوجوب اظهارا للرغبة في الامتثال بايصال السرور الى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان ان تعوقه عن الخيرات وعلما بان في التاخير

آفات مع ما يتعرض له العبد من العصيان لو اخر عن وقت الوجوب ومهما ظهرت داعية الخير من الباطن فينبغي ان يغتنم فان ذلك لمة الملك وقلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن فما اسرع تقلبه والشيطان يعد الفقر ويامر بالفحشاء والمنكر وله لمة عقيب لمة الملك فليغتنم الفرصة فيه وليعين لزكاته ان كان يؤديها جميعا شهرا معلوما وليجتهد ان يكون من افضل الاوقات ليكون ذلك سببا لنماء قربته وتضاعف زكاته وذلك كشهر المحرم فانه اول السنة وهو من اشهر الحرم او رمضان فقد كان صلى الله عليه وسلم اجود الخلق وكان في رمضان كالريح المرسلة لا يمسك فيه شيئا ولرمضان فضيلة ليلة القدر وانه انزل فيه القرآن وكان مجاهد يقول لا تقولوا رمضان فانه اسم من اسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان وذو الحجة ايضا من الشهور الكثير الفضل فانه شهر حرام وفيه الحج الاكبر وفيه الايام المعلومات وهي العشر الاول والايام المعدودات وهي ايام التشريق وافضل ايام رمضان العشر الاواخر وافضل ايام ذي الحجة العشر الاول الوظيفة الثالثة الاسرار فان ذلك ابعد من الرياء والسمعة قال صلى الله عليه وسلم افضل الصدقة جهد المقل الى فقير في سر وقال بعض العلماء ثلث من كنوز البر منها اخفاء الصدقة وقد روي ايضا مسندا وقال صلى الله عليه وسلم ان العبد ليعمل عملا في السر فيكتبه الله له سرا فان اظهره نقل من السر وكتب في العلانية فان تحدث به نقل من السر والعلانية وكتب رياء وفي الحديث المشهور سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله احدهم رجل تصدق بصدقة فلم تعلم شماله بما اعطت يمينه وفي الخبر صدقة السر تطفئ غضب الرب وقال تعالى وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم وفائدة الاخفاء الخلاص من آفة الرياء والسمعة فقد قال صلى الله عليه وسلم لا يقبل الله من مسمع ولا مراء ولا منان والمتحدث بصدقته يطلب السمعة والمعطي في ملأ من الناس يبغي الرياء ومهما كانت الشهرة مقصودة لحبط عمله لان الزكوة ازالة للبخل وتضعيف لحب المال وحب الجاه اشد استيلاء على النفس من حب المال وكل واحد منهما مهلك في الاخرة ولكن صفة البخل تنقلب في القبر في حكم المثال عقربا لادغا وصفة الرياء تنقلب في القبر افعى من الافاعي وهو مامور بتضعيفهما او قتلهما لدفع اذاهما او تخفيف اذاهما فمهما قصد الرياء والسمعة فكانه جعل بعض اطراف العقرب مقويا للحية فبقدر ما ضعف من العقرب زاد في قوة الحية ولو ترك الامر كما كان لكان الامر اهون عليه وقوة هذه الصفات التي بها قوتها العمل

بقصدها وبضعف هذه الصفات بمجاهدتها ومخالفتها والعمل بخلاف مقتضاها فاي فائدة
في ان يخالف داعي البخل ويجيب داعي الرياء فيضعف الادنى ويقوى الاقوى وسياتي اسرار هذه
المعاني في ربع المهلكات الوظيفة الرابعة ان يظهر حيث يعلم ان في الاظهار ترغيبا للناس
في الاقتداء ويحرس سره عن داعية الرياء بالطريق الذي سنذكره في معالجة الرياء في كتاب
الرياء فقد قال تعالى ان تبدوا الصدقات فنعما هي وذلك حيث يقتضي الحال الابداء اما للاقتداء
واما لان السائل انما سال على ملا من الناس فلا ينبغي ان يترك التصدق خيفة من الرياء في
الاظهار بل ينبغي ان يتصدق ويحفظ سره عن الرياء بقدر الامكان وهذا لان في الاظهار محذورا
ثالثا سوى المن والرياء وهو هتك ستر الفقير فانه ربما يتاذى بان يرى في صورة المحتاج فمن
اظهر السؤال فهو الذي هتك ستر نفسه فلا يحذر هذا المعنى في اظهاره وهو كاظهار الفسق
على من يتستر به فانه محظور والتجسس فيه والاغتياب بذكره منهي عنه فاما من اظهره
فاقامة الحد عليه اشاعة ولكن هو السبب فيها وبمثل هذا المعنى قال صلى الله عليه وآله
من القى جلباب الحياء فلا غيبة له وقد قال تعالى وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ندب الى
العلانية ايضا لما فيها من فائدة الترغيب فليكن العبد دقيق التامل في وزن هذه الفائدة
بالمحذور الذي فيها فان ذلك يختلف بالاحوال والاشخاص فقد يكون الاعلان في بعض
الاحوال لبعض الاشخاص افضل ومن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له
الاولى والاليق بكل حال الوظيفة الخامسة ان لا يفسد صدقته بالمن والاذى قال الله
تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى واختلفوا في حقيقة المن والاذى فقيل المن ان يذكرها
والاذى ان يظهرها وقيل المن ان يستخدمه بالعطاء والاذى ان يعيره بالفقر وقيل المن
ان يتكبر عليه لاجل عطائه والاذى ان ينتهره او يوبخه بالمسالة وقد قال صلى الله عليه
وآله لا يقبل الله صدقة منان وعندي ان المن له اصل ومغرس وهو من احوال القلب
وصفاته ثم يتفرع عليه احوال ظاهرة على اللسان والجوارح واصله ان يرى نفسه محسنا
اليه ومنعما عليه وحقه ان يرى الفقير محسنا اليه بقبول حق الله منه الذي هو طهرته ونجاته
من النار وانه لو لم يقبله لبقي مرتهنا به فحقه ان يتقلد منة من الفقير اذ جعل كفه
نائبا عن الله في قبض حقه قال صلى الله عليه وآله ان الصدقة تقع بيد الله قبل ان تقع في يد السائل
فليتحقق انه مسلم الى الله حقه والفقير آخذ من الله رزقه بعد صيرورته الى الله

الى الله ولو كان عليه دين لانسان فاحال به عبده او خادمه الذي هو متكفل برزقه
اما الحق فانما يقضي الدين الذي لزمه بشراء ما احبه فهو ساع في حق نفسه فلم يمن
على غيره ومهما عرف المعاني الثلاثة التي ذكرناها لكان اعتقاد مؤدي الدين كون
القابض تحت منته سفها وجهلا فان المحسن اليه المتكفل برزقه اما هو فانما يقضي
الدين الذي لزمه بشراء ما احبه فهو ساع في حق نفسه فلم يمن به على غيره ومهما عرف
المعاني الثلاثة التي ذكرناها في فهم وجوب الزكاة او احدها لم ير نفسه محسنا الا
الى نفسه اما ببذل ماله اظهارا لحب الله او تطهيرا لنفسه عن رذيلة البخل او شكرا
على نعمة المال طلبا للمزيد وكيفما كان فلا معاملة بينه وبين الفقير حتى يرى نفسه
محسنا اليه ومهما جهل هذا الجهل بان راى نفسه محسنا اليه تفرع منه على ظاهره ما ذكر
في معنى المن وهو التحدث به واظهاره وطلب المكافاة منه بالشكر والدعاء والخدمة
والتوقير والتعظيم والقيام بالحقوق والتقديم في المجالس والمتابعة في الامور
فهذه كلها ثمرات المنة ومعنى المنة في الباطن ما ذكرناه واما الاذى فظاهره التوبيخ
والتعيير وتخشين الكلام وتقطيب الوجه وهتك الستر بالاظهار وفنون الاستخفاف
وباطنه وهو منبعه امران احدهما كراهيته لرفع اليد عن المال وشدة ذلك على
نفسه فان ذلك يضيق الخلق لا محالة والثاني رؤيته انه خير من الفقير وان الفقير
بسبب حاجته اخس منه وكلاهما منشؤه الجهل اما كراهية تسليم المال فهو
حمق لان من كره بذل درهم في مقابلة ما يساوي الفا فهو شديد الحماقة ومعلوم انه
يبذل المال لطلب رضا الله والثواب في الدار الآخرة وذلك اشرف مما بذله او يبذله
لتطهير نفسه عن رذيلة البخل او شكرا لطلب المزيد وكيفما فرض فالكراهة لا وجه
لها واما الثاني فهو ايضا جهل لانه لو عرف فضل الفقر على الغنى وعرف خطر الاغنياء
لما استحقر الفقير بل تبرك به وتمنى درجته فصلحاء الاغنياء يدخلون الجنة بعد
الفقراء بخمسمائة عام ولذلك قال صلى الله عليه وآله هم الاخسرون ورب الكعبة فقال ابو ذر
ومن هم قال هم الاكثرون اموالا الحديث ثم كيف يستحقر الفقير وقد جعله الله مسخرا له
اذ يكتسب المال بجهده ويستكثر منه ويجتهد في حفظه بمقدار الحاجة وقد الزم ان
يسلم الى الفقير قدر حاجته ويكف عنه الفاضل الذي يضره لو سلم اليه فالغني مستخدم

للسخرة ورزق الفقير ويتميز عنه بتقلد المظالم والتزام المشاق ومحارسة الفضلات
الى ان يموت فيأكلها اعداؤه فاذن مهما انتفت الكراهة وتبدلت بالسرور و
الفرح بتوفيق الله له في اداء الواجب وتقبيضه للفقير حتى يخلصه عن عهدته
بقبوله منه انتفى الاذى والتوبيخ وتقطيب الوجه وتبدل بالاستبشار والثناء وقبول
المنة فهذا منشأ المن والاذى فان قلت فرؤيته نفسه في درجة المحسن امر غامض
فهل من علامة يمتحن بها قلبه فيعرف بها انه لم ير نفسه محسنا فاعلم ان له علامة دقيقة واضحة وهو
ان يقدر ان الفقير لو جنى عليه جناية او مالأ عدوا له عليه مثلا هل كان يزيد استنكاره
واستبعاده له على استنكاره قبل التصدق فان زاد فلم تخل صدقته عن شائبة المنة لانه
توقع بسببها ما لم يكن يتوقعه قبل ذلك فان قلت فهذا امر غامض ولا ينفك قلب احد
عنه فما دواؤه فاعلم ان له دواء باطنا ودواء ظاهرا اما الباطن فالمعرفة بالحقائق
التي ذكرناها في فهم الوجوب وان الفقير هو المحسن اليه في تطهيره بالقبول واما
الظاهر فالاعمال التي يتعاطاها متقلد المنة فان الافعال التي تصدر عن الاخلاق
تصبغ القلب بالاخلاق كما سيأتي اسراره في الشطر الاخير من الكتاب ولهذا كان
بعضهم يضع الصدقة بين يدي الفقير ويمثل قائما بين يديه يسأله قبولها حتى يكون
هو في صورة السائلين وهو يستشعر مع ذلك كراهية لو رده وكان بعضهم يبسط كفه
ليأخذ الفقير من كفه ويكون يد الفقير هي العليا وكذلك كان ارباب القلوب يداوون
قلوبهم بالادوية من حيث الظاهر الا هذه الاعمال الدالة على التذلل والتواضع وقبول
المنة ومن حيث الباطن المعارف التي ذكرناها هذا من حيث العمل ولا يعالج القلب الا
بمعجون العلم والعمل وهذه الشريطة من الزكاة تجري مجرى الخشوع من الصلوة وثبت
ذلك بقوله عليه السلام ليس للمرء من صلوته الا ما عقل منها وهذا كقوله لا يقبل الله
صدقة منان وبقوله تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى واما فتوى الفقيه بوقوعها
موقعها وبراءة ذمته عنها دون هذا الشرط فحديث آخر وقد اشرنا الى معناه في كتاب
الصلوة الوظيفة السادسة ان يستصغر العطية فانه ان استعظمها اعجب بها والعجب من
المهلكات وهو محبط للاعمال قال تعالى ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم ويقال ان الطاعة
كلما استصغرت كبرت عند الله تعالى والمعصية كلما استعظمت صغرت عند الله تعالى وقيل

بلاده على الاصباعه وشايعه كالاه ق

وقيل لا يتم المعروف الا بثلاث تصغيره وتعجيله وستره وليس الاستعظام هو المن والاذى
فانه لو صرف ماله الى عمارة مسجد او رباط امكن فيه الاستعظام ولا يمكن المن والاذى
بل العجب والاستعظام يجري في جميع العبادات ودواؤه علم وعمل اما العلم فهو ان يعلم
ان العشر وربع العشر قليل من كثير وانه قد قنع لنفسه باخس درجات البذل كما ذكرناه
في فهم الوجوب فهو جدير بان يستحيي منه فكيف يستعظمه وان ارتقى الى الدرجة العليا
فبذل كل ماله او اكثره فليتأمل انه من اين له المال والى ماذا يصرفه فالمال لله عز وجل والمنة
عليه اذ اعطاه ثم وفقه لبذله فلم يستعظم في حق الله تعالى ما هو عين حق الله وان كان مقامه
يقتضي ان ينظر الى الآخرة وانه يبذله للثواب فلم يستعظم بذل ما ينتظر عليه اضعافه واما
العمل فهو ان يعطيه عطاء الخجل من بخله بامساك بقية ماله عن الله تعالى فتكون هيئته الانكسار
والحياء كهيئة من يطالب برد وديعة فيمسك بعضها ويرد البعض لان المال كله لله وبذل
جميعه هو الاحب عند الله وانما لم يأمر به عبده لانه يشق عليه بسبب بخله كما قال تعالى
فيحفكم تبخلوا الوظيفة السابعة ان ينتقي من ماله اجوده واحبه اليه واجله واطيبه
فان الله تعالى طيب لا يقبل الا طيبا واذا كان المخرج من شبهة فربما لا يكون ملكا له مطلقا
فلا يقع الموقع وفي حديث ابان عن انس طوبى لعبد انفق من مال اكتسبه من غير معصية
واذا لم يكن المخرج من جيد المال فهو من سوء الادب اذ قد يمسك الجيد لنفسه او لعبده او
اهله فيكون قد آثر على الله عز وجل غيره ولو فعل هذا بضيفه وقدم اليه اردى طعام في بيته
لاوغر به صدره هذا ان كان نظره الى الله عز وجل وان كان نظره الى نفسه وثوابه في الآخرة فليس
بعاقل من يؤثر غيره على نفسه وليس له من ماله الا ما تصدق به فابقى او اكل فافنى والذي
يأكله قضاء وطر في الحال فليس من العقل قصر النظر على العاجلة وترك الادخار وقد قال
تعالى انفقوا من طيبات ما كسبتم ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم باخذيه الا ان تغمضوا
فيه اي لا تأخذونه الا مع كراهية وحياء وهو معنى الاغماض فلا تؤثروا به ربكم وفي
الخبر سبق درهم مائة الف درهم وذلك بان يخرجه الانسان وهو من احل ماله واجوده
فيصدر ذلك عن الرضا والفرح بالبذل وقد يخرج مائة الف درهم مما يكره من ماله فيدل
على انه ليس يؤثر الله بشيء مما يحبه وبذلك ذم الله تعالى قوما جعلوا لله ما يكرهون
فقال ويجعلون لله ما يكرهون وتصف السنتهم الكذب ان لهم الحسنى لا وقف بعض القراء

على التقي تكذيبا لهم ثم انتقد وقال ان ظنهم ان الناس ذا كسبهم جعلهم مما يكرهون الثناء
الوظيفة الثامنة ان يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة ولا يكتفي بان يكون من عموم
الاصناف الثمانية فان في عمومهم خصوصا فليراع خصوص تلك الصفات وهي ست الصفة
الاولى ان يطلب الاتقياء المعرضين عن الدنيا المتجردين لتجارة الآخرة قال صلى الله عليه وسلم
لا تاكل الا طعام تقي ولا ياكل طعامك الا تقي وهذا لان التقي يستعين به على التقوى فتكون
شريكا له في طاعاته باعانتك يؤثر بالعطاء فقراء الصوفية دون غيرهم اياه وقال صلى الله عليه وسلم
اطعموا طعامكم الاتقياء واولوا معروفكم المؤمنين وفي لفظ آخر اضف بطعامك من
تحبه في الله وكان بعض العلماء يؤثر بالعطاء فقراء الصوفية دون غيرهم فقيل له لو عممت بمعروفك
جميع الفقراء لكان افضل فقال لا هؤلاء قوم همتهم لله سبحانه فاذا طرقتهم فاقة تشتت هم
احدهم فلأن ارد همة واحد الى الله احب الي من ان اعطي الفا ممن همته الدنيا فذكر هذا ولان هم
الكلام للجنيد فاستحسنه وقال هذا ولي من اولياء الله تعالى وقال ما سمعت منذ زمان كلاما
احسن من هذا ثم حكي ان هذا الرجل اختل حاله وهم بترك الحانوت فبعث اليه الجنيد مالا
وقال اجعله بضاعتك ولا تترك الحانوت فان التجارة لا تضر مثلك وكان هذا الرجل
بقالا لا ياخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعون منه الصفة الثانية ان يكون من اهل العلم
خاصة فان ذلك اعانة له على العلم والعلم اشرف العبادات مهما صحت فيه النية وكان ابن
المبارك رحمه الله يخصص بمعروفه اهل العلم فقيل له لو عممت فقال اني لا اعرف بعد مقام النبوة
افضل من مقام العلماء فاذا اشتغل قلب احدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم
فتفريغهم للعلم افضل الصفة الثالثة ان يكون صادقا في تقواه وعلمه بالتوحيد وتوحيده
انه اذا اخذ العطاء حمد الله وشكره ورأى النعمة منه ولم ينظر الى واسطة فهذا هو اشكر
العباد لله وهو ان يرى النعم كلها منه وفي وصية لقمان لابنه لا تجعل بينك وبين الله
منعما واعدد نعمة غيره عليك مغرما ومن شكر غير الله فكانه لم يعرف المنعم ولم يتيقن
ان الواسطة مقهور مسخر بتسخير الله اذ سلط الله عليه دواعي الفعل ويسر له الاسباب
فاعطى وهو مقهور ولو اراد تركه لم يقدر عليه بعد ان القى الله في قلبه ان صلاح دينه
ودنياه في فعله فمهما قوي الباعث اوجب ذلك جزم الارادة وانتهاض القدرة
ولم يستطع العبد مخالفة الباعث القوي الذي لا تردد فيه والله خالق البواعث

البواعث ومهيجها ومزيل الضعف والتردد عنها ومسخر القدرة للانتهاض بمقتضى البواعث
فمن تيقن هذا لم يكن له نظر الا الى مسبب الاسباب وتيقن مثل هذا العبد انفع للمعطي
من ثناء غيره وشكره فذلك حركة لسان يقل في الاكثر جدواها واعانة مثل هذا الموحد
لا تضيع فاما الذي يمدح بالعطاء ويدعو بالخير فسيذم بالمنع ويدعو بالشر عند
الايذاء واحواله متفاوتة وقد روي انه صلى الله عليه وسلم بعث معروفا الى بعض الفقراء
وقال للرسول احفظ ما يقول فلما اخذ قال الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ولا يضيع من
شكره ثم قال اللهم انك لم تنس فلانا يعني نفسه فاجعل فلانا لا ينساك فاخبر رسول
الله صلى الله عليه وسلم بذلك فسر وقال علمت انه يقول ذلك فانظر كيف قصر التفاته
على الله وحده وقال صلى الله عليه وسلم لرجل تب فقال اتوب الى الله ولا اتوب الى محمد فقال صلى الله عليه وسلم عرف
الحق لاهله وحد وفيت الاشياء من غير الله وصفا للكافرين قال الله تعالى واذا ذكر الله
وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون
ومن لم يصف باطنه عن رؤية الوسائط الا من حيث انهم وسائط فكانه لم ينفك عن
الشرك الخفي سره فليتق الله في تصفية توحيده عن كدورة الشرك وشوائبه الصفة
الرابعة ان يكون مستترا مخفيا حاجته لا يكثر البث والشكوى او يكون من اهل المروءة
ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته فهو يتعيش في جلباب التجمل قال الله تعالى يحسبهم الجاهل
اغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسئلون الناس الحافا اي لا يلحون في السؤال
لانهم اغنياء بيقينهم اعزة بصبرهم وهذا ينبغي ان يطلب بالتفحص عن اهل الدين في كل
محلة ويستكشف عن بواطن احوال اهل الخير والتجمل فثواب صرف المعروف اليهم اضعاف
ما يصرف الى المجاهرين بالسؤال الصفة الخامسة ان يكون معيلا او محبوسا بمرض
او بسبب من الاسباب فيوجد فيه معنى قوله تعالى للفقراء الذين احصروا في سبيل الله اي
حبسوا في طريق الآخرة بعيلة او ضيق معيشة او اصلاح قلب لا يستطيعون ضربا في الارض
لانهم مقصوصو الجناح مقيدو الاطراف فبهذه الاسباب كان عليه السلام يعطي العطاء
على مقدار العيلة وسئل عمر عن جهد البلاء فقال كثرة العيال وقلة المال الصفة
السادسة ان يكون من الاقارب وذوي الارحام فتكون صدقة وصلة رحم وفي صلة الرحم وصلة رحم
من الثواب ما لا يحصى قال علي عليه السلام لان اصل اخا من اخواني بدرهم احب الي من ان

ليكون عونا له على الطاعة وليكن نيته فيه ان يتقوى به على طاعته فان لم يقدر عليه
فليصرفه الى ما اباحه الله تعالى فان استعان به على معصية الله كان كافرا لانعم الله
مستحقا للبعد والمقت من الله الثانية ان يشكر المعطي ويدعو له ويثني عليه و
يكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرجه عن كونه واسطة ولكنه طريق وصول نعمة
الله اليه وللطريق حق من حيث جعله الله طريقا وواسطة وذلك لا ينافي رؤية
النعمة من الله فقد قال صلى الله عليه وآله من لم يشكر الناس لم يشكر الله وقد اثنى الله
على عباده في مواضع على اعمالهم وهو خالقها وخالق القدرة عليها نحو قوله نعم
العبد انه اواب الى غير ذلك وليقل القابض في دعائه طهر الله قلبك في قلوب
الابرار وزكى عملك في عمل الاخيار وصلى على روحك في ارواح الشهداء ومن تمام
الشكر ان يستر عيوب العطاء ان كان فيه عيب ولا يحقره ولا يذمه ولا يعيره بالمنع
اذا منع ويفخم عند نفسه وعند الناس صنيعه ومن لا يرى الواسطة واسطة فقد
جهل وانما المنكر ان يرى الواسطة اصلا الثالثة ان ينظر فيما ياخذه فان لم يكن من
حله تورع عنه ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ولن يعدم
المتورع عن الحرام فتوحا من الحلال فلا ياخذ من اموال الاتراك والجنود وعمال
السلاطين ومن اكثر كسبه من الحرام الا اذا ضاق عليه الامر وكان ما يسلم اليه لا يعرف
له مالكا معينا فله ان ياخذ بقدر الحاجة الرابعة ان يتوقى مواقع الريبة والاشتباه
في مقدار ما ياخذه فلا ياخذ الا القدر المباح ولا ياخذ الا اذا تحقق انه موصوف
بصفة الاستحقاق والورع ترك ما يريبه الى ما لا يريبه ومن حام حول الحمى يوشك
ان يقع فيه والمحتاج في تقدير الحاجة مقامات في التضييق والتوسيع ولا تنحصر مراتبه
فميل الورع الى التضييق وميل المتساهل الى التوسيع حتى يرى نفسه محتاجا الى فنون
من التوسيع وهو ممقوت في الشرع ثم اذا تحققت حاجته فلا ياخذ مالا كثيرا بل ما
يتمم كفايته من وقت اخذه [illegible] كان عليهم يعطي العطاء على مقدار العيلة
وسال عمر بن جهد البلاء فقال كثرة العيال وقلة المال الصفة السابعة
ان يكون من الاقارب وذوي الارحام فيكون صدقة وصلة وفي صلة الرحم
من الثواب ما لا يخفى قال علي عليه السلام لان اصل اخا من اخواني بدرهم احب الي من ان

اتصدق بعشرين درهما ولان اصل بعشرين درهما احب الي من ان اتصدق بمائة
درهم ولان اصل بمائة درهم احب الي من ان اعتق رقبة و
الاصدقاء واخوان الخير ايضا يتقدمون على المعارف كما يتقدم الاقارب على الاجانب
فليراع هذه الدقائق فهذه هي الصفات المطلوبة وفي كل صفة درجات فينبغي ان يطلب
اعلاها فان وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهي الذخيرة الكبرى والغنيمة العظمى
ومهما اجتهد في ذلك واصاب فله اجران وان اخطا فله اجر واحد فان احد اجريه
في الحال تطهيره نفسه عن صفة البخل وتاكيد حب الله في قلبه واجتهاده في طاعته وهذه
الصفات هي التي تتقوى في قلبه فتشوقه الى لقاء الله تعالى والاجر الثاني ما يعود اليه
فائدة دعوة الآخذ وهمته فان قلوب الابرار لها آثار في الحال والمآل فان اصاب
حصل الاجران وان اخطا حصل الاول دون الثاني فبهذا يضاعف اجر
المصيب في الاجتهاد هاهنا وفي سائر المواضع والله اعلم ثم ذكر رحمه الله بيان
اسباب الاستحقاق واوصاف الاصناف الثمانية بحيث يستفاد من كلامه رحمه الله
ان الفقير اسوأ حالا من المسكين ثم ذكر بيان وظائف القابض قال رحمه الله في
وهي خمس الاولى ان يفهم ان الله تعالى اوجب صرف الزكوة اليه ليكفي همه ويجعل همومه
هما واحدا فقد تعبد الله الخلق بان يكون همهم واحدا وهو الله واليوم الآخر
وهو المعني بقوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ولكن لما اقتضت الحكمة
ان يسلط على العبد الشهوات والحاجات وهي تفرق همه اقتضى الكرم افاضة نعمة
تكفي الحاجات فاكثر الاموال وصبها في ايدي عباده ليكون آلة لهم في دفع حاجاتهم
ووسيلة لتفرغهم لطاعاتهم فمنهم من اكثر ماله فتنة وبلية فاقحمه في الخطر ومنهم
من احبه فحماه الدنيا كما يحمي المشفق مريضه فزوى عنه فضولها وساق اليه قدر
حاجته على يد الاغنياء ليكون شغل الكسب والتعب في الجمع والحفظ عليهم وفائدته
ينصب الى الفقراء المتجردين لعبادة الله والاستعداد لما بعد الموت فلا يصرفهم عن
ذلك فضول الدنيا ولا يشغلهم عن التاهب الفاقة وهذا منتهى النعمة فحق الفقير
ان يعرف قدر نعمة الفقر ويتحقق ان فضل الله عليه فيما زواه عنه اكثر من فضله فيما
اعطاه كما سياتي بيانه وتحقيقه ان شاء الله فليأخذ ما ياخذه من الله رزقا له

من ان اتصدق بعشرين درهما ولان اصله بعشرين درهما احب الي من ان اتصدق
بمائة درهم ولان اصله بمائة درهم احب الي من ان اعتق رقبة والاصدقا وذو
احوان الخير ايضا يتقدمون على المعارف كما يتقدم الاقارب على الاجانب فليراع هذه
الدقائق فهذه هي الصفات المطلوبة وفي كل صفة درجات فينبغي ان يطلب اعلاها
فان وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهي الذخيرة الكبرى والغنيمة العظمى ومهما
اجتهد في ذلك واصاب فله اجران وان اخطا فله اجر واحد فان احد اجريه في الحال
تطهيره نفسه عن صفة البخل وتاكيد حب الله في قلبه واجتهاده في طاعته وهذه الصفات
هي التي تقوى في قلبه فتشوقه الى لقاء الله تعالى والاجر الثاني ما يعود اليه من فائدة
دعوة الآخذ وهمته فان قلوب الابرار لها آثار في الحال والمآل فان اصاب حصل الاجران
وان اخطا حصل الاول دون الثاني فبهذا يضاعف اجر المصيب في الاجتهاد ههنا
وفي سائر المواضع والله اعلم **ثم ذكر رحمه الله بيان اسباب الاستحقاق واوصاف**
الاصناف الثمانية ويستفاد من كلامه رحمه الله ان الفقير اسوء حالا من المسكين ثم
ذكر بيان وظايف القابض قال رحمه الله وهي خمس **الاولى** ان يفهم ان الله تعالى
اوجب صرف الزكوة اليه ليكفي مهمه ويجعل همومه هما واحدا فقد تعبد الله الخلق بان
يكون همهم واحدا وهو الله واليوم الآخر وهو المعني بقوله وما خلقت الجن والانس
الا ليعبدون ولكن لما اقتضت الحكمة ان يسلط على العبد الشهوات والحاجات وهي تفرق
همه اقتضى الكرم افاضة نعمة تكفي الحاجات فاكثر الاموال جعلها في ايدي عباده
ليكونوا آلة لهم في دفع حاجاتهم ووسيلة لتفرغهم لطاعاتهم فمنهم من اكثر المال فتنة وبلية فاقحمه
متن الخطر ومنهم من احبه حماه الدنيا كما يحمي الشفيق مريضه فزوى عنه فضولها وساق
اليه قدر حاجته على يد الاغنياء ليكون شغل الكسب والتعب بالجمع والحفظ عليهم وفائدته
منصبة الى الفقراء المجردين لعبادة الله والاستعداد لما بعد الموت فلا يصرفهم عن ذلك
فضول الدنيا ولا يشغلهم عن التاهب الفاقة وهذا منتهى النعمة فحق الفقير ان يعرف
قدر نعمة الفقر ويتحقق ان فضل الله عليه فيما زواه عنه اكثر من فضله فيما اعطاه كما سياتي
بيانه وتحقيقه فليأخذ ما يأخذ من الله رزقا له وعونا له على طاعته الى ...
ما يرخص فيه من حيث ان الستر اذا كثرت اسباب الدخل ومن حيث انه رسول الله

رسول الله صلى الله عليه وسلم ادخر لعياله قوت سنة فهذا اقرب ما يحد به حق الفقير والمسكين ولو
اقتصر على حاجة شهر او حاجة يوم فهو اقرب للتقوى ومذاهب العلماء في قدر الماخوذ
بحكم الزكوة والصدقة مختلفة فمن مبالغ في التقليل الى حد اوجب الاقتصار على قوت يومه
وليلته وتمسكوا بما روى سهل بن الحنظلية ان النبي صلى الله عليه وآله نهى عن السؤال مع الغنا
فسئل عن غناه فقال غداءه وعشاءه وقال آخرون ياخذ الى حد الغنى وحد الغنى نصاب
الزكوة اذ لم يوجب الله تعالى الزكوة الا على الاغنياء فقالوا له ان ياخذ لنفسه ولكل واحد من
عياله نصاب زكوة وقال آخرون حد الغنى خمسون درهما لما روى ابن مسعود ان النبي
صلى الله عليه وآله قال من سال وله مال يغنيه جاء يوم القيامة وفي وجهه خموش قيل وما
غناه قال خمسون درهما او قيمتها من الذهب والاقرب الى الاعتدال كفاية سنة فما وراءه
فيه خطر وفيما دونه تضييق ثم يقال للمرء استفت قلبك وان افتوك وافتوك كما
قال صلى الله عليه وسلم الاثم حزاز القلوب فاذا وجد القابض في نفسه شيئا مما ياخذه فليتق الله فيه
ولا يترخص تعللا بالفتوى من علماء الظاهر فان لفتاويهم قيودا ومطلقات من الضرورات
وفيها تخمينات واقتحام شبهات والتوقي من الشبهات من شيم ذوي الدين وعادات السالكين
لطريق الآخرة **الخامسة** ان يسال صاحب المال عن قدر الواجب عليه فان كان ما يعطيه
فوق الثمن فلا ياخذه منه لانه لا يستحق مع شريكه الا الثمن فلينقص من الثمن مقدار ما
يصرف الى اثنين من صنفه وهذا السؤال واجب لاكثر الخلق فانهم لا يراعون هذه
اما لجهل واما لتساهل **الفصل الرابع في صدقة التطوع** وفضلها واداب اخذها
واعطائها روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تصدقوا ولو بتمرة فانها تسد من الجائع وتطفئ الخطيئة
كما يطفئ الماء النار وقال صلى الله عليه وسلم اتقوا النار ولو بشق تمرة فان لم تجدوا فبكلمة طيبة وقال
عليه السلام ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله الا طيبا الا كان الله
عز وجل ياخذها بيمينه فيربيها له كما يربي احدكم فصيله حتى تبلغ التمرة مثل احد وقال
لابي الدرداء اذا طبخت مرقة فاكثر ماءها ثم انظر اهل بيت من جيرانك فاصبهم منها بمعروف
الى غير ذلك من الاخبار والآثار ونحن نقل ان الابرار اذا اعطيت خطيئة
صدقة وقول يحيى بن معاذ ما اعرف حبة تزن جبال الدنيا الا الحبة من الصدقة وكان
بعضهم يتصدق بالسكر ويقول انه احب الاشياء الي **بيان اخفاء الصدقة واظهارها** قد اختلف

طرق طائفة بل الاخلاص فيه وقال قوم الاخفا افضل وقال قوم الاظهار افضل ونحن
نشير الى ما في كل واحد من المعاني والافات ثم نكشف الغطا عن الحق فيه اما الاخفا
ففيه خمسة معان الاول انه ابقى للستر على الاخذ فان اخذه ظاهرا هتك ستر المروة
وكشف عن الحاجة وخروج عن هيئة التعفف الثاني انه اسلم لقلوب الناس والسنتهم
فانهم ربما يحسدونه او ينكرون عليه اخذه ويظنون انه اخذ مع الاستغنا او ينسبونه
الى اخذ زيادة والحسد وسو الظن والغيبة من الذنوب الكبار وصيانتهم عن هذه
الجرايم اولى وقال ايوب السختياني اني لاترك لبس الثوب الجديد خشية ان يحدث
في جيراني حسد وقال بعض الزهاد ربما تركت استعمال الشي لاجل اخواني يقولون من اين
له هذا الثالث اعانة المعطي على اسرار العمل فان فضل السر على الجهر في الاعطا اكثر و
الاعانة على تمام المعروف معروف والكتمان لا يتم الا باثنين اعطى رجل بعض الصوفية
شيا في الملا فرده فقال لم ترد على الله ما اعطاك فقال انك اشركت غير الله فيما لله
ولم تقنع بعين الله عز وجل فرددت عليك شركك الرابع ان في اظهار الاخذ ذلا
وامتهانا وليس للمومن ان يذل نفسه كان بعض العلما ياخذ في السر ولا ياخذ في العلانية
ويقول ان في اظهاره اذلالا للعلم وامتهانا لاهله فما كنت بالذي ارفع شيا من الدنيا
بوضع العلم واذلال اهله الخامس الاحتراز عن شبهة الشركة قال صلعم من اهدي له هدية
وعنده قوم فهم شركاوه فيها واما الاظهار والتحدث به ففيه معان اربعة الاول
الاخلاص والصدق والسلامة عن تلبيس الحال والمراياة والثاني اسقاط الجاه
والمنزلة واظهار العبودية والمسكنة والتبري عن الكبريا ودعوى الاستغنا و
اسقاط النفس عن اعين الخلق قال بعض العارفين لتلميذه اظهر الاخذ على كل حال ان
كنت اخذا فانك لا تخلو عن احد رجلين رجل تسقط من قلبه اذا فعلت ذلك فذلك هو
المراد لانه اسلم لدينك واقل لافات نفسك او رجل تزداد في قلبه باظهارك الصدق
فذلك الذي يريده اخوك لانه يزداد ثوابا بزيادة حبه لك وتعظيمه اياك فتوجر انت اذ كنت
سبب مزيد ثوابه الثالث هو ان العارف لا نظر له الا الى الله والسر والعلانية في حقه
واحد فاختلاف الحال شرك في التوحيد قال بعضهم كنا لا نعبا بدعا من ياخذ في السر ويرد
في العلانية والالتفات الى الخلق حضروا ام غابوا نقصان في الحال بل ينبغي ان يكون النظر

النظر مقصورا على الواحد الفرد وحكي ان بعض الشيوخ كان كثير الميل الى واحد من جملة المريدين
فشق على الاخرين ذلك فاراد ان يظهر لهم فضيلة ذلك المريد فاعطى كل واحد منهم طايرا
فقال ليذبح كل واحد حيث لا يراه احد فذهبوا ثم جاوا وقد ذبح كل واحد طايره الا ذلك
المريد فانه رد طايره حيا فقال له الشيخ ما لك لم تذبح كما ذبح اصحابك فقال لم اجد موضعا
لا يراني فيه احد فان الله تعالى يطلع في كل موضع فقال الشيخ لهذا اميل اليه لانه لا
يلتفت الى غير الله الرابع ان الاظهار اقامة لسنة الشكر وقد قال تعالى واما بنعمة ربك
فحدث والكتمان كفران النعمة وقد ذم الله تعالى من كتم ما اتاه الله وقرنه بالبخل وقال
الذين يبخلون ويامرون الناس بالبخل ويكتمون ما اتاهم الله من فضله وقال صلعم اذا
انعم الله على عبد نعمة احب ان يرى عليه واعطى رجل بعض العارفين شيا في السر فرفع
به يده وقال هذا من الدنيا والعلانية فيها افضل والسر في امور الاخرة افضل والشكر
محثوث عليه قال صلعم من لم يشكر الناس لم يشكر الله والشكر قايم مقام المكافاة حتى قال صلعم
من اسدى اليكم معروفا فكافوه فان لم تستطيعوا فاثنوا عليه به خيرا وادعوا له حتى
تعلموا انكم قد كافيتموه فاذا عرفت هذه المعاني فاعلم ان ما نقل من اختلاف الناس
فيه ليس اختلافا في المسئلة بل هو اختلاف حال فكشف الغطا في ذلك انا لا نحكم
حكما بتا بان الاخفا افضل في كل حال او الاظهار افضل بل يختلف ذلك باختلاف
النيات وتختلف النيات باختلاف الاحوال والاشخاص فينبغي ان يكون المخلص
مراقبا للنفس حتى لا يتدلى بحبل الغرور ولا ينخدع بتلبيس الطبع ومكر الشيطان و
المكر والخداع اغلب في معاني الاخفا منه في الاظهار مع ان له دخلا في كل واحد
منها فاما مدخل الخداع في الاسرار فمن ميل الطبع اليه لما فيه من حفظ الجاه والمنزلة و
سقوط القدر من اعين الناس ونظر الخلق اليه بعين الازدرا والى المعطي بعين
المنعم المحسن اليه فهذا هو الداء الدفين ويستكن في النفس والشيطان بواسطته يظهر
معاني الخير حتى يتعلل بالمعاني الخمسة التي ذكرناها ومعيار كل ذلك و
محكه امر واحد وهو ان يكون تالمه بانكشاف اخذه للصدقة كتالمه بانكشاف
صدقة اخذها بعض اقرانه وامثاله فانه ان كان يبغي صيانة الناس عن الغيبة
والحسد وسو الظن او يتقي انتهاك الستر او اعانة المعطي على الاسرار او صيانة

العلم عن الابتذال فكل ذلك مما يحصل بانكشاف صدقته اخفيه فان كان انكشاف
امره اثقل عليه من انكشاف امر غيره فتقديره الحذر من هذه المعاني اغاليط و
اباطيل من مكر الشيطان وخدعه فان اذلال العلم محذور من حيث انه علم لا من
حيث انه علم زيد او علم عمرو والغيبة محذورة من حيث انها تعرض لعرض مصون
لا من حيث انها تعرض لعرض زيد على الخصوص ومن احسن ملاحظة مثل هذا ربما يعجز
الشيطان عنه والا فلا يزال كثير العمل قليل الحظ واما جانب الاظهار فميل الطبع اليه — قبل م
من حيث انه تطييب لقلب المعطي واستحثاث له على مثله واظهار عند غيره انه من المبالغين
في الشكر حتى يرغبوا في اكرامه وتفقده وهذا داء دفين في الباطن والشيطان
لا يقدر على المتدين الا بان يروج عليه هذا الخبث في معرض السنة ويقول الشكر
من السنة والاخفاء من الرياء ويورد عليه المعاني التي ذكرناها ليحمله على الاظهار و
قصده الباطن ما ذكرناه ومعيار ذلك ومحكه ان ينظر الى ميل نفسه الى الشكر حيث لا
ينتهي الخبر الى المعطي ولا الى من يرغب في عطائه وبين يدي جماعة يكرهون اظهار
العطية ويرغبون في اخفائها وعادتهم ان لا يعطون الا من يخفي ولا يشكر فان
استوت هذه الاحوال عنده فليعلم ان باعثه هو اقامة السنة في الشكر والتحدث
بالنعمة والا فهو مغرور ثم اذا علم ان باعثه السنة فلا ينبغي ان يغفل عن قضاء
حق المعطي فينظر فان كان هو ممن يحب الشكر والنشر فينبغي ان يخفي ولا يشكر لان
قضاء حقه ان لا ينصره على الظلم وطلبه الشكر ظلم واذا علم انه لا يحب الشكر ولا يقصده
فعند ذلك يشكره ويظهر صدقته ولذلك قال صلعم للرجل الذي مدح بين يديه
ضربتم عنقه لو سمعها ما افلح مع انه عليه السلام كان يثني على قوم في وجوههم لثقته
بيقينهم وعلمه بان ذلك لا يضرهم بل يزيدهم في رغبتهم في الخير فقال لواحد انه سيد
اهل الوبر وقال اذا اتاكم كريم قوم فاكرموه وسمع كلام رجل فاعجبه فقال
ان من البيان لسحرا وقال اذا علم احدكم من اخيه خيرا فليخبره فانه يزداد رغبة
في الخير وقال عليه السلام اذا مدح المؤمن ربا الايمان في قلبه وقال الثوري من عرف نفسه
لم يضره مدح الناس فدقائق هذه المعاني ينبغي ان يلحظها من يراعي قلبه فان
اعمال الجوارح مع اهمال هذه الدقائق ضحكة للشيطان وشماتة له لكثرة التعب

التعب مع قلة النفع ومثل هذا العلم هو الذي يقال فيه ان تعلم مسئلة واحدة منه
افضل من عبادة سنة اذ بهذا العلم تحيى عبادة العمر وبالجهل به تموت عبادة
العمر وتتعطل وعلى الجملة فالاخذ في الملا وترك الاخذ في السر احسن المسالك واسلمها
فلا ينبغي ان يدفع بالترهات الا ان يكمل المعرفة بحيث يستوي السر و
العلانية وذلك هو الكبريت الاحمر يتحدث به ولا يرى **بيان الافضل**
من اخذ الصدقة او الزكاة كان ابراهيم الخواص والجنيد وجماعة يرون ان
الاخذ من الصدقة افضل فان في اخذ الزكاة مزاحمة المساكين وتضييقا عليهم
ولانه ربما لا يكمل في اخذها صفة الاستحقاق كما وصف في كتاب الله تعالى
واما الصدقة فالامر فيها اوسع وقال قائلون ياخذ الزكاة دون الصدقة لانه
اعانة على واجب ولو ترك المساكين كلهم اخذ الزكاة لاثموا ولان الزكاة لا
منة فيها وانما هي حق واجب لله تعالى رزقا لعباده المحتاجين ولانه اخذ بالحاجة
والانسان يعلم حاجة نفسه قطعا واخذ الصدقة اخذ بالدين فان الغالب ان
المتصدق يعطي من يعتقد فيه خيرا ولان مرافقة المساكين ادخل في الذل و
المسكنة وابعد من التكبر اذ قد ياخذ الانسان الصدقة في معرض الهدية فلا
يتميز عنها وهذا تنصيص على ذل الآخذ وحاجته والقول الحق في هذا ان هذا
يختلف باحوال الشخص وما يغلب عليه وما يحضره من النية فان كان في شبهة
من اتصافه بصفة الاستحقاق فلا ينبغي ان ياخذ الزكاة واذا علم انه مستحق
قطعا كما اذا حصل عليه دين صرفه الى خير وليس له وجه في قضائه فهو مستحق
فاذا خير هذا بين الزكاة وبين الصدقة فان كان صاحب الصدقة لا يتصدق
بذلك المال لو لم ياخذه هو فلياخذ الصدقة فان الزكاة الواجبة يصرفها
صاحبها الى مستحقها ففي ذلك تكثير للخير وتوسيع على المساكين وان كان المال
معرضا للصدقة ولم يكن في اخذ الزكاة تضييق على المساكين فهو مخير والامر فيهما
متقارب واخذ الزكاة اشد في كسر النفس واذلالها في اغلب الاحوال **كتاب**
اسرار الصيام ومهماته قال رحمه الله بعد الحمد والصلاة على محمد وآله ان
الصوم ربع الايمان بمقتضى قوله صلعم الصوم نصف الصبر وبمقتضى قوله صلعم الصبر

نصف الإيمان ثم هو متميز بخاصية النسبة إلى الله تعالى من بين سائر
الأركان إذ قال فيما أخبر عنه نبيه صلى الله عليه وسلم كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم
فإنه لي وأنا أجزي به وقد قال تعالى إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب والصوم
نصف الصبر فقد جاوز ثوابه قانون التقدير والحساب وناهيك في معرفة فضله قوله
والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك وقال للصائم فرحتان
فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربه وقيل في قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفي لهم
من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون قيل كان عملهم الصيام لأنه قال إنما يوفى الصابرون أجرهم
بغير حساب فيفرغ للصائم جزاؤه إفراغا ويجازف جزافا فلا يدخل تحت وهم وتقدير
وجدير بأن يكون كذلك لأن الصوم إنما كان له ومشرفا بالنسبة إليه وإن كانت العبادات
كلها له كما شرف البيت بالنسبة إليه والأرض كلها له لمعنيين أحدهما أن الصوم كف وترك
وهو في نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد وجميع الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى والصوم لا
يراه إلا الله تعالى فإنه عمل في الباطن بالصبر المجرد والثاني أنه قهر لعدو الله فإن وسيلة
الشيطان الشهوات وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم
إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع وكما يكسر الشهوة التي هي
مرتع الهلكات إن شاء الله فلما كان الصوم قمعا للشيطان وسدا لمسالكه وتضييقا
لمجاريه استحق التخصيص بالنسبة إلى الله تعالى ففي قمع عدو الله نصرة الله ونصرة الله
موقوفة على النصرة له قال تعالى إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم فالبداية بالجهد
من العبد والجزاء بالهداية من الله ولذلك قال والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا
وقال إن الله لا يغير ما بأنفسهم وإنما التغيير بكسر الشهوات فهي مرتع الشياطين ومرعاهم
فما دامت مخصبة لم ينقطع ترددهم وما داموا يترددون فلا ينكشف للعبد جلال الله وكان
محجوبا عن لقائه وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لولا أن الشياطين يحومون على قلوب
بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء فمن هذا الوجه صار الصوم باب العبادة وصار
جنة وإذ عظمت فضيلته إلى هذا الحد فلا بد من بيان شروطه الظاهرة بذكر أركانه
وسننه وشروطه الباطنة ونبين ذلك بثلاثة فصول الفصل الأول في الواجبات
والسنن الظاهرة إلخ الفصل الثاني في أسرار الصوم وشروطه الباطنة اعلم أن

ويأتي فضائل الجوع

ما بقوم حتى يغيروا ما

للصوم ثلاث درجات صوم العموم وصوم الخصوص وصوم خصوص الخصوص
أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة كما سبق تفصيله وأما صوم
الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام
وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه
عما سوى الله بالكلية ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله واليوم الآخر
وبالفكر في الدنيا إلا دنيا تراد للدين فإن ذلك زاد الآخرة وليس من الدنيا حتى قال
أرباب القلوب من تحركت همته بالتصرف في نهاره لتدبير ما يفطر عليه كتبت عليه
خطيئة فإن ذلك من قلة الوثوق بفضل الله وقلة اليقين برزقه الموعود وهذه رتبة
الأنبياء والصديقين والمقربين ولا نطول النظر في تفصيله قولا ولكن في تحقيقه عملا فإنه
إقبال بكنه الهمة على الله وانصراف عن غير الله وتلبس بمعنى قوله تعالى قل الله ثم ذرهم
وأما صوم الخصوص وهو صوم الصالحين فهو كف الجوارح عن الآثام وتمامه بستة
أمور الأول غض البصر وكفه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يذم ويكره وإلى كل ما
يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله تعالى قال صلى الله عليه وسلم النظرة سهم مسموم من سهام إبليس
من تركها خوفا من الله آتاه الله إيمانا يجد حلاوته في قلبه وروى جابر عن
أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال خمس يفطرن الصائم الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة
والنظر بشهوة الثاني حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش
والجفاء والخصومة والمراء وإلزامه السكوت وشغله بذكر الله وتلاوة القرآن فهذا
صوم اللسان وقد قال سفيان الغيبة تفسد الصوم رواه بشر بن الحارث عنه وروى
ليث عن مجاهد خصلتان تفسدان الصوم الغيبة والكذب وقال صلى الله عليه وسلم إنما الصوم جنة
فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم
إني صائم الثالث كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه لأن كل ما حرم قوله حرم
الإصغاء إليه ولذلك سوى الله تعالى بين المستمع وآكل السحت فقال سماعون للكذب
أكالون للسحت وقال تعالى لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت
فالسكوت على الغيبة حرام وقال تعالى إنكم إذا مثلهم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم المغتاب والمستمع
شريكان في الإثم الرابع كف بقية الجوارح من اليد والرجل عن المكاره وكف البطن

عن الشبهة وقت الإفطار فلا معنى للصوم وهو كف عن الطعام الحلال ثم الإفطار على الحرام
فمثال هذا الصائم مثال من يبني قصرا ويهدم مصرا فإن الطعام الحلال إنما يضر بكثرته
لا بنوعه فالصوم لتقليله وتارك الاستكثار من الدواء خوفا من ضرره إذا عدل إلى
تناول السم كان سفيها والحرام سم مهلك للدين والحلال دواء ينفع قليله ويضر كثيره
وقصد الصوم تقليله وقد قال صلعم كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش فقيل
هو الذي يفطر على الحرام وقيل هو الذي يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس
بالغيبة وهو حرام وقيل هو الذي لا يحفظ جوارحه عن الآثام الخامس أن لا يستكثر
من الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلئ فما من وعاء أبغض إلى الله من بطن ملئ من حلال
كيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاته
ضحوة نهاره وربما يزيد عليه في ألوان الطعام حتى استمرت العادات بأن يدخر جميع
الأطعمة لرمضان فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدة أشهر ومعلوم أن مقصود الصوم
الخوى وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى وإذا دفعت المعدة ضحوة النهار إلى العشاء
حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها ثم أطعمت من اللذات وأشبعت زادت لذتها و
تضاعفت قوتها وانبعثت من الشهوات ما عساه كان راكدا لو تركت على عادتها فروح الصوم
وسره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى الشرور ولن يحصل ذلك إلا
بالتقليل وهو أن يأكل أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم فأما إذا جمع ما كان يأكل ضحوة
إلى ما كان يأكل ليلا فلم ينتفع بصومه بل من الآداب أن لا يكثر النوم بالنهار حتى يحس بالجوع
والعطش ويستشعر ضعف القوى فيصفو عند ذلك قلبه ويستديم في كل ليلة قدرا من الضعف
حتى يخف عليه تهجده وأوراده فعسى الشيطان لا يحوم على قلبه فينظر إلى ملكوت السماء
وليلة القدر عبارة عن الليلة التي ينكشف فيها شيء من الملكوت وهو المراد بقوله إنا
أنزلناه في ليلة القدر ومن جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام فهو عنه
محجوب ومن أخلى معدته فلا يكفيه ذلك لرفع الحجاب ما لم يخل همته عن غير الله و
ذلك هو الأمر كله ومبدأ جميع ذلك تقليل الطعام وسيأتي له مزيد بيان في كتاب الأطعمة
إن شاء الله السادس أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقا مضطربا بين الخوف و
الرجاء إذ ليس يدري أيقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه فهو من الممقوتين وليكن

كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها فقد روي عن الحسن بن أبي الحسن أنه
مر بقوم يوم العيد وهم يضحكون فقال إن الله عز وجل جعل شهر رمضان مضمارا
لخلقه يستبقون فيه لطاعته فسبق أقوام ففازوا وتخلف أقوام فخابوا فالعجب
كل العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه السابقون وخاب فيه
المبطلون أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته
أي كان سرور المقبول يشغله عن اللعب وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك
وعن الأحنف بن قيس أنه قيل له إنك شيخ كبير وإن الصيام يضعفك فقال إني
أعده لسفر طويل والصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذابه فهذه هي المعاني
في الصوم فإن قلت فمن اقتصر على كف شهوة البطن والفرج وترك هذه المعاني فقد
قال الفقهاء صومه صحيح فما معناه فاعلم أن فقهاء الظاهر يثبتون شروط الظاهر
بأدلة هي أضعف من هذه الأدلة التي أوردناها في هذه الشروط الباطنة لا سيما الغيبة
وأمثالها ولكن ليس إلى فقهاء الظاهر من التكليفات إلا ما يتيسر على عموم الغافلين
المقبلين على الدنيا الدخول تحته فأما علماء الآخرة فيعنون بالصحة القبول وبالقبول
الوصول إلى المقصود ويفهمون أن المقصود من الصوم التخلق بخلق من أخلاق
الله وهو الصمدية والاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بحسب الإمكان فإنهم
منزهون عن الشهوات والإنسان رتبته فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل
على كسر شهوته ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه وكونه مبتلى بمجاهدتها
فكلما انهمك في الشهوات انحط إلى أسفل السافلين والتحق بغمار البهائم وكلما قمع
الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين والتحق بأفق الملائكة والملائكة مقربون من الله
والذي يقتدي بهم ويتشبه بأخلاقهم يقرب من الله كقربهم فإن الشبيه من القريب
قريب وليس القرب ثم بالمكان بل بالصفات وإذا كان هذا سر الصوم عند
أرباب الألباب وأصحاب القلوب فأي جدوى لتأخير أكلة وجمع أكلتين عند
العشاء مع الانهماك في الشهوات الأخر طول النهار ولو كان لمثله جدوى فأي معنى
لقوله صلعم كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش ولهذا قال أبو الدرداء يا
حبذا نوم الأكياس وفطرهم كيف يعيبون صوم الحمقى وسهرهم ولذرة من ذي يقين

ويقوى افضل وارجح من امثال الجبال عبادة من المغترين ولذلك قال العلما كم من
صايم مفطر وكم من صايم فالمفطر الصايم هو الذى يحفظ جوارحه عن الاثام وياكل
ويشرب والصايم المفطر هو الذى يجوع ويعطش ويطلق جوارحه ومن فهم معنى الصوم
وسره علم ان مثل من كف عن الاكل والجماع وافطر بمخالطة الاثام كمن مسح على عضو من
اعضايه فى الوضوء ثلث مرات فقد وافق فى ظاهر العدد الا انه ترك المهم وهو الغسل
فصلوته مردودة عليه بجهله ومثل من افطر بالاكل وصام بجوارحه عن المكاره كمن غسل
اعضاءه مرة مرة فصلوته متقبلة لاحكامه الاصل وان ترك الفضل ومثل من جمع بينهما
كمن غسل كل عضو ثلث مرات فجمع بين الاصل والفضل وهو الكمال وقد قال صلى الله عليه وسلم انما
الصوم امانة فليحفظ احدكم امانته ولما تلى قوله تعالى ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات
الى اهلها وضع يده على سمعه وبصره فقال السمع امانة والبصر امانة ولولا انه من
امانات الصوم لما قال فليقل انى صايم اى انى اودعت لسانى لاحفظه فكيف اطلقه
بجوابك فاذن قد ظهر ان لكل عبادة ظاهرا وباطنا وقشرا ولبا وللقشور درجات
ولكل درجة طبقات فاليك الخيرة الان فى ان تقنع بالقشر عن اللباب او تتحيز
الى غمار ارباب الالباب **الفصل الثالث** فى التطوع بالصيام وترتيب الاوراد فيه
اعلم ان استحباب الصوم يتاكد فى الايام الفاضلة وفواضل الايام بعضها يوجد فى كل
سنة وبعضها يوجد فى كل شهر وبعضها فى كل اسبوع اما فى السنة فبعد ايام شهر
رمضان فيوم عرفة ويوم عاشورا والعشر الاول من ذى الحجة والعشر الاول
من المحرم وجميع الاشهر الحرم مظان الصوم وهى اوقات فاضلة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يكثر صوم شعبان حتى كان يظن انه من رمضان وفى الخبر افضل الصيام بعد شهر رمضان
شهر الله المحرم ولانه ابتدا السنة فبناوها على الخير احب وارجى لدوام بركته
وفى الخبر اذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان ولهذا يستحب ان يفطر
قبل رمضان اياما والاشهر الفاضلة ذو الحجة والمحرم ورجب وشعبان والاشهر
الحرم ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ثلثة سرد وواحد فرد وافضلها ذو الحجة
لان فيه الحج والايام المعلومات والمعدودات وذو القعدة من الاشهر الحرم وهو من
اشهر الحج وشوال من اشهر الحج وليس من الحرم والمحرم ورجب ليسا من اشهر الحج وفى الخبر

مفطر

وفى الخبر ما من ايام العمل فيهن افضل واحب الى الله من ايام عشر ذى الحجة ان صوم يوم منه
يعدل صيام سنة وقيام ليلة منه تعدل قيام ليلة القدر قيل ولا الجهاد فى سبيل الله
قال ولا الجهاد الا من عقر جواده واهريق دمه واما ما يتكرر فى الشهر فاول
الشهر واوسطه واخره ووسطه الايام البيض واما فى الاسبوع فالاثنين والخميس
والجمعة فهذه هى الايام الفاضلة فيستحب فيها الصيام وتكثير الخيرات لتضاعف اجرها ببركة
هذه الاوقات **واما صوم الدهر** فانه شامل للكل وزيادة وللسالكين فيه طرق
فمنهم من كره ذلك اذ وردت اخبار تدل على كراهة والصحيح انه انما يكره لشيئين احدهما
ان لا يفطر فى العيدين وايام التشريق فهو الدهر كله والاخر ان يرغب عن السنة فى
الافطار ويجعل الصوم حجرا على نفسه مع ان الله تعالى يحب ان تؤتى رخصه فاذا
لم يكن شى من ذلك وراى صلاح نفسه فى صوم الدهر فليفعل ذلك فقد فعله جماعة
من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابو موسى الاشعرى
من صام الدهر كله ضيقت عليه جهنم وعقد تسعين معناه لم يكن له فيها موضع ودونه
درجة اخرى وهو صوم نصف الدهر بان يصوم يوما ويفطر يوما وذلك اشد
على النفس واقوى فى قهرها وقد ورد فى فضله اخبار لان العبد فيه بين صوم يوم
وشكر يوم فقد قال صلى الله عليه وسلم عرضت على مفاتيح خزاين الدنيا وكنوز الارض فرددتها
وقلت اجوع يوما واشبع يوما احمدك اذا شبعت واتضرع اليك اذا جعت وقال صلى الله عليه وسلم افضل
الصيام صوم اخى داود كان يصوم يوما ويفطر يوما ومن ذلك منازلته صلى الله عليه وسلم لعبد الله
بن عمرو فى الصوم وهو يقول انى اطيق افضل من ذلك فقال صلى الله عليه وسلم صم يوما وافطر يوما فقال
انى اريد افضل من ذلك فقال لا افضل من ذلك وقد روى انه صلى الله عليه وسلم ما صام شهرا كاملا قط
الا رمضان بل كان يفطر منه ومن لا يقدر على صوم نصف الدهر فلا باس بثلثه وهو ان
يصوم يوما ويفطر يومين واذا صام ثلثة من اول الشهر وثلثة من الوسط
وثلثة من الاخر فهو ثلث وواقع فى الاوقات الفاضلة وان صام الاثنين والخميس
والجمعة فهو قريب من الثلث واذا ظهرت اوقات الفضيلة فالكمال فى ان يفهم الانسان
معنى الصوم وان مقصوده تصفية القلب وتفريغ الهم لله والفقيه بدقايق الباطن
ينظر الى احواله فقد يقتضى حاله دوام الصوم وقد يقتضى دوام الفطر وقد يقتضى مزج الافطار

[illegible] نهايه

بالصوم فاذا فهم المعنى وتحقق حده في سلوك طريق الاخرة بمراقبة القلب لم يخف عليه
صلاح قلبه وذلك لا يوجب ترتيبا مستمرا ولذلك روي انه صلى الله عليه وسلم كان يصوم حتى يقال
لا يفطر ويفطر حتى يقال لا يصوم وينام حتى يقال لا يقوم ويقوم حتى يقال لا ينام
كان ذلك بحسب ما ينكشف له بنور النبوة من القيام بحقوق الاوقات وقد كره العلماء ان
يوالي بين الافطار اكثر من اربعة ايام تقديرا بيوم العيد وايام التشريق وذكروا ان ذلك
يقسي القلب ويولد ردي العادات ويفتح ابواب الشهوات ولعمري هو كذلك في حق اكثر
الخلق لا سيما من ياكل في اليوم والليلة مرتين فهذا ما اردنا ذكره من ترتيب الصوم المتطوع
به والله اعلم

كتاب اسرار الحج ومهماته وهو الكتاب

ذكر رحمه الله في بيان فضيلة
البيت ومكة احاديث كثيرة من جملتها قال رحمه الله وفي الخبر ان الحجر ياقوتة من يواقيت الجنة
وانه يبعث يوم القيمة له عينان ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق وصدق وكان صلى الله عليه وسلم
يقبله كثيرا وروي انه عليه السلام سجد عليه وكان يطوف على الراحلة فيضع المحجن عليه ثم
يقبل طرف المحجن وقبله عمر ثم قال اني لاعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا اني رايت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك لما قبلتك ثم بكى حتى علا نشيجه فالتفت الى ورائه فراى عليا عليه السلام
فقال يا ابا الحسن ههنا تسكب العبرات فقال علي يا امير المؤمنين بل يضر وينفع قال وكيف
قال ان الله تعالى لما اخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتابا ثم القمه هذا الحجر فهو يشهد
للمؤمن بالوفا ويشهد على الكافر بالجحود قيل فذلك هو معنى قول الناس عند الاستلام
اللهم ايمانا بك وتصديقا بكتابك ووفاء بعهدك ثم قال رحمه الله ويقال لا تغرب
الشمس من يوم الا يطوف بهذا البيت رجل من الابدال ولا يطلع الفجر من ليلة الا طاف
به واحد من الاوتاد واذا انقطع ذلك كان سبب رفعه من الارض فيصبح الناس وقد رفعت
الكعبة لا يرى لها اثر وهذا اذا اتى عليها سبع سنين لم يحجها احد ثم يرفع القرآن من المصاحف
فيصبح الناس فاذا الورق ابيض يلوح ليس فيه حرف ثم ينسخ القرآن من القلوب فلا يذكر
منه كلمة ثم يرجع الناس الى الاشعار والاغاني واخبار الجاهلية ثم يخرج الدجال وينزل عيسى
فيقتله والساعة عند ذلك بمنزلة الحامل المقرب تتوقع ولادها وفي الخبر استكثروا من
الطواف بهذا البيت قبل ان يرفع فقد هدم مرتين ويرفع في الثالثة وروي عن علي عليه السلام
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال قال الله تعالى اذا اردت ان اخرب الدنيا بدات ببيتي فخربته ثم اخرب

الدنيا على اثره قال رحمه الله في فضيلة المدينة وسائر البلاد ما بعد مكة بقعة
افضل من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فالاعمال فيها ايضا تتضاعف قال صلى الله عليه وسلم صلوة في
مسجدي هذا خير من الف صلوة فيما سواه الا المسجد الحرام وكذلك كل عمل بالمدينة
بالف وبعدها المدينة الارض المقدسة فان الصلوة فيها بخمسمائة وكذا سائر الاعمال في
ذكر امثال ذلك ثم قال وما بعد هذه البقاع الثلث فالمواضع فيها متساوية الا الثغور
فان المقام بها للمرابطة فيه فضل عظيم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لا تشد الرحال الا الى ثلثة مساجد المسجد
الحرام ومسجدي هذا والمسجد الاقصى وقد ذهب بعض العلماء الى الاستدلال بهذا الخبر
في المنع من الرحلة لزيارة المشاهد وقبور العلماء والصلحاء وما تبين لي ان الامر كذلك
بل الزيارة مامور بها قال صلى الله عليه وسلم كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها والحديث انما ورد
في المساجد وليس في معناها المشاهد لان المساجد بعد المساجد الثلثة متماثلة ولا بلد
الا وفيها مسجد فلا معنى للرحلة الى مسجد اخر واما المشاهد فلا تتساوى بل بركة زيارتها
على قدر درجاتهم عند الله تعالى ثم قال رحمه الله هذا في الرحلة اما المقام فالاولى بالمريد ان
لا يلازم مكانا اذا لم يكن قصده من السفر استفادة العلم مهما سلم له حاله في وطنه فان لم
يسلم فليطلب من المواضع ما هو اقرب الى الخمول واسلم للدين وافرغ للقلب وايسر للعبادة
فهو افضل المواضع له قال صلى الله عليه وسلم البلاد بلاد الله والعباد عباده فاي موضع رايت فيه رفقا
فاقم واحمد الله تعالى وفي الخبر من رزق من شيء فليلزمه ومن جعلت معيشته في شيء فلا
ينتقل عنه حتى يتغير عليه وقال ابو نعيم رايت الثوري الخ وفي حكاية اخرى بلغني
قرية فيها رخص اقيم بها قال فقلت وتفعل هذا يا ابا عبد الله قال نعم اذا سمعت ببلد
فاقصده فانه اسلم لدينك واقل لهمك وكان يقول هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على
الخاملين فكيف بالمشهورين هذا زمان النقل ينتقل الانسان من قرية الى قرية يفر بدينه
من الفتن وقال لرجل عزمت على المجاورة بمكة فقال اوصيك بثلث لا تصلين
في الصف الاول ولا تصحبن قرشيا ولا تظهرن صدقة وانما كره الصف الاول لانه
يشتهر فيفتقد اذا غاب فيختلط بعمله التزين والتصنع قال رحمه الله بعد الحمد والصلوة
على حقية الامر وجعله مرتبا على ثلثة ابواب الباب الاول في فضائلها وفضائل مكة
البيت العتيق وفضيلة المدينة وجمل اركانها وشرائط وجوبها وبعد ذكر الفضائل على الا

عليه ذكر فضيلة المقام بمكة وكراهته قال رحمه الله كره الخائفون المحتاطون من العلماء
المقام بمكة لمعان ثلثة احدها خوف التبرم والانس بالبيت فان ذلك ربما يؤثر في
تسكين حرقة القلب في الاحترام الثاني تهييج الشوق بالمفارقة لتنبعث داعية العود
فان الله تعالى جعل البيت مثابة للناس اي يثوبون ويعودون اليه مرة بعد اخرى ولا
يقضون منه وطرا وقال بعضهم تكون في بلد وقلبك مشتاق الى مكة متعلق بهذا البيت خير
لك من ان تكون فيه وانت متبرم بالمقام وقلبك في بلد اخر وقيل ان لله تعالى عبادا تطوف
بهم الكعبة تقربا الى الله عز وجل الثالث الخوف من ركوب الخطايا والذنوب بها فان
ذلك محظور وبالحري ان يورث مقت الله لشرف الموضع وروي عن وهيب بن الورد المكي قال
كنت ذات ليلة في الحجر اصلي فسمعت كلاما بين الكعبة والاستار يقول الى الله تعالى اشكو ثم
اليك يا جبريل ما القى من الطائفين حولي من تفكرهم في الحديث ولغوهم ولهوهم لئن لم
ينتهوا عن ذلك لانتفضن انتفاضة يرجع كل حجر مني الى الجبل الذي قطع منه وقال
ابن مسعود ما من بلد يؤاخذ العبد فيه بالهمة قبل العمل الا مكة وتلا قوله تعالى ومن يرد فيه
بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم اي انه على مجرد الارادة ويقال ان السيئات تضاعف بها كما
تضاعف الحسنات ثم ذكر رحمه الله شرائط وجوب الحج واركانه وواجباته ومحظوراته على التفصيل ثم
اعقبها بالباب الثاني في بيان ترتيب الاعمال الظاهرة من اول السفر الى الرجوع ثم ذكر الباب
الثالث في بيان الاداب الدقيقة والاعمال الباطنة قال رحمه الله وهي عشرة الاول
ان يكون النفقة حلالا وتكون اليد خالية من تجارة تشغل القلب وتفرق الهم حتى
يكون الهم مجردا لله والقلب مطمئنا منصرفا الى ذكر الله وتعظيم شعائره وقد روي في خبر
من طريق اهل البيت اذا كان اخر الزمان خرج الناس للحج اربعة اصناف سلاطينهم للنزهة
واغنياؤهم للتجارة وفقراؤهم للمسالة وقراؤهم للسمعة وفي الخبر اشارة الى جملة اغراض
الدنيا التي يتصور ان تتصل بالحج فكل ذلك مما يمنع فضيلة الحج ويخرجه عن حيز حج
الخصوص لا سيما اذا كان متجردا بنفس الحج بان يحج لغيره باجرة فيطلب الدنيا بعمل
الاخرة وقد كره الورعون وارباب القلوب ذلك الا ان يكون قصده المقام
بمكة ولم يكن له ما يبلغه فلا باس ان ياخذ ذلك على هذا القصد لا ليتوصل بالدين
الى الدنيا بل بالدنيا الى الدين وعند ذلك فينبغي ان يكون قصده زيارة بيت الله

بيت الله ومعاونة اخيه المسلم باسقاط الفرض عنه وفي مثله ينزل قوله صلى الله عليه وسلم يدخل
الله بالحجة الواحدة ثلثة الجنة الموصي بها والمنفذ لها ومن حج بها عن اخيه ولست
اقول لا تحل الاجرة او يحرم ذلك بعد ان اسقط فرض الاسلام عن نفسه ولكن
الاولى ان لا يفعل ولا يتخذ ذلك مكسبه ومتجره فان الله يعطي الدنيا بالدين ولا يعطي
الدين بالدنيا وفي الخبر مثل الذي يغزو في سبيل الله ويأخذ اجرا مثل ام موسى
ترضع ولدها وتاخذ اجرها فمن كان مثاله في اخذ الاجرة على الحج مثال ام موسى
فلا باس باخذه فانه ياخذ ليتمكن من الحج والزيارة فيه وليس يحج لياخذ الاجرة كما
ام موسى تاخذ الثاني ان لا يعاون اعداء الله بتسليم المكس وهم الصادون عن
المسجد الحرام من امراء مكة والاعراب المترصدين في الطريق فان تسليم المال اليهم اعانة
على الظلم وتيسير لاسبابه عليهم فهو كالاعانة بالنفس فليتلطف في حيلة الخلاص فان
لم يقدر فقد قال بعض العلماء ولا باس بما قاله ان ترك التنفل بالحج والرجوع عن الطريق
افضل من اعانة الظلمة فان هذه بدعة احدثت وفي الانقياد لها ما يجعلها سنة مطردة
وفيه ذل وصغار على المسلمين ببذل جزية ولا معنى لقول القائل ان ذلك يؤخذ مني
وانا مضطر فانه لو قعد في البيت او رجع من الطريق لم يؤخذ منه شيء بل ربما يظهر اسباب
الترفه فيكثر مطالبته ولو كان في زي الفقراء لم يطالب فهو الذي ساق نفسه الى
حالة الاضطرار الثالث التوسع في الزاد وطيب النفس بالبذل والانفاق من غير
تقتير ولا اسراف بل على الاقتصاد واعني بالاسراف التنعم باطايب الاطعمة والترفه
بشرب انواعها على عادة المترفين فاما كثرة البذل فلا سرف فيه اذ لا خير في السرف
ولا سرف في الخير كما قيل وبذل الزاد في طريق الحج نفقة في سبيل الله والدرهم بسبعمائة
درهم واورد رحمه الله لذلك احاديث الرابع ترك الرفث والفسوق والجدال كما
نطق به القران والرفث اسم جامع لكل لغو وفحش من الكلام ويدخل فيه
مغازلة النساء ومداعبتهن والتحدث بشان الجماع ومقدماته فان ذلك يهيج داعية
الجماع المحظور والداعي الى المحظور محظور والفسوق اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله
والجدال هو المبالغة في الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن ويفرق في الحال الهمة
ويناقض حسن الخلق وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم طيب الكلام مع اطعام الطعام من بر الحج

[illegible]

والمماراة بما ينغص طيب الكلام فلا ينبغي ان يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجماله وعلى
غيرهم من اصحابه بل يلين جانبه ويخفض جناحه للسائرين الى بيت الله ويلزم حسن
الخلق وليس حسن الخلق كف الاذى بل احتمال الاذى وقيل سمي السفر سفرا لانه يسفر
عن اخلاق الرجال الخامس ان يحج ماشيا ان قدر عليه فذلك افضل اوصى عبد الله
بن عباس بنيه عند موته فقال يا بني حجوا مشاة فان للحاج الماشي بكل خطوة يخطوها
سبعمائة حسنة من حسنات الحرم قيل وما حسنات الحرم قال الحسنة بمائة الف والاستحباب
في المشي في المناسك والتردد من مكة الى الموقف والى منى آكد منه في الطريق وقال بعض
العلماء الركوب افضل لما فيه من الانفاق والمؤنة ولانه ابعد من ضجر النفس واقل لأذاه
واقرب الى سلامته وتمام حجه وهذا عند التحقيق ليس مخالفا للاول بل ينبغي ان يفصل
فيقال من سهل عليه المشي فهو افضل فان كان يضعف ويؤدي ذلك به الى سوء الخلق وقصور
عن عمل فالركوب له افضل السادس ان لا يركب الا زاملة اما المحمل فليجتنبه الا لعذر وفيه
مع التخفيف عن البعير اجتناب زي المترفهين والمتكبرين حج رسول الله صلى الله عليه وسلم
على راحلة وكان تحته رحل رث وقطيفة خلقة قيمتها اربعة دراهم وطاف على الراحلة
لينظر الناس الى هديه وشمائله وقال خذوا عني مناسككم وقيل ان هذه المحامل
احدثها الحجاج وكان العلماء في وقته ينكرونها السابع ان يكون رث الهيئة اشعث
اغبر غير مستكثر من الزينة ولا مائل الى اسباب التفاخر والتكاثر فيكتب من المتكبرين
والمترفهين ويخرج من حزب الضعفاء والمساكين وخصوص الصالحين فقد امر بالشعث

والاحتفاء ونهى عن التنعم والرفاهية في حديث فضالة ابن عبيد وقال الله تعالى ثم ليقضوا تفثهم والتفث الشعث صح

والاغبرار متقنعا بالحلق وقص الاظفار الثامن ان يرفق بالدابة ولا يحملها ما لا
يطيق والمحمل خارج عن حد طاقتها والنوم عليها يؤذيها ويثقل عليها كان اهل الورع
لا ينامون على الدواب الا غفوة عن قعود وكانوا لا يقفون عليها الوقوف الطويل
قال صلى الله عليه وسلم لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي ويستحب ان ينزل عن دابته غدوة وعشية يروحها
بذلك فهو سنة وفيه آثار عن السلف قال ابو الدرداء لبعيره عند الموت يا ايها البعير
لا تخاصمني الى ربك فاني لم اكن احملك فوق طاقتك وعلى الجملة ففي كل كبد حرى اجر
فليراع حق الدابة وحق المكاري جميعا التاسع ان يتقرب باراقة دم وان لم يكن واجبا
عليه ويجتهد ان يكون من سمين النعم ونفيسه العاشر ان يكون طيب النفس بما انفقه

من نفقة وهدي وبما اصابه من خسران ومصيبة في مال او بدن ان اصابه ذلك
فان ذلك من دلائل قبول حجه فان المصيبة في طريق الحج تعدل النفقة في سبيل الله الدرهم
بسبعمائة درهم وهو بمثابة الشدائد في طريق الجهاد فله بكل اذى احتمله وخسران اصابه ثواب
فلا يضيع شيء منه عند الله تعالى ويقال ان من علامة قبول الحج ايضا ترك ما كان عليه من
المعاصي وان يستبدل باخوانه البطالين اخوانا صالحين وبمجالس اللهو والغفلة
مجالس الذكر واليقظة بيان الاعمال الباطنة ووجه الاخلاص في النية وطريق
الاعتبار بالمشاهد الشريفة وكيفية الافتكار فيها والتذكر لاسرارها ومعانيها من
اول الحج الى آخره اعلم ان اول الحج الفهم اعني فهم موقع الحج من الدين ثم الشوق اليه
ثم العزم عليه ثم قطع العلائق المانعة منه ثم شراء ثوب الاحرام ثم شراء الزاد ثم الكراء
الراحلة ثم الخروج ثم المسير في البادية ثم الاحرام من الميقات بالتلبية مع النية ثم دخول
مكة ثم استتمام الافعال كما سبق وفي كل واحد من هذه الامور تذكرة للمتذكر وعبرة
للمعتبر وتنبيه للمريد الصادق وتعريف واشارة للفطن فلنرمز الى مفاتحها حتى اذا
انفتح بابها وعرفت اسبابها انكشف لكل حاج من اسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه وطهارة
باطنه وغزارة علمه اما الفهم اعلم انه لا وصول الى الله سبحانه الا بالتنزه عن الشهوات
والكف عن اللذات والاقتصار على الضرورات فيها والتجرد لله سبحانه في جميع الحركات
والسكنات ولاجل هذا انفرد الرهبانيون في الملل السالفة عن الخلق وانحازوا الى قلل الجبال
وآثروا التوحش عن الخلق لطلب الانس بالله فتركوا لله اللذات الحاضرة والزموا انفسهم
المجاهدات الشاقة طمعا في الآخرة واثنى الله عليهم في كتابه فقال ذلك بان منهم قسيسين
ورهبانا وانهم لا يستكبرون فلما اندرس ذلك واقبل الخلق على اتباع الشهوات وهجروا التجرد
لعبادة الله وفتروا عنها بعث الله سبحانه وتعالى محمدا صلى الله عليه وآله وسلم لاحياء
طريق الآخرة وتجديد سنة المرسلين في سلوكها فسأله اهل الملل عن الرهبانية والسياحة
في دينه فقال صلى الله عليه وآله وسلم ابدلنا بها الجهاد والتكبير على كل شرف يعني الحج وسئل
عن السائحين فقال هم الصائمون فانعم الله سبحانه على هذه الامة بان جعل الحج رهبانية
لهم فشرف البيت العتيق بالاضافة الى نفسه ونصبه مقصدا لعباده وجعل ما حوله حرما
لبيته تفخيما لامره وجعل عرفات كالميدان على فناء حرمه واكد حرمة الموضع بتحريم صيده

ووضعه على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فج عميق ومن كل اوب سحيق شعثا
غبرا متواضعين لرب البيت ومستكينين له خضوعا لجلاله واستكانة لعزته مع الاعتراف
بتنزيهه عن ان يحويه بيت او يكتنفه بلد ليكون ذلك ابلغ في رقهم وعبوديتهم واتم في
اذعانهم وانقيادهم ولذلك وظف عليهم فيها اعمالا لا تانس بها النفوس ولا تهتدي الى
معانيها العقول كرمي الجمار بالاحجار والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار وبمثل هذه
الاعمال يظهر كمال الرق والعبودية فان الزكوة ارفاق ووجهه مفهوم وللعقل اليه ميل و
الصوم كسر للشهوة التي هي آلة عدو الله وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل والركوع والسجود
في الصلوة تواضع لله سبحانه بافعال هي هيئة التواضع وللنفوس انس بتعظيم الله سبحانه
فاما ترددات السعي ورمي الجمار وامثال هذه الاعمال فلا حظ للنفس فيها ولا انس
للطبع بها ولا اهتداء للعقل الى معانيها فلا يكون في الاقدام عليها باعث الا الامر المجرد و
قصد الامتثال للامر من حيث انه امر واجب الاتباع فقط وفيه عزل للعقل عن تصرفه وصرف
النفس والطبع عن محل انسه فان كل ما ادرك العقل معناه مال الطبع اليه ميلا ما فيكون
ذلك الميل معينا للامر وباعثا معه على الفعل فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد ولذلك
قال صلى الله عليه وسلم في الحج على الخصوص لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا ولم يقل ذلك في صلوة
وغيرها واذا اقتضت حكمة الله تعالى ربط نجاة الخلق بان يكون اعمالهم على خلاف هوى
طباعهم وان يكون زمامها بيد الشرع فيترددون في اعمالهم على سنن الانقياد وعلى مقتضى
الاستعباد كان ما لا يهتدى الى معانيه ابلغ انواع التعبدات في تزكية النفوس وصرفها
عن مقتضى الطباع والاخلاق الى مقتضى الاسترقاق واذا تفطنت لهذا فهمت ان تعجب النفوس
من هذه الافعال العجيبة مصدره الذهول عن اسرار التعبدات وهذا القدر كاف في
تفهم اصل الحج **واما الشوق** فانما ينبعث بعد الفهم والتحقق بان البيت بيت الله وانه
وضع على مثال حضرة الملوك فقاصده قاصد الى الله تعالى وزائر له وان من قصد البيت في الدنيا
جدير بان لا يضيع زيارته فيرزق مقصود الزيارة في ميعاده المضروب له وهو النظر الى
وجه الله الكريم في دار القرار من حيث ان العين القاصرة الفانية في دار الدنيا لا تتهيا
لقبول نور النظر الى وجه الله ولا تطيق احتماله ولا تستعد للاكتحال به لقصورها وانها
ان امدت في الدار الاخرة بالبقاء ونزهت عن اسباب التغير والفناء استعدت للنظر

للنظر والابصار ولكنها بقصد البيت والنظر اليه تستحق لقاء رب البيت بحكم الوعد الكريم
والشوق الى لقاء الله يشوقه الى اسباب اللقاء لا محالة هذا مع ان المحب مشتاق الى كل ما له
الى محبوبه اضافة والبيت مضاف الى الله تعالى فبالحري ان يشتاق اليه لمجرد هذه الا
ضافة فضلا عن الطلب لنيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل **واما العزم** فليعلم انه بعزمه قاصد
الى مفارقة الاهل والوطن ومهاجرة الشهوات واللذات متوجها الى زيارة بيت الله
فليعظم في نفسه قدر البيت وقدر رب البيت وليعلم انه عزم على امر رفيع شانه خطير امره
وان من طلب عظيما خاطر بعظيم وليجعل عزمه خالصا لوجه الله بعيدا عن شوائب الريا
والسمعة وليتحقق انه لا يقبل من قصده وعمله الا الخالص وان من افحش الفواحش ان يقصد
بيت الملك وحرمه والمقصود غيره وليصحح مع نفسه العزم وتصحيحه باخلاصه واخلاصه
باجتناب كل ما فيه رياء وسمعة وليحذر ان يستبدل الذي هو ادنى بالذي هو خير
واما قطع العلائق فمعناه رد المظالم والتوبة الخالصة لله عن جملة المعاصي فكل مظلمة
علاقة وكل علاقة مثل غريم حاضر متعلق بتلابيبه ينادي عليه ويقول له الى اين تتوجه اتقصد
بيت ملك الملوك وانت مضيع امره في منزلك هذا ومستهين به ومهمل له اولا تستحيي من
ان تقدم عليه قدوم العبد العاصي فيردك ولا يقبلك فان كنت راغبا في قبول زيارتك
فنفذ اوامره ورد المظالم وتب اليه اولا من جميع المعاصي واقطع علاقة قلبك عن
الالتفات الى ما وراءك لتكون متوجها اليه بوجه قلبك كما انك متوجه الى بيته بوجه
ظاهرك فان لم تفعل ذلك لم يكن لك من سفرك اولا الا النصب والشقاء وآخرا الا الطرد
والرد وليقطع العلائق عن وطنه قطع من انقطع عنه وقدر ان لا يعود اليه وليكتب وصيته
لاولاده فان المسافر وماله لعلى قلت الا ما وقى الله وليتذكر عند قطعه العلائق لسفر
الحج قطع العلائق لسفر الآخرة فان ذلك بين يديه على القرب وما يقدمه من هذا السفر
طمع في تيسير ذلك السفر فهو المستقر واليه المصير فلا ينبغي ان يغفل عن ذلك السفر عند
الاستعداد لهذا السفر **واما الزاد** فليطلبه من موضع حلال واذا احس من نفسه الحرص
على استكثاره وطلب ما يبقى منه على طول السفر ولا يتغير ولا يفسد قبل بلوغ المقصد فليتذكر
ان سفر الآخرة اطول من هذا السفر وان زاده التقوى وان ما عداه مما يظن انه زاده
يتخلف عنه عند الموت ويخونه فلا يبقى معه كالطعام الرطب الذي يفسد في اول منازل

السفر فيبقى وقت الحاجة متحيرا محتاجا لا حيلة له فليحذر ان يكون اعماله التي هي زاده
الى الاخرة لا تصحبه بعد الموت بل يفسدها شوائب الريا وكدورات التقصير **وأما**
الراحلة اذا احضرها فليشكر الله سبحانه بقلبه على تسخير الله له الدواب لتحمل عنه
الاذى وتخفف عنه المشقة وليتذكر عنده المركب الذي يركبه الى الدار الاخرة وهي
الجنازة التي يحمل عليها فان امر الحج من وجه يوازي امر السفر الى الاخرة ولينظر أيصلح سفره
على هذا المركب لان يكون زادا لذلك السفر على ذلك المركب فما اقرب ذلك منه وما يدريه
لعل الموت قريب ويكون ركوبه للجنازة قبل ركوبه للجمل وركوب الجنازة مقطوع به
وتيسر اسباب السفر مشكوك فيه فكيف يحتاط في اسباب السفر المشكوك فيه ويستظهر
في زاده وراحلته ويهمل امر السفر المستيقن **وأما شراء ثوب الاحرام** فليتذكر عنده
الكفن ولفه فيه فانه سيرتدي ويتزر بثوبي الاحرام عند القرب من بيت الله وربما لا
يتم سفره اليه وانه سيلقى الله تعالى ملفوفا في ثياب الكفن لا محالة فكما لا يلقى بيت الله
الا مخالفا عادته في الزي والهيئة فلا يلقى الله بعد الموت الا في زي مخالف لزي
الدنيا وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب اذ ليس فيه مخيط ولا مخيط كما في الكفن
وأما الخروج من البلد فليعلم عنده انه فارق الاهل والوطن متوجها الى الله تعالى في سفر
لا يضاهي اسفار الدنيا فليحضر في قلبه انه ماذا يريد واين يتوجه وزيارة من يقصد وانه
متوجه الى ملك الملوك في زمرة الزائرين له الذين نودوا فاجابوا وشوقوا فاشتاقوا واستنهضوا فاستاقوا
فنهضوا وقطعوا العلائق وفارقوا الخلائق واقبلوا على بيت الله الذي فخم امره وعظم شأنه
ورفع قدره تسليا بلقاء البيت عن لقاء رب البيت الى ان يرزقوا منتهى مناهم ويسعدوا
بالنظر الى مولاهم وليحضر في قلبه رجاء الوصول والقبول لا ادلالا باعماله في الارتحال و
مفارقة الاهل والمال ولكن ثقة بفضل الله ورجاء لتحقيقه وعده لمن زار بيته وليرج
انه ان لم يصل وادركته المنية في الطريق لقي الله وافدا اليه اذ قال ومن يخرج
من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله **وأما دخول**
البادية الى الميقات ومشاهدة تلك العقبات فليتذكر فيها ما بين
الخروج من الدنيا بالموت الى ميقات القيمة وما بينهما من الاهوال والمطالبات وليتذكر
من هول قطاع الطريق هول سؤال منكر ونكير ومن سباع البوادي عقارب القبر وديدانه

وما فيه من الافاعي والحيات ومن انفراده عن اهله واقاربه وحشة القبر
وكربته ووحدته وليكن في هذه المخاوف في اعماله واقواله متزودا لمخاوف القبر
وأما الاحرام والتلبية من الميقات فليعلم ان معناه اجابة نداء الله تعالى فارج
ان يكون مقبولا واخش ان يقال لك لا لبيك ولا سعديك فكن بين الرجاء والخوف
مترددا وعن حولك وقوتك متبريا وعلى فضل الله وكرمه متكلا فان وقت التلبية
هو بداية الامر وهي محل الخطر قال سفين بن عيينة حج علي بن الحسين فلما احرم واستوت
به راحلته اصفر لونه وانتفض ووقعت عليه الرعدة ولم يستطع ان يلبي فقيل له لم
لا تلبي فقال اخشى ان يقول لي لا لبيك ولا سعديك فلما لبى غشي عليه وسقط عن
راحلته فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه وقال احمد بن ابي الحواري كنت مع ابي سليمان
الداراني حين اراد الاحرام فلم يلب حتى سرنا ميلا واخذته كالغشية ثم افاق وقال
يا احمد ان الله عز وجل اوحى الى موسى عليه السلم مر ظلمة بني اسرائيل ان يقلوا من
ذكري فاني اذكر من ذكرني منهم باللعنة ويحك يا احمد بلغني ان من حج من غير حله
ثم لبى قال الله عز وجل لا لبيك ولا سعديك حتى ترد ما في يديك فما نأمن ان
يقال لنا ذلك وليتذكر الملبي عند رفع الاصوات بالتلبية في الميقات اجابته
نداء الله تعالى اذ قال تعالى واذن في الناس بالحج نداء الخلق بنفخ الصور وحشرهم من
القبور وازدحامهم في عرصات القيمة مجيبين لنداء الله ومنقسمين الى مقربين
وممقوتين ومقبولين ومردودين ومترددين في اول الامر بين الخوف والرجا
تردد الحجاج في الميقات حيث لا يدرون ايتيسر لهم اتمام الحج وقبوله ام لا **وأما**
دخول مكة فليتذكر عنده انه قد انتهى الى حرم امن وليرج عنده ان يأمن
بدخوله من عقاب الله وليخش ان لا يكون اهلا للقرب فيكون بدخوله الحرم
خائبا مستحقا للمقت وليكن رجاؤه في جميع الاوقات غالبا فالكرم عميم وشرف
البيت عظيم وحق الزائر مرعي وذمام المستجير اللائذ غير مضيع **وأما وقوع البصر**
على البيت فينبغي ان يحضر عنده عظمة البيت في القلب ويقدر انك مشاهد لرب
البيت لشدة تعظيمك واشكر الله تعالى على تبليغه اياك هذه الرتبة والحاقه اياك
بزمرة الوافدين اليه واذكر عند ذلك انصباب الناس في القيمة الى جهة الجنة آملين

لدخولها كما فرقتهم انفسهم الى مأذون له في الدخول والى مصروف انقسام الحاج
الى مقبولين ومردودين ولا تغفل عن تذكر امور الآخرة في شيء مما تراه فان كل احوال
الحاج دليل على احوال الآخرة **وأما الطواف بالبيت** فاعلم انه صلاة فاحضر في قلبك
فيه من التعظيم والخوف والرجاء والمحبة ما فصلناه في كتاب الصلاة واعلم انك بالطواف
متشبه بالملائكة المقربين الحافين حول العرش الطائفين حوله ولا تظنن ان المقصود
طواف جسمك بالبيت بل المقصود طواف قلبك بذكر رب البيت حتى لا تبتدئ الذكر
الا منه ولا تختم الا به كما تبتدئ الطواف من البيت وتختم بالبيت واعلم ان الطواف
الشريف هو طواف القلب بحضرة الربوبية وان البيت مثال ظاهر في عالم الملك لتلك
الحضرة التي لا تشاهد بالبصر وهي في عالم الملكوت كما ان البدن مثال ظاهر في عالم
الشهادة للقلب الذي لا يشاهد بالبصر وهو في عالم الغيب وان عالم الملك و
الشهادة مدرجة الى عالم الغيب والملكوت لمن فتح له الباب والى هذه الموازنة وقعت
الاشارة بان البيت المعمور في السماء بازاء الكعبة وان طواف الملائكة به كطواف
الانس بهذا البيت ولما قصرت رتبة اكثر الخلق عن مثل ذلك الطواف امروا بالتشبه
بهم بحسب الامكان ووعدوا بان من تشبه بقوم فهو منهم والذي يقدر على ذلك
الطواف هو الذي يقال ان الكعبة تزوره وتطوف به على ما رآه بعض المكاشفين
لبعض اولياء الله تعالى **وأما الاستلام** فاعتقد عنده انك مبايع لله على طاعته
فصمم عزيمتك على الوفاء ببيعتك فمن غدر في المبايعة استحق المقت وقد روى
ابن عباس رضي الله عنهما انه قال الحجر يمين الله في الارض يصافح بها خلقه كما يصافح الرجل
اخاه **واما التعلق باستار الكعبة** والالتصاق بالملتزم فلتكن نيتك
في الالتزام طلب القرب حبا وشوقا الى البيت والى رب البيت وتبركا بالمماسة
ورجاء للتحصن عن النار في كل جزء لا في البيت ولتكن نيتك في التعلق بالستر
الالحاح في طلب المغفرة وسؤال الامان كالمذنب المتعلق بثياب من اذنب اليه
المتضرع اليه في عفوه عنه المظهر له انه لا ملجأ له الا اليه ولا مفزع له الا عفوه
وكرمه وانه لا يفارقه الا بالعفو وبذل الامن في المستقبل **واما السعي
بين الصفا والمروة** في فناء البيت فانه يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك جائيا

جائيا وذاهبا مرة بعد اخرى اظهارا للخلوص في الخدمة ورجاء للملاحظة بعين
الرحمة كالذي دخل على الملك وخرج وهو لا يدري ما الذي يقضي به الملك في
حقه من قبول او رد فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد اخرى يرجو ان يرحم في الثانية ان لم يرحم
في الاولى وليتذكر عند تردده بين الصفا والمروة تردده بين كفتي الميزان في
عرصات القيامة وليمثل الصفا بكفة الحسنات والمروة بكفة السيئات وليتذكر
تردده بين الكفتين ناظرا الى الرجحان والنقصان مترددا بين العذاب والغفران
واما الوقوف بعرفة فاذكر بما ترى من ازدحام الخلق وارتفاع الاصوات
واختلاف اللغات واتباع الفرق ائمتهم في الترددات على المشاعر اقتفاء بهم و
سيرا بسيرتهم عرصات القيامة واجتماع الامم مع الانبياء والائمة واقتفاء كل امة
نبيها وطمعهم في شفاعتهم وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول
واذا تذكرت ذلك فالزم قلبك الضراعة والابتهال الى الله تعالى لتحشر في زمرة الفائزين
المرحومين وحقق رجاءك بالاجابة فالموقف شريف فالرحمة انما تصل من حضرة
الجلال الى كافة الخلائق بواسطة القلوب العزيزة من اوتاد الارض ولا ينفك
الموقف عن طبقة من الابدال والاوتاد وطبقات من الصالحين وارباب القلوب
فاذا اجتمعت هممهم وتجردت للضراعة والابتهال قلوبهم وارتفعت الى الله ايديهم
وامتدت اليه اعناقهم وشخصت نحو السماء ابصارهم مجتمعين بهمة واحدة
على طلب الرحمة فلا تظنن انه يخيب املهم ويضيع سعيهم ويدخر عنهم رحمة تغمرهم
ولذلك قيل ان من اعظم الذنوب ان يحضر عرفات ويظن ان الله لم يغفر له
كان اجتماع الهمم والاستظهار بمجاورة الابدال والاوتاد المجتمعين من اقطار البلاد
هو سر الحج وغاية مقصوده فلا طريق في استدرار رحمة الله مثل اجتماع الهمم
وتعاون القلوب في وقت واحد على صعيد واحد **واما رمي الجمار** فاقصد به
الانقياد للامر اظهارا للرق والعبودية وانتهاضا لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل
والنفس ثم اقصد به التشبه بابراهيم صلوات الله عليه حيث عرض له ابليس في ذلك
الموضع ليدخل على حجه شبهة او يفتنه بمعصية فامره الله تعالى ان يرميه بالحجارة
طردا له وقطعا لامله فان خطر لك ان الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه

وأما أنا فليس يعرض لي الشيطان فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان وأنه الذي ألقاه
في قلبك ليفتر عزمك في الرمي ويخيل إليك أنه فعل لا فائدة فيه وأنه يضاهي اللعب
فلم تشتغل به فاطرده عن نفسك بالجد والتشمير في الرمي فيه برغم أنف الشيطان واعلم
أنك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان وتقصم
ظهره إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله تعالى تعظيماً له بمجرد الأمر من غير حظ
للنفس والعقل فيه وأما ذبح الهدي فاعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال فأكمل
الهدي وأجزاءه وارج أن يعتق الله بكل جزء منه جزءاً منك من النار فهكذا ورد الوعد
فكلما كان الهدي أكبر وأجزاؤه أوفر كان فداؤك به من النار أعم وأما زيارة
المدينة فإذا وقع بصرك على حيطانها فتذكر أنها البلدة التي اختارها الله عز وجل
لنبيه عليه السلام وجعل إليها هجرته وأنها داره التي فيها شرع فرائض الله وسننه وجاهد
عدوه وأظهر بها دينه إلى أن توفاه الله عز وجل ثم جعل تربته فيها ثم مثل في نفسك
مواقع أقدام رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ترددك فيها وأنه ما من موضع قدم تطؤه إلا وهو موضع
قدمه العزيز فلا تضع قدمك عليه إلا على سكينة ووجل وتذكر مشيه وتخطيه
في سككها وتصور خشوعه وسكينته في المشي وما استودع الله قلبه من عظيم معرفته و
رفعة ذكره مع ذكره حتى قرنه بذكر نفسه وإحباطه عمل من هتك حرمته ولو برفع صوته
فوق صوته ثم تذكر ما من الله به على الذين أدركوا صحبته وسعدوا بمشاهدته واستماع
كلامه وأعظم تأسفك على ما فاتك من صحبته وصحبة أصحابه رضي الله عنهم ثم اذكر أنه
قد فاتتك رؤيته في الدنيا وأنك من رؤيته في الآخرة على خطر وأنك ربما لا تراه إلا بحسرة
وقد حيل بينك وبين قبوله إياك بسوء عملك كما قال صلى الله عليه وآله وسلم يرفع الله إلي
أقوام فيقولون يا محمد يا محمد فأقول يا رب أصحابي فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا
بعدك فأقول بعداً وسحقاً فإن تركت حرمة شريعته ولو في دقيقة من الدقائق فلا
تأمن أن يحال بينك وبينه بعدولك عن محجته وليعظم مع ذلك رجاؤك أن لا
يحول بينك وبينه بعد أن رزقك الإيمان وأشخصك من وطنك لأجل زيارته من غير تجارة
ولا حظ في دنيا بل لمحض حبك له وشوقك إلى أن تنظر إلى آثاره وإلى حائط قبره إذ سمحت
نفسك بالسفر لمجرد ذلك لما فاتتك رؤيته فما أجدرك بأن ينظر الله إليك بعين الرحمة

فإذا بلغت المسجد فاذكر أنها العرصة التي اختارها الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه
وآله وسلم ولأول المسلمين وأفضلهم عصابة وأن فرائض الله عز وجل أول ما أقيمت في
تلك العرصة وأنها جمعت أفضل خلق الله حياً وميتاً فليعظم أملك في الله عز وجل أن يرحمك
بدخولك إياه فادخله خاشعاً معظماً وما أجدر هذا المكان بأن يستدعي الخشوع من
قلب كل مؤمن وأما زيارة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فينبغي أن تقف بين يديه
كما وصفنا وتزوره ميتاً كما تزوره حياً ولا تقرب من قبره إلا كما كنت تقرب من شخصه
الكريم لو كان حياً وكما كنت ترى الحرمة في أن لا تمس شخصه ولا تقبله بل تقف من بعد ماثلاً
بين يديه فكذلك فافعل فإن المس والتقبيل للمشاهد عادة اليهود والنصارى واعلم
أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك وأنه يبلغه سلامك وصلاتك فمثل صورته
الكريمة في خيالك موضوعاً في اللحد بإزائك وأحضر عظيم رتبته في قلبك فقد روي
عنه أن الله تعالى وكل بقبره ملكاً يبلغه سلام من سلم عليه من أمته هذا
في حق من لم يحضر قبره فكيف بمن فارق الوطن وقطع البوادي شوقاً إلى لقائه واكتفى بمشاهدة
مشهده الكريم إذ فاته مشاهدة غرته الكريمة وقد قال صلى الله عليه وسلم من صلى علي مرة صلى الله عليه عشراً
فهذا جزاؤه في الصلاة عليه بلسانه فكيف بالحضور لزيارته ببدنه ثم ائت منبر الرسول صلى
الله عليه وآله وتوهم صعود النبي المنبر ومثل في قلبك طلعته البهية قائماً على المنبر وقد
أحدق به المهاجرون والأنصار وهو يحثهم على طاعة الله بخطبته وسل الله أن لا يفرق
في القيامة بينك وبينه فهذه وظيفة القلب في أعمال الحج فإذا فرغ منها كلها فينبغي أن يلزم قلبه
الهم والحزن والخوف فإنه ليس يدري أقبل منه حجه وأثبت في زمرة المحبوبين أم رد حجه
وألحق بالمطرودين وليتعرف ذلك من قلبه ومن أعماله فإن صادف قلبه قد ازداد تجافياً
عن دار الغرور وانصرافاً إلى دار الأنس بالله تعالى ووجد أعماله قد اتزنت بميزان الشرع فليثق
بالقبول فإن الله لا يقبل إلا من أحبه ومن أحبه تولاه وأظهر عليه آثار محبته وكف عنه سطوة
عدوه إبليس فإذا ظهر ذلك عليه دل على القبول وإن كان الأمر بخلافه فيوشك أن يكون
حظه من سفره العناء والتعب نعوذ بالله من ذلك آخر كتاب الحج ملخصاً وذكرته رحمه الله
في كتاب آداب تلاوة القرآن وفيه أربعة أبواب الباب الأول في فضيلة القرآن
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما

ما أعطى الله. وقال صلى الله عليه وسلم ما من شفيع أفضل منزلة عند الله يوم القيامة من القرآن لا نبي ولا ملك
ولا غيره. وقال صلى الله عليه وسلم لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار. وقال صلى الله عليه وسلم أفضل عبادة أمتي قراءة
القرآن. وقال أيضاً إن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق الخلق بألف عام فلما سمعت
الملائكة القرآن قالت طوبى لأمة ينزل عليهم هذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى
لألسنة تنطق بهذا. وقال صلى الله عليه وسلم خيركم من تعلم القرآن وعلمه. وقال أهل القرآن أهل
الله وخاصته. وقال إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد فقيل يا رسول الله فما جلاؤها
قال تلاوة القرآن وذكر الموت. وقال صلى الله عليه وسلم لله أشد أذناً إلى قارئ القرآن من صاحب القينة
إلى قينته. وذكر رحمه الله كثيراً من الآثار ومن جملتها قول من قال من قرأ القرآن فكأنما
أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه وقوله ... في الحفظ ...
البلغم السواك والصيام وقراءة القرآن. في ذم تلاوة الغافلين قال أنس بن مالك
رب تال للقرآن والقرآن يلعنه. قال ميسرة الغريب هو القرآن في جوف الفاجر. وقال أبو سليمان
الداراني الزبانية أسرع إلى حملة القرآن الذين يعصون الله منهم إلى عبدة الأوثان
حين عصوا الله بعد القرآن. وقال ابن مسعود ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا
الناس نائمون وبنهاره إذا الناس مفطرون وبحزنه إذا الناس يفرحون وببكائه إذا
الناس يضحكون وبصمته إذا الناس يخوضون وبخشوعه إذا الناس يختالون وينبغي
لحامل القرآن أن يكون مستكيناً ليناً ولا ينبغي له أن يكون جافياً ولا ممارياً ولا صياحاً
ولا صخاباً ولا حديداً. وقال صلى الله عليه وسلم أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها. وقد ورد في التوراة
يا عبدي أما تستحي مني يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشي فتعدل
عن الطريق وتقعد لأجله وتقرأه وتتدبره حرفاً حرفاً حتى لا يفوتك شيء منه وهذا
كتابي أنزلته إليك انظر كم فصلت لك فيه من القول وكم كررت عليك فيه لتتأمل
طوله وعرضه ثم أنت معرض عنه أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك يا عبدي
يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك وتصغي إلى حديثه بكل قلبك فإن تكلم
متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأت إليه أن كف وها أنا ذا مقبل عليك ومحدث لك
وأنت معرض بقلبك عني أفجعلتني أهون عندك من بعض إخوانك. وذكر
رحمه الله في الباب الثاني في آداب التلاوة الظاهرة وهي عشرة أمور الأول في حال

القارئ وهو أن يكون على الوضوء واقفاً على هيئة الأدب والسكون إما قائماً
وإما جالساً مستقبل القبلة مطرقاً رأسه غير متربع ولا متكئ ولا جالس على هيئة التكبر
ويكون جلوسه وحده كجلوسه بين يدي أستاذه. وأفضل الأحوال أن يقرأ في الصلاة
قائماً وأن يكون في المسجد فذلك من أفضل الأعمال وإن قرأ على غير وضوء وكان مضطجعاً
في الفراش فله أيضاً فضل ولكنه دون ذلك قال الله تعالى الذين يذكرون الله قياماً و
قعوداً وعلى جنوبهم فأثنى على الكل ولكن قدم القيام في الذكر ثم القعود ثم الذكر مضطجعاً
قال علي رضي الله عنه من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة ومن قرأ و
هو جالس في الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة ومن قرأه في غير صلاة وهو على وضوء
فخمس وعشرون حسنة ومن قرأ على غير وضوء فعشر حسنات وما كان من القيام بالليل
فهو أفضل لأنه أفرغ للقلب قال أبو ذر الغفاري إن كثرة السجود بالنهار وإن
طول القيام بالليل أفضل. الثاني في مقدار القراءة وللقراء عادات مختلفة في الاستكثار
والاختصار فمنهم من يختم في اليوم والليلة مرة وبعضهم مرتين وانتهى بعضهم إلى ثلاث
ومنهم من يختم في الشهر مرة والتفصيل في مقدار القراءة أنه إن كان من العابدين السالكين طريق
العمل فلا ينبغي أن ينقص عن ختمتين في الأسبوع وإن كان من السالكين بأعمال القلب
وضروب الفكر أو من المشتغلين بنشر العلم فلا بأس أن يقتصر في الأسبوع على مرة
وإن كان نافذ الفكر في معاني القرآن فقد يكتفي في الشهر بمرة لحاجته إلى كثرة الترديد
والتأمل. الثالث الترتيل هو المستحب في هيئة القراءة لأنا سنبين أن المقصود
من القراءة التفكر والترتيل معين عليه ولذلك نعتت أم سلمة قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم
فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً. وقال ابن عباس لأن أقرأ البقرة وآل عمران
أرتلهما وأتدبرهما أحب إلي من أن أقرأ القرآن كله هذرمة. وسئل مجاهد عن
رجلين دخلا في صلاة فكان قيامهما واحداً إلا أن أحدهما قرأ البقرة فقط
وقرأ الآخر القرآن كله فقال هما في الأجر سواء. واعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرد
التدبر فإن العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن يستحب له أيضاً في القراءة الترتيل و
التؤدة لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيراً في القلب من الهذرمة
والاستعجال. الرابع البكاء مستحب مع القراءة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

قراءة

اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وقال عليه السلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن
وقال صالح المري قرأت القرآن على رسول الله صلعم في المنام فقال لي يا صالح هذا
القرآن فاين البكاء وقال ابن عباس اذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود
حتى تبكوا فان لم تبك عين احدكم فليبك قلبه وانما طريق تكلف البكاء ان يحضر
قلبه الحزن فمن الحزن ينشأ البكاء قال صلعم ان القرآن نزل بحزن فاذا قرأتموه فتحازنوا
ووجه احضار الحزن ان يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ثم يتأمل تقصيره
في اوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي فان لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر ارباب
القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فان ذلك من اعظم المصائب الخامس
ان يراعي حق الآيات فاذا مر بآية سجود سجد وكذلك اذا سمع من غيره سجدة سجد اذا سجد التالي
ولا يسجد الا اذا كان على طهارة وفي القرآن اربع عشرة سجدة وفي الحج سجدتان وليس
في ص سجدة واقله ان يسجد بوضع جبهته على الارض واكمله ان يكبر فيسجد ويدعو في
سجوده بما يليق بالآية التي قرأها مثل ان يقرأ قوله تعالى خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم
وهم لا يستكبرون فيقول اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك واعوذ
بك ان اكون من المستكبرين عن امرك او على اوليائك واذا قرأ قوله ويخرون للاذقان
يبكون ويزيدهم خشوعا فليقل اللهم اجعلني من الباكين اليك الخاشعين لك وكذلك
في كل سجدة ويشترط في هذه السجدة شروط الصلوة من ستر العورة واستقبال القبلة
وطهارة الثوب والبدن من الحدث والخبث ومن لم يكن على طهارة عند السماع فاذا
تطهر سجد وقد قيل في كمالها انه يكبر رافعا يديه للتحريم ثم يكبر للارتفاع ثم يسلم وزاد
زايدون التشهد ولا اصل لهذا الا القياس على سجود الصلوة وهو بعيد فانه ورد
الامر بالسجود فليتبع فيه الامر وتكبيرة الهوي اقرب للبداية وما عدا ذلك ففيه
بعد السادس ان يقول في مبتدا قراءته اعوذ بالله السميع العليم من الشيطان
الرجيم رب اعوذ بك من همزات الشياطين واعوذ بك رب ان يحضرون وليقرأ
قل اعوذ برب الناس وسورة الحمد وليقل عند فراغه من كل سورة صدق الله
العظيم وبلغ رسوله الكريم اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه الحمد لله رب العالمين
واستغفر الله الحي القيوم وفي اثناء القراءة اذا مر بآية تسبيح سبح وكبر وان

وان مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر وان مر بمرجو سأل وان مر بمخوف
استعاذ يفعل ذلك بلسانه او بقلبه فيقول سبحان الله نعوذ بالله اللهم ارزقنا
اللهم ارحمنا قال حذيفة فصليت مع رسول الله صلعم الخ السابع في الجهر بالقراءة
ولا شك في انه لا بد ان يجهر به الى حد يسمع نفسه اذ القراءة عبارة عن تقطيع
الصوت بالحروف فلا بد من صوت واقله ما يسمع نفسه فان لم يسمع نفسه لم تصح
صلوته فاما الجهر بحيث يسمع غيره فهو محبوب على وجه ومكروه على وجه آخر ويدل
على استحباب الاسرار ما روي انه صلعم قال فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل
صدقة السر على صدقة العلانية وفي الخبر العام يفضل عمل السر على عمل العلانية
سبعين ضعفا وكذلك قوله خير الرزق ما يكفي وخير الذكر الخفي وسمع سعيد بن
المسيب ذات ليلة في مسجد النبي صلعم عمر بن عبد العزيز يجهر بالقراءة في صلوته و
كان حسن الصوت فقال لغلامه اذهب الى هذا المصلي فمره بان يخفض من صوته فقال
الغلام ان المسجد ليس لنا وللرجل فيه نصيب فرفع سعيد صوته وقال يا ايها المصلي
ان كنت تريد الله عز وجل بصلوتك فاخفض صوتك وان كنت تريد الناس فانهم
لن يغنوا عنك من الله شيئا فسكت عمر وخفف ركعته فلما سلم اخذ نعليه وانصرف
وهو يومئذ امير المدينة ويدل على استحباب الجهر ما روي انه صلى الله عليه سمع
جماعة من اصحابه يجهرون في صلوة الليل فصوب ذلك وقد قال صلى الله عليه وآله
اذا قام احدكم من الليل يصلي فليجهر بقراءته فان الملائكة وعمار الدار يستمعون
الى قراءته ويصلون بصلوته ومر صلى الله عليه وآله وسلم على ثلثة من اصحابه مختلفي الاحوال
واحدهم يخافت فسأله عن ذلك فقال ان الذي اناجيه هو يسمعني والآخر يجهر فسأله عن ذلك
فقال اوقظ الوسنان وازجر الشيطان والثالث يقرأ آيا من هذه السورة وآيا
من هذه السورة فسأله عن ذلك فقال اخلط الطيب بالطيب فقال صلعم كلكم قد احسن و
اصاب فالوجه في الجمع بين هذه الاحاديث ان الاسرار ابعد عن الرياء والتصنع فهو
افضل في حق من يخاف ذلك على نفسه فان لم يخف ولم يكن في الجهر ما يشوش الوقت على
مصل آخر فالجهر افضل لان العمل فيه اكثر ولان فائدته تتعلق ايضا بغيره والخير المتعدي
افضل من اللازم ولانه يوقظ قلب القارئ ويجمع همه الى الفكر فيه ويصرف اليه سمعه

ولانه يطرده والجهر المتعدي النوم برفع الصوت ولانه يزيد في نشاطه للقراءة ويقلل
من كسله ولانه يرجو بجهره تيقظ نائم فيكون هو سبب احيائه ولانه قد يراه بطال غافل
فينشط بسبب نشاطه ويشتاق الى الخدمة فمهما حضره شيء من هذه النيات فالجهر افضل
ان اجتمعت هذه النيات تضاعف الاجر وبكثرة النيات تزكو اعمال الابرار وتضاعف
اجورهم فان كان في العمل الواحد عشر نيات كان فيه عشرة اجور ولهذا نقول قراءة
القرآن في المصحف افضل اذ يزيد عمل البصر وتامل المصحف وحمله فيزيد الاجر بسببه
الثامن تحسين القراءة وترتيلها بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط يغير النظم فذلك
سنة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زينوا القرآن باصواتكم وقال عليه السلام ما اذن الله
لشيء اذنه لحسن الصوت بالقرآن وقال عليه السلام ليس منا من لم يتغن بالقرآن فقيل اراد
به الاستغناء وقيل اراد به الترنم وترديد الالحان به وهو اقرب عند اهل اللغة ويروى
ان رسول الله صلى الله عليه وآله كان ينتظر عائشة فابطأت عليه فقال ما حبسك فقالت يا رسول
الله كنت استمع قراءة رجل ما سمعت احسن صوتا منه فقام صلى الله عليه وسلم حتى استمع اليه طويلا ثم
رجع فقال هذا سالم مولى ابي حذيفة الحمد لله الذي جعل في امتي مثله وقال رسول الله
لابن مسعود اقرأ فقال يا رسول الله اقرأ وعليك انزل فقال اني احب ان اسمعه من
غيري فكان يقرأ ورسول الله تدمع عيناه وتفيضان واستمع صلى الله عليه وآله وسلم الى
قراءة ابي موسى فقال لقد اوتي هذا من مزامير آل داود فبلغ ذلك ابا موسى فقال
يا رسول الله لو علمت انك تسمع لحبرته لك تحبيرا وكان عمر يقول لابي موسى ذكرنا
ربنا فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة ان يتوسط فيقال الصلاة الصلاة فيقول
او لسنا في صلاة اشارة الى قوله تعالى ولذكر الله اكبر وقال صلى الله عليه وسلم من استمع الى آية
من كتاب الله عز وجل كانت له نورا يوم القيامة وفي الخبر كتب له عشر حسنات ومهما
عظم اجر الاستماع وكان التالي هو السبب فيه كان شريكا في الاجر الا ان يكون قصده
الرياء والتصنع الباب الثالث اعمال الباطن في التلاوة وهي عشرة فهم
اصل الكلام ثم التعظيم ثم حضور القلب ثم التدبر ثم التفهم ثم التخلي عن موانع
الفهم ثم التخصيص ثم التأثر ثم الترقي ثم التبري الاول فهم عظمة الكلام
وعلوه وفضل الله سبحانه ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله الى درجة افهام خلقه

خلقه فلينظر كيف لطف بخلقه في ايصال معاني كلامه الذي هو صفة قديمة قائمة بذاته
الى افهام خلقه فلينظر كيف لطف بخلقه في ايصال معاني كلامه الذي هو صفة قديمة قائمة بذاته
الى افهام خلقه وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف واصوات هي صفات البشر اذ
يعجز البشر عن الوصول الى فهم صفات الله الا بوسيلة صفات نفسه ولولا استتار كنه
جلالة كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا ثرى ولتلاشى ما بينهما من
عظمة سلطانه وسبحات نوره ولولا تثبيت الله موسى عليه السلام لما اطاق سماع كلامه كما
لم يطق الجبل مبادي تجليه حيث صار دكا ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام الا بامثلة على حد
فهم الخلق ولهذا عبر بعض العارفين عنه فقال ان كل حرف من كلام الله في اللوح اعظم
من جبل قاف وان الملائكة لو اجتمعت على الحرف الواحد ان يقلوه ما اطاقوه حتى يأتي
اسرافيل وهو ملك اللوح فيرفعه فيقله باذن الله ورحمته لا بقوته وطاقته ولكن الله
طوقه بذلك واستعمله به ولقد تأنق بعض الحكماء في التعبير عن وجه اللطف الخ الثاني
التعظيم للمتكلم فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي ان يحضر في قلبه عظمة المتكلم
ويعلم ان ما يقرؤه ليس من كلام البشر وان في تلاوة كلام الله عز وجل غاية الخطر فانه تعالى قال
لا يمسه الا المطهرون وكما ان ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس
الا اذا كان متطهرا فباطن معناه ايضا بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب الا اذا كان
متطهرا عن كل رجس ومستنيرا بنور التعظيم والتوقير وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد
فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب ولمثل هذا التعظيم كان
عكرمة بن ابي جهل اذا نشر المصحف غشي عليه ويقول هو كلام ربي فتعظيم الكلام تعظيم
المتكلم ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وافعاله فاذا خطر بباله العرش
والكرسي والسموات والارضين وما بينهما من الجن والانس والدواب والاشجار وعلم
ان الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد وان الكل في قبضة قدرته مترددون
بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته ان انعم فبفضله وان عاقب فبعدله وانه
الذي يقول هؤلاء في الجنة ولا ابالي وهؤلاء في النار ولا ابالي وهذا غاية العظمة
والتعالي فبالتفكر في امثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام الثالث حضور القلب
وترك حديث النفس قيل في تفسير يا يحيى خذ الكتاب بقوة اي بجد واجتهاد واخذه

بالحري ان يكون متجردا له عند قراءته منصرف الهم اليه عن غيره وقيل لبعضهم اذا قرأت تحدث
نفسك لشيء فقال او شيئا احب الي من القران احدث به نفسي وكان بعض السلف اذا
قرأ سورة ولم يكن قلبه فيها اعادها ثانية وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم فان
المعظم للكلام الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه ففي القرآن ما يستأنس به القلب
ان كان التالي اهلا له فكيف يطلب الانس بالفكر في غيره وهو في متنزه ومتفرج والذي
يتفرج في المتنزهات لا يتفكر في غيرها الرابع التدبر وهو وراء حضور القلب فانه قد
لا يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره والمقصود
من القراءة التدبر ولذلك سن فيه الترتيل لان الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن
قال علي عليه السلام لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها واذا لم يتمكن من التدبر
الا بترديد فليردد الا ان يكون خلف امام فانه لو بقي في تدبر آية وقد اشتغل الامام بآية
اخرى كان مسيئا مثل من يشتغل بالتعجب من كلمة واحدة ممن يناجيه عن فهم بقية كلامه
كذلك اذا كان في تسبيح الركوع وهو متفكر في آية قرأها امامه فهذا وسواس فقد روي عن
عامر بن عبد قيس انه قال الوسواس يعتريني في الصلاة فقيل في امر الدنيا فقال لان تختلف
في الاسنة احب الي من ذلك ولكن يشتغل قلبي بموقفي بين يدي ربي واني كيف انصرف
فعد ذلك وسواسا وهو كذلك فانه يشغله عن فهم ما هو فيه والشيطان لا يقدر على مثله
الا بان يشغله بمهم ديني ولكن يمنعه به عن الافضل ولما ذكر ذلك للحسن قال ان كنتم صادقين
عنه فما اصطنع الله ذلك عندنا ويروى انه صلى الله عليه وسلم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم
فرددها عشرين مرة وانما رددها لتدبره في معانيها وحكي عن ابي سليمان الداراني
انه قال اني لاتلو الآية فاقيم فيها اربع ليال او خمس ليال ولولا اني اقطع الفكر فيها
ما جاوزتها الى غيرها وعن بعض السلف انه بقي في سورة هود ستة اشهر يكررها ولا يفرغ
من التدبر فيها وقال بعض العارفين لي في كل جمعة ختمة وفي كل شهر ختمة وفي كل سنة ختمة
ولي ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه
الخامس التفهم الخ واذ قد حقق رحمه الله بيان التفهم على ما ينبغي قال وهذا مبدأ
من مبادي علم المكاشفة ولهذا ينبغي اذا قرأ التالي قوله افرايتم ما تحرثون افرايتم الماء
الذي تشربون افرايتم النار التي تورون افرايتم ما تمنون فلا يقصر نظره على الماء

والنار والحرث والمني بل يتأمل في المني وهو نطفة متشابهة الاجزاء ثم ينظر في كيفية انقسامها
الى اللحم والعظم والعروق والعصب وكيفية تشكل اعضائها بالاشكال المختلفة من الرأس واليد
والرجل والكبد والقلب وغيرها ثم الى ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب
والشهوة والكفر والجهل والتكذيب والمجادلة كما قال تعالى اولم ير الانسان انا خلقناه
من نطفة فاذا هو خصيم مبين فيتأمل هذه العجائب ليترقى منها الى اعجب العجائب وهي
الصفة التي صدرت منها هذه الاعاجيب فلا يزال ينظر الى الصنعة فيرى الصانع واما
احوال الانبياء الخ ثم قال رحمه الله لا يمكن استقصاء ما يفهم منه لان ذلك لا نهاية له
وانما لكل عبد منه بقدر رزقه فلا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين قل لو كان البحر
مدادا الآية وقال علي عليه السلام لو شئت لاوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب
فالغرض مما ذكرنا التنبيه على طريق التفهم لينفتح بابه فاما الاستقصاء فلا مطمع فيه
ومن لم يكن له فهم ما في القرآن الخ وبعد ذكر التخلي وبيان موانع الفهم وذكر التخصيص
قوله وانما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج اليه فما من قصة في
القرآن الا وسياقها لفائدة في حق النبي وامته ولذلك قال تعالى ما نثبت به فؤادك
فليقدر العبد ان الله يثبت فؤاده بما يقصه عليه من احوال الانبياء وصبرهم
على الايذاء وثباتهم في الدين لانتظار نصرة الله وكيف لا يقدر هذا والقرآن
ما انزل على رسول الله خاصة بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين ولذلك
امر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب فقال واذكروا نعمة الله عليكم وما انزل
عليكم من الكتاب والحكمة وبعد ذكر ثلاث قال التاسع الترقي واعني به
ان يترقى الى ان يسمع الكلام من الله تعالى لا من نفسه فدرجات القراءة ثلاث ادناها
ان يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله تعالى واقفا بين يديه وهو ناظر اليه و
مستمع منه فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والتضرع والابتهال
الثانية ان يشهد بقلبه كأن ربه يخاطبه بالطافه ويناجيه بانعامه واحسانه فمقامه
مقام الحياء والتعظيم والاصغاء والفهم الثالثة ان يرى في الكلام المتكلم
وفي الكلمات الصفات فلا ينظر الى نفسه ولا الى قراءته ولا الى تعلق الانعام
به من حيث انه منعم عليه بل يكون مقصور الهم على المتكلم موقوف الفكر عليه

الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيره ثم الى ما ظهر من الصفات م

ما نقل عن الامام جعفر بن محمد الصادق ع
وما لحقه في الصلوة حين قراءة القرآن

كانه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره وهذه درجة المقربين وما قبله درجات اصحاب اليمين وما خرج عن هذا فهو درجات الغافلين وعن الدرجة العليا اخبر جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقال والله لقد تجلى الله لخلقه في كلامه ولكن لا يبصرون وقال ايضا وقد سالوه عن حالة لحقته في الصلوة حتى خر مغشيا عليه فلما سري عنه قيل له في ذلك فقال ما زلت اردد الاية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته ففي مثل هذه الدرجة تعظم الحلاوة ولذة المناجاة ولذلك قال بعض الحكما كنت اقرا القران فلا اجد له حلاوة حتى تلوته كاني اسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله يتلوه على اصحابه ثم رفعت الى مقام فوقه فكنت اتلوه كاني اسمعه من جبرئيل يلقيه على رسول الله صلى الله عليه وآله ثم جاء الله بمنزلة اخرى فانا الآن اسمعه من المتكلم به فعندها وجدت له لذة ونعيما لا اصبر عنه وقال حذيفة لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن وانما قال ذلك لانها بالطهارة تترقى الى مشاهدة المتكلم في الكلام ولذلك قال ثابت البناني كابدت القران عشرين سنة وتنعمت به عشرين سنة وبمشاهدة المتكلم دون ما سواه يكون العبد ممتثلا لقوله تعالى ففروا الى الله ولقوله ولا تجعلوا مع الله الها آخر فمن لم يره في كل شيء فقد راى غيره وكل ما التفت اليه العبد تضمن التفاته شيئا من الشرك الخفي بل التوحيد الخالص ان لا يرى في كل شيء الا الله العاشر التبري واعني به ان يتبرا من حوله وقوته الى قوله رحمه الله حيث يتلو آيات الرجاء فيغلب على حاله الاستبشار فتنكشف له صورة الجنة فيشاهدها كانه يراها عيانا وان غلب عليه الخوف كوشف بالنار حتى يرى انواع عذابها وذلك لان كلام الله تعالى يشتمل على السهل اللطيف والشديد العسوف والمرجو والمخوف وذلك بحسب صفاته اذ منها الرحمة واللطف والانتقام والبطش فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات يتقلب القلب في اختلاف الحالات وبحسب كل حالة منها يستعد للمكاشفة بامر يناسب تلك الحالة ويقاربها اذ يستحيل ان يكون حال المستمع واحدا والمسموع مختلفا اذ فيه كلام راض وكلام غضبان وكلام منعم وكلام منتقم وكلام جبار متكبر لا يبالي وكلام حنان متعطف لا يهمل الباب

الرابع في فهم القران وتفسيره بالراي من غير نقل لعلك تقول الى قوله قال ص اعربوا القرآن والتمسوا غرائبه وقال ع في حديث علي عليه السلام والذي بعث بالحق لتفترقن امتي عن اصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون الى النار فاذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله فان فيه نبا ما كان قبلكم ونبا ما ياتي بعدكم وحكم ما بينكم من خالفه من الجبابرة قصمه الله ومن ابتغى العلم في غيره اضله الله هو حبل الله المتين ونوره المبين وشفاؤه النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقام ولا يزيغ فيستقيم ولا تنقضي عجائبه ولا يخلقه كثرة الرد الحديث وفي حديث حذيفة لما اخبره رسول الله صلى الله عليه وآله بالاختلاف والفرقة بعده قال فقلت له يا رسول الله فما تامرني ان ادركت ذلك قال تعلم كتاب الله واعمل بما فيه فهو المخرج من ذلك قال فاعدت عليه ذلك ثلاثا فقال ثلاثا تعلم كتاب الله واعمل بما فيه ففيه النجاة وقال ابن عباس في قوله تعالى ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا يعني الفهم في القرآن ثم ابطل رحمه الله ان يكون المراد به ان لا يتكلم احد في القرآن الا بما يسمعه بوجوه احدها انه يشترط ان يكون ذلك مسموعا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومسندا اليه وذلك مما لا يصادف الا في بعض القران فاما ما يقوله ابن عباس وابن مسعود من انفسهم فينبغي ان لا يقبل ويقال هو تفسير بالراي لانهم لم يسمعوه من رسول الله وكذا غيرهم من الصحابة والثاني ان الصحابة والمفسرين اختلفوا في تفسير بعض الايات فقالوا فيها اقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها وسماع جميعها من رسول الله صلى الله عليه وآله محال ولو كان الواحد مسموعا لترد الباقي فتبين على القطع ان كل مفسر قال في المعنى بما ظهر له باستنباطه حتى قالوا في الحروف التي في اوائل السور سبعة اقاويل فقيل الر هو حروف من الرحمن وقيل ان الالف الله واللام لطيف والراء رحيم وقيل غير ذلك والجمع بين الكل غير ممكن فكيف يكون الكل مسموعا والثالث انه صلى الله عليه وآله دعا لابن عباس فقال اللهم فقهه في الدين وعلمه التاويل فان كان التاويل مسموعا كالتنزيل ومحفوظا مثله فما معنى تخصيصه بذلك والرابع انه تعالى قال لعلمه الذين يستنبطونه منهم فاثبت لاهل العلم استنباطا ومعلوم انه وراء السماع وجملة ما نقلناه من الآثار في فهم القرآن يناقض هذا الخيال

فيبطل ان يشترط السماع في التأويل وجاز لكل واحد ان يستنبط من القرآن بقدر فهمه
وحد عقله واما النهي فانه ينزل على احد وجهين احدهما ان يكون له في الشيء رأي
واليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه
ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى وهذا تارة يكون
مع العلم كالذي يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم ان ليس المراد
بالآية ذلك ولكن يلبس به على خصمه وتارة يكون مع الجهل ولكن اذا كانت الآية محتملة
فيميل فهمه الى الوجه الذي يوافق غرضه ويترجح ذلك الجانب برأيه وهواه فيكون قد فسر
برأيه اي رأيه هو الذي حمله على ذلك التفسير ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه
وتارة قد يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه بما يعلم انه ما اريد
به كمن يدعو الى الاستغفار بالاسحار فيستدل بقوله عليه السلم تسحروا فان في السحور
بركة ويزعم ان المراد به التسحر بالذكر وهو يعلم ان المراد الاكل وكالذي يدعو الى
مجاهدة القلب القاسي فيقول قال الله تعالى اذهب الى فرعون انه طغى ويشير الى قلبه
ويومي الى انه المراد بفرعون وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة
تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع وهو ممنوع وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة
لتغرير الناس ودعوتهم الى مذهبهم الباطل فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم
على امور يعلمون قطعا انها غير مرادة به فهذه الفنون احد وجهي المنع من التفسير بالرأي
الوجه الثاني ان يتسارع الى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع
والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن ثم قال رحمه الله والغرائب التي لا يفهم الا بالسماع
كثيرة ونحن نرمز الى جمل منها ليستدل بها على امثالها ويعلم انه لا يجوز التهاون بحفظ
التفسير الظاهر اولا ولا مطمع في الوصول الى الباطن قبل احكام الظاهر ومن ادعى فهم اسرار ولا مطمع
القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يدعي البلوغ الى صدر البيت قبل مجاوزة الباب او
يدعي فهم مقاصد الاتراك من كلامهم وهو لا يفهم لغة الترك فان ظاهر التفسير يجري
مجرى تعلم اللغة التي لا بد منها للفهم وما لا بد فيه من السماع فنون كثيرة منها الايجاز
بالحذف والاضمار كقوله تعالى وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها معناه آية مبصرة
فظلموا انفسهم بقتلها فالناظر الى ظاهر العربية يظن ان المراد به ان الناقة

انها قد كانت مبصرة ولم يكن عمياء وقوله واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم اي حب
العجل فحذف الحب وامثال ذلك كثيرة ومنها المنقول المنقلب كقوله تعالى
وطور سينين اي طور سيناء سلام على ال ياسين اي على الياس ومنها المكرر القاطع
لوصل الكلام في الظاهر كقوله تعالى وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ان
يتبعون الا الظن معناه وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء الا الظن وغير
ذلك ومنها المقدم والمؤخر كقوله يسئلونك كانك حفي عنها اي يسئلونك عنها كانك
حفي وامثال ذلك ثم قال ومنها المبهم وهو اللفظ المشترك بين المعاني في كلمة وحرف اما
الكلمة فكالشيء والقرين والامة والروح ونظائرها قال تعالى ضرب الله مثلا عبدا مملوكا
لا يقدر على شيء اراد به النفقة مما رزق واما القرين فقوله تعالى قال قرينه هذا ما لدي
اراد به الملك الموكل به واما الامة فتطلق على ثمانية اوجه الامة الجماعة كقوله امة من الناس
يسقون واتباع الانبياء كقولك نحن من امة محمد صلعم ورجل جامع للخير يقتدى به كقوله
ان ابراهيم كان امة والدين كقوله تعالى انا وجدنا آباءنا على امة والحين والزمان كقوله
تعالى الى امة معدودة وقوله وادكر بعد امة والقامة يقال فلان حسن الامة اي القامة
ورجل منفرد بدين لا يشركه فيه احد قال صلعم يبعث زيد بن عمرو بن نفيل امة وحده
والامة يقال هذه امة زيد اي ام زيد واما الروح فقد ورد ايضا في القرآن بمعان كثيرة
فلا نطول بايرادها فكذلك قد يقع الابهام في الحروف مثل قوله تعالى فاثرن به نقعا
فوسطن به جمعا فالهاء الاولى كناية عن الحوافر وهي الموريات اي اثرن بالحوافر نقعا
والثانية كناية عن الاغارة وهي المغيرات صبحا فوسطن به جمعا جمع المشركين فاغاروا
بجمعهم ومنها التدريج في البيان كقوله تعالى شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن اذ لم يظهر به
انه ليل ام نهار وبان بقوله تعالى انا انزلناه في ليلة مباركة ولم يظهر به انه اي ليلة
فظهر بقوله انا انزلناه في ليلة القدر وربما يظن في الظاهر الاختلاف بين هذه
الآيات فهذا وامثاله مما لا يغني فيه الا النقل والسماع والقرآن من اوله الى آخره غير
خال عن هذا الجنس لانه انزل بلغة العرب فكان مشتملا على اصناف كلامهم من ايجاز
وتطويل واضمار وحذف وابدال وتقديم وتاخير ليكون ذلك مفحما لهم ومعجزا
في حقهم فكل من اكتفى بفهم ظاهر العربية وبادر الى تفسير القرآن ولم يستظهر بالسماع

والنقل في هذه الامور فهو داخل فيمن فسر القرآن برايه مثل ان يفهم بالامثلة المعنى الا انه ينزل على طبعه ورايه اليه فاذا سمعه في موضع آخر مال برايه اليها فيصير من شأنه معناه وفي تتبع النقل في كثرة معانيه فهذا ما يمكن ان يكون منهيا دون التفهم لاسرار المعاني كما سبق

كتاب الاذكار والدعوات وهو الكتاب التاسع من كتب احياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الشاملة رأفته العامة رحمته الذي جازى عباده عن ذكرهم بذكره فقال تعالى فاذكروني اذكركم ورغبهم في السؤال والدعاء بامره فقال تعالى ادعوني استجب لكم واطمع المطيع والعاصي والداني والقاصي في الانبساط الى حضرة جلاله برفع الحاجات والاماني بقوله تعالى فاني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان والصلوة على محمد سيد انبيائه وعلى آله واصحابه خيرة اصفيائه وسلم كثيرا اما بعد فليس بعد تلاوة كتاب الله عبادة تؤدى باللسان افضل من ذكر الله ورفع الحاجات بالادعية الخالصة الى الله فلا بد من شرح فضيلة الذكر على الجملة ثم على التفصيل في اعيان الاذكار وشرح فضيلة الدعاء وشروطه وآدابه ونقل المأثور من الدعوات الجامعة لمقاصد الدنيا والدين والدعوات الخاصة لسؤال المغفرة او الاستعاذة او غيرها ويتحرر المقصود من ذلك بذكر ابواب خمسة

الباب الاول في فضيلة الذكر وفائدته جملة وتفصيلا

ويدل على فضيلة الذكر على الجملة من الآيات قوله تعالى فاذكروني اذكركم قال ثابت البناني اني اعلم متى يذكرني ربي ففزعوا منه وقالوا كيف تعلم ذلك فقال اذا ذكرته ذكرني وقال تعالى اذكروا الله ذكرا كثيرا وقال تعالى فاذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم الآية وقال في الآية ثم انما فتنتنا ولا يذكرون الله الا قليلا الى غير ذلك من الآيات واما الاخبار فقال صلى الله عليه وسلم من احب ان يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم اي الاعمال افضل فقال ان تموت ولسانك رطب بذكر الله وقال صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل اذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي واذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملائه واذا تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا واذا تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا واذا مشى الي هرولت اليه يعني بالهرولة سرعة الاجابة وقال صلى الله عليه وسلم سبعة يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله ومن جملتهم رجل ذكر الله خاليا

ففاضت عيناه من خشية الله وقال ابو الدرداء قال رسول الله الا انبئكم بخير اعمالكم وازكاها عند مليككم وارفعها في درجاتكم وخير لكم من اعطاء الورق والذهب وخير لكم من ان تلقوا عدوكم فتضربوا اعناقهم ويضربوا اعناقكم قالوا وما ذاك يا رسول الله قال ذكر الله دائما وقال الله تعالى من شغله ذكري عن مسألتي اعطيته افضل ما اعطي السائلين واما الآثار قال الحسن الذكر ذكران ذكر الله بين نفسك وبين الله ما احسنه واعظم اجره وافضل من ذلك ذكر الله عند ما حرم الله تعالى ويروى ان كل نفس يخرج من الدنيا عطشى الا ذاكر الله تعالى وفي تفضيل مجلس الذكر وفضيلة التهليل والتسبيح والتحميد وغيرها من الاذكار كلام طويل لا مزيد عليه ثم قال رحمه الله فان قلت فما بال ذكر الله مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار افضل وانفع من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها فاعلم ان تحقيق هذا لا يليق الا بعلم المكاشفة والقدر الذي يسمح بذكره في علم المعاملة ان المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب فاما الذكر باللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى وفي الاخبار ما يدل عليه ايضا وحضور القلب في لحظة بالذكر والذهول عن الله مع الاشتغال بالدنيا ايضا قليل الجدوى بل حضور القلب مع الله على الدوام او في اكثر الاوقات هو المقدم على العبادات بل به تشرف سائر العبادات وهو غاية ثمرة العبادات العملية وللذكر اول وآخر فاوله يوجب الانس والحب وآخره يوجبه الانس والحب ويصدر عنه والمطلوب ذلك الانس فان المريد في بداية الامر قد يكون متكلفا بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس الى ذكر الله فان وفق للمداومة انس به وانغرس في قلبه حب المذكور ولا ينبغي ان يتعجب من هذا فان من المشاهد في العادات ان تذكر غائبا غير مشاهد بين يدي شخص وتكرر ذكر خصاله عنده فيحبه وقد يعشق بالوصف وكثرة الذكر ثم اذا عشق بكثرة الذكر المتكلف اولا صار مضطرا الى كثرة الذكر آخرا بحيث لا يصبر عنه فان من احب شيئا اكثر من ذكره ومن اكثر ذكر شيء وان كان تكلفا احبه فكذلك اول الذكر متكلف الى ان يثمر الانس بالمذكور والحب له ثم يمتنع الصبر عنه آخرا فيصير الموجب موجبا والثمرة مثمرا وهذا معنى قول بعضهم كابدت القرآن عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة ولا يصدر التنعم الا من الانس والحب ولا يصدر الانس الا من المداومة

ويضربون اعناقهم

من الكآبة والتكلف مدة طويلة حتى يصير التكلف طبعا فكيف يستبعد وقد يتكلف الانسان
تناول الطعام يستبشعه ولا يكاد يأكله ويواظب عليه فيصير موافقا لطبعه حتى
لا يصبر عنه فالنفس معتادة متحملة لما تكلف هي النفس ما عودتها تتعود اي كلفتها
اولا يصير لها طبعا اخر ثم اذا حصل الانس بذكر الله انقطع عن غير الله وما سوى
الله هو الذي يفارقه عند الموت ولا يبقى معه في القبر اهل ولا مال ولا ولد
ولا ولاية ولا يبقى الا ذكر الله فان كان قد انس به تمتع به وتلذذ بانقطاع العوائق
الصارفة عنه اذ ضرورات الحاجات في الحيوة تصده عن ذكر الله ولا يبقى بعد
الموت عائق فكانه خلي بينه وبين محبوبه فعظمت غبطته وتخلص من السجن الذي
كان ممنوعا فيه عما به انسه ولذلك قال صلى الله عليه وآله ان روح القدس نفث
في روعي أحبب ما احببت فانك مفارقه اراد به كل ما يتعلق بالدنيا فان ذلك
يفنى في حقه بالموت فكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام
وانما تفنى الدنيا بالموت في حقه الى ان تفنى في نفسها عند بلوغ الكتاب اجله
وهذا الانس يتلذذ به العبد بعد موته الى ان ينزل في جوار الله ويترقى من
الذكر الى اللقا وذلك بعد ان يبعثر ما في القبور ويحصل ما في الصدور ولا
تنكرن بقاء ذكر الله معه بعد الموت فتقول انه اعدم فكيف يبقى معه ذكر الله
فانه لم يعدم عدما يمنع الذكر بل عدما من الدنيا وعالم الملك والشهادة لا من عالم
الملكوت والى ما ذكرناه الاشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم القبر اما حفرة
من حفر النيران او روضة من رياض الجنة وبقوله صلى الله عليه وآله وسلم
ارواح الشهداء في حواصل طير خضر وبقوله لقتلى بدر من المشركين يا فلان
يا فلان وقد سماهم النبي عليه السلم اني قد وجدت ما وعدني ربي حقا فهل
وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فسمع عمر قوله فقال يا رسول الله كيف يسمعون وانى
يجيبون وقد جيفوا فقال والذي نفسي بيده ما انتم باسمع منهم لكلامي
لكنهم لا يقدرون ان يجيبوا والحديث في الصحيح هذا قوله في المشركين واما
المؤمنون والشهداء فقد قال ارواحهم في حواصل طير خضر معلقة تحت العرش
وهذه الحالة وما اشير به من الالفاظ اليه لا ينافي ذكر الله وقال تعالى ولا تحسبن

الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين
بما اتيهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الاية ولاجل
شرف ذكر الله تعالى عظمت رتبة الشهادة لان المطلوب الخاتمة نعني وداع الدنيا والقدوم
على الله والقلب مستغرق بالله منقطع العلائق عن غيره وان قدر عبد على ان يجعل
همه مستغرقا بالله فلا يقدر على ان يموت على تلك الحالة الا في صف القتال فانه قطع
الطمع عن مهجته واهله وماله وولده بل من الدنيا كلها فانه يريدها لحيوته وقد
هون على قلبه حياته في حب الله وطلب مرضاته فلا تجرد اعظم من ذلك في
الشرع ولذلك عظم امر الشهادة وورد فيه من الفضائل ما لا يحصى فمن ذلك انه
لما استشهد عبد الله الانصاري يوم احد قال رسول الله صلعم لجابر الا ابشرك
يا جابر قال بلى بشرك الله بالخير قال ان الله تعالى احيا اباك فاقعده بين يديه
وليس بينه وبينه ستر فقال تعالى تمن علي يا عبدي ما شئت اعطيكه فقال يا رب
تردني الى الدنيا حتى اقتل فيك وفي نبيك مرة اخرى فقال تعالى سبق القضاء
مني بانهم اليها لا يرجعون ثم القتل سبب الخاتمة على مثل هذه الحالة فانه لو لم يقتل
بقي مدة وربما عادت شهوات الدنيا وغلب ما استولى على قلبه من ذكر الله ولهذا
عظم خوف اهل المعرفة من الخاتمة فان القلب وان الزم ذكر الله فهو متقلب لا
عن الالتفات الى شهوات الدنيا ولا ينفك عن فترة تعتريه فاذا تمثل اخرا
في قلبه امر من الدنيا واستولى عليه وارتحل عن الدنيا والحالة هذه فيوشك
ان يبقى استيلاؤه عليه فيحن بعد الموت اليه ويتمنى الرجوع الى الدنيا وذلك
لقلة حظه في الاخرة اذ يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه فاسلم
الاحوال عن هذا الخطر خاتمة الشهادة اذا لم يكن مقصد الشهيد نيل مال او ان يقال
شجاع او غير ذلك كما ورد به الخبر بل حب الله واعلاء كلمته فهذه الحالة هي التي عبر
عنها بان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة ومثل هذا الشخص
هو البايع للدنيا بالاخرة وحالة الشهيد توافق معنى قولك لا اله الا الله فانه لا
مقصود له سوى الله تعالى وكل مقصود معبود وكل معبود اله فهذا الشهيد قائل بلسان
حاله لا اله الا الله اذ لا مقصود له سواه ومن يقول ذلك بلسانه ولم يساعده قلبه

الا خوف عليهم ولا هم يحزنون
ونعني بالخاتمة م

فاسرع في خشية الله ولا نوبن في خفة الخطر ولذلك فضل قول لا اله الا الله على الاذكار
مساعدة الحال سائر الاذكار وذكر ذلك مطلقا في مواضع الترغيب ثم ذكر في بعض المواضع
الصدق والاخلاص فقال مرة من قال لا اله الا الله مخلصا ومعنى الاخلاص مساعدة الحال
للمقال فنسأل الله تعالى ان يجعلنا في الخاتمة من اهل لا اله الا الله حالا ومقالا وظاهرا
وباطنا حتى نودع الدنيا غير ملتفتين اليها محبين للقاء الله فان من احب لقاء الله احب الله
لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه فهذه مداخل الى معاني الذكر لا يمكن الزيادة عليها
في علم المعاملة الباب الثاني في آداب الدعاء وفضله قال الله تعم واذا سالك عبادي
عني فاني قريب الاية وقال تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين وقال تعم قل
ادعوا الله او ادعوا الرحمن ايا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى وقال ربكم ادعوني استجب لكم
ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ثم ذكر رحمه الله احاديث
كثيرة في ذلك منها قوله صلعم ان العبد لا يخطئه من الدعاء احدى ثلث اما ذنب يغفر له
واما خير يعجل له واما خير يدخر له وقوله سلوا الله من فضله فانه يحب ان يسئل وافضل العبادة
انتظار الفرج آداب الدعاء وهي عشرة الاول ان يترصد لدعائه الاوقات الشريفة
كيوم عرفة من السنة ورمضان من الشهور ويوم الجمعة من الاسبوع ووقت السحر من ساعات
الليل قال تعم وبالاسحار هم يستغفرون ولقوله صلعم ينزل الله تعم كل ليلة الى سماء الدنيا
حتى يبقى ثلث الليل الاخير فيقول من يدعوني فاستجيب له من يسألني فاعطيه من يستغفرني
فاغفر له وقيل ان يعقوب عليه السلام انما قال سوف استغفر لكم ربي ليدعو في وقت السحر
فقيل انه قام في وقت السحر يدعو واولاده يؤمنون خلفه فاوحى الله اليه اني قد غفرت لهم
وجعلتهم انبياء الثاني ان يغتنم الاحوال الشريفة قال بعض الصحابة ان ابواب السماء
تفتح عند زحف الصفوف في سبيل الله وعند نزول الغيث وعند اقامة الصلوات المكتوبة
فاغتنموا الدعاء فيها وقال صلى الله عليه وآله الدعاء بين الاذان والاقامة لا يرد وقال ايضا
الصائم لا ترد دعوته وبالحقيقة يرجع شرف الاوقات الى شرف الحالات ايضا اذ وقت السحر
وقت صفاء القلب واخلاصه وفراغه من المشوشات ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع
الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله فهذا احد اسباب شرف الاوقات سوى
ما فيها من اسرار لا يطلع البشر عليها وحالة السجود ايضا اجدر بالاجابة الثالث ان يدعو

وردت في ذلك احاديث ذكرها رحمه الله

ان يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يرى بياض ابطيه قال سلمان قال رسول الله صلعم
ان ربكم حيي كريم يستحيي من عبده اذا رفع يديه اليه ان يردهما صفرا
[illegible] الرابع خفض الصوت بين المخافتة والجهر لما روي ان ابا موسى قال
قدمنا مع رسول الله صلعم فلما دنونا من المدينة كبر الناس ورفعوا اصواتهم فقال صلعم يا ايها
الناس ان الذي تدعون ليس باصم ولا غائب ان الذي تدعون بينكم وبين اعناق
ركابكم وقد اثنى الله تعم على نبيه زكريا حيث قال تعم اذ نادى ربه نداء خفيا وقال
ادعوا ربكم تضرعا وخفية الخامس ان لا يتكلف السجع في الدعاء فان حال الداعي ينبغي
ان يكون حال متضرع والتكلف لا يناسب قال رسول الله صلعم سيكون قوم يعتدون في الدعاء
وقد قال تعم ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين وقيل معناه التكلف للاسجاع
والاولى ان لا يجاوز الدعوات المأثورة فانه قد يتعدى في دعائه فيسأل ما لا تقتضيه
مصلحته فما كل احد يحسن الدعاء وكذلك ورد في الخبر ان العلماء يحتاج اليهم في
الجنة اذ يقال لاهل الجنة تمنوا فلا يدرون كيف يتمنون حتى يتعلموا من العلماء وقد
قال صلعم اياكم والسجع في الدعاء بحسب احدكم ان يقول اللهم اني اسئلك الجنة وما قرب
اليها من قول وعمل واعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل واعلم ان المراد بالسجع
هو المتكلف من الكلام فان ذلك لا يلائم الضراعة والذلة والا ففي الادعية المأثورة عن رسول
الله صلعم كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة كقوله صلعم اسالك الامن يوم الوعيد والجنة يوم
الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود والموفين بالعهود انك رحيم ودود وانك
تفعل ما تريد وامثال ذلك فليقتصر على المأثور من الدعوات او ليلتمس بلسان التضرع
غير سجع وتكلف فالتضرع هو المحبوب عند الله تعم السادس التضرع والخشوع والرغبة
والرهبة قال تعالى انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وقال تعم ادعوا ربكم تضرعا
وخفية وقال صلعم اذا احب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه السابع ان يجزم الدعاء
ويوقن بالاجابة ويصدق رجاءه فيه قال صلعم لا يقل احدكم اذا دعا اللهم اغفر لي ان شئت اللهم
ارحمني ان شئت ليعزم المسئلة فانه لا مكره له وقال اذا دعا احدكم فليعظم الرغبة فان
الله لا يتعاظمه شيء وقال صلعم ادعوا الله وانتم موقنون بالاجابة واعلموا ان الله عز وجل
لا يستجيب دعاء من قلب غافل وقال سفيان بن عيينة لا يمنعن احدكم من الدعاء ما يعلم من

نفسه فان الله عز وجل اجاب شر الخلق ابليس اذ قال رب انظرني الى يوم يبعثون
قال انك من المنظرين **الثامن** ان يلح في الدعاء ويكرره ثلثا قال ابن مسعود كان
اذا دعا دعا ثلثا واذا سأل سأل ثلثا وينبغي ان لا يستبطي الاجابة لقوله يستجاب لاحدكم
ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لي فاذا دعوت فسل الله كثيرا فانك تدعو كريما
وقال بعضهم اني اسأل الله منذ عشرين سنة حاجة وما اجابني وانا ارجو الاجابة سألت
الله ان يوفقني لترك ما لا يعنيني وقال صلى الله عليه وآله وسلم اذا سأل احدكم ربه مسألة
فعرف الاجابة فليقل الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ومن ابطأ عنه من ذلك شيء فليقل
الحمد لله على كل حال **التاسع** ان يفتتح الدعاء بذكر الله فلا يبدأ بالسؤال قال ابو سليمان
الداراني من اراد ان يسأل الله عز وجل حاجة فليبدأ بالصلوة على النبي ثم يسأل حاجته ثم
يختم بالصلوة عليه فان الله يقبل الصلوتين وهو اكرم من ان يدع ما بينهما وروي في الخبر
عن رسول الله انه قال اذا سألتم الله حاجة فابدؤا بالصلوة علي فان الله تعالى اكرم من ان
يسأل حاجتين فيقضي احدهما ويرد الاخرى رواه ابو طالب المكي رحمه الله **العاشر**
وهو الادب الباطن وهو الاصل في الاجابة التوبة ورد المظالم والاقبال على الله بكنه الهمة
فذلك هو السبب القريب في الاجابة روي عن كعب الاحبار انه قال اصاب الناس قحط
شديد على عهد موسى فخرج موسى ببني اسرائيل ليستسقي بهم فلم يسقوا ثم خرج ثلث
مرات ولم يسقوا فاوحى الله الى موسى اني لا استجيب لك ولمن معك وفيكم نمام فقال موسى
يا رب ومن هو حتى نخرجه من بيننا فاوحى الله اليه يا موسى انهاكم عن النميمة واكون
نماما فقال موسى لبني اسرائيل توبوا باجمعكم من النميمة فتابوا فارسل الله عليهم الغيث قال
سعيد بن جبير قحط الناس في زمان ملك من ملوك بني اسرائيل فاستسقوا فقال الملك لبني اسرائيل
ليرسلن الله علينا او لنؤذينه فقيل له وكيف تقدر ان تؤذيه وهو في السماء فقال اقتل اولياءه واهل
طاعته فيكون ذلك اذى له قال فارسل الله السماء وقال سفيان الثوري رحمه الله بلغني ان
بني اسرائيل قحطوا سبع سنين حتى اكلوا الميتة من المزابل واكلوا الاطفال وكانوا كذلك يخرجون
الى الجبال يبكون ويتضرعون فاوحى الله الى انبيائهم لو مشيتم الي باقدامكم حتى تحفى ركبكم
تبلغ ايديكم عنان السماء وتكل السنتكم عن الدعاء فاني لا اجيب لكم داعيا ولا ارحم منكم
باكيا حتى تردوا المظالم الى اهلها ففعلوا فمطروا من يومهم وقال ابو الصديق الناجي خرج

سليمان عليه السلام يستسقي فمر بنملة ملقاة على ظهرها رافعة قوائمها الى السماء وهي تقول
اللهم انا خلق من خلقك ولا غنى بنا عن رزقك فلا تهلكنا بذنوب غيرنا فقال سليمان
ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم وقال الاوزاعي خرج الناس يستسقون فقام فيهم بلال
بن سعد فحمد الله واثنى عليه ثم قال يا معشر من حضر الستم مقرين بالاساءة قالوا اللهم
نعم فقال اللهم انا سمعناك تقول ما على المحسنين من سبيل وقد اقررنا بالاساءة فهل تكون
مغفرتك الا لمثلنا اللهم اغفر لنا وارحمنا واسقنا فرفع يديه ورفعوا ايديهم فسقوا
وقيل لمالك بن دينار ادع لنا ربك فقال انكم تستبطؤن المطر وانا استبطئ الحجارة
وقال عطا السلمي منعنا الغيث فخرجنا نستسقي فاذا نحن بسعدون المجنون في المقابر فنظر
الي فقال يا عطا هذا يوم النشور او بعثرة ما في القبور فقلت لا ولكنا منعنا الغيث فخرجنا
نستسقي فقال يا عطا بقلوب ارضية ام بقلوب سماوية فقلت بل بقلوب سماوية
فقال هيهات يا عطا قل للمتبهرجين لا تتبهرجوا فان الناقد بصير ثم رمق السماء بطرفه
وقال الهي وسيدي لا تهلك بلادك بذنوب عبادك ولكن بالمكنون من اسمائك وما
وارت الحجب من آلائك الا ما سقيتنا ماء غدقا فراتا تحيي به العباد وتروي به البلاد يا من
هو على كل شيء قدير قال عطا فما استتم الكلام حتى ارعدت السماء وابرقت وجاءت
بمطر كافواه القرب فولى وهو يقول افلح الزاهدون والعابدونا اذ لمولاهم اجاعوا
البطونا اسهروا الاعين العليلة حبا فانقضى ليلهم وهم ساهرونا شغلتهم عبادة
الله حتى قيل في الناس ان فيهم جنونا وقال ابن المبارك قدمت المدينة
في عام شديد القحط فخرج الناس يستسقون وخرجت معهم اذ اقبل غلام اسود عليه
قطعتا خيش قد اتزر باحداهما والقى الاخرى على عاتقه فجلس الى جنبي فسمعته
يقول الهي اخلقت الوجوه عندك كثرة الذنوب ومساوي الاعمال وقد حبست
عنا غيث السماء لتؤدب عبادك بذلك فاسألك يا حليما ذا اناة يا من لا يعرف
عباده منه الا الجميل ان تسقيهم الساعة الساعة فلم يزل يقول الساعة الساعة
حتى اكتست السماء بالغمام واقبل المطر من كل مكان قال ابن المبارك فجئت الى الفضيل
فقال لي اراك كئيبا فقلت سبقنا اليه غيرنا فتولاه دوننا وقصصت عليه القصة
فصاح الفضيل وخر مغشيا عليه **فضيلة الصلوة على رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم

وفضله عليهم قال الله عز وجل ان الله وملائكته يصلون على النبي يا ايها الذين امنوا
صلوا عليه وسلموا تسليما وروي انه عم جاء ذات يوم والبشرى ترى في وجهه فقال انه
جاءني جبريل عليه السلام فقال اما ترضى يا محمد ان لا يصلي عليك احد من امتك الا صليت
عليه عشرا ولا يسلم عليك احد من امتك الا سلمت عليه عشرا وقال عم من صلى علي صلت عليه
الملائكة ما صلى علي فليقلل عبد من ذلك او ليكثر وقال صلى الله عليه وآله وسلم ان اولى
الناس بي اكثرهم صلوة علي وقال بحسب المؤمن من البخل ان اذكر عنده فلا يصلي علي و
قال صلى الله عليه وآله اكثروا علي من الصلوة يوم الجمعة وقال من قال حين يسمع الاذان
والاقامة اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلوة القائمة صل على محمد عبدك و
رسولك واعطه الوسيلة والفضيلة والشفاعة يوم القيمة حلت له شفاعتي وقال رحمه
الله صلى الله علي في كتاب لم تزل الملائكة يستغفرون له ما دام اسمي في ذلك الكتاب و
قال عم ان في الارض ملائكة سياحين يبلغوني عن امتي السلام وذكر بحمد الله امثال كثيرة
فضيلة الاستغفار قال الله تعالى والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله
فاستغفروا لذنوبهم قال عبد الله بن مسعود آيتان ما اذنب عبد ذنبا فقرأهما ثم
استغفر الله الا غفر له هذه المذكورة وقوله عم ومن يعمل سوءا او يظلم نفسه ثم يستغفر الله
يجد الله غفورا رحيما وقال عز وجل والمستغفرين بالاسحار وكان عم يكثر ان يقول
سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي انك انت التواب الرحيم وقال عم من اكثر الاستغفار
جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب وقال عم
اني لاستغفر الله واتوب اليه في اليوم سبعين مرة هذا مع انه كان قد غفر له ما تقدم
من ذنبه وما تأخر وقال عم انه ليغان على قلبي حتى اني لاستغفر الله في كل يوم مائة مرة
وقال عم من قال حين ياوي الى فراشه استغفر الله الذي لا اله الا هو الحي القيوم ثلثا
غفر الله له ذنوبه وان كانت مثل زبد البحر او عدد رمل عالج او عدد ورق الشجر
او عدد ايام الدنيا وذكر بحمد الله من الاخبار والاثار كثيرا ثم اورد الباب الثالث
في ادعية ماثورة ومعزية الى اسبابها واربابها مما يستحب ان يدعو بها المريد صباحا
ومساء وبعقب كل صلوة مثل دعاء رسول الله عم ودعاء عائشة ودعاء فاطمة رضي الله
ثم ذكر الباب الرابع في ادعية ماثورة عن رسول الله عم واصحابه محذوفة الاسانيد ثم

فان قلت فما فائدة الدعاء والقضاء لا مرد له فاعلم ان من القضاء رد البلاء بالدعاء
فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة كما ان الترس سبب لرد السهم والماء سبب لخروج
النبات من الارض فيتدافعان فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان وليس من شرط الاعتراف
بقضاء الله ان لا يحمل السلاح وقد قال الله تعالى خذوا حذركم وان لا يسقي الارض بعد بث
البذر فيقال ان سبق القضاء بالنبات نبت بل ربط الاسباب بالمسببات هو القضاء الاول
الذي هو كلمح البصر وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الاسباب على التدريج والتقدير
هو القدر والذي قدر الخير قدره بسبب والذي قدر الشر قدر لدفعه سببا فلا تناقض
بين هذه الامور عند من انفتحت بصيرته ثم في الدعاء من الفائدة ما ذكرناه في الذكر فانه
يستدعي حضور القلب مع الله وهو منتهى العبادات ولذلك قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم
الدعاء مخ العبادة والغالب على الخلق انه لا تنصرف قلوبهم الى ذكر الله الا عند المام حاجة
او ارهاق ملمة فان الانسان اذا مسه الشر فذو دعاء عريض فالحاجة تحوج الى الدعاء والدعاء
يرد القلب الى الله بالتضرع والاستكانة فيحصل به الذكر الذي هو اشرف العبادات ولذلك
صار البلاء موكلا بالانبياء ثم بالاولياء ثم الامثل فالامثل لانه يرد القلب بالافتقار والتضرع
الى الله تعالى ويمنع من نسيانه واما الغنى فسبب للبطر في غالب الامور فان الانسان ليطغى ان
رآه استغنى فهذا ما اردنا ان نورده من جملة الاذكار والدعوات والله الموفق للخيرات
اختم كتاب الاذكار والدعوات متعقبا ويتلوه كتاب ترتيب الاوراد وهو الكتاب العاشر
من كتب احياء علوم الدين قال الشيخ رحمه الله بعد الحمد والصلوة على محمد وآله الطاهرين
عليهم الصلوة والسلام والتحية والاكرام اما بعد فان الله جعل الارض ذلولا
لعباده لا ليستقروا في مناكبها بل ليتخذوها منزلا فيتزودوا منها متحرزين من مصائدها و
معاطبها ويتحققوا ان العمر يسير بهم سير السفينة براكبها فالناس في هذا العالم سفر واول
منازلهم المهد وآخرها اللحد والوطن هو الجنة او النار والعمر مسافة السفر فسنوه
مراحله وشهوره فراسخه وايامه امياله وانفاسه خطواته وطاعته بضاعته واوقاته
رؤوس امواله وشهواته واغراضه قطاع طريقه وربحه الفوز بلقاء الله في دار السلام مع
الملك الكبير والنعيم المقيم وخسرانه البعد من الله مع الانكال والاغلال والعذاب الاليم في دركات
الجحيم فالغافل في نفس من انفاسه حتى ينقضي في غير طاعة تقربه الى الله زلفى متعرض

في يوم التغابن لغبينة وحسرة ما لها منتهى وهذا الخطر العظيم والخطب الهايل شمر الموفقون
عن ساق الجد ودفعوا بالكلية ملاذ النفس واغتنموا بقايا العمر ورتبوا بحسب تكرر الاوقات
وظايف الاوراد حرصا على احياء الليل والنهار في طلب التقرب من الملك الجبار والسعي الى دار
القرار فصار من مهمات علم طريق الاخرة تفصيل القول في كيفية قسمة الاوراد وتوزيع العبادات
التي سبق شرحها على مقادير الاوقات فيتضح هذا المهم بذكر بابين ثم ذكر رحمه الله في
الباب الاول فضيلة الاوراد وترتيبها في الليل والنهار واستشهد بذلك من الآيات كثيرة
منها ثم قال رحمه الله انظر خطاب الله تعالى لرسوله واقتبس من انوار الايمان فقد قال تعالى لا
[illegible] ان لك في النهار سبحا طويلا واذكر اسم ربك وتبتل
اليه تبتيلا وقال تعالى واذكر اسم ربك بكرة واصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا
طويلا وقال وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وادبار
السجود وقال تعالى وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم وقال تعالى
ان ناشئة الليل هي اشد وطأ واقوم قيلا وقال تعالى ومن آناء الليل فسبح واطراف النهار
لعلك ترضى وقال اقم الصلوة طرفي النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات
ثم انظر كيف وصف الفائزين من عباده [illegible] فقال تعالى امن هو قانت
آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الاخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون
والذين لا يعلمون وقال تعالى تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا
وذكر غيره من الآيات ثم قال رحمه الله فبهذا تبين لك ان الطريق الى الله مراقبة الاوقات
وعمارتها بالاوراد على سبيل الدوام [illegible] الذي
الشمس والقمر والاظلة لذكر الله فقال تعالى والشمس والقمر بحسبان وقال تعالى الم تر الى
ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا الاية ثم ذكر رحمه الله بيان اعداد الاوراد
وترتيبها في النهار سبعة وفي الليل خمسة ثم ذكر رحمه الله في الباب الثاني الاسباب
الميسرة لقيام الليل وفضيلة احياء الليل الى اخرها فانه رحمه الله تعالى ثم شرع رحمه الله
في ربع العادات قال رحمه الله بعد الحمد والصلوة اما بعد فان مقصود ذوي الالباب
لقاء الله تعالى في دار الثواب ولا طريق الى لقاء الله عز وجل الا بالعلم والعمل ولا
يمكن المواظبة عليهما الا بسلامة البدن ولا تصفو سلامة البدن الا بالاطعمة والاقوات

والاقوات والتناول منها بقدر الحاجات على تكرر الاوقات فمن هذا الوجه قال
بعض السلف الصالحين ان الاكل من الدين وعليه نبه رب العالمين بقوله وهو اصدق
القايلين كلوا من الطيبات واعملوا صالحا فمن يقدم على الاكل ليستعين به على العلم والعمل
ويقوى به على التقوى فلا ينبغي ان يترك نفسه مهملا سدى يسترسل في الاكل استرسال
البهايم في المرعى فان ما هو ذريعة الى الدين ووسيلة اليه ينبغي ان يظهر انوار الدين عليه
وانما انوار الدين آدابه وسننه التي يزم العبد بزمامها ويلجم المتقي بلجامها حتى يتزن
بميزان الشرع شهوة الطعام في اقدامها واحجامها فيصير بسببها مدفعة للوزر ومجلبة للاجر وان
كان فيها اوفى حظ للنفس قال صلعم ان الرجل ليوجر حتى في اللقمة يرفعها الى فيه والى في امرأته وانما
ذلك اذا رفعها بالدين وللدين مراعيا فيه آدابه ووظائفه وها نحن نرشد الى وظائف
الدين في الاكل فرايضها وسننها وادابها ومروءاتها وهيئاتها في اربعة ابواب **الباب**
الاول فيما لا بد للآكل من مراعاته وان انفرد بالاكل وهي ثلثة اقسام قسم قبل الاكل
وقسم مع الاكل وقسم بعد الفراغ منه **القسم الاول** الاداب التي تتقدم على الاكل وهي
سبعة **الاول** ان يكون الطعام بعد كونه حلالا في نفسه طيبا في جهة مكسبه موافقا للسنة
والورع لم يكتسب بسبب مكروه في الشرع ولا بحكم هوى ولا مداهنة في الدين على ما سيأتي
معنى الطيب المطلق في كتاب الحلال والحرام وقد امر الله تعالى باكل الطيب وهو الحلال وقدم
النهي عن الاكل بالباطل على القتل تفخيما لامر الحرام وتعظيما لبركة الحلال فقال تعالى
ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل الاية فالاصل في الطعام كونه طيبا وهو من الفرايض واصول
الدين **الثاني** غسل اليد قال صلعم الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر وبعده ينفي اللمم لان
اليد لا تخلو من لوث في تعاطي الاعمال فغسلها اقرب الى النظافة والنزاهة ولان الاكل
لقصد الاستعانة على الدين عبادة فهو جدير بان يقدم عليه ما يجري منه مجرى
الطهارة من الصلوة **الثالث** ان يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الارض فهو
اقرب الى فعل رسول الله صلعم من رفعه على المائدة كان رسول الله صلعم اذا اتى بطعام وضعه
على الارض فهذا اقرب الى التواضع فان لم يكن فعلى السفرة فانها تذكر السفر ويتذكر من السفر
سفر الاخرة وحاجته الى زاد التقوى قيل اربع احدثت بعد رسول الله صلعم الموائد والمناخل
والاشنان والشبع ثم اعلم انا وان قلنا من هذه الاربع غير [illegible] في الشرع فما يقال

ابدع بعد رسول الله صلعم فليس كل ما ابدع منها عنه بل المنهي بدعة تضاد سنة ثابتة
ترفع امرا من الشرع مع بقاء علته بل الابداع قد يجب في بعض الاحوال اذا تغيرت الاسباب
ثم قال واما الشبع فهو اشد هذه الاربع فانه يدعو الى تهيج الشهوات وتحريك
الادواء في البدن فليدرك الفرق بين هذه المبتدعات **الرابع** ان يحسن الجلسة على
السفرة في اول جلوسه ويستديمها كذلك كان رسول الله صلعم ربما جثى للاكل على ركبتيه
وجلس على ظهر قدميه وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى وكان يقول لا
آكل متكيا انما انا عبد آكل كما ياكل العبد واجلس كما يجلس العبد والشرب متكيا مكروه
للمعدة ايضا ويكره الاكل نائما ومتكيا الا ما ينتقل به من الحبوب **الخامس** ان ينوي باكله
ان يتقوى به على طاعة الله عز وجل ليكون مطيعا بالاكل ولا يقصد التلذذ والتنعم
بالاكل قال ابرهيم بن شيبان منذ ثمانين سنة ما اكلت شيا لشهوتي ويعزم مع ذلك
على تقليل الاكل فانه اذا اكل لاجل قوة العبادة لم يصدق نيته الا باكل ما دون الشبع فان
الشبع يمنع العبادة ولا يقوى عليها فمن ضرورة هذه النية كسر الشهوة وايثار القناعة
على الاتساع قالعم ما ملا آدمي وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه
ضرورة هذه النية ان لا يمد اليد الى الطعام الا وهو جائع فيكون الجوع احد ما لا بد
من تقديمه على الاكل ثم ينبغي ان يرفع اليد قبل الشبع ومن فعل ذلك استغنى عن الطبيب
وسياتي فائدة قلة الاكل وكيفية التدريج في التقليل منه في كسر شهوة الطعام من ربع المهلكات
السادس ان يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام ولا يجتهد في التنعم
طلب الزيادة وانتظار الادم بل من كرامة الخبز ان لا ينتظر به الادم وقد ورد الامر باكرام
الخبز فكل ما يديم الرمق ويقوي على العبادة فهو خير كثير لا ينبغي ان يستحقر بل لا ينتظر بالخبز
الصلوة ان حضر وقتها اذا كان في الوقت متسع وورد بذلك الخبر ومهما كانت النفس
لا تتوق الى الطعام ولم يكن في تاخير الطعام ضرر كبرد الطعام او تشوش الامر فالاولى تقديم
الصلوة **السابع** ان يجتهد في تكثير الايدي على الطعام ولو من اهله وولده قالعم اجتمعوا
على الطعام يبارك لكم فيه وقال انس كان رسول الله صلعم لا ياكل وحده **القسم الثاني**
في آداب حالة الاكل وهو ان يبدا باسم الله في اوله وبالحمد لله في آخره ولو قال مع
كل لقمة بسم الله فهو حسن حتى لا يشغله الشره عن ذكر الله تعم وياكل باليمين ويبدا

ويبدا بالملح ويختم به ويصغر اللقمة ويجود مضغها وما لم يبتلعها فلا يمد اليد الى الاخرى
فان ذلك عجلة في الاكل وان لا يذم ماكولا كان رسول الله صلعم لا يعيب ماكولا اذا اعجبه
اكله والا تركه وان ياكل مما يليه الا الفاكهة كان صلعم يدير يده على الفاكهة فقيل له في ذلك
فقالعم ليس هو نوعا واحدا وان لا ياكل من ذروة القصعة ولا من وسط الطعام
بل ياكل من استدارة الرغيف الا اذا قل الخبز فيكسر الخبز ولا يقطعه بالسكين ولا يقطع
اللحم ايضا فقد نهى عنه رسول الله صلعم وقال انهشوه نهشا ولا يضع على الخبز قصعة
ولا غيرها الا ما ياكل به قالعم اكرموا الخبز فان الله تعم انزله من بركات السماء
ولا يمسح يده بالخبز وقال عليه السلام اذا وقعت لقمة احدكم فلياخذها وليمط ما كان
بها من اذى ولا يدعها للشيطان ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق اصابعه فانه لا
يدري في اي طعامه البركة ولا ينفخ في الطعام الحار فهو منهي عنه بل يصبر الى ان يسهل
اكله وياكل من التمر وترا سبعا او احدى عشرة او احدى وعشرين او ما اتفق ولا يجمع بين
التمر والنوى في طبق ولا يجمع في كفه بل يضعه من فيه على ظهر كفه ثم يلقيها وكذا
كل ما له عجم وثفل وان لا يترك ما استرذله من الطعام ويطرحه في القصعة بل يتركه مع الثفل
حتى لا يلتبس على غيره فياكله وان لا يكثر الشرب في اثناء الطعام الا اذا غص بلقمة
او صدق عطشه فقد يقال ان ذلك مستحب في الطب وانه دباغ المعدة **واما الشرب**
فادبه ان ياخذ الكوز بيمينه ويقول بسم الله ويشربه مصا لا عبا قالعم مصوا
الماء مصا ولا تعبوه عبا فان الكباد من العب ولا يشرب قائما ولا مضطجعا
وقد نهى عنه وروي انه شرب قائما ولعله كان لعذر وينظر في اسفل الكوز حتى
لا يقطر عليه وينظر في الكوز قبل الشرب فلا يتجشا في الكوز بل ينحيه عن فمه
بالحمد ويرده بالتسمية وقد قالعم بعد الشرب الحمد لله الذي جعله عذبا فراتا
برحمته ولم يجعله ملحا اجاجا بذنوبنا ويشرب في ثلاثة انفاس يحمد الله في اواخرها
ويسمي الله في اوائلها فهذا قريب من عشرين ادبا في الاكل والشرب دلت عليها الاخبار
والآثار **القسم الثالث** فيما يستحب بعد الطعام وهو ان يمسك قبل الشبع
ويلعق اصابعه ثم يمسحها بالمنديل ثم يغسلها ويلتقط فتات الخبز والطعام قال
رسول الله صلعم من اكل ما يسقط من المائدة عاش في سعة وعوفي في ولده

كان صلعم ربما ابتدا بالملح ... سبعين داء

ولا يبلع ما يخرج من بين اسنانه بالخلال الا ما يجتمع من اصول اسنانه بلسانه فاما
المخرج بالخلال فيرميه وليتمضمض بعد الخلال ففيه اثر عن اهل البيت عليهم السلم
وان يلعق القصعة ويشرب ماءها كان له عتق رقبة وان التقاط الفتات مهور
الحور العين وان يشكر الله بقلبه على ما اطعمه ويرى الطعام نعمة منه قال الله تعالى
كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ومهما اكل حلالا قال الحمد لله الذي بنعمته
تتم الصالحات وتنزل البركات اللهم اطعمنا طيبا واستعملنا صالحا وان اكل شبهة فليقل
الحمد لله على كل حال اللهم لا تجعله قوة لنا على معصيتك ويقرا بعد الطعام قل هو
الله احد ولايلاف قريش ولا يقوم عن المائدة حتى ترفع وان اكل طعام الغير
فليدع له وليقل اللهم اكثر خيره وبارك له فيما رزقته ويسر له ان يفعل فيه خيرا وقنعه بما اعطيته
واجعلنا واياه من الشاكرين وليكثر الاستغفار والحزن على ما كان من شبهة ليطفئ
بدموعه وحزنه حر النار التي تعرض لها لقوله صلى الله عليه وآله وسلم كل لحم نبت
من حرام فالنار اولى به ... ويستحب عقيب الطعام ان
يقول الحمد لله الذي اطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا سيدنا ومولانا الباب الثاني
فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة في الاكل وهي سبعة الاول ان لا يبتدئ بالطعام
ومعه من يستحق التقديم بكبر سن او زيادة فضل الا ان يكون هو المتبوع
والمقتدى به فحينئذ ينبغي ان لا يطول عليهم الانتظار الثاني ان لا يسكتوا على الطعام
فان ذلك من سيرة العجم ولكن يتكلمون بالمعروف ويتحدثوا بحكايات الصالحين في
الاطعمة وغيرها الثالث ان يرفق برفيقه في القصعة ولا يقصد ان يأكل زيادة
على ما يأكله فان ذلك حرام ان لم يكن موافقا لرضى رفيقه مهما كان الطعام مشتركا
بل ينبغي ان يقصد الايثار الرابع ان لا يحوج رفيقه الى ان يقول له كل وحاصل
اضبر حتى هذا القول فلا ينبغي ان يدع شيئا مما يشتهيه لاجل نظر الغير اليه فان
ذلك تصنع بل يجري على المعتاد ولا ينقص من عادته في الوحدة ولكن يعود نفسه
حسن الادب في الوحدة حتى لا يحتاج الى التصنع عند الاجتماع نعم لو قلل الاكل ايثارا
لاخوانه ونظرا لهم عند الحاجة الى ذلك فهو حسن وان زاد في الاكل على نية الاعانة
والتحريك لنشاط القوم في الاكل فلا باس به بل هو حسن قال جعفر بن محمد احب الاخوان

أي من القصعة

اخوانا الي اكثرهم اكلا واعظمهم لقمة واثقلهم علي من يحوجني الى تعاهده في الاكل
هذا اشارة الى الجري على المعتاد وترك التصنع الخامس في غسل الطست سبعة آداب
لا يبصق فيه وان يقدم به المتبوع وان يقبل الاكرام اذا قدم الطست اليه وان
يدار يمنة وان يجتمع فيه جماعة الا ان يصب ماء كل واحد كما قال ابن مسعود اجتمعوا
على غسل اليد في طست واحد ولا تستنوا بسنة الاعاجم وان يكون الخادم الذي يصب
الماء على اليد قائما وان يمج الماء من فيه ويرسله من يده برفق حتى لا يرش الماء على
الفراش وعلى اصحابه وليصب صاحب المنزل بنفسه الماء على يد ضيفه السادس
ان لا ينظر الى اصحابه ولا يراقب اكلهم فيستحيون بل يغض بصره ويشتغل بنفسه ولا
يمسك قبل اخوانه اذا كانوا يحتشمون الاكل بعده بل يمد اليد ويقبضها ويتناول قليلا
قليلا الى ان يستوفوا السابع ان لا يفعل ما يستقذره غيره فلا ينفض يده في القصعة ولا
يقدم اليها راسه عند وضع اللقمة في فيه واذا اخرج شيئا من فيه صرف وجهه عن الطعام
واخذه بيساره ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل ولا الخل في الدسومة فقد يكرهه غيره
واللقمة قطعها بسنه لا يغمس بقيتها في المرق الباب الرابع في آداب الضيافة وصفات الاداب
فيها ستة الدعوة ثم الاجابة ثم الحضور ثم تقديم الطعام ثم الاكل ثم الانصراف فضيلة الضيافة
قال رسول الله صلى الله عليه وآله لا تكلفوا للضيف فتبغضوه فان من ابغض الضيف فقد ابغض الله
ومن ابغض الله ابغضه الله وقال صلى الله عليه وآله لا خير فيمن لا يضيف ومر رسول الله صلى الله عليه وآله برجل له ابل
كثيرة فلم يضيفه ومر بامراة لها شويهات فذبحت له فقال عليه السلام انظروا اليهما انما هذه
الاخلاق بيد الله فمن شاء ان يمنحه خلقا حسنا فعل وقال ابو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وآله
انه نزل به ضيف فقال قل لفلان اليهودي نزل بي ضيف فاسلفني شيئا من الدقيق
الى رجب فقال اليهودي والله لا اسلفه الا برهن فاخبرته فقال والله اني لامين في
السماء امين في الارض ولو اسلفني لاديته فاذهب بدرعي وارهنها عنده وكان ابراهيم
الخليل صلوات الله عليه اذا اراد ان ياكل خرج ميلا او ميلين يلتمس من يتغدى معه وكان
يكنى ابا الضيفان ولصدق نيته دامت ضيافته في مشهده الى يومنا هذا فلا تنقضي
ليلة الا وياكل عنده جماعة من بين ثلاثة الى عشرة الى مائة والاخبار الواردة في فضل الضيافة
والاطعام لا تحصى ثم ذكر رحمه الله الاداب المذكورة على التفصيل على ما ينبغي قال رحمه الله

وذكر صاحب القصد في الباب الثالث الادب
تقديم الطعام الى الاخوان الزائرين له

ينبغي ان لا يقصد بدعوته المباهات والتفاخر بل استمالة قلوب الاخوان والتسنن
بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في اطعام الطعام وادخال السرور على قلوب
المؤمنين وينبغي ان لا يدعو من يعلم انه يشق عليه الاجابة ثم قال رحمه الله فهذه
ست نيات تلحق اجابتك بالقربات احادها فكيف مجموعها وكان بعض السلف
يقول انا احب ان يكون لي في كل عمل نية حتى في الطعام والشراب وفي هذا قال رسول الله
صلى الله عليه وآله انما الاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله
فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة يتزوجها فهجرته الى ما
هاجر اليه والنية انما تؤثر في المباحات والطاعات لا في المنهيات بل لو قصد بالغرض
بالذي هو طاعة انقلب مباحا وطلب لانا ان ينصرف عن جهة الطاعة وكذا المباح المتردد
بين وجوه الخيرات وغيرها يلتحق بوجوه الخيرات بالنيات ۔ ثم اورد رحمه الله حكي
عن ابراهيم النخعي انه قال الاكل في السوق دناءة واسنده الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم واسناده غريب
وقد نقل ضده وهو عن ابن عمر انه قال كنا نأكل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ونحن نمشي ونشرب
ونحن قيام ورأى بعض المشايخ من الصوفية المعروفين يأكل في السوق فقيل له في ذلك
فقال ويحك اجوع في السوق واكل في البيت فقيل يدخل المسجد فقال استحيي ان
ادخل بيته للاكل ووجهان الاكل في السوق تواضع وترك تكلف من بعض الناس
حسن وخرق مروة من بعضهم فهو مكروه ويختلف ذلك بعادات البلاد واحوال
الاشخاص فمن لا يليق ذلك بسائر احواله حمل ذلك على قلة المروة وفرط الشره وقدح
في الشهادة ومن يليق ذلك بجميع احواله وعاداته في ترك التكلف كان ذلك تواضعا ثم
اورد رحمه الله كلاما للشافعي انه قال الاكل على اربعة انحاء الاكل باصبع من المقت
باصبعين من الكبر وبثلاث اصابع من السنة وباربع وخمس من الشره وقال اربع يقوين
البدن اكل اللحم وشم الطيب وكثرة الغسل من غير جماع ولبس الكتان واربع توهن البدن
كثرة الجماع وكثرة الهم وكثرة شرب الماء على الريق وكثرة اكل الحموضة واربع يقوين البصر
الجلوس حيال القبلة والكحل عند النوم والنظر الى الخضرة وتنظيف المجلس واربع توهن البصر
النظر الى القذر والنظر الى المصلوب والنظر الى فرج المرأة والقعود مستدبر القبلة و
النوم على اربعة انحاء النوم على القفا وهو نوم الانبياء عليهم السلام يتفكرون في خلق السموات

والارض ونوم على اليمين وهو نوم العلماء والعباد ونوم على الشمال وهو نوم الملوك
ليهضم طعامهم ونوم على الوجه وهو نوم الشياطين واربع تزيد في العقل ترك الفضول
من الكلام والسواك ومجالسة الصالحين والعلماء واربع هن من العبادة ان لا تخطو خطوة
الا على وضوء وكثرة السجود ولزوم المساجد وكثرة قراءة القرآن وقال ايضا عجبت
لمن يدخل الحمام على الريق ثم يؤخر الاكل بعد ان يخرج كيف لا يموت وعجبت لمن احتجم ثم
يبادر الاكل كيف لا يموت وقال لم ار شيئا انفع للوباء من البنفسج يدهن ويشرب وهذا
آخر كتاب آداب الاكل ملخصا والحمد لله رب العالمين كتاب آداب النكاح قال رحمه الله
بعد الحمد والصلاة اما بعد فان النكاح معين على الدين ومهين للشياطين وحصن
دون عدو الله حصين وسبب للتكثير الذي به مباهات سيد المرسلين لسائر النبيين
فما احراه بان نتحرى اسبابه ونحفظ سننه وآدابه ونشرح مقاصده وآرابه ونفصل
فصوله وابوابه والقدر المهم من احكامه ينكشف في ثلاثة ابواب الباب الاول
في الترغيب فيه وعنه اعلم ان العلماء قد اختلفوا في فضل النكاح فبالغ بعضهم فيه
حتى زعم انه افضل من التخلي لعبادة الله تعالى واعترف آخرون بفضله ولكن قدموا
عليه التخلي لعبادة الله مهما لم تتق النفس الى النكاح توقانا يشوش الحال ويدعو الى
الوقاع وقال آخرون الافضل تركه في زماننا هذا وقد كان له فضيلة من قبل اذ لم تكن
الاكتساب محظورة واخلاق النساء مذمومة ولا ينكشف الحق فيه الا بان نقدم
اولا ما ورد من الاخبار والآثار في الترغيب فيه والترغيب عنه ثم نشرح فوائد النكاح
وغوائله حتى يتضح منها فضيلة النكاح وتركه في حق كل من سلم من غوائله او لم يسلم ثم
ذكر رحمه الله من الآيات والاخبار والآثار كثيرا في الترغيب في النكاح ثم بعد ذلك
اورد شيئا في الترغيب عن النكاح ثم قال رحمه الله فوائد النكاح خمس الولد وكسر
الشهوة وتدبير المنزل وكثرة العشيرة ومجاهدة النفس بالقيام بهن ثم بعد ذلك
ذكر آفات النكاح ثم اورد الباب الثاني فيما يراعى حالة العقد من احوال
المرأة وشروط العقد مثل اذن الولي ورضاها وحضور شاهدين والايجاب والقبول
وذكر آدابا تعقد من الخطبة بالنكاح اقامة السنة وغض البصر وطلب الولد وسائر
الفوائد التي ذكره رحمه الله ولا يكون قصده مجرد الهوى والتمتع فيصير عمله من اعمال

الدنيا ولا يمنع ذلك هذه النيات فيلتحق بوافق الهوى ثم ذكر رحمه الله الخصال
المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المرأة ليدوم العقد ويتوفر مقاصده وهي
ثمانية الدين والخلق والحسن وخفة المهر والولادة والبكارة والنسب وان لا تكون
قرابة قريبة ومر بيان الاولى قال رحمه الله الثانية حسن الخلق وذلك اصل مهم في طلب
الفراغة والاستعانة على الدين فانها اذا كانت سليطة بذية اللسان سيئة
الخلق كافرة للنعم كان الضرر منها اكثر من النفع والصبر على لسان النساء مما يمتحن
به الاولياء قال بعض العرب لا تنكحوا من النساء ستة لا انانة ولا منانة ولا حنانة
ولا حداقة ولا براقة ولا شداقة اما الانانة فهي التي تكثر الانين والتشكي
وتعصب رأسها كل ساعة فنكاح الممراضة والمتمارضة لا خير فيه والمنانة
التي تمن على زوجها فتقول فعلت لاجلك كذا وكذا والحنانة التي تحن الى زوج
آخر او ولدها من زوج آخر وهذا ايضا مما يجب اجتنابه والحداقة التي ترمي الى
كل شيء بحدقتها فتشتهيه وتكلف الزوج شراءه والبراقة تحتمل معنيين احدهما
ان تكون طول النهار في تصقيل وجهها وتزيينه ليكون لوجهها بريق محصل بالصنع
والثاني ان تغضب على الطعام فلا تأكل الا وحدها وتستقل نصيبها من كل شيء و
هذه لغة يمانية يقولون برقت المرأة وبرق الصبي الطعام اذا غضب عليه
والشداقة الكثيرة الكلام ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله يبغض الثرثارين
المتشدقين وحكي ان السائح الازدي لقي الياس عليه السلام في سياحته فامره بالتزوج
ونهاه عن التبتل ثم قال لا تنكح اربعا المختلعة والمبارية والعاهرة والناشز اما
المختلعة فهي التي تطلب الخلع كل ساعة من غير سبب والمبارية المباهية بغيرها المفاخرة
باسباب الدنيا والعاهرة الفاسقة التي تعرف بخليل وخدن وهي التي قال الله
عز وجل ولا متخذات اخدان والناشز التي تعلو على زوجها في الفعال
والمقال والنشز العالي من الارض وكان علي عليه السلام يقول شر خصال الرجال خير خصال النساء
البخل والزهو والجبن فان المرأة اذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال زوجها واذا كانت
مزهوة استنكفت ان تكلم كل احد بكلام مريب واذا كانت جبانة فرقت من كل شيء فلم
تخرج من بيتها واتقت مواضع التهمة خيفة من زوجها فهذه الحكايات ترشد الى مجامع

مجامع الاخلاق المطلوبة في النكاح الثالثة حسن الوجه الخ الباب الثالث في آداب
المعاشرة وما يجري في دوام النكاح وفيما على الزوج وفيما على الزوجة اما الزوج
فعليه مراعاة الاعتدال والآداب في اثني عشر امرا الاول الوليمة الثاني حسن الخلق معهن
بان يحتمل الاذى منهن ترحما عليهن لقصور عقلهن واكد اعتبار ان يزيد على احتمال
الاذى بالمداعبة والمزح والملاعبة اذ هي التي تطيب قلوب النساء فقد كان رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم يمزح معهن وينزل الى درجات عقولهن في الاعمال والاخلاق حتى روي انه
كان عليه السلام يسابق عائشة في العدو فسبقته يوما وسبقها في بعض الايام فقال عليه السلام
هذه بتلك الرابع ان لا ينبسط في الدعابة وحسن الخلق والموافقة باتباع هواها الى
حد يفسد خلقها ويسقط بالكلية هيبته عندها بل يراعي الاعتدال في ذلك فلا يدع
الهيبة والانقباض مهما رأى منكرا ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة بل مهما
رأى ما يخالف الشرع غضب وقد قال عليه السلام تعس عبد الزوجة وانما قال ذلك لانه اذا
اطاعها في هواها فهو عبدها وقد تعس فان الله ملكه المرأة فملكها نفسه فقد عكس الامر
وقلب القضية واطاع الشيطان لما قال ولآمرنهم فليغيرن خلق الله اذ حق الرجل
ان يكون متبوعا لا تابعا وقد سمى الله تعالى الرجال قوامين على النساء وسمى الزوج سيدا
فقال تعالى والفيا سيدها لدى الباب فاذا انقلب السيد مسخرا فقد بدل نعمة الله كفرا
ونفس المرأة على مثال نفسك ان ارسلت عنانها قليلا جمحت بك طويلا وان
ارخيت عذارها فترا جذبتك ذراعا وان كبحتها وشددت يدك عليها في محل
الشدة ملكتها وعلى الجملة فبالعدل قامت السموات والارض فكل ما جاوز حده انعكس
على ضده فينبغي ان يسلك سبيل الاقتصاد في المخالفة والموافقة ويتبع الحق في جميع
ذلك ليسلم من شرهن فان كيدهن عظيم وشرهن فاش والغالب عليهن سوء الخلق
وركاكة العقل ولا يعتدل ذلك منهن الا بنوع لطف ممزوج بسياسة الخامس
الاعتدال في الغيرة وهو ان لا يتغافل عن مبادئ الامور التي تخشى غوائلها ولا يبالغ
في اساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان يتبع عورات
النساء السادس الاعتدال في النفقة فلا ينبغي ان يقتر عليهن في الانفاق ولا ينبغي
ان يسرف بل يقتصد قال الله تعالى كلوا واشربوا ولا تسرفوا وقال تعالى ولا تجعل يدك

معاونة العنقك ولا بسطها كل البسط السابع ان يتعلم المتزوج من علم الحيض
واحكامه ما يحترز به الاحتراز الواجب ويعلم زوجته احكام الصلوة وما تقضي
منها في الحيض وما لا تقضي فانه امر بان يقيها النار بقوله تعالى قوا انفسكم واهليكم
نارا فعليه ان يلقنها احكام الواجبات وشرايطها ولوازمها الثامن اذا كان
له نسوة فينبغي ان يعدل بينهن ولا يميل الى بعضهن قال رسول الله صلعم من كان له امرأتان
فمال الى احديهما دون الاخرى وفي لفظ اخر ولم يعدل بينهما جاء يوم القيمة واحد شقيه
مائل وانما عليه العدل في العطاء والمبيت اما في الحب والوقاع فذلك لا يدخل تحت الاختيار
التاسع في النشوز ومهما وقع بينهما خصام ولم يلتئم امرهما فان كان من جانبهما
جميعا او من الرجل فليبعث حكمين من اهله ومن اهلها ليصلحا بينهما واما اذا كان من
المرأة خاصة فالرجال قوامون على النساء فله ان يؤدبها بالتدريج بان يقدم اولا
الوعظ والتحذير والتخويف فان لم ينجع ولاها ظهره في المضجع او انفرد عنها بالفراش
وهجرها فان لم ينفع ضربها هونا العاشر في اداب الجماع ويستحب ان يبدأ ببسم الله
الرحمن الرحيم العلي العظيم ويقرأ قل هو الله احد اولا ويكبر ويهلل ويقول بسم الله
ثم اللهم اجعلها ذرية طيبة ان كنت قدرت ان تخرج من صلبي ذلك وقال صلعم لو
ان احدكم اذا اتى اهله قال اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فان
كان بينهما ولد لم يضره الشيطان فاذا قرب من الانزال فليقل في نفسه ولا يحرك
شفتيه الحمد لله الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ثم
ثم لينحرف عن القبلة ولا يستقبلها بالوقاع اكراما للقبلة وليغط نفسه واهله بثوب
كان رسول الله صلعم يغطي راسه ويغض صوته ويقول للمرأة عليك بالسكينة وفي الخبر
اذا جامع احدكم امرأته فلا يتجردان تجرد العيرين وليقدم التلطف بالكلام و
التقبيل قال رسول الله صلعم لا يقعن احدكم على امرأته كما تقع البهيمة لكن ليقدم بينهما
قيل وما يقدم فقال صلعم القبلة والكلام ويكره الجماع في ثلث ليالي من الشهر
الاول والاخر والنصف يقال ان الشيطان يحضر الجماع في هذه الليالي ويقال
ان الشيطان يجامع فيها وينبغي ان لا ياتيها في الحيض ولا بعد انقضائه وقبل
الغسل فان ذلك محرم بنص الكتاب ويورث الجذام في الولد وله ان يستمتع

بجميع بدن الحائض ولا ياتيها في غير المأتى اذ حرم غشيان الحائض لاجل الاذى في
الاذى في غير المأتى دائم فهو اشد تحريما من اتيان الحائض وقوله تعالى فاتوا حرثكم
انى شئتم اي اي وقت شئتم وله ان يستمني بيديها وان يستمتع بما تحت الازار
منها سوى الوقاع ثم قال رحمه الله ومن الاداب ان لا يعزل الحر وقد اختلف — قال رحمه
العلماء في اباحته وكراهته على اربعة مذاهب فمن مبيح مطلقا بكل حال ومن محرم
بكل حال ومن قائل يحل برضاها ولا يحل بدون رضاها وكان هذا القائل
يحرم الايذاء دون العزل ومن قائل يباح في المملوكة دون الحرة والصحيح عندنا
ان ذلك مباح والكره قال رحمه الله فان قلت فقد قال رسول الله صلعم من ترك
النكاح مخافة العيال فليس منا قلنا العزل كترك النكاح وقوله ليس منا
اي ليس موافقا لنا على سنتنا وطريقتنا وسنتنا فعل الافضل فان قلت فقد
قال ابن عباس العزل هو الوأد الاصغر وان الممنوع وجوده ابو هي الموؤدة
الصغرى قلنا هذا قياس منه لدفع الوجود على قطعه وهو قياس ضعيف وكذلك
انكر عليه علي لما سمع وقال لا يكون موؤدة الا بعد سبع اي بعد سبعة اطوار
وتلا قوله في الاية الواردة في اطوار الخلقة ولقد خلقنا الانسان من سلالة من
طين الى قوله ثم انشاناه خلقا اخر اي نفخنا فيه الروح ثم تلا قوله تعالى في الاية
الاخرى واذا الموؤدة سئلت واذا نظرت الى ما قدمنا في طريق القياس والاعتبار
ظهر لك تفاوت منصب علي وابن عباس رضي الله عنهم في الغوص على المعاني ودرك العلوم
كيف كان والمتفق عليه في الصحيحين عن جابر قال كنا نعزل على عهد رسول الله صلعم
والقران ينزل وعن جابر ايضا انه قال ان رجلا اتى النبي صلعم فقال ان لي جارية
وهي خادمنا وسانيتنا في النخل وانا اطوف عليها واكره ان تحمل فقال صلعم اعزل
عنها ان شئت فانها سياتيها ما قدر لها قال فلبث الرجل ثم اتاه فقال ان الجارية قد
حبلت فقال صلعم قد اخبرتك انه سياتيها ما قدر لها ذلك في الصحيحين ثم ذكر رحمه الله
من جملة اداب الولادة عدم الفرح على الذكور والحزن على الاناث قال وعن انس
قال رسول الله صلعم من حمل طرفة من السوق الى عياله فكانما حمل اليهم صدقة حتى
يضعها فيهم وليبدأ بالاناث قبل الذكور فانه من فرح انثى فكانما بكى من خشية الله

ومن بكى من خشية الله تعالى حرم الله عينه على النار ثم قال رحمه الله في كتاب آداب الكسب والمعاش وهو الثالث من ربع العادات بعد ذكر الحمد والصلوة اما بعد فان رب الارباب ومسبب الاسباب جعل الاخرة دار الثواب والعقاب والدنيا دار التمحل والاضطراب والتشمر والاكتساب وليس التشمر في الدنيا مقصورا على المعاد دون المعاش بل المعاش ذريعة الى المعاد ومعين عليها فالدنيا مزرعة الاخرة ومدرجة اليها والناس ثلثة رجل شغله معاشه عن معاده فهو من الهالكين ورجل شغله معاده عن معاشه فهو من الفائزين والاقرب الى الاعتدال هو الثالث الذي شغله معاشه لمعاده فهو من المقتصدين ولن ينال رتبة الاقتصاد ما لم يلازم في طلب المعيشة منهج السداد ولن ينتهض طلب الدنيا وسيلة الى الاخرة وذريعة ما لم يتأدب في طلبها بآداب الشريعة وها نحن نورد آداب التجارات والصناعات وضروب الاكتسابات وسننها ونشرحها في خمسة ابواب

الباب الاول في فضل الكسب والحث عليه فذكر رحمه الله لذلك من الآيات والاخبار والآثار كثيرا ثم قال رحمه الله فان قلت فقد قال ص ما اوحي الي ان اجمع المال وكن من التاجرين ولكن اوحي الي ان سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين وقيل لسلمان الفارسي اوصنا فقال من استطاع منكم ان يموت حاجا او غازيا او عامرا لمسجد ربه فليفعل ولا يموتن تاجرا ولا خائنا فالجواب ان وجه الجمع بين هذه الاخبار تفصيل الاحوال فنقول لسنا نقول التجارة افضل مطلقا من كل شيء ولكن التجارة اما ان يطلب بها الكفاية او الثروة والزيادة على الكفاية فان طلب منها الزيادة على الكفاية لاستكثار المال وادخاره لا لتصرف الى الخيرات والصدقات فهي مذمومة لانه اقبال على الدنيا التي حبها رأس كل خطيئة فان كان مع ذلك خائنا فهو ظلم وفسق وهذا ما اراده سلمان واما اذا طلب بها الكفاية لنفسه واولاده وكان يقدر على كفايتهم بالسؤال فالتجارة تعففا عن السؤال افضل وان كان لا يحتاج وكان يعطى من غير سؤال فالكسب افضل لانه انما يعطى لانه سائل بلسان حاله ومناد بين الناس بفقره فالتعفف والتستر اولى من البطالة بل من الاشتغال بالعبادات البدنية وترك الكسب

وترك الكسب افضل لاربعة عابد بالعبادات البدنية او رجل له سير باطن وعمل بالقلب في علوم الاحوال والمكاشفات او عالم مشتغل بتربية علم الظاهر مما ينتفع الناس به في دينهم كالمفتي والمفسر والمحدث وامثالهم او رجل مشتغل بمصالح المسلمين وقد تكفل بامورهم كالسلطان والقاضي والشاهد فهؤلاء اذا كانوا يكفون من الاموال المرصدة للمصالح او الاوقاف المسبلة على الفقراء او العلماء فاقبالهم على ما هم عليه افضل من الاشتغال بالكسب ولهذا اوحي الى رسول الله ص ان سبح بحمد ربك وكن من الساجدين ولم يوح اليه ان كن من التاجرين لانه كان جامعا لهذه المعاني الاربعة الى زيادات لا يحيط بها الوصف ولهؤلاء الاربع حالتان اخريان احداهما ان يكون كفايتهم عند ترك الكسب من ايدي الناس وما يتصدق به عليهم من زكوة او صدقة من غير حاجة الى سؤال فترك الكسب والاشتغال بما هم فيه اولى اذ فيه اعانة الناس على الخيرات وقبول منهم لما هو حق عليهم او افضل لهم الحالة الثانية الحاجة الى السؤال وهذا محل النظر والتشديدات التي رويناها في السؤال وذمه يدل ظاهرها على ان التعفف عن السؤال اولى واطلاق القول فيه من غير ملاحظة الاحوال والاشخاص عسر بل هو موكول الى اجتهاد العبد ونظره لنفسه بان يقابل ما يلقى في السؤال من المذلة وهتك المروة والحاجة الى التثقيل والالحاح بما يحصل من اشتغاله بالعلم والعمل من الفائدة له ولغيره فرب شخص تكثر فائدة الخلق وفائدته في اشتغاله بالعلم او العمل ويهون عليه بادنى تعريض في السؤال تحصيل الكفاية وربما يكون بالعكس وربما يتقابل المطلوب والمحذور فينبغي ان يستفتي المريد فيه قلبه فان الفتوى لا تحيط بتفاصيل الصور ودقائق الاحوال فقد كان في السلف من له ثلثمائة وستون صديقا ينزل على كل واحد في ليلة ومن له ثلاثون فكانوا يشتغلون بالعبادة لعلمهم بان المتكفلين بهم يتقلدون منه في قبول مبراتهم فكان قبولهم لخيراتهم خيرا مضافا لهم الى عباداتهم فينبغي ان يدقق النظر في هذه الامور فان اجر الاخذ كاجر المعطي مهما كان الاخذ يستعين به على الدين والمعطي يعطيه عن طيب قلب ومن اطلع على هذه المعاني امكنه ان يتعرف حال نفسه ويستوضح من قلبه ما هو الافضل له بالاضافة الى حاله ووقته فهذه فضيلة الكسب ولكن العقد الذي به الاكتساب جامع الاربعة امور الصحة والعدل والاحسان

والشفقة على الدين ونحن نعقد في كل واحد بابا ونبتدي بذكر اسباب الصحة في الباب
الثاني **الباب الثاني** في علم الكسب بطريق البيع والربا والسلم والاجارة والقراض
والشركة وبيان شروط الشرع في صحة هذه التصرفات التي هي مدار المكاسب في الشرع
اعلم ان تحصيل علم هذا الباب واجب على كل مكتسب لان طلب العلم فريضة على كل مسلم
وانما هو طلب العلم المحتاج اليه وعلم الكسب ولا بد من هذا العلم ليتميز المباح من المحظور
وموضع الاشكال عن موضع الوضوح ثم شرح العقود على الترتيب واركانها والحكم
وشرائطها على التفصيل كما هو ما ذكره رحمه الله **الباب الثالث** في بيان العدل في
اجتناب الظلم في المعاملة **اعلم** ان المعاملة قد تجري على وجه يحكم المفتي بصحتها وانعقادها
ولكنها تشتمل على ظلم يتعرض به المعامل لسخط الله تعالى اذ ليس كل نهي يقتضي فساد العقد
وهذا الظلم نعني به ما استضر به الغير وهو ينقسم الى ما يعم ضرره والى ما يخص المعامل
الاول كالاحتكار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من احتكر الطعام اربعين يوما ثم تصدق
به لم يكن صدقته كفارة لاحتكاره وقيل كانما قتل نفسا **والثاني** كل ما يستضر
المعامل فهو ظلم وانما العدل ان لا يضر باخيه المسلم والضابط الكلي فيه ان لا يحب له الا
ما يحب لنفسه فكل ما لو عومل به شق عليه وثقل على قلبه فينبغي ان لا يعامل غيره به بل
ينبغي ان يستوي عنده درهمه ودرهم غيره قال بعضهم من باع اخاه شيئا بدرهم وليس يصلح
له لو اشتراه لنفسه الا بخمسة دوانيق هذه جملته واما تفصيله ففي اربعة امور ان لا يثني
على السلعة بما ليس فيها وان لا يكتم من سعرها ما لو عرفه المعامل لامتنع منه وان لا
يكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئا اصلا وان لا يكتم في وزنها ومقدارها شيئا **اما**
الاول فان وصفه للسلعة ان كان بما ليس فيها فهو كذب فان قبل فهو تلبيس وظلم
مع كونه كذبا وان اثنى على السلعة بما فيها فهو هذيان وتكلم بكلام لا يعنيه وهو محاسب
على كل كلمة تصدر منه لم تكلم بها قال الله تعالى ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وما
ينبغي ان يحلف عليه البتة فانه ان كان كاذبا فقد جاء باليمين الغموس وهي من الكبائر
التي تذر الديار بلاقع وان كان صادقا فقد جعل الله عرضة لايمانه وقد اساء فيه
اذ الدنيا اخس من ان يقصد ترويجها بذكر الله من غير ضرورة وفي الخبر ويل للتاجر من
بلى والله ولا والله ثم ذكر رحمه الله ان اظهار جميع عيوب المبيع خفيها وجليها وعدم كتمان

لان ترك النصح المامور به في المعاملة ظلم اذ لم يحب لاخيه ما يحب لنفسه

كتمان شيء منها واجب فان اخفاه كان ظالما غاشا والغش حرام وكان تاركا للنصح
في المعاملة والنصح واجب ومهما اظهر احسن وجهي الثوب واخفى الثاني كان غاشا وكذلك
اذا عرض الثياب في المواضع المظلمة واورد لذلك كثيرا من الاخبار ثم قال رحمه الله الذي
لا بد من اعتقاده ليتم له النصح ويتيسر عليه ان يعلم ان ربح الاخرة وغناه خير من ربح
الدنيا وان فوائد اموال الدنيا تنقضي بانقضاء العمر وتبقى مظالمها واوزارها فكيف
يستجيز العاقل ان يستبدل الذي هو ادنى بالذي هو خير والخير كله في سلامة الدين
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزال لا اله الا الله تدفع عن الخلق سخط الله ما لم يؤثروا صفقة
دنياهم على آخرتهم وفي لفظ آخر ما لم يبالوا ما نقص من دنياهم مع سلامة دينهم فاذا
فعلوا ذلك وقالوا لا اله الا الله قال الله تعالى كذبتم لستم بها صادقين ومن علم ان هذه الامور
تامة حتى في ايمانه وان ايمانه رأس ماله في تجارة الاخرة لم يضيع رأس ماله المعد لعمر لا اخر
له بسبب ربح ينتفع به اياما معدودة **فان قلت** فلا تتم المعاملة بها وجب على الانسان
ان يذكر عيوب المبيع **فاقول** ليس كذلك اذ شرط التاجر ان لا يشتري للبيع الا الجيد الذي
يرتضيه لنفسه لو امسكه ثم يقنع في بيعه بربح يسير فيبارك الله تعالى له فيه ولا يحتاج الى تلبيس
وانما تعذر هذا لانهم لا يقنعون بالربح اليسير وليس يسلم الكثير الا بالتلبيس فمن تعود هذا
لم يشتر المعيب فان وقع في يده معيب نادرا فليذكره وليقنع بقيمته باع ابن سيرين شاة
فقال للمشتري ابرأ اليك من عيب انها تقلب العلف برجلها وباع الحسن بن صالح جارية واخبر
بمثل ما ذكر للمشتري فهكذا كانت سيرة اهل الدين فمن لا يقدر عليه فليترك المعاملة او
ليوطن نفسه على عذاب الآخرة ثم بين رحمه الله بقية [illegible] في المعاملة ووجوبها بالآيات
والاخبار قال الله تعالى ويل للمطففين الآية وهكذا من حرم كتمان السعر ثم اورد رحمه الله
الباب الرابع في احسان المعاملة ونيل زيادة اجور الخامس في شفقة التاجر على دينه
كتاب الحلال والحرام وهو الرابع من ربع العادات قال رحمه الله بعد الخطبة ونرتب
ذلك في سبعة ابواب الباب الاول في فضيلة طلب الحلال ومذمة الحرام ومراتب الحلال
والحرام واورد لفضيلة الحلال ومذمة الحرام آيات كثيرة ومن الاخبار قوله عليه السلام من اكل الحلال
اربعين يوما نور الله قلبه واجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وفي رواية اخرى زهده الله
في الدنيا وفي حديث ابي هريرة المعدة حوض البدن والعروق اليها واردة فاذا صحت المعدة

صدرت العروق بالصحة وإذا ساءت صدرت بالسقم ومثل المطعم من الدين مثل الأساس
من البنيان فإذا ثبت الأساس وقوي استقام البناء وارتفع فإذا ضعف الأساس و
اعوج وقع البنيان وقد قال تعالى أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله الآية ومن الآثار
ذكر رحمه الله كثيرا ثم ذكر أصناف الحلال ثم درجات الحلال والحرام على التفصيل اللائق ثم
أورد رحمه الله الباب الثاني في مراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام
قال رسول الله صلعم الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات لا يعلمها كثير من الناس
فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي
حول الحمى يوشك أن يقع فيه ثم بعد التفصيل البالغ والبسط الكامل أورد الباب الثالث
في البحث والسؤال قال رحمه الله اعلم أن كل من قدم إليك طعاما أو هدية أو أردت أن
تشتري منه أو تتهب فليس لك أن تفتش عنه وتسأل أن تقول هذا مما لا أتحقق
حله فلا آخذه بل أفتش عنه وليس لك أيضا أن تترك البحث فتأخذ من كل أحد و
تأخذ كل ما لا تتيقن تحريمه بل السؤال واجب مرة وحرام مرة ومندوب إليه مرة و
مكروه مرة ولا من تفصيله وقد فصله رحمه الله تفصيلا بليغا ثم أورد الباب الرابع في
كيفية خروج التائب من المظالم المالية ثم الباب الخامس في إدرارات السلاطين
وصلاتهم وما يحل منها وما يحرم قال رحمه الله اعلم أن من أخذ مالا من سلطان فلا بد له
من النظر في ثلاثة أمور في مدخل ذلك المال إلى يد السلطان من أين هو وفي صفته التي
يستحق بها الأخذ وفي المقدار الذي يأخذه هل يستحقه إذا أضيف إلى حاله وحال
شركائه في الاستحقاق ثم أورد الباب السادس فيما يحل من مخالطة السلاطين
الظلمة وما يحرم اعلم أن لك مع الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال الحالة الأولى
وهي شرها أن تدخل عليهم إلخ ثم ذكر كذلك ثلث غوائل أن يلقى السلطان
أخذك أن بالرطب ولولاه لا تمد إليه اليد ولا تدخل في ضمانك وأن ينظر
الناس إليك من العلماء والجهال فيقتدون بك في الأخذ ويستدلون به على جوازه
وأن يفرق عليك لا حاجة لتخصيصها بأنك وإيثاره لك ثم أورد الباب السابع
في مسائل متفرقة كتاب آداب الصحبة والأخوة والمعاشرة مع أصناف
الخلق وهو الكتاب الخامس قال رحمه الله بعد الخطبة نحن نبين مقاصده

هذا الكتاب في ثلاثة أبواب الباب الأول في فضيلة الألفة ثم الأخوة في الله
وشروطها ودرجاتها وفوائدها وذكر رحمه الله لذلك من الآيات والأخبار كثيرا
والآثار ثم ذكر بيان معنى الأخوة في الله وتمييزها عن الأخوة في الدنيا و
ذكر أقسامها ثم اعتبر القسم الأول وهو حبك الإنسان لذاته فذلك ممكن إلخ ثم
قال رحمه الله والحق فيه هذا أن المشاهدة والتجربة تشهد للائتلاف عند التناسب
التناسب في الطباع والأخلاق باطنا وظاهرا أمر مفهوم وأما الأسباب التي أوجبت
تلك المناسبة فليس في قوة البشر الاطلاع عليها وغاية هذيان المنجم أن يقول إذا
كان طالعه على تسديس طالع غيره أو تثليثه فهذا نظر الموافقة والمودة فيقتضي
التناسب والتواد وإذا كان على مقابلته أو تربيعه اقتضى التباغض والعداوة
فهذا لو صدق بكونه كذلك في مجاري سنة الله في خلق السموات والأرض لكان
الإشكال فيه أكثر من الإشكال في أصل التناسب فلا معنى للخوض
فيما لم يكشف سره للبشر فما أوتينا من العلم إلا قليلا ويكفينا في التصديق بذلك التجربة
والمشاهدة وقد ورد الخبر به ويدل على أن شبه الشيء منجذب إليه بالطبع وإن كان
هو لا يشعر به وكان مالك بن دينار يقول لا يتفق اثنان في عشرة إلا وفي أحدهما
وصف من الآخر وإن أشكال الناس كأجناس الطير ولا يتفق نوعان من الطير في
الطيران إلا وبينهما مناسبة وإذا اصطحب اثنان برهة من زمان ولم يتشاكلا في
الحال فلا بد وأن يفترقا وهذا معنى خفي تفطن له الشعراء فقد ظهر من هذا أن الإنسان
يحب لذاته لا لفائدة تنال منه في حال أو مآل بل لمجرد المجانسة والمناسبة في الطباع
الباطنة والأخلاق الخفية ويدخل في هذا القسم الحب للجمال إذا لم يكن المقصود
قضاء الشهوة فإن الصور الجميلة مستلذة في عينها وإن قدر فقد أصل الشهوة حتى
يستلذ النظر إلى الفواكه والأنوار والأزهار والتفاح المشرب بالحمرة وإلى الماء
والخضرة من غير غرض سوى عينها فهذا الحب لا يدخل فيه الحب لله تعالى بل هو حب
بالطبع وشهوة النفس ويتصور ذلك ممن لا يؤمن بالله إلا أنه إن اتصل به غرض مذموم
صار مذموما كحب الصورة الجميلة لقضاء الشهوة حيث لا يحل قضاؤها وإن لم يتصل
به غرض مذموم فهو مباح لا يوصف بحمد ولا ذم القسم الثاني أن يحبه لينال منه

فتفطن

من ذاته فيكون وسيلة الى محبوب غيره والوسيلة الى المحبوب محبوب وما يحب لغيره
كان ذلك الغير هو المحبوب بالحقيقة ولكن الطريق الى المحبوب محبوب ولذلك
احب الناس الذهب والفضة ولا غرض فيهما اذ لا يطعم ولا يلبس ولكنهما وسيلة
الى المحبوبات فمن الناس من يحب كما يحب الذهب والفضة من حيث انه وسيلة الى
المقصود اذ يتوصل به الى نيل جاه او مال او علم كما يحب الرجل سلطانا لانتفاعه
بماله او جاهه ويحب خواصه لتحسينهم حاله عنده وتمهيدهم امره في قلبه فالمتوسل
اليه ان كان مقصور الفائدة على الدنيا لم يكن من جملة الحب في الله وان لم يكن
مقصور الفائدة على الدنيا ولكن ليس يقصد به الا الدنيا كحب التلميذ استاذه فهو
ايضا خارج عن الحب لله فانه انما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه فمحبوبه العلم فاذا كان
لا يقصد العلم التقرب الى الله تعالى بل لينال به الجاه والمال والقبول عند الخلق فمحبوبه
ذلك والعلم وسيلة اليه والاستاذ وسيلة الى العلم فليس في شيء من ذلك حب لله
اذ يتصور كل ذلك ممن لا يؤمن بالله تعالى اصلا ثم ينقسم هذا الى مذموم ومباح فان كان
يقصد به التوصل الى مقاصد مذمومة ومباح اذ كان يقصد به التوصل الى مباح
وانما تكتسب الوسيلة الحكم والصفة من المقصد المتوصل اليه فانها تابعة له غير قائمة
بنفسها **القسم الثالث** ان يحبه لا لذاته بل لغيره وذلك الغير ليس راجعا الى
حظوظه في الدنيا بل يرجع الى حظوظه في الاخرة فهذا ايضا ظاهر لا غموض فيه
وذلك كمن يحب استاذه وشيخه لانه يتوصل به الى تحصيل العلم وتحسين العمل بالعلم
ومقصوده من العمل والعلم الفوز في الاخرة فهذا من جملة المحبين في الله وكذلك من
يحب تلميذه لانه يتلقف منه العلم وينال بواسطته رتبة التعليم ويرقى به الى درجة
التعظيم في ملكوت السماء قال عيسى عم من علم وعمل فذلك يدعى عظيما في ملكوت السماء
ولا يتم التعليم الا بمتعلم فهو اذا ايضا آلة في تحصيل هذا الكمال فان احبه لانه آلة له
اذ جعل صدره مزرعة لحرثه الذي هو سبب ترقيه الى رتبة العظمة في ملكوت السماء
فهو محب في الله تعالى بل الذي يتصدق باموال الله سبحانه ويجمع الضيفان ويهيئ لهم
الاطعمة اللذيذة الغريبة تقربا الى الله تعالى فاحب طباخا لحسن صنعته في الطبخ فهو
من جملة المحبين في الله تعالى بل نزيد على هذا ونقول اذا احب من يخدمه بنفسه في

في غسل ثيابه وكنس بيته وطبخ طعامه ويفرغه بذلك للعلم والعمل ومقصوده من
استخدامه في هذه الاعمال الفراغ في العبادة بل اذا احب من ينفق عليه ويواسيه
بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع اغراضه التي يقصدها في دنياه ومقصوده من
جملة ذلك الفراغ للعلم والعمل المقرب الى الله تعالى فهو محب في الله تعالى بل نزيد على
ذلك ونقول من نكح امراة صالحة ليتحصن بها عن وسواس الشيطان ويصون بها
دينه او ليولد له ولد صالح يدعو له واحب زوجته لانها آلة الى هذه المقاصد
الدينية فهو محب في الله تعالى ولذلك ورد في الاخبار وفور الاجر والثواب على الانفاق
على العيال حتى اللقمة يضعها في فم امرأته بل نقول كل من استهتر بحب الله وحب رضاه
وحب لقائه في الاخرة فاذا احب غيره كان محبا في الله لانه لا يتصور ان يحب شيئا
الا لمناسبته لما هو محبوب عنده وهو رضا الله تعالى بل ازيد على هذا واقول اذا
اجتمع في قلبه محبتان محبة الله تعالى ومحبة الله تعالى ومحبة الدنيا واجتمع في شخص واحد
المعنيان جميعا حتى صلح لان يتوسل به الى الله تعالى والدنيا فاذا احبه لصلاحه للامرين
فهو من المحبين في الله تعالى كمن يحب استاذه الذي يعلمه الدين ويكفيه مهمات الدنيا
بالمواساة في المال فاحبه من حيث ان في طبعه طلب الراحة في الدنيا والسعادة في
الاخرة وهو وسيلة اليهما فهو محب في الله سبحانه وليس من شرط حب الله تعالى ان
لا يحب في العاجل حظا البتة اذ الدعاء الذي امر به الانبياء فيه جمع بين الدنيا
والاخرة فمن ذلك قولهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقال عيسى
في دعائه اللهم لا تشمت بي عدوي ولا تسؤ بي صديقي ولا تجعل مصيبتي في ديني ولا
تجعل الدنيا اكبر همي وقال نبينا صلعم في دعائه اللهم اني اسألك رحمة انال بها شرف
كرامتك في الدنيا والاخرة وعلى الجملة فاذا لم يكن حب السعادة في الاخرة مناقضا
لحب الله تعالى فحب السلامة والصحة والكفاية والكرامة في الدنيا كيف يكون مناقضا
لحب الله تعالى والدنيا والاخرة حالتان لك احدهما اقرب من الاخرى فكيف يتصور ان
يحب الانسان حظوظ نفسه غدا ولا يحبها اليوم لان الغد سيصير حالا راهنة فالحالة الراهنة لا بد
وان تكون مطلوبة ايضا الا ان الحظوظ العاجلة منقسمة الى ما يضاد حظوظ الآخرة
ويمنع منها وهي التي احترز عنها الانبياء والاولياء وامروا بالاحتراز عنها والى ما لا يضاد

وهو الذي لم يمنعوا منها كالنكاح الصحيح واكل الحلال وغير ذلك مما يضاد حظوظ
الاخرة نحو الرجل انما قلنا ان يكرههم ولا نعني اعني انه يكرههم بعقله لا بطبعه كما
يكره التناول من طعام لذيذ لملك من الملوك يعلم انه لو اقدم عليه لقطعت يده
لا نعني ان الطعام اللذيذ يصير بحيث لا يشتهيه بطبعه ولا يستلذه لو اكله فان ذلك
محال ولكن على معنى انه يزجره عقله عن الاقدام عليه وتحصل فيه كراهية للضرر
المتعلق به والمقصود من هذا انه لو احب استاذه لانه يرفعا سيء فعله او قلبه لانه
يتعلم منه ويخدمه واحدهما حظ عاجل والآخر آجل فيكون في زمرة المتحابين في
الله تعالى ولكن بشرط واحد وهو ان يكون بحيث لو منعه العلم مثلا او تعذر عليه
تحصيل منه لنقص حبه بسببه فالقدر الذي ينقص بسبب فقده هو لله تعالى وله على ذلك
القدر ثواب الحب في الله الخ ثم اورد رحمه الله بعد بيان القسم الرابع وهو الحب
لله تعالى وفي الله تعالى لا لينال منه علما او عملا الخ ثم بيان البغض في الله تعالى على التفصيل
ثم بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته قال اعلم انه لا يصلح للصحبة كل انسان الخ

الباب الثاني في حقوق الاخوة والصحبة على التفصيل ثم قال رحمه الله ومن ذلك
التعليم والنصيحة فليس حاجة اخيك الى العلم باقل من حاجته الى المال فان كنت غنيا
بالعلم فعليك مواساته من فضلك وارشاده الى كل ما ينفعه في الدين والدنيا فان علمته
وارشدته فلم يعمل بمقتضى العلم فعليك نصحه وذلك بان تذكر آفات ذلك الفعل
وفوائد تركه وتخوفه بما يكرهه في الدنيا والاخرة لينزجر عنه وتنبهه على عيوبه وتقبح
القبيح في عينه وتحسن الحسن ولكن ينبغي ان يكون ذلك في سر لا يطلع عليه احد فما
كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة اذ قال صلى الله
عليه وآله وسلم المؤمن مرآة المؤمن اي يرى منه ما لا يرى من نفسه فيستفيد المرء
باخيه معرفة عيوب نفسه ولو انفرد لم يستفد كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته
الظاهرة قال الشافعي رحمه الله من وعظ اخاه سرا فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد
فضحه وشانه وقد صدق فان النصح على الملأ افتضاح والله تعالى يعاتب المؤمن يوم القيامة
تحت كنفه وفي ظل ستره فيوقفه على ذنوبه سرا وقد يدفع كتاب عمله مختوما الى الملائكة
الذين يحفون به الى الجنة فاذا قاربوا باب الجنة اعطوه الكتاب مختوما ليقرأه واما

اهل المقت فينادون على رؤوس الاشهاد وتستنطق جوارحهم بفضائحهم فيزدادون بذلك
خزيا وافتضاحا نعوذ بالله من الخزي يوم العرض الاكبر فالفرق بين التوبيخ
والنصيحة بالاسرار والاعلان كما ان الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث
على الاغضاء فان اغضيت لسلامة دينك ولما ترى فيه من اصلاح اخيك بالاغضاء فانت
مدار وان اغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فانت
مداهن قال ذو النون لا تصحب مع الله الا بالموافقة ولا مع الخلق الا بالمناصحة
ولا مع النفس الا بالمخالفة ولا مع الشيطان الا بالعداوة فان قلت اذا كان في
النصح ذكر العيوب وفيه ايحاش القلوب كيف يكون ذلك من حق الاخوة فاعلم
ان الايحاش انما يحصل بذكر عيب يعلمه اخوك من نفسه فاما تنبيهه على ما لا يعلمه فهو
عين الشفقة وهو استمالة للقلوب اعني قلوب العقلاء واما الحمقى فلا يلتفت اليهم
فان من ينبهك على فعل مذموم تعاطيته او صفة مذمومة اتصفت بها لتزكي نفسك
عنها كان كمن ينبهك على حية او عقرب تحت ذيلك وقد همت باهلاكك فان كنت تكره
ذلك فما اشد حمقك والصفات المذمومة عقارب وحيات وهي في الاخرة مهلكات
فانها تلدغ القلوب والارواح والمها اشد مما يلدغ الظواهر والاجساد وهي مخلوقة
من نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة ولذلك كان عمر يقول رضي الله عنه رحم الله امرءا اهدى
الى اخيه عيوبه واعلم ان من قرأ القرآن ولم يستغن واثر الدنيا لم آمن من ان يكون
بآيات الله من المستهزئين وقد وصف الله تعالى الكافرين ببغضهم للناصحين اذ قال
ولكن لا تحبون الناصحين وهذا في عيب هو غافل عنه فاما اذا علمت انه يعلمه من
نفسه وانما هو مقهور عليه من طبعه فلا ينبغي ان يكشف عنه ستره ان كان يخفيه وان كان
يظهره فلا بد من التلطف في النصح بالتعريض مرة وبالتصريح اخرى الى حد لا يؤدي الى
الايحاش فان علمت ان النصح غير مؤثر فيه وانه مضطر من طبعه الى الاصرار عليه فالسكوت
عنه اولى وهذا كله فيما يتعلق بمصالح اخيك في دينه او دنياه واما ما يتعلق بتقصيره
في حقك فالواجب فيه الاحتمال والعفو والصفح والتعامي عنه فالتعرض لذلك ليس
من النصح في شيء نعم ان كان بحيث يؤدي استمراره عليه الى القطيعة فالعتاب في السر
خير من القطيعة والتعريض به خير من التصريح والمكاتبة خير من المشافهة والاحتمال خير

من الكل أن ينبغي أن يكون مقصدك من أخيك إصلاح نفسك بمراعاتك إياه وقيامك
بحقه واحتمالك تقصيره لا الاستعانة به والاسترفاق منه. قال أبو علي الرباطي صحبت
عبد الله الرازي وكان يدخل البادية فقال لي على أن تكون أنت الأمير أو أنا فقلت
بل أنت فقال وعليك بالطاعة فقلت نعم فأخذ مخلاة ووضع فيها الزاد وحملها على
ظهره فإذا قلت له أعطني فقال ألست قلت أنت الأمير فعليك بالطاعة فأخذنا المطر
ليلة فوقف على رأسي إلى الصباح وعليه كساء وأنا جالس يمنع عني المطر فكنت أقول
مع نفسي ليتني مت ولم أقل أنت الأمير **الحق الخامس العفو عن الزلات الخ**
ومن جملة ذلك قال رحمه الله قال جعفر الصادق (ع) مودة يوم صلة ومودة شهر
قرابة ومودة سنة رحم ماسة من قطعها قطعه الله فإذن الوفاء بعقد الأخوة
إذا سبق انعقادها واجب ومهما اعتذر إليك أخوك صادقا كان أو كاذبا
فاقبل عذره قال (ع) من اعتذر إليه أخوه فلم يقبل عذره فعليه مثل إثم صاحب المكس
ثم ذكر رحمه الله الحق السادس والسابع والثامن ثم الباب الثالث في حقوق المسلم
على التفصيل **كتاب آداب السفر** أفاد رحمه الله بعد الحمد والصلوة أما بعد
فإن السفر وسيلة إلى الخلاص عن مهروب عنه أو الوصول إلى مطلوب والسفر سفران
سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحارى والفلوات وسفر بسير القلب
عن أسفل سافلين إلى ملكوت السموات وأشرف السفرين السفر الباطن فإن الواقف
على الحالة التي نشأ عليها عقيب الولادة الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء
والأجداد لازم درجة القصور وقانع برتبة النقص ومستبدل بمتسع فضاء
عرضها السموات والأرض ظلمة السجن وضيق الحبس ولم أر في عيوب الناس
عيبا كنقص القادرين على التمام إلا أن هذا السفر لما كان مقتحمه في خطر خطير
جليل لم يستغن فيه عن خفير ودليل فاقتضى غموض السبيل وفقد الخفير والدليل
وقناعة السالكين عن الحظ الجزيل بالنصيب النازل القليل اندراس مسالكه
فانقطع فيه الرفاق فخلى عن الطائفين متنزهات الأنفس والملكوت والآفاق
وإليه دعا الله سبحانه بقوله عز من قائل سنريهم آياتنا في الآفاق وبقوله تعالى
وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون وعلى القعود عن هذا السفر
وقع

وقع الإنكار بقوله تعالى وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون وبقوله تعالى
وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون فمن يسر له هذا السفر لم يزل
في سفره متنزها في جنة عرضها السموات والأرض وهو ساكن بالبدن مستقر في
الوطن وهو السفر الذي لا يضيق فيه المناهل والموارد ولا يضر فيه التزاحم والتوارد
بل تزيد بكثرة المسافرين غنائمه وتتضاعف ثمراته وفوائده فغنائمه دائمة غير ممنوعة
وثمراته متزايدة غير مقطوعة إلا إذا بدا للمسافر فترة في سفره ووقفة في حركته فإن
الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ولما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وما الله
بظلام للعبيد ولكنهم يظلمون أنفسهم ومن لم يؤهل للجولان في هذا الميدان والتطواف
في متنزهات هذا البستان ربما سافر بظاهره في مدة مديدة فراسخ معدودة
مغتنما بها تجارة الدنيا أو ذخيرة الآخرة فإن كان مطلبه العلم والدين أو الكفاية
للاستعانة على الدين كان من سالكي سبيل الآخرة فكان له في سفره شروط وآداب
إن أهملها كان من عمال الدنيا وأتباع الشياطين وإن واظب عليها لم يخل سفره عن فوائد
تلحقه بعمال الآخرة ونحن نذكر آدابه وشروطه في بابين فذكر رحمه الله في الباب الأول
فوائد السفر وفضله قال رحمه الله اعلم أن السفر نوع حركة ومخالطة وفيها فوائد
ولها آفات كما ذكرنا في كتاب الصحبة والعزلة والفوائد الباعثة على السفر لا تخلو
من هرب أو طلب فإن المسافر إما أن يكون له مزعج عن مقامه ولولاه لما كان
له مقصد يسافر إليه وإما أن يكون له مقصد ومطلب والمهروب عنه إما أمر ديني أو دنيوي
وهكذا ذكر رحمه الله شقوقا كثيرة ثم قال ويخرج من هذه القسمة أقسام **القسم الأول**
السفر في طلب العلم وهو إما واجب وإما نفل وذلك بحسب كون العلم واجبا أو نفلا
وذلك العلم إما علم بأمور دينية أو بأخلاقه في نفسه أو بآيات الله في أرضه وقد
قال (ص) من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع وعلمه بنفسه
وأخلاقه فلا شك أنه مهم أيضا فإن طريق الآخرة لا يمكن سلوكها إلا بتحسين الخلق
وتهذيبه ومن لا يطلع على أسرار باطنه وخبائث صفاته لا يقدر على تطهير القلب
أما السفر فهو الذي يسفر عن الأخلاق وبه يخرج الله الخبء في السموات والأرض
وبالجملة فالنفس في الوطن مع مواتاة الأسباب لا تظهر خبائث أخلاقها لاستئناسها

بأبواقوع طبعها من المألوف المعهود فإذا حملت وعثاء السفر وصرفت عن مألوفاتها
المعتادة وامتحنت بمشاق الغربة انكشفت غوائلها ووقع الوقوف على عيوبها فيمكن الاشتغال
بعلاجها وقد ذكرنا في كتاب العزلة فوائد المخالطة والسفر مخالطة مع زيادة اشتغال
واحتمال مشاق وأما آيات الله في ارضه ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر ففيها قطع متجاورات
وفيها الجبال والبراري والبحار وانواع الحيوان والنبات وما منها شيء الا وهو شاهد
لله بالوحدانية مسبح له بلسان ذلق لا يدركه الا من القى السمع وهو شهيد واما الجاحدون
والغافلون والمغترون بلامع السراب من زهرة الحياة الدنيا فانهم لا يبصرون ولا يسمعون
لانهم عن السمع لمعزولون وعن آيات ربهم لمحجوبون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم
عن الآخرة هم غافلون وما اريد بالسمع السمع الظاهر فان الذين اريدوا به ما كانوا
معزولين عنه وانما اريد به السمع الباطن ولا يدرك بالسمع الظاهر الا الاصوات ويشارك
فيه الانسان سائر الحيوانات واما السمع الباطن فيدرك به لسان الحال الذي هو
نطق وراء نطق المقال يشبه قول القائل حكاية لكلام الوتد والحائط قال الجدار للوتد
لم تشقني فقال سل من يدقني فلم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي وما من ذرة في السموات و
الارض الا ولها انواع شهادات بالوحدانية هي توحيدها وانواع شهادات لخالقها
بالتقديس هي تسبيحها ولكن لا يفقهون تسبيحها لانهم لم يسافروا من مضيق السمع
الظاهر الى فضاء السمع الباطن ومن ركاكة لسان المقال الى فصاحة لسان الحال
ولو قدر كل عاجز على مثل هذا السير لما كان سليمان عليه السلام مختصا بفهم منطق الطير
ولما كان موسى عليه السلام مختصا بسماع كلام الله الذي يجب تقديسه عن مشابهة الحروف
والاصوات ومن يسافر ليستقرئ هذه الشهادات من الاسطر المكتوبة بالخطوط الالهية
على صفحات الجمادات لم يطل سفره بالبدن بل يستقر في موضع ويفرغ قلبه لسماع نغمات
التسبيحات من آحاد الذرات فما له والتردد في الفلوات وله غنية في ملكوت السموات فالشمس
والقمر والنجوم مسخرات وهي الى ابصار ذوي البصائر مسافرات في الشهر والسنة مرات
بل هي دائبة في الحركة على توالي الاوقات فمن الغرائب ان يدأب في الطواف بآحاد المساجد تم
من امرت الكعبة ان تطوف به ومن الغرائب ان يطوف في اكناف الارض من تطوف به اقطار
السماء ثم ما دام المسافر مفتقرا الى ان يبصر عالم الملك والشهادة بالبصر الظاهر فهو بعد

في المنزل الاول من منازل السائرين الى الله والمسافرين الى حضرته وكأنه بعد
معتكف على باب الوطن لم يفض به السير الى متسع الفضاء ولا سبب لطول المقام في هذا
المنزل الا الجبن والقصور ولذلك قال بعض ارباب القلوب ان الناس ليقولون افتحوا
اعينكم حتى تبصروا وانا اقول غضوا اعينكم حتى تبصروا وكل واحد من القولين حق الا
ان الاول خبر عن المنزل الاول القريب من الوطن والثاني خبر عما بعده من المنازل
البعيدة عن الوطن التي لا يطؤها الا مخاطر بنفسه والمجاوز اليها ربما يتيه فيها سنين
وربما يأخذ التوفيق بيده فيرشده الى سواء الطريق والهالكون في التيه هم الاكثرون
من ركاب هذا الطريق ولكن السائحين بنور التوفيق فازوا بالنعيم والملك المقيم وهم
الذين سبقت لهم منا الحسنى واعتبر هذا الملك بملك الدنيا فانه يقل بالاضافة الى كثرة
الخلق طلابه ومهما عظم المطلوب قل المساعد ثم الذي يهلك اكثر من الذي يملك ذلك
لطلب الملك العاجز الجبان لعظم الخطر وطول التعب وقيل شعرا ✱ واذا كانت النفوس
كبارا ✱ تعبت في مرادها الاجسام ✱ وما اودع الله العز والملك في الدين والدنيا الا
في حيز الخطر وقد يسمي الجبان الجبن والقصور باسم الحزم والحذر كما قيل ترى الجبناء ان الجبن
حزم ✱ وتلك خديعة الطبع اللئيم ✱ فهذا حكم السفر الظاهر اذا اريد به السفر الباطن لمطالعة
آيات الله في الارض فلنرجع الى الغرض الذي كنا نقصده ولنبين القسم الثاني وهو ان
يسافر لاجل العبادة اما لجهاد او حج وقد ذكرنا فضل ذلك وآدابه واعماله الظاهرة
والباطنة في كتاب اسرار الحج ويدخل في جملته زيارة قبور الانبياء وزيارة قبور
الصحابة والتابعين وسائر العلماء والاولياء وكل من يتبرك بمشاهدته في حياته يتبرك
بزيارته بعد وفاته ويجوز شد الرحال لهذا الغرض ولا يمنع من هذا قوله عليه السلام لا
تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الاقصى لان ذلك
في المساجد فانها متماثلة بعد هذه المساجد والا فلا فرق بين زيارة قبور الانبياء
وبين الاولياء والعلماء في اصل الفضل وان كان يتفاوت في الدرجات تفاوتا عظيما
بحسب اختلاف درجاتهم عند الله وبالجملة زيارة الاحياء اولى من زيارة الاموات
والفائدة من زيارة الاحياء طلب بركة الدعاء وبركة النظر اليهم فان النظر الى وجوه العلماء
عبادة وفيها ايضا تحريك للرغبة في الاقتداء بهم والتخلق باخلاقهم وآدابهم هذا سوى

ما ينتظر من الفوائد العلمية المستفادة من أنفاسهم وأفعالهم كيف ومجرد زيارة الإخوان
في الله فيه فضل كما ذكرنا في كتاب الصحبة وفي التوراة سر أربعة أميال زر أخاً في الله وأما
البقاع فلا معنى لزيارتها سوى المساجد الثلاثة وسوى الثغور للرباط بها فالحديث ظاهر
في أنه لا تشد الرحال لطلب بركة البقاع إلا إلى المساجد الثلاثة وقد ذكرنا فضائل الحرمين في كتاب
الحج وبيت المقدس أيضاً له فضل كبير القسم الثالث أن يكون السفر للهرب من سبب مشوش
للدين وذلك أيضاً حسن فالفرار مما لا يطاق من سنن المرسلين ومما يجب الهرب منه الولاية
والجاه وكثرة العلائق والأسباب فإن ذلك يشوش فراغ القلب والدين لا يتم إلا بقلب
فارغ عن غير الله فإن لم يتم فراغه فبقدر فراغه يتصور أن يشتغل بالدين ولا يتصور فراغ
القلب في الدنيا عن مهمات الدنيا والحاجات الضرورية ولكن يتصور تخفيفها وتثقيلها وقد نجا
المخفون وهلك المثقلون والحمد لله الذي لم يعلق النجاة بالفراغ المطلق عن جميع الأوزار و
الأعباء بل قبل المخف بفضله وشمله بسعة رحمته والمخف الذي ليست الدنيا أكبر همه وذلك
لا يتيسر في الوطن لمن اتسع جاهه وكثرت علائقه فلا يتم مقصوده إلا بالغربة والخمول وقطع
العلائق التي لا بد منها حتى يروض نفسه مدة ثم ربما يمده الله بمعونته فينعم عليه بما يقوي
نفسه ويطمئن به قلبه فيستوي عنده الحضر والسفر ويتقارب عنده وجود الأسباب والعلائق
وعدمها فلا يصده شيء منها عما هو بصدده من ذكر الله تعالى وذلك مما يعز وجوده جداً بل الغالب
على القلوب الضعف والقصور عن الاتساع للخلق والخالق وإنما يسعد بهذه القوة الأنبياء
والأولياء والوصول إليها بالكسب شديد وإن كان للاجتهاد والكسب فيه مدخل أيضاً
ومثال تفاوت القوة الباطنة فيه تفاوت القوة الظاهرة في الأعضاء فرب رجل قوي
ذي مرة سوي شديد الأعصاب محكم البنية يستقل بحمل ما وزنه ألف من فلو أراد الضعيف
المريض أن ينال رتبته بممارسة الحمل والتدريج فيه قليلاً قليلاً لم يقدر عليه ولكن الممارسة
والجهد يزيد في قوته زيادة ما وإن كان ذلك لا يبلغه رتبته فلا ينبغي أن يترك الجهد عند
اليأس من الرتبة العليا فإن ذلك غاية الجهل ونهاية الضلال وقد كانت عادة السلف
مفارقة الوطن خيفة من الفتن قال سفيان الثوري هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخاملين
فكيف على المشهورين هذا زمان رجل ينتقل من بلد إلى بلد كلما عرف في موضع تحول إلى غيره
قال أبو نعيم رأيت سفيان الثوري وقد علق قلته بيده ووضع جرابه على ظهره فقلت إلى أين

يا أبا عبد الله قال قد عرفت قرية فيها رخص أريد أن أقيم بها فقلت وتفعل
هذا قال نعم إذا بلغك أن قرية فيها رخص فأقم فيها فإنه أسلم لدينك وأقل لهمك
وهذا هرب من غلاء السعر وكان سري السقطي يقول للصوفية إذا خرج الشتاء فقد خرج
آذار وأورقت الأشجار وطاب الانتشار فانتشروا وقد كان الخواص لا يقيم في بلد أكثر
من أربعين يوماً وقد كان من المتوكلين ويرى الإقامة اعتماداً على الأسباب قادحاً في
التوكل وسيأتي أسرار الاعتماد على الأسباب في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى القسم الرابع
السفر هرباً مما يقدح في البدن كالطاعون أو في المال كغلاء السعر أو ما يجري مجراه ولا
حرج في ذلك بل ربما يجب الفرار في بعض المواضع وربما يستحب في بعض الأوقات بحسب
وجوب ما يترتب عليه من الفوائد واستحبابها في ذلك ولكن يستثنى منه الطاعون فلا
ينبغي أن يفر منه لورود النهي فيه قال أسامة بن زيد رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
إن هذا الوجع أو السقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم ثم بقي بعد في الأرض فيذهب
المرة ويأتي الأخرى فمن سمع به في أرض فلا يقدمن عليه ومن وقع بأرض وهو بها
فلا يخرجنه الفرار منه وذكر بعضهم أحاديث كثيرة وقد ذكرت فقال فهذه الأحاديث
تدل على أن الفرار من الطاعون منهي عنه وكذا القدوم عليه وسيأتي تبيين سر ذلك
في كتاب التوكل فهذه أقسام الأسفار وقد خرج منه أن السفر ينقسم إلى مذموم وإلى
محمود وإلى مباح والمذموم ينقسم إلى حرام كإباق العبد وسفر العاق وإلى مكروه
كالخروج من بلد الطاعون والمحمود ينقسم إلى واجب كالحج وطلب العلم الذي هو فريضة
على كل مسلم وإلى مندوب إليه كزيارة العلماء وزيارة مشاهدهم ومن هذه الأسباب
تتبين النية في السفر فإن معنى النية الانبعاث للسبب الباعث والانتهاض لإجابة الداعية
ولتكن نيته الآخرة في جميع أسفاره وذلك ظاهر في الواجب والمندوب ومحال في المكروه
والمحظور وأما المباح فمهما كان قصده طلب المال مثلاً للتعفف عن السؤال ورعاية
ستر المروءة على الأهل والعيال والتصدق بما يفضل عن مبلغ الحاجة صار
هذا المباح بهذه النية من أعمال الآخرة ولو خرج إلى الحج وباعثه الرياء والسمعة لخرج
عن كونه من أعمال الآخرة لقوله صلى الله عليه وسلم الأعمال بالنيات وهو عام في الواجب والمباحات
دون المحظورات فإن النية لا تؤثر في إخراجها عن كونها محظورة وقد قال بعض السلف

ان الله قد وكل بالمسافرين ملائكة ينظرون الى مقاصدهم فيعطي كل واحد على نحو نيته
فمن كانت نيته الدنيا اعطي منها ونقص من اخرته اضعافه وفرق عليه همه وكثر
بالحرص والرغبة شغله ومن كانت نيته الاخرة اعطي من البصيرة والفطنة وفتح له من
التذكرة والعبرة بقدر نيته وجمع له همه ودعت له الملائكة واستغفرت له واما
النظر في ان السفر هو الافضل او الاقامة فيضاهي النظر في ان العزلة هي الافضل او
المخالطة وقد ذكرنا منهاجه في كتاب العزلة فليفهم هذا منها فان السفر نوع مخالطة
مع زيادة تعب ومشقة تفرق الهم وتشتت القلب في حق الاكثرين والافضل ما هو
الاعون على الدين ونهاية ثمرة الدين في الدنيا تحصيل معرفة الله تعالى وتحصيل الانس
بذكر الله والانس يحصل بدوام الذكر والمعرفة تحصل بدوام الفكر ومن لم يتعلم طريق
الفكر والذكر لم يتمكن منهما والسفر هو المعين على التعلم في الابتداء والاقامة هي المعينة
على العمل بالعلم في الانتهاء فاما السياحة في الارض على الدوام فمن المشوشات للقلب
الا في حق الاقوياء فان المسافر وماله لعلى قلت الا ما وقى الله فلا يزال المسافر مشغول
القلب تارة بالخوف على نفسه وماله وتارة بمفارقة ما ألفه واعتاده في اقامته وان لم
يكن معه مال يخاف عليه فلا يخلو عن الطمع والاستشراف الى الخلق فتارة يضعف قلبه
بسبب الفقر وتارة يقوى باستحكام اسباب الطمع ثم الشغل بالحط والترحال مشوش
لجميع الاحوال فلا ينبغي ان يسافر المريد الا في طلب علم او مشاهدة شيخ يقتدى به
في سيرته ويستفاد الرغبة في الخير من مشاهدته فان اشتغل بنفسه واستبصر وانفتح له
طريق الفكر والعمل فالسكون اولى به الا ان اكثر المتصوفة في هذه الاعصار
لما خلت بواطنهم عن لطائف الافكار ودقائق الاعمال ولم يحصل لهم انس بالله تعالى
وبذكره بالخلوة وكانوا بطالين غير محترفين ولا مشتغلين قد الفوا البطالة
استثقلوا العمل واستوعروا طريق الكسب واستلانوا جانب السؤال والكدية
واستطابوا الرباطات المبنية لهم في البلاد واستسخروا الخدم المنتصبين للقيام بخدمة
القوم واستخفوا عقولهم واديانهم من حيث لم يكن قصدهم من الرياء والسمعة الخدمة الا
المنتشار الصيت واقتناص الاموال بطريق السؤال تعللا بكثرة الاتباع فلم يكن
لهم في الخانقاهات حكم نافذ ولا تأديب للمريدين نافع ولا حجر عليهم قاهر فلبسوا

المرقعات واتخذوا من الخانقاهات منتزهات وربما تلقفوا الفاظا
من خرقة من الطامات فينظرون الى انفسهم وقد تشبهوا بالقوم في خرقتهم وفي
سياحتهم وفي لفظهم وعباراتهم وفي آداب ظاهرة من سيرتهم فيظنون
بانفسهم خيرا ويحسبون ان كل سوداء تمرة ويتوهمون ان المشاركة في الظاهر
توجب المساهمة في الحقائق وهيهات فما اغزر حماقة من لا يميز بين الشحم والورم
فهؤلاء بغضاء الله فان الله يبغض الشاب الفارغ ولم يحملهم على السياحة الا
الشباب والفراغ الا من سافر لحج او عمرة في غير رياء ولا سمعة او سافر
لمشاهدة شيخ يقتدى به في علمه وسيرته وقد خلت البلاد عنه الآن والامور
الدينية كلها قد فسدت وضعفت الا التصوف فانه قد انمحق بالكلية وبطل
لان العلوم لم تندرس بعد والعالم وان كان عالم سوء فانما فساده في سيرته
لا في علمه فيبقى عالما غير عامل بعلمه والعمل غير العلم واما التصوف فانه عبارة
عن تجرد القلب لله تعالى واستحقار ما سوى الله عز وجل وحاصله يرجع الى
عمل القلب والجوارح ومهما فسد العمل فات الاصل وفي اسفار هؤلاء نظر
للفقهاء من حيث انه اتعاب نفس بلا فائدة وقد يقال ان ذلك ممنوع ولكن
الصواب عندنا ان نحكم بالاباحة فان حظوظهم التفرج عن كرب البطالة بمشاهدة
البلاد المختلفة وهذه الحظوظ وان كانت خسيسة فنفوس المتحركين لها ايضا لهذه
الحظوظ خسيسة ولا باس باتعاب حيوان خسيس لحظ خسيس يليق به ويعود
اليه فهو المتأدي به وهو المتلذذ والفتوى تقتضي تسبيب العوام في المباحات
التي لا نفع فيها ولا ضرر فالسائحون من غير مهم في الدين والدنيا بل لمحض التفرج
بالبلاد كالبهائم المترددة في الصحارى فلا باس بسياحتهم ما كفوا عن الناس
شرهم ولم يلبسوا على الخلق حالهم وانما عصيانهم في التلبيس والسؤال على اسم
التصوف والاكل من الاوقاف التي وقفت على الصوفية لان الصوفي عبارة عن
رجل صالح عدل في دينه مع صفات اخرى وراء الصلاح ومن اقل احوال هؤلاء
اكلهم اموال السلاطين واكل الحرام من الكبائر فلا يبقى معه العدالة والصلاح ولو
تصور صوفي فاسق لتصور صوفي كافر وفقيه يهودي وكما ان الفقيه عبارة عن

مخصوص فالصوفي عبارة عن عدل مخصوص لا يقتصر فيه على القدر الذي يحصل به العدالة
وكذلك من نظر إلى ظواهرهم ولم يعرف بواطنهم وأعطاهم من ماله على سبيل التقرب فإنه
يحرم عليهم الأخذ وكان ما أكلوه سحتا وأعني به إذا كان المعطي بحيث لو عرف بواطن
أحوالهم ما أعطاهم وأخذ المال بإظهار التصوف من غير اتصاف بحقيقته كأخذه بإظهار نسب
رسول الله على سبيل الدعوى ومن زعم أنه علوي وهو كاذب فأعطاه مسلم مالا لحب
أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله ولو علم أنه كاذب لم يعطه فأخذه عليه حرام وكذلك
الصوفي ولهذا احترز المحتاطون على الوكيل أن لا يظهر أنه لمن يشتري منهم إنما عجل الأخذ
ما أعطى لأجل الدين إذا كان الآخذ بحيث لو علم المعطي من باطنه ما يعلم لما أقبض ذلك
شيئا في أمر خيرها قال المصنف نعلم من نفسه ذلك ممتنع أو عزيز فالمغرور الجاهل
بنفسه أحرى بأن يكون جاهلا بأمور دينه فإن أقرب الأشياء إلى قلبه قلبه فإذا التبس
عليه أمر قلبه فكيف ينكشف له غيره ومن عرف هذه الحقيقة لزمه لا محالة أن لا يأكل إلا
من كسبه ليأمن من هذه الغائلة ولا يأكل إلا من مال من يعلم قطعا أنه لو انكشف له عورات
باطنه لم ينقص ذلك من مواساته فإن اضطر طالب الحلال ومريد طريق الآخرة إلى الأخذ من
غيره فليصرح له وليقل إن كنت تعطيني لما تعتقده في من الدين فلست مستحقا له
ولو كشف الله ستره لم تر بعين التوقير بل اعتقدت أني شر الخلق أو من شرارهم فإن
أعطاه مع ذلك فليأخذ فإنه ربما يرضى منه بهذه الخصلة وهو اعترافه على نفسه بكثرة
الدين وعدم استحقاقه لما يأخذه ولكن ههنا مكيدة للنفس وخداع فليتفطن لها
وهو أنه قد يقول ذلك مظهرا أنه متشبه بالصالحين في ذمهم أنفسهم واستحقارهم لها
ونظرهم إليها بعين المقت والازدراء فتكون صورة الكلام صورة القدح والازدراء في
باطنه ويكون هو المدح والإطراء فكم من ذام نفسه وهو مادح لها بعين ذمه فذم النفس
في الخلوة مع النفس هو المحمود فأما الذم في الملأ فهو عين الرياء إلا إذا أورده إيرادا يحصل
للمستمع يقينا بأنه معترف بالذنوب ومعترف بها وذلك لا يمكن تفهيمه بقرائن الأحوال
وإنما يدرك بينه وبين الله تعالى ليعلم أن مخادعته لله سبحانه ومخادعته لنفسه فلا يتعذر
عليه الاحتراز عن أمثال ذلك فهذا هو القول في أقسام السفر ونية المسافر وفضيلة السفر
الفصل الثاني من الفصل الثاني في آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه

رجوعه وهي أحد عشر أدبا الأول أن يبدأ برد المظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة
لمن تلزمه نفقته ويرد الودائع إن كانت عنده ولا يأخذ لزاده إلا الطيب الحلال وليأخذ
قدرا يوسع به على رفقائه قال ابن عمر من كرم الرجل طيب زاده في سفره ولا بد في السفر
من طيب الكلام وإطعام الطعام وحسن إظهار مكارم الأخلاق فإن السفر يخرج خبايا الباطن
ومن يصلح لصحبة السفر يصلح لصحبة الحضر وقد يصلح في الحضر ولا يصلح في السفر والسفر
سبب من أسباب الضجر ومن أحسن خلقه في الضجر فهو الحسن الخلق وإلا فعند مساعدة
الأمور على وفق الغرض قلما يظهر سوء الخلق وتمام حسن الخلق للمسافر في الإحسان إلى المكاري
ومعاونة الرفقة بكل ممكن والرفق بكل منقطع بأن لا يجاوزه إلا بإعانة بمركوب أو زاد
أو ماء أو توقف لأجله وتمام ذلك مع الرفقاء بمزاح ومطايبة في بعض الأوقات من غير فحش
ومعصية ليكون ذلك شفاء لضجر السفر ومشاقه الثاني أن يختار رفيقا ولا يخرج
وحده فالرفيق ثم الطريق وليكن رفيقه ممن يعينه على الدين فيذكره إذا نسي ويعينه ويساعده
إذا ذكر فإن المرء على دين خليله ولا يعرف الرجل إلا برفيقه وقد نهى رسول الله صلعم أن يسافر
الرجل وحده وقال صلعم إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمروا أحدكم وكانوا يفعلون ذلك ويقولون
هذا أميرنا أمره رسول الله صلعم وليؤمروا أحسنهم أخلاقا وأرفقهم بالأصحاب وأسرعهم إلى الإيثار
وطلب الموافقة وإنما يحتاج إلى الأمير لأن الآراء تختلف في تعيين المنازل والطريق ومصالح
السفر ولا نظام إلا في الوحدة ولا فساد إلا في الكثرة وإنما انتظم أمر العالم لأن مدبر الكل واحد
لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ومهما كان المدبر واحدا انتظم التدبير فأما الحضر
فيبعد فيه تخصيص الأربعة من بين سائر الأعداد لا بد وأن يكون لفائدة والذي ينقدح
فيه أن المسافر لا يخلو عن رحل يحتاج إلى حفظه وعن حاجة يحتاج إلى التردد فيها ولو كانوا ثلاثة لكان المتردد في الحاجة
واحدا فيتردد في السفر بلا رفيق فلا يخلو عن خطر وعن ضيق قلب لفقد أنس الرفيق
ولو تردد في الحاجة اثنان لكان الحافظ للرحل وحده فلا يخلو من الخطر ومن ضيق الصدر
فإذن ما دون الأربعة لا يفي بالمقصود وما فوق الأربعة يزيد فلا تجمعهم رابطة واحدة
فلا ينعقد بينهم الترافق لأن الخامس زيادة بعد الحاجة ومن يستغني عنه لا تنصرف الهمة
إليه فلا تتم المرافقة معه نعم في كثرة الرفاق فائدة الأمن من المخاوف ولكن الأربعة خير للرفاقة
الخاصة لا للرفاقة العامة الثالث أن يودع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء وليودع

تعيين م

الوداع بدعاء رسول الله صلعم قال بعضهم صحبت عبد الله بن عمر من مكة الى المدينة فلما اردت المفارقة شيعني وقال سمعت رسول الله صلعم يقول ان الله تعالى اذا استودع شيئا حفظه و اني استودع دينك وامانتك وخواتيم عملك الرابع ان يصلي قبل السفر صلوة الاستخارة كما وصفناها في كتاب الصلوة ووقت الخروج يصلي لاجل السفر ركعتين او اربعا قال صلعم ما استخلف عبد في اهله من خليفة احب الى الله من اربع ركعات يصليهن في بيته اذا شد عليه ثياب السفر يقرأ فيهن فاتحة الكتاب وقل هو الله احد ثم يقول اللهم اني اتقرب بهن اليك في اهلي ومالي فاخلفني بهن في اهلي ومالي فهي خليفة في اهله وماله وحرز حول داره حتى يرجع الى اهله الخامس اذا حصل على باب الدار فليقل بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة الا بالله رب اعوذ بك ان اضل او اضل او ازل او ازل او اظلم او اظلم او اجهل او يجهل علي فاذا مشى قال اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت واليك توجهت اللهم انت ثقتي وانت رجائي فاكفني ما اهمني وما لا اهتم به وما انت اعلم به مني عز جارك وجل ثناؤك ولا اله غيرك اللهم زودني التقوى واغفر لي ذنبي ووجهني للخير اينما توجهت وليدع بهذا الدعاء في كل منزل يرحل عنه فاذا ركب الدابة فليقل بسم الله وبالله والله اكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون فاذا استوت الدابة تحته فليقل الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله اللهم انت الحامل على الظهر وانت المستعان على الامور ثم ذكر رحمه الله السادس والسابع و الثامن في بيان ان يرحل من المنازل بكرة وان لا ينزل حتى يحمى النهار قال رحمه الله فهو السنة ويكون اكثر سيره في الليل ولن يحيا طرفا النهار ولا يمشي منفردا خارج القافلة لانه ربما يغتال او ينقطع ويكون بالليل متحفظا عند النوم وذكر في كل منها الاحاديث لما ورد فيها مع الاخبار الواردة لذلك التاسع ان يرفق بالدابة ان كان راكبا فلا يحملها ما لا يطيق ولا يضرب في وجهها فانه منهي عنه ولا ينام عليها فانه يثقل بالنوم ويتأذى به الدابة وكان اهل الورع لا ينامون على الدابة الا غفوة وقال صلى الله عليه وسلم لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي ويستحب ان ينزل عن الدابة غدوة وعشية يروحها بذلك فهو سنة وفيه اثار عن الصالحين ومن اذى البهيمة بضرب او حمل ما لا يطيق طولب

طولب به يوم القيامة اذ لكل كبد حرى اجر العاشر ينبغي ان يستصحب ستة اشيا المراة و والقارورة والمقراض والسواك والمكحلة والمشط الحادي عشر في اداب الرجوع من السفر من الادعية وغيرها وذكر رحمه الله لكل منها اخبارا ثم قال رحمه الله فهذه جملة من الاداب الظاهرة فاما الاداب الباطنة ففي الفصل الاول وهو ان لا يسافر الا اذا كان زيادة دينه في السفر ومهما وجد قلبه متغيرا الى النقصان فليقف او لينصرف ولا ينبغي ان يجاوز همه منزله بل ينزل حيث ينزل قلبه وينوي في دخول كل بلدة ان يرى شيوخها ويجتهد ان يستفيد من كل واحد ادبا او كلمة لينتفع بها لا ليحكي ذلك ويظهر انه لقي الشيوخ ولا يقيم ببلدة اكثر من اسبوع او عشرة ايام الا ان يأمره الشيخ المقصود بذلك ولا يجالس في مدة الاقامة الا الفقراء الصادقين وان كان قصده زيارة اخ فلا يزيد عليه اكثر من ثلاثة ايام فهو حد الضيافة الا اذا شق على اخيه مفارقته واذا قصد زيارة شيخ فلا يقيم عنده اكثر من يوم وليلة ولا يشتغل بالعشرة فان ذلك يقطع بركة سفره وكلما دخل البلد فلا يشتغل بشيء سوى زيارة منزله ولازم في الطريق الذكر وقراءة القران بحيث لا يسمع غيره واذا كلمه انسان فليترك الذكر وليجبه ما دام يحدثه ثم يرجع فان تبرمت نفسه بالسفر او بالاقامة فليخالفها فالبركة في مخالفة النفس واذا تيسرت له خدمة قوم صالحين فلا ينبغي ان يسافر تبرما بالخدمة فذلك كفران نعمة ومهما وجد نفسه في نقصان عما كان في الحضر فليعلم ان سفره معلول وليرجع اذ لو كان لحق لظهر اثره قال رجل لابي عثمان المغربي خرج فلان مسافرا فقال السفر غربة والغربة ذلة وليس للمؤمن ان يذل نفسه واشار به الى من ليس له في السفر زيادة دين والا فمن الدين لا ينال الا بذل الغربة فليكن سفر المريد من وطن هواه ومراده وطبعه حتى يعز في هذه الغربة ولا يذل فان من اتبع هواه في سفره ذل لا محالة اما عاجلا او اجلا يح

الباب الثاني فيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وادلة القبلة و الاوقات اعلم ان المسافر يحتاج في اول سفره الى ان يتزود لدنياه ولآخرته اما زاد الدنيا فالطعام والشراب وما يحتاج اليه من النفقة فان خرج متوكلا من غير زاد فلا باس به اذا كان سفره في قافلة او بين قرى متواصلة وان ركب البادية وحده او مع قوم لا طعام معهم ولا شراب فان كان ممن يصبر على الجوع اسبوعا او عشرا فله

ويقدر على ان يجتزئ بالحشيش فله ذلك وان لم يكن له قوة الصبر على الجوع ولا القدرة
على الاجتزاء بالحشيش فخروجه من غير زاد معصية بان القى بنفسه بيده الى التهلكة ولهذا سر
سيأتي في كتاب التوكل وليس معنى التوكل التباعد عن الاسباب بالكلية ولو كان كذلك
لبطل التوكل بطلب الدلو والحبل ونزع الماء من البئر ولوجب ان يصبر حتى يسخر الله
له ملكا او شخصا آخر حتى يصب الماء في فيه فاذا كان حفظ الدلو والحبل لا يقدح في
التوكل وهو آلة الوصول الى المشروب فحمل عين المطعوم والمشروب حيث لا ينتظر له
وجود اولى بان لا يقدح فيه وسيأتي تحقيق التوكل في موضعه فانه ملتبس الا على
المحققين من علماء الدين واما زاد الآخرة فهو العلم الذي يحتاج اليه في طهارته
وصومه وصلاته وعباداته فلا بد ان يتزود منه اذ السفر تارة يخفف عليه امورا
فيحتاج الى معرفة القدر الذي يخففه السفر كالقصر والجمع والفطر وتارة يشدد
عليه امورا كان مستغنيا عنها في الحضر كالعلم بالقبلة واوقات الصلاة فانه في
البلد يكتفي بغيره من محاريب المساجد واذان المؤذنين وفي السفر قد يحتاج الى
ان يتعرف بنفسه فاذن ما يفتقر الى تعلمه ينقسم الى قسمين الاول العلم برخص
السفر فذكر رحمه الله من جملتها التنفل راكبا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي على راحلته
اينما توجهت به دابته وقد اوتر على الراحلة وليس على المتنفل الراكب في الركوع
والسجود الا الايماء وينبغي ان يجعل سجوده اخفض من ركوعه ولا يلزمه الانحناء
الى حد يتعرض به لخطر بسبب الدابة فان كان في مرقد فليتم الركوع والسجود فانه قادر
عليه واما استقبال القبلة فلا يجب لا في ابتداء الصلاة ولا في دوامها ولكن
جعل صوب الطريق بدلا عن القبلة ومن جملتها التنفل ماشيا فيجوز في السفر
يومي بالركوع والسجود ولا يقعد للتشهد لان ذلك يبطل فائدة الرخصة وحكمه
حكم الراكب لكن ينبغي ان يحرم بالصلاة مستقبلا لان الانحراف في لحظة لا عسر فيه
فكل هارب من عدو او سبع او سيل فله ان يصلي الفريضة راكبا وماشيا كما
ذكرناه في النفل ومن جملتها الفطر وهو في الصوم وللمسافر ان يفطر الا اذا اصبح
مقيما ثم سافر فعليه اتمام ذلك اليوم وان اصبح مسافرا صائما ثم اقام فعليه الاتمام
وان اقام مفطرا فليس عليه الامساك بقية نهاره وان اصبح مسافرا على عزم الصوم

الصوم لم يلزمه بل له ان يفطر اذا اراد والصوم افضل من الفطر والفطر افضل
من الاتمام للخروج عن شبهة الخلاف فانه ليس في عهدة القضاء الخلاف في الفطر فانه
في عهدة القضاء فربما يتعذر عليه ذلك بعائق فيبقى في ذمته الا اذا كان الصوم
يضر به فالافطار افضل القسم الثاني ما يتجدد من الوظيفة بسبب السفر وهو علم
القبلة والاوقات وذلك ايضا واجب في الحضر ولكن في الحضر من يكفيه من محراب متفق
عليه يغنيه عن طلب القبلة ومؤذن يراعي الوقت فيغنيه عن طلب علم الوقت والمسافر
قد يشتبه عليه القبلة وقد يلتبس عليه الوقت فلا بد له من العلم بادلة القبلة والمواقيت
وذكرها رحمه الله تعالى على التفصيل الآتي ثم اورد كتاب السماع والوجد وهو
الكتاب الثامن من ربع العادات من كتب احياء العلوم الدين فذكر في الباب
الاول اباحة السماع بالنص والقياس ومن جملة ما ذكره رحمه الله في الباب الاول
بعد نقل اقاويل العلماء والمتصوفة في تحليله وتحريمه ثم بيان الدليل على اباحته بالقياس
والنص وذكر درجات ثلث للنظر في الصوت الاولى من حيث انه طيب ثم النظر
في الصوت الطيب الموزون من حيث انه مفهوم ثم قال رحمه الله الاجماع عليها لما
ان صار من عادة اهل الفسق فيمتنع التشبه بهم لان من تشبه بقوم فهو منهم وبهذه العلة
نقول بترك السنة مهما صارت شعارا لاهل البدعة خوفا من التشبه بهم وبهذه العلة
تحريم ضرب الكوبة وهو طبل مستطيل دقيق الوسط واسع الطرفين وضربها عادة المخنثين
ولولا ما فيه من التشبه لكان مثل طبل الحج والغزو وبهذه العلة نقول لو اجتمع جماعة
وزينوا مجلسا واحضروا آلات الشراب واقداحها وصبوا فيها السكنجبين ونصبوا ساقيا
يدور عليهم ويسقيهم فيأخذون من الساقي ويشربون ويحيي بعضهم
بعضا بكلماتهم المعتادة بينهم حرم ذلك عليهم وان كان المشروب مباحا في نفسه لان في هذا
تشبها باهل الفساد وحكم رحمه الله ههنا باباحة سماع الاصوات الحسنة والموزونة
بل قال فسماع هذه الاصوات يستحيل ان يحرم لكونها طيبة او موزونة فلا ذاهب الى
تحريم سماع صوت العندليب ثم قال الدرجة الثالثة الموزون المفهوم وهو الشعر
وذلك لا يخرج الا من حنجرة الانسان فيقطع باباحة ذلك لانه ما زاد الا كونه كلاما
والكلام المفهوم غير حرام والصوت الطيب الموزون غير حرام فاذا لم يحرم الآحاد فمن

الثامن

ان يحرم المجموع نعم ينظر فيما يفهم منه فان كان فيه امر محظور حرم نثره ونظمه وحرم
التصويت به سواء كان بالحان او لم يكن والحق فيه ما قاله الشافعي اذ قال الشعر كلام
فحسنه حسن وقبيحه قبيح ومهما جاز انشاد الشعر بغير صوت والحان جاز مع الالحان
فان افراد المباحات اذا اجتمعت كان ذلك المجموع مباحا ومهما انضم مباح الى مباح لم يحرم الا اذا
تضمن المجموع محذورا لا تتضمنه الاحاد ولا محذور ههنا وكيف ينكر انشاد الشعر وقد
انشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال عليه السلام ان من الشعر لحكمة وكان النبي صلى الله عليه وسلم يضع لحسان
منبرا في المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم او ينافح ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم
ان الله ليؤيد حسان بروح القدس ما نافح او فاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينقل عن احد
من الصحابة انكاره بل ربما كانوا ملقين ذلك لتحريك الجمال وتارة للاستلذاذ فلا
يجوز ان يحرم من حيث انه كلام مفهوم مستلذ مؤدى باصوات طيبة والحان موزونة
الدرجة الرابعة النظر فيه من حيث انه محرك للقلب ومهيج لما هو الغالب عليه فاقول
لله تعالى سر في مناسبة النغمات الموزونة للارواح حتى انها لتؤثر فيها تاثيرا عجيبا
فمن الاصوات ما يفرح ومنها ما يحزن ومنها ما ينوم ومنها ما يضحك ويطرب ومنها ما يستخرج
من الاعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والراس ولا ينبغي ان يظن ان ذلك لفهم معاني
الشعر بل هذا جار في الاوتار حتى قيل من لم يحركه الربيع وازهاره والعود واوتاره
فهو فاسد المزاج ليس له علاج وكيف يكون ذلك لفهم المعنى وتاثيره مشاهد في الصبي
في مهده فانه يسكته الصوت الطيب عن بكائه وتنصرف نفسه عما يبكيه الى الاصغاء اليه
والجمل مع بلادة الطبع يتاثر بالحداء تاثيرا يستخف معه الاحمال الثقيلة ويستقصر لقوة نشاطه
في سماعه المسافات الطويلة وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولهه فتراها اذا طالت
عليها البوادي واعتراها الاعياء والكلال تحت المحامل والاحمال اذا سمعت منادي الحداء
تمد اعناقها وتصغي الى الحادي ناصبة اذانها وتسرع في سيرها حتى تتزعزع عليها احمالها
ومحاملها وربما تتلف انفسها من شدة السير وثقل الحمل وهي لا تشعر به لنشاطها فقد حكى
ابو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالرقي قال كنت في البادية فوافيت قبيلة من قبائل
العرب فاضافني رجل منهم وادخلني خباءه فرايت في الخباء عبدا اسود مقيدا ورايت جمالا
قد ماتت بين يدي البيت وقد بقي منها جمل وهو ناحل ذابل كانه ينزع روحه فقال لي

الغلام انت ضيف ولك حق ان تشفع الى سيدي فانه مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك
فلعله يحل القيد عني فلما احضروا الطعام امتنعت قلت لا آكل ما لم اشفع في هذا العبد
فقال ان هذا الغلام قد افقرني واهلك جميع مالي فقلت ماذا فعل فقال ان له صوتا طيبا
واني كنت اعيش من ظهور هذه الجمال فحملها احمالا ثقالا وكان يحدو بها حتى قطعوا مسيرة ثلاثة
ايام في ليلة واحدة من طيب نغمته فلما حطت احمالها ماتت كلها الا هذا الجمل
الواحد ولكن انت ضيفي فلكرامتك قد وهبته لك فاحببت ان اسمع صوته فلما اصبحنا
امره ان يحدو على جمل يستقي الماء من بئر هناك فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله
ووقعت انا على وجهي فما اظن اني قد سمعت صوتا اطيب منه فاذا تاثير السماع محسوس
ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية زائد في غلظ الطبع
وكثافته على الجمال والطيور بل على جميع البهائم فان جميعها تتاثر بالنغمات الموزونة ولذلك
كانت الطيور تقف على راس داود عليه السلام لاستماع صوته ومهما كان النظر في السماع باعتبار
تاثيره في القلوب لم يجز ان يحكم فيه مطلقا باباحة ولا تحريم بل يختلف بالاحوال والاشخاص
واختلاف طرق النغمات فحكمه حكم ما في القلب قال ابو سليمان السماع لا يحصل في القلب ما
ليس فيه ولكن يحرك ما هو فيه فالترنم بالكلمات المسجعة الموزونة معتاد في مواضع
لاغراض مخصوصة يرتبط بها آثار في القلب وهي سبعة مواضع الاول غناء الحجيج فانهم
يدورون اولا في البلاد بالطبل والشاهين والغناء وذلك مباح لانها اشعار نظمت
في وصف الكعبة والمقام والحطيم وزمزم وسائر المشاعر ووصف البادية وغيرها
تاثير ذلك تهييج الشوق الى حج بيت الله تعالى واشتعال نيرانه ان كان ثم شوق
كان التشويق اليه بكل ما يشوق محمودا وكما يجوز للواعظ ان ينظم كلامه في الوعظ
ويزينه بالسجع ويشوق الناس الى الحج بوصف البيت والمشاعر الثاني ما يعتاده الغزاة
لتحريض الناس على الغزو وذلك ايضا مباح كالحاج ولكن ينبغي ان تخالف اشعارهم
وطرق الحانهم اشعار الحاج لان استثارة داعية الغزو بالتشجيع وتحريك الغيظ والغضب
على الكفار وتحسين الشجاعة واستحقار النفس ثم ذكر الثالث والرابع الرجزيات
التي يستعملها الشجعان في وقت اللقاء والخامس اصوات النياحة ونغماتها وتاثيرها في تهييج الحزن
والبكاء وملازمة الكآبة والحزن قال رحمه الله وهي قسمان محمود ومذموم اما المذموم فكا

حاصل او استثارة الشوق ان لم يكن حاصلا واذا كان الحج قربة والشوق صح

على ما فات قال الله تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم والحزن على الأموات من هذا القبيل فإنه
تسخط لقضاء الله تعالى وتأسف على ما لا تدارك له فهذا الحزن لما كان مذموما كان تحريكه
بالنياحة مذموما فلذلك ورد النهي الصريح في النياحة وأما الحزن المحمود فهو حزن الإنسان
على تقصيره في أمر دينه وبكاؤه على خطاياه والبكاء والتباكي والحزن والتحازن على ذلك محمود
وعليه بكاء آدم عليه السلام وتحريك هذا الحزن وتقويته محمود الخامس السماع في أوقات
السرور تأكيدا للسرور وتهييجا له وهو مباح إن كان ذلك السرور مباحا كالغناء في
أيام العيد وفي العرس وفي وقت قدوم الغائب وفي وقت الوليمة والعقيقة وعند
ولادة الولد وعند ختانه السادس سماع العشاق تحريكا للشوق وتهييجا للعشق
وتسلية للنفس فإن كان مع المفارقة فالغرض تهييج الشوق وإن كان ألما ففيه نوع لذة
إذا انضاف إليه رجاء الوصال فإن الرجاء لذيذ واليأس مؤلم وقوة لذة الرجاء بحسب
قوة الشهوة والحب للشيء المرجو ففي هذا السماع تهييج العشق وتحريك الشوق و
تحصيل لذة الرجاء المقدرة في الوصال مع الإطناب في حسن المحبوب وهذا حلال إن كان
المشتاق إليه ممن يباح وصاله كمن يعشق زوجته أو سريته فيصغي إلى غنائها لتتضاعف
لذته في لقائها فيحظى بالمشاهدة البصر وبالسماع الأذن ويفهم لطائف معاني الوصال
والفراق بالقلب فتترادف أسباب اللذة فهذا نوع تمتع من جملة مباحات الدنيا و
متاعها وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وهذا منه وكذلك إذا غضبت منه جارية
أو غاب وحيل بينه وبينها بسبب من الأسباب فله أن يحرك بالسماع شوقه وأن
يستثير به لذة رجاء الوصال فإن باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده إذ لا يجوز
تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء وأما من يتمثل في نفسه صورة
صبي أو امرأة لا يحل له النظر إليها وكان ينزل ما يسمع على ما يتمثل في نفسه فهذا حرام لأنه
محرك للفكر في الأفعال المحظورة ومهيج للداعية إلى ما لا يباح الوصول إليه وأكثر العشاق
والسفهاء من الشبان في وقت هيجان الشهوة لا ينفكون عن إضمار شيء من ذلك فذلك
ممنوع في حقهم لما فيهم من الداء الدفين لا لأمر يرجع إلى نفس السماع ولذلك سئل حكيم
عن العشق فقال دخان يصعد إلى دماغ الإنسان يزيله الجماع ويهيجه السماع السابع
سماع من أحب الله سبحانه وعشقه واشتاق إلى لقائه فلا ينظر إلى شيء إلا رآه فيه

ومنه لا يقدح سمعه قارع الأسماع منه وفيه فالسماع في حقه مهيج لشوقه ومؤكد
لعشقه وحبه ومورٍ زناد قلبه ومستخرج منه أحوالا من المكاشفات والملاطفات
لا يحيط الوصف بها يعرفها من ذاقها وينكرها من كل حسه عن ذوقها وتسمى تلك
الأحوال بلسان الصوفية وجدا مأخوذا من الوجود والمصادفة أي صادف من نفسه أحوالا
لم يكن يصادفها قبل السماع ثم تكون تلك الأحوال أسبابا لروادف وتوابع لها
تحرق القلب بنيرانها وتنقيه من الكدورات كما تنقي النار الجواهر المعروضة عليها
من الخبث ثم يتبع الصفاء الحاصل به مشاهدات ومكاشفات وهي غاية مطالب المحبين
لله تعالى ونهاية ثمرة القربات كلها فالمفضي إليها من القربات لا من جملة المعاصي و
المباحات وحصول هذه الأحوال للقلب بالسماع سببه سر الله تعالى وهو في مناسبة
النغمات الموزونة للأرواح وتسخير الأرواح لها وتأثرها بها شوقا وفرحا وحزنا
وانبساطا وانقباضا ومعرفة السبب في تأثر الأرواح بالأصوات من دقائق علوم
المكاشفات والبليد الجامد القاسي القلب المحروم عن لذة السماع يتعجب من التذاذ
المستمع ووجده واضطراب حاله وتغير لونه تعجب البهيمة من لذة اللوزينج وتعجب
العنين من لذة المباشرة وتعجب الصبي من لذة الرياسة واتساع أسباب الجاه و
تعجب الجاهل من لذة معرفة الله ومعرفة جلاله وعظمته وعجائب صنعه ولكل
ذلك سبب واحد وهو أن اللذة نوع إدراك والإدراك يستدعي مدركا و
قوة مدركة فمن لم يكمل قوة إدراكه لم يتصور منه التلذذ فكيف يدرك لذة
المطعوم من فقد الذوق وكيف يدرك لذة الألحان من فقد السمع ولذة المعقولات
من فقد العقل ولذلك ذوق السماع بالقلب بعد وصول الصوت إلى السمع
يدرك بحاسة باطنة في القلب فمن فقدها عدم لا محالة لذته ولعلك تقول
كيف يتصور العشق في حق الله تعالى حتى يكون السماع محركا له فاعلم أن من عرف الله
أحبه لا محالة ومن تأكدت معرفته تأكدت محبته بقدر تأكد معرفته فالمحبة إذا
تأكدت سميت عشقا فلا معنى للعشق إلا محبة مؤكدة مفرطة ولذلك قالت العرب
إن محمدا قد عشق ربه لما رآه يتخلى للعبادة في جبل حراء واعلم أن كل
جمال محبوب عند مدرك ذلك الجمال والله تعالى جميل ولكن الجمال إذا كان بتناسب

الخلقة وصفاء اللون ادرك بحاسة البصر وان كان الجمال بالجلال والعظمة وعلو
الرتبة وحسن الصفات والاخلاق وارادة الخيرات لكافة الخلق وافاضتها عليهم
على الدوام الى غير ذلك من الصفات الباطنة ادرك بحاسة القلب ولفظ الجمال
قد يستعار ايضا لها فيقال ان فلانا لجميل وحسن ولا يراد صورته وانما يعني به انه
جميل الاخلاق محمود الصفات حسن السيرة حتى قد يحب الرجل بهذه الصفات الباطنة
استحسانا لها كما تحب الصورة الظاهرة وقد تتاكد هذه المحبة فتسمى عشقا وكم
من الغلاة في حب ارباب المذاهب كالشافعي ومالك وابي حنيفة حتى يبذلون
اموالهم وارواحهم في نصرتهم ونصرة اتباعهم ويربون على كل عاشق في الغلو والمبالغة
ومن العجب ان يعقل عشق شخص لم تشاهد قط صورته اجميل هو ام قبيح وهو الآن ميت ولكن
لجمال صورته الباطنة وسيرته المرضية والخيرات الحاصلة من علمه لاهل الدين وغير ذلك
من الخصال ثم لا يعقل عشق من لا يرى الخير الا منه ولا جمال ولا محبوب في العالم الا وهو حسنة من
حسناته واثر من آثار كرمه وغرفة من بحر جوده بل كل حسن وجمال في العالم ادرك
بالعقول والابصار والاسماع وسائر الحواس من مبدا العالم الى منقرضه ومن ذروة
الثريا الى منتهى الثرى فهو ذرة من خزائن قدرته ولمعة من انوار حضرته فليت شعري
كيف لا يعقل حب من هذا وصفه وكيف لا يتاكد عند العارفين باوصافه حبه
حتى يجاوز حدا يكون اطلاق اسم العشق ظلما في حقه لقصوره عن الانباء عن فرط
محبته فسبحان من احتجب عن الظهور بشدة ظهوره واستتر عن الابصار باشراق
نوره ولولا احتجابه بسبعين حجابا من نور لاحرقت سبحات وجهه ابصار الملاحظين
لجمال حضرته ولولا ان ظهوره سبب خفائه لبهتت العقول ودهشت القلوب
وتخاذلت القوى وتناثرت الاعضاء ولو ركبت القلوب من الحجارة والحديد لاصبحت
تحت مبادي انوار تجليه دكا دكا فانى تطيق كنه نور الشمس ابصار الخفافيش وسياق تطيق م
تحقيق هذه الاشارة في كتاب المحبة ويتضح ان محبة غير الله قصور وجهل بل المحقق
بالمعرفة لا يعرف غير الله اذ ليس في الوجود تحقيقا الا الله وافعاله ومن عرف الافعال
من حيث انها افعاله فلم يجاوز معرفته الفاعل الى غيره فمن عرف الشافعي وعلمه
وتصنيفه من حيث انه تصنيفه لا من حيث انه بياض وجلد وحبر وورق وكلام منظوم

ب

منظوم ولغة عربية فقد عرفه ولم يجاوز معرفته الى غيره ولا جاوز
محبته الى غيره وصفات الله كان يرى كل موجود سوى الله فهو تصنيف وفعله
وبديع افعاله فمن عرفها من حيث انها صنع الله فرأى من الصنع صفات الله كما
يرى من حسن التصنيف فضل المصنف وجلالة قدره كانت معرفته ومحبته
مقصورة على الله غير مجاوزة الى ما سواه ومن حد العشق انه لا يقبل الشركة
وكل ما سوى هذا العشق فهو قابل للشركة اذ كل محبوب سواه فيتصور
له نظير اما في الوجود واما في الامكان فاما هذا الجمال فلا يتصور له ثان لا
في الامكان ولا في الوجود فكان اسم العشق على حب غير الله مجازا محضا لا
حقيقة نعم الناقص القريب في نقصانه من البهيمة قد لا يدرك من لفظ العشق
الا طلب الوصال الذي هو عبارة عن تماس ظواهر الاجسام وقضاء شهوة
الوقاع فمثل هذا الحمار ينبغي ان لا يستعمل معه لفظ العشق والشوق والوصال
والانس فان الالفاظ انما يجوز اطلاقها في حق الله اذا لم تكن موهمة معنى يجب
تقديس الله عز وجل عنه والاوهام تختلف باختلاف الافهام فلتتنبه لهذه الدقائق
في امثال هذه الالفاظ بل لا يبعد ان ينشأ من مجرد سماع صفات الله تعالى
وجد غالب ينقطع بسببه نياط القلب فقد روى ابو هريرة عن رسول الله ﷺ
انه ذكر غلاما كان في بني اسرائيل على جبل فقال لامه من خلق السماء فقالت الله
عز وجل فقال من خلق الارض قالت الله عز وجل قال من خلق الجبال قالت الله
عز وجل قال فمن خلق هذه الغيم قالت الله عز وجل قال اني لاسمع لله شأنا
ثم رمى بنفسه من الجبل فتقطع فهذا كأنه سمع ما دل على جلال الله عز وجل وتمام
قدرته فطرب له ووجد فرمى بنفسه من الوجد وبها انزلت الكتب ليطربوا بذكر الله فرمى م
قال بعضهم رأيت مكتوبا في الانجيل غنينا لكم فلم تطربوا وزمرنا لكم فلم ترقصوا اي شوقناكم
بذكر الله فلم تشتاقوا فهذا ما اردنا ان نذكره من اقسام السماع وبواعثه و
مقتضياته وقد ظهر على القطع اباحته في بعض المواضع والندب اليه في بعض المواضع
فان قلت فهل له حالة يحرم فيها فاقول انه يحرم بخمسة عوارض عارض في او فيه لله
المسمع وعارض في آلة السماع العارض الاول ان يكون المسمع امراة لا يحل

النظر اليها ويخشى الفتنة من سماعها وفي معناها الصبي الذي يخشى فتنته فهذا
حرام وليس ذلك لاجل الغناء الثاني في الالة بان يكون من شعار الشرب او المخنثين
كالمزامير والاوتار الثالث في نظم الصوت وهو الشعر فان كان فيه شيء من الخنا
والفحش والهجو وكذب على الله تعالى او على رسوله او على الصحابة فسماع ذلك
حرام بالحان وغير الحان والمستمع شريك القايل وكذلك ما فيه وصف امراة
بعينها الرابع في المستمع وهو ان يكون الشهوة غالبة عليه وكان في غرة الشباب
كان هذه الصفة اغلب عليه من غيرها فالسماع حرام عليه سواء غلب على
قلبه حب شخص معين او لم يغلب فانه كيف ما كان فلا يسمع وصف الصدغ والخد
والوصال والفراق الا ويحرك ذلك شهوته وينزله على صورة معينة ينفخ الشيطان
بها في قلبه فيشتعل فيه نار الشهوة فيحتد بواعث الشر وذلك هو النصرة لحزب
الشيطان والتخذيل للعقل المانع منه الذي هو حزب الله والقتال في القلب دايم
بين جنود الشيطان وهي الشهوات وبين حزب الله وهو نور العقل الا في قلب قد فتحه
احد الجندين واستولى بالكلية وغالب القلوب الآن قد فتحها جند الشيطان و
غلب عليها فيحتاج ان يستانف اسباب القتال لازعاجه فكيف يجوز تكثير اسلحتها
وتشحيذ سيوفها واسنانها والسماع مشحذ لاسلحة جنود الشيطان في حق مثل هذا
الشخص فليخرج مثل هذا عن مجمع السماع فانه يستضر به الخامس ان يكون الشخص
من عوام الخلق ولم يغلب عليه حب الله تعالى فيكون السماع له محبوبا ولا غلبت عليه
الشهوة فيكون في حقه محذورا ولكنه ابيح في حقه كساير انواع اللذات المباحة
الا انه لو اتخذه ديدنه وهجيراه وقصر عليه اكثر اوقاته فهذا هو السفيه الذي ترد
شهادته فان ثم ذكر رحمه الله بيان حجج القايلين بتحريم السماع واجوبتها على
التفصيل **الباب الثاني في اثار السماع وادابه** اعلم ان اول درجة السماع فهم
المسموع وتنزيله على معنى يقع للمستمع ثم يثمر الفهم الوجد ويثمر الوجد الحركة بالجوارح
الجوارح فلينظر في هذه المقامات الثلث المقام الاول في الفهم وهو يختلف باختلاف
احوال المستمع وللمستمع اربعة احوال الحالة الاولى ان يكون سماعه بمجرد الطبع
اي لاحظ في السماع الا التلذذ بالالحان والنغمات وهذا مباح وهو اخس رتب السماع

فان المواظبة على اللهو جناية وكما ان الصغيرة بالاصرار تصير كبيرة فبعض المباحات بالمداومة تصير صغيرة صح

السماع اذ الابل شريك فيه وكذا ساير البهايم الثانية ان يسمع وهو فاهم ولكن ينزله على
صورة مخلوق اما معينا او غير معين وهو سماع الشبان وارباب الشهوة ويكون
تنزيلهم للمسموع على حسب شهواتهم ومقتضى احوالهم وهذه الحال اخس من ان نتكلم
فيها الا ببيان خستها والنهي عنها الحالة الثالثة ان ينزل ما يسمعه على احوال نفسه في
معاملته مع الله تعالى وتقلب احواله في التمكن مرة والتعذر اخرى وهذا سماع المريدين
لا سيما المبتدين فان للمريد لا محالة مرادا هو مقصده ومقصده معرفة الله تعالى ولقاؤه
والوصول اليه بطريق المشاهدة بالسر وكشف الغطاء وله في مقصده طريق هو سالكه
ومعاملات هو مثابر عليها وحالات يستقبله في معاملته فاذا سمع ذكر عتاب
او خطاب او قبول او رد او وصل او هجر او قرب او بعد او تلهف على فايت او تعطش
الى منتظر او شوق الى وارد او طمع او ياس او وحشة او استيناس او وفاء بالوعد
او نقض للعهد او خوف فراق او فرح وصال او ذكر ملاحظة الحبيب ومدافعة
الرقيب او همول العبرات او ترادف الحسرات وطول الفراق او عدة الوصال وغير
ذلك مما يشتمل على وصفه الاشعار فلا بد وان يوافق بعضها حال المريد في طلبه
فيجري ذلك مجرى القداح التي تورى زناد قلبه فيشتعل به نيرانه ويقوى به انبعاث
الشوق وهيجانه ويهجم عليه بسببه احوال مخالفة لعادته ويكون له مجال رحب في
تنزيل الالفاظ على احواله وليس على المستمع مراعاة مراد الشاعر من كلامه بل لكل كلام
وجوه ولكل ذي فهم في اقتباس المعنى منه حظ ولنضرب لهذه التنزيلات والفهوم امثلة
كيلا يظن الجاهل ان المستمع لابيات فيها ذكر الفم والخد والصدغ انما يفهم منها ظواهرها
ولا حاجة بنا الى ذكر كيفية فهم المعاني من الابيات ففي حكايات اهل السماع ما يكشف
عن ذلك فقد حكي ان بعضهم سمع قايلا يقول قال الرسول غدا تزور فقلت تدري
ما تقول فاستفزه القول واللحن وتواجد وجعل يكرر ذلك ويجعل مكان التا نونا
ويقول قال الرسول غدا نزور حتى غشي عليه من شدة الفرح واللذة فلما افاق سيل
عن وجده مم كان فقال ذكرت قول الرسول صلى الله عليه وسلم ان اهل الجنة يزورون ربهم في كل
جمعة مرة وذكر رحمه الله حكايات اخرى مثلها ثم قال فالمقصود ان هذا
الشخص كان مستغرق الوقت بحاله مع الله ومعرفته لعجزه عن الثبوت عن حسن الادب

في المعاملة والتاسف على تقلب قلبه وميله عن سنن الحق فاذا قرع سمعه ما يوافق حاله
سمعه من الله كانه يخاطبه ويقول له يا عبدي كل يوم تتبدل تغير هذا بك اجمل ومن
كان سماعه من الله وعلى الله وفي الله فينبغي ان يكون قد احكم قانون العلم في
معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته والا خطر له من السماع في حق الله تعالى ما يستحيل عليه
ويكفر به ففي سماع المريد المبتدي خطر الا اذا نزل ما يسمع على ما يليق به من حيث لا
يوصف الله تعالى به ومثال الخطا هذا البيت بعينه لو سمعه في نفسه وهو يخاطب به ربه
فيضيف التلون الى الله تعالى فيكفر به وهذا يقع عن جهل محض مطلق غير ممزوج بتحقيق
وقد يكون عن جهل سببه نوع من التحقيق وهو ان يرى تقلب احوال قلبه بل
تقلب سائر احوال العالم من الله تعالى وهو حق فانه تارة يبسط قلبه وتارة يقبضه
تارة ينوره وتارة يقسيه وتارة يثبته على طاعته ويقويه عليه وتارة يسلط الشيطان
عليه ليصرفه عن سنن الحق وهذا كله من الله تعالى ومن يصدر منه احوال مختلفة في
اوقات متقاربة فقد يقال له في العادة انه ذو بدوات وانه متلون ولعل الشاعر
لم يرد الا نسبة محبوبه الى التلون في قبوله ورده وتقريبه وابعاده وهذا هو المعنى
وسماع هذا كذلك في حق الله تعالى كفر محض بل ينبغي ان يعلم انه يلون ويغير ولا يتغير
بخلاف عباده وذلك العلم يحصل للمريد باعتقاد تقليدي ايماني ويحصل للعارف
البصير بيقين كشفي حقيقي وذلك من اعاجيب اوصاف الربوبية وهو المغير من غير
تغير ولا يتصور ذلك الا في حق الله تعالى بل كل مغير سواه فلا بد ان يتغير ومن
ارباب الوجد من يغلب عليه حال مثل السكر المدهش فيطلق لسانه بالعتاب مع
الله تعالى ويستنكر قهره للقلوب وقسمته للاحوال الشريفة على تفاوت فانه
المصطفي لقلوب الصديقين والمبعد لقلوب الجاحدين والمغرورين فلا مانع لما
اعطى ولا معطي لما منع ولم يقطع التوفيق عن الكفار لجناية متقدمة ولا امد الانبياء
بتوفيقه ونور هدايته لوسيلة سابقة ولكنه قال تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا
المرسلين وقال تعالى ولكن حق القول مني لاملان جهنم من الجنة والناس اجمعين وقال
تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون فان خطر ببالك انه
لم اختلفت السابقة وهم في ربقة العبودية مشتركون نوديت من سرادقات الجلال لا تجاوز

والتلون

لا تجاوز حد الادب فانه لا يسال عما يفعل وهم يسالون ولعمري تادب اللسان
والظاهر مما يقدر عليه الاكثرون فاما ادب السر عن اضمار الاستبعاد لهذا الاختلاف
الظاهر في التقريب والابعاد والاشقاء والاسعاد مع بقاء السعادة والشقاوة ابد
الآباد فلا يقوى عليه الا الاقوياء الراسخون في العلم ولهذا قال الخضر عليه السلام لما سئل عن
السماع في المنام انه الصفو الزلال الذي لا يثبت عليه الا اقدام العلماء لانه محرك لاسرار
القلوب ومكامنها مشوش لها تشويش السكر المدهش الذي يكاد يحل عقدة العقل
عن السر الا من عصمه الله بنور هدايته ولطف عصمته ولذلك قال بعضهم ليتنا نجونا
من هذا السماع راسا براس ففي هذا الفن من السماع خطر يزيد على خطر السماع على
مخلوق بالشهوة فان غاية ذلك معصية وغاية الخطا ههنا كفر **الحالة الرابعة** سماع
من جاوز الاحوال والمقامات فعزب عن فهم ما سوى الله حتى عزب عن نفسه واحوالها
ومعاملاتها فكان كالمدهوش والغائص في عين الشهود الذي يضاهي حاله حال النسوة
اللاتي قطعن ايديهن في مشاهدة جمال يوسف حتى بهتن وسقط احساسهن وعن
مثل هذه الحالة يعبر الصوفية بانه فني عن نفسه ومهما فني عن نفسه فهو عن غيره افنى فكانه
افنى عن كل شيء الا عن الواحد المشهود وفني ايضا عن الشهود فان القلب اذا التفت
الى الشهود والى نفسه بانه شاهد فقد غفل عن المشهود فالمستهتر بالمرئي لا التفات
له في حالة استغراقه الى رؤيته ولا الى عينه التي بها رؤيته ولا الى قلبه الذي به لذته
فالسكران لا خبر له من سكره والملتذ لا خبر له من التذاذه وانما خبره عن الملتذ به
فقط ومثاله العلم بالشيء فانه مغاير للعلم بالعلم بذلك الشيء فالعالم بالشيء مهما
ورد عليه العلم بالعلم بالشيء كان معرضا عن الشيء ومثل هذه الحالة قد تطرا
في حق المخلوق وتطرا ايضا في حق الخالق ولكنها في الغالب تكون كالبرق الخاطف
الذي لا يثبت ولا يدوم وان دام لم تطقه القوة البشرية فربما اضطرب تحت اعبائه
اضطرابا تهلك فيه نفسه كما روي عن ابي الحسين النوري رحمه الله انه حضر مجلسا
فسمع هذا البيت ما زلت انزل من ودادك منزلا تتحير الالباب عند نزوله فقام وتواجد
وهام على وجهه فوقع في اجمة قصب قد قطعت وبقيت اصولها مثل السيوف
وكان يعدو فيها ويعيد البيت الى الغداة والدم يخرج من رجليه حتى ورم

قدماه بمساقاه وبعد ذلك بايام مات فهذه درجة الصديقين في الفهم
والوجد وهي اعلا الدرجات لان السماع على الاحوال وهي ممتزجة بصفات
البشرية نوع قصور وانما الكمال ان يفنا عن نفسه واحواله بالكلية اعني انه
ينساها فلا يبقى له التفات اليها انها امكن فيسمع بالله وفي الله ومن الله وفي
هذه رتبة من خاض لجة الحقايق وعبر ساحل الاحوال والاعمال واتحد بصفا
التوحيد وتحقق بمحض الاخلاص ولم يبق فيه منه شي اصلا بل خمدت بالكلية
بشريته وفنى التفاته الى صفات البشرية راسا ولست اعني بالقلب اللحم والدم
بل سر لطيف له الى القلب الظاهر نسبة خفية وراها سر الروح الذي هو من
امر الله تعالى عرفها من عرفها وجهلها من جهلها ولذلك السر وجود وصورة
ذلك الوجود ما يحضر فيه فاذا حضر فيه غيره فكانه لا وجود الا للحاضر ومثاله
المراة المجلوة اذ ليس لها لون في نفسها بل لونها لون الحاضر فيها وكذلك الزجاج
فانها تحكي لون قرارها ولونها لون الحاضر فيها وليس لها في نفسها صورة
بل صورتها قبول الصور ولونها هو هيئة الاستعداد لقبول الالوان ويعرب
هذه الحقيقة اعني سر القلب بالاضافة الى ما يحضر فيه قول الشاعر: رق الزجاج
وراقت الخمر * وتشابها فتشاكل الامر * فكانما خمر ولا قدح * وكانما قدح ولا
خمر * وهذه مقام من مقامات علوم المكاشفة منها نشا خيال من
ادعى الحلول والاتحاد وقال انا الحق وحوله يدندن كلام النصارى في دعوى
اتحاد اللاهوت بالناسوت او تدرعها بها او حلولها فيها على ما اختلف فيه
عباراتهم وهو غلط محض يضاهي غلط من يحكم على المراة بصورة الحمرة اذ ظهر
فيها لون الحمرة من مقابلها فاذا كان هذا غير لايق بعلم المعاملة فلنرجع الى
الى الغرض فقد ذكرنا تفاوت الدرجات في فهم المسموعات المقام الثاني
بعد الفهم والتنزيل الوجد وللناس كلام طويل في حقيقة الوجد اعني الصوفية
فقال ذو النون في السماع انه وارد حق جا يزعج القلوب الى الحق فمن اصغى
اليه بحق تحقق ومن اصغى اليه بنفس تزندق فكانه عبر عن الوجد بانزعاج
القلوب الى الحق وهو الذي يجده عند ورود وارد السماع او سمى السماع وارد

بفنائه فنا جسده بل فنا قلبه ولست اعني صح

الصفة اللازمة والعادة وكذلك الشيطان صح

والحكماء الناظرين في وجه مناسبة السماع للارواح فلننقل من الفاظهم واقوالهم ثم لنكشف عن الحقيقة فيها اما الصوفية صح

وارد حق وبعد ذكر جميع الاقوال قال رحمه الله والاقاويل في السماع
والوجد كثيرة ولا معنى للاستكثار منها فلنشتغل بتفهيم المعنى الذي الوجد
عبارة عنه فنقول انه عبارة عن حالة يثمرها السماع وهو وارد حق جديد
عقيب السماع يجده المستمع من نفسه وتلك الحالة لا تخلو عن قسمين فانها
اما ان ترجع الى مكاشفات ومشاهدات هي من قبيل العلوم والتنبيهات
واما ان ترجع الى تغيرات واحوال ليست من العلوم بل هي كالشوق و
الخوف والحزن والقلق والسرور والاسف والندم والبسط والقبض
وهذه الاحوال يهيجها السماع ويقويها فان ضعف بحيث لم يؤثر في تحريك
الظاهر او تسكينه او تغيير حاله حتى يتحرك على خلاف عادته او يطرق او يسكن
عن النظر والنطق والحركة على خلاف عادته لم يسم وجدا وان ظهر على الظاهر
سمي وجدا اما ضعيفا او قويا بحسب ظهوره وتغييره للظاهر وتحريكه بحسب قوة
وروده وحفظ الظاهر عن التغير بحسب قوة الواجد وقدرته على ضبط جوارحه
فقد يقوى الوجد في الباطن ولا يتغير الظاهر لقوة صاحبه وقد لا يظهر لضعف
الوارد وقصوره عن التحريك وحل عقد التماسك ثم ذكر رحمه الله بعد كلام
مفصل سرا شريفا قال رحمه الله اما الاوتار وسائر النغمات التي ليست مفهومة
فتؤثر في النفس تاثيرا عجيبا ولا يمكن التعبير عن عجايب تلك الاثار وقد يعبر
عنها بالشوق لكن شوق لا يعرف صاحبه المشتاق اليه فهو عجيب والذي
اضطرب قلبه بسماع الاوتار والشاهين وما اشبهه ليس يدري الى ماذا
يشتاق ويجد في نفسه حالة كانها تتقاضى امرا ليس يدري ما هو حتى يقع
ذلك للعوام ومن لا يغلب على قلبه لا حب ادمي ولا حب الله تعالى وهذا له سر
وهو ان كل شوق فله ركنان احدهما صفة المشتاق وهو نوع مناسبة مع المشتاق
اليه والثاني معرفة المشتاق اليه ومعرفة صورة الوصول اليه فان وجدت
الصفة التي بها الشوق ووجد العلم بصورة المشتاق اليه كان الامر ظاهرا
وان لم يوجد العلم بالمشتاق ووجدت الصفة المشوقة وحركت تلك الصفة
واشتعل نارها اورث ذلك دهشة وحيرة لا محالة ولو نشا ادمي وحده حيث

والقلق صح

لم يعرف صورة النسآء ولا عرف صورة الوقاع ثم راهق الحلم وغلبت عليه الشهوة فانه
يحس من نفسه بنار الشهوة ولا يدري انه مشتاق الى الوقاع لانه ليس يدري صورة
الوقاع ولا صورة النسآء فكذلك في نفس الآدمي مناسبة مع العالم الاعلى واللذات
التي وعدت بها في سدرة المنتهى والفراديس العلى الا انه لم يتخيل من هذه الا
الا الصفات والاسمآء كالذي سمع لفظ الوقاع واسم النسآء ولم يشاهد صورة
امرأة قط ولا صورة رجل ولا صورة نفسه في المرآة ليعرف بالمقايسة فالسماع
يحرك منه الشوق والجهل المفرط والاشتغال بالدنيا قد انساه نفسه وانساه ربه
وانساه مستقره الذي اليه حنينه واشتياقه بالطبع فيتقاضاه قلبه امرا ليس يدري
ما هو فيدهش ويتحير ويضطرب ويكون كالمختنق الذي لا يعرف طريق الخلاص
فهذا وامثاله من الاحوال التي لا يدرك تمام حقائقها ولا يمكن المتصف بها ان يعبر
عنها فقد ظهر انقسام الوجد الى ما يمكن اظهاره والى ما لا يمكن اظهاره واعلم ايضا
ان الوجد ينقسم الى هاجم والى متكلف ويسمى التواجد وهذا التواجد المتكلف فمنه
مذموم وهو الذي يقصد به الريا واظهار الاحوال الشريفة مع الافلاس منها ومنه
ما هو محمود وهو التوصل الى استدعآء الاحوال الشريفة واكتسابها واجتلابها بالحيلة فان
للكسب مدخلا في جلب الاحوال الشريفة ولذلك امر رسول الله صلعم من لم يحضره البكا
في تلاوة القرآن ان يتباكى ويتحازن فان هذه الاحوال قد تتكلف مباديها ثم تتحقق
اواخرها وكيف لا يكون التكلف سببا في ان يصير التكلف بالآخرة طبعا وكل من
يتعلم القرآن اولا يحفظه تكلفا ويقرؤه تكلفا مع تمام التامل واحضار الذهن ثم
يصير ذلك ديدنا للسان مطردا حتى يجري به لسانه في الصلوة وغيرها وهو غافل فيقرأ تمام
السورة ثم ثوبت نفسه اليه بعد انتهائه الى اخرها ويعلم انه قرأها في حال غفلته
وكذلك الكاتب يكتب بجهد شديد في الابتدا ثم تتمرن على الكتبة يده فيصير الكتب له طبعا
فيكتب اوراقا وهو مستغرق القلب بفكر آخر فجميع ما يحتمله النفس والجوارح من الصفات
لا سبيل الى اكتسابها الا بالتكلف والتصنع اولا ثم يصير بالعادة طبعا وهو المراد
بقول بعضهم العادة طبيعة خامسة فكذلك الاحوال الشريفة لا ينبغي ان يقع
الياس منها عند فقدها بل ينبغي ان يتكلف اجتلابها بالسماع وغيره فلقد شوهد

في العادات من اشتهى ان يعشق شخصا ولم يكن يعشقه فلم يزل يردد ذكره
على نفسه ويديم النظر اليه ويقرر على نفسه الاوصاف والاخلاق المحبوبة فيه حتى
عشقه ورسخ ذلك في قلبه رسوخا خرج عن حد اختياره واشتهى بعد ذلك الخلاص
منه فلم يتخلص فكذلك حب الله تعم والشوق اليه والى لقائه والخوف من سخطه وغير
ذلك من الاحوال الشريفة اذا فقدها الانسان فينبغي ان يتكلف الانسان اجتلابها
بمجالسة الموصوفين بها ومشاهدة احوالهم وتحسين صفاتهم في النفس وبالجلوس معهم
في السماع وبالدعآء والتضرع الى الله تعم في ان يرزقه تلك الحالة بان ييسر له اسبابها
ومن اسبابها السماع ومجالسة الصالحين والخائفين والمحبين والمشتاقين
والخاشعين فمن جالس شخصا سرت اليه صفاته من حيث لا يدري ويدل على امكان تحصيل
الحب وغيره من الاحوال بالاسباب قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في دعائه
اللهم ارزقني حبك وحب من احبك وحب من يقربني الى حبك فقد فزع الى الدعآء
في طلب الحب فهذا بيان انقسام الوجد الى مكاشفات والى احوال وانقسامه الى
ما يمكن الافصاح عنه والى ما لا يمكن وانقسامه الى المتكلف والى المطبوع فان قلت
فما بال هؤلآء لا يظهر وجدهم عند سماع القرآن وهو كلام الله تعالى ويظهر عند
الغنآء وهو كلام الشعرآء فلو كان ذلك حقا من لطف الله تعم ولم يكن باطلا من
غرور الشيطان لكان القرآن اولى به من الغنا فاقول الوجد الحق هو ما ينشأ
من فرط حب الله تعم وصدق ارادته والشوق الى لقائه وذلك يهيج بسماع القرآن
ايضا وانما الذي لا يهيج بالقرآن حب الخلق والعشق المخلوق ويدل على ذلك قوله
تعالى الا بذكر الله تطمئن القلوب وقوله تعم مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون
ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله وكل ما يوجد عقيب السماع بسبب السماع في
النفس فهو وجد فالطمانينة والاقشعرار والخشية ولين القلب كل ذلك وجد
قال الله تعالى انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم وقال تعالى لو انزلنا هذا
القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله فالوجل والخشوع وجد من
قبيل الاحوال وان لم يكن من قبيل المكاشفات ولكن قد يصير سببا للمكاشفات والتنبيهات
ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم زينوا القرآن باصواتكم وقال لابي موسى لقد

لقد اوتي مزمارا من مزامير آل داود واما الحكايات الدالة على ان ارباب القلوب
ظهر عليهم الوجد عند سماع القرآن فكثيرة فقوله صلى الله عليه وآله شيبتني هود واخواتها
خبر عن الوجد فان الشيب يحصل من الحزن والخوف وذلك وجد وروي ان ابن
مسعود رضي الله عنه قرأ على رسول الله صلعم فلما انتهى الى قوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل
امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا قال حسبك فكان عيناه تذرفان الدمع وفي
رواية اخرى انه قرأ هذه الآية او قرئ عنده ان لدينا انكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا
اليما فصعق وفي رواية قرأ صلى الله عليه وآله ان تعذبهم فانهم عبادك فبكى وكان
اذا مر بآية رحمة دعا واستبشر والاستبشار وجد وقد اثنى الله تعالى على اصحاب الوجد
بالقرآن فقال تعالى واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع الآية
وروي ان رسول الله صلعم كان يصلي ولصدره ازيز كازيز المرجل فاما ما نقل من الوجد
بالقرآن عن الصحابة والتابعين فكثير فمنهم من صعق ومنهم من بكى ومنهم من غشي عليه
ومنهم من مات في غشيته كان زرارة بن اوفى من التابعين يؤم بالناس بالرقة فقرأ
فاذا نقر في الناقور فخر في محرابه فصعق ومات وقال الجنيد دخلت على سري السقطي
فرأيت بين يديه رجلا قد غشي عليه فقال لي هذا رجل سمع آية من القرآن فغشي عليه
فقلت اقرأوا عليه تلك الآية فقرئ فافاق فقال لي من اين قلت هذا رأيت يعقوب كان
عماه من اجل مخلوق فبمخلوق ابصر ولو كان عماه من اجل الحق ما ابصر الا بالحق وهذا
سمع من الكلام القديم فاستحسن ذلك ويشير الى ما قاله الجنيد قول الشاعر وكاس شربت
على لذة واخرى تداويت منها بها ثم ذكر رحمه الله امثال ذلك كثيرا ثم قال وبالجملة لا يخلو
صاحب القلب عن وجد عند سماع القرآن فان كان القرآن لا يؤثر فيه اصلا فمثله
كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمي الآية بل صاحب القلب تؤثر فيه
الكلمة من الحكمة يسمعها ثم ذكر رحمه الله وجوها عديدة في بيان ان الغنا قد يكون مهيجا
للوجد من القرآن قال الوجه الاول ان جميع آيات القرآن لا تناسب حال المستمع
ولا تصلح لفهمه وتنزيله على ما هو ملابس له فمن استولى عليه حزن او شوق او ندم
فمن اين يناسب حاله قوله تعالى يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين وقوله تعالى
والذين يرمون المحصنات وكذلك جميع الآيات التي فيها بيان احكام الميراث والطلاق

فانه من الكلام القديم

والطلاق والحدود وغيرها وانما المحرك لما في القلب ما يناسبه والابيات انما
نظمها الشعراء اعرابا بها عن احوال القلب فلا يحتاج في فهم الحال منها الى تكلف نعم من
يستولي عليه حالة غالبة قاهرة لم يبق فيه متسعا لغيرها ومعه تيقظ وتوقد
ذهن ثاقب يتفطن به للمعاني البعيدة من الالفاظ فقد يخرج وجده على كل مسموع كمن يخطر
له عند قوله تعالى يوصيكم الله في اولادكم حالة الموت المحوج الى الوصية وان كل انسان
لا بد وان يخلف ماله وولده وهما محبوباه من الدنيا فيترك احد المحبوبين للثاني
ويهجرهما جميعا فيغلب عليه الخوف والجزع او يسمع ذكر الله في قوله يوصيكم الله
فيدهش بمجرد الاسم عما قبله وبعده او يخطر له رحمة الله تعالى على عباده و
شفقته بان تولى قسمة مواريثهم بنفسه نظرا لهم في حياتهم وموتهم ثم ذكر رحمه الله
امثال ذلك ثم وجوها وقال الوجه السادس فان القلوب اذا كانت محترقة في
حب الله تعالى فالبيت الغريب يهيج منها ما لا يهيج تلاوة القرآن وذلك لوزن
الشعر ومشاكلته للطباع ولكونه مشاكلا للطباع اقتدر البشر على نظم الشعر واما القرآن
فنظمه خارج عن اساليب ومنهاجه وهو لذلك معجز لا يدخل في قوة البشر لعدم
مشاكلته لطبعهم **المقام الثالث** من السماع نذكر فيه آداب السماع ظاهرا و
باطنا وما يحمد من آثار الوجد وما يذم فاما الآداب فهي خمس جمل **الاول** مراعاة
الزمان والمكان والاخوان ومعناه ان الاشتغال به في وقت حضور طعام او
صلاة او صارف من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدة فيه فهذا
معنى مراعاة الزمان فيراعى حالة فراغ القلب واما المكان فقد يكون شارعا مطروقا
او موضعا كريه الصورة او فيه سبب يشغل القلب فيجتنب ذلك واما الاخوان
فسببه انه اذا حضر غير الجنس من منكر السماع متزهد الظاهر مفلس من لطائف
القلوب كان مستثقلا في المجلس واشتغل القلب به وكذا اذا حضر متكبر من اهل
الدنيا يحتاج الى مراقبته ومراعاته او متكلف متواجد من اهل التصوف يرائي
بالوجد والرقص وتمزيق الثياب فكل ذلك مشوشات فترك السماع عند فقد
هذه الشروط اولى ففي هذه الشروط نظر للمستمع **الادب الثاني** وهو نظر
الحاضرين ان الشيخ اذا كان حوله مريدون يضرهم السماع فلا ينبغي ان يسمع

في حضورهم والمريد الذي يستضر بالسماع احد ثلثة اقلهم درجة وهو الذي لم
يدرك من الطريق الا الاعمال الظاهرة ولم يكن له ذوق السماع فاشتغاله بالسماع
اشتغال بما لا يعنيه الثاني الذي له ذوق السماع ولكن فيه بقية الحظوظ والالتفات
الى الشهوات والصفات البشرية ولم ينكسر بعد انكسارا تؤمن غوائله فربما
يهيج السماع منه داعية اللهو والشهوة فينقطع عليه طريقه ويصده عن الاستكمال
الثالث ان يكون قد انكسرت شهوته وامنت غائلته وانفتحت بصيرته واستولى
على قلبه حب الله تعالى ولكنه لم يحكم ظاهر العلم ولم يعرف اسماء الله تعالى وصفاته
وما يستحيل عليه وما لا يستحيل فاذا فتح له باب السماع نزل المسموع في حق الله تعالى
على ما يجوز وما لا يجوز فيكون ضرره من تلك الخواطر التي هي كفر اعظم من نفع
السماع قال سهل رحمه الله كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل فلا
يصلح السماع لمثل هذا ولا لمن قلبه بعد ملوث بحب الدنيا وشهوة المحمدة والثناء
ولا لمن يسمع لاجل التلذذ والاستطابة بالطبع فيصير ذلك عادة له ويشغله ذلك
عن عباداته ومراعاة قلبه وينقطع عليه طريقه فالسماع مزلة قدم يجب حفظ
الضعفاء عنه قال الجنيد رايت ابليس في النوم فقلت له هل تظفر من اصحابنا
بشيء قال نعم في وقتين وقت السماع ووقت النظر فاني ادخل عليهم به فقال
بعض الشيوخ لو رايته انا لقلت له ما احمقك من سمع منه اذا سمع ونظر فتظفر كيف
به قال الجنيد صدقت الادب الثالث ان يكون مصغيا الى ما يقول القائل
حاضر القلب قليل الالتفات الى الجوانب متحرزا عن النظر الى وجوه المستمعين وما
يظهر عليهم من احوال الوجد مشتغلا بنفسه ومراعاة قلبه ومراقبة ما يفتح الله له
من رحمته في سره متحفظا عن حركة تشوش على اصحابه قلوبهم بل يكون ساكن الظاهر
هادئ الاطراف متحفظا عن التنحنح والتثاؤب ويجلس مطرقا راسه كجلوسه في فكر
مستغرق لقلبه متماسكا عن التصفيق والرقص وسائر الحركات على وجه التصنع
والتكلف والمراءات ساكتا عن النطق في اثناء القول روي ان موسى عليه السلام
قص على بني اسرائيل فمزق واحد منهم ثوبه او قميصه فاوحى الله تعالى الى موسى قل له
مزق لي قلبك ولا تمزق ثيابك فان قلت الافضل هو الذي لا يحركه السماع

السماع ولا يؤثر في ظاهره او الذي يظهر عليه فاعلم ان عدم الظهور تارة
يكون لضعف الوارد من الوجد فهو نقصان وتارة يكون مع قوة الوجد في
الباطن ولكن لكمال القوة على ضبط الجوارح فهو كمال وتارة يكون لكون حال
الوجد ملازما ومصاحبا في الاحوال كلها فلا يتبين للسماع مزيد تاثير وهو
غاية الكمال فان صاحب الوجد في غالب الاحوال لا يدوم وجده فمن هو في وجد
دائم فهو المرابط للحق والملازم لعين الشهود فهذا لا تغيره طوارق
الاحوال ولا يبعد ان يكون الاشارة بقول بعض الاصحاب هكذا كنا حتى قست
القلوب معناه قويت قلوبنا واشتدت فصارت تطيق ملازمة الوجد في كل
الاحوال فنحن في سماع معاني القرآن على الدوام فلا يكون القرآن جديدا
في حقنا طاريا علينا ولا تظنن ان الذي يضرب بنفسه على الارض اتم وجدا
من الساكن باضطرابه بل رب ساكن اتم وجدا من المضطرب فقد كان الجنيد
يتحرك في السماع في بدايته ثم صار لا يتحرك فقيل له في ذلك فقال وترى الجبال
تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب اشارة الى ان القلب مضطرب جائل في الملكوت
والجوارح متادبة في الظاهر ساكنة ثم ذكر رحمه الله امثال ذلك كثيرا ثم قال
قال الجنيد لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم وفضل العلم اتم من فضل الوجد
الادب الرابع ان لا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبط نفسه
ولكن ان رقص او تباكى فهو مباح اذا لم يقصد به المراءاة لان التباكي استجلاب
الحزن والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط فكل سرور مباح يجوز تحريكه
وذلك يكون بفرح او شوق وحكمه حكم مهيجه فان كان مهيجه محمودا فالرقص
منه يثيره ويؤكده فهو محمود وان كان مباحا فهو مباح وان كان مذموما فهو مذموم
نعم لا يليق ذلك بمناصب الاكابر واهل القدوة لانه في الاكثر يكون عن لهو ولعب
وما له صورة اللعب واللهو في اعين الخلق فينبغي ان يجتنبه المقتدى به لئلا يصغر في اعين
الخلق فيترك الاقتداء به واما تخريق الثوب فلا رخصة فيه الا عند خروج الامر عن
الاختيار ولا يبعد ان يغلب الوجد بحيث يمزق ثوبه وهو لا يدري لغلبة سكر
الوجد عليه او يدري ولكن يكون كالمضطر الذي لا يقدر على ضبط نفسه وتكون

صورته صورة المكره اذ يكون له في الحركة والتمزيق سعي فيضطر اليه اضطرار المريض الى الانين ولو كلف الصبر عنه لم يقدر عليه مع انه فعل اختياري فليس كل فعل بالارادة يقدر الانسان على تركه فالتنفس فعل يحصل بالارادة ولو كلف الانسان نفسه ان يمسك النفس ساعة اضطر من باطنه الى ان يختار النفس فكذلك الزعقة والتمزيق فيكون كذلك فهذا لا يوصف بالتحريم ثم حكم رحمه الله باباحة تمزيق الصوفية الثياب الجديدة بعد سكون الوجد وتفريقها على القوم وتسميتهم خرقة الادب الخامس موافقة القوم في القيام اذا قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء وتكلف او قام باختيار من غير اظهار وجد وقام له الجماعة فلا بد من الموافقة فذلك من اداب الصحبة وكذلك جرت عادتهم ثم بعد كلام منقّل اورد كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وبعد ذكر الخطبة اورد لشرح ذلك اربعة ابواب الباب الاول في وجوب الامر بالمعروف وفضيلته والنهي عن المنكر ومذمة اهماله قال رحمه الله ويدل عليه بعد الاجماع واشارات العقول السليمة الآيات والاخبار والآثار اما الآيات فقوله تعالى ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون ففي الآية بيان الايجاب فان قوله ولتكن امر وظاهر الامر الايجاب وفيها بيان ان الفلاح منوط به اذ حصر وقال واولئك هم المفلحون وفيها بيان انه فرض كفاية لا فرض عين وانه اذا قام به امة سقط الفرض عن الباقين اذ لم يقل كونوا كلكم آمرين بالمعروف وذكر رحمه الله كثيرا من الآيات والاخبار والآثار واورد في الباب الثاني اركان الامر بالمعروف وشروطه وبيان المنكرات المالوفة في العادات في الباب الثالث وبيان امر الامراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر في الباب الرابع قال رحمه الله في هذا الباب قد ذكرنا درجات الامر بالمعروف وان اوله التعريف وثانيه الوعظ وثالثه التخشين في القول ورابعه المنع بالقهر والحمل على الحق بالضرب والعقوبة والجائز من جملة ذلك مع السلاطين الرتبتان الاوليان وهما التعريف والوعظ اما المنع بالقهر فليس ذلك لآحاد الرعية مع السلطان فان ذلك يحرك الفتنة ويهيج الشر ويكون ما يتولد منه من المحذور اكثر ثم قال رحمه الله وطريق وعظ السلاطين وامرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر

عن المنكر ما نقل عن علماء السلف وقد اوردنا جملة من ذلك في باب الدخول على السلاطين في كتاب الحلال والحرام ونقتصر الآن على حكايات يعرف بها وجه الوعظ وكيفية الانكار عليهم فذكر رحمه الله تلك الحكايات على التفصيل ثم قال فهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين لكنهم اتكلوا على فضل الله ان يحرسهم ورضوا بحكم الله ان يرزقهم الشهادة فلما اخلصوا النية اثر كلامهم في القلوب القاسية فلينها وازال قساوتها واما الآن فقد قيدت الاطماع السن العلماء فسكتوا وان تكلموا لم تساعد اقوالهم احوالهم فلم ينجحوا ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لافلحوا ففساد الرعايا بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الاراذل فكيف على الملوك والاكابر والله المستعان وعليه التكلان

كتاب اخلاق النبوة وهو الكتاب العاشر من كتب احياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي خلق كل شيء فاحسن خلقه وترتيبه وادب نبيه محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فاحسن تاديبه وزكى اوصافه واخلاقه ثم اتخذه صفيه وحبيبه ووفق للاقتداء به من اراد تهذيبه وحرم عن التخلق باخلاقه من اراد تخييبه وصلى الله على محمد سيد المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين اما بعد فان آداب الظواهر عنوان آداب البواطن وحركات الجوارح ثمرات الخواطر والاعمال نتيجة الاخلاق والآداب رشح المعارف وسرائر القلوب هي مغارس الافعال ومنابعها وانوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزينها وتجليها وتبدل بالمحاسن مكارهها ومساويها ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه ومن لم يكن صدره مشكاة للانوار الالهية لم يفض على ظاهره جمال الآداب النبوية ولقد كنت عزمت على ان اختم ربع العادات من هذا الكتاب بكتاب جامع لآداب المعيشة لئلا يشق على طالبها استخراجها من جميع هذه الكتب ثم رايت كل كتاب من ربع العبادات والعادات قد اتى على جملة من الآداب فاستثقلت تكريرها واعادتها فان طلب الاعادة ثقيل والنفوس مجبولة على معاداة المعادات فرايت ان اقتصر في هذا الكتاب على ذكر آداب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واخلاقه المأثورة

عنه بالاسناد فاسرقها عنه فصلا فصلا محذوفة الاسانيد ليجتمع فيه مع جمع الآداب
تجديد الايمان وتأكيده بمشاهدة اخلاقه الكريمة التي يشهد احادها على القطع بانه
اكرم خلق الله تعالى واعلاهم رتبة واجلهم قدرا فكيف يكون مجموعها ثم اضيف الى
ذكر اخلاقه ذكر خلقته ثم ذكر معجزاته التي صحت بها الاخبار ليكون ذلك معربا عن مكارم
الاخلاق والشيم ومنتزعا عن اذان الجاحدين لنبوته صمام الصمم والله تعالى ولي التوفيق
للاقتداء بسيد المرسلين في الاخلاق والافعال وسائر معالم الدين فانه دليل المتحيرين
ومجيب دعوة المضطرين ولنذكر فيه اولا بيان تاديب الله تعالى اياه بالقرآن ثم بيان
جوامع من محاسن اخلاقه ثم بيان جملة من آدابه واخلاقه ثم بيان كلامه وضحكه ثم
بيان اخلاقه وادابه في الطعام ثم بيان اخلاقه وادابه في اللباس ثم بيان عفوه مع
القدرة ثم بيان اغضائه عما كان يكرهه ثم بيان سخاوته وجوده ثم بيان شجاعته وباسه
ثم بيان تواضعه ثم بيان صورته وخلقته ثم بيان جوامع معجزاته واياته صلى الله عليه وآله
وسلم بيان تاديب الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن كان رسول الله
كثير الضراعة والابتهال دائم السؤال من الله تعالى ان يزينه بمحاسن الآداب ومكارم الاخلاق
فكان يقول في دعائه اللهم حسن خلقي وخلقي ويقول اللهم جنبني منكرات الاخلاق
فاستجاب الله دعاه وفاء بقوله ادعوني استجب لكم فانزل الله عليه القرآن وادبه
فكان خلقه القرآن قال سعد بن هشام دخلت على عائشة عن اخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله
فقالت اما تقرأ القرآن قلت بلى قالت كان خلق رسول الله صلى الله عليه وآله القرآن وانما ادبه القرآن
بمثل قوله تعالى خذ العفو وامر بالعرف الآية وقوله ان الله يامر بالعدل والاحسان و
ايتاء ذي القربى الآية وبقوله فاصبر على ما اصابك وقوله واصبر وما صبرك الا بالله
وبقوله ولمن صبر وغفر وبقوله فاعف عنهم واصفح عنهم وبقوله وليعفوا وليصفحوا
وبقوله ادفع بالتي هي احسن وبقوله والكاظمين الغيظ وبقوله اجتنبوا كثيرا من الظن
ولما كسرت رباعيته يوم احد فجعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسحه ويقول كيف يفلح
قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم الى ربهم فانزل الله تعالى ليس لك من الامر شيء
تاديبا له على ذلك وامثال هذه التاديبات في القرآن لا تحصر وهو المقصود الاول بالتاديب
والتهذيب ثم منه يشرق النور على كافة الخلق فانه ادب بالقرآن وادب الخلق به ولذلك قال

قال صلى الله عليه وآله بعثت لاتمم مكارم الاخلاق ثم رغب الخلق في محاسن الاخلاق
بما اوردناه في كتاب رياضة النفس وتهذيب الاخلاق فلا نعيده ثم لما اكمل الله
خلقه اثنى عليه فقال وانك لعلى خلق عظيم فسبحانه ما اعظم شانه واتم امتنانه
رسول الله صلى الله عليه وآله بين للخلق ان الله تعالى يحب مكارم الاخلاق ويبغض سفسافها وقال
علي عليه السلام يا عجبا للرجل المسلم يجيئه اخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير اهلا فلو كان
لا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا لقد كان ينبغي له ان يسارع في مكارم الاخلاق فانها
مما تدل على سبيل النجاة فقال له رجل اسمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله قال نعم وما هو خير منه
لما اتي بسبايا طي وقعت جارية في السبي فقالت يا محمد ان رايت
ان تخلي عني ولا تشمت بي احياء العرب فاني بنت سيد قومي وان ابي كان يحمي
الذمار ويفك العاني ويشبع الجائع ويطعم الطعام ويفشي السلام ولم يرد طالب
حاجة قط انا ابنة حاتم طي فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله يا جارية هذه صفة المؤمنين
حقا لو كان ابوك مسلما لترحمنا عليه خلوا عنها فان اباها كان يحب مكارم
الاخلاق وان الله يحب مكارم الاخلاق فقام ابو بردة بن نيار فقال
يا رسول الله الله يحب مكارم الاخلاق قال والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة
احد الا بحسن الاخلاق وعن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال
ان الله تعالى حف الاسلام بمكارم الاخلاق ومحاسن الاعمال ومن ذلك
حسن المعاشرة وكرم الصنيعة ولين الجانب وبذل المعروف واطعام الطعام
وافشاء السلام وعيادة المريض المسلم برا كان او فاجرا وتشييع جنازة المسلم
وحسن الجوار لمن جاورت مسلما كان او كافرا وتوقير ذي الشيبة المسلم
واجابة الداعي لدعوة الطعام والدعاء اليه والعفو والاصلاح بين الناس
والجود والكرم والسماحة والابتداء بالسلام وكظم الغيظ والعفو عن الناس
وذكر رحمه الله مقابل ذلك وانا نبذ مثل ذلك وعن معاذ ايضا قال اوصاني
رسول الله صلى الله عليه وآله فقال يا معاذ اوصيك باتقاء الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد
واداء الامانة وترك الخيانة وحفظ الجار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل
السلام وحسن العمل وقصر الامل ولزوم الايمان والتفقه في القرآن وحب الآخرة

ثم انظر الى عظيم فضله كيف اعطى ثم اثنى فهو الذي زينه بالخلق الكريم ثم اضاف اليه ذلك فقال وانك لعلى خلق عظيم

بنت حاتم طي

اخلاق الاسلام

الصفات ح

والخروج من الحساب وخفض الجناح وانما لك ادب حكيما او تكذب صادقا
او تطيع آثما او تعصي اماما عادلا او تفسد ارضا واوصيك بتقوى الله عند
كل حجر ومدر وشجر وان تحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية فكذا
ادّب عباد الله نبيهم ودعاهم الى مكارم الاخلاق ومحاسن الآداب صلى الله عليه وآله

بيان جملة من محاسن اخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم التي جمعها بعض العلماء والتقطها
من الاخبار فقال كان رسول الله (ص) احلم الناس واشجع الناس واعدل الناس و
اعف الناس لم تمس قط يده يد امرأة لا يملك رقها او عصمة نكاحها او تكون ذات
رحم منه وكان اسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم وان فضل ولم يجد من يعطيه
وفجأه الليل لم يأو الى منزله حتى يبرأ منه الى من يحتاج اليه لا يأخذ مما آتاه الله الا
قوت عامه فقط من ايسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك في سبيل الله لا
يسأل شيئا الا اعطاه ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى ربما احتاج قبل
انقضاء العام ان لم يأته شيء وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة
اهله ويقطع اللحم معهن اشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه احد يجيب دعوة
المضطر اذا دعاه الحر والعبد ويقبل الهدية ولو انها جرعة لبن او فخذ ارنب و
يكافئ عليها ويأكلها ولا يأكل الصدقة ولا يستكبر عن اجابة الامة والمسكين يغضب لربه ولا يغضب
لنفسه وينفذ الحق وان عاد ذلك بالضرر عليه وعلى اصحابه عرض عليه الانتصار
بالمشركين على المشركين وهو في قلة وحاجة الى انسان واحد يزيد في عدد من معه
فابى وقال انا لا استنصر بمشرك ووجد من فضلاء اصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود
فلم يحف عليهم ولا زاد على مر الحق بل وداه بمائة ناقة وان باصحابه لحاجة الى بعير
واحد يتقوون به وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع ومرة يأكل ما حضر ولا يرد
ما وجد ولا يتورع من مطعم حلال وان وجد تمرا دون خبز اكله وان وجد شواء
اكله وان وجد خبز بر او شعير اكله وان وجد حلوا او عسلا اكله وان وجد لبنا
دون خبز اكتفى به وان وجد بطيخا او رطبا اكله لا يأكل متكئا ولا على خوان
منديله باطن قدميه لم يشبع من خبز بر ثلاثة ايام متوالية حتى لقي الله تعالى ايثارا
على نفسه لا فقرا ولا بخلا يجيب الوليمة ويعود المرضى ويشهد الجنائز ويمشي

ويمشي وحده بين اعدائه بلا حارس اشد الناس تواضعا واسكنهم في غير كبر
وابلغهم من غير تطويل واحسنهم بشرا لا يهوله شيء من امور الدنيا ويلبس ما وجد
فمرة شملة ومرة حبرة يمانيا ومرة جبة صوف ما وجد من المباح لبس وخاتمه
فضة يلبسه في خنصره الايمن والايسر يردف خلفه عبده او غيره يركب ما امكنه
مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بغلة شهباء ومرة حمارا ومرة يمشي راجلا حافيا بلا رداء
ولا عمامة ولا قلنسوة يعود المرضى في اقصى المدينة يحب الطيب ويكره الرائحة الردية
ويجالس الفقراء ويواكل المساكين ويكرم اهل الفضل في اخلاقهم ويتألف اهل الشرف
بالبر لهم يصل ذوي رحمه من غير ان يؤثرهم على من هو افضل منهم لا يجفو على احد يقبل معذرة
المعتذر اليه يمزح ولا يقول الا حقا يضحك من غير قهقهة يرى اللعب المباح فلا ينكره و
يسابق اهله وترفع الاصوات عليه فيصبر وكان له لقاح وغنم يتقوت هو واهله من
البانها وكان له عبيد واماء لا يرتفع عليهم في مأكل ولا ملبس لا يمضي له وقت في غير عمل لله
تعالى او فيما لا بد له منه من صلاح نفسه يخرج الى بساتين اصحابه لا يحقر مسكينا لفقره وزمانته
ولا يهاب ملكا لملكه يدعو هذا وهذا الى الله دعاء واحدا قد جمع الله له السيرة الفاضلة
والسياسة التامة وهو امي لا يقرأ ولا يكتب نشأ في بلاد الجهل والصحاري في فقره وفي
رعاية الغنم يتيما لا اب له ولا ام فعلمه الله جميع محاسن الاخلاق والطرق الحميدة
واخبار الاولين والآخرين وما فيه النجاة والفوز في الآخرة والغبطة والخلاص في
الدنيا ولزوم الواجب وترك الفضول وفقنا الله تعالى لطاعته في امره والتأسي
في فعله آمين رب العالمين

بيان جملة اخرى من اخلاقه وآدابه مما رواه ابو البختري
قالوا ما شتم رسول الله صلى الله عليه وآله احدا من المسلمين بشتيمة الا جعل لها كفارة ورحمة
وما لعن امرأة قط ولا خادما بلعنة وقيل له وهو في القتال لو لعنتهم يا رسول الله فقال
انما بعثت رحمة ولم ابعث لعانا وكان اذا سئل ان يدعو على احد مسلم او كافر عام او
خاص عدل عن الدعاء عليه ودعا له وما ضرب بيده احدا قط الا ان يضرب بها في
سبيل الله وما انتقم من شيء صنع اليه قط الا ان ينتهك حرمة الله وما خير بين امرين
قط الا اختار ايسرهما الا ان يكون فيه اثم او قطيعة رحم فيكون ابعد الناس من ذلك
وما كان يأتيه احد حر او عبد او امة الا قام معه في حاجته وقال انس والذي بعثه بالحق

[illegible]

ما قال لشيء تركه لم تركته ولا لامه احد من اهله الا قال دعوه انما كان
هذا بكتاب وقدر قالوا وما عاب صلى الله عليه وآله مضجعا ان فرشوا له اضطجع
وان لم يفرش له اضطجع على الارض وقد وصفه الله تعالى في التورية قبل ان يبعثه في
السطر الاول فقال محمد رسول الله عبدي المختار لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الاسواق
ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح مولده بمكة وهجرته بطابة وملكه بالشام
يأتزر على وسطه هو ومن معه دعاة القرآن والعلم يتوضأ على اطرافه وكذلك نعته في
الانجيل وكان من خلقه ان يبدأ من لقيه بالسلام ومن فاوضه بحاجة صابره حتى
يكون هو المنصرف وما اخذ احد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخذ وكان اذا لقي
احدا من الصحابة بدأه بالمصافحة ثم اخذ بيده فشابكه ثم شد قبضته وكان لا يقوم
ولا يجلس الا على ذكر الله وكان لا يجلس اليه احد وهو يصلي الا خفف صلاته واقبل
عليه فقال الك حاجة فاذا فرغ من حاجته عاد الى صلاته وكان اكثر جلوسه ان ينصب
ساقيه جميعا ويمسك بيديه عليها شبه الحبوة ولم يكن يعرف مجلسه من مجالس اصحابه
حتى يفتش بها على احد الا ان يكون واسعا لا ضيق فيه وكان اكثر ما يجلس مستقبل
القبلة وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا
رضاع يجلسه عليه وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تكون تحته فان ابى ان يقبلها
عزم عليه حتى يفعله فاما استصفاه احد الا ظن انه اكرم الناس عليه حتى يعطي كل
من جلس اليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف مجلسه وتوجهه
للجالس اليه ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وامانة قال الله تعالى فبما رحمة من الله
لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ولقد كان يدعو اصحابه بكناهم
اكراما لهم واستمالة لقلوبهم ويكني من لم يكن له كنية فكان يدعى بما كناه به ويكني
النساء اللاتي لهن الاولاد واللاتي لم يلدن يبتدئ لهن الكنى ويكني الصبيان
فيستلين به قلوبهم وكان ابعد الناس غضبا واسرعهم رضا وكان ارأف الناس بالناس
وخير الناس بالناس وخير الناس للناس وانفع الناس للناس ولم يكن ترفع في مجلسه
الاصوات واذا كان قام من مجلسه قال سبحانك اللهم وبحمدك اشهد ان لا اله الا انت
استغفرك واتوب اليك ثم يقول علمنيهن جبريل عليه السلام بيان كلامه وضحكه كان صلى الله عليه وسلم

افصح الناس منطقا واحلاهم كلاما ويقول انا افصح العرب وان اهل الجنة يتكلمون
فيها بلغة محمد صلى الله عليه وسلم وكان نزر الكلام سمح المقالة اذا نطق ليس بمهذار وكان كلامه كخرزات
النظم قالت عائشة كان لا يسرد الكلام سردكم هذا كان كلامه نزرا وانتم تنثرون الكلام
نثرا قالوا وكان اوجز الناس كلاما وبذلك جاءه جبريل وكان مع الايجاز يجمع كل ما اراد
وكان يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير كلام يتبع بعضه بعضا بين كلامه توقف يحفظه
سامعه ويعيه وكان جهير الصوت احسن الناس نغمة وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير
حاجة ولا يقول المنكر ولا يقول في الرضا والغضب الا الحق ويعرض عمن تكلم بغير جميل
ويكني عما اضطره الكلام اليه مما يكره وكان اذا سكت تكلم جلساؤه ولا يتنازع عنده
في الحديث ويعظ بالجد والنصيحة ويقول لا تضربوا القرآن بعضه ببعض فانه نزل على
وجوه وكان اكثر الناس تبسما وضحكا في وجوه اصحابه وتعجبا مما تحدثوا به وخلطا
لنفسه بهم ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه وكان ضحك اصحابه عنده التبسم اقتداء
به وتوقيرا له قالوا ولقد جاءه اعرابي يوما وهو عليه السلام متغير ينكره اصحابه فاراد ان
يسأله فقالوا لا تفعل يا اعرابي فانا ننكر لونه فقال دعوني فوالذي بعثه بالحق نبيا لا
ادعه حتى يتبسم فقال يا رسول الله بلغنا ان المسيح يعني الدجال يأتي الناس بالثريد
وقد هلكوا جوعا افترى بابي انت وامي ان اكف عن ثريده تعففا وتنزها حتى
اهلك هزلا ام اضرب في ثريده حتى اذا تضلعت شبعا امنت بالله وكفرت به قال فضحك نسخة
صلى الله عليه وآله حتى بدت نواجذه ثم قال لا بل يغنيك الله بما يغني به المؤمنين قالوا
وكان اكثر الناس تبسما واطيبهم نفسا ما لم ينزل عليه قرآن او يذكر الساعة او يخطب بخطبة
عظة وكان اذا سر ورضي فهو احسن الناس رضا وان وعظ وعظ بجد وان غضب
ولم يكن يغضب الا لله لم يقم لغضبه شيء وكذلك كان في اموره كلها وكان اذا نزل به الامر
فوض الامر الى الله وتبرأ من الحول والقوة واستنزل الهدى فيقول اللهم ارني الحق حقا
فاتبعه وارني المنكر منكرا وارزقني اجتنابه واعذني من ان يشتبه علي فاتبع هواي
بغير هدى منك واجعل هواي تبعا لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسي في
عافية واهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم
بيان اخلاقه وادابه في الطعام كان صلى الله عليه وسلم يأكل ما وجد وكان احب الطعام

اليه ما كان على صحفة والصحفة ما اكثرت عليه الايدي وكان اذا وضعت المائدة قال
بسم الله اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة وكان كثيرا اذا جلس يأكل يجمع بين
ركبتيه وبين قدميه كما يجلس المصلي الا ان الركبة فوق الركبة والقدم فوق القدم
ويقول انما انا عبد آكل كما يأكل العبد واجلس كما يجلس العبد وكان لا يأكل الحار ويقول انه غير
ذي بركة وان الله لم يطعمنا نارا فابردوه وكان يأكل مما يليه ويأكل باصابعه الثلث
وربما استعان بالرابعة ولم يأكل باصبعين ويقول ان ذلك اكلة الشيطان وكان يأكل
خبز الشعير غير منخول وكان يأكل القثاء بالرطب والملح وكان احب الفواكه الرطبة اليه
البطيخ والعنب وكان يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر وربما اكله بالرطب ويستعين باليدين
جميعا واكل يوما رطبا كان في يمينه وكان يحفظ النوى في يساره فمرت شاة فاشار اليها
بالنوى فجعلت تأكله من كفه اليسرى وهو يأكل بيمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة وكان
ربما اكل العنب خرطا يرى رواله على لحيته كخرز اللؤلؤ وهو الماء الذي يتقاطر منه
وكان اكثر طعامه التمر والماء وكان يجمع اللبن بالتمر ويسميهما الاطيبين وكان احب
الطعام اليه اللحم ويقول هو يزيد في السمع وهو سيد الطعام في الدنيا والاخرة ولو سألت
ربي ان يطعمنيه كل يوم لفعل وكان يأكل الثريد باللحم والقرع وكان يحب القرع ويقول
انها شجرة اخي يونس عليه السلم قالت عائشة كان يقول يا عائشة اذا طبختم قدرا فاكثروا
فيها من الدبا فانه يشد القلب الحزين وكان يأكل لحم الطير الذي يصاد وكان لا يتبعه ولا
يصيده ويحب ان يصاد له ويؤتى به فيأكله وكان اذا اكل اللحم لم يطاطئ راسه اليه ويرفعه
الى فيه رفعا ثم ينتهشه انتهاشا وكان يأكل الخبز والسمن وكان يحب من الشاة الذراع فينتهشه م
والكتف ومن القدر الدبا ومن الصباغ الخل ومن التمر العجوة ودعا في العجوة بالبركة و
قال هي من الجنة وشفاء من السم والسحر وكان يحب من البقول الهندبا والباذروج
والبقلة الحمقا التي يقال لها الرجلة وكان يكره الكليتين لمكانهما من البول ولا يأكل من
الشاة سبعا الذكر والانثيين والمثانة والمرارة والغدد والحيا والدم ويكره ذلك
وكان لا يأكل الثوم والبصل ولا الكراث وما ذم طعاما قط ولكن ان اعجبه اكله وان كرهه
تركه وان عافه لم يبغضه الى غيره وكان يعاف الضب والطحال ولا يحرمهما وكان يلعق
الصحفة ويقول اخر الطعام اكثر بركة وكان يلعق اصابعه من الطعام حتى تحمر وكان

لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق اصابعه واحدة واحدة ويقول انه لا يدري
في اي الاصابع البركة فاذا فرغ قال اللهم لك الحمد اطعمت واشبعت وسقيت و
ارويت لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه وكان اذا اكل اللحم والخبز
خاصة غسل يديه غسلا جيدا ثم يمسح بفضل الماء على وجهه وكان يشرب الماء في ثلث
دفعات له فيها ثلث تسميات وفي اواخرها ثلث تحميدات وكان يمص الماء مصا ولا
يعبه عبا وربما كان يشرب بنفس واحد حتى يفرغ وكان لا يتنفس في الاناء بل ينحرف
عنه كان يدفع فضل سؤره الى من على يمينه فان كان من على يساره اجل رتبة قال
للذي على يمينه السنة ان تعطي فان احببت اثرتهم واتي باناء فيه عسل ولبن فابى
ان يشربه وقال شربتان في شربة وادامان في اناء واحد ثم قال لا احرمه ولكن
اكره الفخر والحساب بفضول الدنيا غدا واحب التواضع فان من تواضع لله رفعه الله
ولا يتشهاه م وكان في بيته اشد حياء من العاتق لا يسألهم طعاما ان اطعموه اكل وما اطعموه قبل
وما سقوه شرب وكان ربما قام واخذ ما يأكل او يشرب بنفسه **بيان**
آدابه واخلاقه في اللباس كان صلى الله عليه وآله وسلم يلبس من الثياب ما وجد
امواتكم م من ازار او رداء او قميص او جبة او غير ذلك وكان يعجبه الثياب الخضر وكان
اكثر لباسه البياض ويقول البسوها احياءكم وكفنوا فيها امواتكم وكان يلبس
القباء المحشو للحرب وغير الحرب وكان له قباء سندس فيلبسه فتحسن خضرته على
بياض لونه وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين ويكون الازار فوق ذلك
الى نصف الساق وكان قميصه مشدود الازرار وربما حل الازرار في الصلوة وغيرها
وكانت له ملحفة مصبوغة بالزعفران وربما صلى بالناس فيها وحدها وربما لبس
الكساء وحده ما عليه غيره وكان له كساء ملبد يلبسه ويقول انما انا عبد البس
كما يلبس العبد وكان له ثوبان لجمعته خاصة سوى ثيابه في غير الجمعة وربما لبس
الازار الواحد ليس عليه غيره ويعقد طرفيه بين كتفيه وربما ام به الناس على
الجنائز وربما صلى في بيته في الازار الواحد ملتحفا به مخالفا بين طرفيه و
يكون ذلك الازار الذي جامع فيه يومئذ وكان ربما صلى بالليل في الازار و
يرتدي ببعض الثوب مما يلي هدبه ويلقي البقية على بعض نسائه فيصلي كذلك ولقد

كان له كساء اسود فوهبه فقالت له ام سلمة بابي انت وامي ما فعل ذلك الكساء
الاسود قال كسوته فقالت ما رايت قط كان احسن من بياضك على سواده قال
انس وربما رايته يصلي بنا الظهر في شملة عاقدا بين طرفيها وكان يتختم وربما خرج وفي
خاتمه خيط مربوط يتذكر به الشيء وكان يختم به على الكتب ويقول الخاتم على الكتاب
خير من التهمة وكان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمائم وربما نزع قلنسوته
من راسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلي اليها وربما لم يكن العمامة فيشد العصابة على راسه
وعلى جبهته وكانت له عمامة تسمى السحاب فوهبها من علي فربما طلع علي فيها فيقول
صلى الله عليه وآله اتاكم علي في السحاب وكان اذا لبس ثوبا يلبسه من قبل ميامنه و
يقول الحمد لله الذي كساني ما اواري به عورتي واتجمل به في الناس واذا نزع ثوبه
خرج من مياسره وكان اذا لبس جديدا اعطى خلق ثيابه مسكينا ثم يقول ما من
مسلم يكسو مسلما من سمل ثيابه لا يكسوه الا لله الا كان في ضمان الله وحرزه وخيره
ما واراه حيا وميتا وكان له فراش من ادم حشوه ليف طوله ذراعان او نحوه
عرضه ذراع وشبر او نحوه وكان له عباءة يفرش له حيث ما ينقل تثنى طاقتين
وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره وكان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه
ومتاعه وكان اسم رايته العقاب واسم سيفه الذي به الحروب ذو الفقار
وكان له سيف يقال له المخذم وآخر يقال له الرسوب وآخر يقال له القضيب وكانت
قبضة سيفه محلاة بالفضة وكان يلبس المنطقة من الادم فيها ثلث حلق من فضة
وكانت عليه درع يسحب الارض وكان اسم ترسه الكتوم وحصنه الكافور وكان
اسم ناقته القصواء وهي التي يقال لها العضباء واسم بغلته الدلدل وكان اسم حماره
يعفور واسم شاته التي يشرب من لبنها عينة وكان له مطهرة من فخار يتوضأ
ويشرب منها فيرسل الناس اولادهم الصغار الذين قد عقلوا فيدخلون على رسول الله
فلا يدفعون عنه فاذا وجدوا في المطهرة ماء شربوا منه ومسحوا على وجوههم واجسادهم
يبتغون بذلك البركة بيان عفوه مع القدرة كان صلى الله عليه وآله وسلم احلم
الناس وارغبهم في العفو مع القدرة حتى اتي بقلائد من ذهب وفضة فقسمها
بين اصحابه فقام رجل من اهل البادية فقال يا محمد والله لئن امرك الله ان تعدل

تعدل فما اراك تعدل فقال ويحك من يعدل عليك بعدي فلما ولى قال
ردوه علي رويدا وروى جابر انه صلعم كان يقبض للناس يوم حنين من فضة
في ثوب بلال فقال له رجل يا نبي الله اعدل فقال له رسول الله صلعم ويحك فمن
يعدل اذا لم اعدل فقد خبت اذا وخسرت ان كنت لا اعدل فقام عمر فقال
الا اضرب عنقه فانه منافق فقال معاذ الله ان يتحدث الناس اني اقتل
اصحابي وكان صلى الله عليه وآله في حرب فرأى من المسلمين غرة فجاء رجل
حتى قام على رسول الله صلعم بالسيف فقال من يمنعك مني فقال الله فسقط
السيف من يده واخذ رسول الله صلعم السيف وقال من يمنعك مني فقال كن
خير آخذ قال قل اشهد ان لا اله الا الله فقال الاعرابي لا الا اني لا اقاتلك ولا اكون
معك ولا اكون مع قوم يقاتلونك فخلى سبيله فجاء الى قومه فقال جئتكم من
عند خير الناس وروى انس ان يهودية اتت النبي عليه السلام بشاة مسمومة
ليأكل منها فجيء بها الى النبي صلعم فسألها عن ذلك فقالت اردت قتلك فقال
ما كان الله ليسلطك على ذلك قالوا افلا تقتلها فقال لا وسحره رجل من
اليهود فاخبره جبرئيل بذلك حتى استخرجه وحل عقده فوجد لذلك خفة
وما ذكر ذلك لليهودي ولا اظهره عليه قط وقال علي عليه السلام بعثني رسول الله صلعم
انا والزبير والمقداد فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة
فقلنا اخرجي الكتاب فقالت ما معي كتاب فقلنا لتخرجن الكتاب او لتلقين
او لننزعن الثياب فاخرجته من عقاصها فاتينا به النبي صلى الله عليه وآله فاذا
فيه من حاطب بن ابي بلتعة الى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض امر رسول
الله صلعم فقال يا حاطب ما هذا فقال يا رسول الله لا تعجل علي اني كنت امرا ملصقا
في قريش وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون اهليهم فاحببت اذ
فاتني ذلك منهم من النسب ان اتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي ولم افعل ذلك كفرا
ولا رضا بالكفر بعد الاسلام ولا ارتدادا عن ديني فقال صلى الله عليه وآله
صدق فقال عمر دعني اضرب عنق هذا المنافق فقال صلى الله عليه وآله انه قد شهد
بدرا وما يدريك لعل الله عز وجل قد اطلع على اهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد

غفرت لكم وقسم صلى الله عليه وآله قسمة فقال رجل من الانصار
هذه قسمة ما اريد بها وجه الله فذكر ذلك لرسول الله صلعم فاحمر وجهه وقال
رحم الله اخي موسى لقد اوذي باكثر من هذا فصبر وكان صلى الله عليه وآله
وسلم يقول لا يبلغني احد منكم عن احد من اصحابي شيئا فاني احب ان اخرج
اليكم وانا سليم الصدر بيان إغضائه عما كان يكرهه كان صلى الله عليه وآله وسلم
رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن يعرف في وجهه غضبه ورضاه وكان
اذا اشتد وجده اكثر من مس لحيته وكان لا يشافه احدا بما يكرهه دخل عليه رجل
وعليه صفرة فكرهها فلم يقل له شيئا حتى خرج فقال لبعض القوم لو قلتم لهذا ان
يدع هذه يعني الصفرة وبال اعرابي في المسجد بحضرته فهم به الاصحاب فقال لا
تزرموه اي لا تقطعوا عليه البول ثم قال له ان هذه المساجد لا تصلح لشيء من القذر
والبول والخلاء وفي رواية قربوا ولا تنفروا وجاءه اعرابي يوما يطلب منه شيئا
فاعطاه صلى الله عليه وآله ثم قال له احسنت اليك فقال الاعرابي لا ولا اجملت
قال فغضب المسلمون وقاموا اليه فاشار اليهم ان كفوا ثم قام ودخل منزله
وارسل الى الاعرابي وزاده شيئا ثم قال احسنت اليك فقال الاعرابي نعم فجزاك الله
من اهل وعشيرة خيرا فقال صلى الله عليه وآله ان مثلي ومثل هذا الاعرابي كمثل رجل
كانت له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها الا نفورا فناداهم صاحب
الناقة خلوا بيني وبين ناقتي فاني ارفق بها واعلم فتوجه لها صاحب الناقة
بين يديها فاخذ لها من قمام الارض فردها هونا هونا حتى جاءت واستناخت
وشد عليها رحلها واستوى عليها واني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه
دخل النار بيان سخاوته وجوده كان صلى الله عليه وآله اجود الناس واسخاهم
وكان في شهر رمضان كالريح المرسلة لا يمسك شيئا وكان علي عليه السلام اذا وصف النبي
قال كان اجود الناس كفا واجرأ الناس صدرا واصدق الناس لهجة واوفاهم ذمة
والينهم عريكة واكرمهم عشرة من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة احبه يقول
ناعته لم ار قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وآله وما سئل قط شيئا على الاسلام الا
اعطاه وان رجلا اتاه فسأله فاعطاه غنما بين جبلين فرجع الى قومه وقال اسلموا فان محمدا

يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة وما سئل شيئا قط فقال لا وحمل اليه تسعون الف
درهم فوضعها على حصير ثم قام اليها يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها وجاءه رجل
فسأله فقال ما عندي شيء ولكن ابتع علي فاذا جاءنا شيء قضيناه فقال عمر يا رسول
الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه فكره صلعم ذلك فقال الرجل انفق ولا تخش من ذي
العرش اقلالا فتبسم النبي صلعم وعرف السرور في وجهه ولما قفل من حنين جاءت
الاعراب يسألونه حتى اضطروه الى شجرة فخطفت رداءه فوقف عليه الصلاة والسلام
وقال اعطوني ردائي لو كان لي عدد هذه العضاه نعما لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلا
ولا كذابا ولا جبانا بيان شجاعته كان عليه السلام انجد الناس واشجعهم قال علي عليه السلام
لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلعم وهو اقربنا الى العدو وكان اشد
الناس يومئذ باسا وقال ايضا كنا اذا احمر البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله
فما يكون احد اقرب الى العدو منه وقيل كان صلعم قليل الحديث قليل الكلام فاذا
امر الناس بالقتال تشمر وكان من اشد الناس باسا وكان الشجاع هو الذي يقرب
منه في الحرب لقربه من العدو وقال عمران بن حصين ما لقي رسول الله صلعم كتيبة الا كان
اول من يضرب قالوا وكان قوي البطش ولما غشيه المشركون نزل فجعل يقول انا النبي
لا كذب انا ابن عبد المطلب فما رئي يومئذ احد كان اشد منه بيان تواضعه كان
صلى الله عليه وآله وسلم اشد الناس تواضعا في علو منصبه قال ابن عامر رأيته يرمي
الجمرة على ناقة شهباء لا ضرب ولا طرد ولا اليك اليك وكان يركب الحمار موكفا عليه قطيفة
وكان مع ذلك يستردف وكان يعود المريض ويتبع الجنائز ويجيب دعوة المملوك
ويخصف النعل ويرقع الثوب وكان يصنع في بيته مع اهله في حاجتهم وكان اصحابه
لا يقومون له لما عرفوا من كراهته لذلك وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم واتي
عليه السلام برجل فارعد من هيبته فقال هون عليك فلست بملك انما انا ابن امرأة
من قريش كانت تأكل القديد وكان يجلس بين اصحابه مختلطا بهم كانه احدهم فيأتي
الغريب فلا يدري ايهم هو حتى يسأل عنه حتى طلبوا اليه ان يجلس مجلسا يعرفه الغريب
فبنوا له دكانا من طين فكان يجلس عليه وقالت له عائشة كل جعلني الله فداك متكئا
فانه اهون عليك فاصغى براسه حتى كاد ان يصيب جبهته الارض ثم قال بل آكل كما

كما يأكل العبد ويجلس كما يجلس العبد وكان لا يأكل على خوان ولا في سكرجة حتى لحق
بالله تعالى وكان لا يدعوه احد من اصحابه وغيرهم الا قال لبيك وكان اذا جلس مع
الناس ان تكلموا في معنى الآخرة اخذ معهم وان تحدثوا في طعام وشراب تحدث معهم
وان تكلموا في امر الدنيا يكلم معهم رفقا بهم وتواضعا لهم وكانوا يتناشدون الشعر
بين يديه احيانا ويذكرون اشياء من امر الجاهلية ويضحكون فيتبسم هو اذا ضحكوا ولا
يزجرهم الا عن حرام بيان صورته وخلقته كان من صفة رسول الله صلعم في قامته انه
لم يكن بالطويل البائن ولا القصير المتردد بل كان ينسب الى الربعة اذا مشى وحده ومع
ذلك فلم يكن يماشيه احد من الناس ينسب الى الطول الا طاله صلى الله عليه وآله وسلم ولربما
اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما فاذا فارقاه نسبا الى الطول ونسب هو عليه السلام الى
الربعة ويقول جعل الخير كله في الربعة واما لونه فقد كان ازهر اللون ولم يكن
بالآدم ولا الشديد البياض والازهر هو الابيض الناصع الذي لا يشوبه صفرة ولا
حمرة ولا شيء من الالوان ونعته عمه ابو طالب فقال وابيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال
اليتامى عصمة للارامل ونعته بعضهم بانه مشوب بحمرة فقالوا انما كان المشرب منه حمرة
ما ظهر للشمس والرياح كالوجه والرقبة والازهر الصافي عن الحمرة ما تحت الثياب منه وكان
كان عرقه في وجهه كاللؤلؤ اطيب من المسك الاذفر واما شعره فقد كان رجل الشعر
حسنها ليس بالجعد ولا السبط ولا الجعد القطط اذا امتشط بالمشط كان كأنه حبك الرمل
قيل وكان شعره يضرب منكبيه واكثر الروايات انه كان الى شحمة اذنيه وربما جعله غدائر
اربعا تخرج كل اذن من بين غديرتين وربما جعل شعره على اذنيه فتبدو سوالفه تتلألأ
وكان شيبه في الرأس واللحية سبع عشرة شعرة ما زاد على ذلك وكان صلعم احسن الناس
وجها وانورهم لم يصفه واصف الا شبهه بالقمر ليلة البدر وكان يرى رضاه وغضبه
في وجهه لصفاء بشرته وكانوا يقولون هو كما وصفه صاحبه ابو بكر حين يقول شعرا امين
مصطفى للخير يدعو كضوء البدر زايله الظلام وكان صلعم واسع الجبهة ازج الحاجبين
سابغهما وكان ابلج ما بين الحاجبين كان ما بينهما الفضة المخلصة وكانت عيناه نجلاوين
ادعجهما وكان في بياض عينيه عروق حمر وكان اهدب الاشفار حتى تكاد تلتبس من كثرتها
وكان اقنى العرنين اي مستوي الانف وكان مفلج الاسنان اي متفرقها وكان اذا افتر

افتر ضاحكا افتر عن مثل سنا البرق اذا تلألأ وكان من احسن عباد الله شفتين
والطفهم ختم فم وكان سهل الخدين صلتهما ليس بالطويل الوجه ولا المكلثم كث اللحية
وكان يعفي لحيته ويأخذ من شاربه وكان من احسن الناس عنقا لا ينسب الى الطول
ولا الى القصر ما ظهر من عنقه للشمس والرياح فكأنه ابريق فضة مشرب ذهبا
يتلألأ في بياض الفضة وفي حمرة الذهب وكان عريض الصدر لا يعدو
لحم بعضه بعضا كالمرايا في استوائه وكالقمر في بياضه موصول ما بين لبته
الى سرته بشعر منقاد كالقضيب لم يكن في بطنه ولا صدره شعر غيره وكانت له عكن ثلاث
يغطي الازار منها واحدا ويظهر اثنان وكان عظيم المنكبين اشعرهما ضخم الكراديس اي
رؤوس العظام من المنكبين والمرفقين والوركين وكان واسع الظهر ما بين كتفيه خاتم
النبوة وهو مما يلي منكبه الايمن فيه شامة سوداء تضرب الى الصفرة حولها شعرات
متواليات كانها من عرف فرس وكان عبل العضدين والذراعين طويل الزندين
رحب الراحتين سائل الاطراف كان اصابعه قضبان الفضة كفه الين من الخز كان
كفه كف عطار طيبا مسها بطيب او لم يمسها يصافحه المصافح فيظل يومه يجد ريحها
ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها على رأسه وكان عبل ما تحت
الازار من الفخذ والساق وكان معتدل الخلق في السمن بدن في آخر زمانه وكان
لحمه متماسكا يكاد يكون على الخلق الاول لم يضره السن واما مشيته صلى الله عليه
وآله وسلم وكان يمشي كانما يتقلع من صخر وينحدر من صبب يخطو تكفيا ويمشي
الهوينا بغير تبختر والهوينا تقارب الخطى وكان صلعم يقول انا اشبه الناس بآدم
عليه السلام وكان ابي ابراهيم اشبه الناس بي خلقا وخلقا وكان يقول ان لي عند
ربي عشرة اسماء انا محمد وانا احمد وانا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وانا العاقب
الذي ليس بعدي احد وانا الحاشر الذي يحشر العباد على قدمي وانا رسول الرحمة
ورسول التوبة ورسول الملاحم والمقفي قفيت الناس جميعا وانا قثم قال ابو البختري
والقثم الكامل الجامع معجزاته وآياته الدالة على صدقه اعلم ان من شاهد
احواله واصغى الى سماع اخباره المشتملة على اخلاقه وآدابه واحواله وعاداته
وسجاياه وسياسته لاصناف الخلق وهدايته الى ضبطهم وتألفه اصناف الخلق وقوده

اياهم الى طاعته مع ما يحكى من عجايب اجوبته في مضايق الاسولة وبدايع تدبيراته في
مصالح الخلق ومحاسن اشاراته في تفصيل ظاهر الشرع الذي يعجز الفقهاء والعقلاء
عن ادراك اوايلها عاقبتهم في طول اعمارهم لم يبق له ريب ولا شك في ان ذلك لم يكن [دقائقها]
مكتسبا بحيلة تقوم بها القوة البشرية بل لا يتصور ذلك الا بالاستمداد من تاييد
سماوي وقوة الهية وان ذلك كله لا يتصور لكذاب ولا ملبس بل كانت شمايله
واحواله شواهد قاطعة بصدقه حتى ان العربي القح كان يراه فيقول والله ما
هذا وجه كذاب وكان يشهد له بالصدق بمجرد شمايله فكيف من شاهد اخلاقه
ومارس احواله في جميع مصادره وموارده وانما اوردنا بعض اخلاقه لتعرف محاسن
الاخلاق ولتنبه لصدقه صلى الله عليه وسلم وعلو منصبه ومكانته العظيمة عند الله تعالى اذ اتاه الله
جميع ذلك وهو رجل امي لم يمارس العلم ولم يطالع الكتب ولم يسافر قط في طلب علم
ولم يزل بين اظهر الجهال من الاعراب يتيما ضعيفا مستضعفا فمن اين حصل له
محاسن الاخلاق والاداب ومعرفة مصالح الفقه مثلا فقط دون غيره من العلوم
فضلا عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه وغير ذلك من خواص النبوة لولا صريح
الوحي ومن اين للبشر الاستقلال بذلك فلو لم يكن له الا هذه الامور الظاهرة
لكان فيه كفاية وقد ظهر من اياته ومعجزاته ما لا يستريب فيه محصل فلنذكر من
جملتها ما استفاضت به الاخبار واشتملت عليه الكتب الصحاح اشارة الى
مجامعها من غير تطويل بحكاية التفصيل فقد خرق الله تعالى العادة على يده غير
مرة اذ شق له القمر بمكة لما سالته قريش اية واطعم النفر الكثير في منزل جابر وفي
منزل طلحة ويوم الخندق ومرة اطعم ثمانين من اربعة امداد شعير وعناق وهو
من اولاد المعز فوق العتود ومرة اكثر من ثمانين من اقراص شعير جاء بها انس في
يده ومرة اهل الجيش من تمر يسير ساقته بنت بشير في يدها فاكلوا كلهم حتى شبعوا من
ذلك وفضل لهم ونبع الماء من بين اصابعه حتى شرب اهل العسكر كلهم وهم عطاش
وتوضوا من قدح صغير ضاق عن ان يبسط صلى الله عليه وسلم يده فيه واهراق عليه السلام وضوءه في
عين تبوك ولا ماء فيها ومرة اخرى في بئر الحديبية فجاشتا بالماء فشرب من عين
تبوك اهل الجيش وهم الوف حتى رووا وشرب من بئر الحديبية الف وخمسمائة

ماءة ولم يكن فيها قبل ذلك ماء وامر صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب ان يزود اربعمائة
راكب من تمر كان في اجتماعه كربضة بعير وهو موضع بروكه فزودهم كلهم منه
وبقي بحسبه ورمى الجيش بقبضة من تراب فعميت عيونهم ونزل بذلك القران
في قوله تعالى وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى وابطل الله تعالى الكهانة بمبعثه فعدمت
وكانت ظاهرة موجودة وحن الجذع الذي كان يخطب اليه لما عمل له المنبر
حتى سمع منه جميع اصحابه مثل صوت الابل فضمه اليه فسكن ودعا اليهود الى
تمني الموت واخبرهم بانهم لا يتمنونه فحيل بينهم وبين النطق بذلك وعجزوا عنه
وهذه الاية مذكورة في سورة يقراها في جوامع اهل الاسلام من شرق الارض
الى غربها يوم الجمعة جهرا تعظيما للاية التي فيها واخبر عليه السلام بالغيوب وانذر بان
عثمان تصيبه بلوى بعدها الجنة وبان عمارا تقتله الفئة الباغية وان الحسن
يصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين واخبر صلى الله عليه وسلم عن رجل قاتل
في سبيل الله انه من اهل النار فظهر ذلك بان قتل ذلك الرجل نفسه وهذه كلها
اشياء لا يعرف البتة بشيء من وجوه تقدمة المعرفة لا بنجوم ولا بكهن ولا بخط ولا
بزجر ولكن باعلام الله تعالى له ووحيه اليه واتبعه سراقة بن خثعم فساخت قدما فرسه في
الارض واتبعه دخان حتى استغاثه فدعا له حتى انطلقت له الفرس وانذره
بانه سيوضع في ذراعيه سوارا كسرى فكان ذلك واخبر بقتل الاسود العنسي الكذاب
ليلة قتله وهو بصنعاء اليمن واخبر بمن قتله وخرج على مائة من قريش ينتظرونه
فوضع التراب على رؤوسهم ولم يروه وشكا اليه البعير بحضرة اصحابه وتذلل له
وقال لنفر من اصحابه مجتمعين احدكم في النار ضرسه مثل احد فماتوا كلهم على استقامة
وارتد واحد منهم فقتل مرتدا وقال لاخرين منهم اخركم موتا في النار فسقط اخرهم
موتا في النار فاحترق فيها فمات ودعا شجرتين فاتتاه واجتمعتا ثم امرهما فافترقتا
ودعا صلى الله عليه وسلم النصارى الى المباهلة فامتنعوا فاخبرهم انهم ان فعلوا ذلك هلكوا فعلموا
صحة قوله فامتنعوا واتاه عامر بن الطفيل واربد بن قيس وهما فارسا العرب
فاتكاهم عازمين على قتله صلى الله عليه وسلم فحيل بينهما وبين ذلك ثم دعا عليهما فهلك عامر
بغدة وهلك اربد بصاعقة احرقته واخبر انه يقتل ابي بن خلف الجمحي فخدشه

يوم احد حدثنا لطيفا فكان مسموما وطعم عليه السلم فات الذى اكل معه وعاش
بعده اربع سنين وكلمه الذراع المسموم واخبره يوم بدر بمصارع صناديد
قريش ووقفهم على مصارعهم رجلا رجلا فلم يتعد واحد منهم ذلك الموضع وانذر
عليه بان طوايف من امته يغزون فى البحر وكان كذلك وزويت له الارض فارى
مشارقها واخبر بان ملك امته سيبلغ ما زوى له منها وكان ذلك كما اخبر فقد بلغ
ملكهم من اول المشرق من بلاد الترك الى اخر المغرب من بحر الاندلس وبلاد البربر
ولم يتسعوا فى الجنوب ولا فى الشمال كما اخبر عليه السلم سواء بسواء واخبر فاطمة ابنته
عليها السلم بانها اول اهله لحوقا به فكان كذلك واخبر نساءه بان اطولهن يدا
بالصدقة اولهن لحوقا به ومسح ضرع شاة حائل زينب بنت جحش الاسدية اطولهن
يدا بالصدقة اولهن لحوقا اسرعهن لحاقا به وكانت زينب بنت جحش الاسدية اطولهن
يدا بالصدقة واولهن لحوقا به ومسح ضرع شاة حائل لا لبن فدرت فكان ذلك سبب
اسلام ابن مسعود وفعل ذلك مرة اخرى فى خيمة ام معبد الخزاعية وندرت عين
بعض اصحابه فسقطت فردها عليه السلم بيده فكانت عينه احسنهما وتفل فى عين
على رضى الله عنه وهو ارمد يوم خيبر فصح من وقته وبعثه بالراية وكانوا يسمعون تسبيح
الطعام بين يديه واصيبت رجل بعض اصحابه فمسحها بيده فبرات من حينها وقل زاد
جيش كان معه فدعا بجميع ما بقى فاجتمع شى يسير جدا فدعا فيه بالبركة ثم امرهم
فاخذوا فلم يبق وعا فى العسكر الا ملى من ذلك وحكى الحكم بن عاص مشيته صلى الله عليه وآله
مستهزئا فقال عليه السلم كن كذلك فلم يزل يرتعش حتى مات وخطب عليه السلم امراة فقال ابوها
ان بها برصا امتناعا من خطبته واعتذارا ولم يكن بها برص فقال عليه السلم فلتكن كذلك فبرصت
وهى ام شبيب بن البرصاء الشاعر الى غير ذلك من آياته ومعجزاته صلى الله عليه وآله وسلم
وانما اقتصرنا على المستفيض ومن يستريب فى انخراق العادة على يديه ويزعم ان احاد
وقايعهم لم ينقل تواترا بل المتواتر هو القرآن فقط كمن يستريب فى شجاعة على وسخاوة
حاتم ومعلوم ان احاد وقايعهم غير متواترة ولكن مجموع الوقايع يورث علما ضروريا
ثم لا يتمارى فى تواتر القرآن وهى المعجزة الكبرى الباقية بين الخلق وليس لنبى معجزة باقية
سواه صلى الله عليه وآله وسلم اذ تحدى بها بلغاء الخلق وفصحاء العرب وجزيرة العرب

العرب حينئذ مملوة بآلاف منهم والفصاحة صنعتهم وبها منافستهم ومباهاتهم وكان ينادى
بين اظهرهم ان ياتوا بمثله او بعشر سور من مثله او بسورة من مثله ان شكوا وقال لهم لئن
اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله الاية وقال ذلك تعجيزا لهم
فعجزوا عن ذلك وصرفوا عنه حتى عرضوا انفسهم للقتل ونساءهم وذراريهم للسبى وما
استطاعوا ان يعارضوا ولا ان يقدحوا فى جزالته وحسنه ثم انتشر ذلك بعده فى اقطار
العالم شرقا وغربا قرنا بعد قرن وعصرا بعد عصر وقد انقرض اليوم قريب من خمس
مائة سنة ولم يقدر احد على معارضته فاعظم بغباوة من ينظر فى احواله ثم فى اقواله ثم
فى افعاله ثم فى اخلاقه ثم فى معجزاته ثم فى استمرار شرعه الى الآن ثم فى
انتشاره فى اقطار العالم ثم فى اذعان ملوك الارض له فى عصره وبعد عصره مع ضعفه ويتمه ثم يتمارى بعد
ذلك فى صدقه وما اعظم توفيق من آمن به وصدقه واتبعه فى كل ما ورد وصدر فنسال
الله تعالى ان يوفقنا للاقتداء به فى الافعال والاحوال والاقوال بمنه وسعة جوده ثم آخر
ربع العادات بحمد الله وتوفيقه **الربع الثالث فى المهلكات من كتاب الاحياء**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تتحير دون ادراك جلاله القلوب والخواطر وتدهش فى مبادى اشراق
انواره الاحداق والنواظر المطلع على خفيات السراير العالم بمكنونات الضماير المستغنى
فى تدبير ملكه عن المشاور والموازر مقلب القلوب وغفار الذنوب وستار العيوب
ومفرج الكروب والصلوة على محمد سيد المرسلين وجامع شمل الدين وقاطع دابر
الملحدين وعلى آله الطيبين الطاهرين **اما بعد** فشرف الانسان وفضيلته التى بها فاق
من جملة اصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله التى هى فى الدنيا جماله وكماله وفخره وفى الآخرة
عدته وذخره وانما استعد للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه فالقلب هو العالم بالله
وهو العامل لله وهو الساعى الى الله وهو المتقرب اليه وهو المكاشف بما عند الله ولديه
وانما الجوارح اتباع وآلات وخدم يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك
للعبد واستخدام الراعى للرعية والصانع للآلة والقلب هو المقبول عند الله اذا سلم
من غير الله وهو المحجوب عن الله اذا صار مستغرقا بغير الله وهو الطالب والمخاطب و
المعاتب والمعاقب وهو الذى يسعد بالقرب من الله فيفلح اذا زكاه وهو الذى يخيب

ويشقى إذا دنسه ودساه وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى وإنما الذي ينتشر على الجوارح من
العبادات أنواره وهو العاصي المتمرد على الله تعالى وإنما الساري إلى الأعضاء من الفواحش
آثاره وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه إذ كل إناء ينضح بما فيه وهو الذي
إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه وهو الذي إذا جهله
الإنسان فقد جهل نفسه وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل
وأكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم وقد حيل بينهم وبين أنفسهم فإن الله يحول بين
المرء وقلبه وحيلولته بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته وكيفية تقلبه بين
أصبعين من أصابع الرحمن وأنه كيف يهوي مرة إلى أسفل السافلين وينخفض إلى أفق الشياطين
وكيف يرتفع أخرى إلى أعلى عليين ويرتقي إلى عالم الملائكة المقربين ومن لم يعرف قلبه ليراقبه
ويراعيه ويترصد لما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه فهو ممن قال الله تعالى فيه نسوا الله
فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين وأساس
طريق السالكين وإذ قد فرغنا في الشطر الأول من هذا الكتاب عن النظر فيما يجري على الجوارح
من العبادات والعادات وهو العلم الظاهر ووعدنا أن نشرح في الشطر الثاني ما يجري
على القلوب من الصفات المهلكات والمنجيات وهو العلم الباطن فلا بد أن نقدم عليه
كتابين كتابا في شرح صفات القلب وأخلاقه وكتابا في كيفية رياضة القلب وتهذيب
أخلاقه ثم نندفع بعد ذلك في تفصيل المهلكات والمنجيات فلنذكر الآن من شرح عجائب
القلب بطريق ضرب الأمثال ما يقربه من الأفهام فإن التصريح بعجائبه وأسراره الداخلة في
جملة عالم الملكوت مما يكل عن دركه أكثر الأفهام **بيان** معرفة النفس والروح والقلب والعقل
وما هو المراد بهذه الأسامي **اعلم** أن هذه أربعة أسامي تستعمل في هذه الأبواب ويقل
في فحول العلماء من يحيط بمعاني هذه الأسامي واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها
وأكثر الأغاليط منشأه الجهل بمعاني هذه الأسامي وباشتراكها بين مسميات مختلفة ونحن
نشرح من معاني هذه الأسامي ما يتعلق بغرضنا **الأول** لفظ القلب وهو يطلق لمعنيين
أحدهما اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر وهو لحم مخصوص وفي باطنه
تجويف وفي ذلك التجويف دم أسود وهو منبع الروح ومعدنه ولسنا نقصد الآن شرح
شكله وكيفيته إذ لا يتعلق به الأغراض الدينية وإنما يتعلق به غرض الأطباء وهذا القلب

القلب موجود للبهائم بل هو موجود للميت ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب
لم نعن به ذلك فإنه قطعة لحم لا قدر له وهو من عالم الملك والشهادة وتدركه البهائم
بحاسة البصر فضلا من الآدميين والمعنى الثاني هو لطيفة ربانية روحانية لها
بهذا القلب الجسماني تعلق وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهي المدركة العالمة العارفة
من الإنسان وهي المخاطبة المطالبة والمعاقبة ولها علاقة مع القلب الجسماني وقد
تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته وأن تعلقه بها يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام
والأوصاف بالموصوفات أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة المتمكنة أن تحقيقه
يستدعي إفشاء سر الروح وما لم يتكلم فيه رسول الله صلعم فليس لغيره أن يتكلم فيه والمقصود
أنا أو تعلق المتمكن بالمكان وشرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين **أحدهما** أنه متعلق بعلوم
المكاشفة وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة **والثاني** أن تحقيقه يستدعي
إفشاء سر الروح وما لم يتكلم فيه رسول الله صلعم فليس لغيره أن يتكلم فيه والمقصود أنا
إذا أطلقنا القلب في هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها
لا ذكر حقيقتها في ذاتها وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها ولا يفتقر إلى ذكر حقيقتها
اللفظ **الثاني** الروح وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين **أحدهما**
جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني وينتشر بواسطة العروق الضوارب إلى
سائر أجزاء البدن وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والسمع والبصر والشم
إلى أعضائه يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت فإنه لا ينتهي إلى
جزء من البيت إلا ويستنير به فالحياة مثالها النور الحاصل والروح مثاله السراج و
الروح وحركاتها في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه والأطباء
إذا أطلقوا الروح أرادوا به هذا المعنى وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب وليس
من غرضنا شرحه إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان فأما غرض
أطباء الدين المعالجين للقلوب حتى تنساق إلى جوار رب العالمين فليس يتعلق
بشرح هذه الروح أصلا المعنى **الثاني** وهو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان
وهو الذي شرحناه في أحد معاني القلب وهو الذي أراده الله تعالى بقوله ويسألونك
عن الروح قل الروح من أمر ربي وهو أمر عجيب رباني تعجز أكثر العقول والأفهام عن

وإدراك كنه حقيقته اللفظ الثالث النفس وهو أيضا مشترك بين معان ويتعلق
بغرضنا منه معنيان أحدهما أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان
على ما سيأتي شرحه وهذا الاستعمال هو الغالب على الصوفية لأنهم يريدون بالنفس الأصل
الجامع للصفات المذمومة من الإنسان فيقولون لا بد من مجاهدة النفس وكسرها
وإليه الإشارة بقوله عليه السلام أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك المعنى الثاني هو اللطيفة
التي ذكرناها التي هي الإنسان بالحقيقة وهي نفس الإنسان وذاته ولكنها توصف
بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب
بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة كما قال الله تعالى يا أيتها النفس المطمئنة
ارجعي إلى ربك والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى فإنها مبعدة عن الله
تعالى وهي من حزب الشيطان وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس ومعترضة
عليها سميت النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها عند تقصيرها في عبادة مولاها قال الله تعالى
ولا أقسم بالنفس اللوامة وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات
ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء قال الله تعالى إن النفس لأمارة بالسوء
وقد يجوز أن يقال المراد بالأمارة بالتي هي النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم
وبالمعنى الثاني محمودة لأنها نفس الإنسان أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر
المعلومات اللفظ الرابع العقل وهو أيضا مشترك لمعان مختلفة ذكرناها في كتاب
العلم والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان أحدهما أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق
الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب والثاني أنه قد يطلق ويراد به
المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعني تلك اللطيفة ونحن نعلم أن كل عالم فله في نفسه
وجود هو أصل قائم بنفسه والعلم صفة حالة فيه والصفة غير الموصوف والعقل قد
يطلق ويراد به صفة العالم وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعني المدرك وهو المراد
بقوله عليه السلام أول ما خلق الله العقل فإن العلم عرض لا يتصور أن يكون أول مخلوق بل
لا بد وأن يكون المحل مخلوقا قبله أو معه ولأنه لا يمكن الخطاب معه وفي الخبر أنه قال له
أقبل فأقبل وقال له أدبر فأدبر الحديث فإذن قد انكشف لك أن معاني هذه الأسامي
موجودة وهي القلب الجسماني والروح الجسماني والنفس الشهوانية والعلوم فهذه

أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة ومعنى خامس وهو اللطيفة العالمة المدركة
من الإنسان والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها فالمعاني خمسة والألفاظ أربعة
وكل لفظ أطلق لمعنيين وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الأسامي والألفاظ
وتواردها فتراهم يتكلمون في الخواطر ويقولون هذا خاطر العقل وهذا خاطر الروح و
هذا خاطر النفس وهذا خاطر القلب وليس يدري الناظر اختلاف معاني هذه
الأسماء فلأجل كشف الغطاء عن ذلك قدمنا شرح هذه الأسامي وحيث ورد في القرآن والسنة
لفظ القلب فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء وقد يكنى عنه
بالقلب الذي في الصدر لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة فإنها وإن كانت
متعلقة بسائر البدن ومستعملة لها ولكنها تتعلق به بواسطة القلب فتعلقها الأول بالقلب
وكأنه محلها ومملكتها وعالمها ومطيتها ولذلك شبه سهل التستري القلب بالعرش والصدر
بالكرسي فقال القلب هو العرش والصدر هو الكرسي فلا تظن به أنه يرى أنه عرش الله
وكرسيه فإن ذلك محال بل أراد به أنه مملكته والمجرى الأول لتدبيره وتصرفه فهما بالنسبة إليه
كالعرش والكرسي بالنسبة إلى الله تعالى ولا يستقيم هذا التشبيه أيضا إلا من بعض الوجوه و
شرح ذلك لا يليق بغرضنا فلنجاوزه بيان جنود القلب قال الله تعالى وما يعلم جنود ربك
إلا هو فلله سبحانه في القلوب والأرواح وغيرها من العوالم جنود مجندة لا يعرف حقيقتها
وتفصيل عددها إلا هو ونحن الآن نشير إلى بعض جنود القلب فهو الذي يتعلق بغرضنا فله
جندان جند يرى بالأبصار وجند لا يرى إلا بالبصائر وهو في حكم الملك والجنود في حكم الخدم
والأعوان وهذا معنى الجند فأما جنده المشاهد والعاين بالعين فهو اليد والرجل
والعين والأذن واللسان وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة فإن جميع هذه الأعضاء خادمة
للقلب ومسخرة له وهو المتصرف فيها والمردد لها وقد خلقت مجبولة على طاعة القلب لا
تستطيع له خلافا ولا عليه تمردا فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت
وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم وكذا سائر الأعضاء وتسخير الأعضاء والحواس
للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى فإنهم مجبولون على الطاعة لا يستطيعون له خلافا
بل لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وإنما يفترقان في شيء وهو أن الملائكة عليهم السلام
عالمة بطاعتها وامتثالها والأجفان تطيع القلب في الانفتاح والانطباق على سبيل التسخير ولا

لها من [illegible] الملائكة عالمة بطاعتها وامتثالها والاجفان تطيع القلب الانفتاح
والانطباق على سبيل التسخير ولا خبر لها من نفسها ومن طاعتها للقلب وانما افتقر القلب الى الجنود من حيث
افتقاره الى المركب والزاد لسفره الذي لاجله خلق وهو السفر الى الله تعالى وقطع المنازل
الى لقائه فلاجله خلقت القلوب قال الله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وانما
مركبه البدن وزاده العلم وانما الاسباب التي توصله الى الزاد وتمكنه من التزود منه العمل
الصالح وليس يمكن ان يصل العبد الى الله ما لم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا فان المنزل
الادنى لا بد من قطعه للوصول الى المنزل الاقصى والدنيا مزرعة الاخرة وهي منزل من
منازل الهدى وانما سميت الدنيا لانها ادنى المنزلتين فاضطر الى ان يتزود من هذا
العالم والبدن مركبه الذي يصل به الى هذا العالم فافتقر الى تعهد البدن وحفظه وانما
يحفظ البدن بان يجلب اليه ما يوافقه من الغذاء وغيره وبان يدفع عنه ما ينافيه و
يهلكه من اسباب الهلاك فافتقر لاجل جلب الغذاء الى جندين باطن وهو الشهوة وظاهر
وهو اليد والاعضاء الجالبة للغذاء فخلق في القلب من الشهوات ما احتاج اليه وخلق
الاعضاء التي هي آلات الشهوة فافتقر لاجل دفع المهلكات الى جندين باطن وهو الغضب
الذي به يدفع المهلكات وينتقم من الاعداء وظاهر وهو اليد والرجل الذي بهما يعمل بمقتضى
الغضب وكل ذلك بامور خارجة عن البدن كالاسلحة وغيرها ثم المحتاج الى الغذاء ما
لم يعرف الغذاء لا ينفعه شهوة الغذاء والفه فافتقر للمعرفة الى جندين باطن وهو الادراك
بالبصر والذوق والشم والسمع واللمس وظاهر وهو العين والانف والاذن والفم وغيرها
وتفصيل وجه الحاجة اليها ووجه الحكمة فيها يطول ولا يحويه مجلدات كثيرة وقد اشرنا الى
طرف يسير منه في كتاب الشكر فليقتنع به فجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة اصناف صنف باعث
ومستحث اما الى جلب الموافق النافع كالشهوة واما الى دفع الضار المنافي كالغضب وقد
يعبر عن هذا الباعث بالارادة والثاني هو المحرك للاعضاء الى تحصيل هذه المقاصد
يعبر عن هذا الثاني بالقدرة وهي جنود مبثوثة في سائر الاعضاء لا سيما العضلات منها
والاوتار والثالث هو المدرك المتعرف للاشياء كالجواسيس وهي قوة البصر والشم والذوق
والسمع وغيرها وهي مبثوثة في اعضاء المركبة من اللحم والشحم والدم والعظم والعصب التي اعدت
معينة ويعبر عن هذا بالعلم والادراك ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة

ظاهرة وهي الاعضاء المركبة من اللحم والشحم والدم والعظم والعصب التي اعدت آلات لهذه
الجنود فان قوة البطش انما تبطش بالاصابع وقوة البصر انما تدرك الشيء بالعين وكذا
سائر القوى ولسنا نتكلم في الجنود الظاهرة اعني الاعضاء فانها من عالم الملك والشهادة
انما نتكلم الآن فيما ايد به من جنود لم تروها وهذا الصنف الثالث وهو المدرك من هذه
الجملة ينقسم الى ما اسكن المنازل الظاهرة وهي الحواس الخمس اعني السمع والبصر والشم والذوق
واللمس والى ما اسكن منازل باطنة وهي تجاويف الدماغ وهي ايضا خمسة فان الانسان
بعد رؤية الشيء يغمض عينيه فيدرك صورته في نفسه وهو الخيال ثم تبقى تلك الصورة معه
بسبب شيء يحفظه وهو الجند الحافظ ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك الى البعض ثم
يتذكر ما نسيه ويعود اليه ثم يجمع جملة معاني المحسوسات في خياله بالحس المشترك بين المحسوسات
ففي الباطن حس مشترك وتخيل وتفكر وتذكر وحفظ ولولا خلق الله تعالى قوة الحفظ و
الفكر والذكر والتخيل لكان يخلو الدماغ عنه كما يخلو عنه اليد والرجل فتلك القوى ايضا
جنود باطنة واماكنها ايضا باطنة فهذه هي اقسام جنود القلب وشرحه بحيث يدركه فهم
الضعفاء يطول ومقصود هذا الكتاب ان ينتفع به الاقوياء والفحول من العلماء ولكنا
نجتهد في تفهيم الضعفاء بضرب الامثلة ليقرب ذلك من افهامهم **بيان امثلة القلب**
مع جنوده الباطنة اعلم ان جندي الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقيادا
تاما فيعينانه على طريقه الذي يسلكه ويحسنان مرافقته في السفر الذي هو بصدده وقد
يستعصيان عليه استعصاء بغي وتمرد حتى يملكاه ويستعبداه وفيه هلاكه وانقطاعه
عن سفره الذي به وصوله الى سعادة الابد وللقلب جند آخر وهو العلم والحكمة والتفكر
كما سيأتي شرحه وحقه ان يستعين بهذا الجند فانه حزب الله تعالى على الجندين الاخريين فانهما
قد يلتحقان بحزب الشيطان فان ترك الاستعانة وسلط على نفسه جند الغضب و
الشهوة هلك يقينا وخسر خسرانا مبينا وذلك حال اكثر الخلق فان عقولهم صارت
مسخرة لشهواتهم في استنباط الحيل لقضاء الشهوة وكان ينبغي ان تكون الشهوة مسخرة
لعقولهم فيما يفتقر العقل اليه ونحن نقرب هذا الى فهمك بثلاثة امثلة **المثال الاول**
ان نقول مثل نفس الانسان في بدنه اعني بالنفس اللطيفة المذكورة كمثل وال في مدينته
ومملكته فان البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها وقواه وجوارحه بمنزلة

الصناع والعملة والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل والشهوة له كعبد سوء يجلب الطعام والميرة الى المدينة والغضب والحمية له كصاحب شرطة والعبد الجالب للميرة كذاب مكار مخادع خبيث يتمثل بصورة الناصح وتحت نصحه الشر الهائل والسم القاتل وديدنه وعادته منازعة الوزير الناصح في كل تدبير يدبره حتى لا يخلو عن منازعته ومعارضته ساعة فكما ان الوالي في مملكته متى استشار في تدبيراته لوزيره معرضا عن اشارة هذا العبد الخبيث بل مستدلا في اشارته بان الصواب في نقيض رايه وادب صاحب شرطته وساسه لوزيره وجعله موتمرا له ومسلطا من جهته على هذا العبد الخبيث واتباعه وانصاره حتى يكون العبد مسوسا لا سائسا ومامورا مدبرا لا اميرا مدبرا استقام امر بلده وانتظم العدل بسببه كذلك النفس متى استعانت بالعقل وادبت الغضب والحمية وسلطتها على الشهوة واستعانت باحدهما على الاخرى تارة بان تقلل مرتبة الغضب وغلواءه بمخالفة الشهوة واستدراجها وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبيح مقتضياتها اعتدلت قواه وحسنت اخلاقه ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال الله تعالى فيه افرايت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم وقال تعالى واتبع هواه فمثله كمثل الكلب وقال تعالى فيمن نهى النفس عن الهوى فان الجنة هي الماوى وسياتي كيفية مجاهدة الجنود وتسليط بعضها على بعض في كتاب رياضة النفس **المثال الثاني** ان البدن كالمدينة والعقل اعني المدرك من الانسان كملك مدبر لها وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده واعوانه واعضائه كرعيته والنفس الامارة بالسوء التي هي الشهوة والغضب كعدو ينازعه في مملكته ويسعى في اهلاك رعيته فصار بدنه كرباط وثغر ونفسه كمقيم فيه مرابط فان جاهد عدوه فهزمه وقهره على ما يحب حمد اثره اذا عاد الى الحضرة كما قال الله تعالى فضل الله المجاهدين باموالهم وانفسهم على القاعدين درجة وان ضيع ثغره واهمل رعيته ذم اثره وانتقم منه عند الله تعالى فيقال له يوم القيامة يا راعي السوء اكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة ولم تجبر الكسير اليوم انتقم منك كما ورد في الخبر والى هذه المجاهدة الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر **المثال الثالث** مثل العقل مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه فمتى كان الفارس حاذقا وفرسه مروضا وكلبه مؤدبا

معلما كان جديرا بالنجح ومتى كان هو في نفسه اخرق وكان فرسه جموحا والكلب عقورا فلا فرسه ينبعث تحته منقادا ولا كلبه يسترسل باشارته مطيعا فهو خليق بان يعطب فضلا من ان ينال ما طلب وانما خرق الفارس مثال جهل الانسان وقلة حكمته وكلال بصيرته وجماح الفرس مثال لغلبة الشهوة خصوصا شهوة البطن والفرج وعقر الكلب مثال لغلبة الغضب واستيلائه **بيان** خاصية قلب الانسان اعلم ان جملة ما ذكرناه قد انعم الله بها على سائر الحيوانات سوى الآدمي اذ للحيوانات الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة ايضا حتى ان الشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته بقلبها فتهرب منه فذلك هو الادراك الباطن فلنذكر ما يختص به قلب الانسان ولاجله عظم شرفه واستاهل القرب من الله تعالى وهو راجع الى علم وارادة اما العلم فهو العلم بالامور الدنيوية والاخروية والحقائق العقلية فان هذه امور وراء المحسوسات فلا يشاركه فيها الحيوانات بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل يحكم الانسان بان الفرس الواحد لا يتصور ان يكون في مكانين في حالة واحدة وهذا حكم منه على كل فرس ومعلوم انه لم يدرك بالحس الا بعض الافراس فحكمه على جميع الافراس زائد على ما ادركه الحس واذا فهمت هذا في هذا العلم الظاهر الضروري فهو في سائر النظريات اظهر واما الارادة فانه اذا ادرك بالعقل عاقبة الامر وطريق الصلاح فيه انبعث من ذاته شوق الى جهة المصلحة والى تعاطي اسبابها والارادة لها وذلك غير ارادة الشهوة وارادة الحيوانات بل يكون على ضد الشهوة فان الشهوة تنفر عن الفصد والحجامة والعاقل [illegible] يريدها ويطلبها ويبذل المال فيها والشهوة تميل الى لذائذ الاطعمة في المرض والعاقل يجد في نفسه زاجرا عنها وليس ذلك زاجر الشهوة ولو لم يخلق الله العقل المعرف بعواقب الامور ولم يخلق هذا الباعث المحرك للاعضاء على مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضائعا على التحقيق فاذا اختص قلب الانسان بعلم وارادة ينفك عنها سائر الحيوانات بل ينفك عنها الصبي في اول الفطرة وانما يحدث ذلك فيه عند البلوغ واما الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة فانها موجودة في حق الصبي ثم للصبي في حصول هذه العلوم فيه درجتان احداهما ان يشتمل قلبه على جملة العلوم الضرورية الاولية كالعلم باستحالة المستحيلات وجواز الجائزات الظاهرة فتكون العلوم النظرية فيه غير حاصلة الا انها صارت ممكنة قريبة الامكان والحصول ويكون حاله بالاضافة الى العلوم كحال الكاتب الذي لا يعرف

من الكتابة الا الدواة والقلم والحروف المفردة دون المركبة فانه قد قارب الكتابة ولم
يبلغها بعد الثانية ان تحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب والفكر فيكون كالمخزونة
عنده فاذا شاء رجع اليها وحاله حال الحاذق بالكتابة اذ يقال له كاتب وان لم يكن مباشرا
للكتابة بقدرته عليها وهذه هي غاية درجة الانسانية ولكن في هذه الدرجة مراتب لا تحصى
تتفاوت الخلق فيها بكثرة المعلومات وقلتها وبشرف المعلومات وخستها وبطريق تحصيلها اذ تحصل
لبعض القلوب بالهام الهي على سبيل المبادات ولبعضها بتعلم واكتساب ثم قد
يكون سريع الحصول وقد يكون بطيء الحصول وفي هذا المقام تتباين منازل العلماء
والحكماء والانبياء والاولياء فدرجات الترقي فيه غير محصورة اذ معلومات الله تعالى لا
نهاية لها واقصى الرتب فيها رتبة النبي صلعم الذي ينكشف له كل الحقائق او اكثرها من غير
اكتساب وتكلف بل بكشف الهي في اسرع وقت وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى
قربا بالمعنى والحقيقة والصفة لا بالمكان والمسافة ومراقي هذه الدرجات هي منازل
السائرين الى الله تعالى ولا حصر لتلك المنازل وانما يعرف كل سالك المنزل الذي بلغه
في سلوكه فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل فاما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علما لكن قد
يصدق به ايمانا بالغيب كما انا نؤمن بالنبوة والنبي صلعم ونصدق بوجوده ولكن لا يعرف حقيقة النبوة
الا النبي وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ولا الطفل حال المميز وما انفتح له من العلوم الضرورية
ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية فلا يعرف العاقل ما افتتح على اولياء الله
وانبيائه من مزايا لطفه ورحمته ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وهذه
الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله تعالى غير مضنون بها على احد
لكن انما تظهر في القلوب المتعرضة لنفحات الله تعالى كما قال النبي صلعم ان لربكم في ايام دهركم
نفحات الا فتعرضوا لها والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكدورة الحاصلة
من الاخلاق المذمومة كما سيأتي والى هذا الجود الاشارة بقوله صلعم ينزل الله كل ليلة الى السماء
الدنيا فيقول هل من داع فاستجيب له وبقوله صلعم حكاية عن الله تعالى لقد طال شوق الابرار
الى لقائي واني الى لقائهم لاشد شوقا وبقوله تعالى من تقرب الي شبرا تقربت اليه ذراعا كل ذلك
اشارة الى ان انوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة المنعم تعالى عن البخل والمنع علوا
كبيرا ولكن حجبت لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب فان القلوب كالاواني فما دامت ممتلئة بالماء

الماء لا يدخلها الهواء فالقلوب المشغولة بغير الله تعالى لا يدخلها المعرفة بجلال الله واليه
الاشارة بقوله صلعم لولا ان الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السماء
ومن هذه الجملة يتبين ان خاصية الانسان العلم والحكمة واشرف انواع العلم العلم بالله
وصفاته وافعاله فيه كمال الانسان وفي كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال
والبدن مركب للنفس والنفس محل للعلم والعلم هو مقصود الانسان وخاصيته التي لاجلها
خلق وكما ان الفرس يشارك الحمار في قوة الحمل ويختص عنه بخاصية الكر والفر وحسن
الهيئة فيكون الفرس مخلوقا لاجل تلك الخاصية فان تعطلت منه نزل الى حضيض رتبة
الحمار فكذلك الانسان يشارك الحمار والفرس في امور ويفارقهما في امور هي خاصيته
وتلك الخاصية من صفات الملائكة المقربين من الله تعالى والانسان على رتبة بين البهائم
والملائكة فان الانسان من حيث يتغذى وينسل فنبات ومن حيث يحس ويتحرك بالاختيار
فحيوان ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على الحائط وانما
خاصيته معرفة حقائق الاشياء فمن استعمل جميع اعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها
على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة فحقيق ان يلحق بهم وجدير بان يسمى ملكا وربانيا
كما قال تعالى ان هذا الا ملك كريم ومن صرف همته الى اتباع الشهوات واللذات البدنية
يأكل كما تأكل الانعام فقد انحط الى حضيض افق البهائم فيصير اما غمرا كثور واما شرها كخنزير
او ضريا ككلب او حقودا كجمل او متكبرا كنمر او ذا روغان كثعلب او يجمع ذلك كله كشيطان مريد
وما من عضو من الاعضاء ولا حاسة من الحواس الا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول
الى الله تعالى كما سيأتي طرف منه في كتاب الشكر فمن استعمله فيه فقد فاز ومن عدل عنه فقد
خسر وخاب وجملة السعادة في ذلك ان يجعل لقاء الله تعالى مقصده والدار الآخرة مستقره و
الدنيا منزله والبدن مركبه والاعضاء خدمه فيستقر هو اعني المدرك من الانسان في القلب
الذي هو وسط مملكته كالملك ويجري القوة الخيالية المودعة في مقدم الدماغ مجرى صاحب
بريده اذ تجتمع اخبار المحسوسات عنده ويجري القوة الحافظة التي مسكنها مؤخر الدماغ
مجرى خازنه ويجري اللسان مجرى ترجمانه ويجري الاعضاء المتحركة مجرى كتابه ويجري
الحواس الخمس مجرى جواسيسه فيوكل كل واحدة باخبار صقع من الاصقاع فيوكل العين بعالم
الالوان والسمع بعالم الاصوات والشم بعالم الروائح وكذلك سائرها فانها اصحاب

اخبار فيلتقطها من هذه العوالم ويردونها الى القوة الخيالية التي كصاحب البريد ثم
صاحب البريد الى الخازن وهي القوة الحافظة ثم يعرضها الخازن على الملك فيقتبس منها
ما يحتاج اليه في تدبير مملكته واتمام سفره الذي هو بصدده وقمع عدوه الذي هو مبتلى
به وقمع قواطع الطريق عليه فاذا فعل ذلك كان موفقا سعيدا شاكرا نعمة الله تعالى
واذا عطل هذه الجملة او استعملها لكن في مراعاة اعدائه وهي الشهوة والغضب وسائر
الحظوظ العاجلة وفي عمارة طريقه دون منزله اذ الدنيا طريقه الذي عليه عبوره ووطنه
ومستقره الآخرة كان مخذولا شقيا كافرا لنعمة الله تعالى مضيعا لجنود الله ناصرا لاعداء
الله تعالى مخذولا لحزب الله فيستحق المقت والابعاد في المنقلب والمعاد نعوذ بالله منه
والى المثال الذي ضربناه اشار كعب الاحبار قال دخلت على عائشة فقلت الانسان عيناه
هاد واذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريد والقلب ملك
فاذا طاب الملك طاب جنوده فقالت هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وقال علي رضي الله عنه
في تمثيل القلوب ان لله تعالى في ارضه آنية وهي القلوب فاحبها اليه تعالى ارقها واصفاها و
اصلبها ثم فسره فقال اصلبها في الدين واصفاها في اليقين وارقها على الاخوان وهو
اشارة الى قوله تعالى اشداء على الكفار رحماء بينهم وقوله تعالى مثل نوره كمشكوة فيها مصباح
قال ابي بن كعب معناه مثل نور المؤمن وقلبه وقوله تعالى او كظلمات في بحر لجي مثل قلب
الكافر المنافق وقال زيد بن اسلم في اللوح المحفوظ هو قلب المؤمن وقال سهل التستري
مثل القلب والصدر مثل العرش والكرسي فهذه امثلة القلب بيان مجامع اوصاف
القلب وامثلتها اعلم ان الانسان قد اصطحب في تركيبه وخلقته اربع شوائب
فلذلك اجتمعت عليه اربعة انواع من الاوصاف وهي الصفات السبعية والبهيمية
والشيطانية والربانية فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى افعال السباع من العداوة
والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب والشتم ومن حيث سلطت عليه الشهوة
يتعاطى افعال البهائم من الحرص والشره والشبق وغيره ومن حيث انه في نفسه امر رباني
كما قال تعالى قل الروح من امر ربي فانه يدعي لنفسه الربوبية ويحب الاستيلاء والاستعلاء
والتخصص والاستبداد بالامور كلها والتفرد بالرياسة والانسلال عن ربقة العبودية و
التواضع ويشتهي الاطلاع على العلوم كلها بل يدعي لنفسه العلم والمعرفة والاحاطة بحقائق

الامور ويفرح اذا نسب الى العلم ويحزن اذا نسب الى الجهل والاحاطة بجميع الحقائق و الاستيلاء
بالقهر على جميع الخلائق من اوصاف الربوبية وفي الانسان حرص على ذلك ومن حيث يختص
من البهائم بالتمييز مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريرا
يستعمل التمييز في استنباط الحيل ووجوه الشر ويتوصل الى الاغراض بالمكر والحيلة والخداع
ويظهر الشر في معرض الخير وهذه اخلاق الشياطين فكل انسان فيه شوب من هذه
الاصول الاربعة اعني الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية وكل ذلك مجموع في القلب
فكان المجموع في اهاب الانسان خنزير وكلب وشيطان وحكيم فالخنزير هو الشهوة فانه لم
يكن الخنزير مذموما للونه وشكله وصورته بل لجشعه وكلبه وحرصه والكلب هو
الغضب فان السبع الضاري والكلب العقور ليس كلبا وسبعا باعتبار الصورة والشكل
واللون بل روح معنى السبعية الضراوة والعدوان والعقر وفي باطن الانسان ضراوة
السبع وغضبه وحرص الخنزير وشبقه فالخنزير يدعو بالشره الى الفحشاء والمنكر
والسبع يدعو بالغضب الى الظلم والايذاء والشيطان لا يزال يهيج شهوة الخنزير وغيظ السبع
ويغري احدهما بالاخر ويحسن لهما ما هما مجبولان عليه والحكيم الذي هو مثال العقل مامور
بان يدفع كيد الشيطان ومكره بان يكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ونوره المشرق
الواضح وان يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه اذ بالغضب يكسر سورة الشهوة
ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه ويجعل الكل مقهورا تحت سياسته فان
فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الامر وظهر العدل في مملكة البدن وجرى الكل على الصراط
المستقيم فان عجز عن قهرها قهروه واستخدموه فلا يزال في استنباط الحيل وتدقيق
الفكر ليشبع الخنزير ويرضي الكلب فيكون دائما في عبادة كلب وخنزير وهذا حال اكثر
الناس مهما كان اكثر همهم الفرج والبطن ومنافسة الاعداء والعجب منه انه ينكر على عبدة
الاصنام عبادتهم للحجارة ولو كشف الغطاء عنه وكوشف بحقيقة حاله ومثل له حقيقة حاله
كما يمثل للمكاشفين اما في النوم او في اليقظة لرأى نفسه ماثلا بين يدي خنزير ساجدا له
مرة وراكعا اخرى ومنتظرا لاشارته وامره فمهما هاج الخنزير يطلب شيئا من
شهواته انبعث على الفور في خدمته واحضار شهوته او رآها ماثلا بين يدي كلب
عقور عابدا له مطيعا لما يستدعيه ويقتضيه مدققا للفكر في حيل الوصول الى

طاعته وهي بذلك شاع في صورة شيطانه فانه الذي يهيج الخنزير ويغري الكلب و
يبعثهما على استخدامه فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما فليراقب كل عبد
حركاته وسكناته وسكوته ونطقه وقيامه وقعوده ولينظر بعين البصيرة فلا يرى ان
انصف نفسه الا ساعيا طول النهار في عبادة هؤلاء وهذا غاية الظلم اذ جعل المالك
مملوكا والرب مربوبا والسيد عبدا والقاهر مقهورا اذ العقل هو المستحق للسيادة
والقهر والاستيلاء وقد سخره لخدمة هؤلاء فلا جرم ينتشر الى قلبه من طاعة هؤلاء
الثلث صفات تتراكم عليه حتى يصير طبعا ورينا مهلكا للقلب ومميتا له اما طاعة خنزير
الشهوة فيصدر منها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة
والعبث والحرص والجشع والملق والحسد والشماتة وغيرها واما طاعة الغضب فتنتشر
منها الى القلب صفة التهور والبذالة والبذخ والصلف والاستشاطة والتكبر و
والاستهزاء والعجب والاستخفاف وتحقير الخلق وارادة الشر وشهوة الظلم وغيرها
واما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة المكر والحيلة و
الخداع والدهاء والجربزة والتلبيس والتضريب والغش والخب وامثالها ولو
عكس الامر وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية لاستقرت في القلب من الصفات
الربانية العلم والحكمة والاحاطة بحقائق الاشياء ومعرفة الامور على ما هي عليه والاستيلاء
على الكل بقوة العلم والبصيرة واستحقاق التقدم على الخلق بكمال العلم وجلاله ولاستغنى
عن عبادة الشهوة والغضب ولينتشر اليه من ضبط خنزير الشهوة ورده الى حد الاعتدال
صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدوء والزهد والورع والتقوى والانبساط
وحسن الهيئة والحيا والظرف والمساعدة وامثالها ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب
وقهرها وردها الى الحد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس و
الصبر والحلم والاحتمال والعفو والثبات والنبل والشهامة والوقار وغيرها والقلب
في حكم مرآة وقد اكتنفته هذه الامور المؤثرة وهذه الآثار على التوالي واصلة الى
القلب اما الآثار المحمودة التي ذكرناها فانها تزيد مرآة القلب اشراقا ونورا
وضياء حتى يتلألأ فيه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الامر المطلوب من الدين و
الى مثل هذا القلب الاشارة بقوله صلعم اذا اراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من قلبه

من قلبه وفي رواية اذا اراد الله بعبد خيرا جعل له ناصحا في قلبه وبقوله من كان له من
قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ وهذا القلب هو الذي يستقر فيه الذكر قال الله
تعالى الا بذكر الله تطمئن القلوب اما الآثار المذمومة فانها مثل دخان مظلم
يتصاعد الى مرآة القلب ولا يزال يتراكم عليه مرة بعد اخرى الى ان يسود ويظلم ويصير
بالكلية محجوبا عن الله تعالى وهو الطبع والرين قال الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما
كانوا يكسبون وقال تعالى ان لو نشاء اصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون
فربط عدم السماع بالطبع بالذنوب كما ربط السماع بالتقوى فقال واتقوا الله واسمعوا
واتقوا الله ويعلمكم ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلب وعند ذلك يعمى القلب عن
الحق وصلاح الدين ويستهين بالآخرة ويستعظم امر الدنيا ويصير مقصور الهم عليها فاذا
قرع سمعه امر الآخرة وما فيها من الاخطار دخل من اذن وخرج من الاخرى ولم يستقر
في القلب ولم يحركه الى التوبة والتدارك اولئك الذين يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار
من اصحاب القبور وهذا معنى اسوداد القلب بالذنوب كما نطق به القرآن والسنة
وقال ميمون بن مهران اذا اذنب العبد ذنبا نكتت في قلبه نكتة سوداء فاذا هو نزع و
تاب صقل وان عاد زيد فيها حتى يغلف قلبه فهو الرين وقال النبي صلعم قلب المؤمن
اجرد وفيه سراج يزهر وقلب الكافر اسود منكوس فطاعة الله بمخالفة الشهوات
مصقلات للقلب ومعصيته مسودات له فمن اقبل على المعاصي اسود قلبه ومن اتبع
السيئة الحسنة ومحا اثرها لم يظلم قلبه ولكن ينقص نوره كالمرآة التي تتنفس فيها ثم
تمسح فانها لا تخلو عن كدورة وقد قال النبي صلعم القلوب اربعة قلب اجرد وفيه سراج
يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب اسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب اغلف مربوط
على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه ايمان ونفاق فمثل الايمان فيه كمثل البقلة
يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فاي المادتين
غلبت عليه حكم له بها وفي رواية غلبت عليه ذهبت به وقد قال الله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم
طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون فاخبر ان جلاء القلب والبصارة يحصل
بالذكر وانه لا يتمكن منه الا الذين اتقوا فالتقوى باب الذكر والذكر باب الكشف والكشف
باب الفوز الاكبر وهو الفوز بلقاء الله تعالى **بيان** مثال القلب بالاضافة الى العلوم خاصة

اعلم ان محل العلم هو القلب اعنى اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح المطاعة المخدومة
من جميع الاعضاء وهي بالاضافة الى حقايق المعلومات كالمرآة بالاضافة الى صور
المتلونات فكما ان للمتلون صورة ومثال تلك الصورة ينطبع في المرآة ويحصل بها
فكذلك لكل معلوم حقيقة ولتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب وتتضح
فيه وكما ان المرآة غير وصورة الاشخاص غير وحصول امثالها في المرآة غير فهي ثلثة
امور فكذلك ههنا ثلثة امور القلب وحقايق الاشياء وحصول نفس الحقايق في القلب
وحضوره فيه فالمرآة والعالم عبارة عن القلب الذي فيه يحل مثال حقايق الاشياء
والمعلوم عبارة عن حقايق الاشياء والعلم عبارة عن حصول المثال في المرآة وكما ان
القبض مثلا يستدعي قابضا كاليد ومقبوضا كالسيف ووصولا بين اليد و
السيف بحصول السيف في اليد ويسمى قبضا فكذلك وصول مثال المعلوم في
القلب يسمى علما وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجودا ولم يكن العلم
حاصلا لان العلم عبارة عن وصول الحقيقة الى القلب كما كان السيف موجودا
واليد موجودة ولم يكن اسم القبض والاخذ حاصلا لعدم وقوع السيف في اليد
نعم القبض عبارة عن حصول السيف بعينه في اليد والمعلوم بعينه لا يحصل
في القلب فمن علم النار لم يحصل عين النار في قلبه ولكن الحاصل حدها
وحقيقتها المطابق لصورتها فتمثيله بالمرآة اولى لان عين الانسان لا
يحصل في المرآة وانما يحصل مثال مطابق له فكذلك حصول مثال مطابق
بحقيقة المعلوم

المعلوم في القلب يسمى علما وكما ان المرآة لا ينكشف فيها الصور لخمسة امور احدها
نقصان صورته كجوهر الحديد قبل ان يدور ويشكل ويصقل والثاني لخبثه و
صداه وكدورته وان كان تام الشكل والثالث لكونه معدولا به عن جهة الصورة
الى غيرها كما اذا كانت الصورة وراء المرآة والرابع لحجاب مرسل بين المرآة و
الصورة والخامس الجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه ان
يحاذي بها شطر الصورة وجهتها فكذلك القلب مرآة مستعدة لان ينجلي فيها حقيقة
الحق في الامور كلها وانما خلت القلوب عن العلوم التي خلت عنها لهذه الاسباب
الخمسة اولها نقصان في ذاته كقلب الصبي فانه لا ينجلي له المعلومات لنقصانه والثاني
لكدورة المعاصي والخبث الذي تراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات فان ذلك
يمنع صفاء القلب وجلاءه فيمنع ظهور الحق فيه بقدر ظلمته وتراكمه واليه الاشارة
بقوله صلى الله عليه وسلم من قارف ذنبا فارقه عقل لم يعد اليه ابدا اي حصل في قلبه كدورة لا
يزول اثرها ابدا اذ غايته ان يتبعها بحسنة يمحوها فلو جاء بالحسنة ولم يتقدم السيئة
لازداد لا محالة اشراق القلب فلما تقدمت السيئة سقط فائدة الحسنة لكن عاد
القلب بها الى ما كان قبل السيئة ولم يزدد بها نورا فهذا خسران ونقصان لا حيلة
له فليس المرآة التي تتدنس ثم تمسح بالمصقلة كالتي تمسح بالمصقلة لزيادة جلائها
من غير دنس سابق فالاقبال على طاعة الله تعالى والاعراض عن مقتضى الشهوات هو
الذي يجلو القلب ويصفيه ولذلك قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم
سبلنا وان الله لمع المحسنين وقال النبي صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم والثالث
ان يكون معدولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة فان قلب المطيع الصالح وان كان صافيا
فانه ليس يتضح فيه جلية الحق لانه ليس يطلب الحق وليس يحاذي بمرآته شطر المطلوب
بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية او بتهيئة اسباب المعيشة ولا
يصرف فكره الى التامل في حضرة الربوبية والحقايق الخفية الالهية فلا ينكشف له الا ما هو
متفكر فيه من دقايق افات الاعمال وخفايا عيوب النفس او مصالح المعيشة ان كان
متفكرا فيها واذا كان تقييد الهم بالاعمال وتفصيل الطاعات مانعا عن انكشاف جلية الحق
فما ظنك بصرف الهم الى شهوات الدنيا ولذاتها وعلايقها فكيف لا يمنع عن الكشف

الرابع الحجاب فان المطيع القاهر لشهواته المتجرد للفكرة في حقيقة من الحقايق قد لا
ينكشف له ذلك لكونه محجوبا عنه باعتقاد سبق اليه منذ الصبي على
سبيل التقليد والقبول بحسن الظن يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من ان ينكشف
في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد وهذا ايضا حجاب عظيم به حجب اكثر المتكلمين
والمتعصبين للمذاهب بل اكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والارض
لانهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم وصارت
حجابا بينهم وبين درك الحقايق الخامس الجهل بالجهة التي يقع منها العثور على المطلوب
فان طالب العلم ليس يمكنه ان يحصل العلم بالمجهول الا بالتذكر للعلوم التي تناسب
مطلوبه حتى اذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيبا مخصوصا يعرفه العلماء بطرق الاعتبار
فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فيتجلى حقيقة المطلوب لقلبه فان العلوم
المطلوبة التي ليست فطرية لا تقتنص الا بشبكة العلوم الحاصلة بل كل علم فلا يحصل الا
عن علمين سابقين ياتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم
ثالث على مثال ما يحصل النتاج من ازدواج الفحل والانثى ثم كما ان من اراد ان يستنتج
رمكة لم يمكنه ذلك من حمار وبعير وانسان بل لا بد من اصل مخصوص من الفرس الذكر
والانثى وذلك اذا وقع بينهما ازدواج مخصوص فكذلك كل علم فله اصلان مخصوصان
وبينهما طريق في الازدواج يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب فالجهل بتلك
الاصول وبكيفية الازدواج هو المانع من العلم ومثاله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التي الصورة
فيها بل مثاله ان يريد الانسان مثلا ان يرى قفاه في المرآة فاذا رفع المرآة بازاء
وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا فلا يظهر فيها القفا وان رفعها وراء القفا
بازائه كان قد عدل بالمرآة عن عينه فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها فيحتاج الى
مرآة اخرى ينصبها وراء القفا وهذه في مقابلتها بحيث يبصرها ويراعي مناسبة
بين وضع المرآتين حتى ينطبع صورة القفا في المرآة المحاذية للقفا ثم ينطبع صورة
المرآة في المرآة الاخرى التي في مقابلة العين ثم يدرك العين صورة القفا فكذلك
في اقتناص العلوم طرق عجيبة فيها ازورارات وتحريفات اعجب مما ذكرناه في المرآة ويعز
على بسيط الارض من يهتدي الى الكيفية الحيلة في تلك الازورارات فهذه هي الاسباب المانعة

للقلوب من معرفة حقايق الامور والعلوم والا فكل قلب فهو بالفطرة صالح
لمعرفة الحقايق لانه امر رباني شريف فارق ساير جواهر العالم بهذه الخاصية و
الشرف واليه الاشارة بقوله تعالى انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال
فابين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان اشارة الى ان له خاصية يميز بها عن السموات
والارض والجبال بها صار مطيقا لحمل امانة الله تعالى وتلك الامانة هي المعرفة والتوحيد
وقلب كل ادمي مستعد لحمل الامانة ومطيق لها في الاصل ولكن يثبطه عن النهوض باعبايها
والوصول الى تحقيقها الاسباب التي ذكرناها ولذلك قال النبي صلعم كل مولود يولد على الفطرة
فابواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه وقوله عليه السلام لولا ان الشياطين يحومون على قلوب
بني ادم لنظروا الى ملكوت السموات اشارة الى بعض هذه الاسباب التي هي الحجاب بين
القلب وبين الملكوت واليه الاشارة بما روي عن ابن عمر قال قيل يا رسول الله اين الله في
الارض قال في قلوب عباده المومنين وفي الخبر قال الله تعالى لم يسعني ارضي ولا سمايي
ووسعني قلب عبدي المومن اللين الوادع وفي الخبر انه قيل من خير الناس فقال كل
مومن مخموم القلب فقيل وما مخموم القلب فقال هو التقي النقي الذي لا غش فيه ولا
بغي ولا غل ولا حسد ولذلك قال عمر راى قلبي ربي اذ كان قد رفع الحجاب بالتقوى
ومن ارتفع الحجاب بينه وبين قلبه تجلى صورة الملك والملكوت في قلبه فيرى جنة عرض
بعضها السموات والارض اما جملتها فاكثر سعة من السموات والارض لان السموات و
الارض عبارة عن عالم الملك والشهادة وهو وان كان واسع الاطراف متباعد الاكناف
فهو متناه على الجملة واما عالم الملكوت وهي الاسرار الغايبة عن مشاهدة الابصار المخصوصة
بادراك البصاير فلا نهاية له نعم الذي يلوح للقلب منه مقدار متناه ولكنه في نفسه
وبالاضافة الى علم الله لانها ترى وجملة عالم الملك والملكوت بادراك البصاير بلا نهاية
ها نعم الذي يلوح للقلب منه مقدار متناه اذا اخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة
الربوبية تحيط بكل الموجودات اذ ليس في الوجود شي سوى الله تعالى وافعاله ومملكته
وعبيده من افعاله فما يتجلى للقلب من ذلك هي الجنة بعينها عند قوم وهو سبب استحقاق الجنة
عند اهل الحق ويكون سعة ملكه في الجنة بحسب سعة معرفته وبمقدار ما تجلى له من الله
وصفاته وافعاله وانما مراد الطاعات واعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته

وقد افلح من زكاه ومراد تزكيته حصول نور الايمان فيها اعني اشراق نور المعرفة وهو المراد بقوله تعالى فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام وبقوله تعالى افمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه نعم هذا التجلي وهو الايمان له ثلث مراتب المرتبة الاولى ايمان العوام وهو ايمان التقليد المحض والثانية ايمان المتكلمين وهو ممزوج بنوع استدلال والثالثة ايمان العارفين وهو المشاهدة بنور اليقين ونبين لك هذه المراتب بمثال وهو ان تصديقك بكون زيد مثلا في الدار له ثلث درجات الاولى ان يخبرك من جربته بالصدق ولم تعرفه بالكذب ولا اتهمته في القول فان قلبك يسكن اليه ويطمئن به بمجرد السماع وهذا هو الايمان بمجرد التقليد وهو مثل ايمان العوام فانهم لما بلغوا سن التمييز سمعوا من آبائهم وامهاتهم وجود الله تعالى وعلمه وارادته وقدرته وسائر صفاته وبعثة رسله وصدقهم فيما جاؤا به وكما سمعوه قبلوه وثبتوا عليه واطمأنوا به ولم يخطر ببالهم خلاف ما قالوا لحسن ظنهم بآبائهم وامهاتهم ومعلميهم وهذا الايمان سبب النجاة في الآخرة واهله من اوائل رتب اصحاب اليمين وليسوا من المقربين لانه ليس فيهم كشف وبصيرة وانشراح صدر بنور اليقين اذ الخطاء ممكن فيما يسمع من الاحاد بل من الاعداد فيما يتعلق بالاعتقاد فقلوب اليهود والنصارى ايضا مطمئنة بما يسمعون من آبائهم الا انهم اعتقدوا ما اعتقدوه خطأ لانهم القي اليهم الخطأ والمسلمون اعتقدوا الحق لا لاطلاعهم عليه ولكن القي اليهم كلمة الحق المرتبة الثانية ان تسمع كلام زيد وصوته من الدار ولكن من وراء جدار فتستدل به على كونه في الدار فيكون ايمانك وتصديقك ويقينك بكونه في الدار اقوى من تصديقك بمجرد السماع فانك اذا قيل لك انه في الدار ثم سمعت صوته ازددت به يقينا لان الصوت يدل على الشكل والصورة عند من سمع الصوت في حال مشاهدة الصورة فقلبه يحكم بان هذا صوت ذلك الشخص وهذا ايمان ممزوج بدليل والخطأ ايضا يمكن ان يتطرق اليه اذ الصوت قد يشبه الصوت وقد يمكن التكلف بطريق المحاكاة الا ان ذلك قد لا يخطر ببال السامع لانه ليس يجعل للتهمة موضعا ولا يقدر في هذا التلبيس والمحاكاة غرضا المرتبة الثالثة ان تدخل الدار فتنظر اليه بعينك وتشاهده فهذه هي المعرفة الحقيقية والمشاهدة

اليقينية وهي يشبه معرفة المقربين والصديقين لانهم يؤمنون عن مشاهدة فينطوي ايمانهم على ايمان العوام والمتكلمين ويتميزون بمزية يستحيل معها امكان الخطاء نعم وهم ايضا يتفاوتون بمقادير العلوم وبدرجات الكشف اما الدرجات فمثاله ان يبصر زيدا في الدار عن قرب وفي صحن الدار في وقت اشراق النهار فيكمل له ادراكه والآخر يدركه في بيت او من بعد او في وقت عشية فيتمثل له من صورته ما يستيقن معها انه هو ولكن لا يتمثل في نفسه الدقائق والخفايا من صورته ومثل هذا متصور في تفاوت مشاهدة الامور الالهية واما مقادير العلوم فبان يرى في الدار زيدا وعمرا وبكرا وغير ذلك وآخر لا يرى الا زيدا فمعرفة ذلك تزيد بكثرة المعلومات لا محالة فهذه حال القلب بالاضافة الى العلوم الدينية والدنيوية بيان حال القلب بالاضافة الى اقسام العلوم العقلية والدينية والدنيوية والاخروية اعلم ان القلب بغريزته مستعد لقبول حقائق المعلومات كما سبق ولكن العلوم التي تحل فيه تنقسم الى عقلية وشرعية والعقلية تنقسم الى ضرورية ومكتسبة والمكتسبة تنقسم الى دنيوية واخروية اما العقلية فنعني بها ما تقضي به غريزة العقل ولا يؤخذ بالتقليد والسماع وهي تنقسم الى ضرورية ومكتسبة ثم قال رحمه الله وتاخر العلوم من عين العقل مدة الصبي الى اوان التمييز او البلوغ يضاهي تاخر الرؤية عن البصر الى اوان طلوع الشمس وفيضان نورها على المبصرات والقلم الذي به سطر الله العلوم على صفحات القلوب يجري مجرى قرص الشمس وانما لم يحصل العلم في قلب الصبي قبل التمييز لان اللوح لم يتهيأ بعد لقبول نقش العلم والقلم عبارة عن خلق من خلائق الله جعله سببا لحصول نقش العلوم في قلوب البشر كما قال الله تعالى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم وقلم الله لا يشبه قلم خلقه كما ان وصفه لا يشبه وصف خلقه فليس قلمه من قصب ولا خشب كما ان ذاته ليس من جوهر ولا عرض فالموازنة بين البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه **كتاب رياضة النفس وتهذيب الاخلاق ومعالجة امراض القلب** وهو الكتاب الثاني من ربع المهلكات من كتب الاحياء قال رحمه الله بعد الحمد والصلوة اما بعد

فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين وافضل اعمال الصديقين وهو التحقيق شطر
الدين وهو ثمرة مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين والاخلاق السيئة هي
السموم القاتلة والمهلكات الدامغة والمخازي الفاضحة والرذائل الواضحة
والخبائث المبعدة من جوار رب العالمين المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين
وهي الابواب المفتوحة من القلب الى نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة كما ان
الاخلاق الجميلة هي الابواب المفتوحة من القلب الى نعيم الجنان وجوار الرحمن والاخلاق
الخبيثة هي امراض القلوب وامراض سقام النفوس الا انه مرض يفوت حيوة الابد واين
منه المرض الذي لا يفوت الا حيوة الجسد ومهما اشتدت عناية الاطباء لامراض
القلوب وفيها العلاج للابدان وليس في مرضها الا فوت حيوة فانية فالعناية بضبط
قوانين العلاج لامراض القلوب وفيها فوت حيوة باقية اولى وهذا النوع
واجب تعلمه على كل ذي لب اذ لا يخلو قلب من القلوب من اسقام لو اهملت تراكمت
وترادفت العلل وتظاهرت فيحتاج العبد الى تانق في معرفة عللها واسبابها ثم
الى تشمير في معالجتها واصلاحها فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى قد افلح من زكيها و
اهمالها هو المراد بقوله تعالى وقد خاب من دسيها ونحن في هذا الكتاب نشير الى جمل
امراض القلوب وكيفية القول في معالجتها على الجملة من غير تفصيل العلاج لخصوص
الامراض فان ذلك ياتي في بقية الكتب من هذا الربع وغرضنا الان النظر الكلي
في تهذيب الاخلاق وتمهيد مناهجها ونحن نذكر ذلك ونجعل علاج البدن مثالا
له ليقرب من الافهام دركه ويتضح ذلك بيان فضيلة حسن الخلق الخ ذكر رحمه الله
فيها روايات كثيرة منها قال صلى الله عليه وآله انكم لن تسعوا الناس باموالكم فسعوهم
ببسط الوجه وحسن الخلق وعن انس رضي الله عنه قال قالت ام حبيبة يا رسول الله
ارأيت المرأة منا يكون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلان الجنة لايهما
قال لاحسنهما خلقا كان عندها في الدنيا يا ام حبيبة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا
والاخرة وروي ان عمر استاذن على رسول الله صلى الله عليه وآله وعنده نساء من نساء قريش يكلمنه
ويستكثرنه عالية اصواتهن على صوته فلما استاذن عمر تبادرن الحجاب فدخل
عمر ورسول الله صلى الله عليه وآله يضحك فقال عمر مما اضحكك اضحك الله سنك بابي انت

وامي يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله عجبت لهؤلاء اللاتي كن عندي لما
سمعن صوتك تبادرن الحجاب قال عمر انت كنت احق ان يهبنك يا رسول الله
ثم اقبل عليهن عمر فقال اي عدوات انفسهن اتهبنني ولا تهبن رسول الله فقلن نعم
انت اغلظ وافظ من رسول الله صلى الله عليه وآله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله ايها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده
ما لقيك الشيطان قط سالكا فجا الا سلك فجا غير فجك بيان علامات حسن الخلق

اعلم ان كل انسان جاهل بعيب نفسه فاذا جاهد نفسه ادنى مجاهدة حتى ترك الفواحش
المعاصي ربما يظن بنفسه انه قد هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة فلا بد
من ايضاح علامة حسن الخلق هو الايمان وسوء الخلق هو النفاق ونحن نذكر جملا من
صفاتهم ليعلم بها حسن الخلق فقد قال الله تعالى قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون
الى قوله هم الوارثون وقال تعالى التائبون العابدون الى قوله وبشر المؤمنين وقال تعالى انما
المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم الى قوله اولئك هم المؤمنون حقا وقال تعالى
وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما
الى اخر السورة فمن اشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الايات فوجود جميع هذه
الصفات علامة حسن الخلق وفقد جميعها علامة سوء الخلق ووجود بعضها دون
بعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بتحصيل ما فقده وحفظ ما وجده وقد وصف رسول
الله صلى الله عليه وآله المؤمن بصفات كثيرة واشار بجميعها الى محاسن الاخلاق فقال المؤمن يحب لاخيه
ما يحب لنفسه وقال من كان يؤمن بالله واليوم الاخر فليكرم ضيفه وقال من كان يؤمن
بالله واليوم الاخر فليقل خيرا او ليصمت وذكر ان صفات الايمان هي حسن الخلق فقال
اكمل المؤمنين ايمانا احسنهم اخلاقا وقال اذا رايتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه
فانه يلقن الحكمة وقال من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن وقال لا يحل لمؤمن ان
يشير الى اخيه بنظرة تؤذيه وقال انما يتجالس المتجالسان بامانة الله فلا يحل لاحدهما
ان يفشي على اخيه ما يكرهه وجمع بعض علامات حسن الخلق الخ وقال حاتم الاصم المؤمن مشغول
بالفكر والعبر والمنافق مشغول بالحرص والامل المؤمن ايس من كل احد الا من الله
والمنافق راج كل احد الا الله المؤمن امن من كل احد الا من الله والمنافق خائف من كل
احد الا من الله المؤمن يقدم ماله دون دينه والمنافق يقدم دينه دون ماله والمؤمن يحسن

[illegible]

ويبكي والمنافق يسيء ويضحك المؤمن يحب الوحدة والخلاء والمنافق يحب الخلطة
والملاء المؤمن يزرع ويخشى الفساد والمنافق يقلع ويرجو الحصاد المؤمن يامر وينهى
للسياسة فيصلح والمنافق يامر وينهى للرياسة فيفسد واولى ما يمتحن الخلق حكي ان ابرهيم
بن ادهم خرج الى بعض البراري فاستقبله رجل جندي فقال له انت عبد قال نعم قال
اين العمران فاشار الى المقبرة فقال الرجل انما اردت العمران فقال هو المقبرة فغاظه
ذلك فضرب راسه بالسوط فشجه ورده الى البلد فاستقبله اصحابه فقالوا ما
هذا فاخبرهم الجندي فقالوا هذا ابرهيم بن ادهم فنزل الجندي عن دابته فقبل يديه
ورجليه وجعل يعتذر اليه فقيل له لم قلت انا عبد قال انه لم يسالني انت عبد من قال
الى انت عبد قلت نعم لاني عبد الله فلما ضرب راسي سالت الله عز وجل له الجنة فقيل
له ظلمك فكيف سالت الله تعالى له الجنة قال علمت اني اوجر على هذا فلم احب ان يكون نصيبي
منه الخير ونصيبه مني الشر ودعي ابو عثمان الحيري الى دعوة وكان الداعي يريد تجربته فلما
بلغ منزله قال له ليس لي وجه فرجع ابو عثمان وهكذا عامله بذلك مرات كثيرة
وابو عثمان لم يتغير فقال انما اردت ان اختبرك فما احسن خلقك فقال ابو عثمان
الذي رايت مني خلق الكلب الكلب اذا دعي اجاب واذا زجر انزجر وروي ان ابا عثمان
اجتاز بسكة فطرحت عليه اجانة رماد فنزل عن دابته وجعل ينفض ذلك عن ثيابه ولم
يقل شيئا فقيل الا زبرتهم فقال ان من استحق النار فصولح على الرماد لم يجز له ان يغضب و
قال يوسف بن اسباط علامة حسن الخلق عشرة قلة الخلاف وحسن الانصاف وترك
طلب العثرات وتحسين ما يبدو من السيئات والتماس المعذرة واحتمال الاذى والرجوع
بالملامة على نفسه والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره وطلاقة الوجه للصغير
والكبير الكلام لمن هو دونه ومن فوقه وقيل للاحنف بن قيس ممن تعلمت حسن الخلق فقال من
قيس بن عاصم قيل وما بلغ من خلقه قال بينا هو جالس في داره اذ جاءت خادمة له بسفود
عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له فمات فدهشت الجارية فقال لا روع
عليك انت حرة لوجه الله وقيل كان اويس القرني اذا راه الصبيان يرمونه بالحجارة وهو
يقول ان كان ولا بد فارموني بالصغار لكيلا تدموا ساقي فتمنعوني من الصلوة وروي
ان عليا عليه السلام دعا غلاما فلم يجبه فدعاه ثانيا وثالثا فلم يجبه فقام اليه فراه مضطجعا فقال

فقال اما تسمع يا غلام قال نعم قال فما حملك على ترك جوابي فقال امنت عقوبتك فتكاسلت
فقال امض فانت حر لوجه الله وقالت امراة لمالك بن دينار يا مرائي فقال يا هذه
وجدت اسمي الذي اضله اهل البصرة وقيل ليحيى بن زياد الحارثي وكان له غلام سوء
لم تمسك هذا الغلام فقال لاتعلم عليه الحلم فهذه النفوس قد ذللت بالرياضة فاعتدلت
اخلاقها وصولا ظهرت العلامات على ظواهرهم كما ذكرناها فمن لم يصادف من نفسه
هذه العلامات فلا ينبغي ان يغتر بنفسه فيظن بها حسن الخلق بل ينبغي ان يشتغل
بالرياضة والمجاهدة الى ان يبلغ درجة حسن الخلق فانها درجة رفيعة لا ينالها الا
المقربون والصديقون ذكر رحمه الله في طريق معالجة القلوب انما الغرض
الآن التنبيه على ان الطريق الكلي فيه سلوك مسلك المضادة لكل ما تهواه النفس و
تميل اليه وقد جمع الله تعالى ذلك في كلمة واحدة فقال ونهى النفس عن الهوى فان
الجنة هي الماوى والاصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم فاذا عزم على ترك شهوة
فقد تيسرت اسباب تلك الشهوة ويكون ذلك من الله ابتلاء واختبارا فينبغي ان يصبر
ويستمر فانه ان عود نفسه كسر العزم الفت ذلك وفسدت فاذا اتفق منه نقض
عزم فينبغي ان يلزم نفسه عقوبة عليه كما ذكرناه في معاتبة النفس من كتاب المحاسبة و
المراقبة واذا لم يخوف النفس بعقوبة غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة فتفسد به
الرياضة بالكلية ثم ذكر في بيان شواهد النقل من ارباب البصائر وشواهد الشرع
على ان الطريق في معالجة امراض القلوب ترك الشهوات وان مادة امراضها هي اتباع
الشهوات قوله تعالى اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى قيل نزع عنها محبة
الشهوات وقال المؤمن بين خمس شدائد مؤمن يحسده ومنافق يبغضه وكافر يقاتله وشيطان
يضله ونفس تنازعه فبين ان النفس عدو منازع يجب مجاهدتها ويروى ان الله
تعالى اوحى الى داود عليه السلام يا داود حذر وانذر اصحابك اكل الشهوات فان القلوب
المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة وقال عيسى عليه السلام طوبى لمن ترك شهوة
حاضرة لموعود غائب لم يره وقال صلى الله عليه وسلم كف اذاك عن نفسك ولا تتابع هواها
في معصية الله عز وجل اذن تخاصمك يوم القيمة فيلعن بعضك بعضا الا ان يغفر الله
تعالى ويستر وقال سفيان الثوري ما عالجت شيئا اشد من نفسي مرة لي ومرة علي

وقال الحسن ما الدابة الجموح باحوج الى اللجام الشديد من نفسك وقال يحيى بن معاذ
جاهد النفس باسياف الرياضة والرياضة على اربعة اوجه القوت من الطعام و
الغمض من المنام والحاجة من الكلام وحمل الاذى من جميع الانام فيتولد من قلة الطعام
موت الشهوات ومن قلة المنام صفو الارادات ومن قلة الكلام السلامة من الآفات
ومن احتمال الاذى البلوغ الى الغايات وليس على العبد شيء اشد من الحلم عند الجفا
والصبر على الاذى فاذا تحركت من النفس ارادة الشهوات والآثام وهاجت منها
حلاوة فضول الكلام جردت عليها سيف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام
وضربتها بايدي الخمول وقلة الكلام حتى تنقطع من الظلم والانتقام فتامن من بوايقها
من ساير الايام وتصفيها من ظلمة الشهوات فتنجو من غوايلها فانها تصير عند ذلك
نظيفة ونورية خفيفة روحانية فتجول في ميدان الخيرات وتسير في مسالك الطاعات
كالفرس الفاره في الميدان وكالملك المتنزه في البستان وقال بعض الحكماء من استولت
عليه النفس صار اسيرا في حب شهواتها محصورا في سجن هواها ومنعت قلبه الفوايد
وقال جعفر بن محمد اجمعت العلماء على ان النعيم لا يدرك الا بترك النعيم وقال ابو
يحيى الوراق من ارضى الجوارح بالشهوات فقد غرس في قلبه شجر الندامات
وقال وهب ما زاد على الخبز فهو شهوة وقال وهيب بن الورد من احب شهوات
الدنيا فليتهيا للذل ويروى ان امراة العزيز قالت ليوسف عليه السلام بعد ما ملك
خزاين الارض يا يوسف ان الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيدا وان الصبر و
التقوى صيرا العبيد ملوكا فقال يوسف عم قال الله تعالى انه من يتق ويصبر
فان الله لا يضيع اجر المحسنين وقال علي عليه م من اشتاق الى الجنة سلا عن
الشهوات وكان مالك بن دينار يطوف في السوق فاذا راى الشي يشتهيه قال
لنفسه اصبري فوالله ما امنعك الا من كرامتك علي فاذن قد اتفق العلماء
والحكماء على ان الطريق الى سعادة الاخرة نهي النفس عن الهوى ومخالفة
الشهوات فالايمان بهذا واجب واما علم تفصيل ما يترك من الشهوات
وما لا يترك فلا ينكشف الا بما قدمناه ؛ قال رحمه الله بعد ذكر الحمد والصلوة
في كتاب كسر الشهوتين اما بعد فاعظم المهلكات لابن آدم

شهوة البطن فبها اخرج آدم وحوا من دار القرار الى دار الذل والافتقار اذ نهيا
عن اكل الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى اكلا منها فبدت لهما سوءاتهما والبطن على
التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الآفات اذ يتبعها شهوة الفرج و
شدة الشبق الى المنكوحات ثم يتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة في المال
والجاه اللذين هما الوسيلة الى التوسع في المطعومات والمنكوحات ثم يتبع استكثار
المال والجاه انواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات ثم يتولد منهما
بطر الشبع والامتلاء ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق به مجاري الشيطان
لاذعنت لطاعة الله ولم تسلك سبيل البطر والطغيان ولم ينجر به ذلك الى الانهماك
في الدنيا وايثار العاجلة على العقبى ولم تتكالب كل هذا التكالب على الدنيا واذا
عظمت آفة شهوة البطن الى هذا الحد وجب شرح غوايلها وآفاتها تحذيرا
منها ووجب ايضاح طريق المجاهدة لها والتنبيه على فضلها ترغيبا فيها وكذلك
شرح آفة شهوة الفرج فانها تابعة لها ونحن نوضح ذلك بعون الله في فصول
يجمعها بيان فضيلة الجوع وذم الشبع قال رسول الله صلعم جاهدوا انفسكم بالجوع
والعطش فان الاجر في ذلك كاجر المجاهد في سبيل الله تعم وانه ليس من عمل
احب الى الله تعم من جوع وعطش وقال ابن عباس رضه قال النبي صلعم لا يدخل
ملكوت السماء من ملا بطنه وقيل يا رسول الله اي الناس افضل قال من قل
طعمه وضحكه ويرضى بما يستر به عورته وقال النبي صلعم افضلكم منزلة عند الله
اطولكم جوعا وتفكرا وابغضكم الى الله تعم كل نؤوم اكول شروب وفي الخبر ان
النبي صلعم كان يجوع من غير عوز اي مختارا لذلك وقال صلعم ان الله يباهي الملائكة
بمن قل طعمه في الدنيا يقول انظروا الى عبدي ابتليته بالطعام والشراب فان القلب
كالزرع يموت اذا كثر عليه الماء وقال صلعم ما ملا آدمي وعاء شرا من بطنه حسب
ابن آدم لقيمات يقمن صلبه وان كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث
لنفسه وفي حديث اسامة بن زيد الطويل ذكر فضل الجوع اذ قال فيه ان اقرب الناس
من الله تعم يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه في الدنيا الاخفياء الاتقياء
الذين ان شهدوا لم يعرفوا وان غابوا لم يفتقدوا تعرفهم بقاع الارض وتحف بهم

ملائكة السماء. نعم الناس بالدنيا ونعموا بطاعة الله تعالى افترش الناس الفرش و
افترشوا الجباه والركب ضيع الناس فعل النبيين واخلاقهم وحفظوهم تبكي الارض
لفقدهم ويسخط الله تعالى على كل بلدة ليس فيها منهم لم يتكالبوا على الدنيا تكالب الكلاب
على الجيف اكلوا الفلق ولبسوا الخرق شعثا غبرا يراهم الناس فيظنون ان بهم داء
وما بهم داء ويقال قد خولطوا وذهبت عقولهم وما ذهبت عقولهم ولكن نظر القوم
بقلوبهم الى امر ذهب منهم الدنيا فهم عند اهل الدنيا يمشون بلا عقول عقلوا حين
ذهبت عقول الناس لهم الشرف في الاخرة يا اسامة اذا رايتهم في بلدة فاعلم انهم امان
لتلك البلدة لا يعذب الله تعالى قوما هم فيهم الارض بهم رحيمة والجبار عنهم راض
اتخذهم لنفسك اخوانا عسى ان تنجو بهم وان استطعت ان ياتيك الموت وبطنك
جائع وكبدك ظمآن فافعل فانك تدرك بذلك اشرف المنازل وتحل مع النبيين وتفرح
بقدوم روحك الملائكة ويصلي عليك الجبار. وروى الحسن ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
البسوا الصوف وشمروا وكلوا في انصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء. وقال
عيسى عليه السلام اجيعوا اكبادكم واعروا اجسادكم لعل قلوبكم ترى الله عز وجل. وفي التوراة
مكتوب ان الله ليبغض الحبر السمين لان السمن يدل على الغفلة وكثرة الاكل وذلك
قبيح خصوصا بالحبر ولاجله قال ابن مسعود ان الله يبغض القارئ السمين وفي الخبر ان
الاكل على الشبع يورث البرص وقال النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن ياكل في معاء واحد والكافر ياكل
في سبعة امعاء اي سبعة اضعافه ويكون شهوته سبعة امثال شهوته ويكون المعاء
كناية عن الشهوة وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ادعوا قرع باب الجنة يفتح لكم قيل وكيف نديم
قرع باب الجنة قال بالجوع والظما. وقال ايضا للذي تجشأ في مجلسه اقصر من جشائك فان
اطول الناس جوعا يوم القيمة اكثرهم شبعا في الدنيا. وعن انس قال جاءت فاطمة
بكسرة خبز لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه الكسرة قالت قرص خبزته ولم تطب نفسي حتى اتيتك
بهذه الكسرة فقال اما انه اول طعام دخل فم ابيك منذ ثلاثة ايام. واما الاثار قال
لقمان لابنه يا بني اذا امتلات المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الاعضاء
عن العبادة. وقال ابو سليمان لان اترك لقمة من عشائي احب الي من قيام ليلة الى الصبح. وقال
ايضا الجوع عند الله في خزائنه لا يعطيه الا لمن احبه. وكان سهل التستري يطوي نيفا

نيفا وعشرين يوما لا ياكل وكان يكفيه لطعامه في السنة درهم وكان يعظم الجوع
ويبالغ فيه حتى قال لا يوافي في القيمة عمل بر افضل من ترك فضول الطعام والاقتداء
بالنبي صلى الله عليه وسلم في اكله وقال لم ير الاكياس شيئا انفع من الجوع للدين والدنيا. وقال لا
اعلم شيئا اضر على طلاب الاخرة من الاكل وقال وضع الحكمة والعلم في الجوع وجعل الجهل
والمعصية في الشبع وقال ما عبد الله بشيء افضل من مخالفة الهوى في ترك الحلال وقال
ما صار الابدال ابدالا الا باخماص البطون والصمت والسهر والخلوة وقال اعلموا ان هذا زمان
لا ينال احد فيه النجاة الا بذبح نفسه وقتلها بالجوع والسهر والجهد وقال ما مر على وجه
الارض احد شرب من هذا الماء حتى روي فسلم من المعصية وان شكر الله فكيف الشبع من
الطعام ومكث عيسى عليه السلام يناجي ربه عز وجل ستين صباحا ما لها كل فخطر بباله الخبز فانقطع
عن المناجاة فاذا رغيف موضوع بين يديه فقعد يبكي لفقد المناجاة فاذا شيخ قد اظله
فقال له عيسى عليه السلام بارك الله فيك يا ولي الله ادع الله تعالى لي فاني كنت في حالة فخطر ببالي
الخبز فانقطعت عني فقال الشيخ اللهم ان كان الخبز خطر ببالي منذ عرفتك فلا تغفر لي بل
كان اذا حضر شيء اكله من غير فكر ولا خاطر. بيان فوائد الجوع وآفات الشبع
فذكر الفائدة الثانية وهي رقة القلب وصفاؤه ان خلو المعدة هو السبب الاظهر
في اللذة بالمناجاة. قال ابو سليمان احلى ما اكون العبادة اذا التصق ظهري ببطني
وقال الجنيد يجعل احدهم بينه وبين الله تعالى مخلاة من الطعام ويريد ان يجد حلاوة
المناجاة وقال ابو سليمان القلب اذا جاع وعطش صفا ورق واذا شبع عمي وغلظ فاذن
تاثر القلب بلذة المناجاة امر وراء تيسر الفكر واقتناص المعرفة فهي فائدة ثانية
وذكر رحمه الله في الرابعة وهي ان لا ينسى بلاء الله وعذابه وان العبد الفطن لا يشاهد
بلاء الا ويتذكر بلاء الاخرة فيتذكر من عطشه عطش الخلق في عرصات القيمة ومن جوعه
جوع اهل النار حتى انهم يجوعون فيطعمون الزقوم والضريع ويسقون الغساق والمهل
فلا ينبغي ان يغيب عن العبد عذاب الاخرة والامها فانه الذي يهيج الخوف ومن لم يكن في ذلة
ولا قلة ولا علة ولا بلاء نسي عذاب الاخرة ولم يتمثل في نفسه ولم يغلب على قلبه فينبغي ان
يكون العبد في بلاء او مشاهدة بلاء واولى ما يقاسيه من البلاء بلاء الجوع فان فيه
فوائد جمة سوى تذكر عذاب الاخرة وهذا احد الاسباب الذي اقتضى اختصاص البلاء

بالانبياء والاولياء والامثل فالامثل ومن ذلك قتل ابو يوسف الخ واقل ما يندفع بالجوع شهوة
الفرج وشهوة الكلام فان الجائع لا يتحرك عليه شهوة فضول الكلام فيتخلص من آفات
اللسان كالغيبة والفحش والكذب والنميمة وغيره فيمنعه الجوع من كل ذلك فاذا شبع افتقر
الى فاكهة فيتفكه لا محالة باعراض الناس ولا يكب الناس على مناخرهم الا حصائد السنتهم
واما شهوة الفرج فلا يخفى غائلتها والجوع يكفي شرها واذا شبع الرجل لم يملك فرجه وان
منعته التقوى فلا يملك عينه فالعين تزني كما ان الفرج يزني فان ملك عينه بغض الطرف
التقوى فلا يملك فكره فيخطر له من الافكار الردية وحديث النفس باسباب الشهوة ما يتشوش
به مناجاته وربما عرض له في اثناء الصلاة وانما ذكرنا آفة اللسان والفرج مثالا والا فجميع
معاصي الاعضاء السبعة سببها القوة الحاصلة بالشبع قال حكيم كل مريد صبر على السياسة
فيصبر على الخبز البحت سنة لا يخلط به شيئا من الشهوات ويأكل في نصف بطنه رفع الله عنه
مؤنة النساء ثم فضيلته السادسة لا يخفى حتى في النوم فوائده ومهما غلبه النوم فان تهجد لم يجد
حلاوة العبادة ثم المتهجد المتعزب اذا نام على الشبع احتلم ويمنعه ذلك ايضا من التهجد
ويحوجه الى الغسل اما بالماء البارد فيتأذى به او يحتاج الى الحمام فربما لا يقدر عليه بالليل
فيفوته الوتر ان كان قد اخره للتهجد ثم يحتاج الى مؤنة الحمام وكل ذلك ثمرة الشبع وقد قال
ابو سليمان الاحتلام عقوبة فالنوم منبع الافات والشبع مجلبة له والجوع مقطعة له
كان السلف رحمهم الله لا يعجبون ممن يحتلم كثيرا ومن جملتها ما تعذر بكثرة الاكل الدوام
على الطهارة وملازمة المسجد فانه يحتاج الى الخروج لشرب الماء واراقته ومن جملته الصوم
فانه يتيسر لمن تعود الجوع والصوم ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة وصرف اوقات شغله
بالاكل واسبابه الى العبادة ارباح عظيمة الخ قال ابن سالم من اكل خبز الحنطة بحتا بادب
لم يعتل الا علة الموت قيل له وما الادب قال يأكل بعد الجوع ويرفع قبل الشبع وقال بعض
افاضل الاطباء في ذم الاستكثار ان انفع ما ادخل الانسان معدته الرمان واضر ما ادخل
معدته المالح ولان يقلل من المالح خير من ان يستكثر من الرمان وفي الخبر صوموا
تصحوا ففي الصوم والجوع وتقليل الاكل صحة الاجسام من الاسقام وصحة القلوب من سقم
الطغيان والبطر وغيرهما وكان ابراهيم بن ادهم يسأل اصحابه عن شيء من المأكولات
فيقال له انه غال فيقول ارخصوه بالترك ونظر رسول الله صلعم الى رجل سمين البطن

البطن فأومى الى بطنه باصبعه وقال لو كان هذا في غير هذا لكان خيرا لك اي لقدمته
لاخرتك وآثرت به غيرك وعن الحسن قال والله لقد ادركنا اقواما ان كان الرجل منهم
ليمسي وعنده من الطعام ما يكفيه ولو شاء لاكله فيقول والله لا اجعل هذا كله لبطني
حتى اجعل بعضه لله * قال رحمه الله في بيان الوظيفة الاولى وهي تقليل الطعام والصواب
للمريد ان يقدر مع نفسه القدر الذي لا يضعفه عن العبادة التي بصددها فاذا انتهى اليه
وقف وان بقيت شهوته وعلى تقدير الطعام لا يمكن لانه يختلف بالاحوال والاشخاص
ثم ذكر رحمه الله في بيان وظيفة الاكل وتأخيره وهي الثانية وحكي ان الثوري و
ابراهيم بن ادهم رحمهما الله كانا يطويان ثلثا ثلثا كل ذلك كانوا يستعينون بالجوع
على طريق الآخرة وقال بعض العلماء من طوى اربعين يوما من الطعام ظهرت له قدرة من
الملكوت اي كشف بعض الاسرار الالهية وقد وقف بعض هذه الطائفة على راهب
فذاكره بحاله وطمع في اسلامه وترك ما هو عليه من الغرور فكلمه في ذلك بكلام كثير الى
ان قال له الراهب ان المسيح كان يطوي اربعين يوما وانه معجزة لا تكون الا لنبي او صديق
فقال له الصوفي فان طويت خمسين يوما تترك ما انت عليه وتدخل في دين الاسلام وتعلم
انه حق وانك على باطل قال نعم فقعد لا يبرح الا حيث يراه حتى طوى خمسين يوما فقال
ازيدك ايضا فطوى الى تمام الستين فتعجب الراهب منه وقال ما كنت اظن ان احدا يجاوز
المسيح وكان ذلك سبب اسلامه * واما الدرجة الثالثة ان يقتصر في اليوم والليلة على
اكلة واحدة وهذا هو الاقل وما جاوز ذلك اسراف ومداومة الشبع حتى لا يكون
له حالة جوع وذلك فعل المترفين وهو بعيد من السنة فقد روى ابو سعيد الخدري انه
صلى الله عليه وآله كان اذا تغدى لم يتعش واذا تعشى لم يتغد وكان السلف يأكلون في
كل يوم اكلة واحدة قال صلعم لعائشة اياك والاسراف فان اكلتين في يوم سرف واكلة واحدة
في يومين اقتار واكلة في كل يوم قوام بين ذلك وهو المحمود في كتاب الله ومن اقتصر
في اليوم على اكلة واحدة فيستحب ان يأكلها سحرا قبل طلوع الفجر فيكون اكله بعد التهجد
وقبل الصبح ويحصل له جوع النهار للصيام وجوع الليل للقيام وخلو القلب لفراغ القلب
ورقة الفكر واجتماع الهم وسكون النفس الى المعلوم فلا ينازعه قبل وقته * ثم
ذكر رحمه الله الوظيفة الثالثة في نوع الطعام وترك الادام قال رحمه الله اعلى الطعام

مخ البر فان نخل فهو غاية الترفه واوسطه شعير منخول وادناه شعير لم ينخل واعلى الادم
اللحم والحلاوة وادناه الملح والخل واوسطه المزورات بلا دهن من غير لحم وعادة
سالكي طريق الآخرة الامتناع عن الادام بل الامتناع عن الشهوات فان كل لذيذ يشتهيه
الانسان واكله اقتضى ذلك بطرا في نفسه وقسوة في قلبه وانسا له بلذات الدنيا
حتى يألفها ويكره الموت ولقاء الله تعالى وتصير الدنيا جنة في حقه فيكون الموت سجنا في حقه
واذا منع نفسه شهواتها وضيق عليها وحرمها لذاتها صارت الدنيا سجنا عليه و
واشتهت نفسه الانفلات منها فيكون الموت اطلاقها واليه اشار يحيى بن معاذ حيث
قال معاشر الصديقين جوعوا انفسكم لوليمة الفردوس فان شهوة الطعام على قدر
تجويع النفس وكلما ذكرناه من آفات الشبع فانها تجري في اكل الشهوات وتناول اللذات
فلا نطول باعادته فلذلك يعظم الثواب في ترك الشهوات من المباحات ويعظم الخطر
في تناولها حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شرار امتي الذين يأكلون مخ الحنطة
وهذا ليس بتحريم بل هو مباح على معنى ان من اكله مرة او مرتين لم يعص ومن داوم عليه ايضا
فلا يعصي بتناوله ولكن يتربى نفسه بالنعيم فتأنس بالدنيا وتألف اللذات وتسعى
في طلبها فيجرها ذلك الى المعاصي فهم شرار الامة لان مخ الحنطة يسوقهم الى اقتحام
امور تلك الامور معاصي وقال النبي صلى الله عليه وسلم شرار امتي الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه
اجسادهم وانما همتهم الوان الطعام وانواع اللباس ويتشدقون في الكلام واوحى الله
الى موسى عليه السلام اذكر انك ساكن القبور فليمنعك ذلك عن كثير من الشهوات وقد اشتد
خوف السلف من تناول لذائذ الاطعمة وتمرين النفس عليها ورأوا ان ذلك علامة
الشقاوة ورأوا منع الله تعالى اياهم غاية السعادة وان تيسر اسباب الشهوات من علامة
الخذلان ونحن نذكر كلاما وحكايات تشتمل على رياضات وتشديدات عظيمة لسالكي
طريق الآخرة واهل التقوى الخاصة قال رحمه الله فقد عرفت ان هؤلاء كيف تحرزوا عن اكل
الشهوات وعن الشبع من الاقوات وكان امتناعهم للفوائد التي ذكرناها في بعض الاوقات
لانه كان لا يصفو لهم حلال فلم يرخصوا انفسهم الا في قدر الضرورة والشهوات ليست من الضرورة
قال ابو سليمان الملح شهوة لانه زيادة على الخبز وما وراء الخبز شهوة وهذا هو النهاية
فمن لم يقدر على ذلك فينبغي ان لا يغفل عن نفسه ولا ينهمك في الشهوات فكفى بالمرء اسرافا ان

المتشدقون هم المتوسعون في الكلام من غير احتياط واحتراز

يأكل ما يشتهيه ويفعل كل ما يهواه فينبغي ان لا يواظب على اكل اللحم وقال علي
من ترك اللحم اربعين يوما ساء خلقه ومن داوم عليه اربعين يوما قسا قلبه وقيل
ان للمداومة على اللحم ضراوة كضراوة الخمر ومهما كان جائعا وتاقت نفسه الى الجماع فلا
ينبغي ان يأكل ويجامع فيعطي نفسه شهوتين فتقوى عليه وربما طلبت النفس الاكل
لتنشط في الجماع ويستحب ان لا ينام على الشبع فيجمع بين غفلتين فيعتاد الفتور ويقسو
قلبه لذلك ولكن ليصل او ليجلس فيذكر الله تعالى فانه اقرب الى الشكر وفي الحديث
اذيبوا طعامكم بالصلوة والذكر ولا تناموا عليه فتقسو قلوبكم ومهما اشتهى
شيئا من طيبات الفواكه فينبغي ان يترك الخبز ويأكلها بدلا عنه لتكون قوتا ولا
يكون تفكها ولئلا يجمع للنفس بين عادة وشهوة وعلى الجملة لا سبيل الى اهمال
الشهوات في المباحات واتباعها بكل حال فبقدر ما يستوفي العبد من شهوته
يخشى ان يقال له اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا وبقدر ما يجاهد نفسه في
ترك شهوة يتمتع في الآخرة بشهواته قال بعض عباد اهل البصرة نازعتني نفسي
خبزا رزا وسمكا فمنعتها فقويت مطالبتها فاشتدت مجاهدتي لها عشرين
سنة فلما مات قال بعضهم رأيته في المنام فقلت ما فعل الله بك فقال لا احسن
اصف لك ما تلقاني به ربي عز وجل من النعيم والكرامة وكان اول شيء تلقاني
خبز ارز وسمك فقال كل شهوتك اليوم هنيئا مريئا بغير حساب وقال تعالى كلوا
واشربوا هنيئا بما اسلفتم في الايام الخالية وكانوا قد اسلفوا ترك الشهوات و
لهذا قال ابو سليمان ترك شهوة من شهوات النفس انفع للقلب من صيام سنة و
قيامها ثم ذكر رحمه الله في بيان تعلق افتراق الناس في الشهوات ان الناس
يبتلون بالشهوات والمعاصي ولا يبتلون بالرياء والغش وكلا خفاء بل كان العا
ان تركنا الشهوات لله فيظهر من نفسه الشهوة اسقاطا للمنزلة عن قلوب الخلق
وقد كان بعضهم يشتري الشهوات ثم يعلقها في بيته وهو فيها من الزاهدين و
لكن ينبغي ان تلبيس هذا لا يعرف من نفسه فلو طلب لذا فلينظر حتى لا يشوش عليه حاله
فيها ترك الزهد الزهد في الزهد باظهار ضده وهذا عمل الصديقين فانه جمع
بين صدقين كما ان الاول جمع بين كذبين فهذا حمل على النفس ثقلين وجرعها

كاس الصبر مرتين مرة بشربه ومرة بقذفه فلا جرم اولئك يوتون اجرهم مرتين
بما صبروا وهذا ايضا هي طريق من ياخذ ما يعطى جهرا ويرده سرا ليكسر نفسه
بالذل جهرا وبالفقر سرا فمن فاته هذا فلا ينبغي ان يفوته اظهار شهوته وافتضاحه
والصدق فيه ولا ينبغي ان يغره قول الشيطان بانك اذا اظهرت اقتدى بك
غيرك فاستره اصلاحا لغيرك لانه لو قصد اصلاح غيره لكان اصلاح نفسه اهم من
اصلاح غيره فهو انما يقصد الريا المجرد ويروجه عليه الشيطان في معرض اصلاح غيره
ولذلك يثقل عليه ظهور ذلك منه وان علم ان من اطلع عليه ليس يقتدي به في
الفعل ولا ينزجر باعتقاده انه تارك للشهوات ثم ذكر رحمه الله فائدة شهوة
الفرج ثم قال هذه فائدتها ولكن من الافات ما يهلك الدين والدنيا ان لم
تضبط ولم تقهر ولم ترد الى حد الاعتدال وقد قيل في تفسير قوله تعالى ربنا ولا
تحملنا ما لا طاقة لنا به معناه الغلمة وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ومن شر غاسق
اذا وقب هو قيام الذكر وقد اسنده بعض الرواة الى رسول الله صلى الله عليه وآله
الا انه قال في تفسيره الذكر اذا دخل وقد قيل اذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا دينه
وقيل ذهب ثلثا عقله وكان صلى الله عليه وآله يقول اعوذ بك من شر سمعي وبصري
وقلبي ومنيي وقال النساء حبائل الشيطان ولولا هذه الشهوة لما كان للنساء
سلطنة على الرجال وعن سعيد بن المسيب قال ما بعث الله نبيا فيما خلا الا لم ييأس
ابليس ان يهلكه بالنساء ولا شيء اخوف عندي منهن وما بالمدينة بيت ادخله الا بيتي
وبيت ابنتي اغتسل فيه يوم الجمعة ثم اروح ثم ذكر بيان ما على المريد في ترك التزويج
وفعله اعلم ان من لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ دينه قال عيسى عليه السلام اياكم و
النظرة فانها تزرع في القلب شهوة وكفى بها فتنة وقيل ليحيى بن زكريا ما بدء الزنا
قال النظر والتمني وقال رسول الله صلى الله عليه وآله النظرة سهم من سهام ابليس فمن تركها خوفا
من الله تعالى اعطاه الله تعالى ايمانا يجد حلاوته في قلبه فان آفة النظر الى الاحداث
عظيمة فيها يعجز المريد عن كف نفسه فالصواب له ان يكسر شهوته بالنكاح قال بعضهم غلبت
علي شهوتي في بدو ارادتي بما لم اطق فاكثرت الضجيج الى الله تعالى فرأيت شخصا في
المنام فقال ما لك فشكوت اليه فقال تقدم الي فتقدمت اليه فوضع يده على صدري

الغلمة بالغين شهوة الضراب

صدري فوجدت بردها في فؤادي وجميع جسدي فاصبحت وقد زال ما بي فبقيت
معافى سنة ثم عاودني ذلك فاكثرت الاستغاثة فجاءني شخص في المنام فقال اتحب
ان يذهب ما تجده واضرب عنقك قلت نعم قال مد رقبتك فمددتها فجرد سيفا من
نور وضرب به عنقي فاصبحت وقد زال ما بي فبقيت معافى سنة ثم عاودني ذلك او
اشد منه فرأيت كان شخصا فيما بين صدري وجنبي يخاطبني ويقول ويحك كم تسأل الله رفع ما لا يحب رفعه تزوج
قال فتزوجت فانقطع ذلك عني وولد لي ومهما احتاج الى النكاح فلا ينبغي ان يترك
شرط الارادة في ابتداء النكاح ودوامها اما في ابتدائه فبالنية الحسنة وفي دوامه فبحسن
الخلق وسداد السيرة والقيام بالحقوق الواجبة كما فصلنا جميع ذلك في كتاب النكاح
فلا نطول باعادته وامارة صدق الارادة ان ينكح فقيرة متدينة الخ قال رحمه الله
كل ما اشتغل من التمتع فهو نقصان فلينظر المريد الى حاله وقلبه فان وجده في العزوبة
فهو الاقرب وان عجز فالنكاح اولى به ودواء هذه الشهوات ثلاثة امور الجوع وغض
البصر والاشتغال بشغل يستولي على القلب فان لم ينفع هذه الثلاثة فالنكاح هو الذي
يستاصل مادتها فقط ولهذا كان السلف يبادرون الى النكاح والى تزويج البنات
قال سعيد بن المسيب ما ايس الشيطان من احد الا اتاه من قبل النساء وقال سعيد
وهو ابن اربع وثمانين سنة وقد ذهبت احدى عينيه وهو يعشو بالاخرى ما شيء
اخوف عندي من النساء وعن ابن ابي وداعة قال كنت اجالس سعيد بن المسيب ففقدني
اياما فلما جئته قال اين كنت قلت توفيت اهلي فاشتغلت بها قال الا اخبرتنا فشهدناها
قال ثم اردت ان اقوم فقال الا تستحدث امراة قلت يرحمك الله ومن يزوجني
وما املك الا درهمين او ثلاثة فقال انا فقلت وتفعل هذا قال نعم ثم حمد الله وصلى
على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وزوجني بحضرة من كان على درهمين او قال ثلاثة
قال فقمت وما ادري ما اصنع من الفرح فصرت الى منزلي وجعلت اتفكر
ممن آخذ وممن استدين فصليت المغرب وانصرفت الى منزلي واسرجت وكنت
وحدي وكنت صائما فقدمت عشائي افطر وكان خبزا وزيتا فاذا ببابي يقرع فقلت
من هذا قال سعيد فتفكرت في كل انسان اسمه سعيد الا سعيد بن المسيب فانه لم ير

اربعين سنة الا بين بيته والمسجد فقمت وخرجت فاذا سعيد بن المسيب فظننت انه
قد بدا له فقلت يا ابا محمد الا ارسلت الي فآتيك قال لا انت احق ان تؤتى قلت
فما تامر قال انك كنت رجلا عزبا فتزوجت فكرهت ان ابيتك الليلة وحدك و
هذه امراتك فاذا هي قائمة خلفه في طوله ثم اخذ بيدها فدفعها في الباب ورد الباب
وقال بارك الله لكما ولكما بجمته فانصرف فسقطت المرأة من الحياء فاستوثقت من الباب
ثم تقدمت الى القصعة التي فيها الزيت والخبز فوضعتها في ظل السراج لكي لا تراه ثم صعدت
الى السطح فرميت الجيران فجاؤني فقالوا ما شانك قلت ويحكم زوجني سعيد بن المسيب
ابنته اليوم وقد جاء بها الليلة على غفلة فقالوا سعيد زوجك قلت نعم قالوا وهي
في الدار قلت نعم فنزلوا اليها وبلغ ذلك امي فجاءت وقالت وجهي من وجهك حرام ان
مسستها قبل ان اصلحها الى ثلثة ايام قال فاقمت ثلثا ثم دخلت بها فاذا هي من اجمل
النساء واذا هي احفظ الناس لكتاب الله واعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم واعرفهم بحق الزوج قال
فمكثت شهرا لا ياتيني سعيد ولا آتيه فلما كان قرب الشهر اتيت سعيدا وهو في حلقته
فسلمت عليه فرد علي السلام ولم يكلمني حتى تفرق الناس واهل المجلس فقال ما حال ذلك
الانسان فقلت خيرا يا ابا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو فقال ان رابك شيء
فالعصا فانصرفت الى منزلي فوجه الي بعشرين الف درهم قال عبد الله بن سليمان وكانت
بنت سعيد بن المسيب قد خطبها عبد الملك بن مروان لابنه الوليد بن عبد الملك
حين ولاه العهد فابى سعيد ان يزوجه فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه
مائة سوط في يوم بارد وصب عليه جرة ماء والبسه جبة صوف فاستعجال سعيد
في زفافها في تلك الليلة يعرفك غائلة الشهوة ووجوب المبادرة في الدين الى تطفئة
نارها بالنكاح — ثم ذكر رحمه الله في بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين
حكايات شريفة منها ان سليمان بن يسار كان من اجمل الناس وجها فدخلت
عليه امرأة فسالته نفسه فامتنع عليها وخرج هاربا عن منزله وتركها فيه قال سليمان
فرايت في المنام يوسف عليه السلام فكاني اقول له انت يوسف قال نعم انا يوسف الذي هممت
وانت سليمان الذي لم تهم اشار به الى قوله تعالى ولقد همت به الآية وعنه ايضا
ما هو اعجب منه وهو انه خرج حاجا من المدينة ومعه رفيق له حتى نزلوا بالابواء فقام رفيقه

رفيقه واخذ السفرة وانطلق الى السوق يبتاع شيئا وقعد سليمان في الخيمة وكان
اجمل الناس وجها واورع الناس فبصرت به اعرابية من قلة الجبل فلما رات جماله و
حسنه انحدرت وعليها البرقع والقفازان فجاءت ووقفت بين يديه واسفرت
عن وجهها كانه فلقة قمر فقالت اهنئني فظن انها تريد طعاما فقام الى فضل السفرة
ليعطيها فقالت لست اريد هذا انما اريد ما يكون من الرجل الى اهله فقال جهزك
الى ابليس ثم وضع راسه بين كميه في الخيمة فلم يزل يبكي فلما رات ذلك سدلت
البرقع على وجهها ورجعت الى خيمتها فجاء رفيقه فرآه وقد انتفخت عيناه من البكاء
وانقطع حلقه قال ما يبكيك قال خير ذكرت صبيتي فقال لا الا ان لك قصة انما عهدك
بصبيتك منذ ثلث او نحوها فلم يزل به رفيقه حتى اخبره بشان الاعرابية فوضع السفرة
وجعل يبكي بكاء شديدا فقال له سليمان وانت ما يبكيك قال انا بالبكاء منك لاني
اخشى ان لو كنت مكانك لما صبرت عنها فلم يزالا يبكيان حتى انتهى وقت الفريضة
نهضا للصلوة فلما انتهى سليمان الى مكة فطاف وسعى اتى الحجر واحتبى بثوبه
فاذا رجل وسيم جميل طوال له شارة حسنة ورائحة طيبة فقال له سليمان
من انت رحمك الله قال انا يوسف قال يوسف الصديق قال نعم فقال ان في شانك
وشان امرأة العزيز لشانا عجيبا فقال له يوسف شانك وشان صاحبة الابواء
اعجب • وهو الرابع من حسن المحاكات • قال رحمه الله في كتاب آفات اللسان
بعد الحمد والصلوة فان اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة فانه
صغير جرمه عظيم طاعته وجرمه اذ لا يستبين الكفر والايمان الا بشهادة اللسان وهما
غاية الطاعة والطغيان ثم انه ما من موجود ومعدوم خالق او مخلوق متخيل او
معلوم مظنون او موهوم الا واللسان يتناوله ويتعرض له باثبات او نفي فان كل
ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان اما بحق او باطل ولا شيء الا والعلم متناول له
وهذه خاصية لا توجد في سائر الاعضاء فان العين لا تصل الى غير الالوان والصور
والاذن لا تصل الى غير الاصوات واليد لا تصل الى غير الاجسام وكذا سائر الاعضاء و
اللسان رحب الميدان ليس له مرد ولا لمجاله منتهى وحد فله في الخير مجال رحب وله
في الشر ذيل سحب فمن اطلق عذبة اللسان واهمله مرخى العنان سلك به الشيطان في كل

سيلان مسافة الى شفا جرف هار الى ان يضطره الى البوار ولا يكب الناس في النار على مناخرهم
الا حصائد السنتهم ولا ينجي من شر اللسان الا ان يقيد بلجام الشرع ولا يطلق الا
فيما ينفع في الدنيا والاخرة ويكف عن كل ما يخشى ان يلتبس ما جله وعاجله وعلم ما
يحمد فيه اطلاق اللسان او يذم غامض عزيز والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل
عسير واعصى الاعضاء على الانسان اللسان فانه لا تعب في تحريكه ولا مؤنة في اطلاقه
وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن افاته وغوائله والحذر من مصائده وحبائله
وانه اعظم آلة الشيطان في استغواء الانسان ونحن بتوفيق الله وحسن تيسيره نفصل
مجامع آفات اللسان ونذكرها واحدة واحدة بحدها واسبابها وغوائلها ونعرف
تعريف طريق الاحتراز منها ونورد ما ورد من الاخبار والآثار في ذمها بيان
عظم خطر اللسان وفضيلة الصمت اعلم ان خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطره
الا بالصمت فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه وقال عقبة بن عامر قلت
يا رسول الله ما النجاة قال املك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك
وقد سئل عن رسول الله صلعم عن اكثر ما يدخل الجنة قال تقوى الله وحسن الخلق وسئل
عن اكثر ما يدخل النار فقال الاجوفان الفم والفرج فيحتمل ان يكون المراد بالفم
آفة اللسان لانه محله ويحتمل ان يكون المراد البطن لانه منفذه قال معاذ قلت يا رسول
الله انؤاخذ بما نقول فقال ثكلتك امك يا ابن جبل وهل يكب الناس على منا
خرهم الا حصائد السنتهم وقال عبد الله الثقفي قلت يا رسول الله ما اخوف ما تخاف
علي فاخذ بلسانه ثم قال هذا وقال انس بن مالك قال رسول الله صلعم لا يستقيم ايمان
عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ولا يدخل الجنة رجل لا
يأمن جاره بوائقه وقال صلعم من سره ان يسلم فليلزم الصمت وقال صلعم اذا اصبح ابن
آدم اصبحت الاعضاء كلها تكفر اللسان اي تقول اتق الله فينا فانك ان استقمت
استقمنا وان اعوججت اعوججنا المصنف ذلك ذكره رحمه الله وروي ان معاذ
بن جبل قال يا رسول الله صلعم اوصني فقال اعبد الله كانك تراه واعدد نفسك
في الموتى وان شئت انبأتك بما هو املك لك من هذا كله واشار بيده الى لسانه
وذكر رحمه الله من الآثار امثال ذلك كثيرا ثم ذكر الافات وفي الاولى منها فهو الكلام

الكلام فيما لا يعنيك اخبار قال انس استشهد غلام منا يوم احد فوجد على
بطنه صخرة مربوطة من الجوع فمسحت امه التراب عن وجهه وقالت هنيئا لك الجنة
يا بني فقال النبي صلعم وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره وفي
قال ابو ذر قال لي رسول الله صلعم الا اعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان
قلت بلى يا رسول الله فقال هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعنيك وقيل
للقمان الحكيم ما حكمتك قال لا اسال عما كفيت ولا اتكلف ما لا يعنيني ثم قال رحمه الله
وحد ما لا يعنيك ان تتكلم بما لو سكت عنه لم تأثم ولم تتضرر في حال ولا مآل
واذا بالغت في الاجتهاد حتى لم تمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان ولا تزكية
نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الاحوال العظيمة ولا اغتياب لشخص ولا مذمة
لشيء مما خلقه الله فانت مع ذلك كله مضيع زمانك وان تسلم من الافات التي
ذكرناها ومن جملته ان تسأل غيرك عما لا يعنيك فانت بالسؤال مضيع وقتك
وقد الجأت صاحبك ايضا بالجواب الى التضييع هذا اذا كان الشيء مما لا يتطرق
الى السؤال عنه آفة واكثر الاسؤلة فيها آفات فانك تسأل غيرك مثلا عن عبادته
فتقول هل انت صائم فان قال نعم كان مظهرا لعبادته فيدخل عليه الرياء وان لم يدخل
سقطت من ديوان السر وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات وان قال لا
كان كاذبا وان سكت كان مستحقرا اياك وتأذيت به وان احتال لمدافعة الجواب
افتقر الى جهد وتعب فيه وكذلك تسأل عما لا حاجة بك اليها والسؤال
ربما لا تسمح نفسه بان يقول لا ادري فيجيب عن غير بصيرة ولست اعني بالتكلم بما
لا يعني هذه الاجناس فان هذا يتطرق اليها اثم او ضرر وانما مثال ما لا
يعني ما روي ان لقمان عليه السلام دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعا ولم
يكن رآها قبل ذلك فجعل يتعجب مما رأى فاراد ان يسأله عن ذلك فمنعته
الحكمة فامسك نفسه فلم يسأله فلما فرغ قام داود ولبسها ثم قال نعم الدرع للحرب
فقال لقمان الصمت حكم وقليل فاعله ونقل رحمه الله هذا الكلام نفسه وفي
ونسبه الى رسول الله صلعم وفسره هناك بقوله اي حكمة وحكم اي يحصل العلم
من غير سؤال واستغنى عن السؤال وقيل انه تردد اليه سنة وهو يريد ان يعلم

ذلك ولم يبال منه ثم ذكر رحمه الله في الآفة الثانية اعني فضول الكلام ايضا
قال عطا بن ابي رباح ان من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا
يعدون فضول الكلام ما عدا كلام الله تعالى او سنة رسول الله صلعم او امرا بمعروف
او نهيا عن منكر او نطقا بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها اتنكرون
ان عليكم لحافظين كراما كاتبين وعن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول
الا لديه رقيب عتيد اما يستحيي احدكم ان لو نشرت صحيفته التي املى صدر نهاره
وكان اكثر ما فيها ليس من امر دينه ولا دنياه وعن بعض الصحابة قال ان الرجل
ليكلمني بالكلام لجوابه اشهى الي من الماء البارد الى الظمآن فاترك جوابه خيفة ان يكون
فضلا واعلم ان فضول الكلام لا تنحصر بل المهم محصور في كتاب الله تعالى قال الله تعالى
لا خير في كثير من نجواهم الا من امر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس وقال
رسول الله صلعم طوبى لمن امسك الفضل من لسانه وانفق الفضل من ماله فانظر كيف
قلب الناس الامر في ذلك فامسكوا فضل المال واطلقوا فضل اللسان وعن مطرف
بن عبد الله عن ابيه قال قدمت على رسول الله صلعم في رهط من بني عامر فقالوا انت
والدنا وانت سيدنا وانت افضلنا علينا فضلا وانت اطولنا علينا طولا وانت الجفنة
الغراء وانت وانت فقال قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان اشارة الى ان اللسان
اذا اطلق في الثناء ولو بالصدق فيخشى ان يستهويه الشيطان الى الزيادة المستغنى عنها
وقال يزيد بن ابي حبيب من فتنة العالم ان يكون الكلام احب اليه من الاستماع وان
وجد من يكفيه وان في الاستماع سلامة وفي الكلام تزيينا وزيادة ونقصانا وقال
ابراهيم يهلك الناس في خصلتين فضول المال وفضول الكلام وسبب الباعث عليه في
علاجه ما سبق في الكلام فيما لا يعني الآفة الثالثة الخوض في الباطل وهو الكلام في
المعاصي كحكاية احوال مخالطة النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الاغنياء
وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة واحوالهم المكروهة فان كل ذلك مما لا يحل الخوض
فيه وهو حرام واكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكه
اعراض الناس او الخوض في الباطل وانواع هذا الجنس تقع من الكلمات ما يهلك صاحبها
وهو يستحقرها وقد قال بلال بن الحرث قال رسول الله صلعم ان الرجل ليتكلم بالكلمة من

من رضوان الله ما يظن ان يبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها رضوانه الى يوم القيمة
وان الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن انه يبلغ به ما بلغت فيكتب الله تعالى
بها سخطه الى يوم القيمة قال وكان علقمة يقول كم من كلام قد منعنيه حديث بلال
بن الحرث وقال النبي صلعم ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوي بها ابعد من
الثريا وقال سلمان ان اكثر الناس ذنوبا يوم القيمة اكثرهم كلاما في معصية الله تعالى وقال
بن سيرين كان رجل من الانصار يمر بمجلس لهم فيقول توضؤوا فان بعض ما تقولون
شر من الحدث فهذا هو الخوض في الباطل وهو وراء ما سيأتي من الغيبة والنميمة والفحش
وغيره بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها او تدبير للتوصل اليها من غير
حاجة دينية الى ذكرها ويدخل فيه ايضا الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة
وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن في بعضهم وكل ذلك باطل
الآفة الرابعة المراء والمجادلة وذلك منهي عنه قال صلى الله عليه وآله من ترك المراء وهو
محق بني له بيت في اعلى الجنة ومن ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة وقال
مالك بن انس المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن وقال بلال بن سعد اذا رأيت الرجل لجوجا
مماريا معجبا برأيه فقد تمت خسارته وقال عيسى عم من كثر كذبه ذهب جماله ومن لاحى
الرجال سقطت مروءته ومن كثر همه سقم جسمه ومن ساء خلقه عذب نفسه وقال
صلى الله عليه وآله تكفير كل لحاء ركعتين وحد المراء هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار
خلل فيه اما في اللفظ واما في المعنى واما في قصد المتكلم وترك المراء بترك الاعتراض و
الانكار فكل كلام سمعته فان كان حقا فصدق به وان كان باطلا ولم يكن متعلقا با
الدين فاسكت عنه والطعن في كلام الغير تارة تكون في لفظه باظهار خلل من جهة
النحو ومن جهة اللغة او من جهة العربية او من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم و
تاخير وذلك تارة يكون من قصور المعرفة وتارة يكون لطغيان اللسان
كيف ما كان فلا وجه لاظهار خلله واما في المعنى بان يقول ليس كما تقول وقد ا
خطأت فيه من كذا وكذا واما في قصده مثل ان يقول هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه
الحق وانما انت فيه صاحب غرض وما يجري مجراه وهذا الجنس ان جرى في مسئلة
علمية ربما خص باسم الجدل وهو ايضا مذموم بل الواجب السكوت او السؤال في معرض

الاستفادة لا على صيغة العناد والنكاية او ان تلطف في التعريف لا معرض الطعن
واما المجادلة فعبارة عن قصد افحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته
الى القصور والجهل فيه وآية ذلك ان يكون تنبهه للحق من جهة خصمه مكروها عنده
بل يحب ان يكون هو المظهر له خطأه ليبين به فضل نفسه ونقصان صاحبه ولا نجاة من
هذا الا بالسكوت عن كل ما لم يأثم به لو سكت واما الباعث على هذا فهو الترفع باظهار
الفضل والتهجم على الغير باظهار نقصه وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها اما
اظهار الفضل فهو من قبيل تزكية النفس وهي من مقتضى ما في العبد من طغيان دعوى العلو
والكبرياء وهي من صفات الربوبية واما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية فانه
يقتضي ان يمزق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان
واما علاجهما فان يكسر الكبر والسبعية فان علاج كل علة باماطة سببها وسببهما ما
ذكرناه ثم المواظبة عليه بتحصيله عادة وطبعا حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه واكثر
ما يغلب ذلك في المذاهب والعقائد فان المراء طبع فاذا ظن ان له عليه ثوابا اشتد
عليه حرصه وتعاون الطبع والشرع وذلك خطأ محض وكل من تعود المجادلة مدة
واثنى الناس عليه ووجد لنفسه بسببه عزا وقبولا قويت فيه هذه المهلكات فلا يستطيع
عنها نزوعا اذا اجتمع عليه سلطان الكبر والغضب والرياء وحب الجاه والتعزز بالفضل
الآفة الخامسة الخصومة وهي لجاج في الكلام ليستوفى به مال او حق مقصود
وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضا والمراء لا يكون الا باعتراض على
كلام سبق فقد قالت عائشة قال رسول الله صلعم ان ابغض الرجال الى الله
عز وجل الالد الخصم وقال صلعم من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع
ثم قال رحمه الله واما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد واسراف
وزيادة لجاج على الحاجة ومن غير قصد عناد وايذاء ففعله ليس بحرام ولكن الاولى
تركه ما وجد اليه سبيلا فان ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر فينبغي
ان لا يفتح بابها الا لضرورة وعند الضرورة ينبغي ان يحفظ اللسان والقلب عن تبعات
الخصومة وذلك متعذر جدا وروي ان عيسى عليه السلام مر به خنزير فقال له مر بسلام فقيل
يا روح الله تقول هذا لخنزير فقال اكره ان اعود لساني الشر وقال نبينا عليه السلام الكلمة الطيبة

الطيبة صدقة وقال اتقوا النار ولو بشق تمرة فان لم يكن فبكلمة طيبة وقال بعض الحكماء
الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح فهذا كله في فضل الكلام اللين وضده
الخصومة والمراء واللجاج والجدال فانها الكلام المستكره الموحش المؤذي للقلب المنغص
للعيش المهيج للغضب الموغر للصدر الآفة السادسة التقعر في الكلام بالتشدق
قال صلعم ان ابغضكم الي وابعدكم مني مجلسا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون ويدخل
فيه كل سجع متكلف وكذلك التفاصح الخارج عن العادة بل ينبغي ان يقتصر في كل شيء
على مقصوده ومقصود الكلام التفهيم للغرض فما وراء ذلك تصنع مذموم ولا يدخل
في هذا تحسين الفاظ الخطابة والتذكير من غير افراط واغراب لان المقصود منها
تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها ولرشاقة اللفظ تاثير فيه فهو لائق به
اذ قضى رسول الله صلعم بغرة في الجنين فقال بعض قوم الجاني كيف ندي من لا شرب ولا
اكل ولا صاح ولا استهل ومثل ذلك يطل فقال صلعم اسجعا كسجع الاعراب وانكر ذلك
لان اثر التكلف والتصنع بين عليه الآفة السابعة الفحش والسب وبذاءة اللسان
قال رسول الله صلعم اياكم والفحش فان الله لا يحب الفحش ولا التفحش وقال صلعم ليس المؤمن
بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي وقال ابراهيم بن ميسرة يجاء بالفاحش
المتفحش يوم القيمة في صورة كلب او في جوف كلب والباعث على الفحش اما قصد
الايذاء واما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق واهل الخبث واللؤم ومن عادتهم
السب قال عليه السلام سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر وقال صلعم ملعون من سب والديه وفي
لفظ من اكبر الكبائر ان يسب الرجل والديه قالوا يا رسول الله كيف يسب والديه
قال يسب الرجل فيسب اباه ويسب الآخر اباه الثامنة اللعن اما لحيوان او لجماد
او انسان وكل ذلك مذموم فذكر رحمه الله لكل منها اخبارا كثيرة وعن عائشة قالت سمع
رسول الله صلعم ابا بكر وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت اليه فقال يا ابا بكر اللعانين
وصديقين كلا ورب الكعبة اللعانين وصديقين كلا ورب الكعبة مرتين او ثلاثا
فاعتق ابو بكر يومئذ بعض رقيقه وجاء الى النبي صلعم فقال لا اعود وقال صلعم ان
اللعانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيمة وقال انس كان رجل مع رسول الله صلعم
يسير على بعير فلعن بعيره فقال النبي صلعم يا عبد الله لا تسر معنا على بعير ملعون وقال

[illegible]

ذلك الكاذ واللعن عبارة عن الطرد والابعاد من الله وذلك غير جائز الا على من يتصف
بصفة تبعده من الله وهو الكفر والظلم بان يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين
وينبغي ان يتبع فيه لفظ الشرع فان في اللعنة خطرا لانه حكم على الله بانه قد ابعد الملعون
وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله ويطلع عليه رسوله اذا اطلعه الله والصفات المقتضية
للعن ثلثة الكفر والبدعة والفسق وللعن في كل واحد ثلث مراتب وكل ذلك جائز
التاسعة الغنا والشعر وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغنا وما يحل
اما الشعر فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح الا ان التجرد له مذموم قالت عائشة كان
رسول الله صلعم يخصف نعله وكنت اغزل قالت فنظرت الى رسول الله صلعم فجعل
جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا قالت فبهت فنظر الي فقال ما لك بهت فقلت
يا رسول الله صلعم نظرت اليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نورا ولو راك
ابو كبير الهذلي لعلم انك احق بشعره قال يا عائشة ابو كبير الهذلي فقلت يقول
ومبرء من كل غبر حيضة وفساد مرضعة وداء معضل واذا نظرت الى اسرة
وجهه برقت كبرق العارض المتهلل قالت فوضع رسول الله صلعم ما كان في
يده وقام الي وقبل ما بين عيني وقال جزاك الله يا عائشة خيرا ما سررت مني
كسروري منك وانشد رحمه الله ابياتا اخرى تدل على تنفره عن الشعر العاشرة
المزاح واصله مذموم منهي الا قدرا يسيرا يستثنى منه واما الافراط منه فيورث
كثرة الضحك وهي تميت القلب قال بعض الصحابة من كثر ضحكه قلت هيبته ومن
مزح استخف به ومن اكثر من شيء عرف به ومن كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر
سقطه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه ولان
الضحك يدل على الغفلة من الاخرة قال رسول الله صلعم لو علمتم ما اعلم لبكيتم كثيرا
ولضحكتم قليلا وقال رجل لاخيه هل اتاك انك وارد النار قال نعم قال فهل
اتاك انك خارج منها قال لا قال ففيم الضحك قال فما رئي ضاحكا حتى مات
وكان عبد الله بن ابي يعلى يقول الضحك ولعل اكفانك قد خرجت من عند
القصار وقال ابن عباس رضي الله عنه من اذنب ذنبا وهو يضحك دخل النار
وهو يبكي والمحمود التبسم الذي ينكشف فيه السن ولا يسمع الصوت كذلك كان

كان ضحك رسول الله صلعم فان قلت فقد نقل المزاح عن رسول الله صلعم واصحابه فكيف ينهى
عنه فنقول ان قدرت على ما قدر عليه رسول الله صلعم وهو ان تمزح ولا تقول الا
حقا ولا تؤذي قلبا ولا تفرط فيه وتقتصر عليه احيانا نادرا فلا حرج عليك
فيه وقال عطا ان رجلا سال ابن عباس عن مزاح رسول الله صلعم فقال انه كسا ذات
يوم امراة من نسائه ثوبا واسعا فقال لها البسيه واحمدي الله وجري منه
ذيلا كذيل العروس وقالت عائشة خرجنا مع رسول الله صلعم في غزوة بدر فقال
رسول الله صلعم تعالي حتى اسابقك فشددت درعي على بطني ثم خططنا خطا
فقمنا عليه فاستبقنا فسبقني فقال هذه مكان ذي المجاز وكان جاء يوما ونحن
بذي المجاز وانا جارية قد بعثني ابي بشيء فقال اعطنيه فابيت وسعيت على
اثري فلم يدركني وروي ان الضحاك بن سفيان الكلابي كان رجلا دميما قبيحا
فلما بايعه رسول الله صلعم ثم قال لرسول الله صلعم ان عندي امراتان احسن من هذه
الحميراء افلا انزل لك عن احداهما فتتزوجها وعائشة جالسة تسمع قبل ان يضرب
الحجاب فقالت اهي احسن ام انت فقال بل انا احسن منها واكرم فضحك رسول الله صلعم من
مسالة عائشة اياه لانه كان دميما وقال رسول الله صلعم لصهيب وبه رمد تاكل التمر
وانت رمد فقال انما اكل بالشق الاخر فتبسم رسول الله صلعم قال بعض الرواة
حتى نظرت الى نواجذه وروي ان خوات بن جبير كان جالسا الى نسوة من بني كعب
بمكة فطلع عليه رسول الله صلعم فقال يا ابا عبد الله ما لك مع النسوة فقال يفتلن ضفيرا
لجمل لي شرود قال فمضى رسول الله صلعم لحاجته ثم طلع فقال يا ابا عبد الله اما ترك ذلك
الجمل الشراد بعد قال فسكت واستحييت قال فكنت بعد ذلك اتفرر منه كلما رايته
حياء منه حتى قدمت المدينة وبعدما قدمت المدينة حتى طلع علي يوما وانا اصلي
في المسجد فجلس الي فطولت الصلوة فقال لا تطول فاني انتظرك فلما فرغت قال
يا ابا عبد الله اما ترك ذلك الجمل الشراد بعد قال فسكت واستحييت فقام وكنت
اتفرر منه حتى لقيني وهو على حمار وقد جعل رجليه من شق واحد فقال يا ابا عبد الله
اما ترك الجمل الشراد بعد قال قلت والذي بعثك نبيا ما شرد منذ اسلمت قال الله اكبر
الله اكبر اللهم اهد ابا عبد الله قال فحسن اسلامه وهداه الله وكان نعيمان الانصاري

رجلا مزاحا وكان يشرب فيؤتى به الى النبي صلعم فيضربه بنعليه ويأمر اصحابه فيضربونه
بنعالهم فلما كثر ذلك منه قال له رجل من الاصحاب لعنك الله فقال النبي صلعم لا تفعل
فانه يحب الله ورسوله قال وكان لا يدخل المدينة عسل ولا طرفة الا اشترى منها ثم
جاء به الى النبي صلعم فيقول هذه اهديته لك فاذا جاء صاحبه يطلب نعيمان بثمنه
جاء به الى النبي صلعم فقال يا رسول الله اعط هذا من متاعه فيقول رسول الله صلعم او لم
تهده لنا فيقول يا رسول الله انه لم يكن والله عندي ثمنه واحببت ان تأكله فيضحك رسول الله صلعم ويأمر لصاحبه بثمنه فهذه مطايبات
يباح مثلها على الندور لا على الدوام والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك
المميت للقلب الحادية عشر السخرية والاستهزاء وهذا محرم مهما كان مؤذيا قال
ابن عباس في قوله تعالى يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها
الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن والكبيرة القهقهة بذلك وهذا اشارة الى ان الضحك
على الناس من الجرائم والذنوب وقال صلعم ان المستهزئ بالناس يفتح لاحدهم باب من الجنة
فيقال هلم هلم فيجيء بكربه وغمه فاذا جاء اغلق دونه ثم يفتح له باب آخر فيقال هلم
هلم فيجيء بكربه وغمه فاذا اتاه اغلق دونه فما يزال كذلك حتى ان ليفتح له الباب فيقال
هلم هلم فما يأتيه وقال معاذ بن جبل قال رسول الله صلعم من عير اخاه بذنب قد تاب منه
لم يمت حتى يعمله وكل هذا يرجع الى استحقار الغير والضحك عليه استهانة به واستصغارا
له وعليه نبه قوله تعالى عسى ان يكونوا خيرا منهم الثانية عشر افشاء السر وهو منهي عنه
قال رسول الله صلعم اذا حدث الرجل حديثا ثم التفت فهي امانة فافشاء السر خيانة وهو حرام
اذا كان فيه اضرار ولؤم الثالثة عشر الوعد الكاذب فان اللسان سباق الى الوعد
ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفا وذلك من امارات النفاق الخ ولما
حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال انه كان خطب الي ابنتي رجل من قريش وقد كان
مني اليه شبه الوعد فوالله لا القى الله بثلث النفاق اشهدوا اني قد زوجته ابنتي
فلانة وكان رسول الله صلعم اذا وعد وعدا قال عسى وكان ابن مسعود لا يعد وعدا الا
ويقول ان شاء الله وهو الاولى فان كان عند الوعد عازما على ان لا يفي فهذا هو
النفاق ولا ينبغي ان يجعل نفسه مضطرا من غير ضرورة حاضرة اليه قال النبي صلعم ليس

ليس الخلف ان يعد الرجل الرجل ومن نيته ان يفي وفي لفظ آخر اذا وعد الرجل اخاه
وفي نيته ان يفي فلم يجد فلا اثم عليه الرابعة عشر الكذب في القول واليمين وهو
من قبائح الذنوب وفواحش العيوب قال رسول الله صلعم الكذب باب من ابواب
النفاق وقال النبي صلعم ان التجار هم الفجار فقيل يا رسول الله اليس قد احل الله البيع
قال نعم ولكنهم يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون وعن عبد الله بن جراد انه سال
رسول الله صلعم فقال يا نبي الله هل يزني المؤمن قال قد يكون ذلك قال يا نبي الله هل
يكذب المؤمن قال لا ثم اتبعها رسول الله صلعم انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون
وقال الحسن يا بني اياك والكذب فانه شيء كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه
وقال علي عليه السلام اعظم الخطايا عند الله عز وجل اللسان الكذوب وشر الندامة ندامة
يوم القيامة وعن ميمون بن ابي شبيب قال قعدت اكتب كتابا فمررت بحرف
ان انا كتبته زينت الكتاب وكنت قد كذبت فعزمت على تركه فنوديت من جانب
البيت يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحيوة الدنيا وفي الآخرة ثم قال رحمه الله
بعد ذكر بيان ما رخص فيه من الكذب والذي يدل على الاستثناء ما روي عن ام
كلثوم قالت ما سمعت رسول الله صلعم يرخص في شيء من الكذب الا في ثلث الرجل يقول القول
يريد به الاصلاح والرجل يقول القول في الحرب والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث
زوجها وقال صلعم ليس بكذاب من اصلح بين اثنين فقال خيرا وعن ابي كاهل
قال وقع بين رجلين من اصحاب النبي صلعم كلام حتى تصارما فلقيت احدهما فقلت
مالك ولفلان فقد سمعته يحسن عليك الثناء ولقيت الآخر فقلت مثل ذلك حتى
اصطلحا قلت اهلكت نفسي واصلحت بين الرجلين فاخبرت النبي صلعم فقال يا ابا
كاهل اصلح بين الناس ولو بعين الكذب وقال رسول الله صلعم ما لي اراكم تتهافتون
في الكذب تهافت الفراش في النار كل الكذب مكتوب كذبا لا محالة الا ان يكذب
الرجل في الحرب فان الحرب خدعة او يكون بين رجلين شحناء فيصلح بينهما او يحدث
امرأته يرضيها وقال صلعم من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله تعالى
وذلك لان اظهار الفاحشة فاحشة اخرى فللرجل ان يحفظ دمه وماله الذي
يؤخذ ظلما وعرضه بلسانه وان كان كاذبا واما عرض غيره فبان يسأل عن سر اخيه

فلو ان تكذب ولاجل غرض دون المراتب المقاصد ينبغي ان يحترز الانسان من الكذب
ما امكنه وكذلك مهما كانت الحاجة له فيستحب له ان يترك اغراضه ويهجر الكذب فاما
اذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة بحق الغير والاضرار به واكثر كذب الناس انما
هو لحظوظ انفسهم حتى ان المراة لتحكي عن زوجها ما تتفاخر به وتكذب لاجل مراغمة
الضرات وذلك حرام قالت اسماء سمعت امراة تسال رسول الله صلعم قالت ان لي ضرة
وانا اكثر من زوجي بما لم يفعل اضارها بذلك فهل علي شي قال عليه السلام المتشبع
بما لم يعط كلابس ثوبي زور وفي رواية اخرى من تطعم بما لم يطعم وقال لي وليس لي
واعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبي زور يوم القيمة ويدخل في هذا فتوى العالم
بما لا يتحققه ورواية الحديث الذي لم يثبت فيما غرضه ان يظهر فضل نفسه فهو لذلك
يستنكف من ان يقول لا ادري وهذا حرام ثم ذكر رحمه الله في بيان الحذر من الكذب
بالمعاريض امثلة كثيرة منها كان الشعبي اذا طلب في البيت وهو يكرهه خط دائرة
ويقول للجارية ضعي الاصبع فيها وقولي ليس ها هنا وهذا كله في موضع الحاجة فاما
في غيره فلا لان هذا تفهيم للكذب وان لم اللفظ كذبا فهو مكروه على الجملة والتعريض
فان كان مرويا عن ابن عباس وغيره لكن انما ارادوا ذلك اذا اضطر الانسان
الى الكذب فاما اذا لم يكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعا لكن
التعريض اهون وقد كان اهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب قال
الليث بن سعد كانت ترمص عينا سعيد بن المسيب حتى يبلغ الرمص خارج عينيه
فيقال له لو مسحت هذا الرمص فيقول فاين قول الطبيب وهو يقول لي لا تمس عينك
فاقول لا افعل وهذه مراقبة اهل الورع ومن تركها انسل لسانه عن اختياره
فيكذب ولا يشعر وربما يكذب في حكاية المنام والاثم فيه عظيم قال رسول الله صلعم
ان من اعظم الفرى ان يدعى الرجل الى غير ابيه او يرى عينيه ما لم تريا او يقول علي
ما لم اقل وقال صلعم من كذب في حلمه كلف يوم القيمة ان يعقد شعيرة

الآفة العاشرة

الغيبة وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه وقال صلعم كل المسلم على المسلم حرام
دمه وماله وعرضه والغيبة تناول العرض وقد جمع الله تعالى بينه وبين الدم
والمال وقال البرا خطبنا رسول الله صلعم حتى اسمع العواتق في بيوتهن فقال

يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا
عوراتهم فان من يتبع عورات اخيه يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه
ولو في جوف بيته وقال جابر كنا مع رسول الله صلعم في مسير فاتى على قبرين يعذب
صاحبهما فقال اما انهما يعذبان وما يعذبان في كبير اما احدهما فكان يغتاب
الناس واما الآخر فكان لا يتنزه من بوله او قال يمشي بالنميمة ودعا بجريدة رطبة او
جريدتين فكسرهما ثم امر بكل كسرة فغرست على قبر فقال صلعم اما انه سيهون
من عذابهما ما كانتا رطبتين او ما لم ييبسا وقال صلعم من اكل لحم اخيه في الدنيا
قرب اليه لحمه في الآخرة فقيل له كله ميتا كما اكلته حيا فياكله ويضج ويكلح و
قال ابن عباس اذا اردت ان تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك وقيل يبصر
احدكم القذى في عين اخيه ولا يبصر الجذع في عين نفسه وكان الحسن يقول يا ابن
آدم انك لن تصيب حقيقة الايمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك وحتى
تبدا باصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك فاذا فعلت ذلك كان شغلك في
خاصة نفسك واحب العباد الى الله من كان هكذا وقال مالك بن دينار مر
عيسى عم والحواريون على جيفة كلب فقال الحواريون ما انتن ريح هذا فقال عيسى
ما اشد بياض اسنانه كانه ينهاهم عن غيبة الكلب وينبههم على انه لا يذكر شي من خلق
الله الا احسنه وسمع علي بن الحسين رجلا يغتاب آخر فقال اياك والغيبة فانها
ادام كلاب الناس ثم قال رحمه الله في بيان معنى الغيبة وحدها اما الغيبة في
البدن فذكر العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة وجميع
ما يتصور ان يوصف به مما يكرهه واما في النسب فان يقول ابوه نبطي او هندي
او فاسق او خسيس او اسكاف او زبال او شي مما يكرهه كيف كان واما في الخلق
فان يقول انه سيء الخلق بخيل متكبر مراء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب
متهور وما يجري مجراه واما في افعاله المتعلقة بالدين كقولك سارق وكذاب و
شارب وخائن وظالم ومتهاون بالصلاة والزكاة ولا يحسن الركوع والسجود ولا
يحترز عن النجاسات وليس بارا بوالديه ولا يضع الزكاة مواضعها ولا يحسن قسمتها
ولا يحرس صومه من الرفث والغيبة والتعرض لاعراض الناس واما فعله المتعلق

بالدنيا كقولك انه قليل الادب متهاون بالناس ولا يرى لاحد حقا على نفسه ويرى
لنفسه حقا على الغير حقا وانه كثير الكلام كثير الاكل وانه نئوم وينام في غير وقته
ويجلس في غير موضعه واما في ثوبه فانه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب كبير
العمامة واما الدين فقد قال قوم لا غيبة في الدين لانه ذم ما ذمه الله تعالى فذكره
بالمعاصي وذمه يجوز بدليل ما روي انه ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم امراة وكثرة صومها
وصلاتها لكنها تؤذي جيرانها فقال هي في النار وهذا فاسد لانهم كانوا يذكرون
ذلك لحاجتهم الى تعرف الاحوال والاحكام بالسؤال فلم يكن غرضهم التنقيص والدليل
عليه اجماع الامة ان من ذكر غيره بما يكره فهو مغتاب عاص لربه واكل لحم اخيه
بدليل ما روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هل تدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله
اعلم قال ان تذكر اخاك بما يكره قيل ارايت ان كان في اخي ما اقول قال ان كان
فيه ما تقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه فقد بهته ثم قال في بيان ان الغيبة لا
تقتصر على اللسان ومن ذلك المحاكاة بان يمشي متعارجا او كما يمشي فهو غيبة
بل هو اشد من الغيبة لانه اعظم من التصوير والتفهيم وكذلك الغيبة في الكتاب
فان القلم احد اللسانين فذكر المصنف في الكتاب شخصا معينا وتهجين كلامه في
الكتاب غيبة الا لعذر كما سياتي بيان الاسباب الباعثة على الغيبة اعلم ان البواعث
على الغيبة كثيرة ولكن يجمعها احد عشر سببا ثمانية منها تطرد في حق العامة وثلثة تختص
باهل الدين والخاصة اما الثمانية فالاول تشفي الغيظ وذلك اذا جرى
سبب غضب به عليه فاذا هاج غضبه تشفى بذكر مساويه وسبق اللسان اليه
بالطبع ان لم يكن له دين وازع وقد يمتنع تشفي الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب
في الباطن ويصير حقدا ثابتا فيكون سببا دائما لذكر المساوي فالحقد والغضب
من البواعث العظيمة الثاني موافقة الاقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على
الكلام فانهم اذا كانوا يتفكهون بذكر الاعراض فيرى انه لو انكر وقطع المجلس استثقلوه
ونفروا منه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن انه مجاملة في الصحبة
وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج الى ان يغضب لغضبهم اظهارا للمساهمة في السراء و
الضراء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوي فيهلك معهم الثالث ان يستشعر من

من انسان انه سيقصده ويطول لسانه فيه او يقبح حاله عند محتشم او يشهد عليه
بشهادة فيبادره قبل ان يقبح هو حاله ويطعن فيه ليسقط اثر شهادته او يبتدي
بذكر ما فيه صادقا ليكذب عليه بعده فيروج كذبه بالصدق الاول ويستشهد به ويقول
ما من عادتي الكذب فاني اخبرتكم بكذا وكذا من احواله فكان كما قلت الرابع ان
ينسب الى شيء فيريد ان يتبرا منه فيذكر الذي فعله وكان من حقه ان يبرئ نفسه
فاما قوله قال قوم كذا فليس ذلك بغيبة وانما الغيبة التعرض لشخص معين اما حي او ميت
ولا ما اذا لم يفهم عنه جاز ذلك وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كره من انسان شيئا يقول ما بال
اقوام يفعلون كذا وكذا وكان لا يعين واخبث انواع الغيبة غيبة القراء المرائين فانهم
يفهمون المقصود ولا يدرون بجهلهم انهم جمعوا بين فاحشتين الرياء والغيبة وذلك مثل
ان يذكر عنده انسان فيقول الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل
في طلب الحطام او يقول نعوذ بالله من قلة الحياء نسال الله ان يعصمنا منه وانما قصده
ان يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء وكذلك انه يقدم مدح من يريد غيبته فيقول
ما احسن احوال فلان ما كان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلي بما ابتلي
به كلنا وهو قلة الصبر فيذكر نفسه ومقصوده ان يذم غيره وان يمدح نفسه بالتشبه
بالصالحين في ذم انفسهم فيكون مغتابا ومرائيا ومزكيا نفسه فيجمع بين ثلث فواحش
وهو يظن بجهله انه من الصالحين المتعففين من الغيبة وكذلك يلعب الشيطان باهل
الجهل اذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فانه يتبعهم ويحبط بمكايده اعمالهم ويضحك عليهم
ويسخر بهم ثم ذكر بعده كثيرا من الاخبار فقال فان قلت ان تصديق المغتاب في
بالغيبة غيبة بل الساكت المستمع شريك المغتاب فقد روي عن ابي بكر وعمر ان احدهما قال للآخر
ان فلانا لنؤوم ثم طلبا ادما من رسول الله صلى الله عليه وسلم لياكلا من الخبز فقال قد ائتدمتما فقالا
لا نعلمه فقال بلى بما اكلتما من لحم صاحبكما فانظر كيف جمعهما فكان القائل احدهما والآخر
ينكر الذي يفعله ولا ينسب غيره اليه فيذكر غيره بانه كان مشاركا له في الفعل ليمهد
بذلك عذر نفسه في فعله الخامس ارادة التصنع والمباهاة وهو ان يرفع نفسه بتنقيص
غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف وغرضه ان يثبت في ضمن
ذلك فضل نفسه ويريهم انه افضل منهم او يحذر ان يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك

السادس وهو انه ربما يحسد من يثني الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد زوال تلك
النعمة عنه فلا يجد سبيلا الا بالقدح فيه فيريد ان يسقط ماء وجهه عند الناس حتى
يكفوا عن اكرامه والثناء عليه لانه يثقل عليه ان يسمع ثناء الناس عليه واكرامهم له
وهذا هو الحسد وهو غير الغضب والحقد فان ذلك يستدعي جناية من المغضوب
عليه والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والقريب الموافق السابع اللعب والهزل
والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك فيذكر غيره بما يضحك الناس من التخرج
والاستهزاء استحقارا له فان ذلك قد يجري في الحضور فيجري ايضا في الغيبة ومنشاؤه
التكبر واستصغار المستهزا به واما الاسباب الثلاثة التي هي الخاصة فهي اغمضها وادقها
لانها شرور خباها الشيطان في معرض الخيرات ففيها خير ولكن شاب الشيطان بها
الاول ان ينبعث من الدين داعية التعجب من انكار المنكر والخطا في الدين فيقول
ما اعجب ما رايت من فلان فانه قد يكون صادقا ويكون تعجبه من المنكر ولكن حقه
ان يتعجب فلا يذكر اسمه فسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في اظهار تعجبه فصار به مغتابا
من حيث لا يدري واثم ومن ذلك قول الرجل تعجبت من فلان كيف يحب جاريته
وهي قبيحة وكيف يجلس بين يدي واثم ومن ذلك قول الرجل تعجبت من فلان كيف
يجلس بين يدي فلان وهو جاهل الثاني الرحمة وهو ان يغتم بسبب ما يبتلى به
فيقول مسكين فلان قد غمني امره وما ابتلي به فيكون صادقا في اغتمامه ويلهيه الغم
عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتابا الثالث الغضب لله فانه يغضب
على منكر قارفه انسان او سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه وكان الواجب ان
يظهر غضبه عليه بالامر بالمعروف ولا يظهره على غيره فهذه الثلث مما يخفى دركها
على العلماء فضلا من العوام فانهم يظنون ان التعجب والرحمة والغضب اذا كان لله كان
عذرا في ذكر الاسم وهو خطا بل المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها
عن ذكر الاسم كما سياتي ثم ذكر بيان العلاج الذي به يمنع اللسان عن الغيبة
معالجات جملية وتفصيلية وفي الاولى قال اعلم [illegible] من الغيبة
حسنات العبد قال رحمه الله وينفعه ان يتدبر في نفسه فان وجد فيها عيبا
اشتغل بعيب نفسه وان لم يجد عيبا في نفسه فليشكر الله تعالى فلا يلوثن نفسه

باعظم العيوب فان ثلب الناس واكل لحم الميتة من اعظم العيوب بل لو انصف لعلم
ان ظنه بنفسه انه بريء من كل عيب جهل بنفسه وهو من اعظم العيوب وينفعه ان
يعلم ان تالم غيره بغيبته كتالمه بغيبة غيره له فاذا كان لا يرضى لنفسه ان يغتاب فينبغي
ان لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه فهذه معالجات جملية اما التفصيل فتذكر ما يبعثه فاما
تنزيه النفس بنسبة الخيانة الى الغير حيث تستغني عن ذكر الغير فتعالجه بان تعرف ان
التعرض لمقت الخالق اشد من التعرض لمقت الخلق وانت بالغيبة متعرض لسخط الله يقينا ولا
تدري انك تتخلص من سخط الناس ام لا فتخلص نفسك في الدنيا بالتوهم وتهلك في الاخرة
وتخسر حسناتك بالحقيقة وتحصل ذم الله نقدا وتنتظر دفع ذم الخلق نسيئة وهذا
غاية الجهل والخذلان واما عذرك كقولك ان اكلت الحرام ففلان ياكل فهذا جهل
لانك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به فان من خالف امر الله لا يقتدى به كائنا
ما كان ولو دخل غيرك النار وانت تقدر على ان لا تدخلها لم توافقه ولو وافقته سفه
عقلك وكنت كالشاة تنظر الى المعز تردى نفسها من الجبل فهي ايضا تردى نفسها ولو كان
لها لسان وصرحت بالعذر وقالت العنز كيس وقد اهلك نفسه فكذلك انا افعل
لكنت تضحك من جهلها وحالك مثل حالها ثم لا تتعجب ولا تضحك من نفسك في
ذكرك رحمه الله في الاستهزاء ولو عرفت حالك لكنت احق من ان يضحك منك فانك سخرت
به عند نفر قليل وعرضت نفسك لان ياخذ بيدك في القيامة على ملا من الناس
ويسوقك تحت سيئاته كما يساق الحمار الى النار مستهزئا بك وفرحا بخزيك وسروره
بنصر الله اياه وتسليطه على الانتقام منك واما الرحمة له على اثمه فهو حسن ولكن
ابليس استنطقك بما ينقل من حسناتك اليه ما هو اكثر من رحمتك فيكون جبرا
لاثم المرحوم فيخرج عن كونه مرحوما وينقلب انت مستحقا لان تكون مرحوما اذ
احبطت ونقصت حسناتك وكذلك الغضب لله لا يوجب الغيبة وانما حبب الشيطان
الغيبة ليحبط اجر غضبك ويصير معرضا لمقت الله تعالى بالغيبة واما التعجب اذا
اخرجك الى الغيبة فتعجب من نفسك انك اهلكت دينك بدين غيرك او بدنياه
الى الغيبة وانت مع ذلك لا تامن عقوبة الدنيا وهو ان يهتك الله سترك كما هتكت
ستر اخيك فاذا علاج جميع ذلك المعرفة فقط والتحقيق بهذه الامور هي من ابواب الايمان

فمن قوي ايمانه بجميع ذلك انكف عن الغيبة لا محالة بيان تحريم الغيبة بالقلب اعلم ان
سوء الظن حرام مثل سوء القول قال صلى الله عليه وسلم ان الله قد حرم من المسلم دمه وماله وان يظن به ظن
السوء فلا يستباح ظن السوء الا بما يستباح به المال وهو بيقين مشاهدة او بينة عادلة
فاذا لم يكن كذلك وخطر لك سوء الظن ينبغي ان تدفعه عن نفسك وتقرر عليها ان
عندك مستور وكان حاله عندك وعند غيرك مستور ولا يجب ان يسيء بك ظن كذا
وجب عليك ان يكون عقد الظن بغيرك ولا تسيء به ظنا كما كان فان ما رأيته منه
يحتمل الخير والشر فان قلت فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث
فاقول امارة عقد الظن ان يتغير القلب معه عما كان فتنفر عنه نفورا ويستثقله
ويفتر عن مراعاته وتفقده واكرامه والاغتمام بسببه فهذه امارة عقد الظن وتحقيقه
وقد قال صلى الله عليه وسلم ثلث في المؤمن وله منهن مخرج فمخرجه من سوء الظن ان لا يحققه اي لا يحقق في نفسه
بعقد ولا فعل لا في القلب ولا في الجوارح اما في القلب فبتغيره الى النفرة والكراهة وفي
الجوارح بالعمل بموجبه والشيطان قد يقرره على القلب بادنى مخيلة مساءة الناس
ويلقي اليه ان هذا من فطنتك وسرعة تنبهك وذكائك وان المؤمن ينظر بنور الله
وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته ثم قال رحمه الله ومن ثمرات سوء الظن
التجسس فان القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو ايضا منهي عنه
قال الله تعالى ولا تجسسوا فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهي عنه في آية واحدة ومعنى
التجسس ان لا تترك عباد الله تحت ستر الله فتتوصل الى الاطلاع وهتك الستر والتجسس عن
احوالهم حتى ينكشف لك ما لو كان مستورا عنك كان اسلم لقلبك ولدينك وقد
ذكرنا في كتاب الامر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته ثم ذكر بعد ذلك الاعذار المرخصة
في الغيبة كفارة الغيبة سئل عطاء بن ابي رباح عن التوبة من الفرية قال تمشي الى
صاحبك فتقول كذبت فيما قلت وظلمت واسأت فان شئت اخذت بحقك وان
شئت عفوت وهذا هو الاصح وقول القائل العرض لا عوض له فلا يجب الاستحلال منه بخلاف
المال كلام ضعيف اذ وجب في العرض حد القذف وتثبت المطالبة به بل في الحديث
الصحيح ما روي انه صلى الله عليه وسلم قال من كانت لاخيه عنده مظلمة في عرض او مال فليستحللها منه
قبل ان يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم يؤخذ من حسناته فان لم يكن له حسنات

اخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته فان قلت فالتحليل هل يجب فاقول لا
لانه تبرع والتبرع فضل وليس بواجب ولكنه مستحسن وسبيل المعتذر ان يبالغ في
الثناء عليه والتودد اليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه فان لم يطب قلبه كان اعتذاره
وتودده حسنة محسوبة فيقابل بها سيئة الغيبة في القيامة وكان بعض السلف لا يحلل
قال ابن سيرين اني لم احرمها عليه فاحللها له ان الله حرم الغيبة عليه وما كنت لاحلل
ما حرم الله ابدا فان قلت فما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغي ان يستحلها وتحليل ما
حرم الله غير ممكن فنقول المراد به العفو عن المظلمة لا ان ينقلب الحرام حلالا وما ذكره
ابن سيرين حسن في التحليل قبل الغيبة ثم قال رحمه الله وعلى الجملة فالعفو فضل قال
الحسن اذا جثت الامم بين يدي الله تعالى يوم القيامة نودوا ليقم من كان اجره على الله
فلا يقوم الا من عفا في الدنيا وقال تعالى خذ العفو وامر بالعرف الاية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
يا جبريل ما هذا العفو فقال ان الله يامرك ان تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك
وتعطي من حرمك الافة الخامسة عشر النميمة قال الله تعالى هماز مشاء بنميم
مناع للخير معتد اثيم الآية وقال عليه السلام الا اخبركم بشراركم قالوا بلى قال المشاؤون
بالنميمة المفسدون بين الاحبة الملتمسون للبراء العثرات وحكي ان رجلا تبع رجلا
سبعمائة فرسخ في سبع كلمات فلما قدم عليه قال اني اتيتك للذي اتاك الله
من العلم اخبرني عن السماء وما اثقل منها وعن الارض وما اوسع منها وعن
الحجر وما اقسى منه وعن النار وما احر منها وعن الزمهرير وما ابرد منه وعن
البحر وما اغنى منه وعن اليتيم وما اذل منه قال البهتان على البريء اثقل من
السموات والحق اوسع من الارض والقلب القانع اغنى من البحر والحرص و
الحسد احر من النار والحاجة الى القريب اذا لم ينجح ابرد من الزمهرير وقلب
الكافر اقسى من الحجر والنمام اذا بان امره اذل من اليتيم ثم بعد ذكر بيان
حد النميمة قال رحمه الله كل من حملت اليه النميمة وقيل له ان فلانا قال فيك
كذا وكذا وفعل في حقك كذا وامثاله فعليه ستة امور الاول ان لا يصدقه
لان النمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا
ان تصيبوا قوما بجهالة والثاني ان ينهاه عن ذلك وينصحه ويقبح له فعله قال

وامر بالمعروف ونهى عن المنكر والثالث ان يبغضه في الله فانه بغيض عند الله
ويجب بغض من يبغضه الله والرابع ان لا يظن باخيك الغائب السوء لقوله تعالى
اجتنبوا كثيرا من الظن الخامس ان لا يحملك ما حكي لك على التجسس والبحث للتحقق
ولا تجسسوا والسادس ان لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه فلا تحكي نميمته فتقول
فلان قد حكى كذا وكذا فتكون به نماما ومغتابا ويكون قد اتيت ما عنه نهيت و
ذكر ان حكيما من الحكماء زاره بعض اخوانه واخبره بخبر عن غيره فقال الحكيم
قد ابطات في الزيارة واتيتني بثلث جنايات بغضت الي اخي وشغلت قلبي
الفارغ واتهمت نفسك الامينة وروي عن علي عليه السلام ان رجلا اتاه يسعى اليه
برجل فقال يا هذا نحن نسأل عما قلت فان كنت صادقا مقتناك وان كنت كاذبا
عاقبناك وان شئت ان نقيلك اقلناك قال اقلني يا امير المؤمنين قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم الساعي بالناس الى الناس لغير رشدة يعني ليس بولد الحلال و
قال لقمان الحكيم لابنه يا بني اني موصيك بخلال ان تمسكت بهن لم تزل سيدا
ابسط خلقك للقريب والبعيد وامسك جهلك عن الكريم واللئيم واحفظ اخوانك
وصل اقاربك وآمنهم من قبول قول ساع او سماع باغ يريد فسادك ويروم
خداعك وليكن اخوانك من اذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك وفي
الجملة فشر النمام عظيم يجب ان يتوقى قال حماد بن سلمة باع رجل عبدا فقال للمشتري
ما فيه عيب الا النميمة قال رضيت فاشتراه فمكث الغلام اياما ثم قال لزوجة
مولاه ان زوجك لا يحبك وهو يريد ان يتسرى عليك فخذي الموسى واحلقي
من قفاه عند نومه شعرات حتى اسحر عليها فيحبك ثم قال للزوج ان امرأتك
اتخذت خليلا وتريد ان تقتلك فتناوم لها حتى تعرف فتناوم فجاءت بالموسى
فظن انها تقتله فقام وقتلها فجاء اهل المرأة وقتلوا الزوج فوقع القتال
بين القبيلتين وطال الامر السابعة عشر كلام ذي اللسانين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذي ياتي هؤلاء بحديث
وهؤلاء بحديث وقال ابن مسعود لا يكونن احدكم امعة قالوا وما الامعة قال
يجري مع كل ريح واتفقوا على ان ملاقاة الاثنين بوجهين نفاق وللنفاق علامات

علامات كثيرة وهذه من جملتها ثم قال رحمه الله وذلك شر من النميمة اذ يصير نماما
بان ينقل من احد الجانبين فقط فان لم ينقل كلاما ولكن حسن لكل واحد منهما
ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهو ذو لسانين وكذلك اذا وعد كل واحد منهما
بان ينصره وكذلك اذا اثنى على كل واحد منهما في معاداته بل ينبغي ان يسكت او
يثني على المحق من المتعاديين او يثني في حضوره وفي غيبته وبين يدي عدوه وقيل
لابن عمر انا ندخل على امرائنا فنقول القول فاذا خرجنا قلنا غيره قال كنا نعد
ذلك نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا نفاق مهما كان مستغنيا عن الدخول
على الامير وعن الثناء ولو استغنى عن الدخول ولكن اذا دخل يخاف ان لم يثن فهو
نفاق لانه الذي احوج نفسه اليه وان كان يستغني عن الدخول لو قنع بالقليل
وترك المال والجاه فدخل لضرورة الجاه والغنى واثنى فهو منافق وهذا معنى
قوله عليه السلام حب المال والجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل لانه
يحوج الى الامراء ومراعاتهم ومراءاتهم فاما اذا ابتلي بضرورة وخاف ان لم يثن
فهو معذور فان اتقاء الشر جائز قال ابو الدرداء انا لنكشر في وجوه اقوام و
قلوبنا تلعنهم الثامنة عشر المدح وهو منهي عنه في بعض المواضع اما الذم
فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمهما والمدح يدخله ست آفات الخ ومن جملتها انه
قد يحدث في الممدوح كبرا واعجابا وهما مهلكات قال الحسن كان عمر قاعدا ومعه الدرة
والناس حوله اذ اقبل الجارود فقال رجل هذا سيد ربيعة فسمعها عمر ومن حوله
وسمعها الجارود فلما دنا منه خفقه بالدرة فقال ما لي ولك يا امير المؤمنين قال
ما لي ولك اما لقد سمعتها قال سمعتها فمه قال خشيت ان يخالط
قلبك منها شيء فاحببت ان اطأطئ منك وقال صلى الله عليه وآله وسلم اذا مدحت
اخاك في وجهه فكأنما امررت على حلقه موسى رميضا قال رحمه الله ذكر الآفات
التي فان سلم من هذه الآفات ربما كان المدح مندوبا اليه قال مجاهد لبني
آدم جلساء من الملائكة فاذا ذكر اخاه المسلم بخير قالت الملائكة ولك مثله واذا
ذكره بسوء قالت الملائكة يا ابن آدم المستور عورته اربع على نفسك واحمد الله الذي ستر
عورتك وعلى الممدوح ان يظهر كراهة المدح باذلال المادح واليه الاشارة بقوله

احثوا التراب في وجوه المداحين قال سفين بن عيينة لا يضر المدح من عرف نفسه
اثنى على رجل من الصالحين فقال اللهم ان هؤلاء لا يعرفونني وانت تعرفني الثانية
عشرة الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقولن احدكم
عبدي امتي كلكم عبيد الله وكل نسائكم اماء الله ولكن ليقل غلامي وجاريتي وفتاي
وفتاتي ولا يقول المملوك ربي ولا ربتي ولكن سيدي وسيدتي كلكم عبيد والرب الله
تعالى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انا بريء من الاسلام فان كان صادقا فهو كما قال وان
كان كاذبا فلن يرجع الى الاسلام سالما فهذه وامثاله مما يدخل في الكلام ولا يمكن
ومن تأمل جميع ما اوردناه من آفات اللسان علم انه اذا اطلق لسانه لم يسلم وعند ذلك
تعرف سر قوله من صمت نجا لان هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب وهي على
طريق المتكلم فان سكت سلم من الكل وان تكلم خاطر بنفسه الا ان يوفقه لسان فصيح
وعلم غزير وورع حافظ ومراقبة لازمة ويقلل من الكلام فعساه يسلم عند ذلك
ومع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر الثالثة والعشرون سؤال العوام عن صفات الله
تعالى وعن كلامه وعن الحروف وانها قديمة او حادثة قال صلى الله عليه وآله وسلم ذروني
ما تركتكم فانما اهلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على انبيائهم ما نهيتكم عنه فاجتنبوه
وما امرتكم به فأتوا منه ما استطعتم وفي الحديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال و
كثرة السؤال واضاعة المال وقال صلى الله عليه وسلم يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا
هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله فاذا قالوا ذلك فقولوا الله احد حتى يختموا السورة
ثم ليتفل احدكم عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم وقال عليه السلام سلوني
تفقها ولا تسألوني تعنتا وقال جابر ما نزلت آية التلاعن الا لكثرة السؤال وفي قصة
موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل اوان استحقاقه ثم ذكر حجة الاسلام
في كتاب آفات الغضب والحقد والحسد كثيرا من الاخبار والآثار في بيان ذم الغضب
منها قوله من كف غضبه ستر الله عورته وقال سليمان بن داود عليهما السلام يا بني اياك
وكثرة الغضب فانه يستخف فؤاد الرجل الحكيم وقيل لحكيم ما املك فلانا لنفسه قال
اذن لا يذله الشهوة ولا يصرعه الهوى ولا يغلبه الغضب وقال بعضهم انظر الى
حلم الرجل عند غضبه والى امانته عند طمعه وما علمك بحلمه اذا لم يغضب وما علمك

بامانته اذا لم يطمع وقال نبي من الانبياء لمن معه من تكفل لي ان لا يغضب فيكون
معي في درجتي في الجنة ويكون بعدي خليفتي فقال شاب من القوم انا ثم اعاد عليه
فقال الشاب انا فوفى به فلما مات كان في منزلته بعده وهو ذو الكفل سمي به لانه تكفل
بالغضب ووفى به وقال وهب بن منبه للكفر اربعة اركان الغضب والشهوة و
الخرق والطمع ثم قال رحمه الله بعد بيان حقيقة الغضب ولو رأى الغضبان في حال
غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته وقبح الباطن اعظم
من قبح الظاهر فان الظاهر عنوان الباطن وانما قبحت صورة الباطن اولا ثم انتشر
قبحها الى الظاهر ثانيا فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن فقس الثمرة بالثمرة فهذا
اثره في الجسد واما اثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش وقبائح الكلام
الذي يستحيي منه ذوو العقول ويستحيي قائله منه عند فتور الغضب وذلك مع تخبط
النظم واضطراب اللفظ واما اثره على الاعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل
والجرح عند التمكن من غير مبالاة فان هرب منه المغضوب عليه او فاته بسبب وعجز
عن التشفي رجع الغضب على صاحبه فيمزق ثوب نفسه ويلطم وجهه وقد يضرب
بيده على الارض ويعدو عدو الواله السكران والمدهوش المتحير وربما يسقط
صريعا لا يطيق العدو والنهوض لشدة الغضب ويعتريه مثل الغشية وربما يضرب
الجمادات والحيوانات فيضرب القصعة مثلا على الارض وقد يكسر المائدة اذا غضب
عليها ويتعاطى افعال المجانين فيشتم البهيمة والجمادات ويخاطبها واما اثره في
القلب مع المغضوب عليه فالحقد والحسد واضمار السوء والشماتة بالمساءات والحزن
بالمسرات والعزم على افشاء السر وهتك الستر والاستهزاء وغير ذلك من القبائح
فهذه ثمرة الغضب المفرط ومن ثمرات الغضب الضعيف عدم الغيرة على الحرم وهو
خنوثة قال ان سعدا لغيور وانا اغير من سعد والله اغير مني وانما خلقت الغيرة
لحفظ الانساب ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الانساب ولذلك قيل كل امة
وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نسائها ومن ضعف الغضب الخور
والسكوت عند مشاهدة المنكرات وقد قال خيار امتي احداؤها يعني في الدين
وقال تعالى لا تأخذكم بهما رأفة في دين الله بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه اذ

الرياضة بتسليط الغضب على الشهوة حتى يغضب على نفسه عند الميل الى الشهوات الخسيسة
ففقد الغضب مذموم وانما المحمود الخ ثم قال رحمه الله بعد كلام قال [illegible] كان
النبي صم لا يغضب للدنيا فاذا اغضبه الحق لم يعرفه احد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر
له فكان يغضب على الحق وان كان غضبه لله فهو التفات الى الوسائط على الجملة بل كل
من يغضب على من ياخذ ضرورة قوته وحاجته التي لا بد له في دينه منها فانما غضب
لله فلا يمكن الانفكاك عنه نعم قد يفقد اصل الغيظ فيما هو ضروري اذا كان القلب
مشغولا بضروري اهم منه فلا يكون للقلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره فان استغراق
القلب ببعض المهمات يمنع الاحساس بما عداه وهذا كما ان سلمان لما شتم فقال ان خفت
موازيني فانا شر مما تقول وان ثقلت موازيني لم يضرني ما تقول فقد كان همه مصروفا
الى الآخرة فلم يتأثر قلبه بالشتم ثم اورد رحمه الله في جملة الامور التي لا بد منها
في معالجة الغضب بالعلم كونه متفكرا في السبب الذي يدعوه الى الانتقام ويمنعه من كظم
الغيظ قال رحمه الله ولا بد ان يكون له سبب مثل قول الشيطان له ان هذا يحمل منك على
العجز وصغر النفس والذلة والمهانة وتصير حقيرا في اعين الناس فليقل لنفسه ما
اعجبك يا نفس ما اجهلك تأنفين من الاحتمال الآن ولا تأنفين من خزي يوم القيمة و
الافتضاح اذا اخذ هذا بيدك وانتقم منك وتحذرين من ان تصغري في اعين الناس
ولا تحذرين من ان تصغري عند الله وعند الملائكة والنبيين فمهما
كظم الغيظ فينبغي ان يكظمه لله تع وذلك يعظمه عند الله فما له وللناس وذل من ظلمه يوم
القيمة اشد من ذله وليعلم انه لا بد ان يعلم ان غضبه من تعجبه من جريان الشيء على
وفق مراد الله تع لا على وفق مراده فكيف يقول مرادي اولى من مراد الله ويوشك
ان يكون غضب الله تع عليه اعظم من غضبه ثم ذكر رحمه الله بيان فضيلة كظم الغيظ و
فضيلة الحلم بالاخبار والآثار ثم بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من
الكلام فقال اعلم ان كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله فلا يجوز مقابلة
الغيبة بالغيبة ولا مقابلة التجسس بالتجسس ولا السب بالسب وكذا سائر المعاصي وانما
القصاص والغرامة على ما ورد الشرع به وقد فصلناه في الفقه قال والصحيح جواز المقابلة
بما لا كذب فيه ونهيه صم عن التعيير بمثله نهي تنزيه والافضل تركه والذي يرخص فيه

فيه ان يقول من انت وهل انت الا من بني فلان كما قال سعد لابن مسعود وهل انت
الا من بني هذيل فقال ابن مسعود وهل انت الا من بني امية ومثل قوله يا احمق قال
مطرف كل الناس احمق فيما بينه وبين ربه الا ان بعض الناس اقل حماقة من بعض
وكذا قوله يا جاهل فهذا القدر هو الذي اباحه هؤلاء وهو مخصوص بالابتداء آخذا
على ان الاثم على البادي ولا تعد الرخصة في هذا القدر ولكن الافضل تركه فانه
يجره الى ما وراءه ولا يمكن الاقتصار على مقدار الحق فيه والسكوت عن اصل الجواب
ايسر من الشروع في الجواب والوقوف على حد الشرع فيه ولكن الناس في الغضب
اربعة فبعضهم كالحلفاء سريع الوقود سريع الخمود وبعضهم كالغضا بطيء الوقود بطيء
الخمود وبعضهم بطيء الوقود سريع الخمود وهو الاحمد ما لم ينته الى فتور الحمية والغيرة
وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود وهذا شرهم وفي الخبر المؤمن سريع الغضب سريع
الرضا فهذه بتلك قال رحمه الله في بيان معنى الحقد بعد ذكر ثمرات الحقد
لما حلف ابو بكر ان لا ينفق على مسطح وكان قريبه ولكن تكلم في واقعة الافك نزل
قوله تع ولا يأتل اولوا الفضل منكم الى قوله الا تحبون ان يغفر الله لكم فقال ابو بكر
نعم نحب ذلك وعاد الى الانفاق عليه فالاولى ان يبقى على ما كان فان امكنه ان يزيد
في الاحسان مجاهدة للنفس وارغاما للشيطان فذلك هو مقام الصديقين وهي
من فضائل اعمال المقربين فللمحقود ثلاثة احوال عند القدرة احدها ان يستوفي حقه
الذي يستحقه من غير زيادة ونقصان وهو العدل والثاني ان يحسن اليه بالعفو
والصلة وذلك هو الفضل والثالث ان يظلمه بما لا يستحقه فذلك هو الجور وهو اختيار
الاراذل والثاني هو اختيار الصديقين والاول هو منتهى درجة الصالحين ثم ذكر
رحمه الله في فضيلة العفو اخبارا اكثرها منها قالت عائشة ما رأيت رسول الله صم منتصرا
من مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله شيء فاذا انتهك من محارم الله كان
اشدهم في ذلك غضبا وما خير بين امرين الا اختار ايسرهما ما لم يكن مأثما وعن
انس قال قال رسول الله صم اذا بعث الله الخلائق يوم القيمة نادى مناد من تحت
العرش ثلاثة اصوات يا معشر الموحدين ان الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض
وعن ابي هريرة ان رسول الله صم لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم اتى الكعبة

واخذ بعضادتي الباب والملأ من قريش اسفل منه فقال ما تقولون وما تظنون
قالوا نقول اخ وابن عم حليم رحيم قالوا ذلك ثلثا فقال ص اقول كما قال يوسف
لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين قال فخرجوا كأنما نشروا
من القبور فدخلوا في الاسلام وعنه عليه وضع يده على بابي الكعبة والناس
بابي الكعبة والناس حوله فقال لا اله الا الله وحده لا شريك له صدق وعده
ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده ثم قال يا معشر قريش ومن الاناة قيل ان
راهبا دخل على هشام بن عبد الملك فقال للراهب ارأيت ذا القرنين كان نبيا
فقال لا ولكنه انما اعطي ما اعطي باربع خصال كن فيه كان اذا قدر عفا واذا وعد
وفا واذا حدث صدق ولا يجمع اليوم لغد وقيل مكتوب في الانجيل من استغفر
لمن ظلمه فقد هزم الشيطان ثم اورد في فضيلة الرفق اخبارا كثيرة منها قوله ص
اذا احب الله اهل بيت ادخل عليهم الرفق وقال ص ان الله ليعطي على الرفق ما لا
يعطي على الخرق وقال ص تدرون من يحرم على النار كل هين لين سهل قريب وقال
الرفق يمن والخرق شؤم ومن الاناة بعد الخبر وقيل ما ورثوها العلم خليل المؤمن
والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قيمه والرفق والده واللين اخوه والصبر
جنوده قال الحسن المؤمن وقاف متأن وليس كحاطب ليل فهذا ثناء اهل العلم
على الرفق وذلك لانه محمود ومفيد في اكثر الاحوال واغلب الامور والحاجة الى
العنف قد تقع ولكن على الندور وانما الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف
فيعطي كل امر حقه فان كان قاصر البصيرة او اشكل عليه حكم واقعة من الوقائع فليكن
ميله الى الرفق فان النجح معه في الاكثر ثم اورد في ذم الحسد اخبارا كثيرة منها
قوله ص اخوف ما اخاف على امتي ان يكثر لهم المال فيتحاسدون ويقتتلون وقال
صلى الله عليه وآله ان لنعم الله اعداء فقيل ومن ذاك قال الذين يحسدون الناس
على ما آتاهم الله من فضله وقال ص ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة قيل
يا رسول الله من هم قال الامراء بالجور والعرب بالعصبية والدهاقين بالكبر
والتجار بالخيانة واهل الرستاق بالجهالة والعلماء بالحسد وقال الحسن يا ابن
آدم لم تحسد اخاك فان كان الذي اعطاه الله لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه

من اكرمه الله وان كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره الى النار وقال بعضهم الحاسد
لا ينال من المجالس الا مذمة وذلا ولا ينال من الملائكة الا لعنة وبغضا ولا ينال
من الخلق الا جزعا وغما ولا ينال عند النزع الا شدة وهولا ولا ينال عند الموقف
الا فضيحة ونكالا ثم قال رحمه الله بعد ذكر اسباب الحسد مجملا لا بد من شرح
هذه الاسباب مفصلا السبب الاول العداوة والبغضاء وهذا اسباب الحسد
فان من آذاه انسان بسبب من الاسباب وخالفه في غرضه بوجه من الوجوه ابغضه
قلبه وغضب عليه ورسخ في نفسه الحقد والحقد يقتضي التشفي والانتقام فان عجز
المبغض عن ان يتشفى بنفسه احب ان يتشفى منه الزمان وربما يحيل ذلك على كرامة
نفسه عند الله تعالى فمهما اصاب عدوه بلية فرح وظنها مكافاة من جهة الله على بغضه
وانه لاجله اصابته ومهما اصابته نعمة ساءه ذلك لانه ضد مراده وربما يخطر له انه
لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم من عدوه الذي آذاه بل انعم عليه وبالجملة فهذا ما وصف
الكفار به من الحسد بالعداوة اذ قال واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا
عليكم الانامل من الغيظ الى قوله تعالى ان تمسسكم حسنة تسؤهم وكذا قال تعالى ودوا
ما عنتم قد بدت البغضاء من افواههم والحسد بسبب البغض ربما يفضي الى التنازع
والتقاتل واستغراق العمر في ازالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك الستر وما يجري
مجراه السبب الثاني التعزز وهو ان يثقل عليه ان يترفع عليه غيره فاذا اصاب بعض
امثاله ولاية او علما او مالا خاف ان يتكبر عليه وهو لا يطيق تكبره ولا تسمح نفسه
باحتمال صلفه وتفاخره عليه فليس من غرضه ان يتكبر بل غرضه ان يدفع كبره فانه
قد رضي بمساواته مثلا ولكن لا يرضى بترفعه عليه الثالث ان يكون في طبعه ان
يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه ويتوقع منه الانقياد له والمتابعة في اغراضه فاذا
نال نعمة خاف ان لا يحتمل تكبره ويترفع عن متابعته قال الله تعالى يصف قول قريش
اهؤلاء من الله عليهم من بيننا كالاستحقار لهم والانفة منهم الرابع التعجب كما
اخبر الله تعالى عن الامم الماضية اذ قالوا ما انتم الا بشر مثلنا وامثالها فتعجبوا من
ان يفوز برتبة الرسالة والوحي والقرب من الله بشر مثلهم فحسدوهم واحبوا
زوال النعمة منهم جزعا ان يفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة لا عن تكبر وطلب رياسة

ويتقدم عداوة وقالوا متعجبين ابعث الله بشرا رسولا الخامس الخوف من فوات
المقاصد وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود وذلك كالرجل الذي يريد ان يكون
عديم النظير في فن من الفنون اذا غلب عليه حب الثناء واستفزه الفرح بما يمدح
به من انه واحد الدهر وفريد العصر في فنه وانه لا نظير له فانه لو سمع بنظير له
في اقصى العالم لساءه ذلك واحب موته او زوال النعمة التي بها يشاركه في
المنزلة وليس السبب في هذا سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد السابع
خبث النفس وشحها بالخير على عباد الله فانك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر
ولا طلب مال اذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله فيما انعم به عليه شق
ذلك عليه واذا وصف له اضطراب امور الناس وادبارهم وفوات مقاصدهم
وتنغص عيشهم فرح به فهو ابدا يحب الادبار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده
كانهم ياخذون ذلك من ملكه وخزانته ويقال البخيل من يبخل بمال نفسه و
الشحيح هو الذي يبخل بمال غيره فهو البخل بنعمة الله تعالى على عباده الذين ليس بينه
وبينهم عداوة ولا رابطة وهذا ليس له سبب ظاهر الا خبث النفس ورذالة في
الطبع عليه وقعت الجبلة ومعالجته شديدة لان الحسد الثابت بسائر الاسباب
اسبابه عارضة يتصور زوالها فيطمع في ازالتها وهذا خبث في الجبلة لا عن
سبب عارض فتعسر ازالته اذ يستحيل في العادة ازالته بيان السبب في كثرة
الحسد بين الامثال والاقران والاخوة والاقرباء وقلته في غيرهم اعلم ان
الحسد انما يكثر بين قوم تكثر بينهم الاسباب التي ذكرناها وانما يقوى بين قوم تجتمع جملة
من هذه الاسباب فيهم وتتظاهر اذ الشخص الواحد يجوز ان يحسد لانه يمتنع من
قبول التكبر ولانه يتكبر ولانه عدو ولغير ذلك من الاسباب وهذه الاسباب
انما تكثر بين اقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها في مجالس المخاطبات ويتواردون
على الاغراض فاذا خالف واحد صاحبه في غرض من اغراضه نفر طبعه وابغضه
وثبت الحقد فيه فعند ذلك يريد ان يستحقره ويتكبر عليه ويكافيه على مخالفته لغرضه
ويكره تمكنه من النعمة التي توصله الى اغراضه ويترادف جملة الاسباب اذ لا رابطة
بين شخصين في بلدتين متقابلتين ولا يكون بينهما محاسدة وكذلك في محلتين نعم اذا

تقاربا وتجاورا في مسكن او سوق او مسجد او مدرسة تواردا على مقاصد تتناقض
فيها اغراضهم فيثور من التناقض التنافر والتباغض ومنه تثور بقية اسباب الحسد
فلذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد والعابد يحسد العابد دون العالم و
التاجر التاجر الى غير ذلك ويحسد الرجل اخاه وابن عمه اكثر مما يحسد الاجانب
والمرأة تحسد ضرتها اكثر مما تحسد ام الزوج وابنته ثم حسد الواعظ للواعظ
اكثر من حسده للفقيه الخ قال رحمه الله في بيان الدواء الذي ينفي مرض
الحسد عن القلب بعد بيان كون الحسد ضارا للحاسد في الدنيا وانه لا ضرر
على المحسود في دينه ودنياه ومهما لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضرر في
الدنيا ولا يكون عليه اثم في الاخرة ولعلك تقول ليت النعمة كانت تزول عن
المحسود بحسدي وهذا غاية الجهل فانه بلاء تشتهيه اولا لنفسك فانك ايضا
لا تخلو عن عدو يحسدك فلو كانت النعم تزول بالحسد لم يبق لله تعالى عليك نعمة
ولا على الخلق ولا نعمة الايمان لان الكفار يحسدون المؤمنين على الايمان قال الله
ودت طائفة لو يضلونكم وما يضلون الا انفسهم اذ ما يريده الحسود لا يكون
نعم هو يضل بارادته الضلال لغيره فان ارادة الكفر كفر فمن اشتهى ان تزول النعم
عن المحسود بالحسد فكانما يريد ان يسلب نعمة الايمان بحسد الكفار وكذا سائر
النعم وان اشتهيت ان تزول النعمة عن الخلق بحسدك ولا تزول عنك بحسد
غيرك فهذا غاية الجهل والغباوة فان كل واحد من حمقى الحساد ايضا يشتهي ان
يخص بهذه الخاصية ولست باولى من غيرك فنعمة الله عليك في ان لم تزل النعم بالحسد مما
يجب عليك شكرها وانت بجهلك تكرهها واما ان المحسود ينتفع به في الدين
والدنيا فواضح الخ فاذن ان تاملت هذا عرفت انك عدو نفسك
وصديق عدوك في الدنيا والاخرة وصرت مذموما عند الخلق والخالق شقيا في
الحال والمال ونعمة المحسود دائمة شئت ام ابيت ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك
حتى توصلت الى ادخال اعظم سرور على ابليس الذي هو اعدا اعدائك لانه لما
رآك محروما من نعمة العلم والورع والجاه والمال الذي اختص به عدوك عنك
خاف ان تحب ذلك له فتشاركه في الثواب بسبب المحبة لان من احب الخير للمسلمين

شريكاً في الخير ومن فاته اللحاق بدرجة الاكابر في الدين لم يفته ثواب الحب لهم مهما احب
ذلك وقد جاء في الحديث اهل الجنة ثلثة المحسن والمحب له والكاف عنه اي من يكف
عنه الاذى والحسد والبغض والكراهة فانظر كيف ابعدنا ابليس من جميع المداخل
الثلثة حتى لا تنفذ بها البتة فقد نفذ عليك حسد ابليس وما نفذ حسدك على
عدوك بل على نفسك لو كوشفت بحالك في يقظة او منام لرايت نفسك ايها الحاسد
في صورة من يرمي سهماً الى عدوه ليصيب به مقتله فلا يصيبه بل يرجع على حدقته اليمنى
فيقلعها فيزيد غضبه ثانيا فيعود ويرميه اشد من الاولى فيرجع على عينه الاخرى فيعميها
فيزداد غيظه فيعود ثالثة فيعود على راسه فيشجه وعدوه سالم في كل حال وهو اليه
راجع مرة بعد اخرى واعداؤه حوله يفرحون ويضحكون وهذا حال الحسود
وسخرية الشيطان منه لا بل حالك في الحسد اقبح من هذا لان الرمية العائدة لم تفوت
الا العين ولو بقيت لفاتت بالموت لا محالة والحسد يعود بالاثم والاثم لا يفوت
بالموت ولعله يسوقه الى غضب الله والى النار فانظر كيف انتقم الله من الحاسد اذا
اراد زوال النعمة عن المحسود فلم يزلها الله عنه ثم ازالها من الحاسد اذ السلامة من
الاثم نعمة والسلامة من الغم والكمد نعمة وقد زالتا عنه تصديقاً لقوله تعالى ولا يحيق
المكر السيء الا باهله وربما يبتلى بعين ما يشتهيه لعدوه وقلما يشمت شامت
بمساءة الا ويبتلى بمثلها حتى قالت عائشة ما تمنيت لعثمان شيئاً الا نزل بي حتى لو
تمنيت القتل لقتلت فهذا اثم الحسد نفسه فكيف ما يجر اليه الحسد من الاختلاف
وجحود الحق واطلاق اللسان واليد بالفواحش في التشفي من الاعداء وهو الداء الذي
هلك فيه الامم السالفة فهذه هي الادوية العلمية فمهما تفكر فيها الانسان انطفى من قلبه
نار الحسد

بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب اعلم ان المؤذي ممقوت
بالطبع ومن اذاك فلا يمكنك ان لا تبغضه غالبا فاذا تيسرت له نعمة فلا يمكنك ان
لا تكرهها له حتى يستوي عندك حسن حال عدوك وسوء حاله بل لا تزال تدرك في
النفس بينهما تفرقة ولا يزال الشيطان ينازعك في الحسد له ولكن ان قوي ذلك فيك
حتى بعثك على اظهار الحسد بقول او فعل بحيث يعرف ذلك من ظاهرك بافعالك
الاختيارية فانت حسود عاص بحسدك وان كففت ظاهرك بالكلية الا انك بباطنك

تحب زوال النعمة وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة فانت ايضاً حسود عاص
لان الحسد صفة القلب لا صفة الفعل قال الله تعالى ولا يجدون في صدورهم حاجة
مما اوتوا وقال تعالى ودوا لو تكفرون كما كفروا وقال تعالى ان تمسسكم حسنة تسؤهم واما
الفعل فهو غيبة وكذب وهو عمل صادر عن الحسد وليس هو عين الحسد بل محل الحسد
القلب دون الجوارح نعم هذا الحسد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها بل هي معصية بينك
وبين الله تعالى وانما يجب الاستحلال من الاسباب الظاهرة على الجوارح اما تغيير الطبع
ليستوي عنده المؤذي والمحسن ويكون فرحه وغمه بما يتيسر لهما من نعمة او يتصبب
عليهما من بلية سواء فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه ما دام ملتفتاً الى حظوظ الدنيا الا ان
يصير مستغرقاً بحب الله تعالى مثل السكران الواله فقد ينتهي امره الى ان لا يلتفت قلبه
الى تفاصيل احوال الخلق بل ينظر الى الكل بعين واحدة وهي عين الرحمة ويرى الكل عباد
الله وافعالهم افعالاً لله وسخرين له وذلك ان كان فهو كالبرق الخاطف لا يدوم
ويرجع القلب بعد ذلك الى طبعه ويعود العدو اليه منازعته اعني الشيطان فانه
ينازع بالوسوسة فمهما قابل ذلك بكراهية والزم قلبه فقد ادى ما كلفه تم متني

ويتلوه ذم الدنيا . قال الشيخ الغزالي رحمه الله تعالى في كتاب التوبة من ربع المنجيات
من كتب احياء علوم الدين بعد ذكر الحمد والصلوة اما بعد فان التوبة عن
الذنوب بالرجوع الى ستار العيوب وعلام الغيوب مبدأ طريق السالكين وراس
مال الفائزين واول اقدام المريدين ومفتاح استقامة المائلين ومطلع الاصطفا
والاجتباء للمقربين ولابينا آدم صلى الله عليه وعلى سائر النبيين وما اجدر بالاولاد
الاقتداء بالآباء والاجداد فلا غرو ان اذنب الآدمي واجترم فهي شنشنة نعرفها
من اخزم ومن اشبه اباه فما ظلم ولكن الاب اذا جبر بعد ان كسر وعمر بعد ان هدم
فليكن النزوع اليه في كلا طرفي النفي والاثبات والوجود والعدم ولقد قرع آدم
سن الندم وتندم على ما سبق منه وتقدم فمن اتخذه قدوة في الذنب دون
التوبة فقد زلت به القدم بل التجرد لمحض الخير داب الملائكة المقربين والتجرد للشر
دون التلافي سجية الشياطين والرجوع الى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين
فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان والمتجرد للشر شيطان والتلافي للشر

بالرجوع الى الخير بالحقيقة انسان فقد امتزج في طينة الانسان شائبتان واصطحب فيه سجيتان وكل عبد مصحح نسبه اما الى الملك او الى آدم او الى الشيطان فالتائب قد اقام البرهان على صحة نسبه الى آدم بملازمة حد الانسان والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان فاما تصحيح النسب بالتجرد لمحض الخير الى الملائكة فخارج عن حيز الامكان فان الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجنا محكما لا يخلصه الا احد النارين نار الندم او نار جهنم فالاحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الانسان عن خبائث الشيطان واليك الآن اختيار اهون الشرين والمبادرة الى اخف النارين قبل ان يطوى بساط الاختيار ويساق الى دار الاضطرار اما الى الجنة واما الى النار واذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع وجب تقديمها في ربع المنجيات لشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمرتها والآفات المانعة منها والادوية الميسرة لها ويتضح ذلك بذكر اركان اربعة ثم قال في بيان حقيقة التوبة بعد تحقيق ان التوبة عبارة عن علم وحال وفعل واعني بهذا العلم الايمان واليقين فان الايمان عبارة عن التصديق بان الذنوب سموم مهلكة واليقين عبارة عن تاكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه وتمرن هذا الايمان مهما اشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب حيث يبصر باشراق نور الايمان انه صار محجوبا عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب او انحسار حجاب فرأى محبوبه قد اشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه فتنبعث من تلك النيران ارادته للانتهاض للتدارك فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مترتبة في الحصول فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدمة والترك كالثمرة والتابع المتاخر وبهذا الاعتبار قال عم الندم توبة اذ لا يخلو الندم عن علم اوجبه واثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه فيكون الندم محفوفا بطرفيه اعني ثمرته ومثمره وبهذا الاعتبار قيل في حد التوبة انه ذوبان الحشا لما سبق من الخطا فان هذا يعرض لمجرد الالم ولذلك قيل هو نار في القلب تلتهب وصدع في الكبد لا ينشعب

لا ينشعب وباعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة انه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء وقال سهل التستري التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ولا يتم ذلك الا بالخلوة والصمت واكل الحلال وكأنه اشار الى المعنى الثالث من التوبة والاقاويل في حد التوبة لا تنحصر واذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت ان جميع ما قيل في حدها قاصر عن الاحاطة بجميع معانيها وطلب العلم بحقائق الامور اهم من طلب الالفاظ المجردة ثم قال رحمه الله في بيان وجوب التوبة وفضلها بعد ذكر الآيات كقوله تعالى يا ايها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم ان يكفر عنكم سيئاتكم الآية وقوله تعالى وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون قال رحمه الله وهذا امر على العموم وبعد ذكر الاخبار كقوله عم التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له الى غير ذلك والاجماع منعقد من الامة على وجوبها اذ معناه العلم بان الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله وهذا داخل في وجوب الايمان ولكن قد تدهش الغفلة عنه فمعنى هذا العلم ازالة هذه الغفلة ولا خلاف في وجوبها ومن معانيها ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الاحوال وذلك لا يشك في وجوبه واما الندم على ما سبق والتحزن عليه فواجب وهو روح التوبة وبه تمام التلافي فكيف لا يكون واجبا بل هو نوع الم يحصل لا محالة عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله فان قلت تألم القلب ضروري لا يدخل تحت الاختيار فكيف يوصف بالوجوب فاعلم ان سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل الى تحصيل سببه وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لا بمعنى ان العلم يخلقه العبد ويحدثه في نفسه فان ذلك محال بل العلم والندم والفعل كلا والارادة والقدرة والقادر والكل من خلق الله وفعله والله خلقكم وما تعملون هذا هو الحق عند ذوي البصائر وما سوى هذا ضلال فان قلت افليس للعبد اختيار

الركن الثاني

فيما عنه التوبة وهو الذنوب صغائرها وكبائرها فاعلم ان التوبة ترك للذنب ولا يمكن ترك الشيء الا بعد معرفته واذا كانت التوبة واجبة كان ما لا

يتوصل اليها الا مرواجبا فمعرفة الذنوب اذا واجب والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لامر الله في ترك او فعل وتفصيل ذلك يستدعي شرح التكليفات من اولها الى اخرها وليس ذلك من غرضنا ولكنا نشير الى مجامعها وروابط اقسامها

بيان اقسام الذنوب بالاضافة الى صفات العبد اعلم ان للانسان اخلاقا واوصافا كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوائله ولكن تنحصر مثارات الذنوب في اربع صفات ربوبية وصفات شيطانية وصفات بهيمية وصفات سبعية وذلك لان طينة الانسان عجنت من اخلاط مختلفة فاقتضى كل واحد من الاخلاط في المعجون منه اثرا من الاثار كما يقتضي السكر والخل والزعفران في السكنجبين اثارا مختلفة فاما ما يقتضيه النزوع الى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والعز والغنا وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كانه يريد ان يقول انا ربكم الاعلى وهذا ينشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوبا وهي المهلكات العظيمة التي هي كالامهات لاكثر المعاصي كما استقصيناه في ربع المهلكات الثانية هي الصفة الشيطانية التي منها يتشعب الحسد والبغي والحيلة والخداع والامر بالفساد والمنكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة الى البدع والضلال الثالثة الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنه يتشعب الزنا واللواطة والسرقة واكل مال الايتام وجمع الحطام لاجل الشهوات الرابعة الصفة السبعية ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الاموال ويتفرع عنها جمل من الذنوب وهذه الصفات لها تدريج في الفطرة فالصفة البهيمية هي التي تغلب اولا ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيا ثم اذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية ثم بالاخرة تغلب الصفات الربوبية وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق فهذه امهات الذنوب ومنابعها ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق واضمار السوء للناس وبعضها على العين والسمع وبعضها على اللسان وبعضها على البطن

البطن والفرج وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن ولا حاجة الى بيان تفصيل ذلك فانه واضح **قسمة ثانية** اعلم ان الذنوب تنقسم الى ما بين العبد وبين الله تعالى والى ما يتعلق بحقوق العباد فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلوة والصوم والواجبات الخاصة وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكوة وقتله النفس وغصبه الاموال وشتمه الاعراض وكل تناول من حق الغير فاما نفس او طرف او مال او عرض او دين او جاه ونيل من الدين بالاغوآء والدعا الى البدعة والترغيب في المعاصي وتهييج اسباب الجرأة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجا على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد فالامر فيه اغلظ وما بين العبد وبين الله تعالى اذا لم يكن شركا فالعفو فيه ارجى واقرب وقد جاء في الخبر الدواوين ثلثة ديوان يغفر وديوان لا يغفر وديوان لا يترك فالديوان الذي يغفر ذنوب العبد بينه وبين الله والديوان الذي لا يغفر الشرك واما الديوان الذي لا يترك فمظالم العباد اي لا بد وان يطالب بها حتى يعفى عنها **قسمة ثالثة** اعلم ان الذنوب تنقسم الى صغائر وكبائر وقد كثر اختلاف الناس فيها فقال قائلون لا صغيرة ولا كل مخالفة لله فهي كبيرة وهذا ضعيف اذ قال الله تعالى ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سياتكم الاية فذلك واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر من اربع الى سبع الى تسع الى احدى عشر فما فوق ذلك فقال ابن مسعود هن اربع وقيل سبع وكان عبد الله بن عباس يقول هي الى سبعين اقرب منها الى السبع قال ابو طالب المكي الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الاخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن مسعود وابن عباس وابن عمر وغيرهم اربع في القلب الخ ثم قال رحمه الله وهذا قريب ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء اذ يمكن الزيادة عليه والنقصان وقال ابو سعيد الخدري وغيره من الصحابة انكم لتعملون اعمالا هي ادق في اعينكم من الشعر كنا نعدها على رسول الله من الكبائر وقالت طائفة كل عمد كبيرة وكل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وكشف الغطاء عن هذا ان نظر الناظر في السرقة اهي كبيرة ام لا لا يصح ما لم يفهم معنى الكبيرة والمراد بها الخ ثم اعيد رحمه الله بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الاخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا قال رحمه الله اعلم

ان الدنيا من عالم الملك والشهادة والآخرة من عالم الغيب والملكوت واعني بالدنيا
حالتك قبل الموت وبالآخرة حالتك بعد الموت فدنياك وآخرتك صفاتك
واحوالك يسمى القريب الداني منها دنيا والمتأخر آخرة ونحن الآن نتكلم في الدنيا
في الآخرة فانا الآن في الدنيا نتكلم وهو عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت
ولا يتصور شرح عالم الملكوت في عالم الملك الا بضرب الامثال ولذلك قال تعالى
وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون وهذا لان عالم الملك نوم
بالاضافة الى عالم الملكوت ولذلك قال عليه السلام الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا وما
سيكون في اليقظة لا يتبين لك في النوم الا بضرب الامثال المحوجة الى التعبير فكذلك ما
سيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا الا في كسوة الامثال واعني بكسوة الامثال
ما تعرفه من علم التعبير ويكفيك منه ان كنت فطنا ثلاثة امثلة فقد جاء رجل الى ابن
سيرين وقال رايت كان في يدي خاتما اختم به افواه الرجال وفروج النساء فقال
انك مؤذن تؤذن في رمضان قبل الفجر فقال صدقت وجاءه آخر فقال رايت كاني
اصب الزيت في الزيتون فقال ان كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فانها
امك لان الزيتون اصل الزيت فهو يرد الى الاصل فنظر فاذا جاريته كانت امه وقد سبيت
في صغره وقال له آخر رايت كاني اقلد الدر في اعناق الخنازير فقال انك تعلم الحكمة
غير اهلها فكان كما قال فالتعبير من اوله الى آخره امثال تعرفك طريق ضرب الامثال وانا
نعني بالمثل اداء المعنى في صورة ان نظر الى معناه وجده صادقا وان نظر الى صورته
كان كاذبا فالمؤذن ان نظر الى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا فانه لم يختم
به قط وان نظر الى معناه وجده صادقا اذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو المنع
الذي يراد الختم له وليس للانبياء ان يتكلموا مع الخلق الا بضرب الامثال لانهم كلفوا
ان يكلموا الناس على قدر عقولهم وقدر عقولهم انهم في النوم والنائم لا يكشف له شيء الا
بمثل فاذا ماتوا انتبهوا وعرفوا ان المثل صادق ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قلب المؤمن
بين اصبعين من اصابع الرحمن وهو من المثال الذي لا يعقله الا العالمون فاما الجاهل
فلا يجاوز حده ظاهر المثال لجهله بالتفسير الذي يسمى تاويلا كما يسمى تفسير ما يرى
من الامثلة في النوم تعبيرا فيقول ثبت لله يد واصبع تعالى الله عن قوله وكذلك في قوله عليه السلام

عليه السلام ان الله خلق آدم على صورته فانه لا يفهم من الصورة الا اللون والشكل والهيئة
فيثبت لله تعالى مثل ذلك تعالى الله عن قوله علوا كبيرا ومن هنا زل من زل في الصفات
الالهية حتى في الكلام وجعله صوتا وحرفا الى غير ذلك من الصفات والقول فيه يطول
وكذلك قد يرد في امر الآخرة ضرب امثلة يكذب بها الملحد بجموده على ظاهر المثال
وتناقضه عنده كقوله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش املح فيذبح فيثور الملحد
الاحمق ويكذب به ويستدل به على كذب الانبياء ويقول يا سبحان الله الموت عرض
والكبش جسم فكيف ينقلب العرض جسما وهل هذا الا محال ولكن الله تعالى عزل الحمقى
عن معرفة اسرار الله تعالى فقال وما يعقلها الا العالمون ولا يدري المسكين ان من قال
في منامه رايت كبشا قد جيء به وقيل هذا الوباء الذي في البلد وذبح فقال المعبر صدقت والامر
كما رايت وهذا يدل على ان هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط لان المذبوح وقع اليأس
عنه فاذا المعبر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته وترجع حقيقته الى ان الملك
الموكل بالرؤيا وهو الذي يطلع الارواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ عرفه ما في
اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لان النائم انما يحتمل المثال وكان مثاله صادقا وكان معناه
صحيحا فالرسل ايضا انما يكلمون الناس في الدنيا وهي بالاضافة الى الآخرة نوم فيوصلون
المعاني الى افهامهم بالامثلة حكمة من الله تعالى ولطفا بعباده وتيسيرا لادراك ما يعجزون
عن ادراكه دون ضرب المثل فقوله يؤتى بالموت في صورة كبش املح مثال ضربه ليوصل
الى الافهام حصول الياس من الموت وقد جبلت القلوب على التاثر بالامثال وثبوت المعاني
فيها بواسطتها ولذلك عبر القرآن بقوله كن فيكون عن نهاية القدرة وعبر صلى الله عليه
وآله بقوله قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن عن سرعة التقليب وقد اشرنا
الى حكمة ذلك في كتاب قواعد العقائد فلنرجع الآن الى الغرض فالمقصود ان تعريف
توزيع الدرجات الخ ثم قال رحمه الله في بيان تمام التوبة وشروطها في
دوامها الى آخر العمر شرط صحتها فيما يتعلق بالماضي ان يرد فكره الى اول يوم
بلغ فيه بالسن او الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهرا شهرا ويوما
يوما ونفسا نفسا وينظر الى الطاعات ما الذي قصر فيه منها والى المعاصي ما الذي
قارفه منها فان كان قد ترك صلاة او صلاها مع ثوب نجس او صلاها بنية غير صحيحة

يجعله بشرط النية ثم يقضيها عن آخرها فان شك في عدد ما فاته منها حاسب نفسه مدة بلوغه
وترك القدر الذي يستيقن انه اداه ويقضي الباقي وله ان ياخذ فيه بغالب الظن و
يصل اليه على سبيل التحري والاجتهاد واما الصوم فان كان قد تركه في سفر ولم يقضه
او افطر عمدا او نسي النية بالليل ولم يقض فيتعرف مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد واما
الزكوة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من اول ملكه لا من زمان البلوغ فان الزكوة
واجبة في مال الصبي فيؤدي ما علم بغالب الظن انه في ذمته وان اداه لا على وجه يوافق
مذهبه بان لم يصرف الى الاصناف الثمانية او اخرج البدل وهو على مذهب الشافعي
فيقضي جميع ذلك فان ذلك لا يجزيه اصلا وحساب الزكوة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج
فيه الى تامل شاف وعليه ان يسال عن كيفية الخروج عنه من العلماء واما الحج فان
كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد افلس فعليه الخروج
لم يبدر مع الافلاس فعليه ان يكتسب من الحلال قدر الزاد فان لم يكن له كسب ولا مال
فعليه ان يسال الناس ليصرف اليه من الزكوات او الصدقات ما يحج به فانه ان مات قبل
الحج مات عاصيا قال عليه السلم من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا وان شاء نصرانيا
والعجز الطاري بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات و
تداركها واما المعاصي فيجب ان يفتش من اول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه
وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ثم ينظر في جميع ايامه وساعاته ويفصل
عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ثم ينظر فيها فما
كان من ذلك بينه وبين الله من حيث لا يتعلق بمظالم العباد كنظر الى غير محرم وقعود
في مسجد مع الجنابة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاهي
وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها وبان يحسب
مقدارها من حيث الكثرة ومن حيث المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها
فياتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات اخذا من قوله عم اتق الله حيث كنت واتبع
السيئة الحسنة تمحها بل من قوله تعالى ان الحسنات يذهبن السيئات فيكفر سماع الملاهي بسماع
القرآن وبمجالس الذكر ويكفر القعود في المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال
بالعبادة ويكفر مس المصحف محدثا باكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة

تقبيله وبان يكتب مصحفا ويجعله وقفا ويكفر شرب الخمر بالتصدق بكل شراب
حلال هو اطيب واحب اليه وعد جميع المعاصي غير ممكن وانما المقصود سلوك طريق
المضادة فان المرض يعالج بضده فكل ظلمة ارتفعت الى القلب بمعصية فلا يمحوها
الا نور يرتفع اليها بحسنة تضادها والمتضادات هي المتناسبات فلذلك ينبغي
ان تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها فان البياض يزال بالسواد لا بالحرارة
والبرودة وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو فالرجاء فيه اصدق
والثقة به اكثر من ان يواظب على نوع واحد من العبادات وان كان ذلك ايضا مؤثرا
في المحو فهذا حكم ما بينه وبين الله ويدل على ان الشيء يكفر بضده ان حب الدنيا
راس كل خطيئة واثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والانس لها والحنين اليها
فلا جرم كان اذى كل مسلم يصيبه بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له اذ
القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم قال عم من الذنوب ذنوب لا
يكفرها الا الهموم وفي لفظ آخر الا الهم بطلب المعيشة فان قلت هم الانسان غالبا بالمال
والولد والجاه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة فاعلم ان الحب له خطيئة والحرمان
عنه كفارة ولو تمتع به لتمت الخطيئة فقد روي ان جبريل دخل على يوسف
فقال له كيف تركت الشيخ الكئيب فقال حزن عليك حزن مائة ثكلى قال فما له
عند الله فقال اجر مائة شهيد فاذن الهموم ايضا مكفرات حقوق الله فهذا حكم
ما بينه وبين الله تعالى واما مظالم العباد ففيها معصية وجناية على حق الله فان
الله نهى عن ظلم العباد ايضا فما يتعلق منه بحق الله تداركه بالندم والتحسر و
ترك مثله في المستقبل والاتيان بالحسنات التي هي اضدادها فيقابل
ايذاءه الناس بالاحسان اليهم ويكفر غصب اموالهم بالتصدق بملكه الحلال
ويكفر تناول اعراضهم بالغيبة والقدح بالثناء على اهل الدين واظهار ما
يعرف من خصال الخير من اقرانه وامثاله ويكفر قتل النفوس باعتاق الرقاب
لان ذلك احياء اذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيده فالاعتاق ايجاد لا
يقدر الانسان على اكثر منه فيقابل الاعدام بالايجاد وبهذا تعرف ان ما ذكرناه
من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل

بإعتاق رقبة ثم إذا فعل ذلك كله لم يكفه ولم ينجه ما لم يخرج من مظالم العباد
ومظالم العباد إما النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب أعني به الإيذا
المحض أما النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية وتسليمها إلى
المستحق إما منه أو من عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول وإن كان عمدا
موجبا للقصاص فبالقصاص فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي
الدم ويحكمه في روحه فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله ولا تسقط عهدته
إلا بهذا ولا يجوز له الإخفاء وليس هذا كما لو زنا أو شرب أو سرق أو قطع الطريق
أو باشر ما يجب فيه حد الله فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره
ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله بل عليه أن يستتر بستر الله ويقيم حد الله على
نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب فالعفو في محض حقوق الله قريب من التائبين
النادمين فإن رفع أمره إلى الوالي حتى أقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته
صحيحة مقبولة عند الله بدليل ما روي أن ماعز بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال يا رسول الله قد ظلمت نفسي وزنيت فرده الثانية فلما كان الثالثة
أمر به فحفر له حفيرة ثم أمر به فرجم فكان الناس فيه فرقتين فقائل يقول لقد هلك
لقد أحاطت به خطيئته وقائل يقول ما توبة أفضل من توبة ماعز فقال رسول الله
لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم وجاءت الغامدية فقالت يا رسول الله إني
زنيت فطهرني فردها فلما كان الغد قالت يا رسول الله لم تردني لعلك تريد أن
تردني كما رددت ماعزا قالت فوالله إني لحبلى فقال أما الآن فلا فاذهبي حتى تضعي
فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة فقالت هذا قد ولدته قال اذهبي فأرضعيه حتى
تفطميه فلما فطمته أتته بالصبي وفي يده كسرة خبز فقالت هذا يا نبي الله قد فطمته
وقد أكل الطعام فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر
الناس فرجموها فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد
فسبها فسمع رسول الله صلعم سبه إياها فقال مهلا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد
تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت وأما القصاص
وحد القذف فلا بد من تحكيم المستحق فيه وإن كان المتناول مالا تناوله بغصب أو خيانة

أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص
أجرة أجير أو منع أجرة فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حد بلوغه بل من أول مدة
وجوده فإن ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراجه بعد البلوغ إن كان الولي قد قصر
فإن لم يفعل كان ظالما مطالبا به إذ يستوي في الحقوق المالية الصبي والبالغ وليحاسب
نفسه على الحبات والدوانق من أول يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة
وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه فإذا
حصل مجموع ما عليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد يمكن فليكتبه وليكتب أسامي
أصحاب المظالم واحدا واحدا وليطف في نواحي العالم وليطلبهم وليستحلهم أو
ليؤد حقوقهم وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فإنهم لا يقدرون على طلب
المعاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل واحد أن يفعل منه ما يقدر عليه
فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ
حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم وليكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فإنه
إن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره فهذا طريق
كل تائب في رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب
مدة الظلم فكيف وذلك مما لا يعرف وربما يكون الأجل قريبا فينبغي أن يكون تشمره
للحسنات والوقت ضيق أشد من تشمره الذي كان في المعاصي في متسع الأوقات هذا
حكم المظالم الثابتة في ذمته أما أمواله الحاضرة فليرد إلى المالك ما يعرف له مالكا معينا
وما لم يعرف له مالكا فعليه أن يتصدق به فإن اختلط الحرام بالحلال عرف قدر الحرام
بالاجتهاد وتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام وأما الجناية
على القلوب بمشافهة الناس بما يسوءهم أو يعيبهم بأعيبهم فيطلب كل من تعرض له بلسانه
أو آذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحدا واحدا منهم ومن مات أو غاب فقد
فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضا في القيامة وأما من وجده
وأحله بطيب قلبه فذلك كفارته وعليه أن يعرفه قدر جنايته وتعرضه له فالاستحلال
المبهم لا يكفي وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالإحلال وادخر
ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته فإن كان في جملة جنايته

على الغير مالو ذكره وعرّض لتأذّى بمعرفته كزناه بجاريته او اهله او نسبته باللسان الى عيب من خفايا عيوبه يعظم اذاه مهما شوفه به فقد انسدّ عليه طريق الاستحلال
فليس له الا ان يستحلّ منها ثم يبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت
والغائب فاما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها ومهما ذكرها
وعرفها المجني عليه فلم تسمح نفسه بالاحلال بقيت المظلمة عليه فان هذا حقه فعليه
ان يتلطف به ويسعى في مهماته واغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به
قلبه فان الانسان عبد الاحسان وكل من نفر بسيئة مال بحسنة فاذا طاب قلبه بكثرة
تودده وتلطفه سمحت نفسه بالاحلال فان ابى الا الاصرار فيكون تلطفه به
واعتذاره اليه من جملة حسناته التي يمكن ان يجبر بها في القيامة جنايته وليكن قدر
سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في اذاه حتى اذا قاوم
احدهما الاخر او زاد عليه اخذ ذلك منه عوضا في القيامة بحكم الله به عليه كمن اتلف
في الدنيا مالا فجاء بمثله فامتنع من له المال من القبول ومن الابراء فان الحاكم يحكم عليه بالقبض
منه شاء ام ابى فكذلك يحكم في صعيد القيامة احكم الحاكمين واعدل المقسطين وفي المتفق
عليه بين الصحيحين عن ابي سعيد الخدري ان نبي الله صلعم قال كان فيمن كان قبلكم رجل
قتل تسعة وتسعين نفسا فسال عن اعلم اهل الارض فدلّ على راهب فقال انه قتل تسعة
وتسعين نفسا فهل له من توبة فقال لا فقتله فكمل به مائة ثم سال عن اعلم اهل الارض
فدل على رجل عالم فقال انه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال نعم ومن يحول بينه وبين
التوبة انطلق الى ارض كذا وكذا فان بها ناسا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم
ولا ترجع الى ارضك فانها ارض سوء فانطلق حتى اذا نصف الطريق اتاه الموت
فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا
بقلبه الى الله تعالى وقالت ملائكة العذاب انه لم يعمل خيرا قط فاتاهم ملك في صورة آدمي
فجعلوه بينهم فقال قيسوا ما بين الارضين فالى ايتهما كان ادنى فهو له فقاسوا فوجدوه
ادنى الى الارض التي اراد فقبضته ملائكة الرحمة وفي رواية فكان الى القرية الصالحة
اقرب منها بشبر فجعل من اهلها وفي رواية فاوحى الله الى هذه ان تباعدي والى هذه
ان تقربي وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه الى هذه اقرب بشبر فغفر له فبهذا تعرف انه

انه لا خلاص الا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال فلابد للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم
القصد المتعلق بالماضي فاما العزم المرتبط بالاستقبال فهو ان يعقد مع الله عقدا مؤكدا
ويعاهده بعهد وثيق انه لا يعود الى تلك الذنوب ولا الى امثالها كالذي يعلم في مرضه ان
الفاكهة تضره مثلا فيعزم عزما جزما انه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه فان هذا العزم
يتأكد في الحال وان كان يتصور ان يغلبه الشهوة في ثاني الحال ولكن لا يكون تائبا ما لم يتأكد
عزمه في الحال ولا يتصور ان يتم ذلك للتائب في اول امره الا بالعزلة والصمت وقلة
الاكل والنوم واحراز قوت حلال فان كان له مال موروث حلال او كانت له حرفة يكتسب
بها قدر الكفاية فليقتصر عليه فان راس المعاصي اكل الحرام فكيف يكون تائبا مع الاصرار
عليه ولا يكتفي بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات في الماكولات والملبوسات
قال بعضهم من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله تعالى سبع مرات لم يبتل بها وقال
آخر من تاب من ذنب واستقام عليه سبع سنين لم يعد اليه ابدا ومن مهمات التائب
اذا لم يكن عالما ان يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة
وان لم يوثر العزلة لم يتم له الاستقامة المطلقة الا ان يتوب عن بعض الذنوب كالذي
يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلا وليست هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس
ان هذه التوبة لا تصح وقال قائلون تصح ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل بل نقول
لمن قال لا تصح ان عنيت به ان تركه بعض الذنوب لا يفيد اصلا بل وجوده كعدمه فما
اعظم خطأك فانا نعلم ان كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقلتها سبب لقلته
ونقول لمن قال تصح ان اردت ان التوبة عن بعض الذنوب يوجب قبولا يوصل الى
النجاة او الفوز فهذا ايضا خطأ بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر ولسنا نتكلم
في خفايا اسرار عفو الله تعالى فان قال من ذهب الى انه لا تصح اني اردت به ان التوبة عبارة
عن الندم وانما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية لا لكونها سرقة ويستحيل ان
يندم عليها دون الزنا ان كان توجعه لاجل المعصية فان العلة شاملة لهما اذ من
يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين لان توجعه بفوات محبوبه سواء
كان بالسيف او بالسكين فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية سواء
عصى بالسرقة او بالزنا فكيف يتوجع على البعض دون البعض فالندم حالة يوجبها العلم

يكون المعصية مكروها للمحبوب من حيث انها معصية فلا يتصور ان يكون على بعضها دون بعض ولو جاز هذا لجاز ان يتوب من شرب الخمر من احد الدنين دون الآخر فان استحال ذلك من حيث ان المعصية فلا يتصور ان يكون على بعض المعاصي دون بعض ولو جاز في الخمرين واحد وانما الدنان ظروف فكذلك اعيان المعاصي آلات للمعاصي والمعصية من حيث انها مخالفة الامر واحد فاذن معنى عدم التصور ان التوبة وعد التائبين بتقديره بذلك الرتبة لا ينال الا بالندم ولا يتصور الندم على بعض المماثلات فهو كالملك المترتب على الايجاب والقبول فانه اذا لم يتم الايجاب والقبول يقال ان العقد لا يصح اي لا يترتب عليه الثمرة وهو الملك وتحقيق هذا ان ثمرة مجرد الترك ان ينقطع عنه عقاب ما تركه وثمرة الندم تكفير ما سبق فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصور الندم الا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصي وهذا كلام مفهوم واقع يستنطق المنصف بتفصيل ينكشف به الغطاء فنقول التوبة عن بعض الذنوب لا يخلو اما ان يكون عن الكبائر دون الصغائر او عن الصغائر دون الكبائر او عن كبيرة اما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فهو ممكن لانه يعلم ان الكبائر اعظم عند الله واجلب لسخط الله ومقته والصغائر اقرب الى تطرق العفو اليها فلا يستحيل ان يتوب عن الاعظم ويتندم عليه كالذي يجني على اهل الملك وحرمه ويجني على دابته فيكون خائفا من الجناية على الاهل مستحقرا الجناية على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله وهذا يمكن وجوده في الشرع فقد كثر التائبون في الاعصار الخالية ولم يكن احد منهم معصوما فلا يستدعي التوبة العصمة والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيرا شديدا ويحذره السكر تحذيرا اخف منه على وجه يشعره معه بانه ربما لا يظهر ضرر السكر اصلا فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وان اكلهما جميعا بحكم شهوة وندم على اكل العسل دون السكر الثاني ان يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا ايضا ممكن لاعتقاده ان بعض الكبائر اشد واغلظ عند الله كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه بان ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو اليه فهذا ايضا ممكن كما في تفاوت الصغائر والكبائر لان الكبائر ايضا متفاوتة

متفاوتة في انفسها وفي اعتقاد مرتكبها وكذلك قد يتوب من الكبائر التي لا تتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلا اذ يتضح ان الخمر مفتاح الشرور وانه اذا زال العقل ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري فيترجح شرب الخمر عنده بهذا فينبعث منه خوف يوجب ذلك تركا في المستقبل وندما على الماضي الثالث ان يتوب عن صغيرة وهو مصر على كبيرة يعلم انها كبيرة كالذي يتوب عن الغيبة وعن النظر الى غير المحرم او ما يجري مجراه وهو مصر على شرب الخمر وهو ايضا ممكن ووجه امكانه انه ما من مؤمن الا وهو خائف على معاصيه ونادم على فعله ندما اما ضعيفا واما قويا ولكن يكون لذة نفسه في تلك المعصية اقوى من الم قلبه في الخوف منها لاسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة واسباب توجب قوة الشهوة فيكون الندم موجودا ولكن لا يكون مليا بتحريك العزم ولا قويا عليه فان سلم عن شهوة اقوى منه بان لم يعارضه الا ما هو اضعف منه قهر الخوف الشهوة وغلبها واوجب ذلك ترك المعصية وقد تشتد ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه ويكون له ضراوة ما بالغيبة وثلب الناس والنظر الى غير المحرم وخوفه من الله قد بلغ مبلغا يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب غلبة جند الخوف انبعاث العزم للترك بل يقول هذا الفاسق في نفسه ان قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا ينبغي ان اخلع العذار وارخي العنان بالكلية بل اجاهده في بعض المعاصي فعساني اغلبه فيكون قهري له في البعض كفارة لبعض ذنوبي ولو لم يتصور هذا لما تصور من الفاسق ان يصوم ويصلي ولقيل له ان كانت صلاتك لغير الله فلا تصح وان كانت لله فاترك الفسق لله فان امر الله فيه واحد فلا يتصور ان تقصد بصلاتك التقرب الى الله تعالى ما لم تتقرب بترك الفسق وهذا محال بل يقول لله علي امران ولي على المخالفة فيهما عقوبتان وانا مليء في احدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر فاقهره فيما اقدر عليه وارجو بمجاهدتي فيه ان يكفر عني ما عجزت عنه بفرط شهوتي فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم اذ لا مسلم الا وهو جامع بين طاعة الله و

ومعصيته ولا سبب له الا هذا واذا فهم هذا فهم ان غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب
ممكن وجوده والخوف اذا كان من فعل ماض اورث الندم والندم يورث العزم
وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم الندم توبة ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال عليه السلام التائب
من الذنب كمن لا ذنب له ولم يقل التائب من الذنوب كلها وهذه المعاني تدل على
الندم على كل ذنب يتبين ان التوبة عن بعض الذنوب غير ممكن لانها مما له في حق الشهوة
وفي حق التعرض لسخط الله نعم يجوز ان يتوب عن الخمر دون النبيذ لتفاوتهما في اقتضاء
السخط ويتوب عن الكثيرة دون القليل لان الكثيرة المعصية تؤثر في كثرة العقوبة
فيتوب عند الشهوة بالقدر الذي يحتمله ويترك بعض شهوته كالمريض الذي حذره
الطبيب الفاكهة فانه يتناول قليلها ولكن لا يستكثر منها فقد حصل من هذا انه لا
يمكن ان يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لا بد وان يكون ما تاب عنه مخالفا
لما بقي عليه اما في ثقله فقد حصل من هذا انه لا يمكن ان يتوب عن شيء ولا يتوب
شدة المعصية واما في غلبة الشهوة واذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب
تصور ان يختلف حاله في الخوف والندم فيتصور اختلاف حاله في الترك فندمه
على ذلك الذنب ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب وان لم يكن قد
اطاع الله في جميع الاوامر والنواهي فان قلت فهل يصح توبة العنين من الزنا
الذي قارفه قبل طريان العنة فاقول لا فان ارجو ان يكون ذلك كفا
لذنبه ماحيا عنه سيئته اذ لا خلاف في انه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيبه
كان من التائبين وان لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر اسباب القضاء
للشهوة ولكنه تائب باعتبار انه ندم ندما بلغ مبلغا اوجب صرف قصده عن الزنا لو
ظهر قصده فاذن لا يستحيل ان يبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ الا انه
لا يعرفه من نفسه فان كل من لا يشتهي شيئا يعد نفسه قادرا على تركه بادنى خوف والله
مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فعساه يقبله بل الظاهر انه يقبل والحقيقة فيه
ترجع الى ان ظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين احدهما حرقة الندم والاخر شدة المجاهدة
بالترك في المستقبل وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالا ان يقوى
الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ولولا هذا لقلنا ان التوبة لا تقبل

ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات
كثيرة وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه اصلا فان قلت اذا فرضنا تائبين
احدهما سكنت نفسه عن النزوع الى الذنب والاخر بقيت نفسه تنزع وهو يجاهدها
ويمنعها فايهما افضل فاعلم ان هذا مما اختلف العلماء فيه فقال احمد بن ابي الحواري
واصحاب ابي سليمان الداراني ان المجاهد افضل لان له مع التوبة فضل الجهاد وقال علماء
البصرة ذلك الاخر افضل لانه لو فترت توبته كان اقرب الى السلامة من المجاهد الذي
هو في عرضة الفتور عن المجاهدة وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن
قصور عن كل الحقيقة والحق فيه ان الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان احداهما ان يكون
انقطاع نزوعها اليه بفتور في نفس الشهوة فقط فالمجاهد افضل من هذا اذ ترك المجاهدة
تدل على قوة يقينه واستيلاء دينه على شهوته فهو دليل قاطع على قوة اليقين وعلى
قوة الدين قوة الارادة التي تنبعث باشارة اليقين وتقمع الشهوة المنبعثة باشارة
الشياطين فهاتان قوتان يدل المجاهدة عليهما قطعا وقول القائل ان هذا اسلم اذ لو
لا يعود الى هذا فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الافضل فيه خطأ وهو كقول القائل
العنين افضل لانه امن من خطر الشهوة والصبي افضل من البالغ لانه اسلم والمفلس
افضل من الملك القاهر القامع لاعدائه لان المفلس لا عدو له والملك ربما يغلب
وان غلب فات وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غافل بان العز
في الاخطار بطريق العلاء شرطه اقتحام الاخطار بل هو كقول القائل الصياد الذي ليس له
فرس ولا كلب افضل في صناعة الاصطياد واعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس لانه امن
من ان يجمح به فرسه فيكسر اعضاءه عند السقوط على الارض وامن من ان يعضه الكلب
ويتعدى عليه فهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب اذا كان قويا عالما بطريق تاديبهما
اعلى رتبة واحرى بدرك سعادة الصيد والحالة الثانية ان يكون بطلان النزوع
بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة اذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة
حتى تادبت باداب الشرع فلا تهيج الا باشارة الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين
عليه فهذا اعلى رتبة من المجاهد المقاسي لهيجان الشهوة وقمعها وقول القائل ان له
فضل الجهاد مقصود من الاماطة مقصود الجهاد فان الجهاد ليس مقصودا لعينه بل المقصود

مقلع منازع العدو حتى لا يحركه الشهوات وان عجز عن مجاوزته فلا يصدك
عن سلوك طريق الدين فاذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت وما دمت في
المجاهدة فانت بعد في طلب الظفر ومثال الكامل من فلا يصده عن سلوك طريق
الدين فاذا قهره وحصلت المقصود تم العدو واسترقه بالاضافة الى من هو مشغول
بالمجاهدة في صف القتال ولا يدري كيف يسلم ومثاله ايضا مثال من علم كلب الصيد وراض
الفرس فهما بامان عنده بعد تركه الكلب الضراوة والفرس الجماح بالاضافة الى من هو
مشغول بمقاسات التاديب بعد ولقد زلت في هذا فريق فظنوا ان الجهاد هو المقصد
الاقصى ولم يعلموا ان ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق وظن آخرون ان قمع
الشهوات واماطتها بالكلية مقصود حتى جرب بعضهم فعجز عنه فقال هذا محال فكذب
بالشرع وسلك سبيل الاباحة واسترسل في اتباع الشهوات فكل ذلك جهل وضلال
وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات ف قال الشيخ رحمه الله بعد
ذكر دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الاصرار فان قلت فاذكر الطريق الذي
ينبغي ان يسلكه الواعظ في وعظ الخلق فاعلم ان ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه
نعم نشير الى الانواع النافعة في حل عقدة الاصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهي
اربعة انواع النوع الاول ان يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين
وكذلك ما ورد من الاخبار والآثار والنوع الثاني حكايات الانبياء والسلف وما
جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق
مثل احوال آدم وعصيه ومروي في الاسرائيليات ان رجلا تزوج امراة من بلدة اخرى
وارسل عبده ليحملها اليه فراودته نفسه وطالبته بها فجاهدها واستعصم قال
فنبأه الله ببركة تقواه فكان نبيا في بني اسرائيل وفي قصص موسى عليه السلام انه قال للخضر
بم اطلعك الله على علم الغيب فقال بترك المعاصي لاجل الله تعالى ويروى ان الله تعالى اوحى
الى يعقوب عليه السلام اتدري لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف قال لا قال لقولك
لاخوته اخاف ان ياكله الذئب لم خفت عليه الذئب ولم ترجني ولم نظرت الى غفلة
اخوته ولم تنظر الى حفظي له وكذلك لما قال يوسف اذكرني عند ربك قال الله تعالى فانساه الشيطان
ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين وامثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والاخبار

والاخبار ورودها اسمارا بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار ليعلم ان الانبياء
عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم فكانت سعادتهم
في ان عوجلوا بالعقوبة ولم تؤخر الى الآخرة والاشقياء يمهلون ليزدادوا اثما فان عذاب
الآخرة اشد واكبر فهذا ايضا مما ينبغي ان يكثر جنسه على اسماع المصرين فانه نافع
في تحريك دواعي التوبة النوع الثالث ان يقرر عندهم ان تعجيل العقوبة في الدنيا
متوقع على الذنب وان كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته ثم قال
رحمه الله واعلم انه لا يذنب العبد ذنبا الا ويسود وجه قلبه فان كان سعيدا
اظهر السواد على ظاهره لينزجر وان كان شقيا اخفي عنه حتى ينهمك ويستوجب النار
والاخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيره بل من شؤم الذنب في
في الدنيا على الجملة ان يكتسب ما بعده صفته فاذا ابتلي بشيء كان عقوبة ويحرم جميل الرزق
حتى يتضاعف شقاوة وان اصابته نعمة كان استدراجا له ويحرم جميل الشكر حتى
يعاقب على كفرانه النوع الرابع ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر
والزنا والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد وذلك مما لا يمكن حصره وذكره
مع غير اهله وضع للدواء في غير موضعه بل ينبغي ان يكون العالم كالطبيب الحاذق
اولا بالنبض والسحنة ووجوه الحركات على العلل الباطنة ويشتغل بعلاجها فليستدل
بقرائن الاحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليها فقد اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم
حيث قال له واحد اوصني ولا تكثر علي فقال لا تغضب وقال له آخر اوصني فقال
عليك باليأس مما في ايدي الناس فان ذلك هو الغنى واياك والطمع فانه الفقر الحاضر
وصل صلاة مودع واياك وما تعتذر منه وقال رجل لمحمد بن واسع اوصني فقال
اوصيك ان تكون ملكا في الدنيا والآخرة فقال كيف لي بذلك قال الزم الزهد في
الدنيا فكانه صلى الله عليه وسلم توسم في السائل الاول مخايل الغضب فنهاه عنه وفي السائل الآخر
مخايل الطمع في الناس وطول الامل وتخيل محمد بن واسع في السائل مخايل الحرص على
الدنيا فاذن على كل ناصح ان يكون غايته معرفة التفرس الصفات الخفية وتوسم
الاحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم فان حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد
غير ممكن ولا اشتغال بوعظ بما هو مستغن عن الوعظ فيه تضييع زمان فان قلت

فان كان الواعظ يتكلم في جمع اصناف من لا يهتدي باطن حاله ان يعظهم فكيف يفعل قال على
ان طريقه في ذلك ان يعظهم ما يشترك كافة الخلق في الحاجة اليه اما على العموم واما على
الاكثر فان في علوم الشرع اغذية للكافة والادوية لارباب العلل ومثاله ما قال
لقمان لابنه يا بني زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيمقتوك وخذ من الدنيا بلاغك
وانفق فضول كسبك لآخرتك ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا وعلى اعناق
الرجال كلا وصم صوما يكسر شهوتك ولا تصم صوما يضر بصلاتك فان الصلاة افضل
من الصوم ولا تجالس السفهاء ولا تخالط ذا الوجهين وقال ايضا لابنه يا بني لا تضحك من
غير عجب ولا تمش في غير ارب ولا تسأل عما لا يعنيك ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك
فان مالك ما قدمت ومال غيرك ما اخرت يا بني انه من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن
يقل الخير يغنم ومن يقل الشر يأثم ومن لا يملك لسانه يندم فهذه المواعظ وامثالها
مثل الاغذية التي تشترك الكافة في الانتفاع بها ولاجل هذا قال الوعاظ الخ
باب الاتعاظ الخ ولما كان طلب الطبيب في علاج المرض فطلب العلماء اولى بعلاج العلماء
فهذا احد اركان العلاج واصوله والاصل الثاني الصبر الخ ثم ذكر رحمه الله كتاب
من ربع المنجيات وهو كتاب الصبر والشكر فضل الصبر قال رحمه الله قد وصف الله تعالى
الصابرين باوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا واضاف اكثر الخيرات
والدرجات الى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل وجعلنا منهم ائمة يهدون بامرنا
لما صبروا الى غير ذلك ثم قال واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول وذكر
من الاخبار والآثار كثيرا ثم ذكر بيان حقيقة الصبر الخ ثم قال رحمه الله بعد
ذكر بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه فاذا عرفت الآن معنى الملك والرتبة
ومعنى الشهوة العلوية ومدخل المغالطة في ذلك وكيف تجنيها الشيطان فلتيسر فيسهل
عليك النزوع عن الملك والجاه والاعراض عنه والصبر عند فواته اذ تصير تركهما
الحال فتمحوا به ملكا في الآخرة ومن كوشف بهذه الامور بعد ان الف الجاه وانس
ورسخ فيه بالعادة مباشرة اسبابه فلا يكفيه في علاج مجرد العلم والكشف بل لا بد
وان يضيف اليه العمل وعمله في ثلاثة امور احدها ان يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد
اسبابه فيعسر عليه الصبر مع الاسباب كما يهرب من غلبة الشهوة عن مشاهدة الصورة

الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله تعالى في سعة الارض اذ قال تعالى
الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها الثاني ان يكلف نفسه في اعماله افعالا تخالف
ما اعتاده فيبدل التكلف بالتبذل وزي الحشمة بزي التواضع وكذلك كل هيئة وحال
وفعل في مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه فينبغي
ان يبدلها بنقائضها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما ترسخ فيه من قبل باعتياد ضده
فلا معنى للمعالجة الا المضادة الثالث ان يراعي في ذلك التلطف والتدريج فلا ينتقل
دفعة واحدة الى الطرف الاقصى من التبذل فان الطبع ينفر ولا يمكن نقله عن اخلاقه
الا بالتدريج فيترك البعض ويسلي نفسه بالبعض ثم اذا قنعت نفسه بذلك البعض
ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض الى ان تقنع بالبقية وهكذا يفعل شيئا فشيئا الى
ان يقمع تلك الصفات التي رسخت فيه والى هذا التدريج الاشارة بقوله صلى الله
عليه وسلم ان هذا الدين متين فاوغل فيه برفق ولا تبغض الى نفسك عبادة الله
تعالى فان المنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى والى الاشارة بقوله عليه السلام لا تشادوا
هذا الدين فان من شاده يغلبه فاذن ما ذكرناه في علاج الصبر عن الوسواس ومن
الشهوة ومن الجاه اضفه الى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة
النفس من ربع المهلكات واتخذه دستورا لتعرف به علاج الصبر في جميع الاقسام التي
فصلناها من قبل بان تفصيل الآحاد يطول ومن راعى التدريج ترقى به الصبر الى حال
يشق عليه الصبر معه فتنعكس اموره فيصير ما كان محبوبا عنده ممقوتا وما كان مكروها
عنده مشربا هنيئا لا يصبر عنه وهذا لا يعرف الا بالتجربة والذوق وله نظير في
العادات فان الصبي يحمل على التعلم في الابتداء قهرا فيشق عليه الصبر عن اللعب
والصبر مع العلم حتى اذا انفتحت بصيرته
وانس بالعلم انقلب الامر الخ
ثم قال رحمه الله في بيان الافضل من الصبر والشكر اعلم ان الناس اختلفوا
في ذلك فقال قائلون الصبر افضل من الشكر وقال آخرون الشكر افضل وقال
آخرون هما سيان وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الاحوال واستدل كل
فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل فلا معنى للتطويل بالنقل بل

المبادرة الى اظهار الحق اولى فنقول في بيان ذلك مقامان ثم بعد ذكرنا قال
قد بينا ان الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية وفيهما يتحد الشكر والصبر
لان الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة لان الشكر يرجع الى صرف نعمة الله
تعالى الى ما هو المقصود منها بالحكمة والصبر يرجع الى ثبات باعث الدين في مقابلة
باعث الهوى فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين فثبات
باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالاضافة الى باعث الهوى و
يسمى شكرا بالاضافة الى باعث الدين اذ باعث الدين انما خلق لهذه الحكمة وهي
ان يصرع به باعث الشهوة فقد صرفه الى مقصودها فهما عبارتان عن معبر واحد
فكيف يفضل الشيء على نفسه فاذا مجاري الصبر ثلثة الطاعة والمعصية والبلايا
وقد ظهر حكمهما في الطاعة والمعصية اما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة والنعمة
اما ان تكون ضرورية كالعينين مثلا واما ان تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر
الكفاية من المال اما العينان فصبر الاعمى عنهما بان لا يظهر الشكوى ويضمر الرضا بقضاء الله تعالى
ولا يترخص بسبب العمى في بعض المعاصي وشكر البصير عليهما من حيث العمل بامرين احدهما
ان لا يستعين بهما على معصية والاخر ان يستعملهما في الطاعة وكل واحد من الامرين لا يخلو
عن الصبر فان الاعمى كفي الصبر عن الصور الجميلة لانه لا يراها والبصير اذا وقع بصره على
جميل فصبر كان شاكرا لنعمة العينين وان اتبع النظر كفر نعمة العينين فقد دخل الصبر في
شكره وكذلك اذا استعان بالعينين على الطاعة فلا بد فيه ايضا من صبر على الطاعة
ثم قد يشكرها بالنظر الى عجائب صنع الله ليتوصل به الى معرفة الله تعالى فيكون هذا الشكر
افضل من الصبر ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا وقد كان ضريرا من
الانبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره لانه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم
يصبر ولكان الكمال في ان يسلب الانسان الاطراف كلها ويترك كلحم على وضم فذلك
محال جدا لان كل واحد من هذه الاعضاء آلة في الدين يفوت بفواتها ذلك الركن من
الدين وشكرها استعمالها فيما هي آلة فيه من الدين وذلك لا يكون الا بصبر واما ما يقع
في محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فانه اذا لم يؤت الا قدر الضرورة وهو
محتاج الى ما وراءه فهو الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقراء ووجدان الزيادة نعمة فشكرها

وشكرها ان يصرفها الى الخيرات وهو ان لا يستعملها في المعصية فان اضيف الصبر الى
الشكر الذي هو صرفها الى الطاعة فالشكر افضل لانه تضمن الصبر ايضا وفيه فرح
بنعمة الله وفيه احتمال الم في صرفها الى الفقراء وترك صرفها الى التنعم المباح فيكون
الحاصل يرجع الى ان شيئين افضل من شيء واحد وان الجملة اعلى رتبة من البعض
وهذا فيه خلل اذ لا يصح الموازنة بين الجملة وبين ابعاضها واما اذا كان شكره بان
لا يستعين به على معصية بل يصرفها الى التنعم المباح فالصبر ههنا افضل من الشكر و
الفقير الصابر افضل من الغني الشاكر الذي يمسك ماله الا الى الخيرات لان الفقير قد جاهد نفسه
وكسر نهمتها واحسن الرضا على بلاء الله تعالى وهذه الحالة تستدعي قوة والغني اتبع
نهمته واطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح وفي المباح مندوحة عن الحرام ولكن
لا بد من قوة في الصبر عن الحرام ايضا الا ان القوة التي عنها يصدر صبر الفقير اعلى واتم
من القوة التي عنها يصدر الاقتصار في التنعم على المباح والشرف لتلك القوة التي
يدل العمل عليها فان الاعمال لا تراد الا لاحوال القلب وتلك القوة حالة للقلب تختلف
بحسب قوة اليقين والايمان فما دل على زيادة قوة في الايمان فهو افضل لا محالة و
جميع ما ورد من تفضيل اجر الصبر على اجر الشكر في الآيات والاخبار انما اريد به هذه
الرتبة على الخصوص لان السابق الى افهام الناس من النعم الاموال والغنى بها و
السابق الى الافهام من الشكر ان يقول الانسان الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على
المعصية لا ان يصرفها الى الطاعة فاذا الصبر افضل من الشكر اعني الصبر الذي تفهمه
العامة والى هذا المعنى على الخصوص اشار الجنيد حيث سئل عن الصبر والشكر
ايهما افضل فقال ليس مدح الغني بالوجود ولا مدح الفقير بالعدم وانما المدح في
الاثنين قيامهما بشرط ما عليهما وهو صحيح من جملة اقسام الصبر والشكر القسم الذي
ذكرناه وهو لم يرد سواه ويقال كان ابو العباس بن عطا قد خالفه في ذلك فقال
الغني الشاكر افضل من الفقير الصابر فدعا عليه الجنيد فاصابه ما اصابه من البلاء من
قتل اولاده وتلف ماله وزوال عقله اربع عشرة سنة فكان يقول دعوة الجنيد
اصابتني ورجع الى تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر ومهما لاحظت المعاني التي
ذكرناها علمت ان لكل واحد من القولين وجها في بعض الاحوال فرب فقير صابر افضل

من غني شاكر كما سبق ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر وذلك هو الغني الذي
يرى نفسه مثل الفقير إذ لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه
إلى الخيرات أو يمسكه على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين والمساكين وإنما ينتظر حاجة محتاج
حتى يصرف إليها ثم إذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولا لتقليد منة بل أداء لحق الله
تعالى في تفقد عباده فهذا أفضل من الصابر فإن قلت فهذا لا يثقل على النفس والفقير
يثقل عليه الفقر لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذلك يستشعر ألم الصبر فإن كان
يتألم بفراق المال فيجبر ذلك بلذة القدرة على الإنفاق فاعلم أن الذي نراه
أن من سخا بالعطاء عن رغبة وطيب نفس أكمل ممن ينفق وهو بخيل به وإنما يقطعه عن
نفسه قهرا وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة فإيلام النفس ليس
مطلوبا لعينه بل لتأديبها وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد والكلب المتأدب أكمل من
الكلب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابرا على الضرب وكذلك يحتاج إلى الإيلام
والمجاهدة في البداية ولا يحتاج إليه في النهاية بل النهاية أن يصير ما كان مؤلما
في حقه لذيذا عنده كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذيذا بعد أن كان مؤلما له ولما
كان الناس كلهم إلا الأقلين في البداية بل في مثل البداية كان الأحق
إطلاق الجنيد القول بأن الذي هو صفته أفضل فهو كما قال صحيح فيما أراده
من عموم الخلق فإذا كنت لا تفصل الجواب فيظفر بإرادة الأكثر فإطلاق القول
بأن الصبر أفضل من الشكر فإنه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام فأما الذي أريد
التحقيق فيفصل فإن للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهة ووراءها
الرضا وهو مقام وراء الصبر ووراء الشكر على البلاء وهو وراء الرضا إذ الصبر
مع التألم والرضا يمكن مع الإيلام وفيه لا فرح والشكر لا يمكن إلا على محبوب يفرح
به وكذلك للشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها ويدخل جملتها أمور
فإن حياء العبد من تتابع نعم الله تعالى عليه شكر ومعرفته بتقصيره عن الشكر
شكر والاعتذار من قلة الشكر شكر والمعرفة بعظم حلم الله وكشف ستره
شكر والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر والعلم
بأن الشكر أيضا نعمة من نعم الله تعالى وموهبة منه شكر وحسن التواضع بالنعم

بالنعم والتذلل فيها شكر وشكر الوسائط شكر إذ قال عليه السلام من لم يشكر الناس
لم يشكر الله وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة وقلة الاعتراض
وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها
شكر فما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تحصر آحاده
وهي درجات مختلفة فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلا على
سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كما ورد في الأخبار والآثار الخ : ثم
ذكر رحمه الله في بيان فضيلة الرجاء كثيرا من الأخبار والآثار منها أن يحيى
بن أكثم رئي في النوم بعد موته فقيل له ما فعل الله بك فقال أوقفني بين يديه
فقال يا شيخ فعلت وفعلت قال فأخذني من الرعب ما يعلم الله ثم قلت يا رب
ما هكذا حدثت عنك فقال وما حدثت عني فقلت حدثني عبد الرزاق عن
معمر عن الزهري عن أنس عن نبيك صلى الله عليه وآله عن جبريل عم أنك قلت أنا عند
ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء وكنت أظن بك أن لا تعذبني فقال عز وجل صدق
جبريل وصدق نبيي وصدق أنس وصدق الزهري وصدق معمر وصدق
عبد الرزاق وصدقت قال فألبست وشي بين يدي الولدان إلى الجنة فقلت
يا لها من فرحة وفي الخبر أن رجلا من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد
عليهم قال فيقول الله تعالى له يوم القيامة اليوم أويسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي
منها وقال صلى الله عليه وآله إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي يا
حنان يا منان فيقول الله تعالى لجبريل اذهب فأتني بعبدي فيجيء به فيوقفه على ربه فيقول
الله تعالى كيف وجدت مكانك فيقول شر مكان فيقول ردوه إلى مكانه قال فيمشي
ويلتفت إلى ورائه فيقول الله عز وجل إلى أي شيء تلتفت فيقول لقد رجوت
أن لا تعيدني بعد إذ أخرجتني منها فيقول الله تعالى اذهبوا به إلى الجنة فدل
هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته وحكي أن أبا العباس بن شريح رأى في مرض
موته في منامه كأن القيامة قد قامت وإذا الجبار سبحانه يقول أين العلماء قال
فجاؤوا ثم قال ماذا عملتم فيما علمتم قال فقلنا يا رب قصرنا وأسأنا قال فأعاد السؤال
كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره فقلت أما أنا فليس في صحيفتي الشرك وقد وعدت

ان تغفر ما وتر فقال اذهبوا فقد غفرت لكم فمات بعد ذلك بثلث ليال
قال رحمه الله فبيان فضيلة الخوف والترغيب فيه بعد ذكر طريق الاكتساب اما ما نطق به
الاقتباس من الايات والاخبار فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر وناهيك
دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع
مقامات اهل الجنان قال الله تعالى هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون
فكلما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لان الخوف ثمرة العلم ولذلك جاء
في خبر موسى على نبينا وعليه السلام واما الخائفون فان لهم الرفيق الاعلى لا يشاركون
فيه فانظر كيف افردهم بمرافقة الرفيق الاعلى وذلك لانهم العلماء والعلماء لهم رتبة
مرافقة الانبياء لانهم ورثة الانبياء ومرافقة الرفيق الاعلى للانبياء ومن يلحق
بهم ولذلك لما خير رسول الله صلعم في مرضه بين البقاء في الدنيا وبين القدوم
على الله تعالى كان يقول اسئلك الرفيق الاعلى فاذن ان نظرت الى مثمره فهو العلم
وان نظرت الى ثمرته فالورع والتقوى ولا يخفى ما ورد في فضائلهما حتى ان العاقبة
صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى والصلوة
برسول الله صلعم حتى يقال الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلوة على
محمد واله وقد خصص الله التقوى بالاضافة الى نفسه فقال تعالى لن ينال الله
لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم وانما التقوى عبارة عن كف
بمقتضى الخوف كما سبق ولذلك قال الله تعالى ان اكرمكم عند الله اتقاكم ولذلك
وصى الله تعالى الاولين والاخرين بالتقوى فقال تعالى ولقد وصينا الذين اوتوا
الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله وقال تعالى وخافون ان كنتم مؤمنين فامر بالخوف
واوجبه وشرطه في الايمان فلذلك لا يتصور ان ينفك مؤمن عن خوف وان ضعف
ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وايمانه وقال رسول الله صلعم راس الحكمة مخافة
الله وقال عليه السلام لابن مسعود ان اردت ان تلقاني فاكثر من الخوف بعدي وقال
الفضيل من خاف الله تعالى دله الخوف على كل خير وقال الشبلي ما خفت الله يوما
الا رايت له بابا من الحكمة والعبرة ما رايته قط وذكر رحمه الله غير ذلك من الاخبار
والاثار وكذلك ما ورد في فضائل الذكر لا يخفى وقد جعله الله تعالى مخصوصا بالخائفين

بالخائفين فقال سيذكر من يخشى وقال تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان و
قال رسول الله صلعم من خاف الله تعالى خافه كل شيء وقال صلعم اتمكم عقلا اشدكم لله
خوفا واحسنكم فيما امر الله تعالى به ونهى عنه نظرا وقال يحيى بن معاذ مسكين ابن ادم
لو خاف النار كما يخاف الفقر لدخل الجنة والتشديدات الواردة في الامن من
مكر الله وعذابه لا تنحصر وكل ذلك ثناء على الخوف لان مذمة الشيء ثناء على ضده
الذي ينفيه وضد الخوف الامن كما ان ضد الرجا الياس وكما دل مذمة القنوط
على فضيلة الرجا فكذلك يدل مذمة الامن على فضيلة الخوف المضاد له بل نقول
كلما ورد في فضل الرجا فهو دليل على فضل الخوف لانهما متلازمان وكلما ورد في
فضل البكاء من خشية الله فهو اظهار لفضيلة الخشية فان البكاء ثمرة الخشية وقد
قال الله تعالى فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا وقال تعالى ويبكون ويزيدهم خشوعا وقال تعالى
افمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وانتم سامدون وقال النبي صلعم
ما من مؤمن يخرج من عينيه دمعة وان كانت مثل راس الذباب من خشية الله تعالى
ثم تصيب شيئا من حر وجهه الا حرمه الله على النار وقال صلعم اذا اقشعر قلب المؤمن
من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما تحات من الشجرة ورقها وقال صلعم
لا يلج النار احد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع وقال عقبة بن عامر
ما النجاة يا رسول الله قال امسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على
خطيئتك وقالت عائشة قلت يا رسول الله يدخل احد من امتك الجنة بغير حساب
قال نعم من ذكر ذنوبه فبكى وقال صلعم ما من قطرة احب الى الله تعالى من قطرة دمع من
خشية الله او قطرة دم اهريقت في سبيل الله وقال صلعم اللهم ارزقني عينين هطالتين
تشفيان القلب بذروف الدمع قبل ان يصير الدموع دما والاضراس جمرا وقال صلعم سبعة
يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله وذكر منهم رجلا ذكر الله تعالى في خلوة ففاضت عيناه و
كان محمد بن المنكدر اذا بكى مسح وجهه ولحيته من دموعه فيقول بلغني ان النار لا
تاكل موضعا مسته الدموع وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ابكوا فان لم تبكوا
فتباكوا فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم احدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى
ينكسر صلبه وقال ابو سليمان الداراني ما اغرورقت عين بمائها الا لم يرهق وجه صاحبها
قتر ولا ذلة يوم القيمة فان سالت دموعه اطفا باول قطرة منها بحارا من النيران

ولو ان رجلا بكى في امة لما عذبت تلك الامة وقال ابو سليمان البكاء من الخوف والرجاء
والطرب من الشوق وقال كعب الاحبار والذي نفسي بيده لان ابكي من خشية الله حتى
تسيل دموعي على وجنتي احب الي من ان اتصدق بجبل ذهب وقال عبد الله
بن عمر لان ادمع دمعة من خشية الله احب الي من ان اتصدق بالف دينار فان
قال عبد الله كلما ورد في فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم
وذمه الا من هو دال على فضل الخوف لان جملة ذلك متعلقة به اما تعلق السبب
او تعلق المسبب ثم ذكر رحمه الله بيان ان الافضل غلبة الخوف او الرجاء او
اعتدالهما ان الاصلح اعتدالهما بعد تحقيقات شريفة لذلك ثم قال ولذلك
قال عمر لو نودي ليدخل النار كل الناس الا رجلا واحدا لرجوت ان اكون انا ذلك
الرجل ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس الا رجلا واحدا لخشيت ان اكون انا ذلك
الرجل وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء لكن
على سبيل التقاوم والتساوي فمثل عمر ينبغي ان يتساوى خوفه ورجاؤه اما العاصي اذا
ظن انه الرجل الذي يستثنى من دخول النار كان ذلك دليلا على اغتراره فان قلت
مثل عمر لا ينبغي ان يتساوى خوفه ورجاؤه بل ينبغي ان يغلب رجاؤه كما سبق
في اول كتاب الرجاء فان قوته ينبغي ان يكون بحسب قوة اسبابه كما مثل بالبذر الزرع
ومعلوم ان من بث البذر الصحيح في ارض نقية وواظب على تعهده وجمع شروط
الزراعة غلب على قلبه رجاء الادراك ولم يكن خوفه مساويا لرجائه فهكذا ينبغي ان
يكون احوال المتقين فاعلم ان من ياخذ المعارف من الالفاظ والامثلة يكثر غلطه
وذلك لان ما اوردناه مثالا فليس بمضاهي ما نحن فيه من كل وجه لان سبب غلبة الرجاء
العلم الحاصل بالتجربة بصحة الارض ونقائها وصحة البذر وصحة الهوى وقلة الصواعق
المهلكة في تلك البقاع وغيرها فمثال مسئلتنا بذر لم تجرب جنسه وقد بث في ارض
غريبة لم يعهدها الزارع ولم يختبرها وهي في بلاد ليس يدري اكثر الصواعق بها
اولا فمثل هذا الزارع وان ادى كنه جهده ورجاؤه لكل مقدور فلا يغلب رجاؤه
على خوفه والبذر في مسئلتنا هو الايمان وشروط صحته دقيقة والارض القلب وخفايا
خبثه وصفاته من الشرك الخفي والنفاق والرياء وخفايا الاخلاق غير ظاهرة لاق

والافات هي الشهوات وزخارف الدنيا والالتفات اليها في مستقبل الزمان
وان سلم في الحال وذلك مما لا يتحقق ولا يعرض بالتجربة اذ قد يعرض من الاسباب
ما لا يطاق مخالفته ولم يجرب مثله والصواعق هي اهوال سكرات الموت واضطراب
الاعتقاد عنده وذلك مما لا يجرب ثم الحصاد والادراك عند المنصرف من القيامة
الى الجنة وذلك لم يجرب فمن عرف حقائق الامور فان كان ضعيف القلب جبانا
في نفسه غلب خوفه على رجائه لا محالة كما سنحكيه من احوال الخائفين من الصحابة و
التابعين وان كان قوي القلب ثابت الجاش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه
فاما ان يغلب رجاؤه فلا فلقد كان عمر بالغ في تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة
انه هل يعرف من اثار النفاق شيئا اذ كان قد خصه رسول الله صلعم بعلم المنافقين
فمن الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفي وان اعتقد نقاء
قلبه من ذلك فمن اين يامن مكر الله تعالى بتلبيس حاله عليه واخفاء عيبه منه فان
وثق به فمن اين يثق ببقائه على ذلك الى تمام حسن الخاتمة وقد قال صلعم ان الرجل ليعمل
عمل اهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة الا شبر وفي رواية الا قدر فواق
ناقة فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل اهل النار وقدر فواق الناقة لا يحتمل عملا
بالجوارح انما هو بقدر خاطر يختلج في القلب عند الموت فيقتضي خاتمة السوء فكيف
يؤمن ذلك فاذن اقصى غايات المؤمن ان يعتدل خوفه ورجاؤه واما غلبة الرجاء
في غالب الناس يكون مستنده الاغترار وقلة المعرفة انتهى قال احمد بن حنبل عند
الموت الخ ثم قال والمقصود من ذلك كله ان يحبب الى نفسه ولذلك اوحى الله الى
داود عليه السلام ان حببني الى عبادي فقال بماذا قال بان تذكر لهم الائي ونعمائي فاذن
غاية السعادة ان يموت العبد محبا لله وانما تحصل المحبة بالمعرفة وباخراج حب
الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كالسجن المانع من المحبوب ولذلك راى بعض الصالحين
ابي سليمان الداراني في المنام وهو يطير فسأله فقال الان افلت فلما اصبح سال عن
حاله فقال انه مات البارحة ثم ذكر رحمه الله في بيان الدواء الذي يستجلب
الخوف بعد قوله نعم لداود عم حققني كما تخاف السبع الضاري وتحقيق معناه
وان نظر بالله اثرا على معصيته ولا يثبت الاهل [illegible] باب

الطاعة حتى يطيع شاء ام ابى وايد العاصي بسط على المعصية حتى يعصي شاء ام ابى فاشر
مما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعا بالضرورة
فان كان ابعده لانه عصاه فلم حمله على المعصية بل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل الى
غير النهاية او يقف لا محالة الى اول لا علة له من جهة العبد بل قضى عليه في الازل
عن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وآله اذ قال احتج آدم وموسى الخ ثم قال اعرف
السبب في هذا الامر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين
على سر القدر ومن سمع هذا فآمن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين
يحصل لكل من الفريقين خوف فان كان عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي
الضعيف في مخالب السبع والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخلي الصبي وقد يهجم عليه فيفترسه
وذلك بحسب ما يتفق ولذلك الاتفاق اسباب مرتبة بقدر معلوم ولكن اذا نسب
الى من لا يعرفه سمي اتفاقا وان اضيف الى علم الله لم يجز ان يسمى اتفاقا والواقع
في مخالب السباع لو كملت معرفته لكان لا يخاف السبع لان السبع مسخر ثم ذكر
رحمه الله ان خوف الانبياء انما كان لانهم لم يامنوا مكر الله بقوله ولا يامن مكر الله الا
القوم الخاسرون الخ ثم قال وكان سهل يقول المريد يخاف ان يبتلى بالمعاصي والعارف
يخاف ان يبتلى بالكفر وكان ابو يزيد يقول اذا توجهت الى المسجد كان في وسطي
زنار اخاف ان يذهب بي الى البيعة وبيت النار حتى ادخل المسجد فينقطع عني
الزنار فهذا لي كل يوم خمس مرات ويروى عن عيسى عليه السلام انه قال يا معشر الحواريين
انتم تخافون المعاصي ونحن معاشر الانبياء نخاف الكفر ويروى في اخبار
الانبياء ان نبيا شكى الى الله تعالى الجوع والقمل والعري سنين وكان لباسه الصوف
فاوحى الله عز وجل اليه عبدي اما رضيت ان عصمت قلبك ان يكفر بي حتى تسالني
الدنيا فاخذ التراب فوضعه على راسه وقال بلى قد رضيت يا رب فاعصمني من
الكفر فاذن اذا كان خوف العارفين مع رسوخ اقدامهم وقوة ايمانهم من سوء
الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء ولسوء الخاتمة اسباب تتقدم على الموت الخ ثم
علامات النفاق قال وللنفاق علامات كثيرة قال صلى الله عليه وآله اربع من كن فيه فهو منافق
خالص وان صام وصلى وزعم انه مسلم وان كانت فيه خصلة منهن ففيه شعبة

من النفاق حتى يدعها اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا ائتمن
خان واذا خاصم فجر وفي لفظ آخر واذا عاهد غدر قال الحسن ان من النفاق
اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب والمدخل والمخرج ومن
الذي يخلو عن هذه المعاني بل صارت هذه الامور مالوفة بين الناس معتادة
ونسي كونها منكرا بالكلية بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة فكيف الظن
بزماننا حتى قال حذيفة ان كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله فيصير بها
منافقا اني لاسمعها من احدكم في اليوم عشر مرات وقال بعضهم لبعض العارفين
اني اخاف على نفسي النفاق فقال لو كنت منافقا لما خفت النفاق فلا يزال
العارف بين الالتفات الى السابقة والخاتمة خائفا منهما ولذلك قال صلى الله عليه وآله العبد
المؤمن بين مخافتين بين اجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين اجل
قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه فوالذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا
بعد الدنيا من دار الا الجنة والنار ثم ذكر رحمه الله بعد بيان معنى سوء الخاتمة
واحوال الانبياء والملائكة عليهم السلام في الخوف بيان احوال الصحابة والتابعين
والسلف الصالحين في شدة الخوف قال علي عليه السلام وقد سلم عن صلاة الفجر الخ
وقال ابو موسى رضي الله عنه كنا اذا جلسنا الى الثوري كان النار قد احاطت بنا لما
نرى من خوفه وجزعه وقرا عبد الواحد القارئ يوما هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق الآية فبكى
عبد الواحد بن زيد حتى غشي عليه ثم افاق فقال وعزتك لا عصيتك جهدي
سعد بن محرم ابدا فاعني بتوفيقك على طاعتك وكان بعضهم لا يقدر ان يسمع القرآن من شدة
خوفه ولقد كان يقرا عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة فما يعقل اياما حتى قرا
عليه رجل من خثعم يقرأ يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين الى
جهنم وردا فقال انا من المجرمين ولست من المتقين اعد علي القول ايها القارئ
فاعادها عليه فشهق شهقة فلحق بالآخرة اقرئ عند يحيى البكاء ولو ترى
اذ وقفوا على ربهم فصاح صيحة مكث منها مريضا اربعة اشهر يعاد من اطراف
البصرة وقال مالك بن دينار بينا انا اطوف بالبيت اذا انا بجويرية متعبدة
متعلقة باستار الكعبة وهي تقول يا رب كم من شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها

يا رب اما كان لك ادب وعقوبة الا النار ويبكي فما زال ذلك مقامها حتى طلع
الفجر قال مالك فلما رايت ذلك وضعت يدي على راسي صارخا اقول ثكلته مالكا
امه ومر الحسن بشاب وهو مستغرق في ضحكه وهو جالس مع قوم في مجلس فقال له
الحسن يا فتى هل مررت بالصراط قال لا قال هل تدري الى الجنة تصير ام الى النار قال
لا قال فما هذا الضحك قال فما رئي ذلك الفتى بعدها ضاحكا وقال عطا خرجنا
مع عتبة الغلام وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشا قد تورمت
اقدامهم من طول القيام وغارت اعينهم في رؤوسهم ولصقت جلودهم على عظامهم
وبقيت العروق كانها الاوتار يصبحون جلودهم قشور البطيخ وكانهم قد خرجوا من
القبور يخبرون كيف اكرم الله المطيعين وكيف اهان العاصين فبيناهم يمشون اذ مر
بمكان فخر مغشيا عليه فجلس اصحابه حوله يبكون في يوم شديد البرد وجبينه يرشح
عرقا فجاوا بما فنضحوا وجهه فافاق وسالوه عن امره فقال لهم اني ذكرت اني كنت
عصيت الله في ذلك المكان وقال صالح المري قرات على رجل من المتعبدين يوم
تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا اطعنا الله واطعنا الرسولا فصعق
ثم افاق فقال زدني يا صالح فاني اجد غما فقرات كلما ارادوا ان يخرجوا منها
اعيدوا فيها فخر ميتا وروى ان زرارة بن ابي اوفى صلى بالناس الغداة فلما
قرا فاذا نقر في الناقور خر مغشيا عليه فحمل ميتا وقال يزيد بن عمر الاسيدي وربما
بان المتكلمين يتكلمون فلا يبكي احد فاذا تكلمت سمعت البكا من كل جانب فقال
يا بني ليست النايحة الثكلى كالنايحة المستاجرة وحكي ان قوما وقفوا بعابد
هو يبكي فقالوا ما الذي يبكيك رحمك الله قال روعة يجدها الخائفون في قلوبهم
قالوا وما هي قال روعة النداء بالعرض على الله عز وجل وقال صالح المري قدم
علينا ابن السماك مرة فقال امض بنا من بعض عجايب عبادكم فذهبت به الى
رجل في بعض الاحيا في خص له فاستاذنا عليه فاذا رجل يعمل خوصا فقرات
اذ الاغلال في اعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون فشهق الرجل
شهقة وخر مغشيا عليه فخرجنا من عنده وتركناه على حاله وذهبنا الى آخر فدخلنا
فقرات هذه الاية فشهق شهقة وخر مغشيا عليه واستاذنا على ثالث فقال ا

ادخلوا ان لم تشغلونا عن ربنا فقرات ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد
فشهق شهقة وبدا الدم من منخريه وجعل يتشحط في دمه حتى يبس فتركناه
على حاله وخرجنا فادرنا على ستة انفس كل نخرج من عنده وتركه مغشيا ثم
اتينا السابع فاستاذنا فاذا امراة من وراء الخص تقول ادخلوا فدخلنا فاذا
شيخ فان جالس في مصلاه فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا فقلت بصوت عال الا
ان للخلق غدا مقاما فقال الشيخ بين يدي من ويحك ثم بقي مبهوتا فاتحا فاه شاخصا
بصره يصيح بصوت ضعيف اوه اوه حتى انقطع ذلك الصوت فقالت امراته اخرجوا
فانكم لا تنتفعون به الساعة فلما كان بعد ذلك سالت عن القوم فاذا ثلثة قد
افاقوا وثلثة قد لحقوا بالله واما الشيخ فانه مكث ثلثة ايام على حاله مبهوتا متحيرا
لا يؤدي فرضا فلما كان بعد ثلث عقل وقال الحجاج لسعيد بن جبير بلغني انك
لم تضحك قط فقال كيف اضحك وجهنم قد سعرت والاغلال قد نصبت والزبانية
قد اعدت ويحكى ان اويس القرني كان يحضر عند القاص فيبكي من كلامه فاذا
ذكر النار صرخ اويس ثم يقوم منطلقا فيتبعه الناس يقولون مجنون وقال معاذ
بن جبل ان المومن لا يسكن روعته حتى يخلف جسر جهنم وراءه وكان طاوس يفرش
فراشه ثم يضطجع فيتقلى كما يتقلى الحبة في المقلى ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة
حتى الصباح ويقول طير ذكر جهنم نوم الخائفين وقال الحسن البصري يخرج من النار
رجل بعد الف عام يا ليتني كنت ذلك الرجل وانما قال ذلك لخوفه الخلود
وسوء الخاتمة
ثم قال رحمه الله تعالى في كتاب الفقر والزهد وهو الرابع من كتب ربع
المنجيات بعد بيان حقيقة الفقر وبيان فضيلته بالايات والاخبار مطلقا
بلا من يدعيه كما هو دابه رحمه الله واما بيان فضيلة خصوص الفقرا من الراضين
والقانعين والصادقين فقد قال صلى الله عليه وسلم طوبى لمن هدي للاسلام و
كان عيشه كفافا وقنع به وقال يا معشر الفقراء اعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا
بثواب فقركم والا فلا فالاول للقانع وهذا للراضي ويكاد يشعر هذا بفهومه ان
الحريص لا ثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة في فضل الفقرا تدل على ان له ثوابا

كما سيأتي تحقيقه فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله تعالى في حبس الدنيا عنه
ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه انكار على الله وكراهة في فعله فتلك الكراهة
هي التي تحبط ثواب الفقر وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ان لكل شيء مفتاحا ومفتاح الجنة حب
المساكين والفقراء الصبر هم جلساء الله يوم القيمة وقال ايضا احب العباد الى الله تعالى الفقير
القانع برزقه الراضي عن الله تعالى وقال صلى الله عليه وآله اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا
وقال ما من احد غني ولا فقير الا ود يوم القيمة انه كان اوتي قوتا في الدنيا واوحى الله
تعالى الى اسمعيل اطلبني عند المنكسرة قلوبهم من اجلي قال ومن هم قال الفقراء الصادقون
وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى يوم القيمة اين صفوتي من خلقي فتقول الملائكة من هم يا ربنا
فيقول فقراء المسلمين القانعين بعطائي الراضين بقدري ادخلوهم الجنة فيدخلونها
ويأكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون فهذا في القانع والراضي فاما
الزاهد فسنذكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب ثم قال رحمه الله بيان فضيلة
الفقر على الغنى اما الفقر والغنى اذا اخذا مطلقا لم يسترب من قرأ الاخبار والآثار
في تفضيل الفقر ولا بد فيه من تفصيل فنقول انما يتصور الشك في مقامين الاول فقير
صابر ليس بحريص على الطلب بل هو قانع او راض بالاضافة الى غني منفق ماله في الخيرات ليس
حريصا على امساك المال والثاني فقير حريص مع غني حريص اذ لا يخفى ان الفقير القانع
افضل من الغني الحريص الممسك وان الغني المنفق ماله في الخيرات افضل من الفقير الحريص
اما الاول فربما يظن ان الغني افضل من الفقير لانهما تساويا في ضعف الحرص على المال
والغني متقرب بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنها وهذا هو الذي ظنه ابن
عطا فيما نحسبه فاما الغني المتمتع بالمال وان كان في مباح فلا يتصور ان يفضل
على الفقير القانع وقد استشهد له بما روي في الخبر ان الفقراء شكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقالوا سبق الاغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد فعلمهم كلمات في التسبيح
وذكر لهم انهم ينالون بها فوق ما ناله الاغنياء فتعلم الاغنياء ذلك فكانوا يقولونه فعادوا
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وقد استشهد ابن عطا
ايضا لما سئل عنه فقال الغني افضل لانه وصف الحق اما دليله الاول ففيه نظر لان الخبر
قد ورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك وهو ان ثواب الفقير في التسبيح يزيد على

ثواب الغني وان فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء فقد روى زيد
بن اسلم عن انس بن مالك قال بعث الفقراء رسولا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اني رسول
الفقراء اليك فقال مرحبا بك وبمن جئت من عندهم جئت من عند قوم احبهم فقال
يا رسول الله ان الاغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولا نقدر عليه ويعتمرون ولا نقدر عليه
واذا مرضوا بعثوا بفضل اموالهم ذخيرة لهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم بلغ عني الفقراء
ان لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للاغنياء اما خصلة واحدة فان في الجنة
غرفا ينظر اليها اهل الجنة كما ينظر اهل الارض الى نجوم السماء لا يدخلها الا نبي فقير
او شهيد فقير او مؤمن فقير والثانية يدخل الفقراء الجنة قبل الاغنياء بنصف يوم وهو
خمسمائة عام والثالثة اذا قال الغني سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر وقال
الفقير مثل ذلك لم يلحق الغني بالفقير وان انفق فيها عشرة آلاف درهم وكذلك اعمال البر
كلها فرجع اليهم فقالوا رضينا رضينا فهذا يدل على ان قوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء
اراد به مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم واما قوله ان الغني وصف الحق فقد اجاب عنه بعض
الشيوخ فقال اترى ان الحق غني بالاسباب والاعراض فانقطع ولم ينطق جوابا واجاب
آخرون فقالوا التكبر من صفات الله فينبغي ان يكون افضل من التواضع ثم قالوا بل
هذا يدل على ان الفقر افضل لان صفات العبودية افضل للعبد كالخوف والرجاء وصفات
الربوبية لا ينبغي ان ينازع فيها ولذلك قال تعالى فيما رواه عنه نبيه العظمة ازاري والكبرياء
ردائي فمن نازعني فيهما قصمته وقال سهل حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة
فيها لانهما من صفات الرب تعالى ثم فن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الغنى والفقر وحاصل ذلك
يرجع الى تمويهات تحمل التاويل ومكلات قاصرة لا يبعد نقضها اذ كما يقال قول
من فضل الغنى لانه صفة الحق بالتكبر فكذلك ما يقال من ذم الغنى وتفضيل
الفقر لانه وصف العبد بالجهل والغفلة وصف العبد وليس لاحد ان يفضل الغفلة
على العلم فكشف الغطاء في هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر وهو ان ما لا يراد لعينه
بل لغيره فينبغي ان يضاف الى مقصوده اذ به يظهر فضيلته والدنيا ليست محذورة لعينها
ولكن لكونها عائقة عن الوصول الى الله تعالى والفقر مطلوب لعينه ولكن لان فيه فقد العائق
عن الله وعدم الشاغل عنه وكم من غني لم يشغله الغنى مثل سليمان بن داود عليهما السلام

من فقير يشغله ويصرفه عن المقصد وغاية المقصود في الدنيا هو حب الله تعالى والانس
ولا يكون ذلك الا بعد معرفته وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن والفقر قد
يكون من الشواغل كما ان الغنى قد يكون من الشواغل وانما الشواغل على التحقيق حب الدنيا
اذ لا يجتمع معه حب الله في القلب والمحب للشي مشغول به سواء كان في فراقه
او في وصاله بل ربما يكون شغله في الفراق اكثر وربما يكون في الوصال اكثر والدنيا
معشوقة الغافلين والمحروم منها مشغول بها وبطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها
وبالتمتع بها فاذن ان فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال في حقهما كالماء
استوى الفاقد والواجد اذ كل واحد منهما غير متمتع الا بقدر الحاجة ووجود قدر الحاجة
افضل من فقده اذ الجايع سالك سبيل الموت لا سبيل المعرفة وان اخذت الامر
باعتبار الاكثر فالفقير عن الخطر ابعد اذ فتنة السراء اشد من فتنة الضراء ومن العصمة
ان لا يقدر ولذلك قالت الصحابة بلينا بفتنة الضراء فصبرنا وبلينا بفتنة السراء
فلم نصبر وهذه خلقة الادميين كلهم الا الشاذ الفذ الذي لا يوجد في الاعصار الكثيرة
الا نادرا فلما كان الخطاب بالشرع مع الكل لا مع النادر والفقر اصلح للكل دون النادر
زجر الشرع عن الغنى وذمه وفضل الفقر ومدحه حتى قال عليه السلام لا تنظروا
الى اموال اهل الدنيا فان بريق اموالهم يذهب بنور ايمانكم وقال بعض العلماء تقلب
الاموال يمص حلاوة الايمان وفي الخبر لكل امة عجل وعجل هذه الامة الدينار والدرهم
فكان اصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة ايضا واستواء المال والماء
والذهب والحجر انما يتصور للانبياء عليهم السلام ثم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول
المجاهدة اذ كان ص يقول للدنيا اليك عني اليك عني اذ كانت الدنيا تتمثل
له بزينتها وكان علي عليه السلام يقول يا صفراء غري غيري ويا بيضاء غري غيري وذلك لا
ستشعاره في نفسه ظهور مبادي الاغترار بهما لولا ان راى برهان ربه وذلك
هو الغنى المطلق اذ قال ص ليس الغنى بكثرة العرض انما الغنى غنى النفس واذا
كان ذلك بعيدا فاذن الاصلح لكافة الخلق فقد المال وان يتصدقوا بها او
صرفوها الى الخيرات لانهم لا يسكنون الى القدرة على المال عن نفس لا انس بهذا
العالم ودنياه ما يانس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة وبقدر ما يانس

ما يانس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة لله يستوحش من الله ومن حبه
ومهما انقطعت اسباب الانس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزينتها و
القلب اذا تجافى عما سوى الله وكان مومنا بالله انصرف لا محالة الى الله تعالى اذ لا
يتصور قلب فارغ وليس في الوجود الا الله وغيره فمن اقبل على غيره فقد تجافى عنه
ومن اقبل عليه تجافى عن غيره ويكون اقباله على احدهما بقدر تجافيه عن الآخر
وقربه من احدهما بقدر بعده من الآخر ومثالهما مثل المشرق والمغرب اذ هما
ثم قال رحمه الله واذا كان ذلك محالا او بعيدا فليطلق القول بان الفقر
اصلح لكافة الخلق وافضل لان علاقة الفقير وانسه بالدنيا اضعف وبقدر
ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته فان الحركات اللسانية ليست
مرادة لاعيانها بل ليتاكد بها الانس بالمذكور ولا يكون تاثيرها في اثارة الانس
في قلب فارغ عن غير المذكور كتاثيرها في قلب مشغول ولذلك قال بعض السلف
مثل من تعبد وهو في طلب الدنيا مثل من يطفي النار بالحلفا ومثل من يغسل
يده من الغمر بالسمك وكانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الاغنياء مع ان احسن
احوال الغني ان ياخذ حلالا وينفق طيبا ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات
القيامة ويطول انتظاره ومن نوقش الحساب فقد عذب ولذلك قال
شقيق اختار الفقراء ثلثة اشياء والاغنياء ثلثة اشياء اختار الفقراء راحة
النفس وفراغة القلب وخفة الحساب واختار الاغنياء تعب النفس وشغل
القلب وشدة الحساب وما ذكره ابن عطا من ان الغنى وصف الحق فهو افضل
صحيح ولكن اذا كان العبد غنيا عن وجود المال وعدمه جميعا بان يستوي
كلاهما عنده فاما اذا كان غنيا بوجوده ومفتقرا الى بقائه فلا يضاهي غناه
غناء الله تعالى لان الله تعالى غني بذاته لا بما يتصور زواله والمال يتصور ان يسرق
وما ذكره ابو علي من ان الله ليس غنيا بالاعراض والاسباب صحيح في ذم غنى
يريد بقاء المال وما ذكر من ان صفات الحق لا يليق بالعبد غير صحيح بل العلم
من صفاته وهو افضل شي للعبد بل منتهى العبد ان يتخلق باخلاق الله تعالى
وقد سمعت بعض المشايخ يقول ان سالك الطريق الى الله قبل ان يقطع الطريق

نصل الاسمآء التسعة والتسعين ايضا فالراي يكون له من كل واحد نصيب واما التكبر
فلا يليق بالعبد فان التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى واما
التكبر على من يستحقه كتكبر المومن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي
فذلك يليق به نعم قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والايذآء وليس ذلك من
صفة الله تعالى وانما يوصف بانه اكبر من كل شي وانه يعلم انه كذلك وللعبد نصيب
بان يطلب على الدرجات ان قدر عليه ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل و
التلبيس فعلى العبد ان يعلم ان المومن اكبر من الكافر والمطيع اكبر من العاصي والعالم
اكبر من الجاهل والانسان اكبر من البهيمة والجماد والنبات واقرب الى الله تعالى منها فلو
راى الانسان نفسه بهذه الصفة روية محققة لا شك فيها لكان صفة الكبر حاصلا
له ولايقا به وفضيلة في حقه الا انه لا سبيل له الى معرفته فان ذلك موقوف على الخاتمة
وليس يدري الخاتمة كيف تتفق فلجهله به وجب ان لا يعتقد لنفسه رتبة فوق الكافر
اذ ربما يختم للكافر بالايمان ويختم له بالكفر فلم يكن ذلك لايقا به لقصور علمه عن
معرفة العاقبة ولما تصور ان يعلم الشي على ما هو كان العلم كمالا في حقه لانه
من صفات الله ولما كان معرفة بعض الاشيآء قد تضره صار ذلك العلم نقصا
في حقه اذ ليس من اوصاف الله تعالى علم يضره فمعرفة الامور التي لا ضرر فيها هي
التي تتصور في العبد من صفات الله فلا جرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الانبيآء
والاوليآء والعلمآء فاذن لو استوى عنده وجود المال وعدمه فهو نوع من الغنا
يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه وتعالى فهو فضيلة
فاما قبله فلا المقام الثاني في نسبة حال الفقير الحريص الى الغني الحريص فلنفرض ذلك
في شخص واحد وهو طالب للمال وساع فيه وفاقد له ثم وجده فله حال العدم
وحال الوجود فاي حاليه افضل فنقول ينظر ان كان مطلوبه ما لا بد منه في المعيشة و
قصده ان يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه فحال الوجود افضل لان الفقد
يشغله بالطلب وطالب القوت لا يقدر على الفكر والذكر الا قدرة مدخولة بشغل
والمكفي هو القادر ولذلك قال عم اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا وقال كاد الفقر ان
يكون كفرا اي الفقر مع الاضطرار فيما لا بد منه وان كان المطلوب فوق الحاجة او كان

المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود منه الاستعانة به على سلوك السبيل فحال
الفقد اصلح وافضل لانهما استويا في الحرص وحب المال وفي ان كل واحد لا يقصد
الاستعانة على الطريق واستويا في ان كل واحد يتعرض لمعصية بسبب الفقر والغنى
ولكن افترقا في ان الواجد يانس بما وجده فيتاكد حبه في قلبه ويطمئن الى الدنيا
والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا ويكون الدنيا عنده مثل السجن الذي يبغي
الخلاص منها ومهما استوت الامور كلها وخرج من الدنيا رجلان احدهما اشد
ركونا الى الدنيا فحاله اشد لا محالة اذ يلتفت قلبه الى الدنيا ويستوحش من الاخرة
بقدر تاكد انسه بالدنيا وقد قال عليه السلام ان روح القدس نفث في روعي احبب ما
احببت فانك مفارقه وهذا تنبيه على ان فراق المحبوب شديد فينبغي ان تحب ما لا
يفارقك وهو الله ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا فانك اذا احببت الدنيا كرهت لقآء الله فيكون قدومك
بالموت على ما تكرهه وفراقك لما تحبه وكل من فارق محبوبا فيكون اذاه في فراقه
بقدر محبته وقدر انسه وانس الواجد للدنيا القادر عليه اكثر من انس الفاقد لها وان
كان حريصا عليها فاذن قد انكشف بهذا التحقيق ان الفقر هو الاشرف والافضل و
الاصلح لكافة الخلق الا في موضعين احدهما غنا مثل غنا عائشة يستوي عندها الوجود
والعدم فيكون الوجود مزيدا له اذ يستفيد به ادعية الفقرا والمساكين وهممهم والثاني
الفقر عن مقدار الضروري فان ذلك يكاد ان يكون كفرا ولا خير فيه بوجه من الوجوه
بيان آداب الفقير في فقره للفقير اداب في باطنه وظاهره ومخالطته وافعاله له
ينبغي ان يراعيها فاما باطنه فان لا يكون فيه كراهة لما ابتلاه الله به من الفقر اعني
به انه لا يكون كارها فعل الله من حيث انه فعله وان كان كارها للفقر كالمحجوم يكون
كارها للحجامة لتالمه بها ولا يكون كارها فعل الحجام ولا كارها له بل ربما يتقلد
منة منه فهذا اقل درجاته وهو واجب ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر وهو
معنى قوله عليه السلام يا معشر الفقرآء اعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم
والا فلا وارفع من هذا ان لا يكون كارها للفقر بل يكون راضيا به وارفع منه ان
يكون طالبا له وفرحا به لعلمه بغوائل الغنا ويكون متوكلا في باطنه على الله واثقا
به في قدر ضرورته بانه ياتيه لا محالة ويكون كارها للزيادة على الكفاف وقد قال علي عليه السلام

ان لله عقوبات بالفقر ومثوبات فمن علامته اذا كان مثوبة ان يحسن عليه خلقه
ويطيع به ربه ولا يشكو حاله ويشكر الله على فقره ومن علامته اذا كان عقوبة ان يسيء عليه
خلقه ويعصي ربه ويكثر الشكاية ويتسخط وهذا يدل على ان كل فقير فليس بمحمود بل الذي
لا يتسخط او يرضى او يفرح بالفقر ويعلم ثمرته واما ادب ظاهره فان يظهر التعفف
والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستر فقره ويستر انه يستره ففي الحديث ان الله يحب
الفقير المتعفف ابا العيال وقال تعالى يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف واما في اعماله
فادبه ان لا يتواضع لغني لاجل غناه بل يتكبر عليه قال علي عليه السلام ما احسن تواضع الغني للفقير
رغبة في ثواب الله واحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله عز وجل فهذه رتبة واقل
منها ان لا يخالط الاغنياء ولا يرغب في مجالستهم لان ذلك من مبادي الطمع وينبغي ان لا
يسكت عن ذكر الحق مداهنة للاغنياء وطمعا في العطاء واما ادبه في افعاله فان لا يفتر
بسبب الفقر عن عبادة الله ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه فان ذلك جهد المقل وفضله اكثر من اموال
كثيرة تبذل عن ظهر غنى وينبغي ان لا يدخر مالا بل ياخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي وفي
الادخار ثلث درجات الخ ثم بعد بيان اداب الفقير في قبول العطاء وبيان تحريم السؤال
من غير ضرورة وبيان مقدار الغنى المحرم للسؤال قال رحمه الله **الشطر الثاني من
الكتاب في الزهد** وفيه **بيان** حقيقة الزهد اعلم ان الزهد في
الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر
المقامات لان ابواب الايمان كلها كما قال السلف ترجع الى عقد وقول وعمل وكان
القول لظهوره اقيم مقام الحال اذ به يظهر الحال الباطن والا فليس القول مرادا لعينه
وان لم يكن صادرا عن حال سمي اسلاما ولم يسم ايمانا والعلم هو السبب في الحال يجري مجرى
المثمر والعمل يجري مجرى الثمرة فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل اما الحال فنعني بها ما يسمى زهدا
وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء الى ما هو خير منه فكل من عدل عن شيء الى غيره
بمعاوضة وبيع وغيره فانما عدل عنه لرغبته عنه وانما عدل الى غيره لرغبته فيه فحاله
بالاضافة الى المعدول عنه يسمى زهدا وبالاضافة الى المعدول اليه يسمى رغبة
وحبا فاذن يستدعي حال الزهد مرغوبا عنه ومرغوبا فيه وهو خير من المرغوب
عنه وشرط المرغوب عنه ان يكون ايضا هو مرغوبا فيه بوجه من الوجوه فمن

رغب عما ليس مطلوبا في نفسه لا يسمى زاهدا فتارك التراب والحجر والحشرات لا
يسمى زاهدا وانما يسمى تارك الدراهم والدنانير زاهدا لا تارك التراب والحجر
في مظنة الرغبة وشرط المرغوب اليه ان يكون خيرا عنده من المرغوب عنه حتى يغلب
هذه الرغبة فالبائع لا يقدم على البيع الا والمشترى عنده خير من المبيع فيكون حاله
بالاضافة الى المبيع زهدا فيه وبالاضافة الى العوض رغبة وحبا ولذلك قال تعالى
وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين معناه باعوه ووصف
اخوة يوسف بالزهد فيه اذ طمعوا ان يخلو لهم وجه ابيهم وكان ذلك عندهم احب من
يوسف فباعوه طمعا في العوض فاذن كل من باع الدنيا بالاخرة فهو زاهد في الدنيا وكل
من باع الاخرة بالدنيا فهو ايضا زاهد ولكن في الاخرة ولكن العادة جارية بتخصيص اسم
الزهد بمن زهد في الدنيا كما خصص اسم الالحاد بمن يميل الى الباطل خاصة وان
كان هو الميل في وضع اللسان ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصور الا
بالعدول الى شيء هو احب منه والا فترك المحبوب بغير الاحب محال والذي يرغب عن
كل ما سوى الله تعالى حتى الفراديس ولا يحب الا الله تعالى فهو الزاهد المطلق والذي يرغب
عن كل حظ ينال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الاخرة بل طمع في الحور والقصور و
والفواكه والانهار فهو ايضا زاهد ولكنه دون الاول والذي ترك من حظوظ الدنيا
البعض دون البعض كالذي يترك المال دون الجاه او يترك التوسع في الاكل ولا يترك
التجمل في الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقا ودرجته في الزهاد درجة من يتوب
عن بعض المعاصي في التائبين وهو زهد صحيح كما ان التوبة عن بعض المعاصي صحيحة
فان التوبة عبارة عن ترك المحظورات والزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ
النفس ولا يبعد ان يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات
والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهدا وان كان قد زهد في المحظور وانصرف
عنه ولكن يخصص العرف هذا الاسم بترك المباحات فاذن الزهد عبارة عن رغبة عن
الدنيا عدولا الى الاخرة او عن غير الله عدولا الى الله وهي الدرجة العليا وكما يشترط في
المرغوب فيه ان يكون خيرا عنده فيشترط في المرغوب عنه ان يكون مقدورا عليه فان
ترك ما لا يقدر عليه محال وبالترك يتبين زوال الرغبة ولذلك قيل لابن المبارك

يا زاهد قال الزاهد فلان اذ جاءته الدنيا راغمة فتركها واما انا ففيم زهدت وأما
العلم الذي هو مثمر لهذه الحال هو العلم بكون المتروك حقيرا بالاضافة الى المأخوذ
كعلم التاجر بان العوض خير من المبيع فيرغب فيه وما لم يتحقق هذا العلم لا يتصور ان
يزول الرغبة عن المبيع فكذلك من عرف ان ما عند الله باق وان الآخرة خير وابقى
اي لذاتها خير في انفسها وابقى كما يكون الجوهر خيرا من الثلج مثلا وهو ابقى كما يكون الجوهر
ابقى من الثلج ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللآلي فهكذا مثال الدنيا والآخرة
فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان الى الانقراض والآخرة كالجوهر الذي
لا فناء لها فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في
البيع والمعاملة حتى ان من قوي يقينه يبيع نفسه وماله كما قال الله تعالى ان الله اشترى من
المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون
ثم بين ان صفقتهم رابحة فقال فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم
فليس يحتاج من العلم في الزهد الا الى هذا القدر وهو ان الآخرة خير وابقى وقد يعلم ذلك
من لا يقدر على ترك الدنيا اما لضعف علمه ويقينه واما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه
لكونه مقهورا في يد الشيطان واما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يوما فيوما الى ان
يختطفه الموت ولا يبقى معه الا الحسرة بعد الفوت والى تعريف خساسة الدنيا الاشارة
بقوله تعالى قل متاع الدنيا قليل والى تعريف نفاسة الآخرة الاشارة بقوله تعالى وقال الذين
اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون فنبه
على ان العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه ولما لم يتصور الزهد الا بمعاوضة
ورغبة عن محبوب في احب منه قال رجل في دعائه اللهم ارني الدنيا كما تراها فقال
لا تقل هكذا ولكن قل ارني الدنيا كما اريتها الصالحين من عبادك وهذا لان الله تعالى
يراها حقيرة كما هي وكل مخلوق فهو بالاضافة الى جلاله حقير والعبد يراها حقيرة في
نفسه بالاضافة الى ما هو خير له ولا يتصور ان يرى بائع الفرس وان رغب عنه
فرسه كما يرى بائع حشرات الارض لانه مستغن عن الحشرات اصلا وليس مستغنيا عن
الفرس والله تعالى غني بذاته عن كل ما سواه فيرى الكل في درجة واحدة بالاضافة
الى جلاله ويراها متفاوتة بالاضافة الى غيره والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالاضافة

بالاضافة الى نفسه لا الى غيره واما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لانه
بيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو ادنى فكما ان العمل الصادر
من عقد البيع هو ترك المبيع واخراجه من اليد واخذ العوض فكذلك الزهد يوجب
ترك المزهود فيه بالكلية وهي الدنيا باسرها مع اسبابها ومقدماتها وعلائقها
فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من اليد والعين ما اخرجه
من القلب ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات والا
كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن فاذا وفى بشرط الجانبين في الاخذ والترك
فليستبشر ببيعه الذي بايع به فان الذي بايعه بهذا البيع وفى بالعهد فمن
اسلم حاضرا في غائب وسلم الحاضر واخذ يسعى في طلب الغائب سلم اليه
الغائب حين فراغه من سعيه ان كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه
بالعهد وما دام ممسكا للدنيا لا يصح زهده اصلا ولذلك لم يصف الله اخوة
يوسف بالزهد في ابن يامين وان كانوا قالوا ليوسف واخوه احب الى
ابينا منا وعزموا على ابعاده كما عزموا على يوسف حتى ينقطع منها حبهم فتركه
ولا وصفهم ايضا بالزهد في يوسف عند العزم على اخراجه الا عند التسليم والبيع
فعلامة الرغبة الامساك وعلامة الزهد الاخراج فان اخرجت عن اليد بعض
الدنيا دون البعض فانت زاهد فيما اخرجت فقط ولست زاهدا مطلقا وان لم
يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد لان ما لا يقدر عليه لا
يقدر على تركه وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيل اليك ان الدنيا وان لم تأتك
فانت زاهد فيها فلا ينبغي ان تتدلى بحبل غروره دون ان تستظهر بموثق غليظ
من الله فانك اذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها فكم
من ظان بنفسه كراهة المعاصي عند تعذرها فلما تيسرت له اسبابها من غير مكدر
ولا خوف من الخلق وقع فيها واذا كان هذا غرور النفس في المحظورات فاياك ان
تثق بوعدها في المباحات والموثق الغليظ ان تجربها مرة بعد مرة في حال القدرة فاذا
وجدتها وفت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والاعذار ظاهرا وباطنا
فلا بأس ان تثق بها ثقة ما ولكن تكون من تغيرها ايضا على حذر فانها سريعة

النفس للعهد قريب الرجوع الى مقتضى الطبع وبالجملة فلا امان منها الا بعد الترك
بالاضافة الى ما ترك فقط وذلك عند القدرة قال ابن ابى ليلى لابن شبرمة الا ترى
اهو ابن الحائك ام ما هو لكن اعلم ان الدنيا لا تفتنه مسئلة الا رد علينا فيها
ابا حنيفة قال ابن شبرمة لا ادرى اهو ابن الحائك ام ما هو لكن اعلم ان الدنيا
غدت اليه فهرب منها وهربت منا فطلبناها ولذلك قال جميع الصحابة
رسول الله صلعم انا نحب ربنا ولو علمنا في اى شئ محبته لفعلنا حتى نزل قوله تعالى
ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم او اخرجوا من دياركم الى قوله ما فعلوه الا
قليل منهم قال ابن مسعود قال لى رسول الله صلعم انت منهم اى من القليل قال وما
عرفت ان فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد
الاخرة وليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل
استمالة القلوب ولا على سبيل الطمع فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا
مدخل لها في العبادات انما الزهد ان تتركها لعلمك بحقارتها بالاضافة الى نفاسة
الاخرة فاما كل نوع من الترك فيتصور ممن لا يؤمن بالله وبالاخرة فذلك قد يكون
مروة وفتوة وسخاء وحسن خلق ولكن لا يكون زهدا اذ حسن الذكر وميل القلوب
من حظوظ العاجلة وهى الذ واهنأ من المال وكما ان ترك المال على سبيل السلم طمعا
في العوض ليس من الزهد فكذلك تركها طمعا في الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة
والسخاء واستثقاله لما في حفظ الاموال من المشقة والعناء والحاجة الى التذلل
للسلاطين والاغنياء ليس من الزهد اصلا بل هو استعجال حظ اخر للنفس بل
الزاهد من اتته الدنيا راغمة عفوا صفوا وهو قادر على التنعم بها من غير نقصان
جاه وقبح اسم وفوات حظ نفس فتركها خوفا من ان يانس بها فيكون انسا بغير الله
ومحبا لما سوى الله ويكون مشركا في حب الله غيره او تركها طمعا في ثواب
الاخرة فترك التمتع باشربة الدنيا طمعا في اشربة الجنة وترك التمتع بالسراري والنسوان
طمعا في الحور العين وترك التفرج في البساتين طمعا في بساتين الجنة واشجارها
وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا في زينة الجنة وترك المطاعم اللذيذة طمعا
في فواكه الجنة وخوفا من ان يقال له اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا فاثر جميع ذلك

ذلك مما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفوا صفوا لعلمه بان ما في
الاخرة خير وابقى وما سوى هذا فمعاملات دنيوية لا جدوى لها في
الاخرة **بيان فضيلة الزهد** قال الله تعالى فخرج على قومه في زينته الى
قوله وقال الذين اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير فنسب الزهد الى العلماء
ووصف اهله بالعلم وهو غاية الثناء وقال تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة
لها لنبلوهم ايهم احسن عملا قيل معناه ايهم ازهد فيها فوصف الزهد بانه
من احسن الاعمال وقال تعالى من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الاخرة
من نصيب وقال تعالى ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة
الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى وقال تعالى الذين يستحبون
الحيوة الدنيا على الاخرة فنبه وصف الكفار ففهم منه ان المؤمن هو الذى يتصف
بضده وهو ان يستحب الاخرة على الحيوة الدنيا واما الاخبار فما ورد منها في ذم
الدنيا من المهلكات ونحن الان مقتصر على فضيلة بغض الدنيا فانه من المنجيات وهو
المعنى بالزهد فقد قال صلى الله عليه وآله من اصبح وهمه الدنيا شتت الله امره
وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم ياته من الدنيا الا ما كتب له ومن
اصبح وهمه الاخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه واتته الدنيا
وهى راغمة وقال صلعم اذا رايتم العبد قد اعطى صمتا وزهدا في الدنيا فاقتربوا
منه فانه يلقى الحكمة وقد قال تعالى ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا ولذلك
قيل من زهد في الدنيا اربعين يوما اجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وانطق بها لسانه
وعن بعض الصحابة انه قال قلنا يا رسول الله اى الناس خير قال كل مؤمن مخموم
القلب صدوق اللسان قلنا يا رسول الله وما مخموم القلب قال التقى النقى الذى
لا غش فيه ولا غل ولا بغى ولا حسد قيل يا رسول الله فمن على اثره قال الذى
يشنأ الدنيا ويحب الاخرة ومفهومه ان شر الناس الذى يحب الدنيا وقال صلعم
ان اردت ان يحبك الله فازهد في الدنيا فجعل الزهد سببا للمحبة فمن احبه الله
فهو في اعلى الدرجات فينبغى ان يكون الزهد من افضل المقامات ومفهومه ايضا
ان محب الدنيا متعرض لبغض الله وفي خبر من طريق اهل البيت الزهد والورع

يجولان في القلب كل ليلة فان صادفا قلبا فيه الايمان والحيا اقاما فيه والا ارتحلا
فلما قال حارثة لرسول الله صلعم انا مؤمن حقا فقال وما حقيقة ايمانك فقال عزفت
نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها وكاني بالجنة والنار وكاني
بعرش ربي بارزا فقال صلعم عرفت فالزم هذا عبد نور الله قلبه فانظر كيف بدا
باظهار حقيقة الايمان بعزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين وكيف زكاه رسول
الله صلعم اذ قال عبد نور الله قلبه اي بالايمان ولما سئل رسول الله صلعم عن معنى الشرح
في قوله تعالى فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام فقيل له ما هذا الشرح قال
ان النور اذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح قيل يا رسول الله هل لذلك من
علامة قال نعم التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت
قبل نزوله فانظر كيف جعل الزهد شرطا للاسلام وهو التجافي عن دار الغرور وقال
صلعم استحيوا من الله حق الحيا قالوا انا لنستحيي قال تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا
تاكلون فبين ان ذلك ينافي الحيا من الله ولما قدم عليه وفد فقالوا انا مؤمنون
قال فما علامة ايمانكم فذكروا الصبر عند البلا والشكر عند الرخا والرضا بمواقع
القضا وترك الشماتة بالمصيبة اذا نزلت بالاعدا فقال ان كنتم كذلك فلا تجمعوا
ما لا تاكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون فجعل الزهد
تكملة ايمانهم وقال جابر خطبنا رسول الله صلعم فقال من جا بلا اله الا الله لا يخلط معها
غيرها وجبت له الجنة فقام اليه علي رضه فقال بابي انت وامي يا رسول الله صلعم ما لا
يخلط معها غيرها صفه لنا وفسره لنا فقال حب الدنيا طلبا لها واتباعا لها وقوم
يقولون قول الانبيا ويعملون اعمال الجبابرة فمن جا بلا اله الا الله ليس فيها شي من
هذا وجبت له الجنة وفي حديث ابن المسيب عن ابي ذر عن رسول الله صلعم قال من زهد في
الدنيا ادخل الله الحكمة في قلبه فانطق بها لسانه وعرفه دا الدنيا ودواها واخرجه
منها سالما الى دار السلام وروي انه صلى الله عليه واله مر في اصحابه بعشار من النوق
حفل وهي الحوامل وكانت من احب اموالهم اليهم وانفسها عندهم لانها تجمع الظهر واللحم
واللبن والوبر ولعظمتها في قلوبهم قال تعالى واذا العشار عطلت فاعرض عنها رسول الله
صلعم وغض بصره فقيل يا رسول الله صلعم هذه انفس اموالنا لم لا تنظر اليها فقال قد نهاني الله

قد نهاني الله عن ذلك ثم تلا قوله تعالى ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به الآية وروى
مسروق عن عايشة قالت قلت يا رسول الله صلعم الا تستطعم الله فيطعمك قالت وبكيت
لما رايت بك من الجوع فقال يا عايشة والذي نفسي بيده لو سالت ربي ان يجري معي
جبال الدنيا ذهبا لاجراها حيث شئت من الارض ولكني اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر
الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها يا عايشة ان الدنيا لا ينبغي لمحمد ولا لآل محمد
يا عايشة ان الله لم يرض لاولي العزم من الرسل الا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن
محبوبها ثم لم يرض لي الا ان يكلفني مثل ما كلفهم فقال فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل
والله ما لي بد من طاعته واني والله لاصبرن كما صبروا بجهدي ولا قوة الا بالله وروى
ابو سعيد الخدري عن النبي صلعم انه قال لقد كان الانبيا من قبلي يبتلى احدهم بالفقر فلا
يجد الا العبا وان كان احدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك احب اليهم من
الاعطا اليكم وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال لما ورد موسى ما مدين كان خضرة
البقل ترى في بطنه من الهزال فهذا كان ما اختاره انبيا الله ورسله وهم اعرف
خلق الله بالله وبطريق الفوز في الاخرة وفي حديث ثوبان لما نزل قوله تعالى والذين
يكنزون الذهب والفضة الاية قال عليه السلام تبا للدنيا وللدرهم فقلنا نهانا الله عن
كنز الذهب والفضة فاي شي ندخر فقال صلعم ليتخذ احدكم لسانا ذاكرا وقلبا
شاكرا وزوجة صالحة تعينه على امر الاخرة وفي حديث حذيفة عن رسول الله صلعم من
آثر الدنيا على الاخرة ابتلاه الله بثلث هم لا يفارق قلبه ابدا وفقر لا يستغني ابدا
وحرص لا يشبع ابدا وقال صلعم لا يستكمل العبد الايمان حتى يكون ان لا يعرف احب
اليه من ان يعرف وحتى ان يكون قلة الشي احب اليه من كثرته وقال عيسى عليه السلام
الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها وقيل له يا نبي الله لو امرتنا ان نبني بيتا نعبد الله
فيه فقال اذهبوا فابنوا بيتا على الما فقالوا كيف يستقيم بنيان على الما قال وكيف
يستقيم عبادة مع حب الدنيا وقال صلى الله عليه واله ان ربي عرض علي ان يجعل
لي بطحا مكة ذهبا قلت لا يا رب ولكن اجوع يوما واشبع يوما فاما اليوم الذي
اجوع فيه فاتضرع اليك وادعوك واما اليوم الذي اشبع فيه فاحمدك واثني
عليك وقال صلى الله عليه واله اذا اراد الله بعبد خيرا زهده في الدنيا وفقهه

ويبصره بعيوب نفسه وقال صلى الله عليه وسلم ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في ايدي الناس يحبك الناس وقال صلى الله عليه وسلم من اشتاق الى الجنة سارع الى الخيرات ومن خاف من النار لهى عن الشهوات ومن ترقب الموت ترك اللذات ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات ويروى عن نبينا وعن عيسى عليهما السلم اربعة لا يدركن الا بعجب الصمت وهو اول العبادة والتواضع وكثرة الذكر وقلة الشي وجميع الاخبار الواردة في مدح بغض الدنيا وذم حبها لا يمكن فان الانبيا ما بعثوا الا لصرف الناس عن الدنيا الى الاخرة فاليه يرجع اكثر كلامهم مع الخلق وفيما اوردناه كفاية **واما** الاثار فقد جا في الاثر لا تزال لا اله الا الله تدفع عن العبيد سخط الله تعالى ما لم يبالوا ما نقص من دنياهم وفي لفظ اخر ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم فاذا فعلوا ذلك وقالوا لا اله الا الله قال الله تعالى كذبتم لستم بها صادقين والخبر ذلك ذكره

بيان درجات الزهد واقسامه بالاضافة الى نفسه والى المرغوب عنه والى المرغوب فيه

اعلم ان الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على ثلث درجات الدرجة السفلى منها ان يزهد في الدنيا وهو لها مشتهي وقلبه اليها مايل ونفسه اليها ملتفتة ولكنه يجاهدها ويكفها وهذا يسمى المتزهد وهو مبدا الزهد في حق من يصل الى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد والمتزهد يذيب اولا نفسه ثم كيسه والزاهد يذيب اولا كيسه ثم يذيب نفسه في الطاعات لا في الصبر على ما فارقه والمتزهد على خطر فانه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود الى الدنيا والى الاستراحة بها في قليل او كثير الدرجة الثانية ان يترك الدنيا طوعا لاستحقاره اياها بالاضافة الى ما طمع فيه كالذي يترك درهما لاجل درهمين فانه لا يشق عليه ذلك وان كان يحتاج الى انتظار قليل ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت اليه كما يرى البايع المبيع ويلتفت اليه فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده ويظن في نفسه انه ترك شيئا له قدر لما هو اعظم قدرا منه وهذا ايضا نقصان الدرجة الثالثة وهي العليا ان يزهد طوعا ويزهد في زهده فلا يرى زهده اذ لا يرى انه ترك شيئا اذ عرف ان الدنيا لا شي فيكون كمن ترك خزفة واخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تاركا شيئا والدنيا والاضافة الى الله تعالى ونعيم

ونعيم الاخرة اخس من خزفة الى جوهرة فهذا هو الكمال في الزهد وسببه كمال المعرفة ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات الى الدنيا كما ان تارك الخزفة بالجوهرة آمن من طلب الاقالة في البيع قال ابو يزيد لابي موسى عبد الرحيم في اي شي تتكلم قال في الزهد قال في اي شي قال في الدنيا فنفض يده وقال ظننت انه يتكلم في شي الدنيا لا شي ايش تزهد فيه ومثل من ترك الدنيا للاخرة عند اهل المعرفة وارباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فالقى اليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى نفذ امره في جميع مملكته افترى انه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز القاها الى كلبه في مقابلة ما قد ناله فالشيطان كلب على باب الله يمنع الناس من الدخول مع ان الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز ان اكلها فلذتها في حال المضغ وتنقضي على القرب بالابتلاع ثم يبقى ثقلها في المعدة ثم تنتهي الى النتن والقذر ثم يحتاج الى اخراج ذلك الثقل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت اليها ونسبة الدنيا كلها اعني ما يسلم لكل شخص منها وان عمر مائة سنة بالاضافة الى نعيم الاخرة اقل من لقمة بالاضافة الى ملك الدنيا اذ لا نسبة للمتناهي الى ما لا نهاية له والدنيا متناهية على القرب ولو كانت تتمادى الف الف سنة صافية عن كل كدورة لكان لا نسبة لها الى الابد فاذن لا يلتفت الزاهد الى زهده الا اذا التفت الى ما زهد فيه ولا يلتفت اليه الا اذا راه شيئا معتدا به ولا يراه شيئا معتدا به الا لقصور معرفته فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة فهذا تفاوت درجات الزهد وكل درجة من هذه ايضا لها درجات اذ تصبر المتزهد يختلف ويتفاوت ايضا باختلاف قدر المشقة في الصبر وكذلك درجة المعجب بزهده في قدر التفاته الى زهده واما انقسام الزهد بالاضافة الى المرغوب فيه فهو ايضا على ثلث درجات الدرجة السفلى ان يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن ساير الالام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وساير ما بين يدي العبد من الاهوال كما وردت به الاخبار اذ فيها ان الرجل ليوقف في الحساب حتى لو ورد مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت ريّا فهذا

زهد الخائفين فكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا فإن الخلاص من الألم يحصل بمجرد
العدم الدرجة الثانية أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة في
الجنة من الحور والقصور وغيرها وهذا زهد الراجين فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا
قناعة بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرمد لا آخر له
الدرجة الثالثة وهي العليا أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه فلا يلتفت
قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها بل
هو مستغرق الهم بالله تعالى وهو الذي أصبح وهمومه هم واحد وهو الموحد
الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى لأن من طلب غير الله فقد عبده وكل مطلوب
معبود وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلوبه وطلب غير الله من الشرك الخفي
وهذا زهد المحبين وهم العارفون لأنه لا يحب الله خاصة إلا من عرفه وكما أن
من عرف الدينار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب إلا الدينار
فمن عرف الله وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أن الجمع بين تلك اللذة
وبين لذة التنعم بالحور العين والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن
فلا يحب إلا لذة النظر ولا يؤثر غيره ولا تظنن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه
الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم بل تلك اللذة بالإضافة
إلى لذة نعيم الاستيلاء على عصفور واللعب به والطالبون لنعيم الجنة عند أهل
المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك
وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك لا لأن اللعب بالعصفور في نفسه أعلى
وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق وأما انقسامه بالإضافة
إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل ولعل المذكور فيه يزيد على مائة
فلا نشتغل بنقل الأقاويل ولكن نشير إلى كلام محيط بتفصيل والتفصيل
بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمع للجمل أما الإجمال في الدرجة الأولى
فهو كل ما سوى الله فينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد في نفسه أيضا والإجمال في
الدرجة الثانية أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة وهذا يتناول جميع
مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها

وغيرها والإجمال في الدرجة الثالثة أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما
يرجع حظوظ النفس وفي الرابعة أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم
والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأعني به كل علم وقدرة مقصودها
ملك القلوب إذ معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها كما أن معنى المال ملك
الأعيان والقدرة عليها فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا
فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال
زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة
والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ثم رده في آية أخرى
إلى خمسة فقال اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر
في الأموال والأولاد ثم رده في موضع آخر إلى اثنين فقال وما الحياة الدنيا إلا لعب
ولهو ثم رد الكل في موضع آخر إلى واحد فقال ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي
المأوى فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا فينبغي أن يكون الزهد فيه
وإذا عرفت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أن النقص من هذه عن حظوظ النفس كلها
ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمله لا محالة لأنه
يريد البقاء ليتمتع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء فإن من أراد شيئا أراد دوامه
ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود وممكن في هذه الحياة فإذا رغب
عنها لم يردها ولذلك لما كتب عليهم القتال قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا
إلى أجل قريب فقال قل متاع الدنيا قليل أي لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا
فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المنافقين أما الزاهدون المحبون لله
قاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وانتظروا إحدى الحسنيين وكانوا إذا دعوا
إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويتبادرون إليها مبادرة الظمآن إلى الماء البارد
حرصا على نصرة دين الله أو نيل رتبة الشهادة وكان من مات منهم على فراشه يتحسر
على فوت الشهادة وأما المنافقون ففروا من الزحف خوفا من الموت فقيل لهم إن الموت
الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم فإيثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو
أدنى بالذي هو خير فأولئك اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فما ربحت تجارتهم وما

كانوا مهتدين واما الخائفون فان الله اشترى منهم انفسهم واموالهم بان لهم الجنة فلما
راوا انهم تركوا تمتع عشرين سنة او ثلثين بتمتع الابد استبشروا ببيعهم الذي بايعوا
به وهذا بيان المزهود فيه واذا فهمت هذا علمت ان ما ذكره المتكلمون في حد الزهد
لم يشيروا به الا الى بعض اقسامه فذكر كل واحد ما رآه غالبا على نفسه او على من كان يخاطبه
فقال بشر الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس وهذا اشارة الى الزهد في الجاه خاصة
وهكذا في قال رحمه الله وفي الزهد اقاويل وراء ما نقلناه فلم نر في نقلها فائدة
فان من طلب كشف حقائق الامور من اقاويل الناس رآها مختلفة فلا يستفيد الا الحيرة
واما من انكشف له الحق في نفسه وادركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقفه من سمعه فقد وثق
بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار
حاجته فيكون سبب الاقتصار الاخبار عن الحالة الراهنة التي هي مقام العبد في نفسه
والاحوال تختلف فلا جرم الاحوال المخبر عنها تختلف واما الحق في نفسه فلا يكون
الا واحدا ولا يتصور ان يختلف وانما الجامع بين هذه الاقاويل الكامل في نفسه وان لم
يكن فيه تفصيل ما قاله ابو سليمان الداراني اذ قال الزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك
عن الله وقد فصل مرة فقال من تزوج او سافر في طلب المعيشة او كتب الحديث
فقد ركن الى الدنيا فجعل جميع ذلك ضد الزهد وقد قرا ابو سليمان قوله تعالى الا من اتى الله
بقلب سليم قال هو القلب الذي ليس فيه غير الله وقال انما زهدوا في الدنيا ليفرغوا قلوبهم
من همومها للآخرة فهذا بيان انقسام الزهد بالاضافة الى اصناف المزهود فيه فاما با
لاضافة الى احكامه فينقسم الى فرض ونفل وسلامة فالفرض هو الزهد في الحرام والنفل
هو الزهد في الحلال والسلامة هو الزهد في الشبهات وقد ذكرنا درجات الورع في
كتاب الحلال والحرام وذلك من الزهد وقيل لمالك بن انس ما الزهد فقال التقوى
واما بالاضافة الى خفايا ما يترك فلا نهاية للزهد فيه اذ لا نهاية لما يتمتع به النفس في
الخطرات واللحظات وسائر الحالات لا سيما خفايا الرياء فان ذلك لا يطلع عليه الا سما
سرة العلماء بل الاموال الظاهرة ايضا درجات الزهد فيها لا تتناهى فمن اقصى درجاتها
زهد عيسى عليه السلام اذ توسد حجرا في نومه فقال له الشيطان اما كنت تركت الدنيا فما الذي
بدا لك فقال وما الذي تجدد قال توسدك الحجر اي تنعمت برفع راسك عن الارض في النوم

في النوم فرمى بالحجر وقال خذه مع ما تركته لك وروي عن يحيى بن زكريا انه لبس المسوح
حتى ثقب جلده تركا للتنعم بلين الثياب واستراحة حس اللمس فسالته امه ان
يلبس جبة من صوف مكانها ففعل فاوحى الله تعالى اليه يا يحيى آثرت علي الدنيا فبكى ونزع
الصوف وعاد الى ما كان وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط انسان فاقامه صاحب الحائط
فقال له ما اقمتني انت انما اقامني الذي لم يرض لي ان اتنعم بظل الحائط فاذن درجات
الزهد ظاهرا وباطنا لا حصر لها واقل درجاته الزهد في كل شبهة ومحظور فان
قلت مهما كان الصحيح هو ان الزهد ما سوى الله تعالى فكيف يتصور ذلك مع
الاكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم فكل ذلك اشتغال بما سوى
الله فاعلم ان معنى الانصراف عن الدنيا الى الله تعالى الاقبال بكل القلب عليه ذكرا
وفكرا ولا يتصور ذلك الا مع البقاء ولا بقاء الا بضروريات النفس فمهما اقتصرت
من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة
لم يكن مشتغلا بغير الله فان ما لا يتوصل الى الشيء الا به فهو منه فالمشتغل بعلف
الناقة في طريق الحج ليس معرضا عن الحج ولكن ينبغي ان يكون في طريق الله مثل ناقتك
في طريق الحج ولا غرض لك في تنعم ناقتك باللذات بل غرضك مقصور على دفع المهلكات
حتى تسير بك الى مقصدك فكذلك ينبغي ان تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش
المهلك بالاكل والشرب وعن الحر والبرد المهلك باللباس والمسكن مقتصرا على قدر
الضرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوي على طاعة الله فذلك لا ينافي الزهد بل هو
شرط الزهد فان قلت لا بد ان اتلذذ بالاكل عند الجوع فاعلم ان ذلك لا يضرك
اذا لم يكن قصدك التلذذ فان شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حاصله
الى زوال الم العطش ومن يقضي حاجته قد يستريح به ولكن لا يكون ذلك مقصودا
عنده مطلوبا بالقصد فلا يكون القلب منصرفا اليه فالانسان قد يستريح في قيام
الليل بتنسم الاسحار وصوت الطيور ولكن اذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة
فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره ولقد كان في الخائفين من طلب موضعا لا يصيبه
نسيم الاسحار حذرا من الاستراحة به وانس القلب معه فيكون فيه انس بالدنيا
ونقصان في الانس بالله بقدر وقوع الانس بغيره ولذلك كان داود الطائي

رجت مكسورة فيبردها فكان لا يرفعه من الشمس ويشرب الماء الحار ويقول من وجد لذة الماء البارد يشق عليه مفارقة الدنيا فهذه مخاوف المحتاطين والحزم في ذلك الاحتياط فانه وان كان شاقا فمدته قريبة والاحتماء مدة يسيرة للتنعم على الدوام لا يثقل على اهل المعرفة القاهرين انفسهم بسياسة الشرع المتقين بعزيمة اليقين في معرفة المضادة التي هي بين الدنيا والاخرة ثم ذكر رحمه الله بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحيوة قال رحمه الله اعلم ان ما الناس منهمكون فيه ينقسم الى فضول والى مهم فالفضول كالخيل المسومة مثلا اذ يقتنيها الانسان ليركب وهو قادر على المشي والمهم كالاكل والشرب ولسنا نقدر على تفصيل اصناف الفضول فان ذلك لا ينحصر وانما ينحصر المهم الضروري والمهم ايضا يتطرق اليه فضول في مقداره وجنسه واوقاته فلا بد من بيان وجه الزهد فيه والمهمات ستة المطعم والملبس والمسكن واثاثه والمنكح والمال والجاه يطلب للاغراض وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له وكيفية الاحتراز منه في كتاب الجاه من ربع المهلكات ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الاول المطعم ولا بد للانسان من قوت حلال يقيم صلبه ولكن له طول وعرض فاما طوله فبالاضافة الى جملة العمر فان من ملك طعام يومه فقد لا يقنع به واما عرضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله اما طوله فلا يقصر الا بقصر الامل واقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدة الجوع وخوف المرض ومن هذا حاله فاذا استقل بما تناوله لم يدخر من غدائه لعشائه وهذه هي الدرجة العليا الدرجة الثانية ان يدخر لشهر او لاربعين يوما الثالثة ان يدخر لسنة فقط وهذه رتبة ضعفاء الزهاد ومن ادخر لاكثر من ذلك فتسميته زاهدا محال لان من امل بقاء اكثر من سنة وهو طويل الامل فلا يتم منه الزهد الا اذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الاخذ من الايدي كداود الطائي فانه ورث عشرين دينارا فامسكها وانفقها في عشرين سنة فهذا لا يضاد اصل الزهد الا عند من جعل التوكل شرط الزهد واما عرضه فبالاضافة الى المقدار فاقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل واوسطه رطل واعلاه مد واحد وهو ما قدره الله تعالى في طعام المسكين في الكفارة واما بالاضافة الى الجنس فاقله كل ما يقوت ولو النخالة

ولو الخبز من النخالة واما بالاضافة الى الوقت فاعلاه في اليوم والليلة مرة وهو ان يكون صائما واوسطه ان يصوم ويشرب ليلة ولا ياكل ويأكل ليلة ولا يشرب واعلاه ان ينتهي الى ان يطوي ثلاثة ايام او اسبوعا وما زاد وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام في شرح ربع المهلكات فلينظر الى احوال رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه في كيفية زهدهم في الطعام وتركهم الادم الثاني الملبس واقل درجاته ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة واما من حيث الوقت فاقصاه ما يبقى سنة واقله ما يبقى يوما واوسطه ما يتماسك عليه شهرا وما يقاربه فطلب ما يبقى اكثر من سنة خروج الى طول الامل وهو مضاد للزهد الا اذا كان المطلوب خشونة ما قد يتبع ذلك قوته وطوله فمن وجد زيادة من ذلك ينبغي ان يتصدق به فان امسكه لم يكن زاهدا بل كان محبا للدنيا ولينظر فيه الى احوال الانبياء واصحابهم في كيفية تركهم الملابس قال ابو بردة اخرجت عائشة كساء ملبدا او ازارا غليظا فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وآله في هذين وقال عليه السلام ان الله تعالى يحب المتبذل الذي لا يبالي ما لبس واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا باربعة دراهم وكانت قيمة حلته لانها قيمتان من جنس واحد وربما لبس بردين يمانيين او سحوليين من هذه الغلاظ وفي الخبر كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم كانه قميص زيات وعن جابر قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة وهي تطحن بيديها وعليها كساء من اجلة الابل فلما نظر اليها بكى وقال يا فاطمة تجرعي مرارة الدنيا لنعيم الابد فانزل الله تعالى عليه ولسوف يعطيك ربك فترضى وقال صلى الله عليه وآله ان من خيار امتي فيما انبأني الملأ الاعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم ويبكون سرا من خوف عذاب ربهم مؤونتهم على الناس خفيفة وعلى انفسهم ثقيلة يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان اجسامهم في الارض وافئدتهم عند العرش فهذه سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الملابس وقد اوصى امته عامة في اتباعه اذ قال من احبني فليستن بسنتي وقال عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وقال تعالى ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله واوحى الله تعالى الى بعض انبيائه قل لاوليائي لا تلبسوا ملابس اعدائي ولا تدخلوا مداخل اعدائي فتكونوا كما هم اعدائي وقال علي عليه السلام ان الله تعالى اخذ على ائمة الهدى ان يكونوا في مثل ادنى احوال الناس ليقتدي بهم الغني ولا يزري بالفقير

نفرة وما عوتب في خشونة لباسه قال هو ادنى الى التواضع واجدر ان يقتدى بى المسلم
الثالث المسكن وللزهد فيه ايضا ثلث درجات اعلاها ان لا يطلب موضعا خاصا
لنفسه فيقنع بزوايا المسجد كاصحاب الصفة واوسطها ان يطلب موضعا خاصا لنفسه
مثل كوخ مبني من سعف او خص وما يشبهه وادناها ان يطلب حجرة مبنية اما بشرآء او
اجارة فان كان قدر سعته على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرجه هذا القدر
عن اخر درجات الزهد فان طلب التشييد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف اكثر
من ستة اذرع فقد جاوز بالكلية حد الزهد في المسكن فالجملة كل ما يراد للغرض فلا
ينبغى ان يجاوز حد الغرض وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته وما جاوز
ذلك فهو مضاد للدين والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الاعين
والايدى واقل الدرجات فيه معلوم وما زاد عليه فهو من الفضول والفضول كله
من الدنيا وطالب الفضول والساعى له بعيد من الزهد جدا امر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس ان
يهدم عليته كان قد علا بها ومر صلى الله عليه وسلم بجنبذة معلاة فقال لمن هذه فقالوا لفلان
فلما جاء الرجل اعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسال الرجل اصحابه عن تغير
وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبر فذهب فهدمها فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها فاخبر
بانه هدمها فدعا له بخير وقال الحسن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة ولا
قصبة على قصبة وقال صلى الله عليه وسلم اذا اراد الله بعبد شرا اهلك ماله في الماء والطين وقال عبد الله بن
عمر مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا فقال ما هذا قلنا خص لنا قد وهى فقال
ارى الامر اعجل من ذلك واتخذ نوح بيتا من قصب فقيل له لو بنيت فقال هذا كثير
لمن يموت وقال صلى الله عليه وسلم من بنى فوق ما يكفيه كلف ان يحمله يوم القيامة وقال
صلى الله عليه وآله للرجل الذى شكا اليه ضيق منزله اتسع في السمآء اى في الجنة وقال ابن
مسعود يأتي قوم يرفعون الطين ويضعون الدين ويستعملون البراذين يصلون الى
قبلتكم ويموتون على غير دينكم الرابع اثاث البيت وللزهد فيه درجات واعلاها
حال عيسى عليه السلام اذ كان لا يصحبه الا مشط وكوز فرأى انسانا يمشط لحيته باصابعه فرمى
المشط ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى الكوز وهذا حكم كل اثاث فانه انما
يراد لمقصود فاذا استغنى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة وما لا يستغنى عنه فيقتصر فيه

فيقتصر على اقل الدرجات واوسطها ان يكون له اثاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه ولكن يستعمل
الآلة الواحدة في مقاصد كالذى معه قصعة يشرب فيها ويأكل الثريد منها
ويحفظ الاشياء فيها وادناها ان يكون بعدد كل حاجة آلة من الجنس النازل الخسيس فان
زاد في العدد او في نفاسة الجنس خرج من جميع ابواب الزهد وركن الى طلب الفضول
ولينظر الى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة بعده قالت عائشة كان ضجاع رسول الله
صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وسادة من ادم حشوها ليف وقال الفضيل ما كان فراش
رسول الله صلى الله عليه وسلم الا عباءة مثنية ووسادة من ادم حشوها ليف وروى ان عمر بن الخطاب
دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو نائم على سرير مرمول بشريط فجلس فرأى
اثر الشريط في جنبه عليه السلام فدمعت عيناه فقال له صلى الله عليه وسلم ما الذى ابكاك يا ابن
الخطاب فقال ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك وذكرتك وانت حبيب
الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط فقال اما ترضى يا عمر ان تكون
لهما الدنيا ولنا الآخرة قال بلى يا رسول الله قال فذلك كذلك ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم
على باب عائشة سترا فهتكه وقال كلما رايته ذكرت الدنيا ارسلي به الى آل فلان و
فرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية فما زال يتقلب
ليلته فلما اصبح قال لها اعيدى العباءة الخلقة ونحى هذا الفراش عنى فقد اسهرنى
الليلة وكذلك اتته دنانير خمسة او ستة ليلا فبيتها فسهر ليلته حتى اخرجها
من آخر الليل قالت عائشة فنام حينئذ حتى سمعت غطيطه ثم قال ما ظن محمد بربه لو لقى
الله وهذه عنده الخامس المنكح فقد قال قائلون لا معنى للزهد في اصل النكاح
ولا في كثرته واليه ذهب سهل بن عبد الله وقال قد حبب الى سيد الزاهدين
النساء فكيف نزهد فيهن ووافقه على هذا ابن عيينة وقال كان ازهد الصحابة علي بن ابي
طالب وكان له اربع نسوة وبضع عشرة سرية والصحيح ما قال ابو سليمان الداراني
اذ قال كل ما شغلك عن الله من اهل ومال وولد فهو عليك مشؤم والمرأة قد تكون
شاغلا عن الله وكشف الحق فيه انه قد تكون العزوبة افضل في بعض الاحوال كما سبق في كتاب
النكاح فيكون ترك النكاح من الزهد وحيث يكون النكاح افضل لدفع الشهوة الغالبة
فهو واجب فكيف يكون من الزهد وان لم يكن عليه آفة في تركه ولا في فعله ولكن ترك

النكاح احترازا من ميل القلب اليهن والانس بهن بحيث يشغل عن ذكر الله فتركه من الزهد
ولو علم ان الملة لا تشغله عن ذكر الله ولكن تركه احترازا من لذة النظر والمضاجعة
والمواقعة فليس هذا من الزهد اصلا فان الولد مقصود لبقاء نسله وتكثير امة رسول الله
من القربات واللذة التي تلحق الانسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره اذا لم تكن هي
المطلب والمقصد وهذا كمن ترك اكل الخبز وشرب الماء احترازا عن لذة الاكل والشرب
فليس ذلك من الزهد لان في ترك ذلك فوات بدنه وفي ترك النكاح انقطاع نسله فلا يجوز
ان يترك النكاح زهدا في لذته من غير خوف آفة اخرى وهذا ما عناه سهل لا تعترض
لاجل نكح رسول الله وما ثبت هذا من حال رسول الله فلم يشغله كثرة
النسوان والاشتغال القلب باصلاحهن والانفاق عليهن فلا معنى للزهد فيهن حذرا
من مجرد لذة النكاح والوقاع والنظر ولكن اين يتيسر ذلك لغير الانبياء فاكثر الناس
يشغلهم كثرة النسوان فينبغي ان يترك الاصل ان كان يشغله وان لم يشغله وكان يخاف
ان يشغله الكثرة منهن او جمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك قال
ابو سليمان الزهد في النساء ان يختار المرأة الدون او اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة
وقال الجنيد احب للمريد المبتدي ان لا يشغل قلبه بثلث والا تغير حاله التكسب وطلب
الحديث والتزوج وقال احب للصوفي ان لا يقرأ ولا يكتب لانه اجمع لهمه فاذن ظهر ان
لذة النكاح كلذة الاكل فما شغل عن ذكر الله فهو محذور فيهما جميعا المهم السادس
ما يكون وسيلة الى هذه الخمسة وهو المال والجاه اما الجاه فمعناه ملك القلوب بطلب
محل فيها ليتوصل بها الى الاستعانة في الاغراض والاعمال وكل من لا يقدر على القيام بنفسه
في جميع حاجاته وافتقر الى من يخدمه افتقر الى الجاه لا محالة في قلب خادمه لانه ان لم يكن له
عنده محل وقدر لم يخدمه وقيام القدر والمحل في القلوب هو الجاه وهذا له اول
قريب ولكن يتمادى الى هاوية لا عمق لها ومن حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه وانما
يحتاج الى المحل في القلوب اما لجلب نفع او لدفع ضر او للخلاص من ظلم فاما النفع فيغني
عنه المال فان من يخدم باجرة يخدم وان لم يكن للمستاجر عنده قدر وانما يحتاج الى
الجاه في قلب من يخدم بغير اجرة فاما دفع الضر فيحتاج لاجله الى الجاه في بلد لا يكمل العدل
فيها او ان يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم الا بمحل له في القلوب او محل

او بجاه عند السلطان وقدر الحاجة فيه لا ينضبط لا سيما اذا انضم اليها الخوف وسوء
الظن بالعواقب والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك بل حق الزاهد ان لا يسعى لطلب
المحل في القلوب اصلا فان اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل في القلوب ما يدفع
عنه الاذى ولو كان بين الكفار فكيف بين المسلمين واما التوهمات والتقديرات التي
تحوج الى مزيد في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي اوهام كاذبة اذ من طلب الجاه ايضا
لم يخل عن اذى في بعض الاحوال فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر اولى من علاجه بطلب
الجاه فاذن طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه اصلا واليسير منه داع الى الكثير و
ضراوته اضر من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره واما المال فهو ضروري في المعيشة اعني القليل
منه فان كان كسوبا فاذا اكتسب حاجة يومه فينبغي ان يترك الكسب كان بعضهم اذا
قدر حاجته رفع سفطه وقام فهذا شرط الزهد فان جاوز ذلك الى ما يكفيه اكثر
من سنة فقد خرج عن حد ضعفاء الزهاد واقويائهم جميعا وان كانت له ضيعة ولم
يكن له قوة يقين في التوكل فامسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا
القدر عن الزهد بشرط ان يتصدق بكل ما يفضل عن كفاية نفقته ويكون من ضعفاء
الزهاد فان شرط التوكل في الزهد كما شرطه اويس القرني فلا يكون هذا من الزهاد
وقولنا انه خرج من حد الزهاد نعني به ان ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من
المقامات المحمودة لا يناله والا فاسم الزهد لا يفارقه بالاضافة الى ما زهد فيه من
الفضول والكثرة وامر المنفرد في جميع ذلك اخف من امر المعيل وقد قال ابو سليمان
لا ينبغي ان يضيق الرجل على اهله الى الزهد بل يدعوهم اليه فان اجابوا والا تركهم
وفعل بنفسه ما شاء معناه ان التضييق المشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه كل ذلك
في عياله نعم لا ينبغي ان يجيبهم ايضا فيما يخرج عن الاعتدال وليتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ
انصرف من بيت فاطمة بسبب ستر وقلبين لان ذلك من الزينة لا من الحاجة فاذن
ما يضطر الانسان اليه من جاه ومال ليس بمحذور بل الزائد على الحاجة سم قاتل والمقتصر
على الضرورة دواء نافع وما بينهما درجات متشابهة فما يقرب من الزيادة وان لم يكن سما
قاتلا فهو مضر وما يقرب من الضرورة فهو دواء وان لم يكن دواء نافعا فهو قليل الضرر
والسم محظور شربه والدواء فرض تناوله وما بينهما مشتبه امره فمن احتاط فانما

خياط النفس ويتبقى تساهل فانما تساهل على نفسه ومن استبرأ لدينه وترك ما يريبه الى
ما لا يريبه ورد نفسه الى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم وهو من الفرقة الناجية
لا محالة والمقتصر على الضرورة والمهم لا يجوز ان ينسب الى الدنيا بل ذلك القدر من
هو عين الدين لانه شرط الدين والشرط من جملة المشروط ويدل عليه ما روي ان
ابرهيم عليه السلام اصابته حاجة فذهب الى صديق له يستقرض منه شيئا فلم يقرضه فرجع مهموما
فاوحى الله تعالى اليه لو سألت خليلك لاعطاك فقال يا رب عرفت مقتك للدنيا
فخفت ان اسألك منها فاوحى الله تعالى اليه ليس الحاجة من الدنيا فاذن قدر الحاجة من
الدين وما وراء ذلك وبال في الآخرة وهو في الدنيا ايضا كذلك يعرفه من يخبر احوال
الاغنياء وما عليهم من المحنة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الذل فيه وغاية سعادته
به ان يسلم لورثته فيأكلونه وربما يكونون اعداء له وقد يستعينون به على المعصية فيكون
هو معينا لهم عليها ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لا يزال
ينسج على نفسه حتى يقتلها ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصا فيموت ويهلك بسبب عمله الذي
عمله بنفسه قال الشاعر الم تر ان المرء طول حياته معنى بامر لا يزال يعالجه كذلك
دود القز ينسج دائما ويهلك غما وسط ما هو ناسجه فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا
فانما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهيه حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال
والجاه والاهل والولد وشماتة الاعداء ومراءاة الاصدقاء وسائر حظوظ الدنيا
فلو خطر له انه قد اخطأ فيه وقصد الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيدا
بسلاسل واغلال لا يقدر على قطعها ولو ترك محبوبا من محابه باختياره كان ان
يكون قاتلا لنفسه وساعيا في هلاكها الى ان يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة
فيبقى السلاسل من قلبه معلقة بالدنيا التي هي فاتته وخلفها فهي تجاذبه الى الدنيا
ومخالب ملك الموت قد تعلقت بعروق قلبه تجذبه الى الآخرة فيكون اهون احواله
عند الموت ان يكون مثل شخص ينشر بالمناشير ويفصل احد جانبيه عن الآخر بالجذبة
من الجانبين والذي ينشر بالمنشار انما ينزل الالم ببدنه ويتألم قلبه من حيث يسري الم
الى قلبه فكيف ظنك بالم يتمكن اولا من صميم القلب مخصوصا لا بطريق السراية اليه من
غيره فهذا اول عذاب يلقاه مع ما يراه من حسرة فوت النزول الى اعلى عليين

وجوار رب العالمين فبالنزوع الى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى وعند الحجاب يسلط عليه نار
جهنم اذ النار غير مسلطة الا على محجوب قال تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم
انهم لصالوا الجحيم فرتب العذاب بالنار على الم الحجاب والم الحجاب كاف من غير
علاوة النار فكيف اذا اضيفت العلاوة اليه فنسأل الله تعالى ان يقدس تبعنا
ما انعت في ربع رسول الله صلعم حيث قيل له احبب ما احببت فانك مفارقه ولما
لاولياء الله ان العبد يهلك نفسه باعماله باتباع هوى نفسه اهلاك دود القز
رفضوا الدنيا بالكلية حتى قال الحسن رأيت سبعين بدريا كانوا فيما احل الله لهم
ازهد منكم فيما حرم الله عليكم وفي لفظ آخر كانوا بالبلاء اشد فرحا منكم بالخصب
والرخاء لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو رأوا خياركم لقالوا ما لهؤلاء من خلاق ولو
رأوا اشراركم لقالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب وكان احدهم يعرض له المال الحلال
فلا يأخذه ويقول اخاف ان يفسد علي قلبي فمن كان له قلب كان لا محالة يخاف من فساده
والذين امات حب الدنيا قلوبهم فقد اخبر الله عنهم اذ قال ورضوا بالحيوة الدنيا
واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون وقال تعالى ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا
واتبع هواه وكان امره فرطا وقال فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحيوة
الدنيا ذلك مبلغهم من العلم احال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم ولذلك قال
رجل لعيسى عليه السلام احملني معك في سياحتك فقال اخرج مالك والحقني قال لا استطيع
فقال عليه السلام بعجب يدخل الغني الجنة او قال بشدة وقال بعضهم ما من يوم الا واربعة
املاك ينادون في الآفاق باربعة اصوات ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب يقول
احدهم من المشرق يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر اقصر ويقول الآخر اللهم اعط منفقا
خلفا واعط ممسكا تلفا ويقول اللذان في المغرب لدوا للموت وابنوا للخراب ويقول
الآخر كلوا وتمتعوا ليوم الحساب

بيان علامات الزهد

اعلم انه قد
يظن ان تارك المال زاهد وليس كذلك فان ترك المال واظهار الخشونة سهل
على من احب المدح بالزهد فكم من الراهبين ردوا انفسهم كل يوم على قدر يسير
من الطعام ولازموا ديرا لا باب له وانما مسرة احدهم معرفة الناس حاله ونظرهم
اليه ومدحهم له فذلك لا يدل على الزهد في المال والجاه جميعا حتى يكمل الزهد

خرق
بل في جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعي جماعة الزهد مع لبس الاصواف الفاخرة
والثياب الرفيعة فادون معرفة الزهد مشكل بل حال الزاهد مشكل وينبغي ان يعول
في باطنه على ثلث علامات الاولى ان لا يفرح بموجود ولا يحزن بمفقود كما قال تعالى
لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما اتاكم بل ينبغي ان يكون بالضد من ذلك وهذه علامة
الزهد في المال والثانية ان يستوي عنده ذامه ومادحه وهذه علامة الزهد
في الجاه والثالثة ان يكون انسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة اذ لا
يخلو القلب عن حلاوة المحبة اما محبة الدنيا واما محبة الله وهما في القلب كالماء و
الهواء في القدح فالماء اذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان فكل من انس بالله اشتغل
به ولم يشتغل بغيره ولذلك قيل لبعضهم الى ماذا افضى بهم الزهد فقال الى الانس
بالله فاما الانس بالدنيا وبالله جميعا فلا يجتمعان وقد قال اهل المعرفة اذا تعلق
الايمان في سويداء القلب ونا شره انقص الدنيا فلم ينظر اليها ولم يعمل لها ولهذا قيل
في دعاء ادم عليه السلام اللهم اني اسئلك ايمانا يباشر قلبي وقال ابو سليمان من شغل
نفسه شغل عن الناس وهذا مقام العاملين ومن شغل بربه شغل عن نفسه وهذا
مقام العارفين فنسئل الله تعالى ان يرزقنا من ما ويرضيه وان قل فانا مثالنا
لا يستحي على الطمع في غايته وان كان قطع الرجاء عن فضل الله تعالى عيبا دونه فيه اذا
لا حظنا عجايب نعم الله تعالى علينا ان الله لا يشعر ظهر امرنا بعده ان يعظم السوال
اعتمادا على الجود المجاوز لكل كمال فاذن علامة الزهد استواء الغني والعقر والعز
والذل والفرح والذم لاجل غلبة الانس بالله ويتفرع عن هذه العلامات علامات
اخر لا محالة مثل ان يترك الدنيا ولا يبالي بمن اخذها وقال يحيى بن معاذ علامة
الزهد لا سم الا بالتوكل فليشرع في بيانه قال رحمه الله تعالى بعد ذكر الحمد والصلوة
واما بعد فان التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات المؤمنين بل هو
من اعلى درجات المقربين وهو في نفسه غامض من حيث العلم ثم هو شاق من حيث العمل
ووجه غموضه من حيث الفهم ان ملاحظة الاسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد
والتساعد عنها بالكلية طعن في السنة وقدح في الشرع والاعتماد على الاسباب من غير
ان يرى اسبابا بالتغيير وحجر العقل وانغماس في غمرة الجهل وتحقيق معنى التوكل على وجه

وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع في غاية الغموض والعسر ولا
يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة هذا الخفي الا سماسرة العلماء الذين اكتحلوا
من فضل الله تعالى بانوار الحقايق فابصروا وتحققوا ثم نطقوا بالاعراب عما شاهدوه
من حيث استنطقوا ونحن الآن نبدا بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ثم نردفه
بالتوحيد في الشطر الاول من الكتاب ونذكر حال التوكل وعمله في الشطر الثاني
بيان فضيلة التوكل اما من الايات فقد قال الله تعالى وعلى الله فتوكلوا ان كنتم
مؤمنين وعلى الله فليتوكل المتوكلون ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله يحب المتوكلين
فاعظم بمقام موسوم بمحبة صاحبه ومضمون بكفاية الله ملابسه فمن الله حسبه
وكافيه ومحبه ومراعيه فقد فاز الفوز العظيم فان المحبوب لا يعذب ولا يبعد
ولا يحجب وقد قال الله تعالى اليس الله بكاف عبده فطالب الكفاية من غيره هو التارك
للتوكل وهو المكذب بهذه الآية فانه سوال فانه سوال في معرض الاستنطاق بالحق
كقوله تعالى هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا وقال تعالى ومن
يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم اي عزيز لا يذل من استجار به ولا يضيع من لاذ
بجنابه والتجأ الى ذمامه وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره وقال تعالى
ان الذين تدعون من دون الله عباد امثالكم بين ان كل من سوى الله عبد مسخر
حاجته مثل حاجتك فكيف يتوكل عليه وقال ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون
لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه وقال الله تعالى ولله خزاين السموات
والارض ولكن المنافقين لا يفقهون فكل ما ذكر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على
قطع الملاحظة عن الاغيار والتوكل على الواحد القهار ثم ذكر رحمه الله كثيرا من
الاخبار والاثار بيان حقيقة التوحيد الذي هو اصل التوكل اعلم
ان التوكل من ابواب الايمان وجميع ابواب الايمان لا ينتظم الا بعلم وحال وعمل
والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الاصل ومن عمل هو الثمرة وحال هو المراد باسم
التوكل فلنبدأ ببيان العلم الذي هو الاصل وهو المسمى ايمانا في اصل اللسان
اذ الايمان هو التصديق وكل تصديق بالعلم فهو علم واذا قوي سمي يقينا لكن
ابواب اليقين كثيرة ونحن انما نحتاج منها الى ما نبني عليه التوكل وهو التوحيد الذي

ترجمة قولك لا اله الا الله وحده لا شريك له والايمان بالقدرة التي يترجم عنها قولك له الملك
والايمان بالجود والحكمة الذي يدل عليه قولك وله الحمد وهو على كل شي قدير فمن قال
لا اله الا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شي قدير فقد تم له الايمان
الذي هو اصل التوكل اعني ان يصير معنى هذا القول وصفا لازما للقلب غالبا عليه فاما
التوحيد فهو الاصل والقول فيه طويل وهو من علم المكاشفة ولكن بعض علوم المكاشفات
متعلق بالاعمال بواسطة الاحوال ولا يتم علم المعاملة الا بها فاذن لا نتعرض الا للقدر
الذي يتعلق بالاعمال والا فالتوحيد هو البحر الخضم الذي لا ساحل له فنقول للتوحيد اربع
مراتب وهو ينقسم الى لب ولب اللب والى القشر والى قشر القشر ولنمثل ذلك تقريبا الى الافهام
الضعيفة بالجوزة في قشرها العليا فان له قشرتين وله لب وللب دهن هو لب اللب فالرتبة
الاولى من التوحيد ان يقول الانسان باللسان لا اله الا الله وقلبه غافل عنه او منكر له
كتوحيد المنافقين والثانية ان يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو
اعتقاد والثالثة ان يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام
المقربين وذلك بان يرى اشياء كثيرة لكن يراها على كثرتها صادرة من الواحد القهار
والرابعة ان لا يرى في الوجود الا واحدا وهو مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية
الفناء في التوحيد لانه من حيث لا يرى الا واحدا فلا يرى نفسه ايضا واذا لم ير
نفسه لكونه مستغرقا بالواحد كان فانيا عن نفسه في توحيده بمعنى انه فني عن رؤية
نفسه فالاول موحد بمجرد اللسان ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان
والثاني موحد بمعنى انه معتقد بقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقدة
على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الاخرة ان توفي
عليها ولم تضعف بالمعاصي عقدتها ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى
بدعة وله حيل يقصد بها رفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصد بها ايضا احكام هذه
العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاما والعارف بها يسمى متكلما وهو في مقابلة المبتدع
ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة وشدها عن قلوب العوام وقد يخص المتكلم
باسم الموحد من حيث انه يحمي بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تنحل عقدته
والثالث موحد بمعنى انه لم يشاهد الا فاعلا واحدا اذا انكشف له الحق كما هو عليه

قشر وقشر

لا انه كلف قلبه ان يعتقد على مفهوم لفظ الحقيقة فان ذلك رتبة العوام والمتكلمين اذ لم
يفارق المتكلم العامي في الاعتقاد بل في صنعة تلفيق الكلام الذي به يدفع حيل المبتدع
في تحليل هذه العقدة والرابع موحد بمعنى انه لم يحضر في شهوده غير الواحد فلا يرى الكل
من حيث انه واحد وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد فالاول كالقشرة العليا من الجوز
والثاني كالقشرة السفلى والثالث كاللب والرابع كالدهن المستخرج من اللب وكما ان
القشرة العليا لا خير فيها بل ان اكلت فهي مر المذاق وان نظرت الى باطنه فهو كريه المنظر
وان اتخذ حطبا اطفأ النار واكثر الدخان وان تركت في البيت ضيقت المكان فلا
يصلح الا ان يترك مدة على الجوز للصوان ثم يرمى فكذلك التوحيد بمجرد اللسان عديم الجدوى
كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى الى وقت الموت
والقشرة السفلى هي القالب والبدن وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة
فانهم لم يؤمروا بشق القلوب والسيف انما يصيب جسم البدن وهو القشر وانما يتجرد
عنها بالموت فلا يبقى لتوحيده فايدة بعده وكما ان القشرة السفلى ظاهر النفع بالاضافة
الى القشرة العليا فانها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار واذا فصلت امكن
ان ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالاضافة الى اللب وكذلك مجرد الاعتقاد من غير
كشف كثير النفع بالاضافة الى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالاضافة الى الكشف
والمشاهدة التي تحصل بانشراح الصدر وانفساحه واشراق نور الحق فيه اذ ذلك الشرح
هو المراد بقوله تعالى فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام وبقوله تعالى افمن
شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وكما ان اللب نفيس في نفسه بالاضافة
الى القشر وكله المقصود ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالاضافة الى الدهن المستخرج
منه فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين ولكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة
الغير والالتفات الى الكثرة بالاضافة الى من لا يشاهد سوى الواحد الحق فان قلت
كيف يتصور ان لا يشاهد الا واحدا الخ قال رحمه الله تعالى بعد ذكر ان جميع ذرات
السماء والارض ناطقة بقدرة الله وعجايب القلوب والمشاهدات فان قلت
هذه الجملة لا تفي بها العقول فصف في كيفية نطقها وانها كيف نطقت وكيف سبحت
وقدست وكيف شهدت على نفسها بالعجز فاعلم ان كل ذرة في السموات والارض مع ارباب

كثيرا بل من حيث انه

القلوب مناجاة في السر وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى فانها كلمات يستمد من بحر
كلام الله الذي لا نهاية له قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد
كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ثم انها تناجي باسرار الملك والملكوت وافشاء
السر لوم بل صدور الاحرار قبور الاسرار وهل رايت قط امينا على سر الملك قد
نوجي بخفاياه فنادى به على ملا من الخلق ولو جاز افشاء كل سر لما قال صلى الله عليه وسلم
لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا بل كان يذكر ذلك لهم حتى يبكوا ولا يضحكوا
ولما نهى عن افشاء سر القدر ولما قال اذا ذكر النجوم فامسكوا واذا ذكر القدر فامسكوا
واذا ذكر اصحابي فامسكوا ولما خص حذيفة رضه ببعض الاسرار فاذن عن حكايات
مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب ارباب المشاهدات مانعان احدهما
افشاء السر والثاني خروج كلماتها عن الحصر والنهاية ولكنا في المثال الذي كنا فيه وهو
حركة القلم نحكي من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الاجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ونرد
كلماتها الى الحروف والاصوات وان لم يكن حروفا واصواتا ولكن هذه ضرورة التفهيم
فنقول قال بعض الناظرين الخ   فان قلت لقد فهمت هذا التوحيد وانه مرتب على الايمان
بعالم الملكوت فمن لا يفهم ذلك او يجحده فما طريقه فاقول اما الجاحد فلا علاج له الا
ان يقال انكارك لعالم الملكوت كانكار السمنية لعالم الجبروت وهم الذين حصروا العلوم
في الحواس الخمس فانكروا القدرة والارادة والعلم لانها لا تدرك بالحواس الخمس فلازموا
حضيض عالم الشهادة فان قال وانا منهم فاني لا اهتدي الا الى عالم الشهادة بالحواس الخمس
ولا اعلم شيئا سواه فيقال انكارك لما شاهدنا ما وراء الحواس الخمس كانكار السوفسطائية
للحواس الخمس فانهم قالوا ما نراه لا نثق به فلعلنا نراه بالمنام فان قال وانا من جملتهم فاني
شاك ايضا في المحسوسات فيقال هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه فيترك اياما قلائل فما كل مريض
يقوى على علاجه الاطباء هذا حكم الجاحد واما الذي لا يجحد ولكن لا يفهم فطريق
السالكين فيه ان ينظروا الى العين التي بها يشاهد عالم الملكوت فان وجدوها صحيحة في
الاصل وقد نزل فيها ماء اسود يقبل الازالة والتنقية اشتغلوا بتنقيتها اشتغال الكحال بالابصار
الظاهرة فاذا استوى بصره ارشد الى الطريق ليسلكه كما فعل ذلك رسول الله صلعم بخواص
اصحابه وان كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه ان يسلك السبيل الذي ذكرناه في التوحيد ولم

ولم يمكنه ان يسمع كلام ذرات الملك والملكوت بمشاهدة التوحيد كلمه بحرف
وصوت يتنزل به الى ذروة التوحيد الحقيقي فنقول ان في عالم الشهادة ايضا
توحيدا اذ يعلم كل احد ان المنزل يفسد بصاحبين والبلد باميرين فيقال له
على حد عقله ان العالم واحد والمدبر واحد اذ لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا الآية
فان قلت ما ذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت ان الوسائط والاسباب
مسخرات وكل ذلك ظاهر الا في حركات الانسان فانه يتحرك ان شاء ويسكن ان
شاء فكيف يكون مسخرا فاعلم انه لو كان مع هذا يشاء ان شاء ولا يشاء ان لم
يشاء لكان هذا مزلة القدم وموقع الغلط ولكن علمت انه يفعل اذا شاء ويشاء اذا
شاء ام لم يشأ فليست المشيئة اليه اذ لو كانت اليه لافتقرت الى مشيئة اخرى وتسلسل الى
غير نهاية واذا لم يكن المشيئة اليه فمهما وجدت المشيئة التي تصرف القدرة الى مقدورها
انصرفت القدرة لا محالة ولم يكن لها سبيل الى المخالفة فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة
والقدرة محركة ضرورة عند انجزام المشيئة والمشيئة تحدث ضرورة في القلب فهذه ضروريات
ترتب بعضها على بعض وليس للعبد ان يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة
الى المقدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة فهو مضطر في الجميع
فان قلت فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار وانت لا تنكر الاختيار فكيف يكون
مجبورا مختارا فاقول لو انكشف لك الغطاء لعرفت انه في عين الاختيار مجبور
فهو اذن مجبور على الاختيار وكيف يفهم هذا من لم يفهم الاختيار بلسان المتكلمين
شرحا وجيزا يليق بما نحكي متطفلا وتابعا فان هذا الكتاب لم يقصد به الا علم المعاملة
ولكني اقول لفظ الفعل في الانسان يطلق على ثلاثة اوجه فيقال الانسان يكتب بالاصابع
ويتنفس بالرئة والحنجرة ويخرق الماء اذا وقف عليه بجسمه فينسب اليه الخرق في الماء
والتنفس والكتبة وهذه الثلاثة في الحقيقة الاضطرار والجبر واحد ولكنها تختلف وراء
ذلك في امور فاعرب لك عنها بثلاث عبارات فنسمي خرقه الماء عند وقوعه على وجهه
فعلا طبيعيا ونسمي تنفسه فعلا اراديا ونسمي كتبته فعلا اختياريا والجبر ظاهر في الفعل
الطبيعي لانه مهما وقف على وجه الماء او تخطى من السطح فالهوى انخرق الهوى لا محالة فيكون
الخرق بعد التخطي ضروريا والتنفس في معناه فان نسبة حركة الحنجرة الى ارادة التنفس

الخراق الآ الى ثقل البدن فمهما كان الثقل موجودا وجد الانخراق بعده وليس الثقل
اليه فكذلك الارادة ليست اليه ولذلك لو قصد عين انسان بابرة طبق الاجفان
اضطرارا ولو اراد ان يتركها مفتوحة لم يقدر عليه مع ان تغميض الاجفان فعل ارادي
ولكنه اذا تمثلت صورة الابرة في مشاهدته بالادراك حدثت الارادة للتغميض ضرورة
وحدثت الحركة بها ولو اراد ان يتركها لم يقدر عليه مع انه فعل بالقدرة والارادة فقد
التحق بالفعل الطبيعي في كونه ضروريا واما الثالث وهو الاختياري فهو مظنة الالتباس
كالكتابة والنطق وهو الذي يقال فيه ان شاء فعل وان لم يشأ لم يفعل وتارة يشاء و
تارة لم يشأ فيظن من هذا ان الامر اليه وهو الجهل بمعنى الاختيار فلنكشف عنه وبيانه
ان الارادة تبع للعلم الذي يحكم بان الشيء موافق لك والاشياء تنقسم الى ما يحكم
مشاهدتك الظاهرة والباطنة بانه موافق لك من غير تحير وتردد والى ما قد يتردد العقل
فيه فالذي يقطع به من غير تردد ان يقصد عينك بابرة او بدنك بسيف فلا يكون في
علمك تردد في ان دفع ذلك خير لك وموافق فلا جرم تنبعث الارادة بالعلم والقدرة
بالارادة ويحصل حركة الاجفان بالدفع وحركة اليد بدفع السيف وذلك من غير روية
وفكرة ويكون ذلك بالارادة ومن الاشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه فلا يدري انه
موافق ام لا فيحتاج الى روية وفكر حتى يتبين ان الخير في الفعل او الترك فاذا حصل
بالفكر والروية العلم بان احدهما خير التحق ذلك بالذي يقطع به من غير روية وفكر
وانبعث الارادة ههنا كما انبعث لدفع السيف والابرة فاذا انبعث لفعل ما ظهر
للعقل انه خير سميت هذه الارادة اختيارا مشتقا من الخير اي هو انبعاث الى ما ظهر
للعقل انه خير وهو عين تلك الارادة ولم تنتظر في انبعاثها الا ما انتظرت في انبعاث
تلك الارادة وهو ظهور خيرية العقل له حقا الا ان الخير في دفع السيف ظهرت من غير
روية [illegible] البديهة وهذا افتقر الى الروية فالاختيار عبارة عن ارادة خاصة وهي
التي انبعثت [illegible] العقل فيما له ادراك توقف ومن هذا قيل العقل يحتاج اليه
للتمييز بين [illegible] الخيرين وشر الشرين ولا يتصور ان تنبعث الارادة الا بحكم الحس والتخيل
او بحكم جازم [illegible] العقل ولذلك لو اراد الانسان ان يحز رقبته بنفسه لم يمكنه ذلك لا لعدم
السكين ولكن لفقد الارادة الداعية المشخصة للقدرة وانما فقدت الارادة لانها

لا تنبعث الا بحكم العقل والحس بكون الفعل موافقا وقتله نفسه ليس موافقا له فلا يمكنه
مع قوة الاعضاء ان يقتل نفسه الا اذا كان في عقوبة مؤلمة لا تطاق فان العقل ههنا يتوقف
في الحكم ويتردد لانه تردد بين شر الشرين فان ترجح له بعد الروية ان ترك القتل اقل شرا
لم يمكنه قتل نفسه وان حكم بان القتل اقل شرا وكان حكمه جزما لا ميل فيه ولا صارف منه
انبعثت الارادة والقدرة واهلك نفسه كالذي يتبع بالسيف للقتل فانه يرمي نفسه من السطح
ان كان مهلكا ولا يبالي ولا يمكنه ان لا يرمي فان كان يتبع بضرب خفيف فاذا انتهى الى
طرف السطح حكم العقل بان الضرب اهون من الرمي فوقفت اعضاؤه فلا يمكنه ان
يرمي نفسه ولا ينبعث له داعية البتة لان داعية الارادة مسخرة بحكم العقل والحس والقدرة
مسخرة للداعية والحركة للقدرة والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدري فانما
هو محل ومجرى لهذه الامور فاما ان يكون منه فكلا ولا فاذن معنى كونه مجبورا
ان جميع ذلك حاصل فيه من غيره لا منه ومعنى كونه مختارا انه محل لارادة حدثت
فيه جبرا بعد حكم العقل بكون الفعل خيرا محضا وحدث الحكم ايضا جبرا فاذن هو مجبور على
الاختيار ففعل النار في الاحراق جبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض وفعل الانسان
على منزلة بين المنزلتين فانه جبر على الاختيار فطلب اهل الحق لهذا عبارة ثالثة لانه
كان فنا ثالثا واتبعوا فيه كتاب الله تعالى فسموه كسبا وليس مناقضا للجبر ولا للاختيار
بل هو جامع بينهما عند من فهمه وتسمية فعل الله تعالى اختيارا بشرط ان لا يفهم من الاختيار ارادة
بعد تحير وتردد فان ذلك في حقه محال وجميع الالفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن ان
يستعمل في حق الله تعالى الا على نوع من الاستعارة والتجوز وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم
ويطول القول فيه فان قلت فهل تقول ان العلم ولد الارادة والارادة ولدت القدرة
والقدرة ولدت الحركة وان كل متاخر حدث من المتقدم فان قلت ذلك فقد حكمت
بحدوث شيء لا من قدرة الله تعالى وان ابيت ذلك فما معنى ترتب [illegible] على
البعض فاعلم ان القول بان بعض ذلك حدث من بعض جهل [illegible] عبر عنه
بالتولد او بغيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الذي يعبر عنه بالقدرة [illegible] وهو الاصل
الذي لم يقف عليه كافة الخلق الا الراسخون في العلم فانهم وقفوا على [illegible] والكافة
وقفوا على جوازه لفظا مع نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيد عن الحق وبيان ذلك يطول

بعض المقدورات مترتبة على البعض في الحدوث ترتب المشروط على الشرط فلا يصدر
من القدرة الازلية ارادة الا بعد علم ولا علم الا بعد حيوة ولا حيوة الا بعد محل
الحيوة وكما لا يجوز ان يقال الحيوة حصلت من الجسم الذي هو شرط الحيوة فكذلك في
سائر درجات الترتيب ولكن بعض الشروط مما ظهر للعامة وبعضها لم يظهر الا للخواص
المكاشفين بنور الحق والا فلا يتقدم متقدم ولا يتاخر متاخر الا بالحق واللزوم وكذلك
جميع افعال الله تعالى ولولا ذلك لكان التقديم والتاخير عبثا يضاهي فعل المجانين تعالى
الله عن قول الجاهلين علوا كبيرا والى هذا اشار قوله تعالى وما خلقنا السموات والارض
وما بينهما لاعبين وما خلقناهما الا بالحق ولكن اكثرهم لا يعلمون فكل ما بين السماء والارض
حادث على ترتيب واجب وحق لازم ولا يتصور ان يكون الا كما حدث على الترتيب الذي
وجد فما تاخر متاخر الا لانتظار شرطه والمشروط قبل الشرط محال والمحال لا يوصف بكونه
مقدورا فلا يتاخر العلم عن النطفة الا لفقد شرط الحيوة ولا يتاخر بعدها الارادة بعد
الحيوة الا لفقد شرطها وهو العلم فكل ذلك على منهاج الواجب وترتيب الحق وليس في شيء
من ذلك لعب واتفاق بل كل ذلك بحكمة وتقدير وتفهيم ذلك عسير ولكنا نضرب لتوقف
المقدور مع وجود الشرط مثالا يقرب مبادي الحق من الافهام الضعيفة وذلك بان
نقدر انسانا محدثا قد انغمس في الماء الى رقبته فالحدث لا يرتفع عن اعضائه وان كان الماء
هو الرافع للحدث وهو ملاق لاعضائه فالقدرة الازلية حاضرة ملاقية للمقدورات
متعلقة بها ملاقاة الماء للاعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل رفع الحدث
بالماء لانتظار الشرط وهو غسل الوجه فاذا وضع الواقف في الماء وجهه على الماء وعمل
الماء في سائر الاعضاء وارتفع فربما يظن الجاهل ان الحدث ارتفع عن اليد بغسل
الوجه لانه حدث عقيبه اذ يقول كان الماء ملاقيا ولم يكن رافعا والماء لم يتغير
عما كان فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل بل حصل ارتفاع الحدث من اليد عند غسل
الوجه فاذن غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليد وهو جهل يضاهي ظن من ظن ان
الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالارادة والارادة بالعلم وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع
الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاقي لها لا بغسل الوجه والماء لم يتغير ولم
يحدث فيها شيء ولكن حدث وجود الشرط فظهر اثر العلة فهكذا ينبغي ان تفهم صدور

صدور المقدورات من القدرة الازلية مع ان القدرة قديمة والمقدورات حادثة
وهذا قرع باب لعالم آخر من عوالم المكاشفات فلنترك جميع ذلك فان مقصودنا
التنبيه على طريق التوحيد في العمل وان الفاعل بالحقيقة واحد فهو المخوف والمرجو وعليه
التوكل والاعتماد ولم نقدر على ان نذكر من بحار التوحيد الا قطرة من بحار المقام الثالث
من مقامات التوحيد واستيفاء ذلك في عمر نوح محال كاستيفاء ماء البحر باخذ القطرات
منه وكل ذلك منطو تحت قول لا اله الا الله وما اخف مؤنته على اللسان وما اسهل اعتقاد
مفهوم لفظه على القلب وما اعز حقيقته ولبه عند العلماء الراسخين فكيف عند غيرهم
فان قلت كيف الجمع بين التوحيد والشرع ومعنى التوحيد ان لا فاعل الا الله ومعنى
الشرع اثبات الافعال للعباد فان كان العبد فاعلا فكيف يكون الله فاعلا وان كان الله
فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ومفعول بين فاعلين غير مفهوم فاقول نعم ذلك غير
مفهوم اذا كان للفاعل معنى واحد وان كان له معنيان ويكون مجملا مرددا بينهما لم يتناقض
كما يقال قتل الامير فلانا ويقال قتله الجلاد ولكن الامير قاتل بمعنى والجلاد بمعنى آخر فكذلك
العبد فاعل بمعنى آخر فمعنى كوننا قدرنا فاعلا انه المخترع الموجد ومعنى كون العبد فاعلا
انه المحل الذي خلق فيه القدرة بعد ان خلق فيه الارادة بعد ان خلق الله فيه العلم
فارتبطت القدرة بالارادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط وارتبط بقدرة
الله ارتباط المعلول بالعلة وارتباط المخترع بالمخترع وكل ما له ارتباط بقدرة فان
محل القدرة يسمى فاعلا له كيفما كان الارتباط المقدور بين القدرتين ولاجل
توافق ذلك وتطابقه نسب الافعال في القرآن مرة الى الملائكة ومرة الى العباد ونسبها
بعينها مرة اخرى الى نفسه فقال تعالى في الموت قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم
قال الله يتوفى الانفس حين موتها وقال افرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه اضاف
الينا ثم قال انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فانبتنا فيها حبا وعنبا وقال
فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ثم قال فنفخنا فيه من روحنا وكان النافخ
جبريل وكما قال فاذا قرأناه فاتبع قرآنه قيل في التفسير معناه اذا قرأه عليك جبريل وقال
وقال قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم فاضاف القتل اليهم والتعذيب الى نفسه والتعذيب
هو عين القتل بل صرح وقال فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن

رمى وهو جمع بين النفي والاثبات ظاهرا ولكن معناه اذ رميت بالمعنى الذي يكون
العبد به راميا فما رميت بالمعنى الذي يكون الرب راميا اذ هما معنيان مختلفان
وقال تعالى الذي علم بالقلم علم الانسان ثم قال الرحمن علم القران وقال ان علينا
بيانه وقال تعالى افرايتم ما تمنون أانتم تخلقونه ام نحن الخالقون ثم قال رسول
الله صلعم في وصف ملك الارحام انه يدخل الرحم فياخذ النطفة في يده ثم يصورها
جسدا فيقول يا رب اذكر ام انثى اسوي ام معوج فيقول الله ما شاء ويخلق الملك
وفي لفظ اخر ويصورها الملك ثم ينفخ فيها الروح بالسعادة او بالشقاوة وقد قال
بعض السلف ان الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الارواح في الاجسام
وانه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من انفاسه روحا يلج في جسم ولذلك سمي روحا
وما ذكره من هذا الملك وصفته فهو حق شاهده ارباب القلوب ببصائرهم
فاما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن الا ان يعلم بالنقل والحكم به دون النقل
تخمين مجرد وكذلك ذكر الله تعالى في القران الادلة والايات في الارض والسموات
ثم قال اولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد وقال شهد الله انه لا اله الا هو فبين
انه الدليل على نفسه وذلك ليس بمتناقض بل طرق الاستدلال مختلفة فكم من طالب
عرف الله بالنظر الى الموجودات وكم من طالب عرف الموجودات بالله كما قال بعضهم
عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي وهو معنى قوله اولم يكف بربك انه
على كل شيء شهيد وقد وصف نفسه بانه المحيي والمميت ثم فوض الموت والحياة الى
ملكين ففي الخبر ان ملك الموت وملك الحياة تناظرا فقال ملك الموت انا اميت الاحياء
وقال ملك الحياة انا احيي الموتى فاوحى الله اليهما كونا على عملكما وما سخرتما له من الصنع
وانا المميت والمحيي لا مميت ولا محيي سواي فاذن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا
تتناقض هذه المعاني اذا فهمت ولذلك قال صلعم للذي ناوله التمرة خذها لو لم تاتها
لاتتك اضاف الاتيان اليه والى التمرة ومعلوم ان التمرة لا تاتي على الوجه الذي
ياتي الانسان اليها ولذلك لما قال ذلك التائب اتوب الى الله ولا اتوب الى محمد
صلعم قال عرف الحق لاهله فكل من اضاف الكل الى الله تعالى فهو المحق الذي عرف
الحق والحقيقة لاهله ومن اضافه الى غيره فهو المتجوز والمستعير في كلامه وللتجوز وجه كما

كان للحقيقة وجها واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ولكن ظن ان الانسان
مخترع بقدرته فسماه فاعلا بحركته وظن انه تحقيق وتوهم ان نسبته الى الله على سبيل
المجاز مثل نسبة القتل الى الامير فانه مجاز بالاضافة الى نسبته الى الجلاد فلما انكشف
الحق لاهله عرفوا ان الامر بالعكس وقالوا ان كان الفاعل قد وضعته ايها اللغوي
للمخترع فلا فاعل الا الله فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز اي التجوز به عما وضعه
اللغوي له ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الاعراب قصدا او اتفاقا صدقه
رسول الله صلعم وقال اصدق بيت قاله شاعر قول لبيد الا كل شيء ما خلا الله باطل
اي كل ما لا قوام له بنفسه وانما قوامه بغيره فهو باعتبار نفسه باطل وانما حقيقته وحقيته
بغيره فاذن لا حق بالحقيقة الا الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فانه
قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته فهو الحق وما سواه باطل ولذلك قال سهل يا مسكين
كان ولم يكن ويكون ولا يكون فلما كنت اليوم صرت تقول انا وانا كن الان كما لم
تكن فانك اليوم كما كان فان قلت فقد ظهر ان الكل جبر فما معنى الثواب والعقاب
والغضب والرضا وكيف غضبه على فعل نفسه فاعلم ان معنى ذلك قد اشرنا اليه في
كتاب الشكر فلا نطول باعادته فهذا هو القدر الذي رأينا الرمز اليه من التوحيد
الذي يورث حال التوكل ولا يتم هذا الا بالايمان بالرحمة والحكمة فان التوحيد
يورث النظر الى مسبب الاسباب والايمان بالرحمة وسعتها هو الذي يورث الثقة
بمسبب الاسباب ولا يتم حال التوكل كما سياتي الا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب
الى حسن نظر الكفيل وهذا الايمان ايضا باب عظيم من ابواب الايمان وحكاية طريق
المكاشفين فيه يطول فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقادا قاطعا
لا يستريب فيه وهو ان يصدق تصديقا يقينا لا ضعف فيه ولا ريب ان الله تعالى لو
خلق الخلائق كلهم على عقل اعقلهم وعلم اعلمهم وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم
وافاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا
ثم كشف لهم عن عواقب الامور واطلعهم على اسرار الملكوت وعرفهم دقائق اللطف و
خفايا العقوبات حتى اطلعوا على الخير والشر والنفع والضر ثم امرهم ان يدبروا
الملك والملكوت بما اعطوا من العلوم والحكم لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون

والظاهر عليه ان تزاد فيها وما اسر سبحانه الخلق من الدنيا والاخرة جناح بعوضة ولا ان ينقص منها جناح بعوضة ولا ان يرفع فيها ذرة او يخفض منها ذرة ولا ان يدفع مرض او عيب او نقص او فقر او ضر عمن بلي به ولا ان يزال صحة او كمال او غنى او نفع عمن انعم به عليه بل كل ما خلق الله تعالى من السموات والارض ان رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر ما راوا فيها من تفاوت ولا فطور وكل ما قسم الله بين عباده من رزق واجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وايمان وكفر وطاعة ومعصية فكل عدل محض لا جور فيه وحق صرف لا ظلم فيه بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي وبالقدر الذي ينبغي وليس في الامكان اصلا احسن منه ولا اتم ولا اكمل فلو كان ادخره مع القدرة ولم يفعله لكان بخلا يناقض الجود وظلما يناقض العدل الخ وكان ان قطع اليد اذا تآكلت ابقاء على الروح عدل لانه فداء كامل بناقص فكذا الامر في التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والاخرة فكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لعب فيه وهذا الان بحر اخر عظيم واسع الاطراف مضطرب الامواج قريب في السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ولم يعلموا ان ذلك غامض لا يعقله الا العالمون ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الاكثرون ومنع من افشاء سره المكاشفون والحاصل ان الخير والشر مقضي به وقد صار ما قضي الله به واجب الحصول بعد سبق المشية فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر وما اصابك لم يكن ليخطيك وما اخطاك لم يكن ليصيبك ولنقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التي هي اصول مقام التوكل ولنرجع الى علم المعاملة

الشطر الثاني في احوال التوكل واعماله

وفيه بيان حال التوكل وبيان ما قال الشيوخ في حد التوكل وغير ذلك من المقامات

بيان حال التوكل

قد ذكرنا ان مقام التوكل ينتظم من علم وحال وعمل وذكرنا العلم فاما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه وانما العلم والعمل ثمرة وقد اكثر الخائضون في بيان حد التوكل واختلفت عباراتهم وتكلم كل واحد عن مقام نفسه واخبر عن حده كما جرت عادة اهل التصوف به ولا فائدة في النقل والاكثار فلنكشف الغطاء عنه فنقول التوكل مشتق من الوكالة يقال وكل امره الى فلان اي فوضه اليه واعتمد عليه فيه ويسمى الموكول اليه وكيلا ويسمى المفوض اليه متكلا عليه ومتوكلا عليه مهما اطمانت نفسه اليه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزا وقصورا فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلا فنقول من ادعي عليه دعوى باطلة بتلبيس فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس لم يكن متوكلا عليه ولا واثق القلب مطمئن النفس بتوكيله الا اذا اعتقد فيه اربعة امور منتهى الهداية ومنتهى القوة ومنتهى الفصاحة ومنتهى الشفقة اما الهداية فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شيء اصلا واما القوة والقدرة فليجترئ على التصريح بالحق فلا يداهن ولا يخاف ولا يستحيي ولا يجبن فانه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف او الجبن او الحيا او صارف اخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به واما الفصاحة فهي ايضا من القدرة الا انها قدرة في اللسان على الافصاح عن كل ما استجرا القلب عليه واشارة فلا كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على كشفه واما منتهى الشفقة فليكون باعثا له على بذل كل ما يقدر عليه في حقه فان قدرته لا تغني دون العناية اذا كان لا يهمه امره ولا يبالي به ظفر به خصمه او لم يظفر هلك به حقه او لم يهلك فان كان شاكا في هذه الامور الاربعة او في واحد منها او جوز ان يكون خصمه اكمل في هذه الاربعة اقوى منه لم تطمئن نفسه الى وكيله بل بقي منزعج القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذره من قصور وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت احواله في شدة الثقة والطمانينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الخصال فيه والاعتقادات والظنون في القوة والضعف تتفاوت تفاوتا لا ينحصر فلا جرم تتفاوت احوال ذوي الطمانينة والثقة تفاوتا لا ينحصر الى ان تنتهي الى اليقين الذي لا ضعف فيه كما لو كان الوكيل والد الموكل وهو الذي يسعى لجمع الحلال والحرام من اجله فانه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية فيكون خصلة واحدة من الخصال الاربعة قطعيا وكذلك سائر الخصال يتصور ان يحصل القطع بها وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الاخبار بانه افصح الناس لسانا واقواهم بيانا واقدرهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق باطلا والباطل بالحق فاذا عرفت التوكل في هذا

المثال نفس التوكل على الله تعالى فان ثبت في نفسك بكشف او باعتقاد جازم انه
لا فاعل الا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية
العباد ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد وانه ليس وراء منتهى
قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته عناية اتكل لا محالة
قلبك عليه وحده ولم يلتفت الى غيره بوجه ولا الى نفسه وحوله وقوته فانه لا
حول ولا قوة الا بالله كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة فان الحول
عبارة عن الحركة والقوة عبارة عن القدرة فان كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك
فسببه احد امرين اما ضعف اليقين باحد هذه الخصال الاربعة واما ضعف
القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الاوهام الغالبة عليه فان
القلب قد ينزعج تبعا للوهم وطاعة له من غير نقصان في اليقين فان من يتناول
عسلا فشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه وتعذر عليه تناوله ولو كلف العاقل
ان يبيت مع الميت في قبر او فراش او بيت نفر طبعه وان كان متيقنا لكونه ميتا وانه
جماد في الحال وان سنة الله تعالى مطردة بانه لا يحشره الآن ولا يحييه وان كان قادرا
عليه كما انها مطردة بان لا يقلب القلم الذي في يده حية ولا يقلب السنور اسدا
وان كان قادرا عليه ومع انه لا يشك في هذا اليقين تنفر طبعه عن مضاجعة الميت
ولا ينفر عن سائر الجمادات وذلك جبن في القلب وهو نوع ضعف قلما يخلو الانسان
عن شيء منه وان قل وقد يقوى فيصير مرضا حتى يخاف ان يبيت في البيت وحده مع
اغلاق الباب واحكامه فاذن لا يتم التوكل الا بقوة القلب وقوة اليقين جميعا
اذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر فكم
من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى اولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي فالتمس ان
يشاهد احياء الميت بعينه ليثبت اليقين في خياله فان النفس تتبع الخيال وتطمئن
به ولا تطمئن باليقين في ابتداء امرها الى ان تبلغ بالآخرة الى درجة النفس المطمئنة
وذلك لا يكون في البداية اصلا وكم من مطمئن لا يقين له كسائر ارباب الملل والمذاهب
فان اليهودي مطمئن القلب الى تهوده وكذا النصراني ولا يقين لهم اصلا وانما يتبعون
الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين الا انهم معرضون

معرضون عنه فاذن الجبن والجراءة غرائز ولا ينفع اليقين معها فهي احد الاسباب التي
تضاد حال التوكل كما ان ضعف اليقين بالخصال الاربعة احد الاسباب واذا اجتمعت
هذه الاسباب حصلت الثقة بالله وقد قيل مكتوب في التوراة ملعون من ثقته انسان
مثله وقد قال صلى الله عليه وسلم من اعتز بالعبيد اذله الله واذا انكشف معنى التوكل وعلمت الحالة التي
سميت توكلا فاعلم ان تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلث درجات الاولى ما
ذكرناه وهو ان يكون حاله في حق الله والثقة بكفالته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل
الثانية وهي اقوى ان يكون حاله مع الله كحال الطفل في حق امه فانه لا يعرف غيرها
ولا يفزع الى سواها ولا يعتمد الا اياها فان رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم
يخلها وان نابه امر في غيبتها كان اول سابق الى لسانه يا اماه واول خاطر يخطر على
قلبه امه فانها مفزعه لانه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليس خاليا عن نوع
ادراك بالتمييز الذي له ويظن انه طبع من حيث ان الصبي لو طولب بتفصيل هذه الخصال
لم يقدر على تلفيق لفظها ولا على احضارها مفصلة في ذهنه ولكن كل ذلك وراء الادراك
فمن كان باله الى الله ونظره اليه واعتماده عليه كلف به كما يكلف الصبي بامه فيكون
متوكلا حقا فان الطفل متوكل على امه والفرق بين هذا وبين الاول ان هذا متوكل
وقد فني عن توكله اذ ليس يلتفت قلبه الى التوكل وحقيقته بل الى المتوكل عليه فقط فلا
مجال في قلبه لغير المتوكل عليه واما الاول فيتوكل بالتكلف والكسب وليس فانيا عن
توكله لان له التفاتا الى توكله وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده
والى هذه الدرجة اشار سهل حيث سئل عن التوكل ما ادناه قال ترك الاماني
قيل واوسطه قال ترك الاختيار وهو اشارة الى الدرجة الثانية وسئل عن اعلاه
فلم يذكره وقال لا يعرفه الا من بلغ اوسطه الثالثة وهي اعلاها ان يكون بين يدي
الله في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل لا يفارقه الا في انه يرى نفسه ميتا
تحركه القدرة الازلية كما تحرك يد الغاسل الميت وهو الذي قوي يقينه بانه مجرى الحركة
والقدرة والارادة والعلم وسائر الصفات وان الكل يحدث جبرا فيكون بائنا عن الانتظار
لما يجري عليه ويفارق الصبي فان الصبي يفزع الى امه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو
خلفها بل هو مثل صبي علم انه وان لم يزعق بامه فالام تطلبه وانه وان لم يتعلق بذيل

امره فلا تحمله علمه بحاله لما قال للنبي فالام تقاضاه وتستقيه وهذا المقام في التوكل يثمر ترك
الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته وانه يعطي ابتداء افضل مما يسال كمن نحو ابتدا
عقل الدعا وقبل الاستحقاق والمقام الثاني لا يقتضي ترك الدعاء والسؤال منه وانما
يقتضي ترك السؤال من غيره فقط فان قلت فهذه الاحوال هل يتصور وجودها فاعلم
ان ذلك ليس بمحال ولكنه عزيز نادر والمقام الثاني والثالث اعزها والاول اقرب
الى الامكان ثم اذا وجد الثالث والثاني فدوامه ابعد منه بل يكاد لا يكون المقام
الثالث الا كصفرة الوجل فان انبساط القلب الى ملاحظة الحول والقوة والاسباب
طبع وانقباضها عارض والوجل عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة الى الباطن
حتى يخلو ظاهر البشرة عن الحمرة التي كانت تتراءى من وراء الرقيق من ستر البشرة فان
البشرة ستر رقيق تتراءى من ورائه حمرة الدم فانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا
يدوم فكذلك انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الاسباب
الظاهرة لا يدوم واما المقام الثاني فيشبه صفرة المحموم فانه قد يدوم يوما ويومين
والاول يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلا يبعد ان يدوم ولا يبعد ان لا يدوم فان
قلت فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالاسباب في هذه الاحوال فاعلم ان
المقام الثالث ينفي التدبير راسا ما دامت الحالة باقية بل يكون صاحبها كالمبهوت
والمقام الثاني ينفي كل تدبير الا من حيث الفزع الى الله بالدعاء والابتهال كتدبير
الطفل في التعلق بامه فقط والمقام الاول لا ينفي اصل التدبير والاختيار ولكن ينفي
بعض التدبيرات كالمتوكل على وكيله في الخصومة فانه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل
ولكن لا يترك التدبير الذي اشار اليه وكيله او التدبير الذي عرفه من عادته وسنته
دون صريح اشارته فاما الذي يعرفه باشارته فان يقول له الوكيل لا اتكلم الا في
حضورك فيشتغل لا محالة بالتدبير للحضور ولا يكون هذا مناقضا لتوكله عليه اذ
ليس هو فزعا من الحول نفسه وقوته في اظهار الحجة والحول غيره بل من تمام توكله
عليه ان يفعل ما رسمه له اذ لو لم يكن متوكلا عليه ولا معتمدا له في قوله لما حضر
واما المعلوم بعادته واطراد سنته فهو ان يعلم من عادته انه لا يحاج الخصم الا من السجل
فتمام توكله اذا كان متوكلا عليه ان يكون معولا على سنته وعادته ووافيا بمقتضاها

بمقتضاها وهو ان يحمل السجل مع الحضور عليه عند مخاصمته فاذن لا يستغني عن
التدبير في احضار السجل ولو ترك شيئا من ذلك كان نقصا في توكله فكيف يكون
فعله نقصا فيه نعم بعد ان حضر وفاء باشارته واحضر السجل وفاء بسنته وعادته
وقعد ناظرا الى مخاصمته فقد ينتهي الى المقام الثاني والثالث في حضوره حتى يبقى
كالمبهوت المنتظر لا يفزع الى حوله وقوته في الحضور واحضار السجل باشارته اذ لم
يبق وسنته فقد اتى بما عليه فلم يبق الا طمانينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما
يجري واذا تاملت هذا اندفع عنك كل اشكال في التوكل وفهمت انه ليس من شرط
التوكل ترك كل تدبير وعمل وان كل تدبير وعمل لا يجوز ايضا مع التوكل بل هو على
الانقسام وسيأتي تفصيله في الاعمال فاذن فزع المتوكل الى حوله وقوته في الحضور
والاحضار ورايا تغير التوكل لانه يعلم انه لولا الوكيل لكان حضوره واحضاره باطلا
تعبا محضا بلا جدوى فاذن لم يفزع مفيدا من حيث انه حوله وقوته بل من حيث ان
الوكيل جعله مفيدا لحاجته وعرفه ذلك باشارته وسنته فاذن لا حول ولا قوة
الا بالوكيل الا ان هذه الكلمة لا يكمل معناها في حق الوكيل ليس هو خالق الحول والقوة
بل هو جاعلهما مفيدين في نفسهما فلم يكونا مفيدين لولا فعله وانما يصدق ذلك
في حق الوكيل الحق وهو الله سبحانه اذ هو خالق الحول والقوة كما سبق في التوحيد
وهو الذي جعلهما مفيدين اذ جعلهما شرطا لما يخلقه من بعدهما من الفوائد و
المقاصد فاذن لا حول ولا قوة الا بالله حقا صدقا فمن شاهد هذا لم يكن
له الثواب العظيم الذي وردت به الاخبار في قوله لا حول ولا قوة الا بالله فذلك
قد يستبعد فيقال كيف يعطى هذا الثواب العظيم بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان
وسهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها فهيهات وانما ذلك جزاء المشاهدة التي
ذكرناها في التوحيد ونسبة هذه الكلمة وثوابها الى كلمة لا اله الا الله وثوابها كنسبة
معنى احديهما الى الاخرى اذ في هذه الكلمة اضافة لشيئين الى الله تعالى فقط وهو
الحول والقوة واما كلمة لا اله الا الله فهو نسبة الكل اليه فانظر الى التفاوت بين الكل
وبين الشيئين لتعرف به ثواب لا اله الا الله بالاضافة الى هذا وكما ذكرنا من قبل
ان للتوحيد قشرين ولبابين فكذلك لهذه الكلمة وسائر الكلمات واكثر الخلق

فتحققوا بالتشريق فما طرقوا الى القلبين والى اللبين الاشارة بقول النبي صلى الله عليه وسلم
من قال لا اله الا الله صادقا من قلبه مخلصا وجبت له الجنة وحيث اطلق من غير ذكر
الصدق والاخلاص اراد بالمطلق المقيد كما اضاف المغفرة الى الايمان والعمل
الصالح في بعض المواضع واضافها الى مجرد الايمان في بعض المواضع والمراد به المقيد
بالعمل الصالح فالملك لا ينال بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب ايضا حديث
ولكنه حديث النفس وانما الصدق والاخلاص وراهما ولا منصب فوق منصب الملك الا
للمقربين وهم المخلصون نعم لمن يقرب منهم في الرتبة من اصحاب اليمين ايضا درجات
عند الله ولكن لا ينتهي الى الملك اما ترى ان الله تعالى لما ذكر في سورة الواقعة
المقربين السابقين تعرض لسرر الملك فقال على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين
ولما انتهى الى اصحاب اليمين ما زاد على ذكر الماء والظل والفواكه والاشجار والحور
العين وكل ذلك لذات المنظور والمشروب والماكول والمنكوح وقد تشاركهم البهايم
على الدوام واين لذات البهايم من لذات الملك والنزول في اعلى عليين في جوار رب
العالمين ولو كان لهذه اللذات قدر لما وسع على البهايم ولما رفعت عنها درجة
الملائكة افترى ان احوال البهايم وهي مسرحة في الرياض متنعمة بالمياه والاشجار واصناف
اصناف الماكولات متمتعة بالنزوان والسفاد اعلى والذ واشرف واجدر بان يكون
عند ذوي الكمال مغبوطا من احوال الملائكة في سرورهم بالقرب من جوار الله تعالى في
اعلى عليين هيهات هيهات ما ابعد عن التحصيل من اذا خير بين ان يكون حمارا او يكون
في درجة جبريل فيختار درجة الحمار على درجة جبريل وليس يخفى ان شبه كل شي بحقيقته
اليسير وان النفس التي يكون نزوعها الى الصنعة الاسكافية اكثر من نزوعها الى الصنعة الكتابية
فهي بالاسكاف اشبه في جوهرها منها بالكاتب وكذلك من نزوع نفسه الى نيل
لذات الملائكة فهو بالبهايم اشبه منه بالملائكة لا محالة وهولاء هم الذين يقال فيهم
اولئك كالانعام بل هم اضل وانما كانوا اضل لان الانعام ليس في قوتها طلب درجة
الملائكة فتركها للعجز واما الانسان ففي قوته ذلك والقادر على نيل الكمال احرى بالذم
واجدر بالنسبة الى الضلال مهما قعد عن طلب الكمال واذا كان هذا كله معترضا
فلنرجع الى المقصود فقد بينا معنى قول لا اله الا الله ومعنى قول لا حول ولا قوة الا

بالله وان من ليس قايلا بها عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل فان قلت اليس
في قولك لا حول ولا قوة الا بالله الا اثبات شيين الخالق فلو قال قايل السما والارض
خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه فاقول لا لان الثواب على قدر درجات الثواب عليه ولا
مساواة بين الدرجتين ولا تنظر الى عظم السما والارض وصغر الحول والقوة ولكن جاء
وصفهما بالصغر بحيث لا تليق الامور بعظم الاشخاص بل كل عامي يفهم ان الارض والسما
ليس من جهة الادميين بل من خلق الله تعالى فاما الحول والقوة فقد اشكل امرها على المعتزلة
والفلاسفة وطوايف كثيرة فمن يدري انه دقيق النظر الاوهام والعقول حتى يسبق السحر
بحر خطره فهي مهلكة خطرة ومن لعظمته هلك فيها العالمون اذ اثبتوا لانفسهم امرا وهو شرك
في التوحيد واثبات خلق لغير الله فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى اياه فقد علت
سعته وعظمت درجته وهو الذي يصدق في قوله لا حول ولا قوة الا بالله حق ذكرنا ان
لينبوع التوحيد الاعتقادات احدهما النظر الى السما والارض والشمس والقمر والغيم
والمطر وساير الجمادات والثاني النظر الى اختيار الحيوانات وهي اعظم العقبتين في
اخطارهما فكان كمال سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة اعني ثواب هذه
التي هذه الكلمة ترجمتها فاذن رجع حاصل التوكل الى التبري من الحول والقوة والتوكل
على الواحد الحق وستتضح ذلك عند ذكرنا تفصيل الاعمال التوكل بيان ما قاله الشيوخ
في حال التوكل اعلم ان شيا منها لا يخرج عما ذكرناه ولكن كل واحد يشير الى بعض
الاحوال فقد قال ابو موسى الديلي قلت لابي يزيد ما التوكل فقال ما تقول انت قلت
ان اصحابنا يقولون لو ان السباع والافاعي عن يمينك ويسارك ما تحرك لذلك سرك
فقال ابو يزيد نعم هذا قريب ولكن لو ان اهل الجنة في الجنة يتنعمون واهل النار في
النار يعذبون ثم وقع لك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل فما ذكره ابو موسى فهو
خبر عن اجل حال التوكل وهو المقام الثالث وما ذكره ابو يزيد عبارة عن انواع العلم
الذي هو من اصول التوكل وهو العلم بالحكمة وان ما فعله الله فعله بالواجب فلا تمييز
بين اهل النار والجنة بالاضافة الى اصل العدل والحكمة وهذا اغمض انواع العلم وفيه
سر القدر وابو يزيد قلما يتكلم الا عن اعلى المقامات واقصى الدرجات وليس ترك
الاحتراز عن الحيات شرطا في المقام الاول من التوكل فقد احترز ابو بكر في الغار اذ سد

منا قد الحيات الان يقال فعل ذلك سعه ولم يتغير لسببه سره او يقال فعل ذلك في
حق رسول الله صلعم لانه حق نفسه وانما يزول التوكل بحركة سره وتغيره لامر يرجع الى
نفسه وللنظر في هذا مجال ولكن سياتي ان امثال ذلك ما اكثره منقولا عن ابنا قد التوكل فان
حركة السر من الحيات هو الخوف وحق المتوكل ان يخاف مسلط الحيات اذ لا حول
للحيات ولا قوة لها الا بالله فان احترز لم يكن اتكاله على تدبيره وحوله وقوته في الاحتراز
بل على خالق الحول والقوة والتدبير وسال ذو النون المصري عن التوكل فقال خلع
الارباب وقطع الاسباب وخلع الارباب اشارة الى علم التوحيد وقطع الاسباب
اشارة الى الاعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وان كان اللفظ يتضمنه فقيل له زدنا فقال
القا النفس في العبودية واخراجها عن الربوبية وهذا اشارة الى التبري من الحول و
القوة فقط وسال ابو عبد الله القرشي عن التوكل فقال التعلق بالله في كل حال فقال
السائل زدني فقال ترك كل سبب يوصل الى سبب حتى يكون الحق هو المتولي لذلك
والاول عام للمقامات الثلث والثاني اشارة الى المقام الثالث خاصة وهو مثل
توكل ابرهيم عليه السلم اذ قال له جبريل عليه السلم الك حاجة فقال اما اليك فلا اذ كان السؤال
سببا يفضي الى حفظ جبريل له فترك ذلك ثقة بان الله تعالى ان اراد سخر جبريل
لذلك فيكون هو المتولي لذلك وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله فلم ير معه غيره
وهو حال عزيز في نفسه ودوامه ان وجد ابعد منه واعز وقال ابو سعيد الخراز التوكل
اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب ولعله يشير الى المقام الثاني فسكون بلا
اضطراب اشارة الى سكون القلب الى الوكيل وثقته به واضطراب بلا سكون اشارة
الى فزعه اليه وابتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه الى امه وسكون قلبه الى
تمام شفقتها وللشيوخ اقاويل في التوكل سوى ما ذكرنا فلا نطول بها فان الكشف انفع
من الرواية **بيان اعمال المتوكلين** **اعلم** ان العلم يورث الحال والحال يثمر الاعمال وقد
يظن ان معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الارض
كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم وهذا ظن الجهال فان ذلك حرام في الشرع والشرع
قد اثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين بل نكشف
الغطاء عنه ونقول انما يظهر تاثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعمله الى مقاصده

وسعي العبد باختياره اما ان يكون لاجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب او لحفظ
نافع هو موجود عنده كالادخار او لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق و
السباع او لازالة ضار قد نزل به كالتداوي من المرض فمقصود حركات العبد لا تعدو
هذه الفنون الاربعة وهو جلب النافع او حفظه او دفع الضار او قطعه فلنذكر شروط
التوكل ودرجاته في كل واحد منها مع شواهد الشرع **الفن الاول** في جلب النافع
فنقول فيه الاسباب التي يجلب بها المنافع على ثلث درجات مقطوع به ومظنون ظنا
يوثق به وموهوم وهما لا تثق النفس به ثقة تامة ولا تطمئن اليه **الدرجة الاولى**
المقطوع به وذلك مثل الاسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله تعالى ومشيته
ارتباطا مطردا لا يختلف كما اذا كان الطعام موضوعا بين يديك وانت جائع ولكنك لست
تمد اليد اليه وتقول انا متوكل وشرط التوكل ترك السعي ومد اليد اليه سعي وحركة
وكذلك مضغه بالاسنان وابتلاعه باطباق اعالي الحنك على اسافله فهذا جنون وليس
من التوكل في شي فانك اذا انتظرت ان يخلق الله فيك شبعا دون الخبز او يخلق في الخبز
حركة اليك او يسخر ملكا ليمضغه ويوصله الى معدتك فقد جهلت سنة الله تعالى وكذلك
لو لم تزرع الارض وطمعت في ان يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر او تلد زوجتك من غير وقاع
كما ولدت مريم فكل ذلك جنون وامثال هذا مما يكثر ولا يمكن احصاوه فليس التوكل في
هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم اما العلم فهو ان تعلم ان الله خلق الطعام واليد
والاسنان وقوة الحركة وانه يطعمك ويسقيك واما الحال فهو ان يكون سكون قلبك و
اعتمادك على فضل الله تعالى لا على اليد والطعام فكيف تعتمد على صحة يدك وربما تجف
في الحال وتفلج وكيف تعول على حضور الطعام وربما يسلط الله من يغلبك عليه او يبعث
حية تزعجك عن مكانك وتفرق بينك وبين طعامك واذا احتمل امثال ذلك ولم يكن
لها علاج الا بفضل الله فبذلك فليفرح وعليه فليعول فاذا كان هذا حاله وعلمه فليمد
اليد اليه فانه متوكل **الدرجة الثانية** الاسباب التي ليست متيقنة لكن الغالب ان
المسببات لا تحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيدا كالذي يفارق الامصار و
القوافل ويسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس الا نادرا ويكون سفره من غير استصحاب
زاد فهذا ليس شرطا في التوكل بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الاولين ولا يزول

التوكل به بعد ان يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد كما سبق ولكن نفس ذلك يعني معوضا الى مقامات التوكل وكذلك كان يفعله الخواص فان قلت فهذا سعي في الهلاك والقاء النفس في التهلكة فاعلم ان ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين احدهما ان يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها وسواها على الصبر عن الطعام اسبوعا فما يقاربه بحيث يصبر عنه من غير ضيق قلب وتشويش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى والثاني ان يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق له من الاشياء الخسيسة فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الامر في البوادي في كل اسبوع من ان يلقاه ادمي او ينتهي الى حلة او قرية او الى حشيش يجتزي به فيحيا به مجاهدا نفسه والمجاهدة عماد التوكل وعلى هذا كان يعول الخواص ونظراؤه من المتوكلين والدليل عليه ان الخواص كان لا يفارقه الابرة والمقراض والحبل والركوة ويقول هذا لا يقدح في التوكل وسببه انه علم ان البوادي لا يكون الماء فيها على وجه الارض وما جرت سنة الله تعالى بصعود الماء عن البئر بغير دلو وحبل ولا يغلب وجود الحبل والدلو في البوادي كما يغلب وجود الحشيش به والماء يحتاج اليه لوضوئه كل يوم مرات ولعطشه في يوم او يومين مرة فان المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وان صبر عن الطعام وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرق فتنكشف عورته ولا يوجد المقراض والابرة في البوادي غالبا عند كل صلاة ولا يقوم مقامها في الخياطة والقطع شي مما يوجد في البوادي فكل ما في معنى هذه الاربعة ايضا لا يلتحق بالدرجة الاولى لانه مظنون ظنا لا يقطع به لانه يحتمل ان لا يتخرق الثوب او يعطيه انسان ثوبا او يجد على راس البئر من يسقيه ولا يحتمل ان يتحرك الطعام مخصوصا اليه فبين الدرجتين فرق ولكن الثاني في معنى الاول ولهذا نقول لو انحاز الى شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرقه طارق فيه وجلس متوكلا فهو اثم به ساع في اهلاك نفسه كما روي ان زاهدا من الزهاد فارق الامصار واقام في سفح جبل وقال لا اسال احدا شيا حتى ياتيني ربي برزقي فتمت له الا فاقبضني اليك فاوحى الله اليه وعزتي وجلالي لا ارزقك حتى تدخل الامصار وتقعد بين الناس فدخل المصر واقام فجاءه هذا بطعام وهذا

بشراب فاكل وشرب واوجس في نفسه من ذلك فاوحى الله اليه اردت ان تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا اما علمت اني ان ارزق عبدي بايدي عبادي احب الي من ان ارزقه بيد قدرتي فاذن التباعد عن الاسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله دون الاسباب لا يناقض التوكل كما ضربنا مثله في الوكيل بالخصومة من قبل ولكن الاسباب تنقسم الى ظاهرة والى خفية فمعنى التوكل الاكتفاء بالاسباب الخفية عن الاسباب الظاهرة مع سكون النفس الى مسبب الاسباب لا الى السبب فان قلت فما قولك في القعود في البلد بغير كسب اهو حرام ام مباح او مندوب فاعلم ان ذلك ليس بحرام لان صاحب السياحة في البادية اذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما بل لا يبعد ان ياتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتاخر عنه والصبر ممكن الى ان يتفق ولكن لو اغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لاحد اليه ففعله ذلك حرام وان فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج له اولى ولكن ليس فعله حراما الا ان يشرف على الموت فعند ذلك يلزمه الخروج والسوال والكسب وان كان مشغول القلب بالله غير متشوف الى الناس ولا متطلع الى من يدخل الباب ليأتيه برزقه بل تطلعه الى فضل الله واشتغاله بالله ولا يتهم رزقه فان الرزق ياتيه لا محالة وعند هذا يصح ما قال بعض العلماء وهو ان العبد لو هرب من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لادركه وانه لو سال الله تعالى ان لا يرزقه لما استجاب له وكان عاصيا ولقال له يا جاهل كيف خلقتك ولا ارزقك ولذلك قال ابن عباس اختلف الناس في كل شي الا في الرزق والاجل فانهم اجمعوا ان لا رازق ولا مميت الا الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا ولزالت بدعائكم الجبال وقال عيسى عليه السلام انظروا الى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوما بيوم فان قلتم نحن اكبر بطونا فانظروا الى الانعام كيف قيض الله لها الخلق وقال ابو يعقوب السوسي المتوكلون تجري ارزاقهم على ايدي العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكدودون وقال بعضهم العبيد كلهم في رزق الله تعالى لكن بعضهم ياكل بذل السوال

بعضهم بتعب واستظهار كالقصاص وبعضهم بامتهان كالصناع وبعضهم بعزة كالصوفية
يشهدون العزيز فياخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة الدرجة الثالثة
ملابسة الاسباب التي يتوهم افضاها الى المسببات من غير ثقة ظاهرة كالذي يستقصي في
التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه فذلك يخرج بالكلية من درجات
التوكل كلها وهو الذي الناس من جملة كلهم اعني من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا
لمال مباح فاما اخذ الشبهة والاكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا
والاتكال على الاسباب فلا يخفى ان ذلك يبطل التوكل وهي مثل الاسباب فلا يجوز ان
ذلك يبطل التوكل التي نسبتها الى الطب لنا فع مثل الرقية والطيرة والكي بالاضافة الى
الادوية النافعة فان النبي صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بذلك ولم يصفهم بانهم
لا يكتسبون ولا يسكنون في الامصار ولا ياخذون من احد شيئا بل وصفهم بانهم لا
يتعاطون هذه الاسباب وامثال هذه الاسباب التي لا يوثق بها في المسببات مما
يكثر فلا يمكن احصاؤه وقال سهل التوكل ترك التدبير وقال ان الله تعالى
خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه وانما حجابهم تدبيرهم ولعله اراد به استنباط الاسباب
البعيدة بالفكر فهي التي تحتاج الى التدبير دون الاسباب الجلية فاذن قد ظهر ان الاسباب
منقسمة الى ما يخرج التعلق بها عن التوكل والى ما لا يخرج وان الذي لا ينقسم الى مقطوع
به والى مظنون وان المقطوع لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو
الاتكال على مسبب الاسباب فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل واما المظنونات فالتوكل
فيها بالحال والعلم والعمل جميعا والمتوكلون في ملابسة هذه الاسباب على ثلث مقامات
الاول مقام الخواص ونظرائه وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله
تعالى عليه بتقويته على الصبر اسبوعا وما فوقه او تيسير حشيش له او قوت او تثبيته على الرضا
بالموت ان لم يتيسر شيء من ذلك فان الذي يحمل الزاد قد يأخذه ذلك او يضل بعيره
فيموت جوعا فذلك ممكن مع الزاد كما هو ممكن مع فقده المقام الثاني ان يقعد في
بيته او مسجده ولكنه في القرى والامصار وهذا اضعف من الاول ولكنه ايضا متوكل
لانه تارك الكسب والاسباب الظاهرة معول على فضل الله تعالى في تدبير امره من جهة الاسباب
الخفية ولكنه بالقعود في الامصار متعرض لاسباب الرزق فان ذلك من الاسباب الجلية

الجلية الآن ذلك لا يبطل توكله اذا كان نظره الى الذي سخر سكان البلد لايصال رزقه
اليه لا الى سكان البلد اذ يتصور ان يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل الله تعالى بتعريفهم
وتحريك دواعيهم المقام الثالث ان يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذي ذكرناه في
الباب الثاني والثالث من كتاب اداب الكسب وهذا السعي ايضا لا يخرجه عن مقامات التوكل
اذا لم يكن طمانينة نفسه الى كفايته وقوته وجاهه وبضاعته فان ذلك ربما يهلكه الله تعالى بجميعه
في لحظة بل يكون نظره الى الكفيل الحق بحفظ جميع ذلك وتيسير اسبابه بل يرى كسبه وبضاعته
وكفايته بالاضافة الى قدرة الله تعالى كما يرى القلم في يد الملك الموقع فلا يكون نظره الى القلم
بل الى قلب الملك انه بماذا يتحرك والى ماذا يميل وبم يحكم ثم ان كان هذا المكتسب مكتسبا
لعياله او ليفرق على المساكين فهو ببدنه مكتسب وبقلبه منه منقطع فحال هذا اشرف من حال
القاعد في بيته والدليل على ان الكسب لا ينافي حال التوكل اذا روعيت فيه الشروط وانضاف
اليه الحال والمعرفة كما سبق ان الصديق لما بويع بالخلافة اصبح واخذ الاثواب تحت حضنه والذراع
بيده ودخل السوق ينادي حتى كرهه المسلمون وقالوا كيف تفعل ذلك وقد اقمت لخلافة النبوة
فقال لا تشغلوني عن عيالي فاني اذا ضيعتهم كنت لما سواهم اضيع حتى فرضوا له قوت اهل
بيته من بيت مال المسلمين فلما رضوا بذلك راى ان مساعدتهم وتطييب قلوبهم واستغراق
الوقت بمصالح المسلمين اولى ويستحيل ان يقال لم يكن الصديق في مقام التوكل فمن اولى
بهذا المقام منه فدل انه كان متوكلا لا باعتبار ترك الكسب بل باعتبار قطع الالتفات الى قوته
وكفايته والعلم بان الله تعالى هو ميسر الاكتساب ومدبر الاسباب بشرط كان يراعيها
في طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار من غير ان يكون
درهمه احب اليه من درهم غيره فمن دخل السوق ودرهمه احب اليه من درهم غيره فهو حريص
على الدنيا ومحب لها ولا يصح التوكل الا مع الزهد في الدنيا نعم يصح الزهد دون التوكل
فان التوكل مقام وراء الزهد وقال ابو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد وكان من المتوكلين
اخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق كنت اكتسب في كل يوم دينارا ولا
ابيت منه دانقا ولا استريح منه الى قيراط ادخل به الحمام بل اخرجه كله قبل الليل وكان
الجنيد لا يتكلم في التوكل بحضرته وكان يقول استحيي ان اتكلم في مقامه وهو حاضر عندي
واعلم ان الجلوس في رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل فان لم يكن معلوم

ووقف واعرضوا القادم فهم بالخروج للطلب لم يصح منه التوكل الا على ضعف ولكن يقوى
بالحال والعلم كتوكل المكتسب فان لم يبالوا بل قنعوا بما يحمل اليهم فهو اقوى لكنه بعد
اشتهار القوم بذلك صار لهم سوقا فهو كدخول السوق ولا يكون داخل السوق متوكلا
الا بشروط كثيرة كما سبق فان قلت فالافضل ان يقعد في بيته او يخرج ويكتسب فاعلم
انه اذا كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر واخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان
الكسب يشوش عليه ذلك ومع هذا لا يستشرف نفسه الى الناس في انتظار من يدخل
فيحمل اليه شيئا بل يكون قوي القلب في الصبر والاتكال على الله تعالى فالقعود له اولى وان
كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف الى الناس فالكسب له اولى لان استشراف القلب الى
الناس سؤال بالقلب وتركه اهم من ترك الكسب وما كان المتوكلون ياخذون ما يستشرف
اليه نفوسهم كان احمد بن حنبل قد امر ابا بكر المروذي ان يعطي بعض الفقراء شيئا فضلا
عما كان استاجره عليه فرده فلما ولى قال له احمد الحقه فاعطه فانه يقبل فلحقه واعطاه فاخذه
فسال عن ذلك فقال كان قد استشرفت نفسي فرددته فلما خرج انقطع طمعي وايست فاخذته وكان
الخواص بعده اذ سئل عن عجيب ما راه في اسفاره فقال رايت الخضر ورضي بصحبتي
لكن فارقته خيفة ان تسكن اليه نفسي فيكون نقصا في توكلي فاذن المكتسب اذا راعى اداب
الكسب وشروطه نيته كما سبق في كتاب الكسب ولم يقصد الاستكثار ولم يكن اعتماده على
بضاعته وكفايته كان متوكلا فان قلت فما علامة عدم توكله على البضاعة والكفاية
فاقول علامته ان سرقت بضاعته او خسرت تجارته او تعوق امر من اموره كان راضيا
به ولم يبطل طمانينته ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحدا
فان من لم يسكن الى شيء لم يضطرب بفقده ومن اضطرب بفقد شيء فقد سكن اليه
وكان بشر يعمل المغازل فتركها لما مات عياله وكذا كان لسفيان خمسون دينارا يتجر فيها
فلما مات عياله فرقها فان قلت كيف يتصور ان يكون له بضاعة فلا يسكن اليها وهو يعلم
ان الكسب بغير بضاعة لا يمكن فاقول بان يعلم ان الذين يرزقهم الله بغير بضاعة
فيهم كثرة وان الذين كثرت بضاعتهم فسرقت وهلكت فيهم كثرة وان يوطن نفسه على
ان الله تعالى لا يفعل به الا ما فيه صلاحه فان اهلك بضاعته فهو خير له فلعله لو تركها كان
سببا لفساد دينه فقد لطف الله تعالى به وغايته ان يموت جوعا فينبغي ان يعتقد ان الموت

جوعا خير له في الاخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته فاذا اعتقد
جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها ففي الخبر ان العبد ليهم بالليل بامر
من امور التجارة مما لو فعل كان فيه هلاكه فينظر الله اليه من فوق عرشه فيصرفه عنه
فيصبح كئيبا حزينا يتطير بجاره وابن عمه من سبقني من دهاني وما هو الا رحمة رحمه الله
بها وكذلك قال عمر لا ابالي اصبحت غنيا او فقيرا فاني لا ادري ايهما خير لي ومن لم يتكامل
يقينه بهذه الامور لم يتصور منه التوكل ولذلك قال ابو سليمان لاحمد بن ابي الحواري
لي من كل مقام نصيب الا من هذا التوكل المبارك فاني ما شممت منه رائحة هذا كلامه مع
علو قدره ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال ما ادركته ولعله اراد ادراك اقصاه
وما لم يكمل الايمان بان لا فاعل الا الله ولا رازق سواه وان كل ما يقدره على العبد من فقر
وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يتمناه العبد لم يكمل حال التوكل فبناء التوكل على قوة
الايمان وبالجملة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعي قوة القلب وقوة اليقين ولذلك
قال سهل من طعن على الكسب فقد طعن على السنة ومن طعن على ترك الكسب فقد طعن على
التوحيد فان قلت فهل من دواء ينتفع به في صرف القلب عن الركون الى الاسباب الظاهرة
وحسن الظن بالله تعالى في تيسير الاسباب الخفية فاقول نعم هو ان تعرف ان سوء الظن
تلقين الشيطان وحسن الظن تلقين الله تعالى قال الله تعالى الشيطان يعدكم الفقر ويامركم بالفحشاء
والله يعدكم مغفرة منه وفضلا فالانسان بطبعه مشغوف بسماع تخويف الشيطان ولذلك
قيل الشفيق بسوء الظن مولع واذا انضم اليه الجبن وضعف القلب ومشاهدة الاتكال
على الاسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية بل
رؤية الرزق من الاسباب الخفية ايضا تبطل التوكل فقد حكي عن عابد انه عكف
في مسجد ولم يكن له معلوم فقال الامام لو اكتسبت لكان افضل لك فلم يجبه حتى
اعاد ثلاثا فقال في الرابعة يهودي في جوار المسجد قد ضمن لي كل يوم رغيفين
فقال ان كان صادقا في ضمانه فعكوفك في المسجد خير لك فقال يا هذا لو لم تكن
اماما تقف بين الله وبين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيرا لك اذ
فضلت وعد يهودي على ضمان الله تعالى بالرزق وقال امام لبعض المصلين من
اين تاكل فقال يا شيخ اصبر حتى اعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم اجيبك

في حسن الظن بمجي الرزق من لطف الله تعالى بواسطة الاسباب الخفية ان تسمع الحكايات
التي فيها عجايب صنع الله في وصول الرزق الى صاحبه وفيها عجايب قهر الله في اهلاك
اموال التجار والاغنيا وقتلهم جوعا كما روي عن حذيفة المرعشي وكان قد خدم ابرهيم
بن ادهم فقيل له ما اعجب ما رايت منه فقال بقينا في طريق مكة اياما لم نجد طعاما ثم دخلنا
الكوفة فاوينا الى مسجد خراب فنظر الي ابرهيم وقال يا حذيفة ارى بك الجوع
فقلت هو ما راى الشيخ فقال علي بدواة وقرطاس فجئت بها فكتب بسم الله الرحمن الرحيم
انت المقصود بكل حال والمشار اليه بكل معنى ۞ انا حامد انا شاكر انا ذاكر ۞ انا جايع
انا ضايع انا عاري ۞ هي ستة وانا الضمين لنصفها ۞ فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهب نار خضتها ۞ فاجر عبيدك من دخول النار ۞ ثم دفع الي الرقعة
وقال اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله وادفع الرقعة الى اول من يلقاك فخرجت فاول
من لقيني كان رجلا على بغلة فناولته الرقعة فاخذها وبكى فقال ما فعل صاحب هذه
الرقعة فقلت هو في المسجد الفلاني فدفع الي صرة فيها ستماية دينار ثم لقيت
رجلا اخر فسالته عن راكب البغلة فقال هذا نصراني فجئت الى ابرهيم واخبرته با
لقصة فقال لا تمسها فانه يجي الساعة فلما كان بعد ساعة دخل النصراني واكب
على راس ابرهيم يقبله واسلم وقال ابو يعقوب الاقطع البصري جعت مرة بالحرم
عشرة ايام فوجدت ضعفا فحدثتني نفسي فخرجت الى الوادي لعلي اجد شيا يسكن
ضعفي فرايت سلجمة مطروحة فاخذتها فوجدت في قلبي منها وحشة وكان قايلا يقول لي
جعت عشرة ايام فاخرها يكون حظك سلجمة متغيرة فرميت بها ودخلت المسجد فقعدت
فاذا انا برجل اعجمي جلس بين يدي ووضع قمطرة وقال هذه لك فقلت كيف خصصتني
بها قال اعلم انا كنا في البحر منذ عشرة ايام فاشرفت السفينة على الغرق فنذرت ان
خلصني الله ان اتصدق بهذه على اول من يقع عليه بصري من المجاورين وانت اول
من لقيته فقلت افتحها ففتحها فاذا فيها سميد مصري ولوز مقشر وسكر كعاب فقبضت
قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت رد الباقي الى صبيانك هدية مني اليهم وقد قبلتها ثم قلت في نفسي
رزقك يسير اليك من عشرة ايام وانت تطلبه من الوادي وحكي عن بنان الحمال قال كنت
في طريق مكة اجي من مصر ومعي زاد فجاءتني امراة وقالت لي يا بنان انت حمال تحمل

تحمل على ظهرك الزاد وتتوهم انه لا يرزقك قال فرميت بزادي ثم اتى علي ثلث لم اكل
فوجدت خلخالا في الطريق فقلت في نفسي احمله حتى يجي صاحبه فربما يعطيني شيا
فارده عليه فاذا انا بتلك المراة قالت لي انت تاجر تقول حتى يجي صاحبه فاخذ
منه شيا ثم رمت الي شيا من الدراهم وقالت انفقها فاكتفيت بها الى قريب من مصر
وروي ان رجلا لازم باب عمر فقال له عمر يا هذا هاجرت الى عمر ام الى الله اذهب
فتعلم القران فانه سيغنيك عن باب عمر فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر فاذا
هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة فجاءه عمر وقال اني اشتقت اليك فالذي شغلك
عنا فقال اني قرات القران فاغناني عن عمر وال عمر فقال عمر رحمك الله فما وجدت
فيه قال وجدت فيه وفي السما رزقكم وما توعدون فقلت رزقي في السما وانا
اطلبه من الارض فبكى عمر وقال صدقت فكان عمر بعد ذلك ياتيه ويجلس اليه وقال
ابو حمزة الخراساني حججت سنة من السنين فبينا انا امشي في الطريق اذ وقعت في
بير فنازعتني نفسي ان استغيث فقلت لا والله لا استغيث فما استتممت هذا
الخاطر حتى مر براس البير رجلان فقال احدهما للاخر تعال حتى نسد راس البير
لئلا يقع فيها احد فاتوا بقصب وبارية وطموا راس البير فهممت ان اصيح ثم قلت في
نفسي اصيح الى من هو اقرب منهما وسكنت فبينا انا بعد ساعة اذا انا بشي جا وكشف
عن راس البير وادلى رجله وكانه يقول تعلق بي في همهمة له كنت اعرف ذلك فتعلقت
به فاخرجني فاذا هو سبع فمر وهتف بي هاتف يا ابا حمزة اليس هذا احسن نجيناك
من التلف بالتلف فمشيت وانا اقول نهاني حياي منك ان اكشف الهوى ۞ و
اغنيتني الالطاف منك عن الوصف ۞ تلطفت في امري فابديت شاهدي ۞ الى غايبي
واللطف يدرك باللطف ۞ ترايت لي بالغيب حتى كانما ۞ تبشرني بالغيب انك في
الكف ۞ اراك وبي من هيبتي لك وحشة ۞ فتونسني باللطف منك وبالعطف ۞
وتحيي محبا بالذي هو حتفه ۞ وذا عجب كون الحيوة مع الحتف ۞ وامثال هذه الوقايع
مما يكثر واذا قوي الايمان به وانضم اليه القدرة على الجوع قدر اسبوع من غير ضيق صدر
وقوي الايمان بانه ان لم يسق اليه رزقه في اسبوع فالموت خير له عند الله فلذلك
حبسه عنه تم التوكل بهذه الاحوال والمشاهدات والا فلا يتم اصلا بيان توكل المعيل

اعلم ان من له عيال فحكمه يفارق حكم المنفرد لان المنفرد لا يصح توكله الا بامرين احدهما قدرته
على الجوع اسبوعا من غير استشراف وضيق نفس والاخر ابواب من الايمان ذكرناها من
جملتها ان يطيب نفسا بالموت ان لم ياته رزقه علما بان رزقه الموت والجوع وهو وان كان
نقصانا في الدنيا فهو زيادة في الاخرة فيرى انه سيق اليه خير الرزقين له وهو رزق
الاخرة وان هذا هو المرض الذي يموت به فيكون راضيا بذلك وانه كذا قضي وقدر
فبهذا يتم التوكل ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع فلا يمكن ان تقرر عندهم الايمان
بالتوحيد وبان الموت على الجوع رزق مغبوط عليه في نفسه ان اتفق ذلك نادرا
كذلك سائر ابواب الايمان فاذن لا يمكنه في حقهم الا توكل المكتسب وهو المقام الثالث
كتوكل ابي بكر اذ خرج للكسب فاما دخول البوادي وترك العيال توكلا في حقهم او القعود
عن الاهتمام بامرهم توكلا في حقهم فهذا حرام وقد يفضي الى هلاكهم ويكون هو مؤاخذا
بهم بل التحقيق انه لا فرق بينه وبين عياله فان ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة
وعلى الاستبشار بالموت على الجوع رزقا وغنيمة في الاخرة فله ان يتوكل في حقهم ونفسه ايضا
عيال عنده لا يجوز ان يضيعها الا ان تساعده على الصبر مع الجوع مدة فان كان لا يطيقه
ويضطرب عليه قلبه ويتشوش عليه عبادته لم يجز له التوكل ولذلك قال ابو علي الروذباري
اذا قال الفقير بعد خمسة ايام انا جائع فالزموه السوق ومروه بالعمل والكسب فاذن
بدنه عياله وتوكله فيما يضر ببدنه كتوكله في عياله ولا فرق الا في شيء وهو ان له ان يكلف
النفس الصبر على الجوع وليس له ذلك في عياله وقد انكشف لك من هذا ان التوكل ليس
انقطاعا عن الاسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة والرضا بالموت ان تاخر الرزق
نادرا وملازمة الامصار والبلاد او ملازمة البوادي التي لا تخلو عن حشيش وما يجري
مجراه فهذه كلها اسباب البقاء ولكن مع نوع من الاذى لا يمكن الاستمرار عليه الا بالصبر
فالتوكل في الامصار اقرب الى الاسباب من التوكل في البوادي وكل ذلك من الاسباب الا ان
الناس عدلوا الى اسباب اظهر منها فلم يعدوا تلك اسبابا وذلك لضعف ايمانهم وشدة
حرصهم وقلة صبرهم على الاذى في الدنيا لاجل الاخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم باساءة الظن
وطول الامل ومن نظر في ملكوت السموات والارض انكشف له تحقيقا ان الله دبر الملك
والملكوت تدبيرا لا يجاوز العبد رزقه وان ترك الاضطراب فان العاجز عن الاضطراب

عن الاضطراب كيف وصل سرته بالام حتى ينتهي اليه فضلات غذاء الام بواسطة السرة
فلم يكن ذلك بحيلة الجنين ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الام لتتكفل به شاءت
ام ابت اضطرارا من الله تعالى اليه بما اشتعل في قلبها من نار الحب ثم لما لم يكن له سن
يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج الى المضغ ولانه لرخاوة مزاجه
كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فادر له اللبن اللطيف في ثدي الام عند انفصاله على
حاجته افكان هذا بحيلة الطفل او بحيلة الام فاذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف
انبت له اسنانا قواطع وطواحن لاجل المضغ فاذا كبر واستقل يسر له اسباب التعلم
وسلوك سبيل الاخرة فجبنه بعد البلوغ جهل محض لانه ما نقصت اسباب معيشته ببلوغه
بل زاد فانه لم يكن قادرا على الاكتساب والان قد قدر فزادت قدرته نعم كان المشفق
عليه شخصا واحدا وهو الام والاب وكانت شفقته مفرطة جدا فكان يسقيه ويطعمه
في اليوم مرة او مرتين وكان اطعامه بتسليط الله الشفقة والحب على قلبه فكذلك الان قد
سلط الله الشفقة والمودة والرقة والرحمة على قلوب المسلمين واهل البلد كافة حتى
ان كل واحد منهم اذا احس بمحتاج تالم قلبه ورق عليه وانبعث له داعية فلقد كانوا لا
يشفقون عليه لانهم راوه في كفالة الام وهي مشفقة خاصة فاذا راوه محتاجا ولو راوه
محتاجا لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين او على جماعة حتى ياخذوه
ويكفلوه فما رؤي الى الان في سني الخصب يتيم قد مات جوعا مع انه عاجز عن الاضطراب
وليس له كافل خاص فالله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده
فلا ينبغي ان يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل به الصبي وقد كان المشفق
واحدا والان المشفق الالف نعم كانت شفقة الام اقوى واحظى ولكنها واحدة وشفقة
احاد الناس وان ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض فكم من يتيم قد تيسر له
حال احسن من حال من له ام واب فينجبر ضعف شفقة الاحاد بكثرة المشفقين وترك
التنعم والاقتصار على قدر الضرورة ولقد احسن الشاعر حيث قال جرى قلم القضاء بما
يكون فسيان التحرك والسكون جنون منك ان تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين
فان قلت الناس يكفلون اليتيم لانهم يرونه عاجزا لصباه واما هذا فبالغ قادر على الكسب
لا يلتفتون اليه ويقولون هو مثلنا فليجتهد لنفسه فاقول ان كان هذا القادر بطالا

فقد صدقوا فطلبوا الكسب ولا معنى للتوكل في حقه فان التوكل مقام من مقامات الدين
يستعان به على التفرغ لله لا للبطالة والتوكل والاكتساب مستقلا ملازما للمسجد او بيته وهو
مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه في ترك الكسب ولا يكلفونه ذلك بل
اشتغاله بالله يقرر محبته في قلوب الناس حتى يحملوا اليه فوق كفايته وانما عليه ان لا
يغلق الباب ولا يهرب الى الجبل من بين الناس فما رؤي الى الآن عالما او عاملا مستغرق
الاوقات بالله تعالى وهو في الامصار فمات جوعا قط بل لو اراد ان يطعم جماعة من الناس بقوله
لقدر عليه فان من كان لله كان الله له ومن اشتغل بالله القى الله حبه في قلوب الناس و
سخر له القلوب كما سخر قلب الام لولدها فقد دبر الله الملك والملكوت تدبيرا كافيا لاهل
الملك والملكوت فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدبر واشتغل به وآمن ونظر الى مسبب
الاسباب لا الى الاسباب نعم ما دبره تدبيرا يصل الى المشتغل به الحلو والطير السمان و
الثياب الرفيعة والخيول النفيسة على الدوام لا محالة وقد يتفق ذلك ايضا في بعض الاحوال
لكن دبره تدبيرا يصل الى كل مشتغل بعبادته في كل اسبوع قرص شعير او حشيش نبات ولا بد
لا محالة والغالب انه يصل اكثر منه بل يصل ما يزيد على الحاجة فالكفاية بترك الاسباب لترك
التوكل الا رضا النفس بالتنعم على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الاغذية اللطيفة
وليس ذلك من طريق الآخرة وقد لا يحصل ذلك من غير اضطراب وهو في الغالب ايضا
ليس يحصل مع الاضطراب وانما يحصل نادرا وفي النادر ايضا قد يحصل بغير اضطراب
فائدة الاضطراب ضعيف عند من انفتحت بصيرته فلذلك لا يطمئن الى الاضطراب بل الى تدبير
الملك تدبيرا لا محاولة به عبدا من عباده رزقه وان سكن الا نادرا ونادرا اعظمها وقد يعرض
مثله في حق المضطرب فاذا انكشف هذه الامور وكان معه قوة في القلب وشجاعة
اثر ما قال الحسن البصري اذ قال وددت ان اهل البصرة في عيالي وان حبة بدينار وقال
وهيب بن الورد لو كانت السماء نحاسا والارض رصاصا فاهتممت برزقي لظننت اني
مشرك فاذا فهمت هذه الامور فهمت ان التوكل مقام مفهوم في نفسه ويمكن الوصول اليه
لمن قهر نفسه وعلمت ان من انكر اصل التوكل وامكانه انكره عن جهل فاياك ان تجمع بين
الافلاسين الافلاس عن وجود المقام ذوقا والافلاس عن الايمان به علما فاذن عليك
بالقناعة بالرزق القليل والرضا بالموت فانه يأتيك لا محالة وان فررت منه وعند ذلك

ذلك على القران سيجيء الملك ويرزقك على يد من لا يحتسب فان اشتغلت بالتقوى
والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من
حيث لا يحتسب الآية نعم ليس له ان يتكفل ان يرزقه الطير والاغذية اللطيفة فاما الرزق الذي
تقوم به حياته وهذا المضمون مضمون لكل من اشتغل بالضامن واطمأن الى ضمانه فان
الذي احاط به تدبير الله تعالى من الاسباب الخفية للرزق اعظم مما ظهر للخلق بل مداخل الرزق
لا تحصى ومجاريه لا تهتدي اليه وذلك لان ظهوره على الارض وسببه في السماء قال تعالى
وفي السماء رزقكم وما توعدون واسرار السماء لا يطلع عليها ولهذا دخل جماعة على الجنيد
فطلبوا الرزق فقال ان علمتم اي موضع هو فاطلبوه فقالوا فنسأل الله ذلك قال ان علمتم
انه ينساكم فذكروه فقالوا ندخل البيت فنتوكل وننظر ما يكون فقال التوكل على التجربة شك
قالوا فما الحيلة قال ترك الحيلة وقال احمد بن عيسى الخراز كنت في البادية فنالني جوع شديد
فغلبتني نفسي ان اسأل الله تعالى طعاما فقلت ليس هذا من افعال المتوكلين فطالبتني
ان اسأل الله تعالى صبرا فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يقول ويزعم انه منا قريب
وانا لا نضيع من اتانا ويسألنا القوى جهدا وجهلا كانا لا نراه ولا يرانا فقد بينا انه
من انكسرت نفسه وقوي قلبه ولم يضعف بالجبن وقوي ايمانه بتدبير الله تعالى كان مطمئن
النفس ابدا واثقا بالله فان اسوأ حاله ان يموت ولا بد ان يأتيه الموت كما يأتي من ليس
متوكلا فاذن تمام التوكل بالقناعة من جانب وبالوفاء بالضمان من جانب والذي يحقق
القانعين بهذه الاسباب التي وردت بها ما ذكرناه فمن جرب فشاهد صدق الوعد
بما يرد عليه من الارزاق العجيبة التي لا تكون في ظنه وحسابه ولا يكون قلبه منتظرا
للاسباب بل لمسبب الاسباب كما لا يكون منتظرا القلم الكاتب بل القلب لكاتب فان اصل
حركة القلم والحركة الاولى واحد فلا ينبغي ان يكون النظر الا اليه وهذا شرط توكل
بخوض البوادي بلا زاد ويقعد في الامصار فهو فضل فاما الذي له ذكر بالعبادة
والعلم فاذا قنع في اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وان لم يكن من اللذائذ
وبثوب خشن يليق باهل الدين فهذا يأتيه من حيث لا يحتسب على الدوام بل يأتيه اضعافه
فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور فان اشتهاره بسبب ظاهر
يجلب الرزق اليه اقوى من دخل الامصار في حق الجاهل مع الاكتساب في الاهتمام

بالرزق فيح نفسى الدنى وهو بالعلاء اقنع لان شرطهم القناعة والعالم القانع يأتيه
رزقه ورزق جماعة كثيرة ان كانوا معه الا ان اراد ان لا ياخذ من ايدى الناس ويأكل من
كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذى سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم
يكن له سير بالباطن فان الكسب يمنع من السير بالفكر الباطن فاشتغاله بالسلوك مع الاخذ
من يد من يتقرب الى الله بما يعطيه اولى لانه يفرغ لله واعانة للمعطى على نيل الثواب ومن
نظر الى مجارى سنة الله تعالى علم ان الرزق ليس على قدر الاسباب ولذلك سال بعض الاكاسرة
حكيما عن الاحمق المرزوق والعاقل المحروم فقال اراد الصانع ان يدل على نفسه اذ لو رزق
كل عاقل وحرم كل احمق لظن ان العقل رزق صاحبه فلما راوا خلافه علموا ان الرازق
غيرهم ولا ثقة بالاسباب الظاهرة لهم بعد الطول احوال المتوكلين فى التعلق بالاسباب
نضرب مثال ان مثال الخلق مع الله تعالى امثال طائفة من السؤال وقفوا فى ميدان
على باب قصر الملك وهم محتاجون الى الطعام فاخرج اليهم غلمانا كثيرة ومعهم ارغفة
وامرهم ان يعطوا بعضهم رغيفين رغيفين وبعضهم رغيفا رغيفا وان يجتهدوا ان لا
يغفلوا عن احد منهم وامر مناديا حتى نادى فيهم ان اسكنوا ولا تتعلقوا بغلمانى
اذا خرجوا اليكم بل ينبغى ان يطمئن كل واحد منكم فى موضعه فان الغلمان مسخرون وهم
مامورون بان يوصلوا اليكم طعامكم فمن تعلق بالغلمان وآذاهم واخذ رغيفين فاذا
فتح باب الميدان وخرج اتبعته بغلام يكون موكلا به الى ان اعذبه لعقوبة فى ميعاد معلوم
عندى ولكن اخفيه ومن لم يؤذ الغلمان وقنع برغيف واحد اتاه من يد الغلام وهو
ساكن فانى اخصه بخلعة سنية فى الميدان المذكور لعقوبة الاخر ومن ثبت فى مكانه ولكن
اخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلعة له ومن اخطأه الغلمان فلم يوصلوا اليه شيئا فبات
الليلة جائعا غير متسخط على الغلمان ولا قائل ليته اوصل الى رغيفا اخلعه استوزره فى
[illegible] ملكى اليه فانقسم السؤال الى اربعة اقسام قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا الى
العقوبة الموعودة وقالوا من اليوم الى غد فرج ونحن الآن جائعون فبادروا الى
الغلمان واذوهم واخذوا الرغيفين فسبقت العقوبة اليهم فى الميعاد المذكور فندموا
ولم ينفعهم الندم وقسم تركوا التعلق بالغلمان خوفا من العقوبة ولكن اخذوا الرغيفين
لغلبة الجوع فسلموا من العقوبة وما فازوا بالخلعة وقسم قالوا انا نجلس بمرأى من الغلمان

من الغلمان حتى لا يغفلوا عنا ولكنا لا ناخذ اذا اعطونا الا رغيفا واحدا ونقنع به لعلنا
نفوز بالخلعة فنالوا وقسم رابع اختفوا فى زوايا الميدان وانحرفوا عن مرأى اعين
الغلمان وقالوا ان اتبعونا واعطونا قنعنا برغيف واحد وان اخطأنا قاسينا الجوع الليلة
فلعلنا نقوى على ترك السخط فننال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك فما نفعهم ذلك
اذ تبعهم الغلمان فى كل زاوية واعطوا كل واحد رغيفا واحدا وجرى مثل ذلك اياما
حتى اتفق على الندور ان اختفى ثلاثة فى زاوية لم يرهم الغلمان وشغلهم
صارف عن طول التفتيش فباتوا فى جوع شديد فقال اثنان منهم ليتنا تعرضنا للغلمان
واخذنا طعامنا فلسنا نطيق الصبر وسكت الثالث الى الصباح فنال درجة القرب والوزارة
فهذا مثال الخلق فالميدان هو الحياة الدنيا وباب الميدان الموت والميعاد المجهول يوم
والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل اذا مات جائعا راضيا من غير استعجال
الى الميعاد لان الشهداء احياء عند ربهم يرزقون والمتعلق بالغلمان هو المتعدى للاسباب
والغلمان المسخرون هى الاسباب والخارجة ظاهر الميدان من الغلمان هم المتوكلون
فى الامصار فى الرباطات والمساجد على هيئة السكون والمختفون فى الزوايا هم السائحون فى
البوادى على هيئة التوكل فالاسباب تتبعهم والرزق ياتيهم الا على سبيل الندرة فان مات
جوعا واحد منهم راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى فقد انقسم الخلق الى هذه الا
الاربعة فلعل من كل مائة يتعلق بالاسباب تسعون واما سبعة من العشرة الباقية فى الامصار
متعرضين للسبب بمجرد حضورهم ومشاهدتهم وساح فى البوادى ثلثة وينجو منهم اثنان
درجة القرب واحد ولعله كذلك كان فى الاعصار السالفة واما الآن فالتارك للاسباب
لا يفى الى واحد من عشرة آلاف فى التعرض للاسباب بالادخار فمن حصل له مال
بارث او كسب او سؤال او سبب من الاسباب فله فى ادخاره ثلاثة احوال الاول ان
ياخذ قدر حاجته فى الوقت فيأكل ان كان جائعا ويلبس ان كان عاريا ويشترى مسكنا
مختصرا ان كان محتاجا ويفرق الباقى فى الحال ولا ياخذه ولا يدخره الا بقدر ما يتبلغ به
من يستحقه ويحتاج اليه فيبعث على هذه النية فهذا هو الموافق لموجب التوكل حقا
وهى الدرجة العليا الحالة الثانية المقابلة لهذه الخارجة عن حد التوكل ان يدخر
لسنة فما فوقها فهذا ليس من المتوكلين اصلا فقد قيل لا يدخر من الحيوانات الا ثلاثا

والحكمة وابن آدم الحالة الثالثة أن يدخر لأربعين يوما فما دونه فهذا هل يوجب حرمانه عن المقام الموعود في الآخرة للمتوكلين اختلفوا فيه فذهب سهل إلى أنه يخرج عن التوكل وذهب الخواص إلى أنه لا يخرج بأربعين يوما ويخرج بما يزيد على الأربعين وقال أبو طالب المكي لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الأربعين أيضا وهذا الاختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار ثم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار ينافي التوكل فأما التقدير بعده فلا معنى له ولكل شيء من ذلك وجه على نتيجة فإنه يتوزع على رتب ولها بداية ونهاية ويسمى أصحاب النهايات السابقين وأصحاب البدايات أصحاب اليمين وأصحاب اليمين أيضا على درجات وكذا السابقون وأعالي درجات أصحاب اليمين تلاحق أسافل درجات السابقين فلا معنى للتقدير في مثل هذا بل التحقيق أن التوكل بترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل وإنما عدم أمل البقاء رأسا فيعتبر اشتراطه في نفس فإن ذلك كالممتنع وجوده وأما الناس فمتفاوتون في طول الأمل وقصره وأقل درجات الأمل يوم وليلة فما دونه من الساعات وأقصاه ما يتصور أن يكون عمر الإنسان وبينهما درجات لا حصر لها فمن لم يأمل أكثر من شهر كان أقرب إلى المقصود ممن يأمل سنة وتقديره بأربعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام بعيد فإن تلك الواقعة ما قصد بها بيان الرخصة في الأمل بل لكن استحقاق نيل الموعود كان لا يتم إلا بأربعين يوما لسر جرت به سنة الله تعالى في تدريج الأمور كما قال صلى الله عليه وسلم خمر طينة آدم أربعين صباحا إذ استحقاق تلك الطينة للتخمير كان موقوفا على مدة مبلغها ما ذكر فإذن ما وراء السنة لا يدخرها إلا ضعيف القلب مائل الركون إلى ظاهر الأسباب وهو خارج عن مقام التوكل غير واثق بما ظهر التدبير من الوكيل الحق بخفايا الأسباب فإن أسباب الارتفاعات الزكوات تتكرر بتكرر السنين غالبا ومن ادخر لأقل من سنة فله درجة بحسب قصور أمله ومن كان أمله شهرين لم يكن درجته كدرجة من أمله شهر ولا درجة من أمله ثلاثة أشهر بل هو متوسط بينهما في الرتبة ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل فالأفضل أن لا يدخر أصلا فإن ضعف قلبه فكلما قل ادخاره كان فضله أكثر وقد روي في قصة الفقير الذي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وأسامة أن يغسلاه فكفنوه في بردة فلما دفنه قال لأصحابه إنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ولولا خصلة كانت فيه لبعث ووجهه كالشمس الضاحية قلنا وما هي يا رسول

يا رسول الله قال كان صواما قواما كثير الذكر لله تعالى غير أنه إذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف لصيفه وإذا جاء الصيف ادخر حلة الشتاء لشتائه ثم قال من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث وليس الكوز والسفرة وما يحتاج إليه على الدوام في معنى ذلك فإن ذلك لا ينقص الدرجة وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج إليه في الصيف وهذا في حق من لا يتزعزع قلبه بترك الادخار ولا تستشرف نفسه إلى أيدي الخلق بل لا يلتفت قلبه إلا إلى الوكيل الحق فإن كان يستشعر في نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر فالادخار له أولى بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها وافيا بقدر كفايته وكان لا يتفرغ قلبه إلا به فذلك له أولى لأن المقصود إصلاح القلوب لتتجرد لذكر الله ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه والمحذور ما يشغل عن الله تعالى وإلا فالدنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل الصناعات فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما بل دعا الكل إلى الله تعالى وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله وعمدة الاشتغال بالله تعالى القلب فصاحب القلب الضعيف ادخاره بقدر حاجته كما أن صاحب القوة ترك الادخار وهذا كله حكم المنفرد فأما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبرا لضعفهم وتسكينا لقلوبهم وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل لأن الأسباب تتكرر عند تكرر السنين فادخاره ما يزيد عليه سببه ضعف قلبه وذلك يناقض قوة التوكل والمتوكل عبارة عن موحد قوي القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة وقد ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنة ونهى أم أيمن وغيرها أن يدخر شيئا لغد ونهى بلالا عن الادخار في كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها فقال أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا وقال إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تخبأ اقتداء بسيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم وقد كان فعله بحيث كان إذا بات لم يصبح وقد بقي عنده ما يدخر ولو ادخر لم ينقص ذلك من توكله إذ كان لا يثق بما ادخره ولكنه ترك ذلك تعليما للأقوياء من أمته فإن أقوياء أمته ضعفاء بالإضافة إلى قوته وادخر لعياله سنة لا لضعف قلبه ولكن ليسن ذلك للضعفاء من أمته ثم أخبر أن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه تطييبا لقلوب الضعفاء حتى

لا ينتهي بهم الضعف الى الياس والقنوط فيتركون السعي عن الخير عليهم لعجزهم عن منتهى
الدرجات قال رسول الله صلى الله عليه وآله الا رحمة للعالمين على اختلاف اصنافهم ودرجاتهم
فاذا فهمت هذا علمت ان الادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر ويدل عليه ما روى
ابو امامة الباهلي ان بعض اصحاب الصفة توفي فما وجد له كفن فقال صلى الله عليه وآله فتشوا ثوبه
فوجد فيه دينارين في داخل ازاره فقال صلى الله عليه وآله كيتان من النار وقد كان غيره من المسلمين
يموت ويخلف اموالا ولا يقول ذلك فيه وهذا يحتمل وجهين لان حاله يحتمل حالين
احدهما انه اراد كيتان من النار كما قال تعالى فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم
ذلك اذا كان حاله اظهار الزهد والفقر والتوكل مع الادخار موجبا لنوع تلبيس
الثاني ان لا يكون ذلك عن تلبيس فيكون المعنى به النقصان عن درجته كما انه كما ينقص
عن حال الوجه اثر الكيتان في الوجه وذلك ان لا يكون عن تلبيس فان كل ما يخلفه الرجل
فهو نقصان عن درجته في الآخرة اذ لا يؤتى احد من الدنيا شيئا الا ينقص بقدره من
الآخرة واما بيان ان الادخار مع فراغ القلب عن الادخار ليس من ضرورته بطلان التوكل
فيشهد له ما روي عن بشر قال الحسين المغازلي من اصحاب بشر كنت عنده ضحوة من النهار
فدخل كهل اسمر خفيف العارضين فقام اليه بشر قال وما رأيته قام لاحد غيره قال ودفع
الي كفا من دراهم فقال اشتر لنا من اطيب ما تقدر عليه من الطعام الطيب وما قال لي قط
مثل ذلك فجئت بالطعام فوضعته فاكل معه وما رأيته اكل مع غيره قال فاكلنا حاجتنا
وبقي من الطعام شيء كثير فاخذه الرجل وجمعه في ثوبه وحمله وانصرف فتعجبت من ذلك
كرهته له فقال لي بشر لعلك انكرت فعله قلت نعم اخذ بقية الطعام من غير اذن فقال
ذاك اخونا فتح الموصلي زارنا اليوم من الموصل فانما اراد ان يعلمنا ان التوكل اذا صح
لم يضر معه الادخار الفن الثالث في مباشرة الاسباب الدافعة للضرر المعرض
للخوف اعلم ان الضرر قد يعرض من الخوف في نفس او مال وليس من شرط التوكل ترك
الاسباب الدافعة لها اما في النفس فكالنوم في المسبعة او في مجرى السيل من الوادي
او تحت الجدار المائل والسقف المنكسر فكل ذلك منهي عنه وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك
بغير فائدة ثم تنقسم هذه الاسباب الى مقطوع بها والى مظنون والى موهوم فترك الموهوم
منها من شرط التوكل وهي التي نسبتها الى دفع الضرر نسبة الكي والرقية فان الكي والرقية

والرقية قد تقدم على المحذور دفعا لما يتوقع فقد يستعمل بعد نزول المحذور
للازالة ورسول الله صلى الله عليه وآله لم يصف المتوكلين الا بترك الكي والرقية والطيرة ولم
يصفهم بانهم اذا خرجوا الى موضع بارد لم يلبسوا جبة والجبة تلبس دفعا للبرد
المتوقع وكذلك كل ما في معناها من الاسباب نعم الاستظهار باكل الثوم عند
الخروج سفرا في الشتاء تهييجا لقوة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق في
الاسباب والتعويل عليها فيكاد يقرب من الكي بخلاف الجبة وما ترك الاسباب
الدافعة وان كانت مقطوعا بها على وجه فاذا نال الضرر من الانسان فان امكنه
الصبر وامكنه الدفع والتشفي فشرط التوكل الاحتمال والصبر قال تعالى فاتخذه وكيلا
واصبر على ما يقولون وقال ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون
وقال ودع اذاهم وتوكل على الله وقال فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل وقال
اجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون وهذا في اذى الناس واما الصبر على
اذى السباع والحيات والعقارب فترك دفعها ليس من التوكل في شيء اذ لا فائدة
فيه ولا يراد السعي ولا يترك السعي لعينه بل لاعانته على الدين وترتيب الاسباب ههنا
كترتيبها في الكسب وجلب المنافع فلا نطول بالاعادة وكذلك في الاسباب الدافعة
عن المال فلا ينقص التوكل باغلاق باب البيت عند الخروج ولا بان يعقل البعير لان
هذه اسباب عرفت بسنة الله تعالى اما قطعا واما ظنا ولذلك قال صلى الله عليه وآله للاعرابي
لما اهمل البعير وقال توكلت على الله فقال اعقلها وتوكل وقال تعالى خذوا حذركم وقال
في كيفية صلوة الخوف وليأخذوا اسلحتهم وقال واعدوا لهم ما استطعتم من قوة
ومن رباط الخيل وقال لموسى عليه السلام فاسر بعبادي ليلا والتحصن بالليل اختفاء عن
اعين الاعداء ونوع تسبب واختفى رسول الله صلى الله عليه وآله في الغار عن اعين الاعداء
دفعا للضرر واخذ السلاح في الصلوة ليس دفعا قطعا كقتل الحية والعقرب فانه يكون
دافعا ولكن اخذ السلاح سبب مظنون وقد بينا ان المظنون كالمقطوع وانما الموهوم
هو الذي يقتضي التوكل تركه فان قلت فقد حكي عن جماعة ان الاسد وضع يده على
كتفه ولم يتحرك فاقول وقد يحكى عن جماعة انهم ركبوا الاسد وسخروه فلا ينبغي
ان يغرك ذلك فانه وان كان صحيحا في نفسه فلا يصلح الاقتداء بطريق التعلم من الغير

بل ذلك مقام رفيع في الكرامات وليس ذلك شرطا في التوكل وفيه اسرار لا يقف عليها
ما لم ينته اليها فان قلت فهل من علامة اعلم بها اني قد وصلت اليه فاقول الواصل لا
يحتاج الى طلب العلامة ولكن من العلامات السابقة عليه ان يسخر لك كلب هو معك في
اهابك يسمى الغضب فلا يزال يعضك ويعض غيرك فان سخر لك هذا الكلب بحيث اذا
هيج واشلي لم يستشل الا باشارتك وكان مسخرا لك فربما يرتفع درجتك الى ان يسخر
لك الاسد الذي هو ملك السباع وكلب دارك اولى بان يكون مسخرا لك من كلب البوادي
وكلب اهابك اولى بان يتسخر لك من كلب دارك فان لم يتسخر لك الكلب الباطن فلا تطمع
في ان يتسخر لك الكلب الظاهر فان قلت فاذا اخذ المتوكل سلاحه حذرا من العدو وقفل
بيته حذرا من ان يسرق فباي اعتبار يكون متوكلا فاقول يكون متوكلا بالعلم والحال
فاما العلم فهو ان يعلم ان اللص ان اندفع لم يندفع بكفايته واغلاق الباب بل بدفع
الله اياه فكم من باب يغلق ولا ينفع وكم من بعير يعقل ويموت او يفلت وكم من آخذ سلاحه
يقتل او يغلب فلا يتكل على هذه الاسباب اصلا بل على مسبب الاسباب اصلا كما ضربنا المثل
في الموكل بالخصومة فانه وان حضر واحضر السجل فلا يتكل على نفسه وعلى سجله بل على كفاية
الوكيل وقوته واما الحال فهو ان يكون راضيا بما يقضي الله به في بيته ونفسه ويقول اللهم ان
سلطت على ما في البيت من ياخذه فهو في سبيلك وانا راض بحكمك فاني لا ادري ان ما اعطيتني
هبة فلا تسترجعها او عارية او وديعة فتستردها ولا ادري انها رزقي او سبقت
مشيئتك في الازل بانه رزق غيري فكيفما قضيت فانا راض به وما اغلقت الباب تحصنا
من قضائك وتسخطا له بل جريا على مقتضى سنتك في ترتيب الاسباب فلا ثقة الا بك يا
مسبب الاسباب فاذا كان هذا حاله وهذا الذي ذكرناه لم يخرج عن حدود التوكل
بعقل البعير واخذ السلاح واغلاق الباب ثم اذا عاد فوجد ما في البيت فينبغي ان يكون
ذلك عنده نعمة جديدة من الله وان لم يجده بل وجده مسروقا نظر الى قلبه فان وجده راضيا
او فرحا بذلك عالما بانه ما اخذه الله تعالى منه الا ليزيده من رزق الآخرة فقد صح مقامه
في التوكل وظهر له صدقه وان تألم قلبه به ووجد قوة الصبر فقد بان له انه ما كان صادقا
في دعوى التوكل لان التوكل مقام بعد الزهد ولا يصح الزهد الا ممن لا يأسف على ما فات
من الدنيا ولا يفرح بما ياتي بل قد يكون على العكس منه فكيف يصح له التوكل نعم قد يصح له

قد يصح له مقام الصبر ان اخفاه ولم يظهر شكواه ولم يظهر للحد سوله ولم يكثر سعيه
في الطلب والتجسس وان كان لا يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه واظهر الشكوى بلسانه
واستقصى الطلب بسعيه فقد كانت السرقة مزيدا له في دينه من حيث انها اظهرت له قصوره
عن جميع المقامات وكذبه في جميع الدعاوى فبعد هذا ينبغي ان يجتهد حتى لا يصدق
نفسه في دعاويها ولا يتدلى بحبل غرورها فانها خدعة امارة بالسوء مدعية للخير
فان قلت فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ فاقول المتوكل لا يخلو بيته عن متاع
كقصعة يشرب منها واناء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده وعصا يدفع بها عدوه الى
غير ذلك من ضرورات المعيشة من اثاث البيت وقد يدخل في يده مال وهو يمسكه لانه يجد
محتاجا فيصرفه اليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله وليس من شرط
التوكل اخراج الكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده وانما ذلك في المأكول
وفي كل مال زائد على قدر الضرورة لان سنة الله تعالى جارية بوصول الخبز الى الفقراء
المتوكلين في زوايا المساجد وما جرت السنة بتفرقة الكيزان والامتعة في كل يوم ولا
في كل اسبوع والخروج عن سنة الله تعالى ليس شرطا في التوكل ولذلك كان الخواص يأخذ
في السفر الحبل والركوة والمقراض والابرة دون الزاد لان سنة الله تعالى جارية بالفرق
بين الامرين فان قلت فكيف يتصور ان لا يحزن اذا اخذ متاعه الذي هو محتاج اليه
ولا يأسف عليه فان كان لا يشتهيه فلم امسكه واغلق الباب عليه وان امسكه لانه
يشتهيه لحاجته اليه فكيف لا يتأذى ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما اشتهاه فاقول
انما كان يحفظه ليستعين به على دينه اذ كان يظن ان الخيرة له في ان يكون له ذلك المتاع
ولولا ان الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى ولما اعطاه فاستدل على ذلك بتيسير الله تعالى وحسن
الظن بالله مع ظنه ان ذلك معين له على اسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعا
اذ يحتمل ان يكون خيرة في ان يبتلى بفقد ذلك حتى يتعب في تحصيل عوضه ويكون
ثوابه في التعب والتعب اكثر فلما اخذه الله تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه لانه في
جميع الاحوال واثق به حسن الظن به فيقول لولا ان الله تعالى علم ان الخيرة لي كانت في
وجودها الى الآن والخيرة الآن في فقدها لما اخذها مني وبمثل هذا يتصور ان يفرح
ولا يحزن عنده اذ به يخرج عن ان يكون فرحه بالاسباب من حيث انها اسباب بعنايته ولطفا وهو كالمريض

بين يدي الطبيب الشفيق مرضي بما يفعله فان قدم اليه الغذاء فرح وقال لولا انه
عرف ان الغذاء ينفعني ويقويني على احتماله لما قدمه الي وان اخر عنه الغذاء
بعد ذلك ايضا فرح وقال لولا ان الغذاء يضرني ويسوقني الى الموت لما حال بيني
وبينه وكل من لا يعتقد في لطف الله تعالى ما يعتقده المريض في الوالد المشفق الحاذق بعلم
الطب فلا يصح منه التوكل اصلا ومن عرف الله تعالى وعرف افعاله وعرف سنته في
اصلاح عباده لم يكن فرحه بالاسباب فانه لا يدري اي الاسباب خير له كما قال عمر رضي الله عنه لا ابالي
اصبحت غنيا او فقيرا فاني لا ادري ايهما خير لي فكذلك ينبغي ان لا يبالي المتوكل بسرقة
متاعه او بضاعته فانه لا يدري ايهما خير له في الدنيا ولا في الاخرة فكم من متاع في الدنيا
يكون سبب هلاك الانسان وكم من غني يبتلى بواقعة لاجل غناه يقول ليتني كنت فقيرا
ثم اورد رحمه الله تعالى بيان اداب المتوكلين اذا سرق متاعهم الخ **الفن الرابع السعي**
في ازالة الضرر كمداواة المرض وامثاله اعلم ان الاسباب المزيلة للضرر ايضا
تنقسم الى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع والى مظنون
كالفصد والحجامة وشرب المسهل وسائر ابواب الطب اعني معالجة البرودة بالحرارة
ومعالجة الحرارة بالبرودة وهي الاسباب الظاهرة في الطب والى موهوم كالكي والرقية
اما المقطوع به فليس من التوكل تركه بل تركه حرام عند خوف الموت واما الموهوم فشرط
التوكل تركه اذ به وصف رسول الله صلعم المتوكلين واقواها الكي ويليه الرقية والطيرة
اخر درجاتها والاعتماد عليها والاتكال اليها غاية التعمق في ملاحظة الاسباب واما الدرجة
المتوسطة وهي المظنونة كالمداواة بالاسباب الظاهرة عند الاطباء ففعله ليس مناقضا
للتوكل بخلاف الموهوم وتركه ليس محظورا بخلاف المقطوع بل قد يكون افضل من
فعله في بعض الاحوال وفي حق بعض الاشخاص فهي على درجة بين الدرجتين ويدل على
ان التداوي غير مناقض للتوكل فعل رسول الله صلعم وقوله وامره به اما امره فقد
قال صلى الله عليه وسلم ما من داء الا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله الا السام يعني الموت
وقال تداووا عباد الله وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله تعالى شيئا فقال هي
من قدر الله تعالى وفي الخبر المشهور ما مررت بملأ من الملائكة الا قالوا مر امتك
بالحجامة وفي الحديث انه امر بها وقال احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة واحدى وعشرين

لا يتبيغ بكم الدم فيقتلكم فذكر ان تبيغ الدم سبب الموت وانه قاتل باذن الله تعالى
وبين ان اخراج الدم خلاص منه اذ لا فرق بين اخراج الدم المهلك من الاهاب وبين اخراج
العقرب من تحت الثياب واخراج الحية من البيت وليس من شرط التوكل ترك ذلك بل هو كصب
الماء على النار لاطفائها ودفع ضررها عند وقوعها في البيت وليس من التوكل الخروج عن سنة
التوكل اصلا وفي خبر مقطوع من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من
سنة واما امره فقد امر صلى الله عليه وآله غير واحد من الصحابة بالتداوي والحمية وقطع
لسعد بن معاذ عرقا او فصده وكوى سعد بن زرارة وقال لعلي عليه السلم وكان رمد العين
لا تاكل من هذا يعني الرطب وكل من هذا فانه اوفق لك يعني سلقا قد طبخ بدقيق
شعير وقال لصهيب وقد راه ياكل التمر وهو وجع العين اتاكل تمرا وانت رمد فقال
اني اكل بالجانب الاخر فتبسم صلى الله عليه وآله واما فعله فقد روي في حديث من طريق
اهل البيت انه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة وتداوى عليه السلم
غير مرة من العقرب وغيرها وقيل انه كان اذا نزل عليه الوحي صدع راسه فكان يغلفه
بالحنا وما روي في تداويه وامره بذلك خارج عن الحصر وقد صنف في ذلك كتاب
سمي طب النبي صلعم وذكر بعض العلماء في الاسرائيليات ان موسى عم اعتل بعلة فدخل
عليه بنو اسرائيل فعرفوا علته فقالوا له لو تداويت بكذا لبرئت فقال لا اتداوى
حتى يعافيني هو من غير دواء فطالت علته فقالوا له ان دواء هذه العلة معروف مجرب
وانا نتداوى به فنبرا فقال لا اتداوى فاقامت علته فاوحى الله تعالى اليه وعزتي وجلالي
لا ابرئنك حتى تتداوى بما ذكروه لك فقال لهم داووني بما ذكرتم فداووه فبرئ فاوجس
في نفسه من ذلك فاوحى الله تعالى اليه اردت ان تبطل حكمتي بتوكلك علي فمن اودع العقاقير
منافع الاشياء غيري وروي في خبر ان نبيا من الانبياء عليهم السلم شكى علة يجدها فاوحى اليه
تعالى كل البيض وشكى نبي اخر الضعف فاوحى الله اليه كل اللحم باللبن فان فيهما القوة
قيل هو الضعف عن الجماع وقد روي ان قوما شكوا الى نبيهم قبح اولادهم فاوحى الله تعالى
اليه مرهم ان يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فانه يحسن الولد فيفعلون ذلك في الشهر الثالث
والرابع اذ فيه يصور الله تعالى الولد وقد كانوا يطعمون الحبلى السفرجل والنفساء الرطب
فهذا يبين ان مسبب الاسباب اجرى سنته بربط المسببات بالاسباب اظهارا للحكمة

والادوية اسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الاسباب فكما ان الخبز دواء الجوع والماء
دواء العطش والسكنجبين دواء الصفراء والسقمونيا دواء للاسهال لا يفارقه الا في امرين
احدهما ان معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جلي واضح يدركه كافة الناس ومعالجة
الصفراء بالسكنجبين يسكن الصفراء بشروط آخر في الباطن واسباب في المزاج يتعذر
الوقوف على جميع شروطها وربما يفوت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن الاسهال واما
تسكين العطش لا يستدعي سوى الماء شروطا كثيرة وقد يتفق من العوارض ما يوجب دوام
العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلاف الاسباب ابدا يخرج هذين
الفنين والا فالمسبب يتلو السبب لا محالة مهما تم شروط السبب وكل ذلك بتدبير
مسبب الاسباب وتسخيره وترتيبه بحكم حكمته وكمال قدرته فلا يضر المتوكل استعماله مع
النظر الى مسبب الاسباب دون الطبيب والدواء وقد روي عن موسى عليه السلام انه قال
يا رب ممن الداء والدواء قال تعالى مني قال فما يصنع الاطباء قال يأكلون ارزاقهم
ويطيبون نفوس عبادي حتى ياتي شفائي او قضائي فاذن معنى التوكل مع التداوي
التوكل بالعلم والحال كما سبق في فنون الاعمال الدافعة للضرر والجالبة للنفع
فاما ترك التداوي رأسا فليس شرطا فيه فان قلت فالكي ايضا من الاسباب
الظاهرة النفع فاقول ليس كذلك اذ الاسباب الظاهرة مثل الفصد والحجامة
وشرب المسهل وسقي المبردات للمحرور واما الكي فلو كان مثلها في الظهور لما
خلت البلاد الكثيرة عنه وقلما يعتاد الكي في اكثر البلاد وانما ذلك عادة الاتراك
والاعراب بيان ان ترك التداوي قد يحمد في بعض الاحوال ويدل على قوة
التوكل وان ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وآله اعلم ان
الذين تداووا من السلف لا ينحصرون ولكن قد ترك التداوي ايضا جماعة
من الاكابر فربما يظن ان ذلك نقصان لانه لو كان كمالا لتركه رسول الله صلعم
اذ لا يكون حال غيره في التوكل اكمل من حاله وقد روي عن ابي بكر انه قيل له
لو دعونا لك طبيبا فقال الطبيب قد نظر الي فقال اني فعال لما اريد وقيل
لابي الدرداء في مرضه ما تشتكي فقال ذنوبي قيل فما تشتهي قال المغفرة ربي
قالوا الا ندعو لك طبيبا قال الطبيب امرضني وقيل لابي ذر وقد رمدت

عيناه لو داويتهما فقال اني عنهما مشغول فقيل له لو سألت الله ان يعافيك فقال
اسأله فيما هو اهم علي منهما وكان اصاب الربيع بن خثيم فالج فقيل له لو تداويت
فقال قد هممت ثم ذكرت عادا وثمودا وقرونا بين ذلك كثيرا وكان فيهم الاطبا
فهلك المداوي والمداوى ولم يغن الرقى شيئا وقيل لسهل متى يصح للعبد التوكل
قال اذا دخل عليه الضرر في جسمه والنقص في ماله فلم يلتفت اليه شغلا بحاله وينظر
الى قيام الله تعالى عليه فاذن من ترك التداوي فقد راه فيهم كثرة ولا ينقدح وجه
الجمع بين فعل رسول الله صلعم وافعالهم الا بحصر الصوارف عن التداوي فنقول ان
لترك التداوي اسبابا الاول ان يكون المريض من المكاشفين وقد كوشف انه
انتهى اجله وان الدواء لا ينفعه ويكون ذلك معلوما عنده تارة برؤيا صادقة
وتارة بحدس وظن وتارة بكشف محقق ويشبه ان يكون ترك بعضهم التداوي
من هذا السبب الثاني ان يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبته واطلاع
الله تعالى عليه فينسيه ذلك الم المرض فلا يتفرغ قلبه للتداوي شغلا بحاله وعليه
يدل كلام ابي الدرداء اذ كان تالم قلبه خوفا من ذنوبه اكثر من تالم بدنه بالمرض
ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من اعزته او كالخائف الذي يحمل الى ملك
من الملوك ليقتل اذا قيل له الا تأكل وانت جائع فيقول انا مشغول عن الم الجوع
فلا يكون ذلك انكارا لكون الخبز نافعا من الجوع ولا طعنا فيمن اكل ويقرب من
هذا اشتغال سهل حيث قيل له ما القوت قال هو ذكر الحي القيوم فقيل له انما سالناك
عن القوام فقال القوام هو العلم قيل سالناك عن الغذاء قال الغذاء هو الذكر
قيل سالناك عن طعمة الجسد قال مالك وللجسد دع من تولاه اولا يتولاه اخرا
اذا دخل عليه علة فرده الى صانعه اما رايت الصنعة اذا عابت ردوها الى صانعها
حتى يصلحها الثالث ان يكون العلة مزمنة والدواء الذي يؤمر به بالاضافة الى
العلة موهوم النفع جار مجرى الكي والرقية فيتركه المتوكلون واليه يشير قول
الربيع بن خثيم كما مر واراده ان الدواء غير موثوق به وهذا قد يكون كذلك في
نفسه وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته الطب وقلة تجربته له فلا يغلب
على ظنه كونه نافعا ولا شك في ان الطبيب المجرب اشد اعتقادا في الادوية من غيره

فيكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد والاعتقاد بحسب التجربة واكثر من ترك التداوي
من العباد والزهاد وهذا مستندهم لانه لا يبقى لدوآء عندهم شيئا موثوقا به الا اصل
الرقى وذلك صحيح في بعض الادوية عند من عرف صناعة الطب غير صحيح في بعض ولكن
غير الطبيب قد ينظر الى الكل نظرا واحدا فيرى التداوي تعمقا في الاسباب كالكي
والرقى فيتركه كذلك الرابع ان يقصد العبد بترك التداوي استبقاء المرض لينال
ثواب المرض بحسن الصبر على بلآء الله تعالى او ليجرب نفسه في القدرة على الصبر وقد
ورد في ثواب المرض ما يكثر ذكره فقد قال صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الانبيآء
اشد الناس بلآء ثم الامثل فالامثل يبتلى العبد على قدر ايمانه فان كان صلب الايمان
شدد عليه البلآء وان كان ضعيف الايمان خفف عليه البلاء وفي الخبر ان الله تعالى
يجرب عبده بالبلآء كما يجرب احدكم ذهبه بالنار فمنهم من يخرج كالذهب الابريز
ومنهم من يخرج اسود محترقا وفي حديث من طريق اهل البيت ان الله تعالى اذا احب
عبدا ابتلاه فان صبر اجتباه فان رضي اصطفاه وقال صلى الله عليه وسلم اتحبون ان
تكونوا كالحمر الصالة لا تمرضون ولا تسقمون وقال ابن مسعود تجد المؤمن اصح شيء
قلبا وامرضه جسما وتجد المنافق اصح شيء جسما وامرضه قلبا فلما عظم الثناء
على المرض والبلاء احبت قوم المرض واغتنموه لينالوا ثواب الصبر عليه فكان منهم
من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ويقاسي العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويعلم
ان الحق اغلب على قلبه من ان يشغله المرض عنه وانما يمنع المرض جوارحه وعلموا ان
صلوتهم قاعدا مع الصبر على قضآء الله تعالى افضل من الصلوة قائما مع العافية والصحة
ففي الخبر ان الله تعالى يقول للملائكة اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمل فانه في وثاقي
ان اطلقته ابدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه وان توفيته الى رحمتي وقال عم
افضل الاعمال ما اكرهت عليه النفوس فقيل معناه ما دخل عليها من الامراض والمصائب
واليه الاشارة بقوله تعالى وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وكان سهل يقول ترك
التداوي وان ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض افضل من التداوي لاجل الطاعات
وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها وكان يداوي الناس منها وكان اذا راى العبد
يصلي من قعود ولا يستطيع اعمال البر من الامراض فيتداوى للقيام في الصلوة والنهوض

والنهوض الى الطاعة يتعجب من ذلك ويقول صلوته من قعود مع الرضا بحاله افضل
من التداوي للقوة والصلوة قائما وسئل عن شرب الدوآء فقال كل من دخل في شيء
من الدوآء فانما هو سعة من الله تعالى لاهل الضعف ومن لم يدخل في شيء منه فهو افضل
لانه ان اخذ شيئا من الدوآء ولو كان هو الماء البارد سئل عنه لم اخذت ذلك ومن لم
ياخذ فلا سؤال عليه وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر
الشهوات لعلمهم بان ذرة من اعمال القلوب مثل الصبر والرضا والتوكل افضل من امثال
الجبال من اعمال الجوارح والمرض لا يمنع اعمال القلوب الا ان يكون المه غالبا مدهشا
قال سهل علل الاجسام رحمة وعلل القلوب عقوبة ان يكون العبد قد سبق له ذنوب
فهو خائف منها عاجز عن تكفيرها فيرى المرض اذا طال تكفيرا فيترك التداوي خوفا من
ان يسرع زوال المرض ففي الخبر حمى يوم كفارة سنة فقيل لانها تهد قوة سنة وقيل لان الانسان
ثلثمائة وستون مفصلا فيدخل الحمى جميعها ويجد من كل واحد الما فيكون كل الم كفارة
سنة فقيل لانه يهد قوة ستة يوم ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأل
زيد بن ثابت ربه عز وجل ان لا يزال محموما فلم يكن الحمى يفارقه حتى مات رحمه الله
وسال ذلك طائفة من الانصار فكانت الحمى لا تفارقهم ولما قال صلى الله عليه وسلم من اذهب الله كريمتيه
لم يرض له ثوابا دون الجنة قال فلقد كان في الانصار من يتمنى العمى وقال عيسى عليه السلام لا يكون
عالما من لم يفرح بدخول المصائب والامراض على جسده وماله لما يرجو في ذلك من كفارة
خطاياه ويروى ان موسى نظر الى عبد عظيم البلاء فقال يا رب ارحمه فقال كيف ارحمه
الذي هو فيه به ارحمه ان يستشعر العبد من نفسه بادي البطر والطغيان
بطول مدة الصحة فيترك التداوي خوفا من ان يعاجله زوال المرض فيعاوده الغفلة و
الطغيان وطول الامل والتسويف في تدارك الفائت وتاخير الخيرات فان الصحة عبارة
عن قوة الصفات فبها ينبعث الهوى وتتحرك الشهوات وتدعو الى المعاصي واقلها
ان يدعو الى التنعم في المباحات وهو تضييع الاوقات واهمال الربح العظيم في مخالفة
النفس وملازمة الطاعات واذا اراد الله بعبد خيرا لم يخله عن التنبه بالامراض والمصائب
ولذلك قيل لا يخلو المؤمن من علة او قلة او ذلة وقد روي ان الله تعالى يقول الفقر سجني
والمرض قيدي احبس به من احب من خلقي فاذا كان في المرض حبس عن الطغيان وركوب

المعاصي فأي خير فيه ولا ينبغي ان يشتغل بعلاج من يخاف ذلك على نفسه
فالعافية في ترك المعاصي فقد قال بعض العارفين لانسان كيف كنت بعدي قال
في عافية قال ان كنت لم تعص الله فانت في عافية وان كنت قد عصيته فاي داء ادوى
من المعصية ما عوفي من عصى وقال علي عليه السلام لما رأى زينة النبط بالعراق في يوم
عيدهم ما هذا الذي اظهروه قالوا يا امير المؤمنين هذا يوم عيد لهم قال كل يوم
لا نعصي الله فيه فهو لنا عيد وقال تعالى وعصيتم من بعد ما اريكم ما تحبون قيل
العافية فان الانسان ليطغى ان رآه استغنى فكذلك اذا استغنى بالعافية وقال
بعضهم انما قال فرعون انا ربكم الاعلى لطول العافية لانه لبث اربعمائة سنة لم يصدع
له رأس ولم يحم له جسم ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية ولو اخذته الشقيقة
كل يوم لشغلته عن الفضول فضلا عن دعوى الربوبية وقد قال صلى الله عليه وآله
اكثروا من ذكر هادم اللذات وقيل الحمى رائد الموت فهو مذكر به ودافع للتسويف
وقال تعالى اولا يرون انهم يفتنون في كل عام مرة او مرتين ثم لا يتوبون ولا هم
يذكرون قيل يفتنون بالامراض يختبرون بها ويقال ان العبد اذا مرض مرضتين ثم
لم يتب قال ملك الموت يا غافل جاءك مني رسول بعد رسول فلم تجب وقد كان
السلف كذلك يستوحشون اذا خرج عام لم يصابوا فيه بنقص في نفس او مال وقال
لا يخلو المؤمن في كل اربعين يوما ان يروع بروعة او يصاب بنكبة حتى ان
عمار بن ياسر تزوج امراة فلم تكن تمرض فطلقها وان النبي صلعم عرض عليه امراة
فذكر من وصفها حتى هم ان يتزوجها فقيل انها ما مرضت قط فقال لا حاجة لي فيها وذكر
رسول الله صلعم الامراض والاوجاع كالصداع وغيره فقال رجل وما الصداع ما اعرفه
فقال صلى الله عليه وآله اليك عني من اراد ان ينظر الى رجل من اهل النار فلينظر الى
هذا وهذا لما ورد في الخبر ان الحمى حظ المؤمن من نار جهنم وفي حديث انس وعائشة
يا رسول الله هل يكون مع الشهداء غيرهم يوم القيمة فقال نعم من ذكر الموت في كل يوم
عشرين مرة وفي لفظ آخر الذي يذكر ذنوبه فتحزنه ولا شك في ان ذكر الموت على
المريض اغلب فلما كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة في زوالها اذ رأوا
لانفسهم مزيدا فيها لا من حيث رأوا التداوي نقصانا فكيف يكون نقصانا وقد فعله

صلى الله عليه وآله بيان الرد على من قال ان ترك التداوي افضل بكل حال
فلو قال قائل انما فعل صلى الله عليه وآله ذلك ليسن لغيره الا فمن حال الضعفاء ودرجة
الاقوياء توجب التوكل بترك الدواء فيقال ولا ينبغي ان يكون من شرط التوكل ترك
الحجامة والفصد عند تبيغ الدم فان قيل ذلك ايضا شرط فليكن من شرطه اذا لدغته
الحية والعقرب فلا ينحيهما عن نفسه فالدم ملدغ الباطن والعقرب ملدغ الظاهر
فاي فرق بينهما فان قال ذلك ايضا التوكل فيقال ينبغي ان لا يزيل لدغ العطش
بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالجبة وهذا لا قائل به ولا فرق بين هذه
الدرجات فان جميع ذلك اسباب رتبها مسبب الاسباب واجرى بها سنته ويدل
على ان ذلك ليس من شرط التوكل ما روي عن عمر وعن الصحابة في قصة طاعون
فانهم لما قصدوا الشام وانتهوا الى الجابية بلغهم الخبر ان به موتا ذريعا ووباء عظيما
فافترق الناس فرقتين فقال بعضهم انا لا ندخل على الوباء فنلقي بايدينا الى التهلكة
وقالت الطائفة الاخرى بل ندخل ونتوكل ولا نهرب من قدر الله ولا نفر من الموت
فنكون كمن قال الله تعالى الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت فرجعوا
الى عمر فسألوه عن رأيه فقال نرجع ولا ندخل على الوباء فقال له المخالفون في رأيه
انفر من قدر الله فقال عمر نفر من قدر الله الى قدر الله ثم ضرب لهم مثلا وقال ارأيتم
لو كان لاحدكم غنم وله شعبتان احدهما مخصبة والاخرى مجدبة اليس ان رعى المخصبة
رعاها بقدر الله وان رعى المجدبة رعاها بقدر الله فقالوا نعم ثم طلب عبد الرحمن بن
عوف ليسأله عن رأيه فكان غائبا فلما اصبحوا جاء عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك فقال
عندي فيه يا امير المؤمنين شيء سمعته من رسول الله صلعم فقال عمر الله اكبر فقال عبد الرحمن
سمعت رسول الله صلعم يقول اذا سمعتم بالوباء في ارض فلا تقدموا عليه واذا وقع
في ارض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ففرح عمر بذلك وحمد الله اذ وافق رأيه
ورجع بالناس من الجابية فاذن كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من
اعلى المقامات ان كان امثال هذا من شروط التوكل فان قلت فلم نهي عن الخروج من
البلد الذي فيه الوباء ولا سبب للوباء في الطب اظهر من الهواء فاظهر طرق التداوي الفرار
من المضر والهواء هو المضر فلم لم يرخص فيه فاعلم انه لا خلاف في ان الفرار عن المضر

عن نهي عنه اذا الحجامة قريب من الفصد وترك التوكل فيه هذا مباح ومثله لا يدل على المعقول
ولكن الذي ينقدح فيه والعلم عند الله ان الهواء لا يضر من حيث يلاقي ظاهر البدن
بل من حيث دوام الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر الا بعد طول التاثير في
الباطن فالخروج من البلد لا يخلص غالبا من الاثر الذي استحكم من قبل ولكنه يتوهم
الخلاص فيصير هذا من جنس الموهومات كالرقى والطيرة وغيرهما فلو تجرد هذا المعنى
لكان مناقضا للتوكل ولم يكن منهيا عنه ولكن صار منهيا عنه لانه اذا انضاف اليه امر اخر
وهو انه لو رخص للاصحاء في الخروج لما بقي في البلد الا المرضى الذين اقعدهم المرض
والطاعون وانكسرت قلوبهم وفقدوا المتعهدين فلم يبق في البلد من يسقيهم الماء
ويطعمهم الطعام وهم يعجزون عن مباشرة ذلك بانفسهم فيكون ذلك سعيا في اهلاكهم
تحقيقا وخلاصهم منتظر كما ان خلاص الاصحاء منتظر فلو اقاموا لم يكن الاقامة
قاطعا بالموت ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعا بالخلاص وهو قاطع في اهلاك
الباقين والمسلمون كالبنيان يشد بعضه بعضا والمؤمنون كالجسد الواحد اذا
اشتكى منه عضو تداعى اليه سائر اعضائه فهذا هو الذي ينقدح عندنا في تعليل النهي
وينعكس هذا في حق القادم على البلد فانه لم يؤثر الهواء في باطنهم ولا باهل البلد حاجة
اليهم نعم لو لم يبق في البلد الا مطعونون وافتقروا الى المتعهدين فقدم عليهم قوم
فربما كان ينقدح استحباب الدخول ههنا لاجل الاعانة ولا ينهى عن الدخول
لانه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين ولهذا شبه الفرار من
الطاعون في بعض الاخبار بالفرار من الزحف لان فيه كسر القلوب لبقية المسلمين وسعيا
في اهلاكهم فهذه امور دقيقة فمن لا يلاحظها وينظر الى ظواهر الاخبار والاثار
يتناقض عنده اكثر ما يسمعه وغلط الزهاد والعباد في مثل هذا كثير وانما شرف
العلم وفضيلته لاجل ذلك فان قلت ففي ترك التداوي فضل كما ذكرتم فلم لم يترك
رسول الله التداوي لينال الفضل فنقول فيه فضل بالاضافة الى من كثرت ذنوبه
ليكفرها او يخاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات او احتاج الى ما يذكره
الموت لغلبة الغفلة او احتاج الى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن مقامات الراضين
والمتوكلين او قصرت بصيرته عن الاطلاع على ما اودع الله الدواء من لطائف

المنافع في حقه حتى صار في حقه موهوما كالرقى او كان شغله بحاله يمنعه عن التداوي
كما ان التداوي يشغله عن حاله فكل هذه المعاني تحت الصوارف
عن ترك التداوي وكل ذلك كمالات بالاضافة الى بعض الخلق ونقصان بالاضافة
الى درجة اعلى من هذه المقامات كلها اذ كان حاله تقتضي ان يكون مشاهدته
على وتيرة واحدة عند وجود الاسباب وفقدها فانه لم يكن ينظر في الاحوال الا
الى مسبب الاسباب ومن كان هذا مقامه لم تضره الاسباب كما ذكرنا ان الرغبة
في المال نقص والرغبة عن المال كمال وان كان كمالا فهو ايضا نقص بالاضافة
الى من يستوي عنده وجود المال وعدمه فاستواء الذهب والحجر اكمل وكان لا يمسك لتعليم
الخلق مقام الزهد فانه منتهى درجتهم لا لخوفه على نفسه والحجر اكمل من الهرب من الذهب
دون الحجر وكان حاله صلى الله عليه واله استواء المدر والذهب وكان لا يمسك لتعليم
الخلق مقام الزهد فانه منتهى درجتهم لا لخوفه على نفسه من امساكه فانه على رتبة من ان
تغره الدنيا وقد عرضت عليه خزائن الارض فابى ان يقبلها فكذلك يستوي عنده
مباشرة الاسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة وانما لم يترك الاستعمال للدواء جريا
على سنة الله وترخيصا لامته فيما تمس اليه حاجتهم مع انه لا ضرر فيه بخلاف ادخار
الاموال فان ذلك يعظم ضرره نعم التداوي لا يضر الا من حيث رؤية الدواء نافعا
دون خالق الدواء وهذا قد نهي عنه من حيث انه يقصد بالصحة ليستعان
بها على المعاصي وذلك ينهى عنه والمؤمن في غالب الامر لا يقصد ذلك ولا احد
من المؤمنين لا يرى الدواء نافعا بنفسه بل من حيث انه جعله الله سببا للنفع كما لا يرى
الماء مرويا ولا الخبز مشبعا فحكم التداوي في مقصوده حكم الكسب فان اكتسب للتنعم
المباح فله حكمه فقد ظهر بالمعاني التي اوردناها ان ترك التداوي قد يكون
افضل في بعض الاحوال وان التداوي قد يكون افضل في بعض وان ذلك يختلف
باختلاف الاحوال والاشخاص والنيات وان واحدا من الفعل والترك ليس شرطا
في التوكل الا ترك الموهومات كالكي والرقى فان ذلك تعمق في التدبيرات لا يليق
بالمتوكلين

بيان حكم التوكل في اظهار المرض وكتمانه

اعلم ان كتمان المرض واخفاء
الفقر وانواع البلاء من كنوز البر وهو من اعلى المقامات لان الرضا بحكم الله والصبر

على بلائه معاملة بين العبد وبين ربه فكتمانه اسلم عن الافات ومع هذا فالاظهار لا باس
به اذا صحت فيه النية والقصد ومقاصد الاظهار ثلث الاول ان يكون غرضه التداوي
فيحتاج الى ذكره للطبيب فيذكره لا في معرض الشكاية بل في معرض الحكاية وكان احمد
يخبر بامراض يجدها فيقول انما اصف قدرة الله تعالى والثاني ان يصف لغير الطبيب
كان ممن يقتدى به وكان مكينا في المعرفة فاراد من ذكره ان يتعلم منه حسن الصبر في
المرض بل حسن الشكر بان يظهر انه يرى المرض نعمة فيشكر عليها فيتحدث به كما يتحدث بالنعم
وقال الحسن البصري اذا حمد المريض الله وشكره ثم ذكر علله لم يكن ذلك شكوى
والثالث ان يظهر بذلك عجزه وافتقاره الى الله وذلك يحسن ممن يليق به القوة
والشجاعة ويستبعد منه العجز كما روي انه قيل لعلي عليه السلام في مرضه كيف انت قال
بشر فنظر بعضهم الى بعض كانهم كرهوا ذلك وظنوا انه شكاية فقال اتجلد على الله تعالى
فاحب ان يظهر عجزه وافتقاره مع ما عرف به من القوة والصرامة وتادب فيه بادب رسول
الله صلعم اذ مرض علي فسمعه رسول الله صلعم وهو يقول اللهم صبرني على البلاء فقال لقد
سالت الله البلاء فسل الله العافية فبهذه النيات يرخص في ذكر المرض وانما يشترط ذلك لان
ذكره شكاية والشكوى من الله حرام كما ذكرناه في تحريم السؤال عن الفقراء الا لضرورة ويصير
الاظهار شكاية بقرينة السخط واظهار الكراهة لفعل الله تعالى فان خلا عن قرينة
السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بان الاولى تركه
لانه ربما يوهم الشكاية ولانه ربما يكون فيه تصنع ومزيد في الوصف على الموجود من العلة
ومن ترك التداوي توكلا فلا وجه في حقه للاظهار لان الاستراحة الى الدواء احسن
من الاستراحة الى الافشاء وقد قال بعضهم من بث لم يصبر وقيل في معنى قوله تعالى
فصبر جميل لا شكوى فيه وقيل ليعقوب عليه السلام ما الذي اذهب بصرك فقال مر الزمان
وطول الاحزان فاوحى الله تعالى اليه تفرغت لشكوى عبادي فقال يا رب اتوب
اليك وروي عن طاوس ومجاهد انهما قالا يكتب على المريض انينه في مرضه وكانوا
يكرهون انين المريض لانه اظهار معنى يضاهي الشكوى حتى قيل ما اصاب ابليس من ايوب
عليه السلام الا انينه في مرضه فجعل الانين حظه منه وفي الخبر اذا مرض العبد اوحى الله
تعالى الى الملكين انظرا ما يقول لعواده فان حمد الله واثنى عليه بخير دعوا له وان

وان شكى ذكرا شرا قالا كذلك يكون وانما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية
وخوف الزيادة في الكلام فكان بعضهم اذا مرض اغلق بابه فلم يدخل عليه احد حتى
يبرا فيخرج اليهم منهم فضيل بن عياض ووهيب وبشر وكان يقول فضيل اشتهي ان امرض
بلا عواد وقال لا اكره العلة الا لاجل العواد

كتاب المحبة والشوق والرضا والانس وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي نزه قلوب اوليائه
عن الالتفات الى متاع الدنيا ونضرتها وصفى اسرارهم عن ملاحظة غير حضرته ثم استخلصها
للعكوف على بساط عزته ثم تجلى لها باسمائه وصفاته حتى اشرقت بانوار معرفته ثم
كشف لها عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى
تاهت في بيداء كبريائه وعظمته فكلما اهتزت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش
ما عزب به عن العقل وتحيرت وكلما همت بالانصراف عنها ايسة نوديت من سرادقات
الجمال صبرا ايها الايس عن نيل الحق بجهله وعجلته فبقيت بين الرد والقبول والصد
والوصول غرقى في بحر معرفته محترقة بنار محبته والصلوة على محمد خاتم الانبياء بكمال
نبوته وعلى اله واصحابه سادة الخلق وائمته وقادة الحق وازمته وسلم كثيرا اما
بعد فان المحبة لله عز وجل هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من
الدرجات فما بعد ادراك المحبة مقام الا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها
كالشوق والانس والرضا واخواتها ولا قبل المحبة مقام الا وهو مقدمة من مقدماتها
كالتوبة والصبر والزهد وغيرها وسائر المقامات ان عز وجودها فلم تخل القلوب عن
الايمان بامكانها فاما محبة الله عز وجل فقد عز الايمان بها حتى انكر بعض العلماء
امكانها وقال لا معنى لها الا المواظبة على طاعة الله عز وجل واما حقيقة المحبة فمحال
الا مع الجنس والمثل ولما انكروا المحبة انكروا الانس والشوق ولذة المناجاة وسائر
لوازم الحب وتوابعه ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الامر ونحن نذكر في هذا الكتاب
بيان شواهد الشرع في المحبة ثم بيان حقيقتها واسبابها الخ اعلم ان الامة مجمعة على
ان الحب وثمرته فلا بد ان يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من احب فمن شواهد الشرع
في حب الله عز وجل قوله يحبهم ويحبونه وقوله تعالى والذين امنوا اشد حبا لله وهو

دليل على اثبات الحب والتفاوت فيه وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الايمان في
اخبار كثيرة كقوله لا يؤمن احدكم حتى يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما
قال نعم قل ان كان اباؤكم وابناؤكم واخوانكم الى قوله احب اليكم من الله ورسوله الآية وانما اجرى
ذلك في معرض التهديد والانكار وقد امر صلى الله عليه وسلم بالمحبة فقال احبوا الله لما يغذوكم به من نعمه
واحبوني لحب الله اياي ويروى ان رجلا قال يا رسول الله اني احبك فقال استعد للفقر فقال
اني احب الله فقال استعد للبلاء وعن عمر قال نظر النبي صلى الله عليه وسلم الى مصعب بن عمير مقبلا وعليه
اهاب كبش قد تنطق به فقال النبي عليه السلام انظروا الى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه لقد
رايته بين ابويه يغذوانه باطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله الى ما
ترون وفي الخبر المشهور ان ابراهيم عليه السلام قال لملك الموت اذ جاءه لقبض روحه هل رأيت
خليلا يميت خليله فاوحى الله عز وجل اليه هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه فقال يا ملك الموت
الآن فاقبض وهذا لا يجده الا عبد يحب الله عز وجل بكل قلبه فاذا علم ان الموت سبب
اللقاء انزعج قلبه اليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت اليه وقد قال نبينا عليه الصلوة
والسلام في دعائه اللهم ارزقني حبك وحب من احبك وحب ما يقربني الى حبك واجعل حبك
احب الي من الماء البارد وجاء اعرابي الى النبي فقال يا رسول الله متى الساعة فقال ما
اعددت لها فقال ما اعددت لها كثير صلوة ولا صيام الا اني احب الله ورسوله فقال
النبي عليه السلام المرء مع من احب قال انس فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الاسلام فرحهم
بذلك وقال ابو بكر الصديق من ذاق من خالص محبة الله عز وجل شغله ذلك عن طلب الدنيا واوحشه
عن جميع البشر وقال الحسن من عرف ربه احبه ومن عرف الدنيا زهد فيها وابغضها
والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فاذا تفكر حزن وقال ابو سليمان الداراني ان من خلق الله
خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدنيا ويروى
ان عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نحلت ابدانهم وتغيرت الوانهم فقال ما الذي بلغ بكم
ما ارى فقالوا الخوف من النار فقال حق على الله ان يؤمن الخائف ثم جاوزهم الى ثلاثة
اخرى فاذا هم اشد نحولا وتغيرا فقال ما الذي بلغ بكم ما ارى قالوا الشوق الى الجنة
قال حق على الله ان يعطيكم ما ترجون ثم جاوزهم الى ثلاثة اخرى فاذا هم اشد نحولا وتغيرا
كان على وجوههم المرايا من النور فقال ما الذي بلغ بكم ما ارى قالوا نحب الله عز وجل

وجل فقال انتم المقربون وعن سري السقطي انه قال تدعى الامم يوم القيامة بانبيائها فيقال
يا امة عيسى ويا امة موسى ويا امة محمد غير المحبين لله تعالى فانهم ينادى يا اولياء
الله هلموا الى الله سبحانه فتكاد قلوبهم تنخلع فرحا وقال هرم بن حيان المؤمن
اذا عرف ربه عز وجل احبه فاذا احبه اقبل اليه واذا وجد حلاوة الاقبال اليه لم ينظر
الى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر الى الاخرة بعين الفترة وهو يحسره في الدنيا ويروحه
في الاخرة وقال يحيى بن معاذ عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ورضوانه يستغرق
الامال فكيف حبه وحبه يدهش العقول فكيف وده ووده ينسي ما دونه
فكيف لطفه وقد ورد في حب الله تعالى من الاخبار والاثار ما لا يدخل في حصر
وذلك امر ظاهر وانما الغموض في تحقيق معناه فلنشتغل به **بيان حقيقة المحبة
واسبابها وتحقيق محبة العبد لله تعالى** اعلم ان المطلب من هذا الفصل لا ينكشف
الا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها ثم معرفة شروطها واسبابها ثم النظر بعد ذلك
في تحقيق معناها في حق الله عز وجل فاول ما ينبغي ان يتحقق انه لا يتصور محبة الا
بعد معرفة وادراك اذ لا يحب الانسان الا ما يعرفه ولذلك لم يتصور ان يتصف
بالحب جماد بل هو من خاصية الحي المدرك ثم المدركات في انقسامها تنقسم الى ما
يوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه والى ما ينافيه وينافره ويؤلمه والى ما لا يؤثر فيه
بايلام والذاذ فكل ما في ادراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك وما في ادراكه الم
فهو مبغوض عند المدرك وما يخلو عن الم ولذة فلا يوصف بكونه محبوبا ولا مكروها
فاذن كل لذيذ محبوب عند الملتذ به ومعنى كونه محبوبا ان في الطبع ميلا اليه ومعنى
كونه مبغوضا ان في الطبع نفرة عنه فالحب عبارة عن ميل الطبع الى الشيء الملذ فان تاكد
ذلك الميل وقوي سمي عشقا والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب فاذا قوي
سمي مقتا فهذا اصل في حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته الاصل الثاني ان الحب
لما كان تابعا للمعرفة والادراك انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس
فلكل حاسة ادراك لنوع من المدركات ولكل واحدة منها لذة في بعض المدركات
وللطبع بسبب تلك اللذة ميل اليها فكانت عند الطبع السليم فلذة العين في الابصار
وادراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة ولذة الاذن في النغمات الطيبة

ولذة الشم في الروايح الطيبة ولذة الذوق في الطعوم ولذة اللمس في اللين والنعومة ولما
كانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت محبوبة اي كان للطبع السليم ميل اليها حتى
قال صلى الله عليه وسلم حبب الي من دنياكم ثلث الطيب والنسا وجعلت قرة عيني في الصلوة فسمى الطيب
محبوبا ومعلوم انه لا حظ للعين والسمع فيه بل للشم فقط وسمى النسا محبوبا ولا حظ
فيهن الا للبصر واللمس دون الشم والذوق والسمع وسمى الصلوة قرة عين وجعلها ابلغ
المحبوبات ومعلوم انه ليس يحظى بها الحواس الخمس بل حس سادس مظنته القلوب لا يدركه الا
من كان له قلب ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهايم الانسان فان كان الحب مقصورا
على مدركات الحواس الخمس حتى يقال ان الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يتمثل في الخيال فلا يحب فاذن
قد بطل خاصية الانسان وما تميز به عن الحيوانات من الحس السادس الذي يعبر عنه اما بالعقل او بالنور او
بالقلب او بما شئت من العبارات فلا مشاحة فيها وهيهات فالبصيرة الباطنة اقوى من البصر
الظاهر والقلب اشد ادراكا من العين وجمال المعاني المدركة بالعقل اعظم من جمال
الصور الظاهرة للابصار فيكون لا محالة لذة القلوب بما تدركه من الامور الشريفة الالهية
التي تجل عن ان تدركها الحواس اتم وابلغ فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح اليه
اقوى ولا معنى للحب الا الميل الى ما في ادراكه لذة كما سياتي تفصيله فلا ينكر اذن حب الله
الا من قعد به القصور في درجة البهايم فلم يجاوز ادراك الحواس اصلا الاصل الثالث
ان الانسان لا يخفى انه يحب نفسه ولا يخفى انه قد يحب غيره لاجل نفسه وهل يتصور
ان يحب غيره لذاته لا لاجل نفسه هذا مما قد يشكل على الضعفا حتى يظنون انه لا يتصور
ان يحب الانسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظ الى المحب سوى ادراك ذاته والحق ان
ذلك متصور وموجود فلنبين اقسام المحبة واسبابها وبيانه ان المحبوب الاول عند
كل حي نفسه وذاته ومعنى حبه لنفسه ان في طبعه ميلا الى دوام وجوده ونفرة عن
عدمه وهلاكه لان المحبوب بالطبع هو الملايم للمحب واي شي اتم ملايمة من نفسه ودوام
وجوده واي شي اعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه فلذلك يحب الانسان
دوام الوجود ويكره الموت والقتل لا لمجرد ما يخافه بعد الموت ولا لمجرد الحذر من
سكرات الموت بل لو اختطف من غير الم وامتت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به
وكان كارها لذلك ولا يحب الموت والعدم المحض الا لمقاساة الم في الحيوة ومهما كان

كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء فان احب العدم لم يحبه لانه عدم بل لان
فيه زوال البلاء فالهلاك والعدم ممقوت ودوام الوجود محبوب وكما ان
دوام الوجود محبوب فكمال الوجود ايضا محبوب لان الناقص فاقد للكمال والنقص
عدم بالاضافة الى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة اليه والهلاك والعدم
ممقوت في الصفات وكمال الوجود كما انه ممقوت في اصل الذات ووجود صفات
الكمال محبوب كما ان دوام اصل الوجود محبوب وهذه غريزة في الطباع بحكم سنة
الله تعالى ولن تجد لسنة الله تبديلا فاذن المحبوب الاول للانسان ذاته ثم سلامة
اعضائه ثم ماله وولده وعشيرته واصدقاؤه فالاعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة
لان كمال الوجود وكماله وكذا ساير الاسباب فالانسان يحب هذه الاشيا لا لاعيانها
بل لارتباط حظه في دوام الوجود وكماله بها حتى انه ليحب ولده وان كان لا يناله منه
حظ بل يتحمل المشاق لاجله لانه يخلفه في الوجود بعد عدمه فيكون في بقاء نسله
نوع بقاء له فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قايم مقامه وكانه جزء منه لما
عجز عن الطمع في بقاء نفسه ابدا نعم لو خير بين قتله وقتل ولده وكان طبعه
باقيا على اعتداله اثر بقاء نفسه على بقاء ولده لان بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه
وليس هو بقاءه المحقق وكذلك حبه لاقاربه وعشيرته يرجع الى حبه لكمال نفسه فانه
يرى نفسه كثيرا بهم قويا بسببهم متجملا بكمالهم فان العشيرة والمال والاسباب الخارجة
كالجناح المكمل للانسان وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة فاذن المحبوب
الاول عند كل حي ذاته وكمال ذاته ودوام ذلك كله والمكروه عنده ضد ذلك
فهذا هو اول الاسباب السبب الثاني الاحسان فان الانسان عبد الاحسان وقد
جبلت القلوب على حب من احسن اليها وبغض من اساء اليها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
اللهم لا تجعل لفاجر علي يدا فيحبه قلبي اشارة الى ان حب القلب للمحسن اضطرار
لا يستطاع دفعه وهو جبلة وفطرة لا سبيل الى تغييرها وبهذا السبب يحب
الانسان الاجنبي الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة وهذا اذا حقق
رجع الى السبب الاول فان المحسن من امد بالمال والمعونة وساير الاسباب
الموصلة الى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التي بها يتهيا الوجود

الا ان الفرق ان اعضاء الانسان محبوبة لان بها كمال وجوده وهي عين الكمال المطلوب
فاما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببا له كالطبيب الذي يكون
سببا في دوام صحة الاعضاء ففرق بين حب الصحة وحب الطبيب الذي هو سبب الصحة
اذ الصحة مطلوبة لذاتها والطبيب محبوب لا لذاته بل لانه سبب للصحة وكذلك العلم محبوب
والاستاذ محبوب ولكن العلم محبوب لذاته والاستاذ محبوب لا لذاته بل لانه سبب العلم
المحبوب فاذن يرجع الفرق الى تفاوت الرتبة والا فكل واحد يرجع الى محبة الانسان
نفسه فكل من احب المحسن لاحسانه فما احبه تحقيقا بل احب احسانه وهو فعل من افعاله
لو زال زال الحب مع بقاء ذاته ولو نقص نقص الحب ولو زاد زاد ويتطرق اليه الزيادة و
النقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه السبب الثالث ان يحب الشي لذاته لا لحظ ينال
منه وراء ذاته بل يكون ذاته عين حظه وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه
وذلك كحب الجمال والحسن لان كل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال
لان ادراك الجمال فيه عين اللذة واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها ولا تظنن ان حب الصور
الجميلة لا يتصور الا لاجل قضاء الشهوة فان قضاء الشهوة لذة اخرى قد تحب الصور
الجميلة لاجلها وادراك نفس الجمال ايضا لذيذ فيجوز ان يكون محبوبا لذاته وكيف ينكر ذلك
والخضرة والماء الجاري محبوب لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة او ينال منها حظ سوى نفس
الرؤية وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الخضرة والماء الجاري والطباع السليمة قاضية
باستلذاذ النظر الى الانوار والازهار والاطيار المليحة الالوان الحسنة النقش المتناسبة
الشكل حتى ان الانسان لينفرج عنه الغموم بالنظر اليها لا لطلب حظ وراء النظر فهذه الاسباب
ملذة وكل لذيذ محبوب وكل حسن وجمال فلا يخلو ادراكه عن لذة ولا احد ينكر كون
الجمال محبوبا بالطبع فان ثبت ان الله تعالى جميل كان لا محالة محبوبا عند من انكشف له جماله
وجلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى جميل يحب الجمال الاصل الرابع في بيان معنى الحسن والجمال
اعلم ان المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن انه لا معنى للحسن والجمال
الا تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون وكون البياض مشربا بالحمرة وامتداد القامة الى
غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الانسان فان الحسن الاغلب على الخلق حسن الابصار واكثر
التفاتهم الى صور الاشخاص فيظن ان ما ليس مبصرا ولا متخيلا ولا متشكلا ولا متلونا مقدرا

متقدرا فلا يتصور حسنه واذا لم يتصور حسنه لم يكن في ادراكه لذة فلم يكن محبوبا وهذا
خطا ظاهر فان الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ولا على تناسب الخلقة وامتزاج
البياض بالحمرة فانا نقول هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن بل نقول
هذا ثوب حسن وهذا اناء حسن فاي معنى لحسن الصوت والخط وسائر الاشياء ان لم
يكن الحسن الا في الصورة ومعلوم ان العين تستلذ النظر الى الخط الحسن والاذن تستلذ
استماع النغمات الحسنة الطيبة وما من شي من المدركات الا وهي منقسمة الى حسن وقبيح
فما معنى الحسن الذي تشترك فيه هذه الاشياء فلا بد من البحث عنه وهذا بحث يطول
ولا يليق بعلم المعاملة الاطناب فيه فنصرح بالحق ونقول كل شي فجماله وحسنه في ان يحضر
كماله اللائق الممكن له فاذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال وان كان الحاضر
بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر فالفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس
من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كر وفر عليه والخط الحسن كل ما جمع ما يليق
بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ولكل شي
كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده فحسن كل شي في كماله الذي يليق به فلا يحسن الانسان
بما يحسن به الفرس ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت ولا تحسن الاواني بما تحسن به الثياب
وكذلك سائر الاشياء فان قلت فهذه الاسباب وان لم يدرك جميعها بالبصر مثل الاصوات
والطعوم فانها لا تنفك عن ادراك الحواس لها فهي محسوسات وليس ينكر الحسن والجمال
للمحسوسات ولا ينكر حصول اللذة بادراك حسنها وانما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس
فاعلم ان الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات اذ يقال هذا خلق حسن وهذا علم حسن
وهذه سيرة حسنة وهذه اخلاق جميلة وانما الاخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل
والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروة وسائر خلال الخير وشي من هذه الصفات
لا يدرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة
والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته وآية ان الامر كذلك ان الطباع
مجبولة على حب الانبياء صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة رضي الله عنهم مع انهم لم يشاهدوا بل
حب ارباب المذاهب حتى ان الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حد العشق فيحمله
ذلك على ان ينفق جميع امواله في نصرة مذهبه والذب عنه ويخاطر بروحه في قتال من يطعن

في ما مهدوه وشيدوه فكم من دم اريق في نصرة ارباب المذاهب وليت شعري من يحب الشافعي
مثلا فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته فاستحسانه الذي
حمله على افراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة فان صورته الظاهرة قد انقلبت
ترابا وانما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والاحاطة بمدارك
الدين وانتهاضه لافادة علم الشرع ولنشره هذه الخيرات في العالم وهذه امور جميلة
لا يدرك جمالها الا بنور البصيرة فاما الحواس فقاصرة عنها وكذلك من جملتها ادراك وتلك
الصفات ترجع جملتها الى العلم والقدرة اذ علم حقائق الامور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر
شهواته فجميع خلال الخير يتشعب عن هذين الوصفين وهما غير مدركين بالحس ومحلهما من
جملة البدن جزء لا يتجزى فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء الذي لا يتجزى صورة وشكل
ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوبا لاجله فاذن الجمال موجود في السير ولو صدرت السيرة الجميلة
وهي الاخلاق الحميدة والفضائل الشريفة وترجع جملتها الى كمال العلم والقدرة وهو
محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس حتى ان الصبي المخلى وطبعه اذا اردنا ان نحببه الى
غائبا او حاضرا حيا كان او ميتا لم يكن لنا سبيل الا بالاطناب في وصفه بالشجاعة والكرم
والعلم وسائر الخصال الحميدة فاذا اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه ولم يقدر ان لا يحبه فهل
غلب حب الصحابة وبغض ابي جهل وبغض ابليس لعنه الله الا بالاطناب في وصف المحاسن والمقابح
التي لا تدرك بالحواس بل لما وصف الناس حاتما بالسخاء ووصفوا خالدا بالشجاعة احبتهم
القلوب حبا ضروريا وليس ذلك عن نظر الى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم بل
اذا حكي من سيرة بعض الملوك في بعض اقطار الارض العدل والاحسان وافاضة الخير غلب
حبه على القلوب مع الياس من انتشار احسانه الى المحبين لبعد المزار ونأي الدار فاذن
ليس حب الانسان مقصورا على من احسن اليه بل المحسن في نفسه محبوب وان كان لا ينتهي
قط احسانه الى المحب لان كل جمال وحسن فهو محبوب والصورة ظاهرة وباطنة والحسن
والجمال يشملهما وتدرك الصورة الظاهرة بالبصر الظاهر والصورة الباطنة بالبصيرة الباطنة
فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل اليها ومن كانت البصيرة الباطنة اغلب عليه
من الحواس الظاهرة كان حبه للمعاني الباطنة اكثر من حبه للمعاني الظاهرة فشتان
بين من يحب نقشا مصورا على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الانبياء

الانبياء لجمال صورته الباطنة السبب الخامس المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب اذ رب
شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال وحظ ولكن بمجرد تناسب الارواح كما قال صلعم
فما تعارف منها ائتلف وقد حققنا ذلك في كتاب اداب الصحبة عند ذكر الحب في الله تعالى
فاذن يرجع اقسام الحب الى خمسة وهو حب الانسان وجود نفسه وكماله وبقاءه وحبه من
احسن اليه بما يرجع الى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه وحبه من
من كان محسنا في نفسه الى الناس وان لم يكن محسنا اليه وحبه لكل ما هو جميل في ذاته سواء
كان من الصور الظاهرة او الباطنة وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن فلو
اجتمعت هذه الاسباب في شخص واحد تضاعف الحب لا محالة كما لو كان للانسان ولد
جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن الى الخلق ومحسن الى الوالد كان
محبوبا لا محالة غاية الحب ويكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخصال
في نفسها فان كانت هذه الصفات في اقصى درجات الكمال كان الحب لا محالة في اعلى
الدرجات فلنبين الآن ان هذه الاسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها الا في حق الله
تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة الا الله سبحانه وتعالى ثم قال رحمه الله بعد ذكر الاسباب
الاربع الاولى واما السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة اذ شبه الشيء ينجذب
اليه والشكل اميل الى الشكل ولذلك ترى الصبي يألف الصبي والكبير يألف الكبير ويألف الطير نوعه وينفر
من غير نوعه وانس العالم بالعالم اكثر منه بالمحترف وانس النجار بالنجار
اكثر من انسه بالفلاح وهذا امر تشهد به التجربة وتشهد له الاخبار والآثار كما استقصيناه
في باب الاخوة في الله من كتاب اداب الصحبة فليطلب منه واذا كانت المناسبة سبب
التحاب فالمناسبة قد تكون في معنى ظاهر كمناسبة الصبي مع الصبي وقد تكون خفيا
حتى لا يطلع عليه كما ترى من الاتحاد الذي يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال او
طمع في مال وغيره كما اشار اليه صلعم اذ قال الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف
وما تناكر منها اختلف والتعارف هو التناسب والتناكر هو التباين وهذا السبب
ايضا يقتضي حب الله لمناسبة باطنة لا ترجع الى المشابهة في الصور والاشكال بل الى
معان باطنة بعضها يجوز ان يذكر في الكتب وبعضها لا يجوز ان يسطر بل يترك تحت غطاء الغيرة
حتى يعثر عليه السالكون للطريق اذا استكملوا شرط السلوك فالذي يذكر هو قرب العبد

من الله عز وجل في الصفات التي امرنا بالاقتداء والتخلق باخلاق الربوبية حتى قيل
تخلقوا باخلاق الله وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي الصفات الالهية من
العلم والبر والاحسان واللطف وافاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وارشادهم
الى الحق ومنعهم من الباطل الى غير ذلك من مكارم الشريعة فكل ذلك يقرب الى الله عز
وجل لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات واما ما لا يجوز ان يسطر في الكتب من المناسبة
الخاصة التي اختص بها الآدمي فهي التي يومي اليها قوله تعالى ويسألونك عن الروح قل
الروح من امر ربي فصل في بيان ان اجل اللذات واعلاها معرفة الله تعالى والنظر الى
وجهه الكريم ولا يتصور ان يؤثر عليها لذة اخرى الا من حرم هذه اللذة اعلم
ان اللذات تابعة للادراكات والانسان جامع لجملة من القوى والغرائز ولكل قوة
وغريزة لذة ولذتها في نيلها مقتضى طبعها التي خلقت له فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام فلا جرم
لذتها في الغلبة والانتقام الذي هو مقتضى طبعها وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت
لتحصيل الغذاء الذي هو القوام فلا جرم لذتها في نيل الغذاء الذي هو مقتضى طبعها
وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الابصار والاستماع فلا يخلو غريزة من هذه
الغرائز عن الم ولذة بالاضافة الى مدركاتها وكذلك في القلب غريزة تسمى النور
الالهي لقوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وقد
تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الايمان واليقين ولا معنى بالاشتغال بالاسامي
فان الاصطلاحات مختلفة والضعيف يظن ان الاختلاف واقع في المعاني لان
الضعيف يطلب المعاني من الالفاظ وهو عكس الواجب فالقلب مفارق لسائر
اجزاء البدن بصفة بها يدرك المعاني التي ليست متخيلة ولا محسوسة كادراك
خلق العالم وافتقاره الى خالق مدبر حكيم موصوف بالصفات الالهية ولنسم تلك
الغريزة عقلا بشرط ان لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة
فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية والا فالصفة التي بها فارق
الانسان البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى اعز الصفات فلا ينبغي ان يذم وهذه
الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الامور كلها فمقتضى طبعها المعرفة والعلم وهي لذتها
كما ان مقتضى الطبع سائر الغرائز هي لذتها فليس يخفى ان في العلم والمعرفة لذة حتى ان

الذي ينسب الى العلم ولو في شيء خسيس يفرح به والذي ينسب الى الجهل ولو في شيء
حقير يغتم به وحتى ان الانسان لا يكاد يصبر عن التحدي بالعلم والتمدح به في الاشياء
الحقيرة فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لا يطيق السكوت عن التعليم وينطلق لسانه
بذكر ما يعلمه وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعر عنده سماع الثناء كمال ذاته
وجمال علمه فيبتهج بنفسه ويلتذ به ثم ليس لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم
من كمال ذاته فان العلم من اخص صفات الربوبية وهو منتهى الكمال ولذلك يرتاح
الطبع اذا اثني عليه بالذكاء وغزارة العلم لانه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته
وجمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذ به ثم ليس لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله
تعالى وصفاته وملائكته وملكوت السموات والارض بل لذة العلم بقدر شرف
العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم حتى ان الذي يعرف بواطن احوال الناس
ويخبر بذلك يجد لذة وان جهله تقاضاه طبعه ان يتفحص عنه فان علم بواطن احوال
رئيس البلد واسرار تدبيره في رياسته كان ذلك الذ عنده واطيب من علمه بباطن
حال فلاح او حائك وكذا من بهذا يتبين ان الذ المعارف اشرفها وشرفها بحسب
شرف المعلوم فان كان في المعلومات ما هو الاجل والاكمل والاعظم فالعلم به الذ
العلوم لا محالة واشرفها واطيبها وليت شعري هل في الوجود شيء اجل واعلى واشرف
واكمل من خالق الاشياء كلها ومكملها ومرتبها ومبديها ومعيدها ومدبرها وهل
يتصور ان يكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال اعظم من
الحضرة الربانية التي لا يحيط بمبادي جلالها وعجائب احوالها وصف الواصفين فان
كنت لا تشك في ذلك فلا ينبغي ان تشك في ان الاطلاع على اسرار الربوبية والعلم
بترتيب الامور الالهية المحيطة بكل الموجودات هو اعلى انواع المعارف والاطلاعات
والذها واطيبها واشهاها واحرى ما تتشوق النفوس اليه عند الاتصاف بكمالها وجلالها واحرى
ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار وبهذا يتبين ان العلم لذيذ وان الذ العلوم
العلم بالله تعالى وصفاته وافعاله وتدبيره في مملكته من منتهى عرشه الى تخوم الارضين
ان ينبغي ان يعلم ان لذة المعرفة اقوى من سائر اللذات اعني لذة الشهوة والغضب ولذة
سائر الحواس الخمس فان اللذات مختلفة بالضعف والقوة كلذة الغذاء بشبق المغتلم

من الجماع بالاضافة الى لذة الفاقد للشهوة وكذا لذة النظر الى الوجه الجميل البالغ في الجمال
ما دونه في الجمال وانما يعرف اقوى اللذات بان يكون مؤثرة على غيرها فان المخير بين النظر
الى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة اذا اختار النظر الى
المليح علم بان الصورة الجميلة عنده الذ من الروائح الطيبة وكذلك اذا حضر الطعام وقت
الاكل واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الاكل فيعلم به ان لذة الغلبة في الشطرنج
اقوى عنده من لذة الاكل فهذا معيار صادق في الكشف عن ترجيح اللذات فنعود ونقول
اللذات تنقسم الى ظاهرة كلذات الحواس الخمس والى باطنة كلذة الرياسة والغلبة والكرامة
وغيرها اذ ليست هذه اللذات للعين ولا للانف ولا للاذن ولا للمس ولا للذوق واللذات
الباطنة اغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة فلو خير الرجل بين لذة الهريسة والدجاج
السمين واللوزينج وبين لذة الرياسة وقهر الاعداء ونيل درجة الاستيلاء فان كان
المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد البهيمية اختار الهريسة والحلاوة وان كان علي
الهمة كامل العقل اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت اياما
كثيرة فاختياره للرياسة يدل على انها الذ عنده من الهريسة والمطعومات نعم الناقص الذي
لم يكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي والذي ماتت قواه الباطنة كالمعتوه لا يبعد ان
يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة وكما ان لذة الرياسة والكرامة اغلب اللذات
على من جاوز نقصان الصبي والعته فلذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال الحضرة الربوبية
والنظر الى اسرار الامور الالهية الذ من الرياسة التي هي اعلى اللذات الغالبة على
الخلق وغاية العبارة عنها ان يقال فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة اعين وانه اعد
لهم ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا الان لا يعرفه الا من ذاق
اللذتين جميعا فانه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر وينغمس في بحار المعرفة
ويترك الرياسة ويستحقر الخلق الذين يرأسهم لعلمه بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته
وكونه مشوبا بالكدورات التي لا يتصور الخلو منها وكونه مقطوعا بالموت الذي لا بد
من اتيانه مهما اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها اتاها
امرنا الاية فيستعظم بالاضافة اليه لذة معرفة الله تعالى ومطالعة صفاته وافعاله ونظام
مملكته من اعلى عليين الى اسفل السافلين فانها خالية عن المزاحمات والمكدرات متسعة

للمتواردين عليها لا يضيق عنهم كثرتهم وانما عرضها من حيث التقدير السموات والارض
واذا خرج النظر عن المقدرات فلا نهاية لعرضها فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات
والارض يرتع في رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع في حياضها وهو آمن من انقطاعها اذ ثمار
هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة ثم هي ابدية سرمدية لا يقطعها الموت اذ الموت لا يهدم محل
معرفة الله تعالى ومحلها الروح الذي هو امر رباني سماوي وانما الموت يغير احوالها ويقطع
شواغلها وعوائقها ويخليها من حبسها فاما ان يعدمها فلا ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل
الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين بما اتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين
لم يلحقوا بهم من خلفهم الاية ولا تظنن ان هذا مخصوص بالمقتول في المعركة فان للعارف بكل نفس
درجة الف شهيد وفي الخبر ان الشهيد يتمنى في الاخرة ان يرد الى الدنيا ليقتل مرة اخرى لعظم
ما يراه من ثواب الشهادة وان الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء فاذن
جميع اقطار ملكوت السموات والارض ميدان العارف يتبوأ منها حيث يشاء من غير ان يتحرك
فيها بجسمه وشخصه فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والارض وكل عارف فله
مثلها من غير ان يضيق بعضهم على بعض اصلا الا انهم يتفاوتون في سعة متنزهاتهم بقدر تفاوتهم
في اتساع نظرهم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله تعالى ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم
فقد بان ان لذة الرياسة وهي باطنة اقوى في ذوي الكمال من لذات الحواس كلها وان هذه اللذة لا
تكون للبهيمة ولا للصبي ولا للمعتوه وان لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوي الكمال مع لذة
الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة فاما لذة معرفة الله تعالى ومطالعة صفاته وافعاله وملكوت سمواته
واسرار ملكه اعظم لذة من الرياسة وهذه لذة يختص بمعرفتها من نال رتبة المعرفة وذاقها ولا يمكن اثبات
ذلك عند من لا قلب له لان القلب معدن هذه القوة كما انه لا يمكن اثبات رجحان لذة الوقاع على
لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين لانه فقد الصفة
التي بها يدرك هذه اللذة ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه ادرك التفاوت بين
اللذتين وبعد هذا فلا يبقى الا ان يقال من ذاق عرف ولعمري طلاب العلوم وان لم يشتغلوا
بطلب معرفة الامور الالهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال
الشبهات التي قوي حرصهم على طلبها فانها ايضا معارف وعلوم وان كانت معلوماتها غير شريفة
شرف المعلومات الالهية فاما من طال فكره في معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من اسرار ملك الله ولو

الشيء اليسير فانه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ويتعجب من نفسه
في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره وهذا ما لا يدرك الا بالذوق والحكاية فيه قليلة الجدوى
فهذا احد منبهات على ان معرفة الله سبحانه الذ الاشياء وانه لا لذة فوقها ولهذا قال ابو سليمان الداراني
ان لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف يشغلهم الدنيا عن الله وفي
اخبار عيسى عليه السلام اذا رايت الفتى مشغوفا بطلب الرب تعالى فقد الهاه ذلك عما سواه ورأى بعض
الشيوخ بشر بن الحارث في النوم فقال ما فعل ابو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق فقال تركتهما
الساعة بين يدي الله يأكلان ويشربان قلت فانت قال علم الله قلة رغبتي في الاكل والشرب
فاعطاني النظر اليه وعن علي بن الموفق قال رأيت في النوم كأني ادخلت الجنة فرأيت رجلا قاعدا
على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل ورأيت رجلا قائما على باب
الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضا ويرد بعضا قال ثم جاوزتهما الى حظيرة القدس فرأيت
في سرادق العرش رجلا قد شخص ببصره ينظر الى الله تعالى لا يطرف فقلت لرضوان من هذا فقال
معروف الكرخي عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا الى جنته بل حبا له فاباحه الله النظر اليه الى يوم القيامة
ولذلك قال ابو سليمان من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ومن كان اليوم
مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه وقال الثوري لرابعة ما حقيقة ايمانك قالت ما عبدته خوفا
من ناره ولا حبا لجنته فاكون كالاجير السوء بل عبدته حبا له وشوقا اليه وقالت في معنى المحبة
احبك حبين حب الهوى * وحبا لانك اهل لذاكا * فاما الذي هو حب الهوى * فشغلي بذكرك
عمن سواكا * واما الذي انت اهل له * فكشفك لي الحجب حتى اراكا * فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي
ولكن لك الحمد في ذا وذاكا * ولعلها ارادت بحب الهوى حب الله لاحسانه اليها وانعامه
عليها بحظوظ العاجلة وبحبها لما هو اهل له الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها وهو اعلى الحبين
واقواهما ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها عليه السلام حيث قال حاكيا عن ربه تعالى اعددت
لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقد يتعجل بعض هذه
اللذات في الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه الى الغاية ولذلك قال بعضهم اني اقول يا رب يا الله فاجد
ذلك اثقل على قلبي من الجبال لان النداء يكون من وراء حجاب وهل رأيت جليسا ينادي جليسه
فمقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط فهي قرة العين التي لا تعلم نفس ما اخفي لهم منها واذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات

والشهوات كلها وصار القلب مستغرقا بنعيمها فلو القي في النار لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض
عليه نعيم الجنة لم يلتفت اليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية وليت شعري من لا
يفهم الا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر الى وجه الله تعالى وما له صورة ولا شكل
واي معنى لوعد الله تعالى به عباده وذكره انه اعظم النعم بل من عرف الله عرف ان اللذات
المقرونة بالشهوات المختلفة كلها منطوية تحت هذه اللذة كما قال بعضهم كانت لقلبي اهواء
مفرقة * فاستجمعت اذ رأتك العين اهوائي * فصار يحسدني من كنت احسده * وصرت
مولى الورى اذ صرت مولائي * تركت للناس دنياهم ودينهم * شغلا بذكرك يا ديني
ودنيائي * ولذلك قال بعضهم * وهجره اعظم من ناره * ووصله اطيب من جنته * وما
ارادوا بها الا ايثار لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الاكل والشرب والنكاح
فان الجنة معدن تمتع الحواس فاما القلب فلذته في لقاء الله تعالى فقط و
مثال اطوار الخلق في لذاتهم ما نذكره وهو ان الصبي في اول حركته وتمييزه يظهر فيه
غريزة بها يستلذ اللعب واللهو حتى يكون ذلك عنده الذ من سائر الاشياء ثم يظهر
بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها اللعب ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول
اليها ثم يظهر لذة الرياسة والعلو والتكاثر وهي آخر لذات الدنيا واعلاها واقواها كما قال تعالى
اعلموا انما الحيوة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر الاية ثم بعد هذا يظهر غريزة اخرى
يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة افعاله فيستحقر معها جميع ما قبلها فكل متأخر
فهو اقوى وهذا هو الاخير اذ يظهر حب اللعب في سن التمييز وحب النساء والزينة
في سن البلوغ وحب الرياسة بعد العشرين وحب العلوم بقرب الاربعين و
هي الغاية العليا وكما ان الصبي يضحك على من يترك اللعب ويشتغل بملاعبة النساء
وطلب الرياسة فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى
والعارفون يقولون ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون

بيان السبب في زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا

اعلم ان المدركات تنقسم الى ما يدخل في الخيال كالصور المتخيلة والاجسام المتلونة المتشكلة واشخاص
الحيوان والنبات والى ما لا يدخل في الخيال كذات الله سبحانه وكل ما ليس بجسم كالعلم

والقدرة والارادة وغيرها ومن راى انسانا ثم غض بصره وجد صورته حاضرة
في خياله كانه ينظر اليها ولكن اذا فتح العين وابصر ادرك تفرقة بينهما ولا ترجع
الى اختلاف بين الصورتين لان الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيلة وانما الافتراق
بينهما بمزيد الوضوح والكشف فان صورة المرئي صارت بالرؤية اتم انكشافا ووضوحا وهو
كشخص يرى في وقت الاسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم رآه بعد تمام الضوء فانه
لا يفارق احدى الحالتين الاخرى الا في مزيد الانكشاف فاذن الخيال اول الادراك
والرؤية هو الاستكمال لادراك الخيال وهو غاية الكشف وسمي ذلك رؤية لانه غاية
الكشف لا لانه في العين بل لو خلق الله هذا الادراك الكامل المكشوف في الجبهة او الصدر
لاستحق ان يسمى رؤية واذا فهمت هذا في المتخيلات فاعلم ان المعلومات التي
لا تتشكل في الخيال ايضا لمعرفتها وادراكها درجتان احدهما اولى والثاني استكمال لها
وبين الثاني والاولى من التفاوت في مزيد الكشف والايضاح ما بين المتخيل والمرئي
فيسمى الثاني ايضا بالاضافة الى الاول مشاهدة ولقاء ورؤية وهذه التسمية حق
لان الرؤية سميت رؤية لانها غاية الكشف وكما ان سنة الله تعالى جارية بان تطبيق
الاجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجابا بين البصر والمرئي ولا بد من ارتفاع
الحجاب لحصول الرؤية وما لم يرتفع كان الادراك الحاصل مجرد التخيل فكذلك مقتضى سنة
الله ان النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وما غلب عليها من
الصفات البشرية فانها لا تنتهي الى المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال
بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الاجفان عن رؤية الابصار والقول في سبب كونها
حجابا ما يطول ولا يليق بهذا العلم ولذلك قال تعالى لموسى لن تراني وقال تعالى لا تدركه
الابصار والقول اي في الدنيا والصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم ما راى الله عز وجل ليلة
المعراج فاذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا غير منفكة
عنها بالكلية وان كانت متفاوتة فمنها ما تراكم عليها الخبث والصدى فصار كالمراة التي
فسد بطول تراكم الخبث جوهرها فلا يقبل الاصلاح والتصقيل فهؤلاء هم المحجوبون
عن ربهم ابد الآباد نعوذ بالله منه ومنها ما لم ينته الى حد الرين والطبع ولم يخرج عن
قبول التزكية والتصقيل فيعرض على النار عرضا يقمع منها الخبث الذي هو متدنس

متدنس به ويكون العرض على النار بقدر الحاجة الى التزكية واقلها لحظة خفيفة واقصاها
في حق المؤمنين كما ورد به الاخبار سبعة آلاف سنة ولم يتخل نفس عن هذا العالم في الغالب الا
ومعها غبرة وكدورة ما ولذلك قال تعالى وان منكم الا واردها كان على ربك
حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا فكل نفس مستيقنة للورود على
النار وغير مستيقنة للصدور عنها فاذا اكمل الله عز وجل تطهيرها وتزكيتها وبلغ الكتاب
اجله ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من العرض والحساب وغيره وكان الاستحقاق
الجنة وذلك وقت لم يطلع الله عليه احدا من خلقه فانه واقع بعد القيامة ووقت القيامة
مجهول فعند ذلك مستعد بصفاء ونقاء عن الكدورات حيث لا يرهق وجهه غبرة ولا قتر
ويتجلى فيه الحق سبحانه وتعالى فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالاضافة الى ما علمه كانكشاف
تجلي المرئيات بالاضافة الى ما تخيله وهذه المشاهدة والتجلي هي التي تسمى رؤية فاذن الرؤية
حق بشرط ان لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في المتخيل متصور مخصوص بجهة ومكان فان
ذلك مما يتعالى عنه رب الارباب علوا كبيرا بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير
تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة فتراه في الآخرة كذلك بل اقول المعرفة الحاصلة في
الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة ولا يكون بين
المشاهدة في الآخرة والمعلوم في الدنيا اختلاف الا من حيث زيادة الكشف والوضوح كما ضربنا
المثال في استكمال الخيال بالرؤية فاذا لم يكن في معرفة الله تعالى اثبات صورة وجهة فلا يكون
في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها في الوضوح الى الغاية الكشف ايضا جهة وصورة لانها
هي بعينها لا تفترق الا في زيادة الكشف كما ان الصورة المرئية هي المتخيلة بعينها الا في زيادة الكشف
واليه الاشارة بقوله تعالى نورهم يسعى بين ايديهم وبايمانهم يقولون ربنا اتمم لنا نورنا اذ
تمام النور لا يؤثر الا في زيادة الكشف ولهذا لا يفوز بدرجة الرؤية والنظر الا العارفون في
الدنيا لان المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة كما ينقلب النواة شجرة والبذر
زرعا ومن لا نواة له فكيف يحصل له نخل ومن لم يزرع البذر كيف يحصد الزرع ومن لم
يعرف الله عز وجل في الدنيا فكيف يراه في الآخرة ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة
كان التجلي ايضا على درجات متفاوتة فاختلاف التجلي بالاضافة الى اختلاف المعارف
كاختلاف النبات بالاضافة الى اختلاف البذر اذ يختلف لا محالة بكثرتها وقلتها وحسنها

وقوتها وضعفها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل يتجلى للناس
عامة ولابي بكر خاصة فلا ينبغي ان يظن ان غيره ممن هو دونه يجد من لذة النظر و
المشاهدة ما يجده وكما انك ترى في الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على المنكوح والمطعوم
ومن يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والارض وسائر
الامور الالهية على الرياسة والمنكوح والمشروب جميعا فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون
لذة النظر الى وجه الله تعالى على نعيم الجنة اذ يرجع نعيمها الى المنكوح والمطعوم وهؤلاء بعينهم
هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفناه من ايثار لذة المعرفة والعلم والاطلاع على اسرار الربوبية
على المنكوح والمشروب وسائر الخلق مشغولون به ولذلك لما قيل لرابعة ما تقولين في الجنة
فقالت الجار ثم الدار فبينت انه ليس في قلبها التفات الى الجنة بل الى رب الجنة فكل من لم يعرف
الله عز وجل في الدنيا فلا يراه في الآخرة وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة
النظر في الآخرة اذ ليس يستأنف لاحد في الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا فلا يحصد احد الا ما زرع
ولا يحشر المرء الا على ما مات عليه ولا يموت الا على ما عاش عليه فما صحبه من المعرفة هو الذي
يتنعم بها فقط الا انها تنقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة بها كما تتضاعف لذة
العاشق اذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فان ذلك هو منتهى لذته وانما طيبة
الجنة ان لكل واحد فيها ما يشتهي فمن لا يشتهي الا لقاء الله عز وجل فلا لذة له في غيره بل ربما يتأذى
به فان نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله بقدر معرفته فاصل السعادات هي المعرفة
التي عبر الشرع عنها بالايمان فان قلت فلذة الرؤية ان كانت لها نسبة الى لذة المعرفة فهي
قليلة وان كان اضعافها لان لذة المعرفة في الدنيا ضعيفة فتضاعفها الى حد قريب لا ينتهي في
القوة الى ان يستحقر بحضرته سائر لذات الجنة فاعلم ان هذا الاستحقار للذة المعرفة صدر من
الخلو عن المعرفة فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها وان انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه
مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها فللعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم
لله عز وجل لذات لو عرضت عليهم الجنة في الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ثم هذه
اللذة مع كمالها لا نسبة لها اصلا الى لذة اللقاء والمشاهدة كما لا نسبة للذة خيال المعشوق
الى رؤيته ولا للذة استنشاق روائح الاطعمة الشهية الى ذوقها ولا للذة اللمس باليد الى لذة
الوقاع واظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن الا بضرب مثال فنقول لذة النظر الى وجه المعشوق

في الدنيا تتفاوت باسباب احدها كمال جمال المعشوق ونقصانه فان اللذة في النظر الى
الاجمل الاكمل لا محالة والثاني كمال قوة الحب والشهوة والعشق فليس من اشتد عشقه كالتذاذ
من ضعفت شهوته وحبه والثالث كمال الادراك فليس التذاذه برؤية المعشوق في ظلمة او من وراء
ستر رقيق او من بعد كالتذاذه بادراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضوء ولا ادراك اللذة
المضاجعة مع ثوب حائل كادراكها مع التجرد والرابع اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة
للقلب فليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر الى المعشوق كالتذاذ الخائف المذعور او المريض
المتألم او المشغول قلبه بمهم من المهمات فليقدر عاشقا ضعيف العشق ينظر الى وجه معشوقه
من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته في حال اجتمع عليه عقارب وزنابير
تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه فهو في هذه الحالة لا يخلو من لذة ما من مشاهدة معشوقه فلو طرأت
على الحالة حالة انهتك بها الستر واشرق بها الضوء واندفع عنه المؤذيات وبقي سليما فارغا وهجمت
عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ اقصى الغايات فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى
للاولى اليها نسبة ضعيفة فكذلك فافهم لذة النظر الى لذة المعرفة فالستر الرقيق مثال للبدن و
الاشتغال به والعقارب والزنابير مثال للشهوات المسلطة على الانسان من الجوع والعطش
والغضب والغم والحزن وضعف الشهوة والحب مثال لقصور النفس في الدنيا ونقصانها عن الشوق
الى الملأ الاعلى والتفاتها الى اسفل السافلين وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياسة والتفاته
الى اللعب بالعصفور والعارف وان قويت في الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوشات ولا يتصور ان
تخلو عنها البتة نعم قد تضعف هذه العوائق في بعض الاحوال ولا تدوم فلا جرم يلوح من جمال المعرفة
ما يدهش العقل ويعظم لذته بحيث يكاد القلب ينفطر لعظمته ولكن ذلك كالبرق الخاطف وقلما
يدوم بل يدوم فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يدهش العقل ويعظم لذته بحيث يكاد القلب
يعرض من الشواغل والافكار والخواطر ما يشوشه وينغصه وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة
الفانية فلا تزال هذه اللذة منغصة الى الموت وانما الحياة الطيبة بعد الموت وانما العيش عيش الآخرة
فان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون فكل من انتهى الى هذه الرتبة فانه يحب لقاء الله عز
وجل فيحب الموت ولا يكرهه الا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة فان المعرفة كالبذر وبحر المعرفة
لا ساحل له والاحاطة بكنه جلال الله تعالى محال فكلما كثرت المعرفة بالله عز وجل وصفاته وافعاله
واسرار مملكته وقويت كثر النعيم في الآخرة وعظم كما انه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن

ولا يمكن تحصيل هذا البذر الا في الدنيا ولا زرع الا في صعيد القلب ولا حصاد الا في الاخرة فلذلك
قال النبي صلى الله عليه وسلم افضل السعادات طول العمر في طاعة الله عز وجل لان المعرفة
انما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الذكر والمواظبة على المجاهدة والانقطاع عن
علايق الدنيا والتجرد للطلب ويستدعي ذلك زمانا لا محالة فمن احب الموت احبه لانه
راى نفسه واقفا في المعرفة بالغا الى منتهى ما تيسر له ومن كره الموت كرهه لانه كان يؤمل مزيد
معرفة تحصل له بطول العمر وراى نفسه مقصرا عما يحتمله قوته لو عمر فهذا سبب كراهة الموت و
حبه عند اهل المعرفة واما ساير الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدنيا ان اتسعت احبوا
البقاء وان ضاقت تمنوا الموت وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة فالجهل و
الغفلة مغرس كل شقاوة والعلم والمعرفة اساس كل سعادة فقد عرفت بما ذكرناه معنى
المحبة ومعنى العشق فانه المحبة المفرطة القوية ومعنى لذة المعرفة ومعنى الرؤية ومعنى لذة
الرؤية ومعنى كونها الذ من ساير اللذات عند ذوي الكمال وان لم يكن كذلك عند ذوي النقصان
كما لم يكن الرياسة الذ من المطعوم عند الصبيان فان قلت فهذه الرؤية محلها العين او القلب في
الاخرة فاعلم ان الناس اختلفوا فيه وان ارباب البصاير لا يلتفتون الى ذلك ولا ينظرون
فيه بل العاقل ياكل البقل ولا يسال عن المبقلة ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقه عن ان
يلتفت الى ان رؤيته تخلق في عينه او في جبهته بل يقصد الرؤية ولذتها سواء في العين او غيرها فان
العين محل وظرف لا نظر اليه ولا حكم له والحق ان القدرة الازلية واسعة فلا نحكم عليها بالقصور
عن احد الامرين

بيان الاسباب المقوية لحب الله عز وجل

اعلم ان اسعد الخلق حالا
في الاخرة اقواهم حبا لله فان الاخرة معناها القدوم على الله عز وجل ودرك سعادة لقائه
وما اعظم نعيم المحب اذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكن من دوام مشاهدته ابد الاباد
من غير منغص ومكدر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف وانقطاع الا ان هذا النعيم على
قدر قوة الحب فكلما ازداد الحب ازدادت اللذة وانما يكتسب العبد حب الله عز وجل في الدنيا
واصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لانه لا ينفك عن اصل المعرفة واما قوة الحب واستيلاؤه حتى
ينتهي الى الاستهتار الذي يسمى عشقا فذلك ينفك عنه الاكثرون وانما يحصل ذلك بسببين
احدهما قطع علايق الدنيا واخراج حب غير الله من القلب فان القلب مثل الاناء الذي لا
يسع الخل مثلا ما لم يخرج منه الماء وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وكمال الحب في ان يحب الله

عز وجل بكل قلبه وما دام يلتفت الى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره فبقدر
ما يشتغل بغير الله تعالى ينقص منه حب الله وبقدر ما يبقى من الماء في الاناء ينقص من الخل
المصبوب فيه والى هذا التفريد والتجريد الاشارة بقوله تعالى قل الله ثم ذرهم وبقوله
ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا بل هو معنى قولك لا اله الا الله اي لا معبود ولا
محبوب سواه فكل محبوب فانه معبود فان العبد هو المقيد والمعبود هو المقيد به
وكل محب فهو مقيد بما يحبه ولذلك قال تعالى ارايت من اتخذ الهه هواه وقال عليه السلام ابغض
معبود في الارض الهوى ولذلك قال عليه السلام من قال لا اله الا الله مخلصا دخل الجنة ومعنى
الاخلاص ان يخلص قلبه لله عز وجل فلا يبقى فيه شرك لغير الله فيكون الله محبوب قلبه
ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لانها مانعة له من مشاهدة
محبوبه وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب فما حال من ليس له الا محبوب واحد
وقد طال اليه شوقه وتمادى عنه حبسه فخلي من السجن ومكن من المحبوب وروح بالامن
ابد الاباد فاول الاسباب لضعف حب الله في القلوب قوة حب الدنيا ومنه حب الاهل و
المال والولد والاقارب والعقار والدواب والبساتين والمنتزهات حتى ان المتفرج
بطيب اصوات الطيور وروح نسيم الاسحار ملتفت الى نعيم الدنيا ومتعرض لنقصان حب
الله تعالى فبقدر ما انس بالدنيا ينقص انسه بالله ولا يؤتى احد شيا من الدنيا الا وينقص
بقدره من الاخرة بالضرورة كما انه لا يقرب الانسان من المشرق الا ويبعد بالضرورة من
المغرب بقدره ولا يطيب قلب امراة الا ويضيق به قلب ضرتها فالدنيا والاخرة ضرتان
وهما كالمشرق والمغرب وقد انكشف لذوي القلوب انكشافا اوضح من الابصار بالعين وسبيل قلع
حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والانقياد اليهما بزمام الخوف
والرجا فما ذكرناه من المقامات كالتوبة والزهد والخوف والرجا هي مقدمات ليكتسب
بها احد ركني المحبة وهو تخلية القلب عن غير الله واوله الايمان بالله واليوم الاخر والجنة
والنار ثم يتشعب منه الخوف والرجا ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما ثم ينجر ذلك
الى الزهد في الدنيا وفي المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميعها طهارة القلب عن
غير الله فقط حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله عز وجل وحبه فيه فكل ذلك مقدمات
تطهير القلب وهو احد ركني المحبة واليه الاشارة بقوله عليه السلام الطهور شطر الايمان كما ذكرنا

في اول كتاب الطهارة الشطر الثاني لقوة المحبة وهو معرفة الله تعالى وانتشارها واستيلاؤها
على القلب وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها فيجري مجرى وضع
البذر في الارض بعد تطهيرها من الحشيش وهو الشطر الثاني ثم يتولد من هذا البذر شجرة
المحبة والمعرفة وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلا حيث قال كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها
ثابت وفرعها في السماء واليها الاشارة بقوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب اي المعرفة
والعمل الصالح يرفعه فالعمل الصالح كالحمال لها وكالخادم وانما العمل الصالح كله في تطهير القلب
اولا من الدنيا ثم في ادامة طهارته فلا يراد العمل الا لهذه المعرفة واما العلم بكيفية العمل فيراد
للعمل فالعلم هو الاول وهو الاخر وانما الاول علم المعاملة وغرضه العمل وغرض المعاملة
صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه جلية الحق ويتزين بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة ومهما
حصلت هذه المعرفة تبعها المحبة بالضرورة كما ان من كان معتدل المزاج اذا ابصر الجميل وادركه
بالعين الظاهرة احبه ومال اليه ومهما احبه حصلت اللذة فاللذة تتبع المحبة بالضرورة والمحبة تتبع
المعرفة بالضرورة ولا يوصل الى هذه المعرفة الا بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب بالفكر
الصافي والذكر الدائم والجد البالغ في الطلب والنظر المستمر في الله وفي صفاته وفي ملكوت سماواته
وساير مخلوقاته والواصلون الى هذه الرتبة ينقسمون الى الاقوياء ويكون اول معرفتهم بالله
تعالى ثم به يعرفون غيره والى الضعفاء ويكون اول معرفتهم بالافعال ثم يترقون منها الى الفاعل
والى الاول الاشارة بقوله تعالى او لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد وبقوله شهد الله انه
لا اله الا هو ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بم عرفت ربك فقال عرفت ربي بربي ولولا ربي
ما عرفت ربي والى الثاني الاشارة بقوله سنريهم اياتنا في الافاق وفي انفسهم وبقوله اولم
ينظروا في ملكوت السموات والارض وبقوله انظروا ماذا في السموات والارض وبقوله
الذي خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من
فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر وهذا الطريق هو الاسهل على الاكثرين وهو
الاوسع على السالكين واليه اكثر دعوة القران عند الامر بالتدبر والتفكر والاعتبار و
النظر في ايات خارجة عن الحصر فان قلت كلا الطريقين مشكل فاوضح منها ما يتوصل به الى
تحصيل المعرفة والتوصل بها الى المحبة فاعلم ان الطريق الاعلى وهو الاستشهاد بالحق سبحانه على
ساير الخلق فهو غامض والكلام فيه خارج عن حد فهم اكثر الخلق فلا فائدة في ايراده في الكتب

في الكتب واما الطريق الاسهل الادنى فاكثره غير خارج عن حد الافهام وانما قصرت
الافهام عنها لاعراضها عن التدبر واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس فلما يتسع
ذكر هذا لانه غير محصور وانقسامها الى ما يجري خارج عن الحصر فانها جزء ما من ذرة من اعلى
السموات الى تخوم الارضين الا وفيها عجايب وايات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته
ومنتهى جلاله وعظمته وذلك مما لا يتناهى بل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان
تنفد كلمات ربي فالخوض فيها انما هو خوض في بحار علوم المكاشفة فلا يمكن ان يتطفل به على علم
المعاملة ولكن يمكن الرمز الى مثال واحد وهو على الايجاز ليقع التنبيه به فنقول اسهل
الطريقين النظر الى الافعال فلنتكلم فيها ولنترك الاعلى ثم الافعال الالهية كثيرة فلنطلب اقلها
واحقرها واصغرها ولننظر في عجايبها فاقل المخلوقات هو الارض وما عليها اعني بالاضافة
الى الملائكة وملكوت السموات فانك ان نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على
ما يرى من صغر حجمها مثل الارض مائة ونيفا وستين مرة فانظر الى الارض بالاضافة اليها ثم
انظر الى صغر الشمس بالاضافة الى فلكها الذي هي مركوزة فيه فانه لا نسبة لها اليه وهي في السماء
الرابعة وهي صغيرة بالاضافة الى ما فوقها من السموات ثم السموات السبع في الكرسي كحلقة في فلاة
والكرسي في العرش كذلك فهذا نظر الى ظاهر الاشخاص من حيث المقادير وما احقر الارض
كلها بالاضافة اليها بل ما اصغر الارض بالاضافة الى البحار فقد قال صلى الله عليه وسلم الارض في البحر كا
لاصطبل في الارض ومصداق ذلك عرف بالمشاهدة والتجربة وعلم ان المكشوف من الارض
عن الماء كجزيرة صغيرة بالاضافة الى كل الارض ثم انظر الى الادمي المخلوق من التراب الذي
هو جزء من الارض والى ساير الحيوانات والى صغره بالاضافة الى الارض ودع عنك جميع
ذلك فاصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجري مجراه فانظر في البعوض على
صغر قدره وتامله بعقل حاضر وفكر صاف وانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذي
هو اعظم الحيوانات اذ خلق له خرطوما مثل خرطومه وخلق له على شكله الصغير ساير الاعضاء كما
خلقه للفيل بزيادة جناحين وانظر كيف قسم اعضاءه الظاهرة فانبت جناحيه واخرج يديه
ورجليه وشق سمعه وبصره ودبر من اعضائه الغذاء والاتها ودبر في ساير الحيوانات و
ركب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ما ركب في الحيوانات
هذا في شكله وصفاته ثم انظر الى هدايته كيف هداه الله الى غذائه وعرفه ان غذاءه دم الانسان

ثم كيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس وكيف هداه إلى مسام بشرة الإنسان
حتى يضع خرطومه في واحد منها ثم كيف قواه حتى يغرز فيه الخرطوم وكيف علمه المص و
التجرع للدم وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوفا حتى يجري فيه الدم الرقيق وينتهي إلى
باطنه وينتشر في سائر أجزائه ويغذيه ثم كيف عرفه أن الإنسان يقصده بيده فعلمه حيلة
الهرب واستعداد الفرار وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعد بعيدة
فيترك المص ويهرب ثم إذا سكنت اليد يعود ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يبصر مواضع
غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه وانظر إلى حدقة كل حيوان صغير لما لم يحتمل الأجفان لصغره
وكانت الأجفان مصقلة المرآة الحدقة من الغبار خلق للبعوض والذباب يدين فتنظر إلى
الذباب تراه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه وأما الإنسان والحيوان الكبير فخلق لحدقتيه
الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافها حادة فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة
ويرميها إلى أطراف الأهداب وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين وتعين على
الإبصار وتحسن صورة العين وتشبكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء شباك
الأهداب واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار وأما البعوض فخلق لها
حدقتين مصقلتين من غير أجفان وعلمها كيفية التصقيل باليدين ولأجل ضعف أبصارها تراه
يتهافت على السراج لأن بصرها ضعيف فهي تطلب ضوء النهار فإذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل
ظن أنه في بيت مظلم وأن السراج كوة في البيت المظلم إلى الموضع المضيء فلا يزال يطلب الضوء
ويرمي بنفسه إلى الكوة فإذا جاوزها ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على
السداد فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق فلعلك تظن أن هذا لنقصانها وجهلها
واعلم أن جهل الإنسان أعظم من جهلها بل صورة الآدمي في الإكباب على شهوات الدنيا صورة
الفراش في التهافت على النار إذ يلوح للآدمي أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا
يدري أن تحتها السم القاتل فلا يزال يرمي نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ويتقيد بها ويهلك
هلاكا مؤبدا فليت كان جهل الآدمي كجهل الفراش فإنها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت
تخلصت في الحال والآدمي يبقى في النار أبد الآباد أو مدة مديدة ولذلك كان ينادي رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم ويقول إنكم تتهافتون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم
فهو لمعة من عجائب صنع الله عز وجل في أصغر الحيوانات وفيها من العجائب ما لو اجتمع الأولون

الأولون والآخرون على الإحاطة بكنهها عجزوا عن حقيقتها ولم يطلعوا على أمور جلية من
ظاهر صورتها فأما خفايا معانيها فلا يطلع عليها إلا الله تعالى ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة
وعجائب يخصها لا يشاركها فيها غيرها فانظر إلى النحل وعجائبه فكيف أوحى الله عز وجل إليه حتى
اتخذت من الجبال بيوتا وكيف يخرج من لعابها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضياء
والآخر شفاء ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار واحترازها عن النجاسات
والأقذار وطاعتها لواحد من جملتها هو أكبرها شخصا وهو أميرها ثم ما سخر الله تعالى لأميرها من العدل
والإنصاف بينها حتى إنه ليقتل على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة لقضيت منها
العجب إن كنت بصيرا في نفسك وفارغا من هم بطنك وفرجك وشهوات نفسك ومعاداة
أقرانك وموالاة إخوانك ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الأشكال المسدس
فلا تبني بيتها مستديرا ولا مربعا ولا مخمسا بل مسدسا لخاصية في الشكل المسدس يقصر فهم
المهندسين عن دركها وهو أن أوسع الأشكال وأحواها المستديرة وما يقرب منها فإن
المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا
فيبقى فارغة ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فإن الأشكال المستديرة
إذا اجتمعت لم تجتمع متراصة ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير
ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس فهذه خاصية هذا الشكل فانظر
كيف ألهم الله عز وجل النحل على صغر جرمه لطفا به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتهنأ
عيشه فيها فما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات
الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسماوات فإن القدر الذي بلغه فهمنا
القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه ولا نسبة لما أحاط به علمنا إلى ما أحاط به علم العلماء و
ولا نسبة لما أحاط به الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله عز وجل بعلمه بل كل ما عرفه الخلق لا يستحق
أن يسمى علما في جنب علم الله تعالى فبالنظر في هذا وأمثاله يزداد المعرفة الحاصلة بالطريق السهل
وبزيادة المعرفة تزداد المحبة فإن كنت طالبا سعادة لقاء الله تعالى فانبذ الدنيا وراء ظهرك
واستغرق العمر في الذكر الدائم والفكر الملازم فعساك تحظى منها بقدر يسير ولكن تنال بذلك
القدر اليسير ملكا عظيما لا آخر له **بيان السبب في تفاوت الناس في الحب** **اعلم** أن المؤمنين
يشتركون في الحب لاشتراكهم في أصل الإيمان ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة وفي حب

الدنيا والآخرة انما يتفاوت لتفاوت اسبابها واكثر الناس ليس لهم من الله تعالى الا
الصفات والاسماء التي قرعت سمعهم فتلقفوها وحفظوها وربما تخيلوا معاني يتعالى
عنها رب الارباب وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسدا بل امنوا بها ايمان
تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث وهؤلاء هم اهل السلامة من اصحاب اليمين و
المتخيلون هم الضالون والعارفون بالحقايق هم المقربون وقد ذكر الله عز وجل الاصناف الثلاثة في
قوله فاما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم الايات واذا كنت لا تفهم الامور الا
بالامثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثالا فنقول من راى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف
به فضل احبه لا محالة ومال اليه قلبه فان راى تصنيفا آخر احسن منه واعجب تضاعف
لا محالة حبه لانه تضاعفت معرفته بعلمه وكذلك يعتقد الرجل في الشاعر انه حسن الشعر فيحبه
فاذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعته ازداد له حبا وكذا سائر الصناعات
والفضائل فالعامي قد يسمع ان فلانا مصنف وانه حسن التصنيف ولكن لا يدري ما في التصنيف
فيكون له معرفة مجملة ويكون له بحسبه ميل مجمل والبصير اذا فتش عن التصانيف واطلع على ما فيها من
العجايب تضاعف حبه لا محالة لان عجايب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال الصفات
الفاعل والمصنف والعالم بجملته صنع الله وتصنيفه والعامي يعلم ذلك ويعتقده واما البصير فانه
يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيها حتى يرى في البعوض مثلا من عجايب صنعه ما ينبهر به عقله ويتحير
فيه لبه ويزداد بسببه لا محالة عظمة الله تعالى وجلاله وكمال صفاته في قلبه فيزداد له حبا وكلما ازداد على
اعاجيب صنع الله اطلاعا استدل به على عظمة الصانع وجلاله وازداد به معرفة وله حبا وبحر
هذه المعرفة اعني معرفة عجايب صنع الله لا ساحل له فلا جرم تفاوت اهل المعرفة في الحب لا حصر
له ومما يتفاوت بسببه الحب ايضا اختلاف الاسباب الخمسة التي ذكرناها للحب فان من يحب الله
مثلا لكونه محسنا اليه ومنعما عليه ولم يحبه لذاته ضعفت محبته اذ تتغير بتغير الاحسان فلا يكون
حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والنعماء واما من يحبه لذاته ولانه مستحق الحب بسبب كماله
وجماله ومجده وعظمته فانه لا يتفاوت حبه بتفاوت الاحسان اليه فهذا وامثاله هو سبب تفاوت
الناس في المحبة والتفاوت في المحبة هو سبب التفاوت في سعادة الآخرة ولذلك قال تعالى
وللآخرة اكبر درجات واكبر تفضيلا ثم ذكر رحمه الله بعد بيان معنى الشوق الى الله تعالى
بيان السبب في قصور افهام الخلق عن معرفته تعالى تحقيقات شريفة ثم قال وفي اخبار داود

عليه السلام ان الله عز وجل قال يا داود ابلغ اهل ارضي اني حبيب لمن احبني وجليس لمن جالسني
ومؤنس لمن انس بذكري وصاحب لمن صاحبني ومختار لمن اختارني ومطيع لمن اطاعني ما احبني
عبد اعلم ذلك يقينا من قلبه الا قبلته لنفسي واحببته حبا لا يتقدمه احد من خلقي من طلبني بالحق وجدني
ومن طلب غيري لم يجدني فارفضوا يا اهل الارض ما انتم عليه من غرورها وهلموا الى
كرامتي ومصاحبتي ومجالستي وآنسوا بي اؤانسكم واسارع الى محبتكم فاني خلقت طينة احبائي
من طينة ابراهيم خليلي وموسى نجيي ومحمد صفيي وخلقت قلوب المشتاقين من نوري ونعمتها بجلالي
وروي عن بعض السلف ان الله عز وجل اوحى الى بعض الصديقين ان لي عبادا من عبادي يحبوني
واحبهم ويشتاقون الي واشتاق اليهم ويذكروني واذكرهم وينظرون الي وانظر اليهم فان حذوت
طريقهم احببتك وان عدلت عنهم مقتك قال يا رب وما علامتهم قال يراعون الظلال
بالنهار كما يراعي الراعي الشفيق غنمه ويحنون الى غروب الشمس كما تحن الطير الى اوكارها عند
الغروب فاذا جنهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الاسرة وخلا كل حبيب
بحبيبه نصبوا الي اقدامهم وافترشوا لي وجوههم وناجوني بكلامي وتملقوني بانعامي فبين صارخ
وباك وبين متأوه وشاك وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد بعيني ما يتحملون من اجلي
وبسمعي ما يشتكون من حبي اول ما اعطيهم ثلث اقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما
اخبر عنهم والثانية لو كانت السموات والارض وما فيها في موازينهم لاستقللتها لهم والثالثة
اقبل بوجهي عليهم فترى من اقبلت بوجهي عليه يعلم احد ما اريد ان اعطيه وفي اخبار داود
ان الله عز وجل اوحى اليه يا داود الى كم تذكر الجنة ولا تسالني الشوق الي قال يا رب من المشتاقون
اليك قال ان المشتاقين الذين صفيتهم من كل كدر ونبهتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم الي خرقا
ينظرون الي واني لاحمل قلوبهم بيدي فاضعها على سمائي ثم ادعو نجباء ملائكتي فاذا اجتمعوا
سجدوا لي فاقول اني لم ادعكم لتسجدوا لي ولكني دعوتكم لاعرض عليكم قلوب المشتاقين الي وابا هي بكم
اهل الشوق الي وان قلوبهم لتضيء في سمائي لملائكتي كما تضيء الشمس لاهل الارض يا داود اني
خلقت قلوب المشتاقين من رضواني ونعمتها بنور وجهي فاتخذتهم لنفسي محدثين وجعلت ابدانهم
موضع نظري الى الارض وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به الي يزدادون في كل يوم شوقا قال داود
ارني اهل محبتك فقال يا داود ائت جبل لبنان فان فيه اربعة عشر نفسا فيهم شبان وفيهم
كهول وفيهم مشايخ فاذا اتيتهم فاقرئهم مني السلام وقل لهم ان ربكم يقرئكم السلام ويقول الا

سئلوني حاجة فانكم احبائي واصفيائي واوليائي افرح لفرحكم واسارع الى محبتكم فانا لهم ما ودد فحجبهم عنده عين من العيون يتفكر من في عظمة الله ثم قال انظروا الى داود يهيئ بنفسه نحوه عند فقال يا داود ان رسول الله اليكم جئتكم لابلغكم رسالة ربكم فاقبلوا نحوه والقوا اسماعهم نحوه قوله واطرقوا ابصارهم الى الارض فقال داود ان رسول الله اليكم يقريكم السلام ويقول لكم الا تسئلوني حاجة الا تنادوني فاسمع صوتكم وكلامكم فانكم احبائي واصفيائي واوليائي انا افرح لفرحكم واسارع الى محبتكم وانظر اليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة قال فجرت الدموع على خدودهم فقال شيخهم سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك وقال الاخر سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاعنا على الدعا وقالت الاخرى الا لاحاجة لنا في شي من امورنا فادم لنا لزوم الطريق اليك واتمم بذلك المنة علينا قال نحن مقصرون في طلب رضاك فاعنا عليه بجودك وقال الاخر من نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكر في عظمتك افيجتري على الكلام من هو مستغل بعظمتك متفكر في جلالك وطلبتنا الدنو من نورك وقال الاخر كلت السنتنا من دعائك لعظم شانك وقربك من اوليائك وكثرة منتك على اهل محبتك وقال الاخر انت هديت قلوبنا لذكرك وفرغتنا للاشتغال بك فاغفر لنا تقصيرنا في شكرك وقال الاخر قد عرفت حاجتنا انما هي النظر الى وجهك وقال الاخر كيف تجترئ العبد على سيده واذا امرتنا بالدعا بجودك فهب لنا نورا نهتدي به في الظلمات بين اطباق السموات وقال الاخر ندعوك ان تقبل علينا وتديم علينا وقال الاخر نسئلك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا وقال الاخر لا حاجة لنا في شي من خلقك فامنن علينا بالنظر الى جمال وجهك وقال الاخر اسئلك من بينهم ان تعمي عيني عن النظر الى الدنيا واهلها وقلبي عن الاشتغال بالاخرة وقال الاخر قد عرفنا تباركت وتعاليت انك تحب اولياءك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شي دونك فاوحى الله تعالى الى داود قل لهم قد سمعت كلامكم واجبتكم الى ما احببتم فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سربا فاني كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا الى نوري وجلالي فقال داود يا رب بم نالوا منك هذا قال بحسن الظن والكف عن الدنيا واهلها والخلوات بي ومناجاتهم لي وان هذا منزل لا يناله الا من رفض الدنيا واهلها ولم يشتغل بشي من ذكرها وفرغ قلبه لي واختارني على جميع خلقي فعند ذلك اعطف عليهم فافرغ نفسه لهم واكشف الحجاب فيما

فيما بيني وبينه حتى ينظر الى نظر الناظر بعينيه الى الشي واريه كرامتي في كل ساعة واقربه من نور وجهي ان مرض مرضته كما تمرض الوالدة ولدها وان عطش اروته واذيقه طعم ذكري فاذا فعلت ذلك به يا داود عميت نفسه عن الدنيا واهلها لم احببها اليه لا يفتر عن الاشتغال بي يستعجلني بالقدوم وانا اكره ان اميته لانه موضع نظري من خلقي لا يرى غيري ولا ارى غيره فلو رايته يا داود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه وتهشمت اعضاؤه وانخلع قلبه اذا سمع بذكري اباهي به ملائكتي واهل سمواتي ترى زاد خوفا وعبادة وعزتي وجلالي يا داود لاقعدنه في الفردوس ولاشفين صدره من النظر الي حتى يرضى وفوق الرضا واوحى الله تعالى الى داود يا داود لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي الى ترك معاصيهم لماتوا شوقا الي وتقطعت اوصالهم من محبتي يا داود هذه ارادتي في المدبرين عني فكيف ارادتي في المقبلين علي يا داود احوج ما يكون العبد الي اذا استغنى عني وارحم ما اكون لعبدي اذا ادبر عني واجل ما يكون عبدي اذا رجع الي فهذه الاخبار ونظائرها مما لا يحصى تدل على اثبات المحبة والشوق والانس واما تحقيق معناها فينكشف بما سبق ثم ذكر رحمه الله بعد بيان معنى محبة الله تعالى علامات محبة العبد لله تعالى فمن جملتها حب لقاء الحبيب فذكر به ذلك ويبين لكراهة الموت احدهما حب الدنيا والتاسف على فراق الاهل والولد قال رحمه الله وهذا مناف لكمال حب الله تعالى واما السبب الثاني للكراهة ان يكون العبد في ابتداء مقام المحبة فليس يكره الموت وانما يكره عجلته قبل ان يستعد للقاء الله تعالى فذلك لا يدل على ضعف الحب وهو كالمحب الذي وصل اليه الخبر بقدوم حبيبه عليه فاحب ان يتاخر قدومه ساعة ليهيئ له داره ويهيئ اسبابها ليلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال الحب اصلا وعلامته الجد في العمل واستغراق الهم في الاستعداد ومنها ان يكون مؤثرا ما احبه الله عز وجل على ما يحبه في ظاهره وباطنه فيجتنب اتباع الشهوات ويعرض عن دعة الكسل فلا يزال مواظبا على طاعة الله تعالى ومتقربا اليه بالنوافل وطالبا عنده مزيد الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب في قلب محبوبه وقد وصف الله تعالى المحبين بانهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على انفسهم

ومن بقي مستمرا على متابعة الهوى فمحبوبه ما يهواه بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه
كما قيل اريد وصاله ويريد هجري ٭ فاترك ما اريد لما يريد بل الحب اذا غلب قمع الهوى
فلم يبق له تنعم بغير المحبوب كما روي ان زليخا لما آمنت وتزوج بها يوسف انفردت عنه
وتخلت للعبادة وانقطعت الى الله تع وكان يدعوها الى فراشه نهارا فتدفعه الى الليل واذا دعاها
ليلا سوفت الى النهار وقالت يا يوسف انما كنت احبك قبل ان اعرفه فاما اذ عرفته
فلا ابقت محبته محبة لسواه وما اريد به بدلا حتى قال لها ان الله جل ذكره امرني بذلك
واخبرني انه مخرج منك ولدين وجاعلهما نبيين فقالت اما اذا كان الله تع امرك
بذلك وجعلني طريقا اليه فطاعة لامر الله فعند ذلك سكنت اليه فاذن من احب الله لا
يعصيه ولذلك قال ابن المبارك تعصي الاله وانت تظهر حبه ٭ هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لاطعته ٭ ان المحب لمن يحب مطيع ٭ وقال سهل علامة الحب ايثاره
على نفسه وليس كل من عمل بطاعة الله صار حبيبا وانما الحبيب من اجتنب المناهي وهو
كما قال لان محبته لله تع سبب محبة الله له كما قال تع يحبهم ويحبونه واذا احبه الله تع تولاه
ونصره على اعدائه وانما عدوه نفسه وشهواته فلا يخذله الله تع ولا يكله الى هواه وشهواته
ولذلك قال تع والله اعلم باعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا فان قلت فالعصيان هل
ينافي اصل المحبة فاقول لا انه يضاد كمالها ولا يضاد اصلها فكم من انسان يحب نفسه وهو
مريض ويحب الصحة فياكل ما يضره مع العلم بانه يضره وذلك لا يدل على عدم حبه لنفسه ولكن المعرفة
قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة ويدل عليه ما روي ان نعيمان كان
يؤتى به رسول الله صلعم في كل قليل فيحده في معصية يرتكبها الى ان اتي به يوما فحده فلعنه رجل
وقال ما اكثر ما يؤتى به رسول الله فقال عليه السلام لا تلعنه فانه يحب الله ورسوله فلم يخرجه بالمعصية
عن المحبة نعم تخرجه المعصية عن كمال الحب وقد قال بعض العارفين اذا كان الايمان في ظاهر
القلب احب الله تع حبا متوسطا فاذا دخل سويداء القلب احبه الحب البالغ وترك المعاصي
وعلى الجملة في دعوى المحبة خطر ولذلك قال الفضيل اذا قيل لك اتحب الله فاسكت فانك
ان قلت لا كفرت وان قلت نعم فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت ولقد قال
بعض العلماء ليس في الجنة نعيم اعلى من نعيم اهل المعرفة والمحبة ولا في جهنم عذاب اشد من عذاب
من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشيء من ذلك ومنها ان يكون مستهترا بذكر الله تع

لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه فمن احب شيئا اكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به فعلامة
حب الله تع حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه وحب رسوله عليه السلام وحب كل ما
ينسب اليه فان كل من يحب انسانا يحب كلب محلته فالمحبة اذا قويت تعدت من المحبوب الى
كل ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق باسبابه وذلك ليس شركة في الحب فان من احب
رسول المحبوب لانه رسوله وكلامه لانه كلامه فلم يجاوز حبه الى غيره بل هو دليل كمال حبه ومن
غلب حب الله على قلبه احب جميع خلق الله لانهم خلقه فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله
الصالحين وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب آداب الاخوة والصحبة ولذلك قال قل ان كنتم تحبون الله
فاتبعوني يحببكم الله وقال النبي صلعم احبوا الله لما يغذوكم به من نعمه واحبوني لله تع وقال سهل علامة
حب الله حب القرآن وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبي صلعم وعلامة حب النبي صلعم حب
السنة وعلامة حب السنة حب الآخرة وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا وعلامة بغض الدنيا
ان لا ياخذ منها الا زادا وبلغة الى الآخرة ومنها ان يكون انسه بالخلوة ومناجاة الله تع
وتلاوة كتابه فيواظب على التهجد ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق واقل
درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته فمن كان النوم والاشتغال بالحديث
الذ عنده واطيب من مناجاة الله تع كيف تصح محبته وقيل لابراهيم بن ادهم وقد نزل من الجبل
من اين اقبلت فقال من الانس بالله وفي اخبار داود عليه السلام لا تانس الى احد من خلقي فاني انما
اقطع عني رجلين رجلا استبطأ ثوابي فانقطع ورجلا نسيني فرضي بحاله وعلامة ذلك
ان اكله الى نفسه وان ادعه في الدنيا حيران ومهما انس بغير الله كان بقدر انسه بغير الله مستوحشا
من الله ساقطا من درجة محبته وفي قصة برخ وهو العبد الاسود الذي استسقى به موسى عليه السلام
ان الله عز وجل قال لموسى ان برخا نعم العبد هو الا ان فيه عيبا قال يا رب وما عيبه قال
يعجبه نسيم الاسحار فيسكن اليه ومن احبني لا يسكن الى شيء وروي ان عابدا عبد الله في غيضة
دهرا فنظر الى طائر قد عشش في شجرة ياوي اليها ويصفر عندها فقال لو حولت مسجدي الى
تلك الشجرة لكنت آنس بصوت هذا الطائر قال ففعل فاوحى الله تع الى نبي ذلك الوقت قل
لفلان العابد استانست بمخلوق لاحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك ابدا فاذن علامة المحبة
كمال الانس بمناجاة المحبوب وكمال التنعم بالخلوة به وكمال الاستيحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة
ويعوق عن لذة المناجاة وعلامة الانس بالله مصير العقل والفهم كله مستغرقا بلذة المناجاة

كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان في صلواته ووقع
الحريق في داره فلم يشعر به وقطعت رجل بعضهم بسبب علة اصابته وهو في الصلوة فلم يشعر
ومهما غلب الحب والانس صارت الخلوة والمناجاة قرة عين يدفع جميع الهموم بل يستغرق
الانس والحب قلبه حتى لا يفهم امور الدنيا ما لم تكرر على سمعه مرارا مثل العاشق الولهان
فانه يكلم الناس بلسانه وانسه في الباطن بذكر حبيبه فالمحب لا يطمئن الا بمحبوبه وقال تعالى
في وصفهم ويطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب قال هشت اليه واستانست به وقال الصديق
من ذاق محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا واوحشه عن جميع البشر واوحى الله تعالى الى
داود عليه السلام قد كذب من ادعى محبتي اذا جنه الليل نام عني اليس كل محب يحب لقاء حبيبه
فها انا ذا موجود لمن طلبني ومنها ان لا يتاسف على ما يفوته مما سوى الله ويعظم تاسفه
على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله وطاعته فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف
والاستغفار والتوبة اليه وقال بعض العارفين ان لله عز وجل عبادا احبوه واطمانوا اليه
فذهب عنهم التاسف على الفائت فلم يتشاغلوا بحظ انفسهم اذ كان ملك مليكهم تاما وما شاء
كان فما كان لهم فهو واصل اليهم وما فاتهم فبحسن تدبيره لهم وحق
المحب اذا رجع من غفلته في لحظته ان يقبل على محبوبه ويشتغل بالعتاب ويسأله ويقول رب
باي ذنب قطعت برك عني وابعدتني عن حضرتك وشغلتني بنفسي وبمتابعة الشيطان
فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ما سبق من الغفلة فيكون هفوته
سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه ومهما لم ير المحب الا المحبوب ولم ير شيئا الا منه لم يتاسف
ولم يشك واستقبل الكل بالرضا وعلم ان المحبوب لم يقدر له الا ما فيه خيرته ويذكر قوله تعالى
وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ومنها ان يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها ويسقط
تعبها كما قال بعضهم كابدت الليل عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة وقال الجنيد علامة
المحب دوام النشاط والدؤوب بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه وكل هذا مشاهد معهود في المشاهدات
فان العاشق لا يستثقل السعي في هوى معشوقه ويستلذ خدمته بقلبه وان كان شاقا على بدنه
ومهما عجز بدنه كان احب الاشياء اليه ان يعاوده القوة وان يفارقه العجز حتى يشتغل به
فهكذا يكون حب الله عز وجل فان كل حب صار غالبا قهر لا محالة ما هو دونه فمن كان المحبوب
احب اليه من الكسل ترك الكسل في خدمته ومن كان احب اليه من المال ترك المال في حبه وقيل

وقيل لبعض المحبين وقد كان بذل ماله ونفسه حتى لم يبق له شيء ما كان سبب حالك
في المحبة فقال سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول انا والله احبك بقلبي كله وانت معرض
عني بوجهك كله فقال له المحبوب ان كنت تحبني فايش تنفق علي فقال يا سيدي املكك ما
املك ثم انفق عليك روحي حتى تهلك فقلت هذا حب خلق لخلق وعبد لعبد فكيف بعبد
لمعبود فكان هذا سببه ومنها ان يكون مشفقا على جميع عباد الله رحيما بهم شديدا على
اعداء الله وعلى كل من يقارف شيئا مما يكرهه كما قال تعالى اشداء على الكفار رحماء بينهم ولا تأخذه
في الله لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف وبه وصف الله تعالى اولياءه اذ قال في بعض الكتب
الذين يكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالشيء ويأوون الى ذكري كما يأوي النسر الى وكره
ويغضبون لمحارمي كما يغضب النمر اذا حرب فانه لا يبالي قل الناس او كثروا فانظر الى هذا المثال
فان الصبي اذا كلف بالشيء لم يفارقه اصلا وان اخذ منه شيء لم يكن له شغل الا البكاء والصياح حتى
يرد اليه فاذا نام اخذه معه في ثيابه فاذا انتبه عاد وتمسك به ومهما فارقه بكى ومهما وجده
ضحك ومن نازعه فيه ابغضه ومن اعطاه احبه واما النمر فانه لا يملك نفسه عند الغضب حتى بلغ
من شدة غضبه ان يهلك نفسه فهذه علامات المحبة فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص
حبه فصفا في الآخرة شرابه وعذب مشربه ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم في الآخرة بقدره
اذ يمزج شرابه بقدره من شراب المقربين كما قال تعالى في حق الابرار ان الابرار لفي نعيم على الارائك
ينظرون تعرف في وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس
المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون فانما طاب شراب الابرار لشوب الشراب
الصرف الذي للمقربين والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان كما ان الكتاب عبر به عن جميع الاعمال
فقال ان كتاب الابرار لفي عليين ثم قال يشهده المقربون فكانت امارة علو كتابهم انه ارتفع الى
حيث يشهده المقربون وكما ان الابرار يجدون المزيد في حالهم ومعرفتهم بقربهم من المقربين ومشاهدتهم لهم
فكذلك يكون حالهم في الآخرة ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة وقال كما بدانا اول خلق نعيده
جزاء وفاقا اي جوزوا على وفق اعمالهم فقوبل الخالص بالصرف من الشراب وقوبل المشوب بالمشوب
وشوب كل شراب على قدر ما سبق من الشوب في حبه فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن
يعمل مثقال ذرة شرا يره وان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم وان الله لا يظلم مثقال
ذرة وان تك حسنة يضاعفها وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين فمن كان

في الدنيا ورجاء لنعيم الجنة والحور والقصور يمكن من الصحبة شيئا فيكون مع الولدان
ويتمتع بالحور ومن كان مقصده رب الارباب فما لنا الملك ولم يغلب عليه الاهبة
فالاخلاص والصدق نيل الامر في مقعد صدق عند مليك مقتدر فالابرار يتنعمون في
البستان ويتقلبون في الجنان مع الحور والولدان والمقربون يلازمون الحضرة عاكفون نظرهم
عليها يستحقرون نعيم الجنان بالاضافة الى الحضرة منها فتقوم بقضاء شهوة البطن والفرج
والحجاب اقوام اخرون ولذلك قال عليه السلام اكثر اهل الجنة البله وعليون لذوي الالباب ولما
قصرت الافهام عن ادراك معنى عليين عظم امره فقال وما ادراك ما عليون كما قال القارعة
ما القارعة وما ادراك ما القارعة ومنها ان يكون في حجبه خائفا متقيا لانه تحت الهيبة العظيم
وقد يظن ان الخوف ينافي الحب وليس كذلك بل ادراك العظمة توجب الهيبة كما ان ادراك الجمال
توجب الحب ولخصوص المحبين مخاوف في مقام الهيبة ليست لغيرهم وبعض مخاوفهم اشد من
بعض فاولها خوف الاعراض واشد منه خوف الحجاب واشد منه خوف الابعاد وهذا المعنى من
سورة هود الذي شيب سيد المحبين اذ سمع قوله الا بعدا لثمود الا بعدا لمدين كما بعدت
ثمود وانما تعظم هيبة البعد وخوفه في قلب من الف القرب وذاقه وتنعم به فحديث
البعد في حق المبعدين شيب سماعه اهل القرب في القرب ولا يحن الى البعد ولا يبكي لخوف
البعد من لم يكن من ابناء القرب ثم خوف الوقوف وسلب المزيد فانا قدمنا ان درجات
القرب لا نهاية لها وحق العبد ان يجتهد في كل نفس حتى يزداد فيه قربا ولذلك قال
عليه السلام من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من امسه فهو ملعون
لذلك قال عليه السلام انه ليغان على قلبي واني لاستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة
وانما كان استغفاره من القدم الاولى فانها كانت بعدا بالاضافة الى القدم الثانية
ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور في الطريق والالتفات الى غير المحبوب كما روي في
بعض الكتب ان الله تعالى يقول ان ادنى ما اصنع بالعالم اذا اثر شهوة الدنيا على
طاعتي ان اسلبه لذيذ مناجاتي فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة العموم
واما الخصوص فحجبهم عن المزيد بمجرد الدعوى والعجب والركون الى ما ظهر من مبادي
اللطف وذلك هو المكر الخفي الذي لا يقدر على الاحتراز منه الا ذوو الاقدام
الراسخة ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد فوته سمع ابراهيم بن ادهم قايلا يقول

في سياحته على جبل كل شيء لك مغفور سوى الاعراض عنا قد وهبنا لك ما فات
بقي ما فات منا فاضطرب وغشي عليه يوما وليلة وطرأت عليه احوال ثم قال سمعت النداء
من الجبال يا ابراهيم كن عبدا قال فكنت عبدا فاسترحت ثم خوف السلو عنه فان المحب
يلازمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب المزيد ولا يتسلى عن لطف جديد فان
تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه او سبب رجعته والسلو يدخل عليه من حيث
لا يشعر كما قد يدخل الحب عليه من حيث لا يشعر فان هذه التقلبات في القلب لها
اسباب خفية سماوية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها فاذا اراد الله المكر به و
استدراجا اخفى عنه ما ورد عليه من السلو فيقف مع الرجاء ويغتر بحسن الظن او
يغلب الغفلة والهوى والنسيان وكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملائكة
من العلم والعقل والذكر والبيان وكما ان من اوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضي هيجان الحب
وهو اوصاف اللطف والرحمة والحكمة فمن اوصافه ما يلوح فيورث السلو كاوصاف
الجبروت والعزة والاستغناء وذلك من مقدمات المكر والشقاء والحرمان ثم خوف
الاستبدال به بانتقال القلب من حبه الى حب غيره وذلك هو المقت والسلو مقدمته
هذا المقام والاعراض والحجاب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبر ودوام الانقباض عن دوام
الذكر وملالة وظائف الاوراد اسباب هذه المعاني ومقدماتها فظهور هذه الاسباب
دليل على النقل من مقام الحب الى مقام المقت نعوذ بالله منه وملازمة الخوف لهذه
الامور وسرعة الحذر منه بصفاء المراقبة دليل صدق الحب فان من احب شيئا خاف
لا محالة فقده فلا يخلو المحب من خوف اذا كان المحبوب ما يمكن فواته وقد قال بعض
العارفين من عبد الله بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والادلال ومن عبده من
طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ومن عبده من طريق المحبة والخوف
احبه الله فقربه ومكنه وعلمه فالمحب لا يخلو من خوف والخائف لا يخلو عن محبة ولكن
الذي غلب عليه المحبة حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف الا يسير يقال هو في مقام المحبة
ويعد من المحبين وكان شوب الخوف يسكن قليلا من سكر الحب فلو غلب الحب واستولى
المعرفة لم يثبت لها طاقة البشر فانما الخوف يعدله ويخفف وقعه على القلب فقد روي
في بعض الاخبار ان بعض الصديقين سأل بعض الابدال ان يسأل الله عز وجل ان

ذرة من معرفته ففعل ذلك فهام في الجبال وحار عقله ووله قلبه وبقي شاخصا سبعة
ايام لا ينتفع بشي ولا ينتفع به شي فسال له الصديق ربه فقال يا رب انقصه من الذرة
بعضها فاوحى الله اليه انما اعطيناه جزءا من مائة الف جزء من ذرة من المعرفة وذلك ان مائة الف
عبد سالوني شيا من المحبة في الوقت الذي سالني هذا فاخرت اجابتهم الى ان شفعت انت
لهذا فلما اجبتك فيما سالت اعطيتهم كما اعطيته فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة الف عبد فهذا
ما اصابه من ذلك فقال سبحانك يا احكم الحاكمين انقصه مما اعطيته فاذهب الله عنه جملة الجزء
وبقي فيه عشر معشاره وهو جزء من الف الف جزء من ذرة فاعتدل خوفه وحبه ورجاوه وسكن
وصار كساير العارفين وقد قيل في حال العارف ٭ قريب الوجد ذو مرمى بعيد ٭ عن الاحرار
منهم والعبيد ٭ غريب الوصف ذو علم غريب ٭ كان فواده زبر الحديد ٭ لقد عزبت معانيه فجلت ٭
عن الابصار الا للشهيد ٭ يرى الاعياد في الاوقات تجري ٭ له في كل يوم مستعيد ٭ وللاحباب
افراح بعيد ٭ ولا يجد السرور له بعيد ٭ واما زمنه العارف التي اليها الاشارة لا يجوز
ان يشترك الناس فيها ولا يجوز ان يظهرها من انكشف له شي منها لمن لم ينكشف له بل لو اشترك
الناس فيها لخربت الدنيا فالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعمارة الدنيا بل لو اكل الناس كلهم الحلال
لاشتغلوا بانفسهم ولوقفت الالسنة والاقلام عن كثير من المنتشر من العلوم ولكن لله فيما هو شر في
الظاهر اسرار وحكم كما ان له في الخير اسرارا وحكما ولا منتهى لحكمته كما لا غاية لقدرته ومنها كتمان
الحب واجتناب الدعوى والتوقي من اظهار الوجد والمحبة تعظيما للمحبوب واجلالا له وهيبة
منه وغيرة على سره فان الحب سر من اسرار الحبيب ولانه قد يدخل في الدعوى ما يجاوز حد المعنى
ويزيد عليه فيكون ذلك من الافترا وتعظم العقوبة عليه في العقبى وتتعجل عليه البلوى في الدنيا
نعم قد يكون للمحب سكرة في حبه حتى يدهش فيها وتضطرب احواله فيظهر عليه حبه فان وقع
ذلك من غير تمحل واكتساب فهو معذور لانه مقهور وربما تشتعل من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه
وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه فالقادر على الكتمان يقول ٭ وقالوا قريب قلت ما انا
صانع ٭ بقرب شعاع الشمس لو كان في حجري ٭ فما لي منه غير ذكر بخاطر ٭ يهيج نار الحب والشوق
في صدري ٭ والعاجز عنه يقول ٭ يخفي فيبدي الدمع اسراره ٭ ويظهر الوجد عليه النفس ٭ ويقول
٭ ومن قلبه مع غيره كيف حاله ٭ ومن سره في جفنه كيف يكتم ٭ وقد قال بعض العارفين اكثر الناس
من الله بعدا اكثرهم اشارة به كانه اراد من يكثر التعريض به في كل شي ويظهر التصنع بذكره عند كل احد

كل احد فهو ممقوت عند المحبين والعلما بالله ودخل ذو النون المصري على بعض اخوانه ممن
كان يذكر المحبة فراه مبتلى ببلا فقال لا يحبه من وجد الم ضربه فقال لكني اقول لا يحبه
من لم يتنعم بضربه فقال ذو النون ولكني اقول لا يحبه من شهر نفسه بحبه فقال الرجل استغفر الله
واتوب اليه فان قلت المحبة منتهى المقامات واظهارها اظهار للخير فلماذا يستنكر فاعلم
ان المحبة محمودة وظهورها ايضا محمود وانما المذموم التظاهر بها لما يدخل فيه من الدعوى
والاستكبار وحق المحب ان ينم على حبه الخفي احواله دون اقواله وافعاله فان ظهر فينبغي ان
يظهر حبه من غير قصد منه الى اظهار الحب ولا الى اظهار الفعل الدال على الحب بل ينبغي ان يكون
قصد المحب اطلاع الحبيب فقط فاما ارادته اطلاع غيره فشرك في الحب وقادح فيه كما ورد
في الانجيل اذا تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك
فالذي يرى الخفيات يجزيك به علانية واذا صمت فاغسل وجهك وادهن راسك لئلا يعلم
بذلك غير ربك فاظهار القول والفعل كله مذموم الا اذا غلب سكر القلب فانطلق اللسان
واضطربت الاعضا فلا يلام فيه صاحبه وما يكره التظاهر بالحب بسبب ان المحب ان كان
عارفا وعرف احوال الملائكة في حبهم الدايم وشوقهم اللازم الذي به يسبحون الليل والنهار لا
يفترون ولا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يومرون استنكف من نفسه ومن اظهار حبه
وعلم قطعا انه من اخس المحبين في مملكته وان حبه انقص من حب كل محب لله قال بعض
المكاشفين من المحبين عبدت الله ثلثين سنة باعمال القلب والجوارح على بذل المجهود واستفراغ
الطاقة حتى ظننت ان لي عند الله شيا فذكر اشيا من مكاشفات ايات السموات في قصة
طويلة قال في اخرها فبلغت صفا من الملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شي فقلت من انتم
فقالوا نحن المحبون لله نعبده ههنا منذ ثلثماية الف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواه ولا
ذكرنا غيره قال فاستحييت من اعمالي فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنهم في جهنم فمن عرف نفسه
وعرف ربه واستحيى منه حق الحيا خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى نعم يشهد على حبه حركاته
وسكناته واقدامه واحجامه وتردداته كما حكي عن الجنيد انه قال مرض استاذنا السري فلم نعرف
لعلته دوا ولا عرفنا لها سببا فوصف لنا طبيب حاذق فاخذنا قارورة مايه فنظر اليها
وجعل ينظر اليها مليا ثم قال لي اراه بول عاشق قال الجنيد فصعقت وغشي علي ووقعت القارورة
من يدي ثم رجعت الى السري فاخبرته فتبسم ثم قال قاتله الله ما ابصره قلت يا استاذ وتتبين

في البول قال نعم وقد قال السري لو شئت ان اقول ما ايبس جلدي على عظمي ولا اسل جسمي الا حبه
ثم غشي عليه ويدل الغشية على انه صعق في غلبة الوجد ومقدمات الغشية فهذه مجامع علامات
الحب وثمراته ومنها الانس والرضا كما سياتي وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الاخلاق ثمرة
المحبة وما لا يثمر المحبة فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الاخلاق نعم قد يحب الله تعالى لاحسانه
اليه وقد يحبه لجلاله وجماله وان لم يحسن اليه والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين ولذلك
قال الجنيد الناس في محبة الله تعالى عام وخاص فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم في دوام احسانه وكثرة
نعمه فلم يتمالكوا ان ارضوه الا انه تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والاحسان واما الخاصة فنالوا
المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد بالملك فلما عرفوا صفاته الكاملة واسماءه الحسنى
لم يمتنعوا ان احبوه اذ استحق عندهم ذلك بذلك لانه اهل لها ولو ازال عنهم جميع النعم نعم من الناس
من يحب هواه وعدو الله ابليس وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل بانه يحب
الله تعالى وهو الذي لا يجد من نفسه هذه العلامات او يتلبس بها نفاقا ورياء وسمعة وغرضه
عاجل حظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك كعلماء السوء وقراء السوء اولئك بغضاء الله في الارض وكان سهل
اذا تكلم مع انسان قال يا دوست اي يا حبيب فقيل له قد لا يكون حبيبا فكيف تقول هذا فقال
في اذن القائل سرا لا يخلو اما ان يكون مؤمنا او منافقا فان كان مؤمنا فهو حبيب الله وان
كان منافقا فهو حبيب ابليس وقد قال ابو تراب النخشبي في علامات الحب ابياتا لا تخدعن
فللحبيب دلائل ولديه من تحف الحبيب وسائل منها تنعمه بمر بلائه وسروره في كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة والفقر اكرام ولطف عاجل بيان معنى الانس بالله عز وجل
قد ذكرنا ان الانس والخوف والشوق من اثار المحبة الا ان هذه اثار مختلفة تختلف على
المحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته فاذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب الى
منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال انبعث القلب الى الطلب وانزعج له
وهاج اليه وسميت هذه الحالة في الانزعاج شوقا وهو بالاضافة الى امر غائب واذا غلب عليه
الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف فيسمى استبشاره انسا فان كان
الكشف وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت الى ما لم يدركه بعد
استبشر القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره انسا وان كان نظره الى الصفات العز والاستغناء
وعدم المبالاة وخطر امكان الزوال والبعد تالم قلبه بهذا الاستشعار فيسمى تالمه خوفا و

ولهذه الاحوال ملابسة لهذه الملاحظات ولهذه الملاحظات اسباب تقتضيها لا يمكن
حصرها فالانس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال حتى انه اذا غلب وتجرد عن
ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق اليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ومن هنا نظر بعضهم
حيث قيل له انت مشتاق فقال لا انما الشوق الى غائب فاذا كان الغائب حاضرا فالى
من يشتاق وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت الى ما بقي في الامكان من مزايا
الالطاف ومن غلب عليه حال الانس لم تكن شهوته الا في الانفراد والخلوة كما حكي ان ابراهيم
بن ادهم نزل من الجبل فقيل له من اين اقبلت قال من الانس بالله وذلك لان الانس بالله يلازمه
التوحش من غير الله تعالى بل كل ما يعوق عن الخلوة فيكون من اثقل الاشياء على القلب كما روي
ان موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرا لا يسمع كلام احد من الخلق الا اخذه الغشيان لان الحب
يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ما سواه ولذلك قال
بعض الحكماء في دعائه يا من انسني بذكره واوحشني من خلقه وقال الله تعالى لداود عليه السلام كن
بي مستانسا ومن سواي مستوحشا وقيل لرابعة بم نلت هذه المنزلة قالت بتركي ما لا يعنيني وانسي
بمن لم يزل وقال عبد الواحد بن زيد مررت براهب فقلت له يا راهب لقد اعجبتك الوحدة
فقال يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت اليها من نفسك الوحدة راس العبادة
قلت يا راهب ما اقل ما تجده في الوحدة قال الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم
قلت يا راهب متى يذوق العبد حلاوة الانس بالله تعالى قال اذا صفا الود وخلصت
المعاملة قلت ومتى يصفو الود قال اذا اجتمعت الهموم فصارت هما واحدا في الطاعة
قلت فما علامة الانس بالله فاعلم ان علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق
والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر فان خالط فهو كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة وغريب
في حضر وحاضر في سفر وشاهد في غيبة وغائب في حضور مخالط بالبدن منفرد بالقلب المستغرق
بعذوبة الذكر كما قال علي كرم الله وجهه هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الامر فباشروا روح اليقين
واستلانوا ما استوعره المترفون وانسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بابدان
ارواحها معلقة بالمحل الاعلى اولئك خلفاء الله في ارضه والدعاة الى دينه فهذا معنى الانس
وهذه علامته وهذه شواهده وقد ذهب بعض المتكلمين الى انكار الانس والحب والشوق
لظنه ان ذلك يدل على التشبيه وجهله بان جمال المدركات بالبصائر اكمل من جمال المبصرات و

معرفتها اغلب على ذوى القلوب حتى انكر بعضهم مقام الرضا فقال ليس الا الصبر فاما
الرضا فغير متصور وهذا كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين الا على القشور فظن
انه لا وجود الا للقشر فان المحسوسات وكلما يدخل في الخيال في طريق الدين قشر مجرد وورآه
اللباب المطلوب فمن لم يصل من الجوزة الا الى القشر ظن ان الجوزة خشب كلها واستحالة عنده خروج الدهن
منها لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل الانس بالله لا يحويه بطال ولا يصل
اليه بالحول محتال والانسون رجال كلهم نجباء وكلهم صفوة الله تعالى **بيان معنى
الانبساط** والادلال الذى تثمره غلبة الانس اعلم ان الانس اذا دام وغلب واستحكم
ولم يشوشه قلق الشوق ولم ينغصه خوف البعد والحجاب فانه يثمر نوعا من الانبساط في
الاقوال والافعال والمناجاة مع الله تعالى وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة
ولكنه يحتمل ممن اقيم في مقام الانس ومن لم يقم في ذلك المقام ويتشبه بهم في الفعل والكلام
يهلك به ويشرف على الكفر ومثاله مناجاة برخ الاسود الذى امر الله تعالى كليمه موسى عم ان يسئله
ليستسقى لبنى اسرائيل بعد ان قحطوا سبع سنين وخرج موسى يستسقى لهم في سبعين الفا
فاوحى الله عز وجل اليه كيف استجيب لهم وقد اظلمت عليهم ذنوبهم سرائرهم خبيثة يدعوننى على
غير يقين ويامنون مكرى ارجع الى عبد من عبادى يقال له برخ فقل له يخرج حتى استجيب له فسأل
عنه موسى عليه السلام فلم يعرف فبينا موسى ذات يوم يمشى في طريق اذا بعبد اسود قد استقبله بين
عينيه تراب من اثر السجود في شملة قد عقدها على عنقه فعرفه موسى بنور الله تعالى فسلم عليه وقال له
ما اسمك قال اسمى برخ قال فانت طلبتنا منذ حين اخرج فاستسق لنا فخرج فقال في كلامه ما هذا
من فعالك ولا هذا من حلمك وما الذى بدا لك انقصت عليك غيومك ام عاندت الرياح
طاعتك ام نفد ما عندك ام اشتد غضبك على المذنبين الست كنت غفارا قبل خلق الخطائين
خلقت الرحمة وامرت بالعطف ام ترينا انك ممتنع ام تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة قال فما برح
حتى اخضلت بنو اسرائيل بالقطر وانبت الله عز وجل العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب
قال فرجع برخ فاستقبله موسى فقال كيف رأيتنى حين خاصمت ربى كيف انصفنى فهم موسى به
فاوحى الله عز وجل اليه ان برخا يضحكنى كل يوم ثلث مرات وعن الحسن قال احترقت اخصاص
بالبصرة فبقى في وسطها خص لم يحترق وابو موسى يومئذ امير البصرة فاخبر بذلك فبعث الى
صاحب الخص قال فاتى بشيخ فقال يا شيخ ما بال خصك لم يحترق فقال انى اقسمت على ربى

ان لا يحرقه فقال ابو موسى انى سمعت النبى صلعم يقول يكون في امتى قوم شعثة رؤسهم
دنسة ثيابهم لو اقسموا على الله لابرهم قال ووقع حريق بالبصرة فجاء ابو عبيدة الخواص
فجعل يتخطى النار فقال له امير البصرة انظر لا تحترق بالنار فقال انى اقسمت على ربى
ان لا يحرقنى بالنار قال فاعزم ان تطفى قال فعزم عليه فطفئت فهذا وامثاله يجرى
لذوى الانس وليس لغيرهم ان يتشبه بهم قال الجنيد اهل الانس يقولون في كلامهم ومناجاتهم
في خلواتهم اشيآء لو سمعها العوام لكفروهم وهم يجدون المزيد في احوالهم بذلك وذلك
يحتمل منهم ويليق بهم ولا تستبعد رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف
مقامهما ففي القرآن تنبيهات على هذه المعاني لو فطنت وفهمت فجميع قصص القرآن تنبيهات
لاولى البصائر حتى ينظروا اليها بعين الاعتبار وانما هي عند ذوى الاغترار من الاسمار فاول
القصص قصة آدم عليه السلام وابليس اما تراهما كيف اشتركا في اسم المعصية والمخالفة ثم افترقا
فتاب عليه وهدى وقد عاتب الله نبيه في الاعراض عن عبد والاقبال على عبد ثم
تباينا في الاجتباء والعصمة اما ابليس فابلس عن رحمته وقيل انه من المبعدين واما آدم
فقيل فيه وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى وقد عاتب الله نبيه
في الاعراض عن عبد بالاقبال على عبد هما في العبودية سيان ولكن في الحال مختلفان فقال
واما من جاءك يسعى وهو يخشى فانت عنه تلهى وقال في الآخر اما من استغنى فانت له تصدى
وكذلك امره بالقعود مع طائفة فقال واذا جاءك الذين يؤمنون باياتنا فقل سلام
عليكم وامره بالاعراض عن غيرهم فقال واذا رايت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم
وقال فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة
والعشى وكذا الانبساط والادلال يحتمل من بعض العباد دون البعض فمن انبساط الانس قول
موسى عليه السلام ان هى الا فتنتك تضل بها من تشآء وتهدى من تشآء وقوله في التعلل والاعتذار
لما قيل له اذهب الى فرعون فقال ولهم على ذنب فاخاف ان يقتلون وقوله ويضيق صدرى
وقوله اننا نخاف ان يفرط علينا او ان يطغى وهذا من غير موسى من سوء الادب لان الذى
اقيم مقام الانس يلاطف ويحتمل ولم يحتمل ليونس عليه السلام ما دون ذلك هذا لما ان اقيم مقام
القبض والهيبة فعوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلث ونودى عليه الى يوم الحشر لولا
ان تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعرآء وهو مذموم وقال الحسن العرآء هو القيمة ونهى نبينا عليه

ان تقتدى به فقال فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم وهذه
الاختلافات بعضها لاختلاف الاحوال والمقامات وبعضها لما سبق في الازل من التفاضل و
التفاوت في القسم بين العباد وقد قال تعالى ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وقال منهم من
كلم الله ورفع بعضهم درجات وكان عيسى عليه السلام من المفضلين ولذلك سلم على نفسه فقال
والسلام علي يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيا فهذا انبساط منه لما شاهد من
اللطف في مقام الانس واما يحيى بن زكريا فانه اقيم مقام الهيبة والحياء فلم ينطق حتى اثنى عليه الفاطر
فقال وسلام عليه وانظر كيف احتمل اخوة يوسف ما فعلوا بيوسف وقد قال بعض العلماء
قد عددت من اول قوله تعالى اذ قالوا ليوسف واخوه احب الى ابينا منا الى راس العشرين
اخبار تعالى عن نصحهم فيه سنة فارنبعين خطيئة بعضها اكبر من بعض وقد يجتمع في الكلمة الواحدة
الثلث والاربع فغفرلهم وعفا عنهم ولم يحتمل لعزير مسألة واحدة سال عنها في القدر حتى
قيل محى من ديوان النبوة وكذلك بلعم بن باعورا من اكابر العلماء فاكل الدنيا بالدين فلم
يحتمل له وكان اصف من المسرفين وكانت معصيته في الجوارح فعفا عنه وقد روى ان الله تعالى
اوحى الى سليمان عليه السلام يا راس العابدين ويا ابن محجة الزاهدين الى كم يعصيني ابن خالتك اصف
وانا احلم عليه مرة بعد اخرى فوعزتي وجلالي لئن اخذته عصفة من عصفاتي لاتركنه مثلة لمن
معه ونكالا لمن بعده فلما دخل اصف على سليمان اخبره بما اوحى الله تعالى اليه فخرج حتى علا
كثيبا من رمل ثم رفع راسه ويديه الى السماء وقال الهى وسيدى انت انت وانا انا فكيف اتوب
ان لم تتب علي وكيف استعصم ان لم تعصمني لئن لم تعصمني لاعودن فاوحى الله تعالى اليه صدقت يا
اصف انا انا وانت انت استقبل التوبة فقد تبت عليك وانا التواب الرحيم وهذا كلام
مدل به عليه وهارب اليه وناظر اليه ويروى في الخبر ان الله تعالى اوحى الى بعض انبيائه فان شؤم
الهلكة كم من ذنب واجهتني به غفرته لك فقد اهلكت في دونه امة من الامم فهذه سنتي في عبادي
بالفضل والتقديم والتاخير على ما سبقت به مشية الازلية وهذه القصص اوردت في القرآن
لتعرف بها سنة الله تعالى في عباده الذين خلوا من قبل فما في القرآن شيء الا وهو هدى ونور
وتعرف من الله تعالى الى الخلق فتارة يتعرف اليهم بالتقديس فيقول قل هو الله احد الله الصمد
لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد وتارة يتعرف اليهم بصفات جلاله فيقول الملك القدوس
السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر وتارة يتعرف اليهم في افعاله المخوفة والموجوة

فتلو عليهم سنته في انبيائه واعدائه فيقول الم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد
والم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل ولا يعدو القرآن هذه الاقسام الثلثة وهي الارشاد
الى معرفة ذات الله تعالى وتقديسه او معرفة صفاته واسمائه او معرفة افعاله وسنته مع
عباده ولما اشتملت سورة الاخلاص على احد هذه الاقسام الثلثة وهو التقديس وازنها
النبي صلى الله عليه واله وسلم بثلث القرآن فقال من قرأ سورة الاخلاص فقد قرأ ثلث القرآن
لان منتهى التقديس ان يكون واحدا في ثلثة امور لا يكون حاصلا منه من هو من نوعه وشبهه
ودل عليه قوله لم يلد ولا يكون حاصلا ممن هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله ولم يولد ولا
في رتبته وان لم يكن اصلا له ولا فرعا عمن هو مثله ودل عليه قوله ولم يكن له كفوا احد ويجمع
ذلك قوله قل هو الله وجملته تفصيل قول لا اله الا الله فهذه اسرار القرآن ولا تتناهى امثال
هذه الاسرار فلا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه
ثوروا القرآن والتمسوا غرائبه ففيه علم الاولين والاخرين وهو كما قال ولا يعرفه الا من طال
في احاد كلماته وفكره فيه حتى تشهد له كل كلمة منها بانه كلام جبار قاهر مليك قدير
وانه خارج عن حد استطاعة البشر واكثر اسرار القرآن معناه في طي القصص والاخبار
حريصا على استنباطها لينكشف لك فيها من العجائب ما يستحقر معها
العلوم المزخرفة الخارجة منها فهذا ما اردنا ذكره من معنى الانس والانبساط الذي هو ثمرة
وبيان تفاوت عباد الله تعالى فيه **القول في معنى الرضا بقضاء الله وحقيقته وما ورد**
في فضيلته اعلم ان الرضا ثمرة من ثمرات المحبة وهي من اعلى مقامات المقربين وحقيقته
غامضة على الاكثرين وما يدخل عليه من التشابه والابهام غير منكشف الا لمن علمه الله تعالى
وفقهه في الدين فقد انكر منكرون تصور الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا ان امكن الرضا
بكل شيء لانه فعل الله فينبغي ان يرضى بالكفر والمعاصي وانخدع بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور
والفسق وترك الاعتراض والانكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى ولو انكشفت هذه الاسرار
لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنه حيث قال اللهم فقهه في
الدين وعلمه التأويل فلنبدا ببيان فضيلة الرضا ثم بحكايات احوال الراضين ثم نذكر حقيقة
الرضا وكيفية تصوره فيما يخالف الهوى ثم نذكر ما يظن انه من تمام الرضا وليس كذلك
الدعاء والسكوت على المعاصي **بيان فضيلة الرضا** اما من الايات فقوله تعالى رضي الله عنهم

ورضوا عنه وقال هل جزاء الاحسان الا الاحسان ومنتهى الاحسان رضاء الله تعالى عن عبده
وهو ثواب رضا العبد عنه وقد قال تعالى ومساكن طيبة في جنات عدن كما رفع ذكره
فوق الصلوة حيث قال ان الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله اكبر فكما ان مشاهدة
المذكور في الصلوة اكبر من الصلوة فرضوان رب الجنة اعلى من الجنة بل هو غاية مطالب
سكان الجنان وفي الحديث ان الله عز وجل يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك
يا ربنا فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل واما رضا العبد فسنذكر حقيقته واما رضوان
الله تعالى عن العبد فهو بمعنى اخر يقرب مما ذكرناه في حب الله تعالى للعبد ولا يجوز ان يكشف
عن حقيقته اذ يقصر افهام الخلق عن دركه ومن يقوى عليه فيستقل بادراكه من نفسه وعلى الجملة
فلا رتبة فوق النظر اليه وانما سألوا الرضا لانه سبب دوام النظر فكانهم رأوه غاية الغايات
واقصى الاماني لما ظفروا بنعيم النظر فلما امروا بالسؤال لم يسألوا الا دوامه وعلموا ان الرضا
هو سبب دوام رفع الحجاب وقال تعالى ولدينا مزيد وقال بعض المفسرين فيه يأتي اهل
الجنة في وقت المزيد ثلث تحف من عند رب العالمين احدها هدية من الله تعالى ليس عندهم في
الجنان مثلها وذلك قوله تعالى فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة اعين والثانية السلام عليهم
من ربهم فيزيد ذلك على الهدية وهو قوله تعالى سلام قولا من رب رحيم والثالثة يقول الله
تعالى اني عنكم راض فيكون ذلك افضل من الهدية والتسليم فذلك قوله تعالى ورضوان من الله
اكبر اي من النعيم الذي هم فيه فهذا فضل رضاء الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد واما الاخبار فقد
روي ان النبي صلعم سأل طائفة من اصحابه ما انتم فقالوا مؤمنون فقال ما علامة ايمانكم فقالوا
نصبر عند البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء فقال مؤمنون ورب الكعبة وفي
خبر اخر قال حكماء علماء كادوا من الفقه ان يكونوا انبياء وقال صلعم من رضي من الله عز وجل
بالقليل من الرزق رضي الله عنه بالقليل من العمل وقال ايضا اذا احب الله عبدا ابتلاه فان
صبر اجتباه وان رضي اصطفاه وفي اخبار داود عليه السلام ما لاوليائي والهم بالدنيا ان الهم
يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم يا داود ان محبتي من اوليائي ان يكونوا روحانيين لا
يغتمون وروي ان موسى عليه السلام قال يا رب دلني على امر فيه رضاك حتى اعمله فاوحى الله تعالى
اليه ان رضاي في كرهك وانت لا تصبر على ما تكره فقال يا رب دلني عليه فقال ان رضاي في
رضاك بقضائي وفي الاخبار ان نبيا من الانبياء شكا الى الله عز وجل الجوع و القمل

والفقر والقمل عشر سنين فما اجيب لى ثم اوحى الله تعالى اليه كم تشكو هكذا كان بدؤك
عندي في ام الكتاب قبل ان اخلق السموات والارض وهكذا سبق لك مني وهكذا
قضيت لك قبل ان اخلق الدنيا افتريد ان اعيد خلق الدنيا من اجلك ام تريد ان
ابدل ما قدرت مرة اخرى لامحونك من ديوان النبوة وغير ذلك من الاخبار كثيرا
وذكر من الاثار ان بعضهم نظر الى قرحة عميقة واسعة فقال ان انجاني من هذه القرحة
فقال اني لا اشكرها منذ خرجت اذ لم تخرج في عيني الى غير ذلك بيان حقيقة الرضا
وتصوره فيما يخالف الهوى اعلم ان من قال ليس فيما يخالف الهوى وانواع البلاء الا
الصبر فاما الرضا فلا يتصور فانما اتى من ناحية انكار المحبة فاما اذا ثبت تصور الحب
لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى ان الحب يورث الرضا بافعال الحبيب ويكون ذلك
من وجهين احدهما ان يبطل الاحساس بالالم حتى يجري عليه المؤلم ولا يحس به ويصيبه
جراحة ولا يدرك المها ومثاله الرجل المحارب فانه في حال غضبه او في حال خوفه قد يصيبه
جراحة وهو لا يحس بها فاذا رأى الدم استدل به على الجراحة بل الذي يغدو في شغل
قلب قد يصيبه شوكة في قدمه ولا يحس بالمه لشغل قلبه بل الذي يحجم او يحلق راسه
بحديدة كالة يتألم به فان كان مشغول القلب بمهم من مهماته فرغ المزين والحجام وهو لا
يشعر به وكل ذلك لان القلب اذا صار مستغرقا بامر من الامور مستوفى لم يدرك ما عداه
فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه او بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به او يغتم
لولا عشقه ثم لا يدرك غمه والمه لفرط استيلاء الحب على قلبه هذا اذا اصابه من غير حبيبه
فكيف اذا اصابه من حبيبه وشغل القلب بالحب والعشق من اعظم الشواغل واذا تصور هذا
في الم يسير بسبب حب خفيف تصور في الالم العظيم فان الحب ايضا يتصور ان يتضاعف في القوة
كما يتصور ان يتضاعف الالم وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب
الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة وجمال الحضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به
جمال فمن ينكشف له شيء منه فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه ولا يحس بما يجري عليه
فقد روي ان امرأة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها
اما تجدين الوجع فقالت ان لذة ثوابه ازالت عن قلبي مرارة وجعه وكان سهل به علة
يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه فقيل له في ذلك فقال يا دوست ضرب الحبيب لا يوجع

واما الوجه الثاني فهو ان يحس به ويدرك المه ولكن يكون راضيا به بل راغبا فيه مريدا له اعني بعقله وان كان كارها بطبعه كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة فانه يدرك المها الا انه راض به وراغب فيه ومتقلد من الفصاد منة بفعله فهذا حال الراضي بما يجري عليه من الالم وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر وجعله راضيا بها ومهما اصابته بلية من الله عز وجل وكان له يقين بان ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته رضي به ورغب فيه واحبه وشكر الله عليه هذا ان كان يلاحظ الثواب والاحسان الذي يجازى به عليه ويجوز ان يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب في مراد حبيبه ورضاه لا لمعنى آخر وراءه فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق وقد تواصفها المتواصفون في نظمهم ونثرهم ولا معنى له الا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر فان نظر الى الجمال فما هو الا جلد على لحم ودم مشحون بالاقذار والاخباث بدايته من نطفة مذرة ونهايته جيفة قذرة وهو فيما بينهما يحمل العذرة وان نظر الى المدرك للجمال فهو العين الخسيسة التي تغلط فيما ترى كثيرا فترى الصغير كبيرا والكبير صغيرا والبعيد قريبا والقبيح جميلا فاذا تصور استيلاء هذا الحب فمن اين يستحيل ذلك في حب الجمال الازلي الابدي الذي لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التي لا تغلط ولا يدور بها الموت بل تبقى بعد الموت حية عند الله تعالى فرحة برزق الله مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف وهذا امر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار ويشهد لذلك الوجود وحكايات احوال المحبين واقوالهم فقال الجنيد سالت سريا السقطي هل يجد المحب الم البلاء قال لا قلت وان ضرب بالسيف قال وان ضرب بالسيف سبعين ضربة ضربة على ضربة وقال بعضهم احببت كل شيء بحبه حتى لو احب النار لاحببت دخول النار وقال بشر بن الحارث مررت برجل وقد ضرب الف سوط في سويقة بغداد ولم يتكلم ثم حمل الى الحبس فتبعته فقلت له لم ضربت فقال لاني عاشق فقلت له ولم سكت فقال لان معشوقي كان بحذائي ينظر الي فقلت ولو نظرت الى المعشوق الاكبر قال فزعق زعقة خر منها ميتا وقيل ان يونس قال لجبريل عليه السلام دلني على اعبد اهل الارض فدله

فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره وسمعه وهو يقول الهي متعتني بهما ما شئت انت وسلبتني ما شئت انت وابقيت لي فيك الامل يا بر يا وصول وروي عن عبد الله بن عمر انه اشتكى ابن له فاشتد وجده عليه حتى قال بعض القوم لقد خشينا على هذا الشيخ ان حدث بهذا الغلام حدث فمات الغلام فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل اشد سرورا منه فقيل له في ذلك فقال انما كان حزني رحمة له فلما وقع امر الله رضينا به وقال مسروق كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك فالديك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم والكلب يحرسهم فجاء الثعلب واخذ الديك فحزنوا له فقال الرجل عسى ان يكون خيرا ثم اصبحوا ذات يوم فنظروا فاذا قد سبي من حولهم وبقوا هم قال وانما اخذوا اولئك لما كان عندهم اصوات الكلاب والحمار والديك وكانت الخيرة في هلاك هذه من الحيوانات كما قدره الله فمن عرف خفي لطف الله رضي بفعله ويروى ان عيسى عليه السلام مر برجل اعمى ابرص مقعد مضروب الجنبين بفالج وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرا من خلقه فقال له عيسى عليه السلام يا هذا اي شيء من البلاء اراه مصروفا عنك فقال يا روح الله انا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته فقال له صدقت هات يدك فناوله يده فاذا هو احسن الناس وجها وافضلهم هيئة وقد اذهب الله عنه ما كان به فصحب عيسى عليه السلام وتعبد معه واستيلاء هذه الحالات غير محال في نفسه وان كان بعيدا من احوالنا الضعيفة ولكن لا ينبغي ان يستنكر الضعيف المحروم احوال الاقوياء ويظن ان ما هو عاجز عنه يعجز عنه الاولياء ودخل جماعة من الناس على الشبلي وهو في المارستان وقد جمع بين يديه حجارة فقال من انتم قالوا محبوك فاقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا فقال ما بالكم ادعيتم محبتي ان صدقتم فاصبروا على بلائي وللشبلي ان المحبة للرحمن اسكرني وهل رايت محبا غير سكران فاذا تاملت هذه الحكايات عرفت قطعا ان الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا بل هو مقام عظيم من مقامات اهل الدين ومهما كان ذلك ممكنا في حب الخلق وحظوظهم كان ممكنا في حق الله عز وجل وحظوظ الآخرة قطعا وامكانه من وجهين احدهما الرضا بالالم لما يتوقع من الثواب الموعود كالرضا بالحجامة وشرب الدواء انتظارا للشفاء والثاني الرضا به لا لحظ وراءه بل لكونه مراد المحبوب ورضى له فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد المحب في مراد المحبوب فيكون الذ الاشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه ونفوذ ارادته

ولزمه هلاك روحه كما قيل: فما لجرح إذا أرضاكم ألم. وهذا ممكن مع الإحساس بالألم، وقد
يستولي الحب بحيث يدهش عن إدراك الألم، فالقياس والتجربة والمشاهدة دالة على وجوده
فلا ينبغي أن ينكره من فقده من نفسه لأنه إنما فقده لفقد سببه وهو فرط حبه، ومن لم يذق
طعم الحب لم يعرف عجائبه، فللمحبين عجائب أعظم مما وصفناه. وقد روي عن عمرو بن الحارث
الرافقي قال كنت في مجلس بالرقة عند صديق لي وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية
كانت معنا في المجلس فضربت بالقضيب وغنت: علامة ذل الهوى على العاشقين البكا
ولا سيما عاشق إذا لم يجد مشتكى. فقال لها الفتى أحسنت والله يا سيدتي أفتأذنين
لي أن أموت؟ فقالت مت راشدا. قال فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فمه وغمض
عينيه فحركناه فإذا هو ميت. وقال الجنيد رأيت رجلا متعلقا بكم صبي وهو يتضرع إليه
ويظهر له المحبة فالتفت إليه الصبي وقال إلى متى ذا النفاق الذي تظهر لي؟ فقال قد علم
الله أني صادق فيما أورده حتى لو قلت لي مت لمت. فقال إن كنت صادقا فمت. قال
فتنحى الرجل وغمض عينيه فوجد ميتا. وقال سمنون المحب كان في جيرتنا رجل وله جارية
يحبها غاية الحب فاعتلت الجارية فجلس الرجل يصلح لها حيسا فبينا هو يحرك ما في القدر
إذ قالت الجارية آه. قال فدهش الرجل وسقطت الملعقة من يده وجعل يحرك ما في
القدر بيده حتى تساقطت أصابعه. فقالت الجارية ما هذا؟ فقال الرجل هذا موضع قولك
آه. وحكي عن محمد بن عبد الله البغدادي قال رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقد أشرف
على الناس وهو يقول هذا البيت: من مات عشقا فليمت هكذا، لا خير في عشق بلا موت
ثم رمى بنفسه إلى الأرض فحملوه ميتا. فهذا وأمثاله قد يصدق به في حب المخلوقين، فالتصديق
به في حب الخالق أولى لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر، وجمال الحضرة الربوبية
أوفى من كل جمال، بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال. نعم الذي فقد البصر ينكر
جمال الصور، ومن فقد السمع ينكر لذة الألحان والنغمات الموزونة، فالذي فقد القلب لا بد
أن ينكر أيضا هذه اللذات إذ لا مظنة لها سوى القلب. بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا
لا يخرج صاحبه عن مقام الرضا، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها ومقت أسبابها
والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضا. وقد غلط في ذلك
قوم من البطالين المغترين فزعموا أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب

الرضا به، وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع. فأما الدعاء فقد تعبدنا
به، وكثرت دعوات النبي ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام على ما نقلناه في كتاب الدعوات، ولقد
كان عليه السلام في أعلى مقامات الرضا، وقد أثنى الله عز وجل على بعض عباده بقوله
ويدعوننا رغبا ورهبا. وأما إنكار المعاصي وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تعبد الله
عز وجل به عباده وذمهم على الرضا به فقال: ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، وقال
رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم. وفي الخبر المشهور من شهد منكرا فرضي
به فكأنه قد فعله. وفي الحديث الدال على الشر كفاعله. وعن ابن مسعود إن العبد ليغيب
عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه، قيل وكيف ذلك؟ قال يبلغه فيرضى به. وأما بغض
الكفار والفجار والإنكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار
لا يحصى، مثل قوله تعالى لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين
من الآيات والأخبار. فإن قلت فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى
ثم فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله فهو محال وهو قادح في التوحيد، وإن كانت بقضاء الله
تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى، فكيف السبيل إلى الجمع بينهما وهو متناقض
على هذا الوجه، وكيف الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد؟ فاعلم أن هذا مما يلتبس
على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم، وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت
عن المنكرات مقاما من مقامات الرضا وسموه حسن الخلق، وهو جهل محض، بل نقول
الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من وجه واحد، وليس من التضاد
في شيء واحد أن يكره من وجه ويرضى به من وجه عدو صديقك وترضاه من حيث إنه
مات عدوك، وكذلك المعصية لها وجهان: وجه إلى الله عز وجل من حيث إنه فعله
واختياره وإرادته، ووجه إلى العبد من حيث إنها كسبه ووصفه وعلامة كونه ممقوتا عند الله تعالى
ومبغوضا عنده حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت، فهي من هذا الوجه منكرة
مذمومة. ولا ينكشف هذا إلا بمثال، فلنفرض محبوبا من الخلق قال بين يدي محبيه
إني أريد أن أميز بين من يحبني ويبغضني وأنصب فيه معيارا صادقا وميزانا ناطقا
وهو أني أقصد فلانا وأوذيه وأضربه ضربا يحمله ذلك على الشتم حتى إذا شتمني
أبغضته واتخذته عدوا لي، فكل من أحبه علمت أنه أيضا عدوي، وكل من أبغضه علمت

انه صديقي ومحبي ثم تغفل ذلك ويحصل على كل من هو صادق في محبته وعابه بشرط المحبة
يقول اما تدبيرك في ايذاء هذا الشخص وضربه وابعاده وتعريضه اياه للبغض و
العداوة فانا محب له وراض به فانه رايك وتدبيرك وفعلك وارادتك واما شتمه
اياك فانه عدوان من جهته وكان حقه ان يصبر ولا يشتم ولكنه كان مرادك منه فانك
قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت فهو من حيث انه حصل على وفق مرادك
وتدبيرك الذي دبرته فانا راض به ولو لم يحصل لكان ذلك نقصانا في تدبيرك وتعويقا
في مرادك وانا كاره لفوات مرادك ولكنه من حيث انه وصف لهذا الشخص وكسب له و
عدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك اذ كان ذلك يقتضي ان يحتمل منك
الضرب ولا يقابل بالشتم فانا كاره له من حيث نسبته اليه ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو
مرادك ومقتضى تدبيرك واما بغضك له فلان شرط المحب ان يكون حبيبا لمحبوب حبيبه
عدوه عدوا واما بغضه لك فاني ارضاه من حيث انك اردت ان يبغضك اذا
ابعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعي البغض ولكنه بغضه من حيث انه وصف ذلك
البغيض وكسبه وفعله وامقته لذلك فهو ممقوت عندي لمقته اياك وبغضه ومقته لك
ايضا مكروه عندي من حيث انه وصف له وكل ذلك من حيث انه مرادك مرضي وانما التناقض
ان يقول هو من حيث انه مرادك مرضي ومن حيث انه مرادك مكروه فاما اذا كان مكروها
لا من حيث انه فعله ومراده بل من حيث انه وصف غيره وكسبه فهكذا تسليط الله تعالى
دواعي الشهوة والمعصية عليه حتى جره ذلك الى حب المعصية وجره الحب الى الاثم وقت
الله عز وجل لمن عصاه وان كانت معصيته بتدبيره كما يبغض المشتوم لمن شتمه وان كان
شتمه انما حصل بتدبيره واختياره لاسباب ذلك وفعل الله ذلك بكل عبد من عبيده
تسليط دواعي المعصية عليه يدل على انه سبقت مشيته بالعادة ومقته فواجب على كل عبد
محب لله عز وجل ان يبغض من ابغضه الله ويمقت من مقته ويعادي من ابعده عن حضرته
وان اضطره بقهره وقدرته الى معاداته ومخالفته فانه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة و
اذا كان بعيدا بابعاده قهرا ومطرودا بطرده واضطراره والمبعد عن درجات القرب ينبغي ان
يكون ممقوتا بغيضا الى جميع المحبين موافقة للمحبوب باظهار الغضب على من اظهر المحبوب الغضب
عليه بابعاده وبهذا تتقرر جميع ما وردت به الاخبار من البغض في الله والحب في الله والتشديد

والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم والمبالغة في مقتهم مع الرضا بقضاء الله عز وجل
من حيث انه قضاء الله تعالى وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لا رخصة في افشائه وهو
ان الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة والارادة ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضي
فمن قال ليس الشر من الله تعالى فهو جاهل وكذا من قال انهما جميعا منه من غير افتراق في الرضا
والكراهة فهو ايضا مقصر وكشف الغطاء عنه غير ماذون فيه فالاولى السكوت والتادب
بادب الشرع فقد قال عليه السلام القدر سر الله فلا تفشوه وذلك يتعلق بعلم المكاشفة
وغرضنا الآن بيان الامكان فيما تعبد به جميع الخلق في الجمع بين الرضا بقضاء الله ومقت
المعاصي مع انها من قضاء الله تعالى وقد ظهر الغرض من غير حاجة الى كشف السر وبهذا
يعرف ايضا ان الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الاسباب المعينة على الدين غير مناقض
للرضا بقضاء الله تعالى فان الله عز وجل تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر
وخشوع القلب ورقة التضرع ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف وسببا لتواتر
مزايا اللطف كما ان حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعالى في العطش
وشرب الماء طلبا لازالة العطش مباشرة سبب رتبه مسبب الاسباب فكذلك الدعاء
سبب رتبه الله تعالى وامر به وقد ذكرنا ان التمسك بالاسباب جريا على سنة الله تعالى لا يناقض
التوكل واستقصيناه في كتاب التوكل فهو ايضا لا يناقض الرضا لان الرضا مقام ملاصق
للتوكل فهو ايضا لا يناقض الرضا مقام ملاصق التوكل ويتصل به نعم اظهار البلاء في معرض
الشكوى وانكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا واظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن
قدرة الله تعالى لا يناقض وقد قال السلف من حسن الرضا بقضاء الله ان لا يقول هذا يوم
حار اي في معرض الشكاية وذلك في الصيف فاما في الشتاء فهو شكر والشكوى مناقض للرضا بكل حال
وذم الاطعمة وعيبها يناقض الرضا لان مذمة الصنعة مذمة الصانع والكل من صنع الله تعالى
وقول القائل الفقر بلاء ومحنة والعيال هم وتعب والاحتراف كد ومشقة كل ذلك قادح في
الرضا بل ينبغي ان يسلم التدبير لمدبره والمملكة لمالكها ويقول ما قال عمر لا ابالي اصبحت غنيا
او فقيرا فاني لا ادري ايهما خير لي

بيان ان الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي
ومذمتها لا يقدح في الرضا **اعلم** ان الضعيف قد يظن ان نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن
الخروج من بلد ظهر بها الطاعون ينهى عن الخروج من بلد ظهر فيه المعاصي لان كل واحد

فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال بل العلة التي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون
انه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الاصحاء وبقي فيه المرضى مهملين لا متعهد لهم فيهلك
هؤلاء ولذلك شبهه النبي عليه السلام في بعض الاخبار بالفرار من الزحف ولو كان ذلك
للفرار من القضاء لما اذن لمن قارب البلد في الانصراف وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب
التوكل واذا عرفنا المعنى ظهر ان الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ليس فرارا من القضاء
بل من القضاء الفرار مما لا بد من الفرار منه وكذلك مذمة المواضع التي تدعو الى المعاصي
والاسباب التي تدعو اليها لاجل التنفير عن المعصية ليس مذموما فما زال السلف الصالحون يعتادون
ذلك حتى اتفقت جماعة على ذم بغداد واظهارهم ذلك وطلب الفرار منها
ثم قال رحمه الله بعد كلام القائلين بذلك فهذا يدل على ان من يكون ملازما بلدة تكثر فيها
المعاصي ويقل فيها الخير فلا عذر له في المقام بها بل ينبغي ان يهاجر قال الله تعالى الم تكن
ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فان منعه عن ذلك عيال او علاقة فلا ينبغي ان يكون
راضيا بحاله مطمئن النفس اليه بل ينبغي ان يكون منزعج القلب منها قائلا على الدوام ربنا
اخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها وذلك لان الظلم اذا عم نزل البلاء ودمر على الجميع
وشمل المطيعين والعاصين قال الله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة فاذن
ليس في شيء من اسباب نقصان الدين البتة رضا مطلق الا من حيث اضافتها الى فعل الله تعالى فاما
في انفسها فلا وجه للرضا بها بحال وقد اختلف العلماء في الافضل من اهل مقامات ثلثة
رجل يحب الموت شوقا الى لقاء الله تعالى ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ورجل قال لا اختار
شيئا ارضى بما اختاره الله ورفعت هذه المسألة الى بعض العارفين فقال صاحب الرضا
افضلهم لانه اقلهم فضولا واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف
بن اسباط فقال الثوري كنت اكره موت الفجاة قبل اليوم فاما اليوم فوددت اني ميت
فقال له يوسف لم قال لما اتخوف من الفتنة فقال يوسف لكني لا اكره طول البقاء فقال سفيان
لم قال لعلي اصادف يوما اتوب فيه واعمل صالحا فقيل لوهيب اي شيء تقول فقال انا لا اختار
شيئا احب ذلك الي احبه الى الله تعالى فقبل الثوري ما بين عينيه وقال روحانية ورب الكعبة
بيان جملة من حكايات المحبين واقوالهم ومكاشفاتهم كان بعضهم يقول اذا رأيتموني
فقد رأيتم اربعين بدلا قيل وكيف ذلك قال لاني رأيت اربعين بدلا واخذت من كل بدل خلقا

خلقا من اخلاقه وحكي عن الحضرمي انه قال ما حدثت نفسي بها قط الا عرفته
الا وابت في ذلك اليوم ولم اعرفه وحكي عن يحيى بن معاذ الرازي انه
رأى ابا يزيد في بعض مشاهداته من بعد صلوة العشاء الى طلوع الفجر مستوفزا على صدور قدميه
رافعا اخمصيه مع عقبيه عن الارض ضاربا بذقنه على صدره شاخصا بعينيه
لا يطرف قال ثم سجد عند السحر سجدة فاطال ثم قعد فقال اللهم ان قوما طلبوك فاعطيتهم
المشي على الماء والمشي في الهواء ورضوا بذلك واني اعوذ بك من ذلك وان قوما طلبوك فاعطيتهم
المشي على الارض فرضوا بذلك واني اعوذ بك من ذلك وان قوما طلبوك فاعطيتهم كنوز
الارض فرضوا بذلك واني اعوذ بك من ذلك قال حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات
الاولياء ثم التفت فرآني فقال يحيى فقلت نعم يا سيدي قال منذ متى انت ههنا قلت منذ
حين فسكت فقلت يا سيدي حدثني بشيء فقال احدثك بما يصلح لك ادخلني في الفلك
الاسفل فدورني في الملكوت السفلي واراني الارضين وما تحتها الى الثرى ثم ادخلني في الفلك
العلوي فطوف في السموات واراني ما فيها من الجنان الى العرش ثم اوقفني بين يديه فقال
سلني اي شيء رأيت حتى اهبه لك فقلت اني ما رأيت شيئا استحسنته فاسألك اياه
قال انت عبدي حقا تعبدني لاجلي صدقا لافعلن بك ولافعلن فذكر اشياء قال
يحيى فهالني ذلك وامتلأت به وعجبت منه فقلت يا سيدي لم لا سألته المعرفة به وقد
قال لك ملك الملوك سلني ما شئت قال فصاح وقال اسكت ويلك غرت عليه مني حتى لا احب
ان يعرفه سواه ثم قال رحمه الله بعد ذكر امثال هذه الحكايات فامثال هذه الحكايات
لا ينبغي ان ينكرها المؤمن لافلاسه عن مثلها فلو لم يؤمن كل واحد الا بما شاهده من نفسه
المظلمة وقلبه القاسي لضاق مجال الايمان عليه بل هذه احوال تظهر بعد مجاوزة عقبات
ونيل مقامات كثيرة ادناها الاخلاص واخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع
الاعمال ظاهرا وباطنا ثم مكاتمة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصنا بحصن الخمول
فهذه اوائل سلوكهم واول مقاماتهم وهي اعز موجود في الاتقياء من الناس وبعد تصفية
القلب عن كدورة الالتفات الى الخلق يفيض عليه نور اليقين وينكشف له مبادي الحق
وانكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجري مجرى انكار من انكر امكان انكشاف
الصورة في الحديد اذا شكل ونقي وصقل وصور بصورة المرآة فنظر المنكر الى ما في يده

من الحديد المظلم وقد استولى على ذلك الصدآ والخبث وهو لا يحكي صورة من الصور
فانكر امكان انكشاف الملا فيها عند ظهور جوهرها وانكار ذلك غاية الجهل والضلال
فهذا حكم كل من انكر كرامات الاولياآ اذ لا مستند له الا قصوره عنه وقصور من رآه
واستبعاده ذلك انكار لقدرة الله تعالى بل انما يشم روايح المكاشفة من سلك شيئا
ولو من مبادي الطريق كما قيل لبشر باي شي نلت هذه المنزلة فقال كنت كاتما
لله تعالى حالي معناه اسآله ان يكتم علي ويخفي امري وروي انه راى الخضر عليه السلم فقال
له ادع الله عز وجل فقال يسر الله عليك طاعته قلت زدني قال وسترها عليك فقيل معناه سترها عنك حتى لا تلتفت اليها وعن بعضهم انه قال اقلقني
الشوق الى الخضر فسالت الله عز وجل مرة ان يريني اياه ليعلمني شيا كان اهم الاشيا
الي قال فرايته فما غلب على همي ولا همتي الا ان قلت له يا ابا العباس علمني شيئا اذا قلته
حجبت عن قلوب الخليقة فلم يكن لي فيها قدر ولم يعرفني احد بصلاح ولا ديانة فقال
قل اللهم اسبل علي كثيف سترك وحط علي سرادقات حجبك واجعلني في مكنون غيبك
واحجبني عن قلوب خلقك قال ثم غاب فلم اره ولم اشتق اليه بعد ذلك فما زلت
اقول هذه الكلمات في كل يوم فحكي انه صار بحيث كان يستذل ويمتهن حتى كان اهل
الذمة يسخرون به ويستسخرونه في الطريق يحمل الاشيآ لهم لسقوطه عندهم وكان الصبيان
يلعبون به وكانت راحته ركود قلبه واستقامة حاله في ذلته وخموله وكذا حال
اولياآ الله عز وجل ففي امثال هولآ ينبغي ان يطلبوا والمغرورون انما يطلبونهم
تحت المرقعات والطيالسة وفي المشهورين بين الخلق في العلم والورع والرياسة
وغيرة الله تعالى على اوليايه تابى الا اخفاءهم كما قال تعالى اوليايي تحت قبابي لا يعرفهم
غيري وقال عليه السلم رب اشعث اغبر ذي طمرين لا يوبه له لو اقسم على الله لابره وبالجملة
فابعد القلوب عن مشام هذه المعاني القلوب المتكبرة المعجبة بانفسها المستبشرة
بعلمها وعملها واقرب القلوب اليها القلوب المنكسرة المستشعرة ذل نفسها استشعارا
اذا ذل واهتضم لم يحس بالذل كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه فاذا لم يحس بالذل ولم يشعر ايضا بعدم التفات الناس اليه
بل كان عند نفسه اخس من ان يرجع انواع الذل ذلا في حقه بل يرى نفسه دون
ذلك حتى صار التواضع بالطبع صفة ذاتية فمثل هذا القلب يرجى له ان يستنشق مبادي
هذه الروايح فان فقدنا مثل هذا القلب وحرمنا مثل هذا الروح فلا ينبغي ان نطرح

ان نطرح الايمان بامكان ذلك لاهله فمن لا يقدر ان يكون من اولياآ الله عز وجل فليكن
محبا للاوليآ الله تعالى مومنا بهم فعسى ان يحشر مع من احب ويشهد لهذا ما روي ان عيسى
عليه السلم قال لبني اسرآيل اين ينبت الزرع قالوا في التراب فقال بحق اقول لكم لا ينبت
الحكمة الا في قلوب مثل التراب ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى في طلب شرطها باذلال
النفس الى منتهى الضعة والخسة حتى يروى عن استاذ الجنيد وهو ابن الكريني انه دعاه رجل
الى الطعام ثم كان يرده ثم يستدعيه فيرجع اليه بعد ذلك حتى ادخله المرة الرابعة فسأله
عن ذلك فقال قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب
يطرد ثم يرمى له بعظم فيعود ولو رددتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لاجبت وعنه ايضا
انه قال نزلت في محلة فعرفت فيها بالصلاح فتشتت قلبي فدخلت الحمام وعثرت على ثياب
فاخرة فسرقتها ولبستها ثم لبست مرقعتي فوقها وخرجت وجعلت امشي قليلا قليلا فلحقوني
فنزعوا مرقعتي واخذوا الثياب وصفعوني واوجعوني ضربا فصرت بعد ذلك اعرف
بلص الحمام فسكنت نفسي فهكذا كانوا يروضون انفسهم حتى يخلصهم الله من النظر الى الخلق
ثم من النظر الى النفس فان الملتفت الى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له
فليس بين القلب وبين الله تعالى حجاب بعد وتخلل حايل وانما بعد القلوب شغلها
بغيرها او بنفسها واعظم الحجب شغل النفس ولذلك حكي ان شاهدا عظيم القدر من
اهل بسطام كان لا يفارق مجلس ابي يزيد فقال له يوما يا ابا يزيد انا منذ ثلثين سنة اصوم
الدهر لا افطر واقوم الليل لا انام ولا اجد في نفسي من هذا العلم الذي تذكر شيا وانا اصدق
به واحبه فقال ابو يزيد ولو صمت ثلثمائة سنة وقمت ليلها ما وجدت من هذه ذرة قال ولم
قال لانك محجوب بنفسك قال فلهذا دوآ قال نعم قال قل لي حتى اعمله قال لا تقبل قال فاذكره لي
حتى اعمل قال اذهب الساعة الى المزين فاحلق راسك ولحيتك وانزع هذا اللباس
واتزر بعباة وعلق في عنقك مخلاة مملوة جوزا واجمع الصبيان حولك وقل يا صبيان من يصفعني صفعة اعطيته جوزة
وادخل الاسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وانت على ذلك فقال الرجل سبحان الله
تقول لي مثل هذا فقال ابو يزيد قولك سبحان الله شرك قال وكيف قال لانك عظمت نفسك
فسبحتها وما سبحت ربك فقال هذا لا افعله ولكن دلني على غيره فقال ابتدي بهذا قبل كل
شي فقال لا اطيقه فقال قد قلت لك انك لا تقبل فهذا الذي ذكره ابو يزيد هو دوآ من اعتل

بنظره الى نفسه ومرض ينظر الينا من ليس ولا يخرج عن هذا المرض وما سوى هذا وامثاله من
لا يطيق الدوآ لا ينبغي ان ينكر امكان الشفا في حق من داوى نفسه بعد المرض او لم يمرض
بهذا المرض بامكانها فويل لمن حرم هذا القدر القليل ايضا بهذه امور جليه من الشرع
واضحة وهي مع ذلك مستبعده عند من بعد نفسه من علمآ الشرع وقد قال عليه السلام لا يستكمل
العبد الايمان حتى يكون قلة الشي احب اليه من كثرة الشي وحتى ان لا يعرف احب اليه من
ان يعرف وقد قال ثلث من كن فيه فقد استكمل ايمانه لا يخاف في الله لومة لائم ولا يرآئي
بشي من عمله واذا عرض عليه امران احدهما للدنيا والاخرة للاخرة آثر امر الاخرة على
الدنيا وقال عليه السلام لا يكمل ايمان العبد حتى يكون فيه ثلث خصال اذا غضب لا يخرجه
غضبه من حق واذا رضى لم يدخله رضاه في باطل واذا قدر لم يتناول ما ليس له وفي حديث
اخر ثلث من اوتيهن فقد اوتي مثل ما اوتي آل داود العدل في الرضا والغضب والقصد
في الغنآ والفقر وخشية الله في السر والعلانية فهذه شروط ذكرها عليه السلام لاهل الايمان فـ
العجب ممن يدعي علم الدين ولا يصادف في نفسه ذرة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من
علمه وعقله ان يجحد ما لا يكون الا بعد مجاوزة عقبات عظيمة ورآء الايمان وفي الاخبار
ان الله تعالى اوحى الى بعض انبيآئه انما اتخذ لخلتي من لا يفتر عن ذكري ولا يعول على شيئا
من خلقي وان احرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعا وان قطع بالمناشير لم يجد لمس الحديد
الما فمن لم يبلغ الحب الى هذا فمن اين يعرف ما ورآء الحب من الكرامات والمكاشفات
وكل ذلك ورآء الحب والحب ورآء الايمان ومقامات الايمان وتفاوتها في الزيادة و
النقصان لا تحصى **ختم الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة** قال بعضهم المحبة
معنى من المحبوب قاهر للقلوب تعجز القلوب عن ادراكه وتمتنع الالسن عن عبارته وقال
الجنيد رحمه الله حرم الله المحبة على صاحب العلاقة وقيل للشبلي صف لنا العارف والمحب
فقال العارف ان تكلم هلك والمحب ان سكت هلك وقالت [illegible]
فقال خادمه لها حبيبا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه وقال ابن الجلاء اوحى الله عز وجل
الى عيسى عليه السلام اني اذا اطلعت على سر عبد فلم اجد فيه حب الدنيا والاخرة ملأته حبي و
توليته بحفظي وقال ابراهيم بن ادهم الهي انك تعلم ان الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة
في حبيب ما اكرمتني به من محبتك وانستني بذكرك وفرغتني للتفكر في عظمتك وقال الشبلي رحمه

اصلا فاعلم بدرجات العقد
الايمان بامكانها

اوحى الله عز وجل الى داود ذكرى للذاكرين وجنتي للمطيعين وزيارتي للمشتاقين وانا خاصة
للمحبين وعن علي بن ابي طالب عليه السلام قال سالت النبي صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال المعرفة راس مالي والعقل
اصل ديني والحب اساسي والشوق مركبي وذكر الله عز وجل انيسي والثقة كنزي والحزن رفيقي
والعلم سلاحي والصبر ردائي والرضا غنيمتي والعجز فخري والزهد حرفتي واليقين قوتي
والصدق شفيعي والطاعة حسبي والجهاد خلقي وقرة عيني في الصلوة وقال ذو النون سبحان
من جعل الارواح جنودا مجندة فارواح العارفين جلالية قدسية فلذلك اشتاقت الى الله
عز وجل وارواح المؤمنين روحانية فلذلك حنوا الى الجنة وارواح الغافلين هوائية
فلذلك مالوا الى الدنيا وقيل الشوق نار الله اشعلها في قلوب اوليائه حتى يحرق بها
ما في قلوبهم من الخواطر والارادات والعوارض والحاجات فهذا القدر كاف في شرح
المحبة والانس والشوق والرضا تم كتاب المحبة وتوابعها

كتاب النية والصدق والاخلاص وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات من كتب احيآء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رحمه الله بعد الحمد والصلوة اما بعد فقد انكشف لارباب القلوب
ببصيرة الايمان وانوار القران ان لا وصول الى السعادة الا بالعلم والعبادة فالناس
كلهم هلكى الا العالمين والعالمون كلهم هلكى الا العاملين والعاملون كلهم هلكى الا
المخلصين والمخلصون على خطر عظيم فالعمل بغير نية عنآء والنية بغير اخلاص ريآء
وهو للنفاق كفآء ومع العصيان سوآء والاخلاص من غير صدق وتحقيق هبآء وقد
قال تعالى كل عمل كان بارادة غير الله مشوبا مغمورا وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه
هبآء منثورا وليت شعري كيف يصحح النية من لا يعرف حقيقة النية وكيف يخلص من
صحح النية اذا لم يعرف حقيقة الاخلاص وكيف يطالب المخلص نفسه بالصدق اذا لم
يتحقق معناه فالوظيفة الاولى على كل عبد اراد طاعة الله ان يتعلم النية اولا لتحصل
المعرفة ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والاخلاص اللذين هما وسيلتان للعبد
الى النجاة والخلاص ونحن نذكر معاني النية والصدق والاخلاص في ثلثة ابواب
الباب الاول في حقيقة النية ومعناه **بيان فضيلة النية** قال الله عز وجل

ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه والمراد بتلك الارادة هي النية وقال صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه وقال صلى الله عليه وسلم اكثر شهداء امتي اصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله اعلم بنيته وقال الله عز وجل ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما فجعل النية سبب التوفيق وقال صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل لا ينظر الى صوركم واموالكم وانما ينظر الى قلوبكم واعمالكم وانما نظر الى القلوب لانها مظنة النية وقال صلى الله عليه وسلم ان العبد ليعمل اعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف مختمة فتلقى بين يدي الله عز وجل فيقول القوا هذه الصحيفة فانه لم يرد بما فيها وجهي ثم ينادي الملائكة اكتبوا له كذا وكذا فيقولون يا ربنا انه لم يعمل شيئا من ذلك فيقول الله تعالى انه نواه انه نواه وقال صلى الله عليه وسلم الناس اربعة رجل اتاه الله عز وجل علما ومالا فهو يعمل بعلمه في ماله فيقول رجل لو ان الله اتاني مثل ما اتاه لعملت كما يعمل فهما في الاجر سواء ورجل اتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يتخبط بجهله في ماله فيقول رجل لو ان الله اتاني مثل ما اتاه لعملت كما يعمل فهما في الوزر سواء الا ترى كيف شركه بالنية في محاسن عمله ومساويه وفي حديث ابي هريرة من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي اداءه فهو زان ومن ادان دينا وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق وقال صلى الله عليه وسلم من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه اطيب من المسك ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه انتن من الجيفة وذكر رحمه الله من الاخبار والاثار كثيرا

بيان حقيقة النية اعلم ان النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها امران العلم يتقدمه لانه اصله وشرطه والعمل يتبعه لانه ثمرته وفرعه وذلك لان كل عمل اعني كل حركة وسكون اختياري فانه لا يتم الا بثلاثة امور علم وارادة وقدرة لانه لا يريد الانسان ما لا يعلمه فلا بد ان يعلم ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من ارادة ومعنى الارادة انبعاث القلب الى ما يراه موافقا للغرض اما في الحال او في المآل فقد خلق الانسان بحيث يوافقه بعض الامور ويلائم غرضه ويخالفه بعض الامور فاحتاج الى جلب الملائم الموافق الى نفسه ودفع المضار المنافي عن نفسه فافتقر بالضرورة الى معرفة وادراك للشيء المضر والنافع حتى يطلب ويهرب فان من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه فلا يمكنه ان يتناوله ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها اسبابا وهي الحواس الظاهرة والباطنة وليس ذلك من غرضنا ثم لو عرف الغذاء وعرف انه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل اليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه اذ المريض يرى الغذاء ويعلم انه موافق له ولا يمكنه التناول لفقد الرغبة والميل ولفقد الداعية المحركة اليه فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والارادة واعني به نزوعا في نفسه اليه وتوجها في قلبه اليه ثم ذلك لا يكفيه فكم من مشاهد طعاما راغب فيه مريد تناوله عاجز عنه لكونه زمنا فخلقت له القدرة والاعضاء المتحركة حتى يتم به التناول والعضو لا يتحرك الا بالقدرة والقدرة تنتظر الداعية الباعثة والداعية تنتظر العلم والمعرفة او الظن والاعتقاد وهو ان يقوى في نفسه كون الشيء موافقا له فاذا جزمت المعرفة بان الشيء موافق ولا بد ان يفعل وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الارادة وتحقق الميل فاذا انبعثت الارادة انتهضت القدرة لتحريك الاعضاء فالقدرة خادمة للارادة والارادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الارادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل الى ما هو موافق للغرض اما في الحال واما في المآل فالمحرك الاول هو الغرض المطلوب وهو الباعث والغرض الباعث هو المقصد المنوي والانبعاث هو القصد والنية وانتهاض القدرة لخدمة الارادة بتحريك الاعضاء هو العمل الا ان انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتمعا في فعل واحد فاذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بانهاض القدرة وقد يكون كل واحد قاصرا عنه الا بالاجتماع وقد يكون احدهما كافيا لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضدا له ومعاونا فيخرج منه هذا التقسيم اربعة اقسام فلنذكر لكل واحد مثالا واسما اما الاول فهو ان ينفرد الباعث الواحد ويتجرد كما اذا هجم على الانسان سبع فكلما رآه قام من موضعه فلا مزعج له الا قصد الهرب من السبع فانه رأى السبع وعرفه ضاريا فانبعث نفسه الى الهرب ورغبت فيه فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث فيقول نيته الفرار من السبع لا نية له في غيره وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها اخلاصا بالاضافة الى الغرض الباعث ومعناه انه خلص عن مشاركة غيره وممازجته واما الثاني فهو ان يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالانهاض لو انفرد ومثاله من المحسوس ان يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة

كانت كافية من الحمل لو انفردت ومثاله في غرضنا ان من له قريب فقير فتعرض حاجته فيقضيها
لفقره وقرابته وعلم انه لولا فقره لكان يقضيها لمجرد القرابة وانه لولا قرابته لكان يقضيها
لمجرد الفقر وعلم ذلك من نفسه بان يحضره قريب غني فيرغب في قضاء حاجته وفقير اجنبي
فيرغب ايضا فيه وكذلك من امره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وعلم
انه لولا عرفة لكان يترك الطعام حمية ولولا الحمية لكان يترك لاجل انه عرفة وقد اجتمعا جميعا
فاقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الاول فلنسم هذا موافقة البواعث الثالث
ان لا يستقل كل واحد لو انفرد لكن يقوى مجموعهما على انهاض القدرة ومثاله من المحسوسات
ان يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد به احدهما ومثاله من غرضنا ان يقصده قريبه الغني
فيطلب درهما فلا يعطيه ويقصده الاجنبي الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ثم يقصده الفقير
القريب فيعطيه فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين هما القرابة والفقر وكذلك الرجل
يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء ويكون بحيث لو كان منفردا لكان
لا يبعثه مجرد الثواب على العطاء ولو اجتمعا اورثا بمجموعهما تحريك القلب ولنسم هذا الجنس مشاركة
والرابع ان يكون احد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل ولكن لما انضاف
اليه لم ينفك عن تاثير بالاعانة والتسهيل ومثاله من المحسوس ان يعاون الضعيف الرجل
القوي على الحمل ولو انفرد القوي لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل فان ذلك بالجملة
يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه ومثاله في غرضنا ان يكون للانسان ورد في الصلوات وعادة في
الصدقات فاتفق ان حضر في وقتها جماعة من الناس فصار الفعل اخف عليه بسبب مشاهدتهم
وعلم من نفسه انه لو كان منفردا خاليا لم يفتر عن عمله وعلم ان عمله لو لم يكن رفيقا او شريكا او
معينا وسنذكر حكمها في باب الاخلاص وغرضنا الآن بيان اقسام النيات فان العمل تابع
للباعث عليه فيكتسب الحكم منه فلذلك قيل انما الاعمال بالنيات لانها تابعة لا حكم لها في نفسها
انما الحكم للمتبوع **بيان سر قوله عليه السلام نية المؤمن خير من عمله** اعلم انه قد يظن ان
سبب هذا الترجيح ان النية سر لا يطلع عليه الا الله تعالى والعمل ظاهر وفعل السر افضل
وهذا صحيح وليس هو المراد لانه لو نوى ان يذكر الله تعالى بقلبه او يتفكر في مصالح المسلمين
فيقتضي عموم الحديث ان يكون نية التفكر خيرا من التفكر وقد يظن ان سبب الترجيح ان النية
تدوم الى آخر العمل والاعمال لا تدوم وهو ضعيف اذ ذلك يرجع معناه الى ان العمل الكثير

خير من القليل بل ليس كذلك فان نية اعمال الصلاة قد لا تدوم الا في لحظات معدودة
والاعمال تدوم والعموم يقتضي ان تكون نيته خيرا من عمله وقد يقال معناه ان النية بمجردها
خير من العمل بمجرده دون النية وهو كذلك ولكنه بعيد ان يكون هو المراد اذ العمل بلا نية
او على الغفلة لا خير فيه اصلا والنية بمجردها خير وظاهر الترجيح للمشتركين في اصل الخير بل
المعنى به ان كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات
ولكن النية من جملة الطاعات خير من العمل اي لكل واحد منهما اثر في المقصود واثر النية اكثر
من اثر العمل فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته والغرض
ان للعبد اختيارا في النية وفي العمل فهما عملان والنية من الجملة خيرهما فهذا معناه واما
كونه خيرا ومرجحا على العمل فلا يفهمه الا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ اثر الطريق في
الايصال الى المقصد وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الارجح بالاضافة
الى المقصود ومن قال الخبز خير من الفالوذج فانما يعني به انه خير بالاضافة الى مقصود القوت
والاغتذاء ولا يفهم ذلك الا من فهم ان للغذاء مقصدا وهو الصحة والبقاء وان الاغذية
تختلف آثارها فيها وفهم اثر كل واحد وقاس البعض بالبعض فالطاعات غذاء القلوب
والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة وسعادتها وتنعمها بلقاء الله عز
وجل فالمقصود لذة السعادة بلقاء الله تعالى فقط ولن يتنعم بلقاء الله تعالى الا من مات
محبا لله عارفا بالله ولا بد لعوائق من الاسباب الخارجة من القلب وذلك غير حط الاثقال
هذه الصفات وبهذا يفهم جميع الاحاديث التي اوردناها في فضيلة النية فاعرضها عليه تنكشف
لك اسرارها فلا نطول بالاعادة **بيان تفصيل الاعمال المتعلقة بالنية** اعلم ان الاعمال
وان انقسمت اقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب نفع ودفع ضر وفكر
وذكر وغير ذلك مما لا يتصور احصاؤه واستقصاؤه فهي ثلاثة اقسام طاعات ومعاصي
ومباحات القسم الاول المعاصي وهي لا تتغير عن موضوعاتها بالنية فلا ينبغي ان يفهم الجاهل
ذلك من عموم قوله عليه السلام انما الاعمال بالنيات فيظن ان المعصية تنقلب طاعة بالنية
كالذي يغتاب انسانا مراعاة لقلب غيره او يطعم فقيرا من مال غيره او يبني مدرسة او رباطا
بمال حرام وقصده الخير فهذا كله جهل والنية لا تؤثر في اخراجه عن كونه ظلما وعدوانا و
معصية بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر فان عرفه فهو معاند للشرع

دان جهله فهو عاص بجهله اذ طلب العلم فريضة على كل مسلم والخيرات انما عرف كونها خيرات
بالشرع وكيف يكون الشر خيرا هيهات بل المروج لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى
فان القلب اذا كان مايلا الى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وساير حظوظ النفس توسل الشيطان
به الى التلبيس على الجاهل ولذلك قال سهل ما عصي الله تعالى بمعصية اعظم من الجهل قيل يا ابا محمد
هل تعرف شيا اشد من الجهل قال نعم الجهل بالجهل وهو كما قال لان الجهل بالجهل يسد بالكلية
باب التعلم فمن ظن بنفسه انه عالم كيف يتعلم وكذلك افضل ما اطيع الله به العلم وراس العلم
العلم بالعلم كما ان راس الجهل الجهل بالجهل فان من لا يعرف النافع من العلم الضار واشتغل بما اكب الناس
عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسايلهم الى الدنيا فذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم
والمقصود ان من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور الا اذا كان قريب العهد بالاسلام
ولم يجد بعد مهلة التعلم وقد قال الله تعالى فاسئلوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وقد قال عليه السلام
لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل ان يسكت على جهله ولا للعالم ان يسكت عن علمه
ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرب علماء السوء بتعليم
العلم السفهاء والاشرار المعروفين بالفجور والقاصرين همتهم على مماراة العلماء ومباراة
السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا واخذ اموال السلاطين والمساكين
واليتامى فان هولاء اذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله وانتهض كل واحد في بلده ثم
نايبا عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويجتري الناس
بسبب مشاهدته على معاصي الله تعالى ثم قد ينتشر ذلك العلم الى مثله وامثاله ويتخذونه ايضا
آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ويتسلسل ذلك ووبال جميعه يرجع الى المعلم الذي علمه
العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ومشاهدته انواع المعصية في اقواله وافعاله وفي
مطعمه وملبسه ومسكنه فيموت هذا العالم ويبقى آثار شره منتشرة في العالم الف سنة
وطوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه ثم العجب من جهله حيث يقول انما الاعمال بالنيات وقد
قصدت بذلك نشر علم الدين فان استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني وما قصدت
الا ان يستعين به على الخير وانما حب الرياسة يلبس عليه وليت شعري ما جوابه عمن وهب
سيفا من قاطع طريق واعد له خيلا واسبابا ويقول انما اردت البذل والسخاء والتخلق
باخلاق الله عز وجل وقصدت بان يغزو بهذا السيف والخيل فان اعداد الخيل للرباط

للرباط والقوة للغزاة من اقرب القربات فان صرفه هو الى قطع الطريق فهو
العاصي وقد اجمع الفقهاء على ان ذلك حرام مع ان السخاء هو احب الاخلاق
الى الله تعالى حتى قال عليه السلام ان لله تعالى ثلثمائة خلق من تقرب اليه بواحد منها دخل الجنة
واحبها اليه السخا فليت شعري لم حرم هذا السخا ولم وجب عليه ان ينظر الى
قرينة الحال من هذا الظالم فاذا لاح له من عادته انه يستعين بالسلاح على الشر ينبغي
ان يسعى في سلب سلاحه لا ان يمده بغيره والعلم سلاح يقاتل به الشيطان
واعداء الله وقد يعاون به اعداء الله تعالى وهو الهوى فمن لا يزال موثرا للدنيا على
دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز امداده بنوع علم يمكنه
به من الوصول الى شهواته بل لم يزل علماء السلف يتفقدون احوال من يتردد اليهم
فلو راوا منهم تقصيرا في نفل النوافل انكروه وتركوا اكرامه واذا راوا منه فجورا
واستحلالا لحرام هجروه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلا عن تعليمه العلم لعلمهم
بان من تعلم مسئلة ولم يعمل بها وجاوزها الى غيرها فليس يطلب الا آلة الشر وقد
تعوذ جميع السلف بالله من الفاجر العليم بالسنة وما تعوذوا من الفاجر الجاهل وحكي
عن بعض اصحاب الامام احمد بن حنبل انه كان يتردد اليه سنين ثم اتفق ان اعرض عنه
احمد وهجره وصار لا يكلمه فلم يزل يسأله عن تغيره وتنكره حتى قال بلغني انك
طينت حايط دارك من جانب الشارع وقد اخذت قدر سمك الطين وهو انملة
من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم فهكذا كانت مراقبة السلف لاحوال طلبة
العلم فهذا وامثاله مما يلبس على الاغبياء واتباع الشيطان وان كانوا ارباب الطيالسة
والاكمام الواسعة واصحاب الالسنة الطويلة والفضل الكثير اعني الفضل من العلوم
التي لا تشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها والترغيب في الآخرة والدعاء اليها بل هي
العلوم التي تتعلق بالخلق ويتوصل بها الى جمع الحطام واستتباع الناس والتقدم
على الاقران فاذن قوله عليه السلام الاعمال بالنيات تختص من الاقسام الثلثة بالطاعات
والمباحات دون المعاصي اذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد ويكون طاعة بالقصد
والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد فاما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد اصلا
نعم النية داخلة فيها وهو انها اذا انضافت اليها قصود خبيثة تضاعف وزرها

وبالها كما ذكرناه في كتاب التوبة **القسم الثاني** الطاعات وهي مرتبطة بالنيات في اصل
صحتها وفي تضاعف فضلها اما الاصل فهو ان ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير فان نوى
الرياء صارت معصية واما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة فان الطاعة الواحدة
يمكن ان ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب اذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف
كل حسنة عشر امثالها كما ورد به الخبر ومثاله القعود في المسجد فانه طاعة ويمكن ان
ينوي فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل اعمال المتقين ويبلغ به درجات المؤمنين
اولها ان يعتقد انه بيت الله وان داخله زائر لله تعالى فيقصد به زيارة مولاه رجاء
لما وعده النبي عليه السلام حيث قال من دخل المسجد فقد زار الله عز وجل وحق على المزور
اكرام زائره وثانيها ان ينتظر الصلوة بعد الصلوة فيكون من جملة انتظاره في الصلوة
وهو معنى قوله تعالى ورابطوا وثالثها الترهب بكف السمع والبصر والاعضاء عن الحركات
والترددات فان الاعتكاف كف وهو في معنى الصوم وهو نوع ترهب ولذلك قال
عليه السلام رهبانية امتي القعود في المساجد ورابعها عكوف الهم على الله تعالى ولزوم السر
للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال الى المسجد وخامسها التجرد
لذكر الله او لاستماع ذكره او للتذكر به كما روي من غدا الى المسجد ليذكر الله عز
وجل او يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله وسادسها ان يقصد افادة علم لله عز
وجل بامر بمعروف او نهي عن منكر اذ المسجد لا يخلو عمن يسيء في صلوته او يتعاطى ما لا يحل
له فيامره بالمعروف ويرشده الى الدين فيكون شريكا معه في خيره الذي يعلم منه فتتضاعف
خيراته وسابعها ان يستفيد اخا في الله عز وجل فان ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة والمسجد
معشش اهل الدين المحبين في الله تعالى وثامنها ان يترك الذنوب حياء من الله عز وجل وحياء
من ان يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمة وقال الحسن بن علي عليهما السلام من ادمن
الاختلاف الى المسجد رزقه الله تعالى احدى سبع خصال اخا مستفادا في الله او رحمة
مستنزلة او علما مستطرفا او كلمة تدل على هدى او تصرفه عن ردى او يترك الذنوب خشية
او حياء فهذا طريق تكثير النيات وقس به سائر الطاعات والمباحات اذ ما من طاعة
الا وتحتمل نيات كثيرة وانما تحضر في قلب العبد بقدر جده في طلب الخير وتشمره وتفكره
فيه فبهذا تزكو الاعمال وتتضاعف الحسنات **القسم الثالث** المباحات الا ويحتمل نية

او نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات فما اعظم خسران من
يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سهو وغفلة ولا ينبغي ان يستحقر العبد
الخطرات والخطوات واللحظات فكل ذلك يسأل عنها يوم القيمة انه لم فعلها وما الذي
قصده بها هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال عليه السلام حلالها حساب وحرامها
عذاب وفي حديث معاذ بن جبل انه قال عليه السلام ان العبد ليسأل يوم القيمة عن كل شيء حتى
عن كحل عينيه وعن فتات الطينة باصبعه وعن لمسه ثوب اخيه وفي خبر آخر من تطيب لله
تعالى جاء يوم القيمة وريحه اطيب من المسك ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيمة وريحه
انتن من الجيفة واستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية فان قلت فما الذي يمكن
ان ينوي بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله تعالى فاعلم ان من تطيب
مثلا يوم الجمعة وفي سائر الاوقات يتصور ان يقصد التنعم بلذات الدنيا او يقصد به اظهار
التفاخر بكثرة المال ليحسده الاقران او يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر
بطيب الرائحة او ليتودد به الى قلوب النساء الاجنبيات اذا كان مستحلا للنظر اليهن ولامور
اخر لا تحصى وكل هذا يجعل التطيب معصية فبذلك يكون انتن من الجيفة في القيمة الا
القصد الاول وهو التلذذ والتنعم فان ذلك ليس بمعصية الا انه يسأل عنه ومن نوقش
في الحساب عذب ومن اتى شيئا من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ولكن ينقص من
نعيم الآخرة له بقدره وناهيك خسرانا بان يستعجل ما يفنى ويخسر زيادة نعيم يبقى واما
النيات الحسنة فان ينوي به اتباع سنة النبي عليه السلام يوم الجمعة وان ينوي به تعظيم المسجد
واحترام بيت الله عز وجل فلا يرى ان يدخله زائر الله عز وجل الا طيب الرائحة وان يقصد
به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحه وان يقصد به دفع الروائح الكريهة
عن نفسه التي تؤدي الى ايذاء مخالطيه وان يقصد به حسم باب الغيبة على المغتابين اذا
اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله عز وجل بسببه فمن تعرض للغيبة وهو قادر على
الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية كما قيل اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا الا
تفارقهم فالراحلون هم وقال الله عز وجل ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله
عدوا بغير علم اشار به الى ان التسبب الى الشر شر وان يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته
وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر وقد قال الشافعي من طاب ريحه زاد عقله

فهذا وامثاله من النيات لا يعجز القلب عنها اذا كانت تجارة الاخرة وطلب الخير غالبا على قلبه واذا لم يغلب على قلبه الا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات وان ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها الا حديث النفس وليس ذلك من النية في شي والمباحات كثيرة ولا يمكن احصا النيات فيها فقس بهذا الواحد على غيره ولهذا قال بعض السلف اني لاستحب ان يكون لي في كل شي نية حتى في اكلي وشربي ونومي ودخولي الخلا وكل ذلك مما يمكن ان يقصد به التقرب الى الله لان كل ما هو سبب لبقا البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين فمن كان قصده من الاكل التقوي على العبادة ومن الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب اهله والتوصل به الى ولد يعبد الله بعده فتكثر به امة محمد صلى الله عليه وسلم كان مطيعا باكله ونكاحه واغلب حظوظ النفس الاكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الاخرة ولذلك ينبغي ان يحسن نيته مهما ضاع له مال فيقول هو في سبيل الله واذا بلغه اغتياب غيره له فليطيب قلبه بانه سيحمل سيئاته وسينقل الى ديوانه حسناته ولينو ذلك بسكوته عن الجواب ففي الخبر ان العبد ليحاسب فتبطل اعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الاعمال الحسنة ما يستوجب به الجنة فيتعجب ويقول يا رب هذه اعمالي ما عملتها فيقال هي اعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلموك وفي الخبر ان العبد ليوافي القيمة بحسنات امثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة فياتي وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته حتى لا يبقى له حسنة فتقول الملائكة قد فنيت حسناته وبقي طالبون فيقول الله تعالى القوا عليه من سيئاتهم ثم صكوا له صكا الى النار بعد الجنة فاياك ثم اياك ان تستحقر شيئا من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب فان الله مطلع عليك وشهيد وما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وقال بعض السلف كتبت كتابا واردت ان اتربه من حائط جار لي فتحرجت ثم قلت تراب وما تراب فتربته فهتف بي هاتف سيعلم من استخف بالتراب ما يلقاه غدا من سوء الحساب وصلى رجل مع الثوري فرآه مقلوب الثوب فعرفه فمد يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوه فسأله عن ذلك فقال اني لبسته لله تعالى ولا اريد ان اسويه لغير الله وقد قال الحسن ان الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيمة فيقول بيني وبينك الله فيقول والله ما اعرفك فيقول بلى انت اخذت لبنة من حائطي واخذت خيطا من ثوبي فهذا وامثاله من الاخبار قطعت قلوب الخائفين فان كنت من اولي الحزم والنهى ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل ان يدقق عليك وراقب احوالك ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تتأمل اولا انك لم تتحرك وماذا تقصد وما الذي تنال به من الدنيا وما الذي يفوتك من الاخرة وبماذا ترجح الدنيا على الاخرة فاذا علمت انه لا باعث الا الدين فامض عزمك وما خطر ببالك والا فامسك ثم راقب قلبك ايضا في امساكك وامتناعك فان ترك الفعل فعل ولا بد له من نية صحيحة فلا ينبغي ان يكون لداعي هوى خفي لا تطلع عليه ولا يغرنك ظواهر الامور ومشهورات الخيرات وانظر الى الاغوار والاسرار تخرج من حيز اهل الاغترار فقد روي عن زكريا عليه السلام انه كان يعمل في حائط بالطين وكان اجيرا لقوم فقدموا له رغيفا اذ كان لا ياكل الا من كسب يده فدخل عليه قوم فلم يدعهم الى الطعام حتى فرغ منه فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده وظنوا ان الخير في طلب المساعدة في الطعام فقال اني اعمل لقوم باجرة وقدموا الي الرغيفين لاتقوى على عملهم فلو اكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعفت عن عملهم فالبصير هكذا ينظر الى البواطن بنور الله فان ضعفه عن العمل نقصة فرض وترك الدعوة نقصة فضل ولا حكم للفضائل مع الفرائض وقال بعضهم دخلت على سفيان وهو ياكل فما كلمني حتى لعق اصابعه ثم قال لولا اني اخذته بالدين لاحببت ان تاكل منه وقال سفيان من دعا رجلا الى الطعام وليست له رغبة في ان ياكل فان اجابه فاكل فعليه وزران وان لم ياكل فعليه وزر واحد واراد باحد الوزرين النفاق والثاني تعريضه اخاه لما يكرهه لو علمه فهكذا ينبغي ان يتفقد العبد نيته في سائر الاعمال فلا يقدم ولا يحجم الا بنية فان لم تحضره النية توقف فان النية لا تدخل تحت الاختيار

بيان ان النية غير داخلة تحت الاختيار

اعلم ان الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله عليه السلام الاعمال بالنيات فيقول في نفسه عند تدريسه او تجارته او اكله نويت ان ادرس لله واتجر لله واكل لله ويظن ان ذلك نية وهيهات فذلك حديث نفس او حديث لسان او فكر او انتقال من خاطر الى خاطر والنية بمعزل عن جميع ذلك وانما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها الى ما ظهر لها ان فيه غرضها اما عاجلا واما آجلا والميل اذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الارادة بل ذلك كقول الشبعان نويت ان اشتهي الطعام واميل اليه او قول الفارغ نويت ان اعشق فلانا واحبه واعظمه بقلبي وذلك محال وما قدر بل لا طريق الى اكتساب صرف القلب الى الشي وميله

اليه وتوجهه نحو الا اكتساب اسبابه وذلك ما قد يقدر عليه وقد لا يقدر
عليه وانما ينبعث النفس الى الفعل اجابة للغرض الباعث الموافق الملايم لها فما
لم يعتقد الانسان ان غرضه منوط بفعل من الافعال فلا يتوجه نحوه قصده
وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين واذا اعتقده فانما يتوجه القلب اذا
كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل اقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت
والدواعي والصوارف لها اسباب كثيرة بها تجتمع ويختلف ذلك بالاشخاص
والاحوال والاعمال فاذا غلبت شهوة النكاح ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد دينا
لم يمكنه ان يواقع على نية الولد بل لا يمكن الا على نية قضاء الشهوة اذ النية اجابة
الباعث ولا باعث الا الشهوة فكيف ينوي الولد واذا لم يغلب على قلبه ان اقامة
سنة النكاح اتباعا لرسول الله يعظم فضلها لم يمكنه ان ينوي اتباع السنة الا
ان يقول ذلك بلسانه وقلبه وهو حديث محض وليس بنية نعم طريق اكتساب هذه
النية مثلا ان يقوي اولا ايمانه بالشرع ويقوي ايمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير
امة محمد صلى الله عليه وآله ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد من ثقل المؤنة و
طول التعب وغيره واذا فعل ذلك فربما انبعث من قلبه رغبة الى تحصيل الولد للثواب
فتحركه تلك الرغبة وتحركت اعضاؤه لمباشرة العقد واذا انتهضت القدرة المحركة
للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناويا واذا لم يكن
كذلك فما يقدره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان و
لهذا امتنعت جماعة من جملة من الطاعات اذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا
فيه نية حتى ان ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال ليس تحضرني نية و
نادى بعضهم امراته وكان يسرح شعره ان هاتي المدرى فقالت اجي بالمراة
فسكت ساعة ثم قال نعم فقيل له في ذلك فقال كانت لي في المدرى نية ولم تحضرني
في المراة نية فتوقفت حتى هياها الله تعالى ومات حماد بن ابي سليمان وكان
احد علما اهل الكوفة فقيل للثوري الا تشهد جنازته فقال لو كان لي نية لفعلت
كانوا اذا سئلوا عملا من اعمال البر قالوا ان رزقنا الله تعالى نية فعلنا وكان طاوس
لا يحدث الا بنية فكان يسال ان يحدث فلا يحدث ولا يسال فيبتدي فقيل له

له في ذلك فقال اتحبون ان احدث بغير نية اذا حضرتني نية فعلت وحكي ان داود
بن المحبر لما صنف كتاب العقل جاءه الامام احمد بن حنبل فطلب منه فنظر فيه احمد صفحا
ورده فقال ما لك فقال فيه اسانيد ضعاف فقال داود انا لم اخرجه على الاسانيد
فانظر فيه بعين الخبر انما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت به قال احمد فرده علي
حتى انظر فيه بالعين التي نظرت فاخذه ومكث عنده طويلا ثم قال جزاك الله
خيرا فقد انتفعت به وقيل لطاوس ادع لنا فقال حتى اجد له نية وقال بعضهم انا
في طلب نية لعيادة رجل منذ شهر فما صحت لي بعد وقال عيسى بن كثير مشيت مع
ميمون بن مهران فلما انتهى الى باب داره انصرفت فقال ابنه الا تعرض عليه
العشا فقال ليس من نيتي وهذا لان النية يتبع النظر فاذا تغير النظر تغير النية
فكانوا لا يرون ان يعملوا عملا الا بالنية لعلمهم بان النية روح الاعمال وان العمل
بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب وعلموا ان النية
ليست هي قول القايل بلسانه نويت بل هي انبعاث القلب يجري مجرى الفتوح من الله تعالى
فقد تتيسر في بعض الاوقات وقد تتعذر نعم من كان الغالب على قلبه امر الدين تيسر
عليه في اكثر الاحوال احضار النية للخيرات فان قلبه مايل بالجملة الى اصل الخير فينبعث الى
التفاصيل غالبا ومن مال قلبه الى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له في
الفرايض الا بجهد جهيد وغايته ان يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها او نعيم الجنة
ويرغب نفسه فيها فربما ينبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدره واما
الطاعة على نية اجلال الله عز وجل لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا يتيسر للراغب
في الدنيا وهذه اعز النيات واعلاها ويعز من يفهمها فضلا عمن يتعاطاها و
نيات الناس في الطاعة اقسام اذ منهم من يكون عمله اجابة لباعث الخوف فانه يتقي
النار ومنهم من يعمل اجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة وهذا وان كان نازلا
بالاضافة الى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لامر سواه فهو من جملة النيات
الصحيحة لانه ميل الى الموعود في الاخرة وان كان نازلا بالاضافة الى قصد طاعة الله
من جنس المالوف في الدنيا والغالب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء
وطرهما الجنة فالعامل لاجل الجنة عامل لبطنه وفرجه كالاجير السوء ودرجته درجة البله

لنا انا نعلم ان اكثر اهل الجنة البله وانما عبادة ذوي الالباب فلا يجاوز ذكر الله
تعالى والفكر فيه جمال الجلال وجماله وسائر الاعمال يكون مؤكدات وروادف وهو لا
ارفع درجة من الالتفات الى المنكوح والمطعوم في الجنة فانهم لم يقصدوها بل هم الذين
يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط وثواب الناس بقدر نياتهم
فلاجرم يتنعمون بالنظر الى وجهه الكريم المصنوعة من الطين بل اشد فان التفاوت
بين جمال الحضرة الكريم ويسخرون ممن يلتفت الى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم
بالنظر الى الحور العين اشد واعظم كثيرا ممن يتنعم بالنظر الى وجه الصور المصنوعة من
الطين بل اشد فان التفاوت بين جمال الحضرة الربوبية وجمال الحور العين اشد واعظم
كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين بل استعظام
البهيمة الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان واعراضها عن جمال وجه الله الكريم
يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبتها والفها لها واعراضها عن النظر الى جمال وجوه النساء
فعمى اكثر القلوب عن ادراك جمال الله عز وجل وجلاله يضاهي عمى الخنفساء عن
جمال النساء فانها لا تشعر به اصلا ولا تلتفت اليه ولو كان لها عقل وذكرن لكانت تستخف
عقل من يلتفت اليهن ولا تزالون مختلفين كل حزب بما لديهم فرحون ولذلك خلقهم
وقيل راى احمد بن خضرويه ربه في المنام فقال له كل الناس يطلبون مني الا ابا يزيد
فانه يطلبني وراى ابو يزيد في المنام فقال كيف الطريق اليك فقال اترك نفسك وتعال
وراى الشبلي في المنام فقيل له ما فعل الله بك قال لم يطالبني على الدعاوى بالبرهان الا
على شيء واحد قلت اي خسارة اعظم من خسران الجنة فقال اي خسارة اعظم من خسران لقائي
والغرض ان هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لم يتيسر
له العدول الى غيرها ومعرفة هذه الحقائق تورث اعمالا واعمالا لا يستنكرها الظاهرية
من الفقهاء فانا نقول من حضرت له نية في مباح ولم تحضره نية في فضيلة فالمباح اولى وانتقلت
الفضيلة اليه وصارت الفضيلة في حقه نقيصة لان الاعمال بالنيات وذلك مثل العفو فانه
افضل من لان الاعمال بالنيات وذلك مثل العفو فانه افضل من الانتصاف في الظلم فاذا ربما
تحضره نية في الانتصاف دون العفو فيكون ذلك افضل ومثل ان يكون له نية في الشرب والاكل
والنوم ليريح نفسه ويتقوى على العبادة في المستقبل وليس ينبعث نيته في الحال للصوم والصلوة

والصلوة فالاكل والنوم هو الافضل بل لو مل العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعف
رغبته وعلم انه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه فاللهو افضل له من الصلوة وقال ابو
الدرداء اني لاستجم نفسي بالهو فيكون ذلك عونا لي على الحق وقال علي رضي الله عنه روحوا القلوب
فانها اذا اكرهت عميت وهذه دقايق لا يدركها سماسرة العلماء دون الحشوية منهم بل الحاذق
بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر في الطب وانما يبتغي به ان يعيد اولا
قوته ليحتمل المعالجة بالضد والحاذق في الشطرنج قد ينزل عن الرخ والفرس مجانا ليتوصل
بها الى الغلبة والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه وكذلك الخبير بالقتال قد يرى قرنه
نفسه الفرار وتوليه الدبر حيلة منه ليستجره الى مضيق فيكر عليه فيقهره فكذلك سلوك طريق الله عز
وجل كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الموفق يقف فيها على لطايف من
الحيل يستبعدها الضعفاء فلا ينبغي للمريد ان يضمر انكارا على ما يراه من شيخه ولا للمتعلم
ان يعترض على استاذه بل ينبغي ان يقف عند بصيرته وما لا يفهمه من احوالهما يسلم
لهما الى ان ينكشف له اسرارها بان يبلغ رتبتها وينال درجتها **الباب الثاني** في الاخلاص
وفضيلته وحقيقته ودرجته **فضيلة الاخلاص** قال الله تعالى وما امروا الا ليعبدوا الله
مخلصين له الدين وقال الا لله الدين الخالص وقال الا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا
بالله واخلصوا دينهم لله وقال فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة
ربه احدا نزلت فيمن يعمل لله ويحب ان يحمد عليه وقال صلى الله عليه وسلم ثلث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم
اخلاص العمل لله عز وجل وعن مصعب بن سعد عن ابيه قال ظن ابي ان له فضلا على من دونه
من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فقال صلى الله عليه وسلم انما نصر الله هذه الامة بضعفائها
ودعوتهم واخلاصهم وصلواتهم وعن الحسن قال قال النبي صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى الاخلاص
سر من اسراري استودعته قلب من احببته من عبادي وقال علي بن ابي طالب عليه السلام لا
تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فان النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل اخلص العمل يجزك منه
القليل وقال صلى الله عليه وسلم ما من عبد يخلص العمل لله اربعين يوما الا ظهرت ينابيع الحكمة من
قلبه على لسانه وقال صلى الله عليه وسلم اول من يسأل يوم القيمة ثلث رجل اتاه الله العلم فيقول الله
كذبت وتقول الملائكة كذبت بل اردت ان يقال فلان عالم الا فقد قيل ذلك ورجل
قتل في سبيل الله فيقول يا رب امرت بالجهاد فقاتلت فيقول الله عز وجل

كذبت ويقول له الملائكة بل اردت ان يقال فلان شجاع فقد قيل ذلك قال ابو
هريرة ثم خط النبي صلى الله عليه وآله على فخذي فقال يا ابا هريرة اولئك اول خلق تسعر
نار جهنم يوم القيمة ودخل راوي الحديث هذا على معاوية ورواه له فبكى حتى كادت
نفسه تخرج ثم قال صدق الله قال الله تعالى من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها الآية وفي الاسرائيليات
ان عابدا كان يعبد الله دهرا طويلا فجاءه قوم فقالوا ان هنا قوما يعبدون شجرة
دون الله تعالى فغضب لذلك فاخذ فاسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها فاستقبله
ابليس في صورة شيخ فقال اين تريد رحمك الله قال اريد ان اقطع هذه الشجرة قال وما
انت وذاك تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك فقال ان هذا
من عبادتي قال فاني لا اتركك ان تقطعها فقاتله فاخذه العابد فطرحه على الارض وقعد
على صدره فقال له ابليس اطلقني حتى اكلمك فقام عنه فقال له ابليس يا هذا ان الله تعالى
قد اسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك وما تعبدها انت وما عليك من غيرك ولله تعالى
انبياء في الارض ولو شاء الله لبعثهم الى اهلها وامرهم بقطعها فقال العابد لا بد لي من
قطعها فنابذه القتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز ابليس فقال له هل لك في امر فصل
بيني وبينك وهو خير لك وانفع قال وما هو قال اطلقني حتى اقول لك فاطلقه فقال
ابليس انت رجل فقير لا شيء لك انما انت كل على الناس قال نعم قال فارجع عن هذا الامر ولك
علي ان اجعل عند راسك في كل ليلة دينارين اذا اصبحت اخذتهما فانفقتهما في نفسك وعيالك
وتصدقت منها على اخوانك فيكون ذلك انفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي تغرس
مكانها ولا يضرهم قطعها شيئا ولا ينفع اخوانك المؤمنين قطعك اياها فتفكر العابد فيما
قال وقال صدق الشيخ لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا امرني الله ان اقطعها
فاكون عاصيا بتركها وما ذكره اكثر منفعة فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له فرجع العابد الى
متعبده فبات فلما اصبح راى دينارين عند راسه فاخذهما وكذلك الغد ثم اصبح اليوم
الثالث وما بعده فلم ير شيئا فغضب واخذ فاسه على عاتقه فاستقبله ابليس في صورة
الشيخ فقال له الى اين قال اقطع تلك الشجرة فقال كذبت والله ما انت بقادر على ذلك ولا
سبيل لك اليها فتناوله العابد لياخذه كما فعل اول مرة فقال هيهات فاخذه ابليس
وصرعه فاذا هو كالعصفور بين رجليه وقعد ابليس على صدره فقال لتنتهين عن هذا

الامر او لاذبحنك فنظر العابد فاذا لا طاقة له به فقال يا هذا غلبتني فخل عني واخبرني
كيف غلبتك اولا وغلبتني الآن فقال لانك غضبت لله تعالى اول مرة وكانت نيتك
الآخرة فسخرني الله لك وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك وهذه الحكاية
تصديق قوله تعالى الا عبادك منهم المخلصين اذ لا يتخلص العبد من الشيطان الا بالاخلاص
ولذلك كان معروف الكرخي يضرب نفسه ويقول يا نفس اخلصي تتخلصي وقال يعقوب
المكفوف المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته وراى بعضهم في المنام فقيل له كيف
وجدت اعمالك قال كل شيء عملته لله وجدته حتى حبة رمان لقطتها من طريق وحتى هرة
لنا ماتت رايتها في كفة الحسنات وقالت كانت في قلنسوتي خيط من حرير فرايته في كفة السيئات
وكان قد نفق حمار لي قيمته مائة دينار فما رايت له ثوابا فقلت موت سنور في كفة الحسنات
وموت حمار ليس فيها فقيل له انه قد وجه حيث بعثت به انه لما قيل لك قد نفق قلت في
لعنة الله فبطل اجره ولو قلت في سبيل الله لوجدته في حسناتك وفي رواية وتصدقت
بين الناس فاعجبني نظرهم الي فوجدته لا لي ولا علي قال سفيان لما سمع هذا ما
احسن حاله اذ لم يكن عليه فقد احسن اليه وقال يحيى بن معاذ الاخلاص يميز العمل من
العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم وقيل كان رجل يخرج في زي النساء ويحضر
موضعا فيه عرس او ماتم تجتمع فيه النساء فاتفق ان حضر يوما موضعا فيه مجمع النساء
فسرقت درة فصاحوا ان اغلقوا الباب حتى نفتش فكانوا يفتشون واحدة واحدة
حتى بلغت النوبة اليه والى امراة فدعا الله عز وجل بالاخلاص وقال ان نجوت
من هذه الفضيحة لا اعود الى مثل هذا فوجدت الدرة مع تلك المراة فصاحوا ان اطلقوا الحرة فقد
وجدنا الدرة وقال بعض الصوفية كنت قائما مع ابي عبيد التستري وهو يحرث ارضه بعد العصر
من يوم عرفة فمر به بعض اخوانه من الابدال فساره بشيء فقال ابو عبيد لا فمر كالسحاب يمسح
الارض حتى غاب عن عيني فقلت لابي عبيد ما قال لك فقال سالني ان احج معه فقلت لا
قلت فهلا فعلت قال ليست لي في الحج نية وقد نويت ان اتمم هذه الارض العشية فاخاف
ان حججت معه لاجل الغير لقيت الله لانا ادخلته في عمل الله شيئا غيره فيكون ما انا فيه اعظم
عندي من سبعين حجة وعن بعضهم انه قال غزوت في البحر فعرض بعضنا مخلاة فقلت
اشتريها فانتفع بها في غزوي فاذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها فاشتريتها فرايت

رأيت الليلة في النوم كأن شخصين نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه اكتب فأملى
عليه اكتب خرج فلان متنزها وفلان مرائيا وفلان تاجرا وفلان في سبيل الله ثم
نظر إلي وقال اكتب وفلان تاجرا فقلت الله الله في أمري ما خرجت أتجر ولا معي
تجارة أتجر فيها ما خرجت إلا للغزو فقال يا شيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن
تربح فيها فبكيت وقلت لا تكتبوني تاجرا فنظر إلى صاحبه وقال ما ترى فقال اكتب
خرج فلان غازيا إلا أنه اشترى في طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله تعالى فيه
ما يرى وقال سري السقطي لأن تصلي ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من أن تكتب سبعين
حديثا أو سبعمائة بعلو وقال بعضهم في إخلاص ساعة نجاة الأبد ولكن الإخلاص
عزيز ويقال العلم بذر والعمل زرع وماؤه الإخلاص وقال بعضهم إذا أبغض الله
عبدا أعطاه ثلاثا ومنعه ثلاثا أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم وأعطاه
الأعمال الصالحة ومنعه الإخلاص فيها وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها وقال الجنيد
إن لله عبادا عقلوا فلما عقلوا عملوا فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الإخلاص إلى
أبواب البر أجمع وقال محمد بن سعيد المروزي الأمر كله يرجع إلى أصلين فعل منه
بك وفعل منك له فترضى ما فعل وتخلص فيما تعمل فإذا أنت قد سعدت بهذين
وفزت في الدارين **بيان حقيقة الإخلاص** اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه
غيره فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصا ويسمى الفعل المصفى المخلص إخلاصا
قال الله تعالى من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين فإنما خلوص اللبن
أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به والإخلاص يضاده
الإشراك فمن ليس مخلصا فهو مشرك إلا أن للشرك درجات والإخلاص في التوحيد يضاده
التشريك في الإلهية والشرك منه خفي ومنه جلي وكذا الإخلاص وضده يتواردان
على القلب فمحله القلب وإنما يكون ذلك في القصود والنيات وقد ذكرنا حقيقة
النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث فمهما كان الباعث واحدا على التجرد سمي الفعل
الصادر عنه إخلاصا بالإضافة إلى المنوي فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص
ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص ولكن العادة جارية بتخصيص اسم
الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب كما أن الإلحاد عبارة عن

عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض
للهلاك ولسنا نتكلم فيه إذ ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربع المهلكات وأقل
أموره ما ورد في الخبر أن المرائي يدعى يوم القيامة بأربعة أسماء يا مرائي يا مخادع
يا مشرك يا كافر وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا
الباعث آخر إما من الرياء وإما من غيره من حظوظ النفس ومثال ذلك أن يصوم
لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب أو يعتق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء
خلقه أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر أو يتخلص من شر يعرض له في بلده أو ليهرب عن عدو
له في منزله أو يتبرم بأهله وولده أو بشغل هو فيه فأراد أن يستريح عنه أياما أو ليغزو
ليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها أو يصلي بالليل
وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به ليراقب رحله وأهله أو يتعلم العلم ليسهل عليه
طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزا بين العشيرة أو ليكون عقاره وأمواله محروسة
بعز العلم عن الأطماع أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج
بلذة الحديث أو تكفل بخدمة العلماء والصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند
الناس أو لينال به رفقا في الدنيا أو كتب مصحفا ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه أو حج
ماشيا ليخفف عن نفسه الكراء أو توضأ ليتنظف ويتبرد أو اغتسل لتطيب رائحته أو روى
الحديث ليعرف بعلو الإسناد أو اعتكف في المسجد ليخف عليه كراء المسكن أو صام ليخفف
عن نفسه التردد في طبخ الطعام أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها أو تصدق على
السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه أو يعود مريضا ويشيع جنازة على السائل
ليقطع ليعاد إذا مرض ويشيع جنائز أهله أو يفعل شيئا من ذلك ليعرف
بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله
عز وجل ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل عليه أخف
بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الإخلاص وتطرق الشرك إليه وقد قال
تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشركة وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس و
يميل إليه القلب قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه وزال وعبادة من عباداته
عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس فلذلك قيل من سلمت له في عمره خطوة

واحدة خالصة لوجه الله تعالى الحاد وذلك لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوايب
بل الخالص هو الذي لا باعث فيه الا طلب القرب من الله تعالى وهذه الحظوظ ان كانت هي
الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الامر على صاحبه فيها وانما نظرنا فيما اذا كان القصد
الاصلي هو التقرب وانضافت هذه الامور اليه ثم هذه الشوايب اما ان يكون في رتبة
الموافقة او في رتبة المشاركة او في رتبة المعاونة كما سبق في النية وبالجملة فاما ان يكون
الباعث النفسي مثل الباعث الديني او اقوى منه او اضعف ولكل واحد حكم آخر
كما سنذكره وانما الاخلاص تخليص العمل عن هذه الشوايب كلها قليلها وكثيرها حتى
يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه وهذا لا يتصور الا من محب لله
عز وجل مستهتر به مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار حتى لا
يحب الاكل والشرب ايضا بل يكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة من حيث انه ضرورة
الجبلة فلا يشتهي الطعام لانه طعام بل لانه يقويه على عبادة الله تعالى ويتمنى لو كفي شر
الجوع حتى لا يحتاج الى الاكل فلا يبقى في قلبه حظ في الفضول الزائدة على الضرورة ويكون
قدر الضرورة مطلوبا عنده لانه ضرورة دينه فلا يكون له هم الا الله فمثل هذا الشخص
لو اكل او شرب او قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية في جميع حركاته وسكناته فلو
نام مثلا ليريح نفسه فيتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكانت له درجة المخلصين
فيه ومن ليس كذلك فباب الاخلاص في العمل كالمسدود عليه الا على الندور وكما ان
من غلب عليه حب الله عز وجل وحب الآخرة اكتسب حركاته الاعتيادية صفة همه و
صارت اخلاصا فالذي يغلب على نفسه حب الدنيا والعلو والرياسة وبالجملة حب
غير الله فقد اكتسب جميع حركاته تلك الصفة فلا تسلم له عباداته من صوم وصلوة الا نادرا
فعلاج الاخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب
ذلك على القلب فاذ ذاك يتيسر الاخلاص وكم من اعمال يتعب الانسان فيها ويظن انها
خالصة لوجه الله تعالى ويكون فيها مغرورا لانه لا يرى وجه الآفة كما حكي عن بعضهم انه
قال قضيت صلوة ثلثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الاول لاني تاخرت
يوما لعذر وصليت في الصف الثاني فاعترتني خجلة من الناس حيث راوني في الصف
الثاني فعرفت ان نظر الناس الي في الصف الاول كان يسرني وكان سبب استراحة قلبي

قلبي من ذلك من حيث لا اشعر وهذا دقيق غامض وقلما تسلم الاعمال عن امثاله وقل
من يتنبه له والغافلون عنه يرون حسناتهم كلها سيئات وهم المرادون بقوله تعالى و
بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما كسبوا وقل هل ننبئكم بالاخسرين
اعمالا الذين ضل سعيهم في الحيوة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا واشد الخلق
تعرضا لهذه الفتنة العلماء فان الباعث للاكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح
بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول غرضكم نشر
دين الله والنضال عن شرع رسول الله صلعم وترى الواعظ يمن على الله بنصحه للخلق و
وعظه للسلاطين ويفرح بقبول الناس قوله واقبالهم عليه وهو يدعي انه يفرح بما
يسر له من نصرة الدين ولو ظهر من اقرانه من هو احسن منه وعظا وانصرف الناس
عنه واقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه ولو كان باعثه الدين لشكر الله عز وجل اذ كفاه
هذا المهم بغيره ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول انما غمك لانقطاع الثواب عنك لا
لانصراف وجوه الناس عنك ولو اتعظوا بقولك لكنت انت المثاب واغتمامك لفوات
الثواب محمود ولا يدري المسكين ان انقياده للحق وتسليمه الامر للافضل اجزل ثوابا و
اعود عليه في الآخرة من انفراده وليت شعري لو اغتم عمر بتصدي ابي بكر للامامة اكان
غمه محمودا او مذموما ولا يستريب ذو دين ان لو كان ذلك لكان مذموما لان انقياده
للحق وتسليمه الامر الى من هو اصلح له اعود عليه في الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من
الثواب الجزيل بل فرح عمر باستقلال من هو اعلى منه بالامر فما بال العلماء لا يفرحون بذلك
وقد ينخدع بعض اهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بانه لو ظهر من هو اولى منه
بالامر لفرح به واخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور
فان النفس سهلة القياد في الوعد بامثال ذلك قبل نزول الامر بها ثم اذا دهاها الامر
تغيرت ورجعت ولم تف بالوعد ولا يعرف ذلك الا من عرف مكايد النفس وطال اشتغاله
بامتحانها فمعرفة حقيقة الاخلاص والعمل بها بحر عميق يغرق فيه الجميع الا الشاذ النادر
والفرد الفذ وهو المعني بقوله تعالى الا عبادك منهم المخلصين فليكن العبد شديد التفقد
والمراقبة لهذه الدقائق والا التحق باتباع الشيطان وهو لا يشعر **بيان اقاويل
الشيوخ في الاخلاص** قال السوسي الاخلاص فقد رؤية الاخلاص لان من شاهد

في اخلاصه الاخلاص فقد احتاج اخلاصه الى اخلاص وما ذكره اشارة الى تصفية
العمل عن العجب بالفعل فان الالتفات الى الاخلاص والنظر اليه عجب وهو من جملة
الافات والخالص ما صفى عن جميع الافات فهذا تعرض لآفة واحدة وقال سهل الاخلاص
ان يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض وفي معناه
قول ابرهيم بن ادهم صدق النية مع الله عز وجل وقيل لسهل اي شئ اشد على النفس
فقال الاخلاص اذ ليس لها فيه نصيب وقال رويم الاخلاص في العمل هو ان لا يريد صاحبه
عليه عوضا في الدارين وهذه اشارة الى ان حظوظ النفس اجلا وعاجلا والعابد
لاجل التنعم النفس بالشهوات في الجنة معلول بل الحقيقة ان لا يراد بالعمل الا وجه الله تعالى
وهو اشارة الى اخلاص الصديقين وهو الاخلاص المطلق فاما من يعمل لرجاء الجنة وخوف
النار فهو مخلص بالاضافة الى الحظوظ العاجلة والا فهو في طلب حظ البطن والفرج وانما
المطلوب الحق عند ذوي الالباب وجه الله فقط وهو القائل لا يتحرك الانسان الا لحظ والبراءة
من الحظوظ صفة الالهية ومن ادعاها فهو كافر وقد قضى القاضي ابو بكر الباقلاني بتكفير
من يدعي البراءة من الحظوظ وقال هذا من صفات الالهية وما ذكره حق ولكن القوم ارادوا
بها البراءة عما يسميه الناس حظوظا وهي الشهوات الموصوفة في الجنة فقط فاما التلذذ
بمجرد المعرفة والمناجاة والنظر الى وجه الله عز وجل فهذا حظ هؤلاء وهذا لا يعده الناس
حظا بل يتعجبون منه وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة الشهود
للحضرة الالهية سرا وجهرا جميع نعم الجنة لاستحقروها ولم يلتفتوا اليها فحركتهم لحظ وطاعتهم
لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره وقال ابو عثمان الاخلاص نسيان رؤية الخلق
بدوام النظر الى الخالق وهو اشارة الى آفة الريا فقط ولذلك قال بعضهم الاخلاص ان
لا يكون بحيث يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه فانه اشارة الى مجرد الاخفا
وقد قيل الاخلاص ما استتر عن الخلائق وصفا عن العلائق وهو اجمع للمقاصد وقال
المحاسبي هو اخراج الخلق من معاملة الرب وهو اشارة الى مجرد الريا وكذلك قول
الخواص من شرب من كاس الرياسة فقد خرج عن اخلاص العبودية وقال الحواريون
لعيسى عليه السلام ما الخالص من الاعمال فقال الذي يعمل لله عز وجل لا يحب ان يحمده عليه
احد وهذا ايضا تعرض للريا وانما خص بالذكر لانه اقوى الاسباب المشوشة للاخلاص

للاخلاص وقال الجنيد الاخلاص تصفية الاعمال من الكدورات وقال الفضيل
ترك العمل من اجل الناس ريآء والعمل من اجل الناس شرك والاخلاص ان
يعافيك الله منهما وقيل الاخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها وهذا
هو البيان الكامل والاقاويل في هذا كثيرة ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف
الحقيقة وانما البيان الشافي بيان سيد الاولين والآخرين عليه السلام اذ سئل عن
الاخلاص فقال ان تقول ربي الله ثم تستقيم كما امرت اي لا تعبد هواك ونفسك
ولا تعبد الا ربك وتستقيم في عبادتك كما امرت وهذا اشارة الى قطع كل ما
سوى الله عز وجل عن مجرى النظر وهو الاخلاص حقا

بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للاخلاص

اعلم ان الآفات المشوشة للاخلاص بعضها
جلي وبعضها خفي وبعضها ضعيف مع الجلا وبعضها قوي مع الخفا ولا يفهم اختلاف
درجاتها في الخفا والجلا الا بالامثال واظهر مشوشات الاخلاص الريا فلنذكر منه
مثالا فنقول الشيطان يدخل الآفة على المصلي مهما كان مخلصا في صلوته حيث نظر اليه
جماعة او دخل عليه داخل فيقول له حسن صلوتك حتى ينظر اليك هذا الحاضر
بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك فيخشع جوارحه وتسكن اطرافه
وتحسن صلوته وهذا هو الريا الظاهر ولا يخفى على المبتدئين من المريدين الدرجة الثانية
ان يكون المريد قد فهم هذه الآفة فاخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيه ولا
يلتفت ويستمر في صلوته كما كان فياتيه في معرض الخير ويقول انت متبوع ومقتدى
بك ومنظور اليك وما تفعله يؤثر عنك ويتاسى بك غيرك فيكون لك ثواب اعمالهم
ان احسنت وعليك الوزر ان اسات فاحسن عملك بين يديه فعساه يقتدي بك
في الخشوع وتحسين العبادة وهذا اغمض من الاول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالاول
وهو ايضا عين الريا ومبطل الاخلاص فانه ان كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا
لا يرتضي لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة ولا يمكن ان يكون نفس غيره اعز
عليه من نفسه فهذا محض التلبيس بل المقتدى به هو الذي استقام في نفسه واستنار
قلبه فانتشر نوره الى غيره فيكون له ثواب عليه فاما هذا فمحض النفاق والتلبيس
فمن اقتدى به اثيب عليه واما هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على اظهاره من نفسه ما ليس

متصفا به الدرجة الثالثة وهي ادق مما قبلها ان يجرب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم ان مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الريا ويعلم ان الاخلاص في ان يكون صلوته في الخلوة مثل صلوته في الملاء ويستحيي من نفسه ومن ربه ان يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعا زايدا على عادته فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلوته على الوجه الذي يرتضيها في الملاء ويصلي في الملاء ايضا كذلك فهذا ايضا من الريا الغامض لانه حسن صلوته في الخلوة ليحسن في الملاء فلا يكون قد فرق بينهما فالتفاته في الخلوة والملاء الى الخلق بل الاخلاص ان يكون مشاهدة البهايم لصلوته ومشاهدة الخلق واحدة فكان نفس هذا ليست تسمح باساءة الصلوة بين اظهر الناس ثم تستحيي من نفسه ان يكون في صورة المرائين ويظن ان ذلك يزول بان يستوي صلوته في الخلوة والملاء وهيهات بل زوال ذلك بان لا يلتفت الى الخلق كما لا يلتفت الى الجمادات في الخلاء والملاء جميعا وهذا الشخص مشغول الهم بالخلق في الملاء والخلاء جميعا وهذا من المكايد الخفية للشيطان الدرجة الرابعة وهي ادق واخفى ان ينظر اليه الناس وهو في صلوته فيعجز الشيطان عن ان يقول له اخشع لاجلهم فانه قد عرف انه تفطن لذلك فيقول له الشيطان تفكر في عظمة الله وجلاله ومن انت واقف بين يديه واستحيي من ان ينظر الله عز وجل الى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه ويخشع جوارحه ويظن ان ذلك عين الاخلاص وهو عين المكر والخداع فان خشوعه لو كان لنظره الى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره وعلامة الامن من هذه الآفة ان يكون هذا الخاطر مما يالفه في الخلوة كما يالفه في الملاء ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون حضور بهيمة سببا فما دام يفرق في احواله بين مشاهدة انسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الاخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الريا وهذا الشرك اخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء كما ورد به الخبر ولا يسلم من الشيطان الا من دق نظره وسعد بعصمة الله وتوفيقه وهدايته والا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله عز وجل لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الريا في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب فان هذه سنن في اوقات مخصوصة

مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لارتباط نظر الخلق بها ولاستيناس الطبع بها فيدعوه الشيطان الى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي ان تتركها ويكون انبعاث القلب باطنا لها لاجل تلك الشهوات الخفية او مشوبة بها مشوبا يخرج من حد الاخلاص بسببه وما لا يسلم من هذه الآفات كلها فليس بخالص بل من يعتكف في مسجد معمور نظيف حسن العمارة يانس الطبع به فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من ثواب الاعتكاف وقد يكون المحرك الخفي في سره هو الانس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع به ويتبين ذلك في ميله الى احد المسجدين او احد الموضعين اذا كان احسن من الآخر فكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع ومبطل حقيقة الاخلاص والغش الذي يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة فمنها ما يغلب ومنها ما يقل ولكن يسهل دركه ومنها ما يدق بحيث لا يدركه الا الناقد البصير وغش القلب ودغل الشيطان وخبث النفس اغمض من ذلك وادق كثيرا ولهذا قيل ركعتان من عالم افضل من عبادة سنة من جاهل واريد به العالم البصير بدقائق آفات الاعمال حتى يخلص منها فان الجاهل نظره الى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادي الى حمرة الدينار المموه واستدارته وهو زيف لا يساوي قيراطا من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير فهكذا يتفاوت امر العبادات بل اشد واعظم ومداخل الآفات المتطرقة الى فنون الاعمال لا يمكن حصرها واحصاؤها فلنذكر ما ذكرناه مثالا والفطن يغنيه القليل من الكثير والبليد لا يغنيه التطويل ايضا فلا فائدة في التفصيل

بيان حكم العمل المشوب في استحقاق الثواب به

اعلم ان العمل اذا لم يكن خالصا لوجه الله عز وجل بل امتزج به شوب من الريا او حظوظ النفس فقد اختلف في ذلك هل يقتضي ثوابا ام يقتضي عقابا ام لا يقتضي شيئا اصلا فلا يكون له ولا عليه اما الذي لم يرد به الا الريا فهو عليه قطعا وهو سبب المقت والعقاب واما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وانما النظر في المشوب وظاهر الاخبار يدل على انه لا ثواب له وليس يخلو الاخبار عن تعارض فيه والذي ينقدح لنا فيه والعلم عند الله ان ينظر الى قدر قوة الباعث فان كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه وان كان باعث الريا اقوى اغلب فليس بنافع بل هو مع ذلك مضر ومقتض للعقاب نعم العقاب الذي فيه اخف

من عقاب العمل الذي تجرد للريا ولم يمتزج به شائبة التقرب اغلب بالاضافة الى الباعث
الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني وهذا لقوله تعالى فمن يعمل مثقال
ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ولقوله ان الله لا يظلم مثقال ذرة فلا ينبغي
ان يضيع قصد الخير بل ان كان قصد التقرب غالبا على الريا حبط منه القدر الذي يساويه
وبقيت زيادة وان كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد وكشف
الغطا عن هذا ان الاعمال تاثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها فداعية الريا من المهلكات وانما
غذا هذا المهلك وقوته العمل على وفقه وداعية الخير من المنجيات وانما قوتها بالعمل على وفقها
فاذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان فاذا عمل على وفق مقتضى الريا فقد قوى
تلك الصفة وان عمل على وفق داعية الخير فقد قوى ايضا تلك الصفة واحدهما مهلك والاخر
منج فان كانت تقويته لهذا بقدر تقويته للآخر فقد تقاوما فكان كالمستضر بالحرارة
اذا تناول ما يضره ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعده كما لو لم
يتناولهما وان كان احدهما غالبا لم يخل الغالب عن اثر فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام
والشراب والادوية ولا ينفك عن اثر في الجسد بحكم سنة الله عز وجل فكذلك لا يضيع مثقال
ذرة من الخير والشر ولا ينفك عن تاثير في انارة القلب او تسويده وفي تقريبه من الله تعالى
او ابعاده فاذا جا بما يقربه شبرا مع ما يبعده شبرا فقد عاد الى ما كان فلا له ولا عليه
فان كان الفعل مما يقربه شبرين والآخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر وقد قال صلعم
اتبع السيئة الحسنة تمحها فاذا كان الريا المحض يمحوه الاخلاص المحض عقيبه لا محالة فاذا
اجتمعا جميعا فلا بد وان يتدافعا بالضرورة ويشهد لهذا اجماع الامة على ان من خرج حاجا
ومعه تجارة صح حجه واثيب عليه وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس نعم يمكن ان يقال
انما يثاب على اعمال الحج عند انتهائه الى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص وانما
المشترك طول المسافة ولا ثواب فيها مهما قصد التجارة ولكن الصواب ان يقال مهما كان الحج
هو المحرك الاصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب
وما عندي ان الغزاة لا يدركون في انفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها
الغنائم وبين جهة لا غنيمة فيها ويبعد ان يقال ادراك هذه التفرقة يحبط بالكلية ثواب
جهادهم بل العدل ان يقال اذا كان الباعث الاصلي والمزعج القوي هو اعلاء كلمة الله

وانما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب نعم لا يساوي ثوابه
ثواب من لا يلتفت قلبه الى الغنيمة اصلا فان هذا الالتفات نقصان لا محالة
فان قلت فالآيات والاخبار تدل على ان شوب الريا محبط للثواب وفي
معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وساير الحظوظ فقد روي عن طاوس وعن
عدة من التابعين ان رجلا سأل النبي صلعم عمن يصطنع المعروف او قال يتصدق
فيحب ان يحمد ويوجر فلم يدر ما يقول له حتى نزل قوله تعالى فمن كان يرجو لقاء
ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا وقد قصد الاجر والحمد جميعا
وروى معاذ عنه عليه السلام قال ادنى الريا شرك وقال ابو هريرة ان الله عز وجل
يقول انا اغنى الاغنياء عن الشرك من عمل عملا فاشرك معي غيري ودعته
لشريكي وروى ابو موسى ان اعرابيا اتاه فقال له يا رسول الله الرجل يقاتل حمية
والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله فقال عليه السلام من
قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وقال ابن مسعود قال النبي صلعم من
هاجر يبتغي شيا من الدنيا فهو له فنقول هذه الاحاديث لا تناقض ما ذكرناه
بل المراد بها من لم يرد بذلك الا الدنيا كقوله من هاجر يبتغي شيا من الدنيا وكان
ذلك هو الاغلب على همته وقد ذكرنا ان ذلك عصيان وعدوان لا لان طلب الدنيا
حرام ولكن طلبها باعمال الدين حرام لما فيه من الريا وتغيير العبادة عن وضعها
واما لفظ الشركة حيث ورد فمطلقه للتساوي وقد بينا انه اذا تساوى القصدان
تقاوما ولم يكن له ولا عليه فلا ينبغي ان يرجى عليه ثواب ثم الانسان عند الشركة
ابدا في خطر فانه لا يدري اي الامرين اغلب على قصده فربما يكون عليه وبالا ولذلك
قال الله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا اي لا يرجى اللقاء مع الشركة
التي احسن احوالها التساقط ويجوز ان يقال ايضا منصب الشهادة لا ينال الا
بالاخلاص في الغزو وبعيد ان يقال من كان باعثه الديني بحيث يزعجه الى مجرد
الغزو وان لم يكن غنيمة وقدر على غزو طايفتين من الكفار احديهما اغنيا و
الاخرى فقرا فمال الى جهة الاغنيا لاعلاء كلمة الله تعالى والغنيمة انه لا ثواب له على
غزوه البتة ونعوذ بالله ان يكون الامر كذلك فان هذا حرج في الدين ومدخل لليأس

على السالكين لان امثال هذه الشوايب لما يعز حظ لا ينفك الانسان عنها الا على الندر
فيكون ما ثر هذا في نقصان الثواب فاما ان يكون في احباط فلا ثم الانسان فيه
على خطر عظيم لانه ربما يظن ان الباعث الاقوى هو قصد التقرب ويكون الاغلب على
سره الحظ النفسي وذلك مما يخفى غاية الخفا فلا يحصل الاجر الا بالاخلاص والاخلاص
قلما يستيقنه العبد من نفسه وان بالغ في الاحتياط فلذلك ينبغي ان يكون ابدا بعد كمال
الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول خايفا ان يكون في عبادته افة يكون وبالها اكثر
من ثوابها وهكذا كان الخايفون من ذوي البصاير وهكذا ينبغي ان يكون كل ذي بصيرة
ولذلك قال سفيان لا اعتد بما ظهر من عملي وقال عبد العزيز بن ابي رواد جاورت
هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت في شي من اعمال الله عز وجل الا
وحاسبت نفسي فوجدت نصيب الشيطان اوفى من نصيبه فليته لا لي ولا علي ومع
هذا فلا ينبغي ان يترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعا وقد حكي ان بعض الفقرا
كان يخدم ابا سعيد الخراز ويخف في اعماله فتكلم ابو سعيد يوما في اخلاص الحركات
فاخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالاخلاص فتعذر عليه قضا
الحوايج واستضر الشيخ بذلك فساله عن امره فاخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الاخلاص وانه
يعجز عنها في اكثر اعماله فيتركها فقال ابو سعيد لا تفعل اذ الاخلاص لا يقطع المعاملة
فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الاخلاص فما قلت لك اترك العمل وانما قلت اخلص العمل
وقد قال الفضيل ترك العمل بسبب الخلق ريا وفعله لاجل الخلق شرك الباب الثالث
في الصدق وفضيلته وحقيقته بيان فضيلة الصدق قال الله عز وجل رجال
صدقوا ما عاهدوا الله عليه وقال النبي صلعم ان الصدق يهدي الى البر والبر يهدي
الى الجنة وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وان الرجل ليكذب حتى
يكتب عند الله كذابا ويكفي في فضيلة الصدق ان الصديق مشتق منه والله تعالى وصف
به الانبيا في معرض المدح والثنا فقال واذكر في الكتاب ابرهيم انه كان صديقا نبيا
وقال واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا وقال ابن عباس اربع من كن فيه فقد ربح الصدق
والحيا وحسن الخلق والشكر وقال بشر بن الحارث من عامل الله عز وجل بالصدق استوحش
من الناس وقال رجل لحكيم ما رايت صادقا فقال لو كنت صادقا لعرفت الصادقين قال

وقال الثوري في قوله تعالى ويوم القيمة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة
قال هم الذين ادعوا محبة الله عز وجل ولم يكونوا بها صادقين واوحى الله تعالى الى داود
يا داود من صدقني في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته وصاح رجل في
مجلس الشبلي ورمى بنفسه في دجلة فقال ان كان صادقا فالله ينجيه كما نجى موسى
عليه السلام وان كان كاذبا فالله يغرقه كما اغرق فرعون وقال محمد بن سعيد المروزي
اذا طلبت الله بالصدق اعطاك الله مرآة بيدك حتى تبصر كل شي من عجايب الدنيا
والاخرة وقال ابو بكر الوراق احفظ الصدق فيما بينك وبين الله عز وجل و
الرفق فيما بينك وبين خلق الله عز وجل وقيل لذي النون هل للعبد الى صلاح
اموره سبيل فقال قد بقينا مذبذبين حيارى نطلب الصدق ما اليه سبيل
فدعاوي الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقيل وعن ابن عباس رضي
الله عنه سيل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق وعن الجنيد في قوله تعالى
ليسيل الصادقين عن صدقهم قال يسال الصادقين عند انفسهم عن صدقهم عند
ربهم وهذا امر على خطر بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه اعلم ان لفظ
الصدق يستعمل في ستة معان صدق في القول وصدق في النية وصدق في
الارادة وصدق في العزم وصدق في الوفا بالعزم وصدق في العمل وصدق في
تحقيق مقامات الدين كلها فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق لانه مبالغة
من الصدق ثم هم ايضا على درجات ومن كان له حظ من الصدق في شي من الجملة فهو
صادق بالاضافة الى ما فيه صدقه الصدق الاول صدق اللسان وذلك لا يكون
الا في الاخبار او فيما يتضمن الاخبار وينبه عليه والخبر اما ان يتعلق بالماضي او
بالمستقبل وفيه يدخل الوفا بالوعد والخلف فيه وحق على كل عبد ان يحفظ الفاظه فلا
يتكلم الا بالصدق وهذا هو اشهر انواع الصدق واظهرها فمن حفظ لسانه عن الاخبار
عن الاشيا على خلاف ما هي عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كمالان احدهما الاحتراز
عن المعاريض وقد قيل ان في المعاريض لمندوحة عن الكذب وذلك لانها تقوم مقام
الكذب اذ المحذور من تفهيم الشي على خلاف ما هو عليه في نفسه الا ان ذلك مما تمس
اليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الاحوال وفي تاديب الصبيان والنسوان ومن يجري

حرامهم وفي الحذر من الظلمة وفي قتال الاعداء والاحتراز عن اطلاعهم على اسرار الملك فمن
اضطر الى شيء من ذلك فصدقه فيه ان يكون نطقه فيه لله فيما يامر الحق به ويقتضيه الدين
فاذا نطق به فهو صادق وان كان كلامه مفهما غير ما هو عليه لان الصدق ما اريد لذاته
بل للدلالة على الحق والدعاء اليه فلا ينظر الى صورته بل الى معناه نعم في مثل هذا الموضع
ينبغي ان يعدل الى المعاريض ما وجد اليه سبيلا كان النبي عم اذا توجه الى سفر ورى
بغيره وذلك كيلا ينتهي الخبر الى الاعداء فيقصد وليس هذا من الكذب في شيء وقال
النبي عم ليس بكذاب من اصلح بين اثنين فقال خيرا او نمى خيرا ورخص في النطق على
وفق المصلحة في ثلثة مواضع من اصلح بين اثنين ومن كانت له زوجتان ومن كان في
مصالح الحرب والصدق ههنا يتحول الى النية فلا يراعى فيه الا صدق النية وارادة
الخير فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير ارادته كان صادقا وصديقا
كيفما كان لفظه ثم التعريض فيه اولى وطريقه ما يحكى عن بعضهم انه كان يطلبه بعض الظلمة
وهو في داره فقال لزوجته خطي باصبعك دائرة وضعي الاصبع عليها وقولي ليس ههنا
واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه فكان قوله صدقا وافهم
الظالم انه ليس في الدار فالكمال الاول في اللفظ ان يحترز عن صريح اللفظ وعن
المعاريض ايضا الا عند الضرورة والكمال الثاني ان يراعي معنى الصدق في الفاظه التي
يناجي بها ربه كقوله وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض فان قلبه ان كان منصرفا
عن الله تعم مشغولا باماني الدنيا وشهواتها فهو كاذب وكقوله اياك نعبد وقوله
انا عبد الله فانه اذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله عز وجل
لم يكن كلامه صدقا ولو طولب يوم القيمة بالصدق في قوله انا عبد الله لعجز عن
تحقيقه فانه ان كان عبدا لنفسه او عبدا للدنيا او عبدا لشهواته لم يكن صادقا في
قوله وكل ما تقيد به العبد فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام يا عبيد الدنيا وقال نبينا صلى الله
عليه والسلام تعس عبد الدنيا تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة وسمى كل
من تقيد قلبه بشيء عبدا له وانما العبد الحق لله تعم من اعتق اولا عن غير الله تعالى
فصار حرا مطلقا فاذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا فحلت فيه العبودية
لله فيشغله بالله ومحبته ويقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد الا الله تعم

الا الله تعم ثم ترقيا منها الى مقام اسنى منه يسمى الحرية وهو ان يعتق ايضا
عن ارادته من حيث هو هو بل يقنع بما يريده الله من تقريب او ابعاد فتفنى ارادته
في الله عز وجل وهذا عبد عتق عن غير الله تعم فصار حرا ثم عاد وعتق عن نفسه
فصار حرا وصار مفقودا لنفسه موجودا لسيده ومولاه ان حركه تحرك وان
سكنه سكن وان ابتلاه رضي لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض بل هو
بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق في العبودية لله فالعبد
الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجات الصديقين واما الحرية
عن غير الله فدرجات الصادقين وبعد هذا تتحقق العبودية لله وما قبل
هذا فلا يستحق صاحبه ان يسمى صادقا ولا صديقا فهذا هو معنى الصدق
في القول الصدق الثاني في النية والارادة ويرجع ذلك الى الاخلاص وهو
ان لا يكون له باعث في الحركات والسكنات الا الله عز وجل فان مازجه شوب
من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز ان يسمى كاذبا كما روينا
في فضيلة الاخلاص من حديث الثلثة حين يسال العالم ما ذا عملت فيما علمت فقال
فعلت كذا وكذا فقال الله عز وجل كذبت اردت ان يقال فلان عالم فانه لم يكذبه
ولم يقل لم تعمل ولكن كذبه في ارادته ونيته وقال بعضهم الصدق صحة التوحيد في
القصد وكذلك قال الله تعم والله يشهد ان المنافقين لكاذبون وقد قالوا انك
لرسول الله وهذا صدق ولكن كذبهم لا من حيث اللسان بل من حيث ضمير القلب
وكان التكذيب يتطرق الى الخبر وهذا القول يتضمن اخبارا بقرينة الحال اذ صاحبه
يظهر من نفسه انه يعتقد ما يقوله فكذب في دلالته بقرينة الحال على ما في قلبه فانه
كذب في ذلك وان لم يكذب فيما يلفظ به فيرجع احد معاني الصدق الى خلوص النية
وهو الاخلاص فكل صادق فلا بد وان يكون مخلصا الصدق الثالث صدق
العزم فان الانسان قد يقدم العزم على العمل فيقول في نفسه ان رزقني الله مالا
تصدقت بجميعه او بشطره او ان لقيت عدوا في سبيل الله قاتلته ولم ابال وان
قتلت وان اعطاني الله ولاية عدلت فيها ولم اعص الله بظلم وميل الى الخلق فهذه
العزيمة قد يصادفها في نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة وقد يكون في عزمه نوع ميل

وقد تردد وضعف فيضاد الصدق في العزيمة فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة
كما يقال لفلان شهوة صادقة ويقال هذا المريض شهوته كاذبة مهما لم تكن شهوته
عن سبب ثابت قوي او كانت ضعيفة فيطلق الصدق ويراد به هذا المعنى فالصادق
هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد
بل تسخو نفسه ابدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر لان اقدم فتضرب
عنقي احب الي من ان اتامر على قوم فيهم ابو بكر فانه قد وجد في نفسه العزم الجازم
والمحبة الصادقة بانه لا يتامر مع وجود ابي بكر فاكد ذلك بما ذكره من القتل ومراتب
الصديقين في العزائم تختلف فقد يصادف الجازم العزم ولا ينتهي الى ان يرضى بالقتل
ولكن اذا خلي ورايه لم يتقدم ولو ذكر له حديث القتل لا ينقض عزمه بل في الصادقين
والمؤمنين من لو خير العزم ثم لا ينتهي الى ان يرضى بالقتل ولكن اذا خلي ورايه
لم يقدم ولو ذكر له حديث القتل لا ينقض عزمه بين ان يقتل هو وابو بكر لكانت حياته
احب اليه من حياة ابي بكر **الصدق الرابع** في الوفاء بالعزم فان النفس قد تسخو
بالعزم في الحال اذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة فاذا حقت الحقائق
وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوة ولم يتفق الوفاء
بالعزم وهذا يضاد الصدق فيه ولذلك قال تعالى رجال صدقوا ما عاهدوا الله
عليه فقد روي عن انس ان عمه انس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال اول مشهد شهده رسول الله صلعم غبت عنه اما
والله لئن اراني الله مشهدا مع رسول الله ليرين الله ما اصنع فشهد احدا من العام القابل
فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا ابا عمرو الى اين فقال واها لريح الجنة اني اجدها دون
احد فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة
فقالت بنت النضر اخته ما عرفت اخي الا ببنانه ونزلت هذه الاية رجال صدقوا
ما عاهدوا الله عليه ووقف النبي صلعم على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم
احد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلعم فقال عليه السلام رجال صدقوا ما عاهدوا
الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وقال مجاهد رجلان خرجا على ملا
من الناس قعودا فقالا ان رزقنا الله مالا لنصدقن فرزقهما الله فبخلا فنزلت

فنزلت ومنهم من عاهد الله لئن اتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من
الصالحين وقال انما هو شيء نووه في انفسهم لم يتكلموا به فقال ومنهم من عاهد الله
لئن اتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما اتاهم من فضله بخلوا
به وتولوا وهم معرضون فاعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله
ما وعدوه وبما كانوا يكذبون فجعل العزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به
صدقا وهذا الصدق اشد من الثالث فان النفس قد تسخو بالعزم ثم تكيع عند الوفاء
لشدته عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الاسباب ولذلك استثنى
عمر في نفسه فقال لان اقدم فتضرب عنقي احب الي من ان اتامر على قوم فيهم
ابو بكر اللهم الا ان تسول لي نفسي عند القتل شيئا لا اجده الان لاني لا امن ان يثقل
عليها ذلك فتتغير عن عزمها اشار بذلك الى شدة الوفاء بالعزم وقال ابو سعيد
الخراز رايت في المنام كان ملكين نزلا من السماء فقالا لي ما الصدق فقلت
الوفاء بالعهد فقالا لي صدقت وعرجا الى السماء **الصدق الخامس** في
الاعمال وهو ان يجتهد حتى لا تدل اعماله الظاهرة على امر في باطنه لا
يتصف هو به لا بان يترك الاعمال ولكن بان يستجر الباطن الى تصديق الظاهر
وهذا يخالف ما ذكرناه من ترك الرياء لان المرائي هو الذي يقصد ذلك
ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه
غافل عن الصلاة فمن ينظر اليه يراه قائما بين يدي الله عز وجل وهو بالباطن
قائم بالسوق بين يدي شهوة من شهواته فهذه اعمال تعرب بلسان الحال عن
الباطن اعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الاعمال وكذلك قد يمشي
الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفا بذلك فهذا غير صادق في
عمله وان لم يكن ملتفتا الى الخلق ولا مرائيا اياهم ولا ينجو من هذا الا باستواء
السريرة والعلانية بان يكون باطنه مثل ظاهره او خيرا من ظاهره ومن خشية ذلك
اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الاشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره
فيكون كاذبا في دلالة الظاهر على الباطن فاذن مخالفة الظاهر للباطن ان كانت
عن قصد سميت رياء ويفوت بها الاخلاص وان كانت عن غير قصد فيفوت بها

الصدق ولذلك قال عليه السلام اللهم اجعل سريرتي خيرا من علانيتي واجعل علانيتي
صالحة وقال عطية بن عبد الغفار اذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به
الملائكة يقول هذا عبدي حقا وقال معاوية بن قرة من يدلني على بكاء بالليل
بسام بالنهار وقال عبد الواحد بن زيد كان الحسن اذا امر بشي كان من اعمل
الناس به واذا نهى عن شي كان من اترك الناس له ولم ار احدا قط اشبه
سريرة بعلانية منه فان مساواة السريرة للعلانية احد انواع الصدق

الصدق السادس وهو اعلى الدرجات واعزها الصدق في مقامات
الدين كالصدق في الخوف والرجا والتعظيم والزهد والحب والتوكل وساير
هذه الامور فان هذه الامور لها مبادي ينطلق الاسم بظهورها ثم لها غايات
وحقايق والصادق المحقق من نال حقيقتها واذا غلب الشي وتمت حقيقته سمي
صاحبها صادقا كما يقال فلان صدق القتال ويقال هذا هو الخوف الصادق
وهذه هي الشهوة الصادقة وقال تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله
ثم لم يرتابوا الى قوله اولئك هم الصادقون وقال تعالى ولكن البر من آمن بالله
واليوم الآخر ثم قال والصابرين في البأساء والضراء الى قوله اولئك الذين صدقوا
وسال ابو ذر عن الايمان فقرا هذه الاية فقيل له سالناك عن الايمان فقال سالت
رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقرا هذه الاية ولنضرب للخوف مثلا فما من عبد يؤمن
بالله الا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ولكنه خوف غير صادق اي
غير بالغ درجة الحقيقة اما تراه اذا خاف سلطانا او قاطع طريق في سفره كيف
يصفر لونه وترتعد فرائصه لكنه خوف غير صادق اي غير بالغ درجة الحقيقة
اما تراه اذا خاف سلطانا او قاطع طريق و يتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه
اكله ونومه وينقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به اهله وولده وقد ينزعج عن الوطن
فيستبدل بالانس الوحشة وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للاخطار كل ذلك
خوفا من درك المحذور ثم انه يخاف النار ولا يظهر عليه شي من ذلك عند جريان
معصية عليه ولذلك قال عليه السلام لم ار مثل النار نام هاربها ولم ار مثل الجنة نام
طالبها فالتحقيق في هذه الامور عزيز جدا ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال غايتها

ولكن لكل عبد منها حظ بحسب حاله اما ضعيف واما قوي فاذا قوي سمي صادقا
فمعرفة الله عز وجل والتعظيم والخوف منه لا نهاية لها ولذلك قال صلى الله عليه وسلم
لجبريل عليه السلام احب ان اراك في صورتك التي هي صورتك فقال لا تطيق قال بلى ارني قال فواعده
البقيع في ليلة مقمرة فاتاه فنظر اليه فاذا هو قد سد الافق يعني جوانب السماء فوقع
عليه السلام مغشيا عليه فافاق وقد عاد جبريل عليه السلام لصورته الاولى فقال ما ظننت ان
احدا من خلق الله عز وجل هكذا قال كيف لو رايت اسرافيل ان العرش لعلى كاهله
وان رجليه قد مرقتا تخوم الارضين السفلى وانه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع
يعني كالعصفور الصغير فانظر ما الذي يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع
الى ذلك الحد وساير الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق في
التعظيم وقال جابر قال صلى الله عليه وسلم مررت ليلة اسري بي الى السماء وجبريل بالملا الاعلى كالحلس
البالي من خشية الله عز وجل قال يعني الكسا الذي يلقى على ظهر البعير ولذلك قال ابن
عمر ما بلغ احد حقيقة الايمان حتى ينظر الى الناس كلهم حمقى في دين الله وقال مطرف
ما من الناس احد الا وهو احمق فيما بينه وبين ربه الا ان بعض الحمق اهون من بعض
وقال عليه السلام لا يبلغ احد حقيقة الايمان حتى ينظر الى الناس كالاباعر في جنب الله
ثم يرجع الى نفسه فيجدها احقر حقير والصادق اذن في جميع هذه المقامات عزيز ثم
درجات الصدق لا نهاية لها وقد يكون للعبد صدق في بعض الامور دون بعض
فان كان صادقا في الجميع فهو الصديق حقا قال سعد بن معاذ ثلث انا فيهن قوي
وفيما سواهن ضعيف ما صليت صلاة منذ اسلمت فحدثت نفسي بان اعيش حتى افرغ
منها وما شيعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قايلة وما هو مقول لها حتى يفرغ
من دفنها وما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول قولا الا علمت انه حق فقال ابن
المسيب ما ظننت ان هذه الخصال تجتمع الا في النبي عليه السلام فهذا صدق في هذه الامور وكم
من جلة الصحابة قد ادوا الصلوة واتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ فهذه
هي درجات الصدق ومعانيه والكلمات الماثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في
الاغلب لا تتعرض الا لاحاد هذه المعاني نعم قال ابو بكر الوراق الصدق ثلثة صدق
التوحيد وصدق الطاعة وصدق المعرفة فصدق التوحيد لعامة المؤمنين قال الله

تعالى والذين امنوا بالله ورسله اولئك هم الصديقون وصدق الطاعة لاهل العلم
والورع وصدق المعرفة لاهل الولاية الذين هم اوتاد الارض وكل هذا يدور على
ما ذكرناه في الصدق السادس ولكنه ذكر اقسام ما فيه الصدق وايضا غير محيط بجميع
الاقسام فقال جعفر الصادق عليه السلام الصدق هو المجاهدة وان لا تختار على الله غيره
كما لم يختر عليك غيرك فقال تعالى هو اجتباكم وقيل اوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام اني
اذا احببت عبدا ابتليته ببلايا لا تقوم لها الجبال لانظر كيف صدقه فان وجدته صابرا
اتخذته وليا وحبيبا وان وجدته جزوعا يشكوني الى خلقي خذلته ولم ابال فاذن من
علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعا وكراهة اطلاع الخلق عليه
تم بحمد الله وحسن توفيقه

كتاب المراقبة والمحاسبة وهو الكتاب الثامن
من ربع المنجيات من كتاب احياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على كل جارحة بما اجترحت المطلع على ضمائر
القلوب اذا هجست الحسيب على خواطر عباده اذا اختلجت الذي لا يعزب عن علمه
مثقال ذرة في السموات والارض تحركت او سكنت المحاسب على النقير والقطمير و
القليل والكثير من الاعمال وان خفيت المتفضل بقبول طاعات العباد وان صغرت
المتطول بالعفو عن معاصيهم وان كثرت وانما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما احضرت و
تنظر ما قدمت واخرت فتعلم انه لولا لزومها المراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في
صعيد القيمة وهلكت وخسرت فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت واستغرقت
رحمته الخلائق في الدنيا والاخرة وغمرت فبنفحات فضله اتسعت القلوب للايمان
وانشرحت وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتادبت وبحسن هدايته
انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت وبتاييده انقطعت مكايد الشيطان
واندفعت وبلطف عنايته ترجح كفة الحسنات اذا ثقلت وبتيسيره تيسرت من
الطاعات ما تيسرت فمنه العطاء والجزاء وبحكمه الابعاد والتقريب والاسعاد والاشقاء

والاشقاء والصلوة على محمد سيد الانبياء وعلى آله سادة الاصفياء وقادة
الاتقياء وسلم كثيرا اما بعد فقد قال الله تعالى ونضع الموازين القسط
ليوم القيمة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا
حاسبين وقال ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا
ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ووجدوا ما عملوا
حاضرا ولا يظلم ربك احدا وقال يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا احصاه
الله ونسوه والله على كل شيء شهيد وقال يومئذ يصدر الناس اشتاتا ليروا
اعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وقال
ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون وقال تعالى يوم تجد كل نفس ما عملت
من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه امدا بعيدا ويحذركم
الله نفسه وقال تعالى واعلموا ان الله يعلم ما في انفسكم فاحذروه واعلموا
ان الله غفور رحيم فعرف ارباب البصائر من جملة العباد ان الله عز وجل
لهم بالمرصاد وانهم سيناقشون في الحساب ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات
واللحظات فتحققوا انه لا ينجيهم الا من حاسب نفسه قبل ان يحاسب خف في القيمة حسابه وحضر عند
السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته
وطالت في عرصات القيمة وقفاته وقادته الى الخزي والمقت سيئاته فلما
انكشف لهم ذلك علموا انه لا ينجيهم منه الا طاعة الله عز وجل وقد امرهم بالصبر
والمرابطة فقال يا ايها الذين امنوا اصبروا وصابروا ورابطوا فرابطوا اولا
انفسهم بالمشارطة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاتبة
فكانت لهم في المرابطة ست مقامات ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها و
فضيلتها وتفصيل الاعمال فيها واصلها المحاسبة ولكن كل حساب فبعد مشارطة
ومراقبة ويتبعه عند الخسران معاتبة ومعاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات

المقام الاول من المرابطة المشارطة اعلم ان مطلب المتعاملين في التجارات
المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما ان التاجر يستعين
بشريكه فيسلم اليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر في طريق

الآخرة وانما مطلبه وربحه تزكية النفس اذ به فلاحها قال الله تعالى قد افلح من
زكيها وقد خاب من دسيها وانما فلاحها بالاعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس في
هذه التجارة اذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه و
غلامه الذي يتجر في ماله وكما ان الشريك يصير خصما منازعا يجاذبه في الربح
فيحتاج الى ان يشارطه اولا ويراقبه ثانيا ويحاسبه ثالثا ويعاقبه او يعاتبه
رابعا فكذلك العقل يحتاج الى مشارطة النفس اولا فيوظف عليها الوظائف
ويشترط عليها الشروط ويرشدها الى طرق الفلاح ويجزم عليها الامر بسلوك
تلك الطريق ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة فانه لو اهملها لم ير منها الا الخيانة وتضييع
راس المال كالعبد الخائن اذا خلا له الجو انفرد بالمال ثم بعد الفراغ ينبغي ان
يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط فان هذه تجارة ربحها الفردوس الاعلى وبلوغ
سدرة المنتهى مع الانبياء والشهداء فتدقيق الحساب في هذا مع النفس اهم كثيرا
من تدقيقه في ارباح الدنيا مع انها محتقرة بالاضافة الى نعيم العقبى ثم كيف ما كانت
فمصيرها الى التصرم والانقضاء ولا خير في خير لا يدوم بل شر لا يدوم خير من
خير لا يدوم لان الشر الذي لا يدوم اذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائما وقد
انقضى الشر والخير الذي لا يدوم يبقى الاسف على انقطاعه دائما وقد انقطع الخير
ولذلك قيل اشد الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا فحتم على
كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر ان لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها
في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها فان كل نفس من انفاس العمر جوهرة
نفيسة لا عوض لها يمكن ان يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه ابد الآباد
فانقضاؤها ضائعة او مصروفة الى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح
به نفس عاقل فاذا اصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي ان يفرغ قلبه ساعة لمشارطة
النفس كما ان التاجر عند تسليم البضاعة الى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته
فيقول للنفس ما لي بضاعة الا العمر ومهما فني فقد فني راس المال ووقع الياس عن التجارة
وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد امهلني الله فيه وانسأ في اجلي وانعم
علي به ولو توفاني لكنت اتمنى ان يرجعني الى الدنيا يوما واحدا حتى اعمل فيه صالحا

صالحا فاحسبي انك قد توفيت ثم قد رددت فاياك ان تضيعي هذا اليوم فان كل نفس
من الانفاس جوهرة لا قيمة لها واعلمي ان اليوم والليلة اربع وعشرون ساعة
وقد ورد في الخبر انه ينشر للعبد بكل يوم وليلة اربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح
له منها خزانة فيراها مملوءة نورا من حسناته التي عملها في تلك الساعة فيناله من الفرح و
الاستبشار بمشاهدة تلك الانوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على اهل
النار لادهشهم ذلك الفرح عن الاحساس بالم النار ثم يفتح له خزانة اخرى سوداء
مظلمة يفوح نتنها ويغشاه ظلامها وهي الساعة التي عصى الله فيها فيناله من الهول
والفزع ما لو قسم على اهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة اخرى فارغة ليس فيها
ما يسره ولا ما يسوءه وهي الساعة التي نام فيها او غفل او اشتغل بشيء من مباحات
الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك
الكبير اذا اهمله وتساهل فيه حتى فاته وناهيك به حسرة وغبنا وهكذا تعرض عليه
خزائن اوقاته طول عمره فيقول لنفسه اجتهدي اليوم في ان تعمري خزانتك ولا تدعيها
فارغة عن كنوزك التي هي اسباب ملكك ولا تميلي الى الكسل والدعة والاستراحة
فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك ويبقى عندك حسرة لا تفارقك و
ان دخلت الجنة فالم الغبن وحسرته لا يطاق وان كان دون الم النار وقد قال بعضهم هب ان المسيء
قد عفي عنه اليس قد فاته ثواب المحسنين اشار به الى الغبن والحسرة وقد قال تعالى
يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن فهذه وصيته لنفسه في اوقاته ثم يستانف لها
وصية في اعضائه السبعة العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل
ويسلمها اليها فانها رعايا خادمة لها في هذه التجارة وبها تتم اعمال هذه التجارة وان
لجهنم سبعة ابواب لكل باب منهم جزء مقسوم وانما تتعين تلك الابواب لمن عصى الله
بهذه الاعضاء فيوصيها بحفظها عن معاصيها اما العين فيحفظها عن النظر الى عورة
مسلم او وجه من ليس بمحرم او النظر الى مسلم بعين الاحتقار بل عن كل فضول مستغنى عنه
فان الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام ثم اذا صرفها عن
هذا لم يقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب
الحكمة للاتعاظ والاستفادة وهكذا ينبغي ان يفصل عليها الامر عضوا عضوا

اللسان والبطن اما اللسان فلانها منطلقة بالطبع ولا مؤنة عليها في الحركة وجنايتها عظيمة
بالغيبة والكذب والنميمة وتزكية النفس ومذمة الخلق والاطعمة واللعن والدعاء
على الاعداء والمماراة في الكلام وغير ذلك مما ذكرناه في افات اللسان فهي بصدد ذلك كله
مع انها خلقت للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وارشاد عباد الله الى طريق الله
واصلاح ذات البين وسائر خيراتها فليشترط على نفسه ان لا يحرك اللسان الا في الذكر
فمنطق المؤمن ذكر ونظره عبرة وصمته فكرة وما يلفظ من قول الا لديه رقيب
عتيد واما البطن فيكلفه ترك الشره وتقليل الاكل من الحلال واجتناب الشبهات ويمنعها
من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة ويشترط عليها ان خالفت شيئا من ذلك عاقبها
بالمنع من شهوات البطن ليفوتها اكثر مما نالته بشهواتها وهكذا يشترط عليها في جميع الاعضاء
واستقصاء ذلك يطول ولا تخفى معاصي الاعضاء واما الطاعات فيستانف وظيفتها في
الطاعات التي يكررها عليه في اليوم والليلة ثم في النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار
منها ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها باسبابها وهذه شروط يفتقر اليها كل
يوم ولكن اذا تعود الانسان شرط ذلك على نفسه اياما وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها
استغنى عن المشارطة فيها وان اطاع في بعضها بقيت الحاجة الى تجديد المشارطة فيما
بقي ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد ولله عليه في ذلك حق
ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من اعمال الدنيا من ولاية او تجارة او تدريس اذ
قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج الى ان يقضي حق الله فيها فعليه ان يشترط على
نفسه الاستقامة عليها والانقياد للحق في مجاريها ويحذرها مغبة الاهمال ويعظها كما يوعظ [illegible]
الوعظ والتاديب يؤثر فيها وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين فهذا وما يجري مجراه هو اول
مقام المرابطة مع النفس وهو المحاسبة قبل العمل والمحاسبة تكون تارة بعد العمل و
تارة تكون قبله للتحذير قال تعالى واعلموا ان الله يعلم ما في انفسكم فاحذروه وهذا
للمستقبل وكل نظر في كثرة ومقدار ليعرف زيادة ونقصان فانه يسمى محاسبة فالنظر في
ما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال
يا ايها الذين امنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا وقال تعالى يا ايها الذين امنوا ان جاءكم
فاسق بنبا فتبينوا وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ذكر

ذلك تنبيها وتحذيرا للاحتراز منه في المستقبل وروى عبادة بن الصامت انه صلى الله عليه وسلم قال
لرجل سأله ان يوصيه وعظه اذا اردت امرا فتدبر عاقبته فان كان رشدا فامضه
وان كان غيا فانته عنه وقال بعض الحكماء اذا اردت ان يكون العقل غالبا للهوى فلا
تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر الى العاقبة فان مكث الندامة في القلب اكثر من مكث خفة الشهوة
وقال لقمان ان المؤمن من ابصر العاقبة امن الندامة وروى شداد بن اوس عنه صلى الله عليه وسلم
انه قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله
الاماني دان نفسه اي حاسب نفسه ويوم الدين هو يوم الحساب وقوله تعالى ائنا لمدينون
اي لمحاسبون وقال عمر بن الخطاب حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا وزنوها قبل ان
توزنوا وتهيؤوا للعرض الاكبر وكتب الى ابي موسى الاشعري حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب
الشدة وقال لكعب كيف تجدها في كتاب الله تعالى فقال ويل لديان الارض من ديان السماء
فعلاه بالدرة وقال الا من حاسب نفسه فقال كعب يا امير المؤمنين انها الى جنبها في التوراة
ما بينهما حرف الا من حاسب نفسه وهذا كله اشارة الى المحاسبة للمستقبل اذ قال من دان نفسه
وعمل لما بعد الموت معناه وزن الامور اولا وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم اقدم عليها
فباشرها **المرابطة الثانية المراقبة** اذا اوصى الانسان نفسه وشرط عليها ما
ذكرناه فلا يبقى الا المراقبة لها عند الخوض في الاعمال وملاحظتها بالعين الكالئة فانها ان
تركت طغت وفسدت ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها **اما الفضيلة** فقد سأل جبريل
عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم عن الاحسان فقال ان تعبد الله كانك تراه وقال ايضا
اعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك وقد قال تعالى افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت
وقال تعالى الم يعلم بان الله يرى وقال تعالى ان الله كان عليكم رقيبا وقال تعالى والذين هم لاماناتهم
وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون وقال ابن المبارك لرجل راقب الله تعالى فسأله
عن تفسيره فقال كن ابدا كانك ترى الله تعالى وقال عبد الواحد بن زيد اذا كان سيدي رقيبا
علي فلا ابالي بغيره وقال ابو عثمان المغربي افضل ما يلزم الانسان نفسه في هذه الطريقة
المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم وقال ابن عطاء افضل الطاعات مراقبة الحق على دوام
الاوقات وقال ابو عثمان قال لي ابو حفص اذا جلست للناس فكن واعظا لنفسك وقلبك
ولا يغرنك اجتماعهم عليك فانهم يراقبون ظاهرك والله تعالى رقيب على باطنك وحكي ان

لبعض مشايخ هذه الطايفة تلميذ شاب وكان يكرمه فقال له بعض اصحابه كيف تكرم
هذا وهو شاب ونحن شيوخ فدعا بعدة طيور وناول كل واحد منهم طيرا وسكينا وقال
ليذبح كل واحد منكم طيره في موضع لا يراه احد ودفع الى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم
فرجع كل واحد بطيره مذبوحا ورجع الشاب والطير حي في يده فقال ما لك لم
تذبح كما ذبح اصحابك فقال لم اجد موضعا لا يراني فيه احد اذ الله تعالى مطلع علي في كل
مكان فاستحسنوا مراقبته وقالوا حق لك ان تكرم وحكي ان زليخا لما خلت بيوسف قامت
فغطت وجه صنمها فقال يوسف ما لك اتستحيين من مراقبة جماد ولا استحيي من مراقبة
الملك الجبار وحكي عن بعض الاحداث انه راود جارية عن نفسها فقالت الا تستحيي فقال ممن استحيي وما يرانا الا الكواكب فقالت واين مكوكبها
قال رجل للجنيد بم استعين على غض البصر قال بعلمك ان نظر الناظر اليك اسبق من نظرك
الى المنظور اليه وقال الجنيد انما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل وعن
مالك بن دينار قال جنات عدن من جنات الفردوس فيها حور خلقن من ورد الجنة قيل
ومن يسكنها قال يقول الله عز وجل انما يسكن جنات عدن الذين اذا هموا بالمعاصي ذكروا
عظمتي فراقبوني والذين انحنت اصلابهم من خشيتي وعزتي وجلالي اني لاهم بعذاب اهل
الارض فاذا نظرت الى اهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب وسال ذو
النون بم ينال العبد الجنة فقال بخمس استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس معه سهو
ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية وانتظار الموت بالتاهب له ومحاسبة نفسك قبل
ان تحاسب وقيل اذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا ان ما تخفي عليه يغيب الم تر ان اليوم اسرع ذاهب
وان غدا للناظرين قريب وقال حميد الطويل لسليمان بن علي عظني فقال لئن كنت اذا
عصيت الله خاليا ظننت انه يراك فقد اجترات على امر عظيم ولئن كنت تظن انه لا يراك
فلقد كفرت وقال سفيان الثوري عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية وعليك
بالرجاء ممن يملك الوفاء وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها
اعلم ان حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم اليه فمن احترز من امر من الامور
بسبب غيره يقال انه يراقب فلانا ويراعي جانبه ويعني بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها

نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة اعمالا في الجوارح وفي القلب اما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب
واشتغاله به والتفاته اليه وملاحظته اياه وانصرافه اليه واما المعرفة التي تثمر الحالة فهو العلم
بان الله مطلع على الضماير عالم بالسراير رقيب على اعمال العباد قايم على كل نفس بما كسبت وان
سر القلب في حقه مكشوف كما ان ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل اشد من ذلك فهذه المعرفة اذا
صارت يقينا اعني انها خلت من الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب الى مراعاة جانب الرقيب
وصرفت الهم اليه والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون وهم ينقسمون الى الصديقين والى
اصحاب اليمين فمراقبتهم على درجتين الدرجة الاولى مراقبة المقربين من الصديقين
الصديقين وهي مراقبة التعظيم والاجلال وهي ان يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرا
تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات الى الغير اصلا وهذه مراقبة لا نطول النظر
في تفصيل اعمالها فانها مقصورة على القلب اما الجوارح فانها تتعطل عن التلفت الى المباحات
فضلا عن المحظورات فاذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج الى تدبير وتثبيت
في حفظها على سنن السداد بل يسددها الرعية يسدد الراعي والقلب هو الراعي فاذا صار
مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف وهذا
هو الذي صار همه هما واحدا فكفاه الله ساير الهموم ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل
عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ولا يسمع ما يقال له مع انه لا صمم به وقد
يمر عليه ابنه مثلا فلا يكلمه حتى كان بعضهم يجري عليه ذلك فقال لمن عاتبه اذا مررت بي فحركني
ولا تستبعد هذا فانك تجد نظيره في القلوب المعظمة لملوك الارض حتى ان خدم الملوك
قد لا يحسون بما يجري عليهم في مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم بل قد يشتغل القلب بحقير
من مهمات الدنيا فيغوص الرجل في الفكر فيه ويمشي فربما يجاوز الموضع الذي قصده وينسى الشغل
الذي نهض له وقد قيل لعبد الواحد بن زيد هل تعرف في زمانك هذا رجلا قد اشتغل بحاله عن
الخلق فقال ما اعرف الا رجلا سيدخل عليكم الساعة فما كان الا سريعا حتى دخل عتبة الغلام
فقال له عبد الواحد بن زيد من اين جيت يا عتبة فقال من موضع كذا وكان طريقه على السوق
فقال من لقيت في الطريق فقال ما رايت احدا ويروى عن يحيى بن زكريا انه مر بامراة فدفعها
فسقطت على وجهها فقيل له لم فعلت هذا فقال ما ظننتها الا جدارا وحكي عن بعضهم انه قال مررت
بجماعة يترامون وواحد جالس بعيدا منهم فتقدمت اليه فاردت ان اكلمه فقال ذكر الله اشهى

استجرت القلب فرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت فاذا استولت على القلب استجرت القلب

فقلت انك وحدك فقال معي ربي وملكاي فقلت من سبق من هولا فقال
من غفر الله له فقلت اين الطريق فاشار نحو السما وقام ومشى وقال اكثر خلقك
شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم الا معه ولا يسمع الا
منه فهذا لا يحتاج الى مراقبة لسانه وجوارحه فانها لا يتحرك من ظاهره شي
فقال الا ما هو فيه ودخل الشبلي على ابي الحسين النوري وهو معتكف فوجده ساكنا
حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شي فقال له من اين اخذت المراقبة والسكون
فقال من سنورة كانت لنا اذا ارادت الصيد رابطت راس الجحر لا يتحرك لها شعرة
وقال ابو عبد الله بن خفيف خرجت من مصر اريد الرملة للقا ابي علي الروذباري فقال
لي عيسى بن يونس المصري المعروف بالزاهد ان في صور شابا وكهلا قد اجتمعا على حال
المراقبة فلو نظرت اليهما نظرة لعلك تستفيد منهما فدخلت صور وانا جايع
وعطشان وفي وسطي خرقة وليس على كتفي شي فدخلت المسجد فاذا انا بشخصين
قاعدين مستقبلي القبلة فسلمت عليهما فما اجاباني فسلمت ثانية وثالثة فلم اسمع
الجواب فقلت نشدتكما الله الا رددتما علي السلام فرفع الشاب راسه من مرقعته
فنظر الي وقال يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقي من القليل الا القليل فخذ من القليل الكثير
يا ابن خفيف ما اقل شغلك حتى تتفرغ الى لقائنا قال فاخذ بكليتي ثم طاطا راسه
في المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعي وعطشي وعناي
فلما كان وقت العصر قلت عظني فرفع راسه وقال يا ابن خفيف نحن اصحاب المصايب
ليس لنا لسان العظة فبقيت عندهما ثلثة ايام لا آكل ولا اشرب ولا انام ولا رايتهما
اكلا ولا شربا ولا ناما فلما كان اليوم الثالث قلت في سري احلفهما ان يعظاني
لعلي انتفع بعظتهما فرفع الشاب راسه وقال يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله
رؤيته وتقع هيبته على قلبك ويعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله والسلام
قم عنا فهذه درجة المراقبين من اصحاب اليمين وهم قوم غلب على قلوبهم الاجلال والتعظيم
فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك الدرجة الثانية درجة المراقبين من اصحاب اليمين
وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم وعلى قلوبهم ولكن لم يدهشهم
ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلفت الى الاحوال والاعمال

والاعمال الا انها مع ممارسة بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلفت الى الاحوال
الاعمال لا تخلو عن المراقبة فيها نعم غلب عليهم الحيا من الله تعالى فلا يقدمون ولا يحجمون
الا بعد التثبت فيه ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيمة فانهم يرون الله تعالى في
الدنيا مطلعا عليهم فلا يحتاجون الى انتظار القيمة ويعرف اختلاف الدرجتين
بالمشاهدات فانك في خلوتك قد تتعاطى اعمالا فيحضرك صبي او امراة فتعلم انه
مطلع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك وتراعي احوالك لا عن اجلال وتعظيم بل
حيا فان مشاهدته وان كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فانها تهيج الحيا منك وقد
يدخل عليك ملك من الملوك او كبير من الاكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل
ما انت فيه شغلا به لا حيا منه فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى ومن
كان في هذه الدرجة فيحتاج الى ان يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته
وبالجملة جميع اختياراته وله فيها نظران نظر قبل العمل ونظر في العمل اما قبل العمل فلينظر
ان ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره اهو لله تعالى خاصة او هو في هوى النفس و
متابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق فان كان
لله امضاه وان كان لغير الله استحيى من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبتها
فيها وهمها بها وميلها اليها وعرفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها فانها عدو
نفسها ان لم يتداركها الله بعصمته وهذا التوقف في بداية الامور الى حد البيان
واجب محتوم لا محيص لاحد عنه فان في الخبر انه ينشر للعبد في كل حركة من حركاته
وان صغرت ثلثة دواوين الديوان الاول لم والثاني كيف والثالث لمن فمعنى لم اي لم
فعلت هذا اكان عليك ان تفعله لمولاك او ملت اليه بشهوتك وهواك فان سلم منه
بان كان عليه ان يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثاني كيف فعلت فان لله في كل عمل
شرطا وحكما لا يدرك قدره ووقته وصفته الا بعلم فيقال كيف فعلته ابعلم محقق او
بجهل وظن فان سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو المطالبة بالاخلاص فيقال له
لمن عملت الوجه الله خالصا فما اردت بفعلك الله تعالى فيكون اجرك على الله ام لمراياة
خلق مثلك فخذ اجرك منه ام عملته لنيل عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من
الدنيا ام عملت بسهو وغفلة فقد سقط اجرك وحبط عملك وخاب سعيك وان

عملت لغيري فقد استوجبت مقتي وعقابي اذ كنت عبدي تأكل رزقي ثم
تعمل لغيري اما سمعتني اقول ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا
فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ويحك اما سمعتني اقول الا لله الدين الخالص
واذا عرف العبد انه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل ان
يطالب واعد للسؤال جوابا وللجواب صوابا فلا يبدي ولا يعيد الا بعد التثبت
ولا يحرك جفنا ولا انملة الا بعد التأمل وقد قال النبي ﷺ لمعاذ ان الرجل ليسأل عن
كحل عينيه وعن فتات الطين باصبعه وعن لمسه ثوب اخيه وقال الحسن كان احدهم
اذا اراد ان يتصدق بصدقة نظر وتثبت فان كانت لله امضاها وقال الحسن رحم الله
عبدا وقف عند همه فان كان لله مضى وان كان عليه تأخر وقال في حديث سعد حين
اوصاه سلمان اتق الله عند همك اذا هممت وقال محمد بن علي ان المؤمن وقاف
متأن يقف عند همه ليس كحاطب ليل فهذا هو النظر الاول في هذه المراقبة ولا
يخلص من هذا الا العلم المتين والمعرفة الحقيقية باسرار الاعمال واغوار النفس ومكايد
الشيطان فمن لم يعرف نفسه وربه وعدوه ابليس ولم يعرف ما يوافق
هواه ولم يميز بينه وبين ما يحب الله تعالى ويرضاه في نيته وهمه وفكره وسكونه
وحركته فلا يسلم في هذه المراقبة بل الاكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله
عز وجل وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا فلا تظنن ان الجاهل بما يقدر على
التعلم فيه يعذر هيهات بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ولهذا كانت ركعتان من
عالم افضل من الف ركعة من غير عالم لانه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان
ومواضع الغرور فيتقيه والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه فلا يزال الجاهل في تعب
والشيطان منه في فرح وشماتة فنعوذ بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة
واساس كل خسران فحكم الله على كل عبد ان يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه
بالجارحة فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم انه لله تعالى فيمضيه
او هو لهوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به فان الخطرة
الاولى في الباطل اذا لم تدفع اورثت الرغبة والرغبة تورث الهم والهم يورث
جزم القصد والقصد يورث الفعل والفعل يورث البوار والمقت فينبغي ان يحسم

ان يحسم مادة الشر من منبعه الاول وهو الخاطر فان جميع ما وراءه يتبعه ومهما اشكل
على العبد واظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر فيه بنور العلم ويستعيذ به من مكائد الشيطان
بواسطة الهوى فان عجز عن الاجتهاد والفكر فيه فيستضيء بنور علماء الدين وليفر من العلماء
المضلين والمقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل اشد فقد اوحى الله عز وجل الى داود
لا تسأل عني عالما اسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي اولئك قطاع طريق عبادي
فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى
فان مستضاء انوار القلوب حضرة الربوبية وكيف يستضيء بها من استدبرها واقبل على
عدوها وعشق بغيضها وهو شهوات الدنيا فليكن هم المريد اولا في احكام العلم
او في طلب عالم معرض عن الدنيا او ضعيف الرغبة فيها ان لم يجد من هو عديم الرغبة فيها
وقد قال ﷺ ان الله تعالى يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات والعقل الكامل
عند هجوم الشهوات فجمع بين الامرين وهما متلازمان فمن ليس له عقل وازع عن
الشهوات فليس له بصر نافذ في الشبهات ولذلك قال ﷺ من قارف ذنبا فارقه عقل
لا يرجع اليه ابدا فما قدر العقل الضعيف الذي يتصف الآدمي حتى يبعد الحق و
بمقارفة الذنوب ومعرفة آفات الاعمال قد اندرست في هذه الاعصار فان الناس كلهم
هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط بين الخلق في الخصومات الثائرة من اتباع الشهوات
وقالوا هو الفقه واخرجوا هذا العلم الذي هو فقه الدين بواسطته هذا الفقه عن
انه اليوم في زيادة من جملة العلوم وتجردوا لفقه الدنيا الذي ما قصد به الا دفع الشواغل
عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه وفي
الخبر انكم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه المتثبت ولهذا
توقف طائفة من الصحابة في القتال مع اهل العراق واهل الشام لما اشكل عليهم كسعد بن
ابي وقاص وابن عمر واسامة ومحمد بن مسلمة وغيرهم فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان
متبعا لهواه معجبا برأيه وكان ممن وصفه النبي ﷺ اذ قال فاذا رأيت شحا مطاعا
وهوى متبعا واعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك وكل من خاض في شبهة
بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى ولا تقف ما ليس لك به علم وقوله ﷺ اياكم و
الظن فان الظن اكذب الحديث واراد به ظنا بغير دليل كما يستفتي بعض العوام قلبه فيما

اشكل عليه ويتبع ظنه ولصعوبة هذا الامر وعظمه كان دعا الصديق اللهم ارني الحق
حقا وارزقني اتباعه وارني الباطل باطلا وارزقني اجتنابه ولا تجعله متشابها
علي فاتبع الهوى وقال عليه السلام الامور ثلثة امر استبان رشده فاتبعه وامر استبان
غيه فاجتنبه وامر اشكل عليك فكله الى عالمه وقد كان من دعاء النبي عليه السلام اللهم اني اعوذ
بك من ان اقول في الدين بغير علم فاعظم نعم الله على عباده هو العلم وكشف الحق والايمان
عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتنانا على عبده وكان فضل الله عليك
عظيما واراد به العلم وقال تعالى فاسئلوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وقال ان علينا للهدى
وقال ثم ان علينا بيانه وعلى الله قصد السبيل وقال علي عليه السلام الهوى شريك العمى ومن
التوفيق التوقف عند الحيرة ونعم طارد الهم اليقين وعاقبة الكذب الندم وفي الصدق
السلامة ورب بعيد اقرب من قريب والغريب من لم يكن له حبيب والصديق من صدق
غيبه ولا يعدمك من حبيب سوء ظن ونعم الخلق التكرم والحيا سبب الى كل جميل واوثق
العرى التقوى واوثق سبب اخذت به سبب بينك وبين الله عز وجل انما لك من
دنياك ما اصلحت به مثواك والرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فان لم
تاته اتاك وان كنت جازعا على ما اصيب من يديك فلا تجزع على ما لم يصل اليك
واستدل على ما لم يكن بما كان فانما الامور اشباه وانما المرء يسره درك ما لم يكن ليفوته
ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحا وما فاتك منها
فلا تتبعه نفسك اسفا وليكن سرورك بما قدمت واسفك على ما خلفت وشغلك لا
وهمك فيما بعد الموت وغرضنا من نقل هذا كله قوله ومن التوفيق الوقوف عند الحيرة
فاذن النظر الاول للمراقب نظره في الهمة والحركة اهي لله تعالى او للهوى وقد قال عليه السلام
ثلث من كن فيه استكمل ايمانه لا يخاف في الله لومة لائم ولا يرائي بشيء من عمله واذا
عرض له امران احدهما للدنيا والاخر للاخرة اثر الاخرة على الدنيا واكثر ما ينكشف له في
حركاته ان يكون مباحا ولكنه لا يعنيه فيتركه لقوله عليه السلام من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه
النظر الثاني المراقبة عند الشروع في العمل وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضي حق الله
تعالى فيه ويحسن النية في اتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على الكمال ما امكنه وهذا ملازم له في
جميع احواله فانه لا يخلو في جميع احواله من حركة وسكون فاذا راقب الله عز وجل في جميع

في جميع احواله من حركة وسكون فاذا راقب الله عز وجل في جميع ذلك قدر على عبادة الله
فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الادب فان كان قاعدا مثلا فينبغي ان يقعد
مستقبل القبلة لقوله عليه السلام خير المجالس ما استقبل به القبلة ولا يجلس متربعا اذ لا يجالس
الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليك قال ابرهيم بن ادهم جلست مرة متربعا فسمعت
هاتفا يقول اهكذا تجالس الملوك فلم اجلس بعد ذلك كذلك وان كان ينام
فينام على اليمين مستقبل القبلة مع ساير الاداب التي ذكرناها في مواضعها فكل
ذلك داخل في المراقبة بل لو كان في قضاء الحاجة فمراعاته لادابها وفاء بالمراقبة فاذن
لا يخلو العبد اما ان يكون في طاعة او معصية او مباح فمراقبته في الطاعة بالاخلاص
والاكمال ومراعاة الادب وحراسته من الآفات وان كان في معصية فمراقبته بالتوبة
والندم والاقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر وان كان في مباح فمراقبته بمراعاة
الادب ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها ولا يخلو العبد في جملة احواله
عن بلية لا بد له من الصبر عليها او نعمة لا بد له من الشكر عليها وكل ذلك من
المراقبة بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض لله تعالى اما فعل يلزمه مباشرته
او محظور يلزمه تركه او ندب حث عليه ليسارع به الى مغفرة الله تعالى ويسابق
به عباده او مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ولكل
ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة ومن يتعد حدود الله فقد ظلم
نفسه فينبغي ان يتفقد العبد نفسه في جميع اوقاته في هذه الاقسام الثلثة
فاذا كان فارغا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي ان يلتمس افضل
الاعمال ليشتغل بها فان من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون
والارباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك ياخذ العبد من دنياه لاخرته
كما قال تعالى ولا تنس نصيبك من الدنيا وكل ذلك انما يمكن بصبر ساعة
فان الساعات ثلث ساعة مضت لا تعب على العبد فيها كيف ما انقضت
في مشقة او في رفاهية وساعة مستقبلة لم تات بعد ولا يدري العبد ا
يعيش اليها ام لا ولا يدري ما يقضي الله فيها وساعة راهنة ينبغي ان يجاهد فيها
نفسه ويراقب فيها ربه فان لم تاته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة

وان اشد الساعة الثانية تيسيرا استوفى حقه منها كما استوفى من الاولى ولا يطول
امله خشية سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون ابن وقته وكانه في
اخر انفاسه فلعله اخر انفاسه وهو لا يدري واذا امكن ان يكون اخر انفاسه
فينبغي ان يكون على وجه لا يكره ان يدركه الموت وهو على تلك الحالة ويكون جميع
احواله مقصورة على ما رواه ابو ذر من قوله عليه السلم لا يكون المؤمن ظاعنا الا في
ثلث تزود لمعاد او مرمة لمعاش او لذة في غير محرم وما روي فيها عنه في معناه
على العاقل ان يكون له اربع ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها
نفسه وساعة يتفكر في صنع الله وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب فان في هذه
الساعة عونا له على بقية الساعات ثم هذه الساعة التي هو فيها مشغول الجوارح
بالمطعم والمشرب لا ينبغي ان يخلو عن عمل هو افضل الاعمال وهو الذكر والفكر فان
الطعام الذي يتناوله مثلا فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك افضل
من كثير من اعمال الجوارح والناس فيه اقسام قسم ينظرون بعين التبصرة والاعتبار
فينظرون في عجائب صنعها وكيفية ارتباط قوام الحيوانات بها وكيفية تقدير الله
لاسبابها وخلق الشهوة الباعثة عليها وخلق الالات المسخرة للشهوة فيها كما
فصلنا بعضه في كتاب الشكر وهذا مقام ذوي الالباب وقسم ينظرون فيه بعين
المقت والكراهة ويلاحظون وجه الاضطرار اليها ويودون لو استغنوا عنها ولكن
يرون انفسهم مقهورين فيها مسخرين لشهواتها وهذا مقام الزاهدين وقسم يرون
في الصنعة الصانع ويترقون منها الى صفات الخالق فيكون مشاهدة ذلك سببا لتذكر
ابواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه وهو اعلى مقامات العارفين وعلامة المحبين
اذ المحب اذا رأى صنعة حبيبه وكتابته وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع
وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله في النظر منه الى الصانع مجال ان فتحت
له ابواب الملكوت وذلك عزيز جدا وقسم رابع ينظرون فيها بعين الرغبة و
الحرص فيتأسفون على ما فاتهم منها ويفرحون بما حضرهم من جملتها ويذمون منها ما
لا يوافق هواهم ويعيبونها ويذمون فاعلها فيذمون الطبيخ والطباخ ولا يعلمون
ان الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته وعلمه هو الله تعالى وان من ذم شيئا من خلقه

بغير اذن الله فقد ذم الله ولذلك قال عليه السلم لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر
فهذه هي المرابطة الثانية بمراقبة الاعمال على الدوام والاتصال وشرح ذلك يطول وفيما
ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن احكم المرابطة الثالثة محاسبة النفس بعد العمل
وليذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها اما الفضيلة فقد قال تعالى يا ايها الذين امنوا
اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد وهذه اشارة الى المحاسبة على ما مضى من الاعمال
ولذلك قال عمر حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا وزنوها قبل ان توزنوا وفي الخبر
انه عليه السلم جاءه رجل فقال يا رسول الله اوصني فقال استوصيت قال نعم قال
اذا هممت بامر فتدبر عاقبته فان كان رشدا فامضه وان كان غيا فانته عنه وفي
الخبر ينبغي ان يكون للعاقل اربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه وقال الله عز وجل
وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه
وقال عليه السلم اني لاستغفر الله عز وجل واتوب اليه في اليوم مائة مرة وقال تعالى ان
الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون وعن عمر انه كان
يضرب قدميه بالدرة اذا جن الليل ويقول لها ماذا عملت وعن ميمون انه قال لا
يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه اشد من محاسبة شريكه والشريكان يتحاسبان سباق
بعد العمل وقال الحسن المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله وانما خف الحساب
على قوم حاسبوا انفسهم في الدنيا وانما شق الحساب يوم القيمة على قوم اخذوا هذا
الامر من غير محاسبة ثم فسر المحاسبة فقال ان المؤمن يفجأه الشيء يعجبه فيقول
والله انك لتعجبني وانك لمن حاجتي ولكن هيهات حيل بيني وبينك وهذا حساب
قبل العمل ثم قال ويفرط منه الشيء فيرجع الى نفسه فيقول ما اردت بهذا والله
لا اعذر بها والله لا اعود لهذا ابدا ان شاء الله تعالى بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل
اعلم ان العبد كما يكون له وقت في اول النهار يشارط فيها نفسه على سبيل التوصية
بالحق فينبغي ان يكون له في اخر النهار ساعة يطالب النفس فيها ويحاسبها على جميع
حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في اخر كل سنة او شهر
حرصا على الدنيا وخوفا من ان يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة في فواته فلو حصل لهم
ذلك لكان لا يبقى الا اياما قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة ابد

الا ما هذه المساهلة الا من الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله منه ومعنى
المحاسبة مع الشريك ان ينظر في راس المال وفي الربح والخسران ليتبين الزيادة والنقصان
فان كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وان كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه
تداركه في المستقبل فكذلك راس مال العبد الفرائض وربحه النوافل والفضائل وخسرانه
المعاصي وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعامله نفسه الامارة بالسوء فليحاسبها على
الفرائض اولا فان اداها على وجهها شكر الله عز وجل عليه ورغبها في مثلها وان فوتها
من اصلها طالبها بالقضا فان اداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل وان ارتكب معصية
اشتغل بعتابها وتعذيبها ومعاقبتها واستوفا منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع
التاجر بشريكه وكما انه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة
والنقصان حتى لا يغبن في شي منها فينبغي ان يتقي غائلة النفس ومكرها فانها خداعة
ملبسة مكارة فليطالبها اولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره وليتكفل بنفسه
من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيمة وهكذا عن نظره بل عن خواطره وافكاره
وقيامه وقعوده واكله وشربه ونومه حتى عن سكوته انه لم سكت وعن سكونه انه
لم سكن فاذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنده قدر ما ادى من الحق كان ذلك القدر
محسوبا له فيظهر له الباقي عليه فليثبته عليه وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الذي
هو على شريكه على قلبه وعلى جريدته ثم النفس غريم يمكن ان يستوفي منه الديون اما بعضها
فبالغرامة والضمان وبعضها برد عينه وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ولا يمكن شي
من ذلك الا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه فاذا حصل ذلك اشتغل
بعده بالمطالبة والاستيفا وينبغي ان يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما وساعة ساعة
في جميع الاعضا الظاهرة والباطنة كما نقل عن توبة بن الصمة وكان بالرقة وكان
محاسبا نفسه فحسب يوما فاذا هو ابن ستين سنة وحسب ايامها فاذا هي احد وعشرون
الف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال يا ويلتي القى الملك باحد وعشرين الف ذنب
كيف وفي كل يوم الف ذنب ثم خر مغشيا عليه فاذا هو ميت فسمعوا قائلا يقول يا لك
ركضة الى الفردوس الاعلى فهكذا ينبغي ان يحاسب على الانفاس وعن معصيته بالقلب
والجوارح في كل ساعة ولو رمى بكل معصية حجرا في داره لامتلات داره في مدة يسيرة

قريبة من عمره ولكنه يتساهل في حفظه والملكان يحفظان عليه ذلك احصاه الله
ونسوه **المرابطة الرابعة** معاقبة النفس على تقصيرها مهما حاسب نفسه فلم
تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله فلا ينبغي ان يهملها فانه ان
اهملها سهل عليه مقارفة المعاصي وانست بها وعسر عليه فطامها وكان ذلك سبب
هلاكها بل ينبغي ان يعاقبها فاذا اكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي ان يعاقب
البطن بالجوع واذا نظر الى غير محرم ينبغي ان يعاقب العين بمنع النظر وكذلك
يعاقب كل طرف من اطراف بدنه بمنعه عن شهواته هكذا كانت عادة سالكي
طريق الآخرة فقد روي عن منصور بن ابرهيم ان رجلا من العباد كلم امراة فلم يزل
حتى وضع يده على فخذها فوضع يده في النار حتى يبست وروي انه كان في بني اسرائيل
رجل يتعبد في صومعته فمكث بذلك زمانا طويلا فاشرف ذات يوم فاذا هو
بامراة فافتتن بها وهم بها فاخرج رجله لينزل اليها فادركه الله عز وجل بسابقة
فقال ما هذا الذي اريد ان اصنع فرجعت اليه نفسه وعصمه الله فلما اراد ان
يعيد رجله الى الصومعة قال هيهات هيهات رجل خرجت تريد ان تعصي الله
تعود معي في صومعتي لا يكون ذلك والله ابدا فتركها معلقة من الصومعة
تصيبها الامطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت وسقطت فشكر الله
له ذلك وانزل في بعض الكتب ذكره ويحكى عن الجنيد انه قال سمعت ابن الكريبي
يقول اصابتني ليلة جنابة فاحتجت الى ان اغتسل وكانت ليلة باردة فوجدت في
نفسي تاخرا وتقصيرا فحدثتني نفسي بالتاخير حتى يصبح واسخن الما او ادخل
الحمام ولا اعنى على نفسي فقلت واعجباه انا اعامل الله عز وجل في طول عمري
يجب له علي حق فلا اجد المسارعة واجد الوقوف والتاخير اليت لا
اغتسل الا في مرقعتي هذه واليت ان لا انزعها ولا اعصرها ولا اجففها في الشمس ويحكى
ان غزوان وابا موسى كانا في بعض مغازيهما فتكشفت جارية فنظر اليها غزوان
فرفع يده فلطم عينه حتى بقيت فقال انك للحاظة ونظر بعضهم نظرة واحدة الى
امراة فجعل على نفسه ان لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار
لينغص على نفسه العيش ويحكى ان حسان بن ابي سنان مر بغرفة فقال متى بنيت

ثم اقبل على نفسه فقال تالله ما يغنيك لأعاقبنك بصوم سنة فصامها
ويحكى ان تميما الداري نام ليلة لم يقم لتهجد فقام سنة لم ينم عقوبة للذي صنع وعن
طلحة قال انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ في الرمضاء وكان يقول
لنفسه ذوقي وعذاب جهنم اشد حرا أجيفة بالليل بطالة بالنهار قال فبينا هو كذلك
اذ ابصر النبي صلعم في ظل شجرة فاتاه فقال غلبتني نفسي فقال له النبي صلعم الم يكن لك بد من
الذي صنعت اما لقد فتحت لك ابواب السماء ولقد باهى الله عز وجل بك الملائكة ثم قال
لاصحابه تزودوا من اخيكم فجعل الرجل يقول له يا فلان ادع لي يا فلان ادع لي
فقال عليه السلام عمهم فقال اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى امرهم فجعل النبي
يقول اللهم سدده فقال الرجل اللهم اجعل الجنة مآبهم وقال محمد بن بشر رأيت داود الطائي
يأكل عند افطاره خبزا بغير ملح فقلت له لو اكلت بملح فقال ان نفسي لتدعوني
الى الملح منذ سنة ولا ذاق داود ملحا ما دام في الدنيا فهكذا كانت عقوبة اولي الحزم
لانفسهم والعجب انك تعاقب عبدك وامتك واهلك وولدك على ما يصدر منهم
من سوء خلق وتقصير في امر وتخاف انك لو تجاوزت عنهم لخرج امرهم من الاختيار
وبغوا عليك ثم تهمل نفسك وهي اعظم عدو لك مضرة واشد طغيانا عليك و
طغيانها اعظم ضررا من طغيان اهلك فان غايتهم ان يشوشوا عليك نعيم الدنيا ولو
عقلت لعلمت ان العيش عيش الآخرة وان نعيم الجنة هو النعيم المقيم الدائم الذي لا
آخر له ونفسك هي التي تنغص عليك عيش الآخرة فهي بالمعاقبة اولى من غيرها المرابطة
الخامسة المجاهدة وهي انه اذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغي
ان يعاقبها بالعقوبات التي مضت وان رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل
او ورد من الاوراد فينبغي ان يؤدبها بتثقيل الاوراد عليها ويلزمها فنونا من
الوظائف جبرا لما فات منه وتداركا لما فرط فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى فقد
عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بان تصدق بارض قيمتها
مائتا الف [illegible] درهم وكان ابن عمر اذا فاتته صلاة في جماعة احيى تلك الليلة و
اخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فاعتق رقبتين وفات ابن ربيعة ركعتا
الفجر فاعتق رقبة وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة او الحج ماشيا او التصدق

بجميع ماله كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها فان قلت
ان كانت نفسي لا تطاوعني على الاجتهاد والمواظبة على الاوراد فما سبيل معالجتها فأقول
علاجها ان تسمعها ما ورد في الاخبار من فضل المجتهدين ومن انفع اسباب العلاج ان
تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة فتلاحظ احواله وتقتدي به وكان
بعضهم يقول كنت اذا اعترتني فترة في العبادة نظرت الى محمد بن واسع والى اجتهاده فعملت
على ذلك اسبوعا الا ان هذا العلاج قد تعذر اذ فقد في عباد الله من يجتهد في العبادة
اجتهاد الاولين فينبغي ان يعدل من المشاهدة الى السماع فلا شيء انفع من سماع
احوالهم ومطالعة اخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد وقد انقضى تعبهم وبقي
ثوابهم ونعيمهم ابد الاباد لا ينقطع فما اعظم ملكهم وما اشد حسرة من لا يقتدي بهم
فيمتع نفسه اياما قلائل بشهوات مكدرة ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه
ابد الاباد ونعوذ بالله منه ونحن نورد من اوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة
المريدين في الاجتهاد اقتداء بهم فقد قال عليه السلام رحم الله اقواما يحسبهم الناس مرضى
قال الحسن اجهدتهم العبادة قال الله تعالى والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة قال
الحسن ما عملوا من اعمال البر ويخافون ان لا ينجيهم ذلك من عذاب الله وقال عليه السلام
طوبى لمن طال عمره وحسن عمله ويروى ان الله عز وجل يقول للملائكة ما بال عبادي
مجتهدين فيقولون الهنا خوفتهم شيئا فخافوه وشوقتهم الى شيء فاشتاقوا اليه فيقول
اذا فكيف لو رأوني اذا لكانوا اشد اجتهادا وقال الحسن ادركت اقواما وصحبت
طوائف ما كانوا يفرحون لشيء من الدنيا اقبل ولا يأسفون على شيء منها ادبر ولهي
كانت اهون في اعينهم من هذا التراب الذي تطؤونه بارجلكم ان كان احدهم ليعيش
عمره كله ما طوي له ثوب ولا امر اهله بصنعة طعام قط ولا جعل بينه وبين الارض
شيئا قط وادركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم اذا جنهم الليل فقيام على اطرافهم
يفترشون وجوههم تجري دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكاك رقابهم اذا عملوا
الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها وسألوا الله ان يتقبلها واذا عملوا السيئة احزنتهم
وسألوا الله ان يغفرها لهم ما زالوا كذلك وعلى ذلك ووالله ما سلموا من الذنوب
ولا نجوا الا بالمغفرة ويحكى ان قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه فاذا

فيهم شاب ناحل الجسم فقال له عمر يا فتى ما الذي بلغ بك ما ارى فقال يا امير المؤمنين
اسقام وامراض فقال سالتك بالله الا صدقتني فقال يا امير المؤمنين ذقت حلاوة
الدنيا فوجدتها مرة فصغر عندي زهرتها واستوى عندي ذهبها وحجرها وكاني
انظر الى عرش ربي والناس يساقون الى الجنة والناس الى النار فاظمات لذلك نهاري واسهرت
ليلي وقليل كل ما انا فيه في جنب ثواب الله وعقابه وقال ابو نعيم كان داود الطائي
يشرب الفتيت ولا ياكل الخبز فقيل له في ذلك فقال بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين
اية ودخل رجل عليه يوما فقال ان في سقف بيتك جذعا مكسورا فقال يا ابن اخي
اني في هذا البيت منذ عشرين سنة ما نظرت الى السقف وكانوا يكرهون فضول النظر
كما يكرهون فضول الكلام وقال محمد بن عبد العزيز جلسنا الى احمد بن رزين غدوة
الى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة فقيل له في ذلك فقال ان الله خلق العينين لينظر بهما
العبد الى عظمة الله فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة فاذا التفت وقالت امراة
مسروق ما كان يوجد مسروق الا وساقاه قد انتفختا من طول الصلاة قالت فوالله ما
كنت اجلس خلفه فابكي رحمة له وقال ابو الدرداء لولا ثلث ما احببت العيش يوما
واحدا الظما لله بالهواجر والسجود في جوف الليل ومجالسة اقوام ينتقون اطايب
الكلام كما ينتقى اطايب الثمر وكان الاسود بن يزيد يجتهد في العبادة ويصوم في الحر
حتى يخضر جسده ويصفر فكان علقمة بن قيس يقول له لم تعذب نفسك فيقول
كرامتها اريد وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلي حتى يسقط فدخل عليه انس بن مالك
والحسن فقالا ان الله لم يامرك بكل هذا فقال انا عبد مملوك لا ادع من الاستكانة
شيئا الا جئت به وكان بعض المتعبدين يصلي كل يوم الف ركعة حتى اقعد من رجليه فكان
يصلي جالسا الف ركعة فاذا صلى العصر احتبى ثم قال عجبت للخليقة كيف ارادت بدلا
منك عجبت للخليقة كيف انست بسواك عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر
سواك وكان ثابت البناني قد حبب اليه الصلاة وكان يقول اللهم ان كنت اذنت
لاحد ان يصلي لك في قبره فأذن لي ان اصلي في قبري وقال الجنيد ما رايت اعبد من السري
اتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤي مضطجعا الا في علة وقال الحرث بن سعد مر
قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكلموه في ذلك فقال وما هذا عند

منتفختان م

عند ما يراد بالخلق من ملاقاة الاهوال وهم غافلون قد اعتكفوا على حظوظ انفسهم
ونسوا حظهم الاكبر من ربهم فبكى القوم عن آخرهم حتى لحق المعافى قال جاورنا بمكة
ابو محمد الجريري سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند الى عمود ولا الى حائط ولم يمد رجليه فدخل
عليه ابو بكر الكتاني فسلم عليه وقال له يا ابا محمد بم قدرت على اعتكافك هذا فقال علم
صدقي باطني فاعانني على ظاهري فاطرق الكتاني ومشى متفكرا وعن بعضهم قال دخلت
على فتح الموصلي فرايته وقد مد كفيه يبكي حتى رايت الدموع تنحدر من بين اصابعه فدنوت
منه فاذا دموعه قد خالطها صفرة فقلت بالله يا فتح بكيت الدم فقال لولا
انك حلفتني بالله ما اخبرتك نعم بكيت دما فقلت له على ماذا بكيت الدموع فقال على
تخلفي عن واجب حق الله وعلى الدم على الدموع لئلا يكون ما صحت لي الدموع فقال
فرايته بعد موته في المنام فقلت له ما صنع الله بك قال غفر لي قلت فما صنع في
دموعك قال قربني ربي وقال لي يا فتح الدموع على ماذا فقلت يا رب من تخلفي
عن واجب حقك فقال والدم على ماذا فقلت على دموعي ان لا تصح لي فقال يا فتح ما
اردت بهذا كله وعزتي لقد صعد حافظاك اربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة
وقيل ان قوما ارادوا سفرا فحادوا عن الطريق فانتهوا الى راهب منفرد عن الناس
فنادوه فاشرف عليهم من صومعته فقالوا يا راهب انا قد اخطانا الطريق فكيف
هو فاومأ بيده الى السماء فعلم القوم ما اراد فقالوا يا راهب انا سائلوك فهل
انت مجيبنا فقالوا يا راهب على م يحشر الخلق غدا عند مليكهم فقال على نياتهم فقالوا
اوصنا فقال تزودوا على قدر سفركم فان خير الزاد ما بلغ البغية ثم ارشدهم الى الطريق
وادخل راسه في صومعته وقال عبد الواحد بن زيد مررت بصومعة راهب صيني فناديته
الصيف فناديته يا راهب فلم يجبني فناديته الثانية فلم يجب فناديته الثالثة فاشرف
علي وقال هذا ما انا براهب انما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمه وكبر بارئه
على بلائه وصبر على قضائه وحمده على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته
واستسلم لقدرته وخضع لمهابته وفكر في حسابه وعقابه فنهاره صائم وليله قائم
قد اسهره ذكر النار ومسئلة الجبار فذلك هو الراهب فاما انا فكلب عقور حبست
نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا اعقرهم فقلت يا راهب فما الذي قطع الخلق

فقال سلوا ولا تكثروا فان النهار لن يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث فعجب القوم من كلامه صح

من الله تعالى بعدا ذعرفوع فقال يا اخي لم يقطع الخلق عن الله الا حب الدنيا وزينتها
لانها محل المعاصي والذنوب فالعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب الى الله من ذنبه واقبل
على ربه بقرب من سيره وقيل لداود الطائي لو سرحت لحيتك فقال اني اذا لفارغ وكان اويس
القرني يقول هذه ليلة الركوع فيحيي الليلة كلها في ركعة وهذه ليلة السجود فيحيي الليلة
كلها في سجدة انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده فقال والله
لقد رايت اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما ارى اليوم شيئا يشبههم كانوا يصبحون
شعثا غبرا صفرا قد باتوا سجدا وقياما يتلون كتاب الله عز وجل يراوحون بين اقدامهم
وجباههم فكانوا اذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت اعينهم حتى تبل
ثيابهم وكأن القوم باتوا غافلين يعني من كان حوله وكان ابو مسلم الخولاني علق سوطا
في مسجد بيته يخوف به نفسه وكان يقول لنفسه قومي فوالله لازحفن بك زحفا حتى
يكون الكلل منك لا مني فاذا دخلته الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول
انت احق بالضرب من دابتي وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه سيما الصالحين صفرة
الالوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاه من الصوم عليهم غبرة
الخاشعين وقيل للحسن ما بال المتهجدين من احسن الناس وجوها فقال لانهم خلوا
بالرحمن فالبسهم نورا من نوره وقال بعض الحكماء ان لله عز وجل عبادا انعم عليهم
فعرفوه وشرح صدورهم فاطاعوه وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والامر اليه فصارت
قلوبهم معادن لصفاء اليقين وبيوتا للحكمة وتوابيت للعظمة وخزائن للقدرة فهم بين الخلائق
مقبلون ومدبرون وقلوبهم تجول في الملكوت وتلوذ بمحجوب الغيوب ثم ترجع ومعها طرائف
من لطيف الفوائد ما لا يمكن لواصف ان يصفه فهم في باطن امورهم كالديباج حسنا وهم
في الظاهر مناديل مبذولون لمن ارادهم تواضعا وهذه طريق لا يبلغ اليها بالتكلف
وانما هو فضل الله يؤتيه من يشاء وقال بعض الصالحين بينا انا اسير في بعض جبال
المقدس اذ هبطت الى واد هنالك فاذا انا بصوت قد علا واذا لتلك الجبال دوي يجيبه لها
كدوي عال فاتبعت الصوت فاذا انا بروضة عليها شجر ملتف واذا انا برجل قائم يردد
هذه الاية يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا الى قوله ويحذركم الله نفسه قال
فجلست خلفه اسمع كلامه وهو يردد هذه الاية اذ صاح صيحة خر بها مغشيا عليه فقلت

قلت وا اسفاه هذا لشقائي ثم انتظرت افاقته فافاق بعد ساعة فسمعته
وهو يقول اعوذ بك من مقام الكذابين اعوذ بك من اعمال البطالين اعوذ
بك من اعراض الغافلين ثم قال لك خشعت قلوب الخائفين واليك فزعت
آمال المقصرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ثم نفض يديه فقال ما لي وللدنيا
وما للدنيا وعليك يا دنيا بابناء جنسك والّافك نعيمك الى محبيك فادعي
وايام فاخدعي ثم قال اين القرون الماضية واهل الدهور السالفة في
التراب يبلون وعلى مر الزمان يفنون فناديته يا عبد الله انا منذ اليوم
خلفك انتظر فراغك فقال وكيف يفرغ من تبادره الاوقات فيبادره كأنه
سبقها بالموت الى نفسه ام كيف يفرغ من ذهبت ايامه وبقيت آثامه ثم قال
انت لها ولكل شدة اتوقع نزولها ثم لهى عني ساعة وقرأ وبدا لهم من الله
ما لم يكونوا يحتسبون ثم صاح صيحة اخرى اشد من الاولى وخر مغشيا عليه
فقلت قد خرجت نفسه فدنوت منه فاذا هو يضطرب ثم افاق وهو يقول
ما انا ما خطري هب لي اساءتي بفضلك وجللني بسترك واعف عن ذنوبي بكرم
وجهك اذا وقفت بين يديك فقلت له بالذي ترجوه لنفسك وتثق به الا
كلمتني فقال عليك بكلام من ينفعك كلامه ودع كلام من اوبقته ذنوبه اني
لفي هذا الموضع منذ ما شاء الله اجاهد ابليس ويجاهدني فلم يجد عونا
علي ليخرجني مما انا فيه غيرك فاليك عني يا مخدوع فقد عطلت علي لساني و
ملت الى حديثك شعبة من قلبي فانا اعوذ بك من شرك ثم ارجو ان يعيذني
من سخطه ويتفضل علي برحمته قال فقلت هذا ولي الله اخاف ان اشغله فاعا
في موضعي هذا فانصرفت وتركته فهذه كانت سيرة السلف الصالحين في
مواظبة النفس ومراقبتها فمهما تمردت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على
العبادة فطالع احوال هؤلاء فانه قد عز الآن وجود مثلهم ولو قدرت على
مشاهدة من تقتدي بهم فهو انجع في القلب وابعث على الاقتداء فليس الخبر كا
لمعاينة واذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع احوال هؤلاء فاذا لم يكن ابل
فمعزى وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون في غمارهم وهم العقلاء والحكماء و

وذوو البصاير الذين وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من اهل عصرك ولا
ترضى لها ان تنخرط في سلك الحمقى وتقنع بالتشبه بالاغبياء ولو شعا الفه العقلاء
فان قد ثقلت نفسك عن ان لا تنال قوة ابطال الاقتداء بهم فطالع احوال النساء
المتعبدات وقل لها الا تستنكفين يا نفس ان تكوني اقل من امراة في امر دينها فقد
روي عن حبيبة العدوية انها كانت اذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها
درعها وخمارها ثم قالت الهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك
ابوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامي بين يديك ثم اقبلت على صلاتها فاذا
كان السحر وطلع الفجر قالت الهي هذا الليل قد ادبر وهذا النهار قد اسفر فليت
شعري اقبلت مني ليلتي فاهنا او رددتها علي فاعزى وعزتك لهذا دابي ودابك
ما ابقيتني وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي من جودك وكرمك
ويروى عن عجردة انها كانت مكفوفة البصر فاذا كان في السحر نادت بصوت لها محزون
اليك قطع العابدون دجى الليالي يستبقون الى رحمتك وفضل مغفرتك فبك يا الهي
لا بغيرك ان تجعلني في اول زمرة السابقين وان ترفعني لديك في عليين في درجة
المقربين وان تلحقني بعبادك الصالحين فانت ارحم الرحماء واعظم العظماء واكرم الكرماء
يا كريم ثم خرت ساجدة فسمعت لها وجبة ثم لا تزال تدعو وتبكي الى الفجر وقال يحيى بن بسطام
كنت اشهد مجلس شعوانة فكنت ارى ما تصنع من النياحة والبكاء فقلت لصاحب لي
لو اتيناها اذا خلت فامرناها بالرفق بنفسها قال وانت وذاك فاتيناها فقلت
لها لو رفقت بنفسك واقصرت عن هذا البكاء شيئا لكان ذلك اقوى لك على ما تريدين
فبكت ثم قالت لوددت اني ابكي حتى تنفد دموعي ثم ابكي دما حتى لا تبقى قطرة من دم
جارحة من جوارحي وانى لي بالبكاء فلم تزل تبكي حتى غشي عليها وقال محمد بن معاذ
حدثتني امراة من المتعبدات قالت رايت في منامي كاني ادخلت الجنة فاذا اهل
الجنة قيام على ابوابها فقلت ما شان اهل الجنة قياما فقال لي قائل خرجوا ينظرون الى هذه
المراة التي زخرفت الجنان لقدومها قلت ومن هذه المراة قال امة سوداء من اهل الابلة
يقال لها شعوانة فقلت اختي والله فبينا انا كذلك اذا هي على نجيبة تطير بها في الهواء
فلما رايتها ناديتها يا اختي اما ترين مكاني من مكانك فلو دعوت لي مولاك فلحقني بك

بك قالت فتبسمت الي وقالت لم يان لقدومك ولكن احفظي عني اثنين الزمي قلبك
الحزن وقدمي محبة الله على هواك ولا يضرك متى مت وقال عبد الله بن الحسين كانت
لي جارية رومية وكنت بها معجبا وكانت في بعض الليالي نائمة الى جنبي فانتبهت فالتمستها
فلم اجدها فقمت اطلبها فاذا هي ساجدة وهي تقول بحبك لي الا غفرت لي ذنوبي فقلت
لها لا تقولي بحبك لي ولكن قولي بحبي لك فقالت يا مولاي بحبه لي اخرجني من الشرك
الى الاسلام وبحبه لي ايقظ عيني وكثير من خلقه نيام وقال ابو هاشم القرشي قدمت علينا
امراة من اهل اليمن يقال لها سرية فنزلت في بعض دورنا قال فكنت اسمع لها من الليل
انينا وشهيقا فقلت يوما للخادم اشرفي على هذه المراة فانظري ما تصنع فاشرفت
عليها فما راتها تصنع شيئا غير انها لا ترد طرفها عن السماء وهي مستقبلة القبلة تقول خلقت
سرية ثم غذيتها بنعمتك من حال الى حال وكل احوالك لها حسنة وكل بلائك عندها حسن
وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيها فلعلها تظن
انك لا ترى سوء فعالها وانت عليم خبير وانت على كل شيء قدير وقال ذو النون
خرجت ليلة من وادي كنعان فلما علوت الوادي اذا سواد مقبل علي وهو يقول وبدا
لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ويبكي فلما قرب مني السواد اذا هو امراة عليها جبة صوف
وبيدها ركوة فقالت لي من انت غير فازع مني فقلت رجل غريب فقالت يا هذا وهل
يوجد مع الله غربة قال فبكيت لقولها فقالت ما الذي ابكاك قلت وقع الدواء على
داء قد قرح فاسرع في نجاحه قالت فان كنت صادقا فلم بكيت قلت يرحمك الله والصادق
لا يبكي قالت لا قلت ولم ذلك قالت لان البكاء راحة القلب فسكت متعجبا من قولها
قال احمد [illegible] على عفيرة فحجبتنا فدققنا الباب فلما علمت ذلك قامت لتفتح لنا
الباب فسمعتها وهي تقول اللهم اني اعوذ بك ممن جاء يشغلني عن ذكرك ثم فتحت الباب
ودخلنا عليها فقلنا يا امة الله ادعي لنا فقالت جعل الله قراكم في بيتي المغفرة ثم قالت لنا
مكث عطاء السلمي اربعين سنة لا ينظر الى السماء فحانت منه نظرة فخر مغشيا عليه فاصابه فتق
في بطنه فيا ليت عفيرة اذا رفعت راسها لم تعص ويا ليت عفيرة اذا عصت لم تعد وقال بعض الصالحين
خرجت يوما الى السوق ومعي جارية حبشية فاجلستها في موضع بناحية السوق وذهبت في
بعض حوائجي وقلت لا تبرحي من مكانك حتى انصرف اليك قال فانصرفت فلم اجدها في

في الموضع وانصرفت الى مصلاها فاشتد الغضب عليها ثم راحت وعرفت الغضب في وجهي فقالت
يا مولاي لا تعجل علي انك اجلستني في موضع لم ار فيه ذاكرا لله فخفت ان يخسف بنا الموضع
فعجبت لقولها وقلت لها انت حرة فقالت لي ساء ما صنعت كنت اخدمك فيكون لي اجران واما
الآن فقد ذهب مني احدهما وقال ابن العلا السعدي كانت لنا ابنة عم يقال لها بريرة متعبدة
وكانت تكثر القراءة في المصحف فكلما اتت على آية فيها ذكر النار بكت فلم تزل تبكي حتى ذهبت
عيناها من البكاء فقال بنو عمها انطلقوا بنا الى هذه المراة حتى نعذلها في كثرة البكاء
قال فدخلنا عليها فقلنا يا بريرة كيف اصبحت فقالت اصبحنا اضيافا وقوفا بارض
غربة ننتظر متى ندعى فنجيب فقلنا لها الى كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه فقالت ان
يكن لعيني عند الله خير فما يضرها ما ذهب منها في الدنيا وان كان لها عند الله شر
فسيزيدها بكاء اطول من هذا واعرضت قال فقال القوم قوموا بنا فهي والله في شيء
غير ما نحن فيه وكانت معاذة العدوية اذا جاء النهار تقول هذا اليوم الذي اموت فيه
فما تطعم حتى تمسي واذا جاء الليل تقول هذه الليلة التي اموت فيها فتصلي حتى تصبح قال
ابو سليمان الداراني بت ليلة عند رابعة فقامت الى محراب لها وقمت انا الى ناحية من البيت
فلم تزل قائمة الى السحر فلما كان السحر قلت ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة قالت
جزاؤه ان نصوم له غدا وكانت شعوانة تقول في دعائها الهي ما اشوقني الى لقائك
واعظم رجائي لجزائك وانت الكريم الذي لا يخيب لديك امل الآملين ولا يبطل عندك
شوق المشتاقين الهي ان كان دنا اجلي ولم يقربني منك عملي فقد جعلت الاعتراف
بالذنب وسائل عللي فان عفوت فمن اولى بذلك منك وان عذبت فمن اعدل منك
الهي قد جرت على نفسي في النظر لها وبقي لها حسن نظرك فمن اولى بذلك منك وان
من عدلك فالويل لها ان لم تسعدها الهي انك لم تزل بي برا ايام حياتي فلا تقطع عني برك
بعد مماتي ولقد رجوت ممن تولاني في حياتي باحسانه ان يسعفني عند مماتي بغفرانه
الهي كيف اياس من حسن نظرك بعد مماتي ولم تولني الا الجميل في حياتي الهي ان كانت ذنوبي
قد اخافتني فان محبتي لك قد اجارتني فتول من امري ما انت اهله وعد بفضلك على
من غره جهله الهي لو اردت اهانتي لما هديتني ولو اردت فضيحتي لما سترتني فمتعني
بما له هديتني وادم لي ما به سترتني الهي ما اظنك تردني في حاجة افنيت فيها عمري والله

الهي لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت
ثوابك وقال الخواص دخلنا على رحلة العابدة وكانت صامت حتى اسودت وبكت
حتى عميت وصلت حتى اقعدت فكانت تصلي قاعدة فسلمنا عليها ثم ذاكرناها شيئا
من العفو ليهون عليها الامر قال فشهقت ثم قالت علمي بنفسي قرح فؤادي وكلم كبدي
والله لوددت ان الله لم يخلقني ولم اك شيئا مذكورا ثم اقبلت على صلاتها فعليك ان
كنت من المريدين الراغبين لنفسك ان تطالع احوال الرجال والنساء من المجتهدين
لينبعث نشاطك ويزيد حرصك واياك ان تنظر الى اهل عصرك فانك ان تطع اكثر
من في الارض يضلوك عن سبيل الله وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية
للمريد وان اردت مزيدا فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الاولياء فانه يشتمل
على شرح احوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يتبين لك بعدك
وبعد اهل عصرك من اهل الدين فان حدثتك نفسك بالنظر الى اهل زمانك وقالت
انما يتيسر الخير في ذلك الزمان لكثرة الاعوان والآن فان خالفت اهل زمانك رأوك
مجنونا وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه فلا يجري عليك الا ما يجري عليهم والمصيبة
اذا عمت طابت فاياك ان تنخدع بحيل نفسك وتنخدع بتزويرها وقل لها ارايت
لو هجم سيل جارف يغرق اهل البلد فثبتوا على مواضعهم ولم ياخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة
الحال وقدرت على ان تفارقهم وتركبي سفينة تنجين بها من الغرق فهل يختلج في نفسك
ان المصيبة اذا عمت طابت ام تتركين موافقتهم وتستجهلينهم في صنيعهم وتاخذين حذرك
مما دهاهم فاذا كنت تتركين موافقتهم خوفا من الغرق وعذاب الغرق لا يكون الا ساعة
فكيف لا تهربين من عذاب الابد وانت متعرضة له في كل حال ومن اين تطيب المصيبة
اذا عمت ولاهل النار شغل شاغل عن الالتفات الى العموم والخصوص ولم يهلك الكفار
الا بموافقة اهل زمانهم حيث قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون
فعليك اذا اشتغلت بمعاتبة نفسك ان تقصر على الاجتهاد وان استعصت فلا تترك
معاتبتها وتوبيخها وتقريعها وتعريفها سوء نظرها لنفسها فعساها تنزجر عن طغيانها

الباب السادس

في تنبيه النفس ومعاتبتها اعلم ان اعدى عدوك نفسك التي
بين جنبيك وقد خلقت امارة بالسوء ميالة الى الشر فرارة عن الخير وامرت بتزكيتها

ويقويها ويقودها بسلاسل القهر الى عبادة ربها وخالقها ويمنعها عن شهواتها ويفطمها عن لذاتها فان اهملها شردت وجمحت ولم يظفر بها بعد ذلك وان الزمها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسه هي النفس اللوامة التي اقسم الله بها ورجوت ان تصير النفس المطمئنة المدعوة الى ان تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغل بوعظ غيرك ما لم تشتغل اولا بوعظ نفسك واوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحي مني وقال تعالى وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين وسبيلك ان تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وحماقتها فانها ابدا تتعزز بفطنتها وهدايتها ويشتد انفتها واستنكافها اذا نسبت الى الحمق فتقول يا نفس ما اعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وانت اشد الناس غباوة وحمقا اما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وانك صائرة الى احداهما على القرب فما لك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وانت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين او غدا فاراك ترين الموت بعيدا ويراه الله تعالى قريبا اما تعلمين ان كل ما هو ات قريب وان البعيد ما ليس بات اما تعلمين ان الموت ياتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطاة وانه لا ياتي في شيء دون شيء ولا في صيف دون شتاء ولا في شتاء دون صيف ولا في نهار دون ليل ولا في ليل دون نهار ولا ياتي في الصبا دون الشباب ولا في الشباب دون الصبا بل كل نفس من الانفاس يمكن ان يكون فيه الموت فجاءة فان لم يكن الموت فجاءة فيكون المرض فجاءة ثم يفضي الى الموت فما لك لا تستعدين للموت وهو اقرب اليك من كل قريب اما تتدبرين قوله تعالى اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما ياتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ويحك يا نفس ان كانت جراءتك على معصية الله تعالى لاعتقادك ان الله لا يراك فما اعظم كفرك وان كانت مع علمك باطلاعه عليك فما اشد وقاحتك واقل حياءك ويحك لو واجهك عبد من عبيدك بل اخ من اخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك ومقتك عليه فباي جسارة تتعرضين لمقت الله تعالى وغضبه وشديد عقابه افتظنين انك تطيقين عذابه هيهات هيهات جربي نفسك ان الهاك البطر عن اليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس او في بيت الحمام او قربي اصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك ام تغترين بكرم الله تعالى وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فما لك لا تعولين على كرم الله عز وجل في مهمات دنياك فاذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل في دفعه ولا تكلينه الى كرم الله عز وجل واذا ارهقتك حاجة الى شهوة من شهوات الدنيا

ما لا ينقضي الا بالدينار والدرهم فما لك تنزعين الروح في طلبه وتحصيله من وجوه الحيل فلم لا تعولين على كرم الله عز وجل حتى يعثر بك على كنز او يسخر عبدا من عبيده ليحمل اليك حاجتك من غير سعي منك وطلب افتحسبين ان الله كريم في الاخرة لا في الدنيا وقد عرفت ان سنة الله لا تبديل لها فان سنة الدنيا والاخرة واحدة فان ليس للانسان الا ما سعى ويحك يا نفس ما اعجب نفاقك وكثرة دعاويك الباطلة فانك تدعين الايمان بلسانك واثر النفاق ظاهر عليك الم يقل لك سيدك ومولاك وما من دابة في الارض الا على الله رزقها وقال في امر الاخرة وان ليس للانسان الا ما سعى فقد تكفل لك بامر الدنيا خاصة وصرفك عن السعي فيها فكذبته بافعالك واصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ووكل امر الاخرة الى سعيك فاعرضت عنها اعراض المغرور المستحقر ما هذا من علامات الايمان فلو كان الايمان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الاسفل من النار ويحك يا نفس كانك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين انك اذا مت انفلت وتخلصت وهيهات اتحسبين ان تتركي سدى الم تكوني نطفة من مني يمنى ثم كنت علقة فخلق فسوى اليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى فان كان هذا من اضمارك فما اكفرك واجهلك اما تتفكرين انه مماذا خلقك من نطفة خلقك فقدرك ثم السبيل يسرك ثم اماتك فاقبرك افتكذبينه في قوله ثم اذا شاء انشرك فان لم تكوني مكذبة فما لك لا تاخذين حذرك ولو ان يهوديا اخبرك في الذ اطعمتك بانه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه افكان قول الانبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله عز وجل في كتبه المنزلة اقل عندك تاثيرا من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم ولو اخبرك طفل بعقرب في ثوبك لرميت ثوبك في الحال من غير مطالبة برهان ودليل افكان قول الانبياء والعلماء والحكماء وكافة الاولياء اقل عندك من قول صبي من جملة الاغبياء ام صار حر جهنم واغلالها وانكالها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وافاعيها وعقاربها احقر عندك من عقرب لا تحسين بالمها الا يوما او اقل من يوم ما هذه من افعال العقلاء بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك فان كنت قد عرفت جميع ذلك وامنت به فما لك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يختطفك من غير مهلة فبماذا امنت استعجال الاجل وهبك انك وعدت بالامهال مائة سنة افتظنين ان من يطعم الدابة في حضيض العقبة يفلح وينجح بها في قطع العقبة بها ان ظننت ذلك فما اعظم جهلك

اراءيت لو سافر رجل ليتفقه في الغربة فاقام فيها سنين متعطلا بطالا يعد نفسه بالتفقه
في السنة الاخيرة من رجوعه الى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه ان تفقه النفس يطمع
في مدة قريبة او حسبانه ان مناصب الفقها تنال من غير تفقه اعتمادا على كرم الله سبحانه ثم
ثم ان الجهد في اخر العمر نافع وانه موصل الى الدرجات العلى فلعل اليوم اخر عمرك فلم لا
تشتغلين به فان اوحي اليك بالامهال فما المانع من المبادرة وما الباعث لك على التسويف
هل له سبب الا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة افتنتظرين يوما ياتيك
لا تعسر فيه مخالفة الشهوات هذا يوم لم يخلقه ولا يخلقه فلا تكون الجنة قط الا محفوفة بالمكاره ولا
يكون المكاره قط خفيفة على النفوس هذا محال وجوده اما تتاملين منذ كم تعدين نفسك و
تقولين غدا غدا فقد جاء الغد وصار يوما فكيف وجدتيه اما علمت ان الغد الذي جاء وصار
يوما كان له حكم الامس بل ما تعجزين عنه اليوم فانت غدا عنه اعجز واعجز لان الشهوة كالشجرة
الراسخة التي تعبد الرجل على قلعها فاذا عجز عن قلعها للضعف واخرها كان كمن عجز عن
قلع شجرة وهو شاب قوي فاخرها الى سنة اخرى مع العلم بان طول المدة يزيد الشجرة
قوة ورسوخا ويزيد القالع ضعفا ووهنا فما لا يقدر عليه في الشباب فلا يقدر عليه قط في المشيب
بل من العنا رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب والقضيب الرطب يقبل الانحنا
فاذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل فاذا كنت ايتها النفس لا تفهمين هذه الامور الجلية وتركنين الى التسويف
فما لك تدعين الحكمة واية حماقة تزيد على هذه الحماقة ولعلك تقولين ما يمنعني عن الاستقامة
الا حرصي على لذة الشهوات وقلة صبري على الالام والمشقات فما احمقك واقبح اعتذارك
ان كنت صادقة في ذلك فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات ابد الاباد ولا مطمع
في ذلك الا في الجنة فان كنت ناظرة لنفسك فالنظر لها من مخالفتها فرب اكلة تمنع اكلات
وما قولك في عقل مريض اشار عليه الطبيب بترك الما البارد ثلثة ايام ليصح ويتهيا لشربه طول
العمر واخبره انه ان شربه مرض مرضا مزمنا وامتنع عليه شربه طول العمر فما مقتضى العقل في
قضا حق الشهوة ايصبر ثلثة ايام ليتنعم طول العمر ام يقضي شهوته في الحال خوفا من الم المخالفة
ثلثة ايام حتى يلزمه الم المخالفة ثلثماية وثلثة الاف يوم وجميع عمرك بالاضافة الى الابد الذي
هو مدة نعيم الجنة وعذاب النار اقل من ثلثة ايام بالاضافة الى جميع العمر وان طالت مدته ليت
شعري الم الصبر عن الشهوات اعظم شدة واطول مدة ام الم النار في دركات جهنم فمن لا يطيق

الصبر على الم المجاهدة كيف يطيق الم عذاب الله ما اراك تتوانين عن النظر لنفسك
الا لكفر خفي او لحمق جلي اما الكفر الخفي فهو ضعف ايمانك بيوم الحساب وعظم قدر الثواب والعقاب
واما الحمق الجلي فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات الى مكره واستدراجه واستغنائه
عن عبادتك مع انك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز وحبة من المال وكلمة واحدة
من الخلق بل تتوصلين الى غرضك فيها بجميع الحيل وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من النبي عليه السلام
حيث قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله
الاماني ويحك يا نفس لا ينبغي ان تغرك الحيوة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور فانظري لنفسك
فما امرك بمهم لغيرك ولا تضيعي اوقاتك فان الانفاس معدودة فاذا مضى منك نفس فقد مضى بعضك
فاغتنمي الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل والغنى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحيوة قبل
الموت واستعدي للاخرة على قدر بقائك فيها اما تستعدين للشتا بقدر طول مدته فتجمعين
له القوت والكسوة والحطب واللبد والجبة ولا تتكلين على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد
من غير جبة ولبد وحطب فانه قادر على ذلك افتظنين ان زمهرير جهنم اخف بردا واقصر
من زمهرير الشتا ام تظنين ان العبد ينجو منها بغير سعي هيهات كما لا يندفع برد الشتا الا بالجبة
والنار وسائر الاسباب فلا يندفع حر النار وبردها الا بحصن التوحيد وخندق الطاعات وانما كرم الله
عز وجل في ان عرفك طريق التحصن ويسر لك اسبابها لا في ان يندفع عنك العذاب دون حصنه
كما ان كرم الله تعالى في دفع برد الشتا من فضله وكما ان شرى الحطب والجبة مما يستغني عنه خالقك
ومولاك وانما تشتريه لنفسك اذ جعله سببا لاستراحتك فطاعاتك ومجاهداتك ايضا هو مستغن
عنها وانما هي طريقك الى نجاتك فمن احسن فلنفسه ومن اسا فعليها والله غني عن العالمين ويحك
انزعي عن جهلك وقيسي اخرتك بدنياك فما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة وكما بداكم
تعودون وسنة الله لن تجد لها تبديلا ولا تحويلا وما اراك الا الفت الدنيا وانست بها فعسر
عليك مفارقتها وانت مقبلة على مقاربتها وتوكدين في نفسك مودتها فاحسبي انك غافلة عن عقاب
الله وثوابه وعن اهوال يوم القيمة واحوالها فما انت مومنة بالموت المفرق بينك وبين
محابك افترين ان من دخل دار ملك ليخرج من الجانب الاخر فمد بصره الى وجه مليح يعلم انه
يستغرق ذلك قلبه ثم يضطر لا محالة الى مفارقته اهو معدود من العقلا او من الحمقا اما تعلمين ان
الدنيا دار ذلك الملك وما انت فيها الا مجتاز وكل ما فيها لا يصحب المجتاز فيها بعد الموت

قال سيد البشر عليه السلام ان روح القدس نفث في روعي احبب ما احببت فانك مفارقه
وعش ما شئت فانك ميت واعمل ما شئت فانك مجزي به اما تعلمين ان كل من التفت الى
ملاذ الدنيا وانس بها مع ان الموت من ورائه فانما يستكثر من الحسرة عند الفراق فعروا مما
يتزود من السم المهلك فهو لا يدري اوما تنظرين الى الذين بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا
كيف اورث الله ارضهم وديارهم اعداءهم اما تراهم كيف يجمعون ما لا ياكلون ويبنون ما لا
يسكنون ويؤملون ما لا يدركون يبني كل واحد قصرا مرفوعا الى جهة السماء ومقره قبر محفور
تحت الارض فهل في الدنيا حمق وانتكاس اعظم من هذا يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها
يقينا ويخرب آخرته وهو صائر اليها قطعا اما تستحيين من مساعدة هؤلاء على حماقتهم وتحسبي
انك لست ذا بصيرة تهتدين الى هذه الامور وانما تميلين بالطبع الى التشبه والاقتداء
فقيسي عقل الانبياء والحكماء والعلماء بعقل هؤلاء المكبين على الدنيا واقتدي من الفريقين
من هو اعقل عندك ان كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء ما اعجب امرك واشد جهلك
واظهر طغيانك عجبا لك كيف تعمين عن هذه الامور الواضحة الجلية فلعلك يسكرك حب الجاه
وادهشك عن فهمها اوما تتفكرين فان الجاه لا معنى له الا ميل قلوب الناس اليك فاحسبي ان
كل من على وجه الارض سجدوا لك واطاعوك افما تعرفين ان بعد خمسين سنة لا يبقى انت
ولا احد من على وجه الارض ممن عبدك وسجد لك وسياتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من
ذكرك كما اتى على الملوك الذين من قبلك فهل تحس منهم من احد او تسمع لهم ركزا فكيف
تبيع ما يبقى ابد الآباد بما لا يبقى اكثر من خمسين سنة ان بقي هذا ان كنت ملكا من ملوك الارض
سلم لك المشرق والمغرب حتى اذعنت لك الرقاب وانتظمت لك الاسباب كيف وقد ان
ادبارك وتحققت ان يسلم لك امر محلتك بل امر دارك فضلا عن محلتك فان
كنت لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فما لك لا تتركينها ترفعا عن
خسة شركائها وتنزها عن كثرة عنائها وتوقيا من سرعة فنائها ام ما لك لا تزهدين
في قليلها بعد ان زهد فيك كثيرها وما لك تفرحين بدنيا ان ساعدتك فلا تخلو بلدك
من يهودي ومجوسي يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها فاف لك من دنيا يسبقك
بها هؤلاء الاخساء فما اجهلك واخس همتك واسقط رايك اذ رغبت عن ان تكوني في زمرة
المقربين من الصديقين والنبيين في جوار رب العالمين ابد الآبدين لتكوني في صف النعال

النعال من جملة الحمقى الجاهلين اياما قلائل فيا حسرة عليك اذ خسرت الدنيا والدين فيا
ويحك يا نفس قد اشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير فمن ذا يصلي عنك بعد الموت
ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يرضي ربك عنك بعد الموت ما لك الا ايام معدودة
هي بضاعتك ان اتجرت فيها وقد ضيعت اكثرها فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت
مقصرا في حق نفسك فكيف اذا ضيعت البقية واصررت على عادتك اما تعلمين ان الموت
موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود انيسك والفزع الاكبر بين يديك اما
علمت ان عسكر الموتى على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا كلهم على انفسهم بالايمان الغلاظ
انهم لا يبرحون من مكانهم ما لم ياخذوك الى انفسهم اما تعلمين انهم يتمنون الرجعة الى الدنيا يوما
ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم وانت في امنيتهم ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها
لاشتروه لو قدروا عليه وانت تضيعين ايامك اما تستحيين تزيين ظاهرك للخلق وتبارزين الله
في السر بالعظائم افتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ويحك اهو اهون الناظرين
عليك اتامرين الناس بالخير وانت متلطخة بالرذائل تدعين الى الله وانت منه فارة ويحك
تذكرين بالله وانت له ناسية اما تعلمين ان المذنب انتن من العذرة وان العذرة لا تطهر غيرها فلم
تطمعين في تطهير غيرك وانت غير طاهرة في نفسك ويحك لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت
ان الناس لا يصيبهم بلاء الا بشؤمك ويحك قد جعلت نفسك حمارا لابليس يقودك الى حيث
يريد ويسخر بك ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه راسا براس
لكان الربح في يدك فكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك وقد لعن الله ابليس بخطيئة واحدة بعد ان
عبد الله مائتي الف سنة واخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه ويحك
يا نفس ما اعذرك ويحك يا نفس ما اوقحك ويحك يا نفس ما اجهلك وما اجراك على المعاصي
ويحك كم تعقدين فتنقضين ويحك كم تعهدين فتغدرين ويحك اتشتغلين مع هذه
الخطايا بعمارة دنياك كانك غير مرتحلة عنها اما تنظرين الى اهل القبور كانوا قد جمعوا كثيرا
وبنوا مشيدا واملوا بعيدا فاصبح جمعهم بورا وبنيانهم قبورا واملهم غرورا اما لك بهم عبرة
اما لك اليهم نظرة اتظنين انهم دعوا الى الآخرة وانت من المخلدين هيهات هيهات ساء ما تتوهمين
ما انت الا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن امك فابني على ظهر الارض قصرك فان بطنها
عن قليل يكون قبرك اما تخافين اذا بلغت النفس منك التراقي ان تبدو رسل ربك منحدرة اليك

بسواد الالوان وكلما الحجود وبشرك بالعذاب فهل ينفعك النعيم او يقبل منك الحزن
او يرحم منك البكاء والعجب كل العجب منك ايتها النفس تدعين البصيرة والفطنة ومن
فطنتك انك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك وما ينفع مال يزيد
وعمر ينقص ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة
عنك فكم من مستقبل يوما لم يستكمل وكم مؤمل لغد لم يبلغه وانت تشاهدين ذلك في اخوانك
واقاربك وجيرانك وترين تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك فاحذري يا
مسكينة يوما آلى الله فيه بقسم على نفسه ان لا يترك عبدا امره في الدنيا ونهاه حتى يسئله
عن عمله دقيقه وجليله سره وعلانيته فانظري باي بدن تقفين بين يديه وباي لسان
تجيبين واعدي للسؤال جوابا وللجواب صوابا واعملي بقية عمرك في ايام قصار لايام طوال
في دار زوال لدار مقام وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود واعملي قبل ان لا تعملي
واخرجي من الدنيا اختيارا خروج الاحرار قبل ان تخرجي منها على الاضطرار ولا تفرحي بما يساعدك
من زهرات الدنيا فرب مسرور مغبون ورب مغبون لا يشعر فويل لمن له الويل ثم لا يشعر يضحك ويأكل
ويشرب ويلهو وقد حق له في كتاب الله انه من وقود النار فليكن نظرك يا نفس الى الدنيا
اعتبارا وسعيك لها اضطرارا ورفضك لها اختيارا وطلبك للآخرة ابتدارا ولا
تكوني ممن يعجز عن شكر ما اوتي ويبتغي الزيادة فيما بقي وينهى الناس ولا ينتهي واعلمي انه
ليس للدين عوض ولا للايمان بدل ولا للجسد خلف ومن كانت مطيته الليل والنهار فانه
يسار به وان لم يسر فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة واقبلي هذه النصيحة فان من اعرض عن الموعظة
فقد رضي بالنار وما اراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية وان كانت القساوة تمنعك
قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجد والقيام فان لم تزل فبالمواظبة على الصيام فان لم
تزل فبقلة المخالطة والكلام فان لم تزل فبصلة الارحام واللطف بالايتام فان لم تزل
فاعلمي ان الله قد طبع على قلبك واقفل عليه وانه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه
فوطني نفسك على النار فقد خلق الله الجنة وخلق لها اهلا وخلق النار وخلق لها اهلا
فكل ميسر لما خلق له فان لم يبق فيك متسع للوعظ فاقنطي من نفسك والقنوط كبيرة من الكبائر
نعوذ بالله فلا سبيل لك الى القنوط ولا سبيل لك الى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فان
ذلك اغترار وليس برجاء فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها

بها وهل تسمح عيناك بدمعة رحمة منك على نفسك فان سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة
فقد بقي فيك موضع الرجاء فواظبي على النياحة والبكاء واستغيثي بارحم الراحمين واشتكي
الى اكرم الاكرمين وادمني الاستغاثة ولا تملي طول الشكاية لعله ان يرحم ضعفك ويغيثك فان
مصيبتك قد عظمت وبليتك قد تفاقمت وتماديك قد طال وقد انقطعت منك الحيل وزاحت
عنك العلل فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا ملاذ الا الى مولاك
فافزعي اليه بالتضرع واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لانه يرحم المتضرع
الذليل ويغيث الطالب المتلهف ويجيب دعوة المضطر الذليل وقد اصبحت اليه مضطرة والى
رحمته محتاجة وضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تنجع
فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ فالمطلوب منه كريم والمسؤول جواد والمستغاث به رؤوف
والرحمة واسعة والكرم فائض والعفو شامل فقولي يا رحمن يا رحيم يا حليم يا عظيم يا كريم انا
المذنب المصر انا الجريء الذي لا اقلع انا المتمادي الذي لا استحيي هذا مقام المتضرع
المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريق فعجل اغاثتي وفرجي وارني
آثار رحمتك واذقني برد عفوك ومغفرتك وارزقني قوة عصمتك يا ارحم الراحمين
وحكي ان ابانا آدم عليه السلام فقد قال وهب بن منبه لما اهبطه الله عز وجل الى الارض
من الجنة مكث لا ترقأ له دمعة فاطلع الله عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكس
الراس فاوحى الله اليه يا آدم ما هذا الجهد الذي ارى بك قال يا رب عظمت مصيبتي و
احاطت بي خطيئتي واخرجت من ملكوت ربي فصرت في دار الهوان بعد الكرامة وفي دار
الشقاء بعد السعادة وفي دار البلاء بعد العافية وفي دار الزوال بعد القرار وفي دار الموت
والفناء بعد الخلود والبقاء فكيف لا ابكي على خطيئتي فاوحى الله عز وجل اليه يا آدم الم
اصطفك لنفسي واحللتك داري وخصصتك بكرامتي وحذرتك سخطي الم اخلقك بيدي
ونفخت فيك من روحي واسجدت لك ملائكتي فعصيت امري ونسيت عهدي وتعرضت
لسخطي فوعزتي لو ملأت الارض رجالا كلهم مثلك يعبدونني ويسبحونني ثم عصوني لانزلتهم
منازل العاصين فبكى آدم عند ذلك ثلاثمائة عام وكان عتبة الغلام كثير البكاء يقول
في بكائه طول الليل الهي انا الذي كلما طال عمري زادت ذنوبي انا الذي كلما هممت بترك
خطيئة عرضت لي شهوة اخرى واعبيداه ان كانت لنا ولك مقبلة ومادي واعبيداه ان

كانت القبائح لزمتك حيا وميتا فقضيت حاجتي الظالمين ولعلها حاجة لا تقضى قال الفضيل بن عياض سمعت بعض المشايخ بالكوفة عابدا يناجي ربه عز وجل وهو يقول يا رب وعزتك ما اردت بمعصيتك مخالفتك ولا عصيتك اذ عصيتك وانا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سولت لي نفسي واعانني على ذلك شقوتي وغرني سترك المرخى علي فقد عصيتك بجهلي وخالفتك بفعلي فمن عذابك الآن من يستنقذني وبحبل من اعتصم ان قطعت حبلك عني واسوأتاه من الوقوف بين يديك غدا اذا قيل للمخفين جوزوا وللمثقلين حطوا افمع المخفين اجوز ام مع المثقلين احط ويلي كلما كبرت سني كثرت ذنوبي ويلي كلما طال عمري كثرت معاصي فكم اتوب وكم اعود اما آن لي ان استحيي من ربي فهذه طريق القوم في مناجاة مولاهم وفي معاتبة نفوسهم وانما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء فمن اهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعيا ويوشك ان لا يكون الله عنه راضيا

تم كتاب المحاسبة والمراقبة منتخبا جواهرها مسقطا
زواهرها بقدر الطاقة والوسع كتبه متكلما في
مطالبه متدبرا في دقائقه ومعانيه متشوقا في جبل من
جبال قرية من قرى قاشان حماه الله من الخلل والطغيان
والذل والحدثان مستفيضا من نزل سلطان الاولياء و
العرفاء برهان الكاشفين والمتالهين الى طاف فضل
الدين المرتضى القاشاني رضي الله عنه وارضاه و
جعل لقاءه مثواه وانا الفقير الى الله الغني محمد
المدعو بمحسن القاشاني وفقه الله تعالى للعمل بما
كتبه بيده الجانية الفانية مراقبا لاوقاته محاسبا
لانفاسه معاتبا لنفسه العاصية الغافلة
مجهولا لظنين ووقع الفراغ يوم الثلثا
تاسع عشر شهر رمضان المبارك سنة اثنين
وثلثين بعد الالف من الهجرة النبوية المصطفوية
على هاجرها الف الف صلاة وتحية

كتاب التفكر وهو التاسع من ربع المنجيات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لم يقدر لانتهاء عزته نحوا ولا قطرا ولم يجعل لمرقى اقدام الاوهام ومرمى سهام الافهام الى حمى عظمته مجرى بل ترك قلوب الطالبين في بيداء كبريائه والهة حيرى كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سبحات الجلال واذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا صبرا ثم قيل اجيلي في ذل العبودية فكرك فانك لو تفكرت في جلال الربوبية لم تقدري قدره وان طلبت وراء التفكر في صفاتك امرا فانظري في نعم الله واياديه كيف توالت عليك تترى وجددي لكل نعمة منها ذكرا وشكرا وتأملي في بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيرا وشرا ونفعا وضرا وعسرا ويسرا وفوزا وخسرا وجبرا وكسرا وطيا ونشرا وايمانا وكفرا وعرفانا ونكرا وان جاوزت النظر في الافعال الى النظر في الذات فقد حاولت امرا امرا وخاطرت بنفسك مجاوزة حد طاقة البشر ظلما وجورا فقد انبهرت العقول دون مبادي اشراقه وانتكصت على اعقابها اضطرارا وقهرا والصلاة على محمد المصطفى صلاة تبقى لنا في عرصات القيامة عدة وذخرا وعلى آله واصحابه الذين اصبح كل واحد منهم في سماء الدين بدرا ولطوائف المسلمين صدرا وسلم **اما بعد** فقد وردت السنة بان تفكر ساعة خير من عبادة سنة وكثر الحث في كتاب الله عز وجل على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ولا يخفى ان الفكر هو مفتاح الانوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم واكثر الناس قد عرفوا فضيلته ورتبته لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره وموردة ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته ولم يعلموا كيف يتفكر وفيما يتفكر ولما يتفكر وما الذي يطلب به اهو مراد لعينه او لثمرة تستفاد منه وان كان لثمرة فما تلك الثمرة اهي من العلوم او من الاحوال او منهما جميعا وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر اولا فضيلة التفكر ثم حقيقة التفكر وثمرته ثم مجاري الفكر ومسارحه ان شاء الله تعالى

فضيلة التفكر قد امر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى واثنى على المتفكرين فقال الذين يتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار وقد قال ابن عباس ان قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وآله تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره وعن النبي صلى الله عليه وآله انه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال

ما لكم لا تتكلمون فقالوا نتفكر في خلق الله عز وجل قال فكذلك فافعلوا تفكروا في خلقه
ولا تتفكروا فيه فان بهذا المغرب ارضا بيضاء نورها بياضها او بياضها نورها مسيرة
الشمس اربعين يوما بها خلق من خلق الله عز وجل لم يعصوا الله طرفة عين قالوا يا رسول
الله فاين الشيطان عنهم قال ما يدرون خلق الشيطان ام لا قالوا من ولد آدم قال لا يدرون
خلق آدم ام لا وعن عطا قال انطلقت انا وعبيد بن عمير الى عايشة رضي الله عنها وبيننا وبينها حجاب فقالت
يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا فقال قول النبي صلى الله عليه وسلم زر غبا تزدد حبا فقال ابن عمير اخبرينا
باعجب شيء رايتيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبكت وقالت كل امره كان عجبا اتاني في ليلتي
حتى مس جلدي جلده ثم قال ذريني اتعبد لربي عز وجل فقام الى القربة فتوضا منها ثم
قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الارض ثم اضطجع على جنبه حتى اتى بلال يؤذنه
بصلاة الصبح فقال يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تاخر
فقال ويحك يا بلال ما يمنعني ان ابكي وقد انزل الله علي في هذه الليلة ان في خلق السموات
والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب ثم قال ويل لمن قراها ولم يتفكر
فيها وقيل للاوزاعي ما غاية التفكر فيهن قال يقراهن ويعقلهن وعن محمد بن واسع ان
رجلا من اهل البصرة ركب الى ام ذر بعد موت ابي ذر فسالها عن عبادة ابي ذر فقالت كان
نهاره اجمع في ناحية البيت يتفكر وعن الحسن قال تفكر ساعة خير من قيام ليلة وعن الفضيل
قال الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك وقيل لابرهيم انك تطيل الفكر فقال الفكرة مخ
العقل وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يتمثل بهذا البيت اذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء
له عبرة وعن ابي سعيد الخدري قال قال النبي صلى الله عليه وسلم اعطوا اعينكم حظها من العبادة قالوا وما
حظها من العبادة قالوا وما حظها من العبادة يا رسول الله قال النظر في المصحف والتفكر فيه
والاعتبار عند عجائبه وعن امراة كانت تسكن البادية قريبا من مكة انها قالت لو تطلعت
قلوب المتقين بفكرها الى ما قد ذخر لها في حجب الغيوب من خير الاخرة لم يصف لها عيش في الدنيا
وقال ابو سليمان عودوا انفسكم البكاء وقلوبكم التفكر وقال الفكرة في الدنيا حجاب عن الاخرة
وعقوبة لاهل الولاية والفكرة في الاخرة يورث الحكمة ويحيي القلب وحكي ان الله عز وجل قال
بعض الحكما اني لست اقبل كلام كل حكيم ولكن انظر الى همه وهواه فان كان همه وهواه لله جعلت صمته
تفكرا وكلامه حمدا وان لم يتكلم وقال الجنيد اشرف المجالس واعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد

والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكاس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن بالله تعالى
ثم الفكر في سبيلي قال يا لها من مجالس ما اجلها ومن شراب ما الذه طوبى لمن رزقه وقال
الشافعي الفضايل اربع احدها الحكمة وقوامها الفكرة والثانية العفة وقوامها في الشهوة
والثالثة القوة وقوامها في الغضب والرابعة العدل وقوامها في اعتدال قوى النفس فهذه
اقاويل العلما في الفكرة وما شرع احد في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها

بيان حقيقة الفكر وثمرته

اعلم ان الفكر معنى هو احضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة
ومثاله ان من مال الى العاجلة واثر الحيوة الدنيا واراد ان يعرف ان الاخرة اولى بالايثار
من العاجلة فله طريقان احدهما ان يسمع من غيره ان الاخرة اولى بالايثار فيقلده ويصدقه
من غير بصيرة بحقيقة الامر فيميل بعمله الى ايثار الاخرة اعتمادا على مجرد قوله وهذا يسمى تقليدا
والطريق الثاني ان يعرف ان الابقى اولى بالايثار ثم يعرف ان الاخرة ابقى فيحصل له من هاتين
المعرفتين معرفة ثالثة وهي ان الاخرة اولى بالايثار ولا يمكن تحقق المعرفة بان الاخرة اولى
بالايثار الا بالمعرفتين السابقتين فاحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل الى
المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتذكرا ونظرا وتاملا وتدبرا اما التدبر
والتامل والتفكر فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة واما اسم التذكر
والاعتبار والنظر فهي مختلفة فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع والمهند يدل عليه
المعاني وان كان اصل المسمى واحدا كما ان اسم الصارم والسيف والمهند يتوارد على شيء
واحد ولكن باعتبارات مختلفة فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع والمهند يدل
عليه من حيث نسبته الى موضعه والسيف يدل دلالة مطلقة من غير اشعار بهذه الزوايد فكذلك
الاعتبار ينطلق على احضار المعرفتين من حيث انه يعبر منهما الى معرفة ثالثة فان لم يقع العبور
ولم يكن الا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم التذكر لا اسم الاعتبار واما النظر و
التفكر فيقع عليه من حيث ان فيه طلب معرفة ثالثة فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى
ناظرا فكل متفكر فهو متذكر وليس كل متذكر متفكرا وفايدة التذكار تكرار المعارف على
القلب لترسخ ولا تنمحي عن القلب وفايدة التفكر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست
حاصلة فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر والمعارف اذا اجتمعت في القلب وازدوجت
مع معرفة اخرى حصل منها نتاج اخر وهكذا يتمادى النتاج ويتمادى العلوم ويتمادى الفكر الى

عنه بالكلية وانما ينسد طريق زيادة المعارف بالموت او العوائق هذا لمن يقدر على استثمار
العلوم ويهتدي الى طريق التفكر فاما اكثر الناس فانما منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم راس
المال وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم كالذي لا بضاعة له فانه لا يقدر على الربح وقد يملك
البضاعة ولكن لا يحسن صنعة التجارة فلا يربح فكذلك قد يكون له من المعارف ما هو راس مال العلوم
ولكنه ليس يحسن استعمالها وتاليفها وايقاع الازدواج المفضي الى النتاج فيها ومعرفة طريق الاستعمال
والاستثمار تارة يكون بنور الهي في القلب يحصل بالفطرة كما كان للانبياء عليهم السلم وذلك عزيز جدا
وقد يكون بالتعلم والممارسة وهو الاكثر ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو
لا يشعر بكيفية حصولها ولا يقدر على التعبير عنه لقلة ممارسته لصناعة التعبير في الايراد فكم من انسان
يعلم ان الاخرة اولى بالايثار علما حقيقيا ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على ايراده والتعبير عنه
مع انه لم يحصل معرفته الا عن المعرفتين السابقتين وهو ان الابقى اولى بالايثار وان الاخرة
ابقى من الدنيا فتحصل له معرفة ثالثة وهي ان الاخرة اولى بالايثار فرجع حاصل حقيقة التفكر الى
احضار معرفتين للتوصل بهما الى معرفة ثالثة واما ثمرة الفكر فهي العلوم والاحوال والاعمال ولكن
ثمرتها الخاصة العلم لا غير نعم اذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب واذا تغير حال القلب تغيرت اعمال الجوارح فالعمل
تابع للحال والحال تابع للعلم والعلم تابع للفكر فالفكر اذن هو المبدا والمفتاح للخيرات كلها
وهذا هو الذي يكشف لك عن فضيلة التفكر وانه خير من الذكر والتذكر لان في الفكر ذكرا و
زيادة وذكر القلب خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذكر فان التفكر افضل من جملة
الاعمال ولذلك قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة وقيل هو الذي ينقل من المكاره الى المحاب ومن
الرغبة والحرص الى الزهد والقناعة وقيل هو الذي يحدث مشاهدة وتقوى ولذلك قال
تعالى لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا وان اردت ان تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فمثاله ما ذكرناه من
امر الاخرة فان الفكر فيها يعرفنا ان الاخرة اولى بالايثار فاذا رسخت هذه المعرفة يقينا في
قلوبنا تغيرت القلوب الى الرغبة في الاخرة فان الفكر فيها يعرفنا ان الاخرة والزهد في
الدنيا وهذا ما عنيناه بالحال اذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل اليها
والنفرة عن الاخرة وقلة الرغبة فيها وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت ارادته ورغبته
ثم اثمر تغير الارادة اعمال الجوارح في اطراح الدنيا والاقبال على اعمال الاخرة فههنا خمس درجات
اولاها التذكر وهو احضار المعرفتين في القلب وثانيتها التفكر وهو طلب المعرفة المقصودة

المقصودة منهما والثالثة حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها والرابعة تغير
حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة والخامسة خدمة الجوارح للقلب بحسب
ما يتجدد له من الحال فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضيء بها الموضع فتصير العين
مبصرة وتنتهض الاعضاء للعمل فكذلك زناد نور المعرفة كما ينبعث النار من الحديد
كما يجمع بين الحجر والحديد ويؤلف بينهما تاليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا
مخصوصا فينبعث نور المعرفة كما ينبعث النار من الحديد ويتغير القلب بسبب هذا النور
حتى يميل الى ما لم يكن يميل اليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه ثم تنتهض الاعضاء للعمل
بمقتضى حال القلب كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند ادراك البصر ما لم يكن يبصره
فاذن ثمرة الفكر العلوم والاحوال والعلوم لا نهاية لها والاحوال التي يتصور ان تنقلب على
القلب لا يمكن حصرها ولهذا لو اراد مريد ان يحصي فنون الفكر ومجاريه وانه فيماذا يتفكر
لم يقدر عليه لان مجاري الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية نعم نحن نجتهد في ضبط مجاريه
بالاضافة الى مهمات العلوم الدينية وبالاضافة الى الاحوال التي هي مقامات السالكين
ويكون ذلك ضبطا جمليا فان تفصيل ذلك يستدعي شرح العلوم كلها وجملة هذه الكتب
كالشرح لبعضها فانها مشتملة على علوم تلك العلوم تستفاد من افكار مخصوصة فلنشر الى
ضبط الجامع فيه ليحصل الوقوف على مجاري الفكر فيه

بيان مجاري الفكر

اعلم ان الفكر
قد يجري في امر يتعلق بالدين وقد يجري فيما يتعلق بغير الدين وانما غرضنا ما يتعلق بالدين
فلنترك القسم الاخر ونعني بالدين المعاملة التي بين العبد وبين الرب تعالى فجميع افكار العبد اما ان
يتعلق بالعبد وصفاته واحواله واما ان يتعلق بالمعبود وصفاته وافعاله فلا يمكن ان يخرج
عن هذين القسمين وما يتعلق بالعبد اما ان يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى
او فيما هو مكروه ولا حاجة الى الفكر في غير هذين القسمين وما يتعلق بالرب تعالى اما ان
يكون نظرا في ذاته وصفاته واسمائه الحسنى واما ان يكون نظرا في افعاله وملكه وملكوته
وجميع ما في السموات والارضين وما بينهما فينكشف لك انحصار الفكر في هذه الاقسام بمثال
وهو ان حال السائرين الى الله والمشتاقين الى لقائه تضاهي حال العشاق فلنتخذ العاشق
المستهتر مثالنا فنقول العاشق المستغرق الهم بعشقه لا يعدو فكره من ان يتعلق بمعشوقه
او يتعلق بنفسه فان تفكر في معشوقه فاما ان يتفكر في جماله وحسن صورته ليتنعم بالفكر فيه

هو الفكر فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين
الحجر والحديد ويؤلف بينهما تاليفا مخصوصا
كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا
فينبعث نور المعرفة

[illegible]

ومشاهدته واما ان يتفكر في افعاله اللطيفة الحسنة الدالة على اخلاقه وصفاته ليكون ذلك معرفا للذة ومشوقا بالحب وان تفكر في نفسه فيكون تفكره في صفاته التي يسقط من عين محبوبه حتى يتنزه عنها او في الصفات التي تقربه منه وتحببه اليه حتى يتصف بها فان تفكر في شيء خارج من هذه الاقسام فذلك خارج عن حد العشق وهو نقصان فيه لان العشق التام الكامل ما استغرق العاشق واستوفى على القلب حتى لا يترك فيه متسعا لغيره فمحب الله تعالى ينبغي ان يكون كذلك فلا يعدو نظره ان يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكره محبوبه ومهما كان تفكره في هذه الاقسام الاربعة لم يكن خارجا عن مقتضى المحبة فلنبدأ بالقسم الاول وهو تفكره في صفات نفسه وافعال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه فان هذا القسم هو الذي يتعلق بعلم المعاملة الذي هو مقصود الكتاب واما القسم الاخر فيتعلق بعلم المكاشفة ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله او محبوب ينقسم الى ظاهر كالطاعات والمعاصي والى باطن كالصفات المنجيات والمهلكات الطاعات والمعاصي والى باطن كالصفات التي محلها القلب وذكرنا تفصيلها في ربع المنجيات والمهلكات والطاعات والمعاصي تنقسم الى ما يتعلق بالاعضاء السبعة والى ما ينسب الى جميع البدن كالفرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون في المسكن الحرام ويجب في كل واحد من المكاره التفكر في ثلاثة امور الاول التفكر في انه هل هو مكروه عند الله ام لا فرب شيء لا يظهر كونه مكروها بل يدرك بدقيق النظر الثاني التفكر في انه ان كان مكروها فما طريق الاحتراز عنه الثالث ان هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فيتركه او يتعرض له في الاستقبال فيحترز عنه او قارفه فيما مضى من الاحوال فيحتاج الى تداركه وكذلك كل واحد من هذه المحبوبات ينقسم هذه الانقسام فاذا جمعت هذه الاقسام زادت مجاري الفكر في هذه الاقسام على مائة والعبد مدفوع الى التفكر اما في جميعها او في اكثرها وشرح آحاد هذه الاقسام يطول ولكنا نحصر هذا القسم اربعة انواع الطاعات والمعاصي والصفات المنجيات والمهلكات ونذكر في كل نوع مثالا واحدا ليقيس به المريد سائرها وينفتح له باب الفكر ويتسع له طريقه **النوع الاول** المعاصي ينبغي ان يفتش العبد صبيحة كل يوم عن جميع اعضائه السبعة تفصيلا ثم عن بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها او لابسها بالامس فيتداركها بالترك والندم او هو متعرض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها فينظر في اللسان ويقول انه متعرض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعني الى غير ذلك من المكاره فيقرر اولا في نفسه انها

انها مكروهة عند الله ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ثم يتفكر في احواله انه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ثم يتفكر انه كيف يحترز منها ويعلم انه لا يتم الا بالعزلة والانفراد او بان لا يجالس الا صالحا تقيا ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله او يضع حجرا في فيه اذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا له فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز ويتفكر في سمعه انه يصغي به الى الغيبة والكذب وفضول الكلام والى اللهو والبدعة وان ذلك انما يسمعه من زيد ومن عمرو وانه كيف ينبغي ان يحترز عنهم بالاعتزال او بالنهي عن المنكر مهما سمع ذلك ويتفكر في بطنه انه انما يعصي الله فيه بالاكل والشرب اما بكثرة الاكل من الحلال فان ذلك مكروه عند الله عز وجل ومقو للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدو الله واما باكل الحرام او الشبهة فينظر من اين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه ويتفكر في طرق الحلال ومداخله ثم يتفكر في وجوه الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ويقرر على نفسه ان العبادات كلها ضائعة مع اكل الحرام وان اكل الحلال هو اساس العبادات كلها وان الله لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام كما ورد الخبر به فهكذا يتفكر في اعضائه ففي هذا القدر كفاية عن الاستقصاء فمهما حصلت بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الاحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الاعضاء عنها **واما النوع الثاني** وهو الطاعات فينظر اولا في الفرائض المكتوبة عليه انه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير وكيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ثم يرجع الى عضو عضو فيتفكر في الافعال التي تتعلق بها مما يحبه الله عز وجل فيقول مثلا ان العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والارض عبرة ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر في كتاب الله وسنة رسوله وانا قادر على ان انظر الى فلان المطيع بعين التعظيم فادخل السرور على قلبه وانظر الى فلان الفاسق بعين الازدراء فازجره بذلك عن معصيته فلم لا افعله وكذلك يقول في سمعه اني قادر على استماع كلام الله واستماع حكمة وعلم او استماع قراءة وذكر فما لي اعطله وقد انعم الله عز وجل علي به واودعنيه لاشكره فما لي اكفر نعمة الله فيه بتضييعه وتعطيله وكذلك يتفكر في اللسان ويقول اني قادر على ان اتقرب الى الله تعالى بالوعظ وبالتودد الى قلوب اهل الصلاح وبالسؤال عن احوال الفقراء وادخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة فانها صدقة وكذلك يتفكر في ماله فيقول انا قادر على ان اتصدق بالمال الفلاني فاني مستغن عنه ومهما احتجت اليه رزقني الله مثله وان كنت محتاجا الآن فانا

الى ثواب الاشيا احوج مني الى ذلك المال وهكذا يفتش عن اعضائه وجملة بدنه وامواله
بل عن دوابه وغلمانه واولاده فان كل ذلك ادواته واسبابه وله ان يطيع الله عز وجل بها
فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ويتفكر فيما يرغبه في البدار الى تلك الطاعات
ويتفكر في اخلاص النية ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر
الطاعات واما النوع الثالث فهي الصفات المهلكة التي محلها القلب فيعرفها مما ذكرناه
في ربع المهلكات وهي استيلا الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والريا والحسد وسو
الظن والغفلة والغرور وغير ذلك ويتفقد من قلبه هذه الصفات فان ظن ان قلبه منزه
عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه فان النفس ابدا تعد بالخير من نفسها
وتكذب فاذا ادعت التواضع والبراة من الكبر فينبغي ان تجرب بحمل حزمة حطب في السوق
كما كان الاولون يجربون به انفسهم واذا ادعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره ثم يجربها في كظم
الغيظ وكذلك في سائر الصفات وهذا تفكر في انه هل هو موصوف بالصفة المكروهة ام لا
ولها علامات ذكرناها في ربع المهلكات فاذا دلت العلامة على وجودها فكر في الاسباب التي
تقبح تلك الصفات عنده ويتبين ان منشاها من الجهل والغفلة وخبث الدخلة كما لو راى
في نفسه عجبا بالعمل فيتفكر ويقول انما عملي ببدني وجارحتي وبقدرتي وارادتي وكل ذلك
ليس مني ولا الي وانما هو من خلق الله عز وجل وفضله علي فهو الذي خلقني وخلق قدرتي و
ارادتي وهو الذي حرك اعضائي بقدرته فكيف اعجب بعملي وبنفسي ولا اقوم لنفسي بنفسي واذا
احس في نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيها من الحماقة ويقول لها لم ترين نفسك اكبر والكبير من هو
كبير عند الله وذلك ينكشف بعد الموت وكم من كافر في الحال يموت مقربا الى الله بنزوعه عن
الكفر وكم من مسلم يموت شقيا بتغير حاله عند الموت لسوء الخاتمة فاذا عرف ان الكبر مهلك وان
اصله الحماقة فيتفكر في علاج ازالة ذلك بان يتعاطى افعال المتواضعين واذا وجد في نفسه شهوة الطعام
ونهمه فليتفكر في ان هذه صفة البهايم ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات
الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة ولما اتصف به البهايم ومهما كان الشره عليه اغلب كان
بالبهايم اشبه وعن الملائكة المقربين ابعد وكذلك يقرر على نفسه في الغضب ثم يتفكر في طريق العلاج
وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب واما النوع الرابع وهو المنجيات فهو التوبة والندم على
الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهد في الدنيا والاخلاص

والاخلاص والصدق في الطاعات ومحبة الله عز وجل وتعظيمه والرضا بافعاله والشوق اليه وكل
ذلك ذكرناه في هذا الربع وذكرنا اسبابه وعلاماته فليتفكر العبد كل يوم وليلة في قلبه ما
الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة الى الله عز وجل فاذا افتقر الى شي منها فليعلم
انها احوال لا يثمرها الا علوم وان العلوم لا يثمرها الا افكار فاذا اراد ان يكتسب لنفسه حال
التوبة والندم فليفتش من ذنوبه اولا وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه ثم
لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها وليتحقق عند نفسه انه متعرض لمقت الله
عز وجل حتى ينبعث له حال الندم واذا اراد ان يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر في احسان
الله تعالى اليه واياديه عليه وفي ارساله جميل ستره عليه على ما شرحنا بعضه في كتاب الشكر
وليطالع ذلك واذا اراد حال المحبة والشوق فليتفكر في جلال الله عز وجل وجماله و
عظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه كما سنشير الى طرف منه
في القسم الثاني من الفكر واذا اراد حال الخوف فلينظر اولا في ذنوبه الظاهرة والباطنة
ثم لينظر في الموت وسكراته ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقاربه
وديدانه ثم في هول النداء عند نفخة الصور ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد
واحد ثم في المناقشة في الحساب والمضايقة في النقير والقطمير ثم في الصراط ودقته و
حدته ثم في خطر الامر عنده انه يصرف الى الشمال فيكون من اصحاب النار
او يصرف الى اليمين فينزل دار القرار ثم ليحضر اهوال القيامة في قلبه من صورة جهنم
ودركاتها ومقامعها واهوالها وسلاسلها واغلالها وزقومها وصديدها
وانواع العذاب فيها وقبح صورة الزبانية الموكلين بها وانهم كلما نضجت جلودهم
بدلوا جلودا غيرها وانهم كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها وانهم اذا
راوهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وهلم جرا الى جميع ما ورد في القرآن
من شرحها واذا اراد ان يستجلب حال الرجا فلينظر الى الجنة ونعيمها واشجارها
وانهارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم فهكذا طريق الفكر
الذي يطلب به العلوم التي تثمر الاتصاف باحوال محبوبة او التنزه عن صفات
مذمومة وقد ذكرنا في كل واحدة من هذه الاحوال كتابا مفردا يستعان به
على تفصيل الفكر اما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه انفع من تلاوة القرآن بالتفكر فانه

جامع لجميع المقامات والاحوال وفيه شفآء للعالمين ففيه ما يورث الخوف والرجآء
والصبر والشكر والمحبة والشوق وساير الاحوال وفيه ما يزجر عن ساير الصفات
المذمومة فينبغي ان يقراها العبد ويردد الاية التي هو محتاج الى التفكر فيها مرة بعد
اخرى ولو مائة مرة فقراءة اية بترديد وفهم خير من ختمة بغير تدبر وفهم وليتوقف في
التامل فيها ولو ليلة واحدة فان تحت كل كلمة منها اسرارا لا تنحصر ولا يوقف عليها
الا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة وكذلك مطالعة اخبار النبي عليه السلم
فقد اوتي جوامع الكلم وكل كلمة من كلامه بحر من بحور الحكمة ولو تاملها العالم حق التامل لم
ينقطع فيها نظره طول عمره وشرح آحاد الآيات والاخبار يطول فانظر الى قوله عليه السلم ان
روح القدس نفث في روعي احبب ما احببت فانك مفارقه وعش ما شئت فانك ميت
واعمل ما شئت فانك مجزى به فان هذه الكلمات جامعة حكم الاولين والاخرين
وهي كافية للمتاملين فيها طول العمر اذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة
يقين لاستغرقتهم ولحالت بينهم وبين التلفت الى الدنيا بالكلية فهذا هو طريق
الفكرة علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله او مكروهة و
المبتدي ينبغي ان يكون مستغرق الهم في هذه الافكار حتى يعمر قلبه بالاخلاق المحمودة
والمقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن المكاره وليعلم ان هذا مع انه افضل
من ساير العبادات فليس هو غاية المطلب بل المشغول به محجوب عن مطلب الصديقين
وهو التنعم بالفكرة جلال الله وجماله واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه اي ينسى
نفسه واحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب كالعاشق المستهتر عند
لقآء الحبيب فانه لا يتفرغ الى النظر الى احوال نفسه واوصافها بل يبقى كالمبهوت الغافل
عن نفسه وهو منتهى لذة العشاق فاما ما ذكرناه فهو تفكر في عمارة الباطن ليصلح للقرب
والوصال فاذا ضيع جميع عمره في اصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب ولذلك كان
الخواص يدور في البوادي فلقيه الحسين بن منصور وقال فيم انت قال ادور في البوادي
اصحح حالي في التوكل فقال افنيت عمرك في عمران باطنك فاين الفناء في التوحيد فالفنا
في الواحد الحق هو مقصد الطالبين ومنتهى نعم الصديقين واما التنزه عن الصفات
المهلكات فيجرى مجرى الخروج عن العدة في النكاح والاتصاف بالصفات المنجيات وساير

وساير الطاعات يجري مجرى تهية المراة جهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها
لتصلح بذلك للقآء زوجها فان استغرقت جميع عمرها في تبرية الرحم وتزيين الوجه كان
ذلك حجابا لها عن لقآء زوجها فهكذا ينبغي ان تفهم طريق الدين ان كنت من اهل المجالسة
وان كنت كالعبد السوء لا يتحرك الا خوفا من الضرب وطمعا في الاجرة فدونك واتعاب
البدن بالاعمال الظاهرة فان بينك وبين القلب حجابا كثيفا فاذا قضيت حق الاعمال
كنت من اهل الجنة ولكن للمجالسة قوم آخرون فاذا عرفت مجاري الفكرة علوم المعاملة
التي بين العبد وبين ربه فينبغي ان تتخذ ذلك عادتك ووردك صباحا ومسآء
فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة عن الله عز وجل واحوالك المقربة اليه تعالى
بل كل مريد فينبغي ان يكون له جريدة يكتب فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات
المنجيات وجملة المعاصي والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم ويكفيه من المهلكات عشرة فانه ان
اسلم منها سلم من غيرها وهي البخل والكبر والعجب والريآء والحسد وشدة الغضب وشره
الطعام وشره الوقاع وحب المال وحب الجاه ومن المنجيات عشرة وهي الندم على الذنوب
والصبر على البلاء والرضا بالقضا والشكر على النعماء واعتدال الخوف والرجآء والزهد
في الدنيا والاخلاص في العمل وحسن الخلق مع الخلق وحب الله والخشوع له فهذه عشرون
خصلة عشر منها مذمومة وعشر محمودة فمهما كفي عن المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته
ويدع الفكر فيها ويشكر الله عز وجل على كفايته اياها وتنزيه قلبه منها ويعلم ان ذلك
لم يتم الا بتوفيق الله وعونه ولو وكله الى نفسه لم يقدر على محو اقل الرذايل عن نفسه فيقبل
على التسع البواقي وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع وكذلك يطالب نفسه بالاتصاف با
المنجيات فاذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلا خط عليها واشتغل بالباقي و
هذا يحتاج اليه المريد المتشمر واما اكثر الناس المعدودين من الصالحين فينبغي ان يثبتوا في
جريدتهم من المعاصي الظاهرة كالاكل بالشبهة واطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمرآء
والثناء على النفس والافراط في معاداة الاعدآء وموالاة الاوليآء والمداهنة مع الخلق في
ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فان اكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن
جملة من هذه المعاصي في جوارحه وما لم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة
القلب وتطهيره بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية فينبغي ان يكون تفقدهم

لها ويتكلمون بها الا في معاصيهم ويعرض عنها مثال الظلم الورع فانه لا يخلو في غالب الامر عن اظهار
نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت اما بالتدريس او بالوعظ ومن فعل ذلك فقد تعرض
لفتنة عظيمة لا ينجو منها الا الصديقون فانه ان كان كلامه مقبولا لاحسن الوقع في القلوب لم
ينفك عن الاعجاب والخيلاء والتزين والتصنع وذلك من المهلكات وان رد كلامه لم ينفك
عن الغضب والغيظ والحقد على من رده هو اكثر من غيظه على من يرد عليه كلام غيره وقد يلبس
الشيطان عليه ويقول له ان غيظك من حيث انه رد الحق وانكره فان وجد تفرقة بين ان يرد عليه
كلامه او يرد على عالم اخر فهو مغرور وضحكة للشيطان ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح
بالثناء واستنكاف من الرد والاعراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والايراد حرصا
على استجلاب الثناء والله لا يحب المتكلفين والشيطان قد يلبس عليه ويقول له انما حرصك على
تحسين الالفاظ والتكلف فيها لينتشر الحق ويحسن موقعه في القلوب اعلاء لدين الله عز وجل
فان كان فرحه بحسن الفاظه وثناء الناس عليه اكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من اقرانه
فهو مخدوع وانما يدعي ان طلبه للجاه وهو يظن ان مطلبه الدين ومهما اختلج ضميره بهذه
الصفات ظهر على ظاهره ذلك حتى يكون للمعتقد لفضله اكثر احتراما ويكون بلقائه اشد
استبشارا ممن يغلو في موالاة غيره ولذلك كان ذلك الغير مستحقا للموالاة وربما ينتهي الامر باهل
العلم الى ان يتغايروا تغاير النساء فيشق على احدهم ان يختلف بعض تلامذته الى غيره وان
كان يعلم انه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه وكل هذا رشح الصفات المهلكات المستكنة
في سر القلب التي يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها وانما ينكشف ذلك بهذه العلامات
ففتنة العالم عظيمة وهو اما مالك واما هالك ولا مطمع له في السلامة من العوام فمن احس
نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه الانفراد والعزلة وطلب الخمول والدفع للفتاوى مهما
سئل فقد كان المسجد يحوي جماعة من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا كلهم مفتين فكل من كان
يفتي كان يود ان يكفيه غيره وعند هذا ينبغي ان يتقي شياطين الانس اذ قالوا لا تفعل
هذا فان هذا الباب لو فتح لاندرست العلوم من بين الخلق ولتقل لهم ان دين الاسلام
مستغن عني فانه كان معمورا قبلي وكذلك يكون بعدي ولو مت لم ينهدم اركان الاسلام
فالدين مستغن عني واما انا فلست مستغنيا عن اصلاح قلبي واما افضاء ذلك الى انطماس العلم
فخيال يدل على غاية الجهل فان الناس لو حبسوا في السجن وقيدوا وتوعدوا بالنار على طلب

طلب العلم لكان حب الرياسة والعلو يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون
والخروج منها والاشتغال بطلب العلم فالعلم لا يندرس ما دام الشيطان يحبب الى الخلق الرياسة
والشيطان لا يفتر عن عمله الى يوم القيامة بل ينتهض لنشره اقوام لا نصيب لهم في الاخرة كما
قال صلى الله عليه وسلم ان الله يؤيد هذا الدين باقوام لا خلاق لهم وقال ان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل
الفاجر فلا ينبغي ان يغتر العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى في
قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فان ذلك بذر النفاق قال النبي صلى الله عليه وسلم حب المال والجاه
ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل وقال صلى الله عليه وسلم ما ذئبان ضاريان ارسلا في
زريبة غنم باكثر فسادا فيها من حب الجاه والمال في دين الرجل المسلم ولا ينقلع حب الجاه من القلب
الا بالاعتزال عن الناس والهرب من مخالطتهم وترك كل ما يزيد جاههم في قلوبهم فليكن
فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منه
وهذه وظيفة العالم التقي فاما امثالنا فينبغي ان يكون تفكرنا فيما يقوي ايماننا بيوم
الحساب اذ لو رآنا السلف الصالحون لقالوا قطعا ان هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب
فما اعمالنا اعمال من يؤمن بالجنة والنار فان من خاف شيئا هرب منه ومن رجا شيئا
طلبه وقد علمنا ان الهرب من النار بترك الشبهات والحرام وترك المعاصي ونحن منكبون
عليها وان طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون في الفرائض منها فلم يحصل لنا
من ثمرة العلم الا انه يقتدي بنا في الحرص على الدنيا والتكالب عليها ويقال لو كان هذا
مذموما لكان العلماء احق باجتنابه فليتنا كنا كالعوام اذا متنا ماتت معنا ذنوبنا فما
اعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا فيها نسأل الله عز وجل ان يصلحنا ويصلح بنا ويوفقنا
للتوبة قبل ان يتوفانا انه الكريم اللطيف بنا المنعم علينا فهذه مجاري الفكر للعلماء و
الصالحين في علم المعاملة فان فرغوا منها انقطع التفاتهم الى انفسهم وارتقوا منها الى التفكر
في جلال الله وعظمته والتنعم بمشاهدته بعين القلب ولا يتم ذلك الا بعد الانفكاك عن جميع المهلكات
والاتصاف بجميع المنجيات وان ظهر منه شيء قبل ذلك كان مدخولا معلولا مكدرا مقطوعا
وكان ضعيفا كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه ولكن تحت
ثيابه عقارب تلدغه مرة بعد اخرى فتنغص عليه لذة المشاهدة ولا طريق له في اكمال
التنعم الا باخراج العقارب من ثيابه وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات وهي

موذيات ومشوشات وفي القبر بين يديه الم لذعها على لذع العقارب والحيات فهذا القدر
كاف في التنبيه على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المذمومة والمحمودة المقام
الثاني الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه وفيه مقامان المقام الاعلى الفكر في ذاته و
صفاته ومعاني اسمائه وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في
ذات الله وذلك لان العقول تتحير فيه فلا يطيق مد البصر اليه الا الصديقون ثم لا يطيقون
دوام النظر اليه بل سائر الخلق احوال ابصارهم بالاضافة الى جلال الله كحال بصر الخفاش بالاضافة
الى الشمس فانه لا يطيقها البتة بل يختفي نهارا وانما يتردد ليلا لينظر في بقية نور الشمس اذا وقع
على الارض واحوال الصديقين كحال الانسان بالنظر الى الشمس اذا وقع على الارض
فانه يقدر على النظر اليها ولكن لا يطيق دوامه ويخشى على بصره لو دام النظر اليها ونظر الخاطف
اليها يورث العمش ويضعف البصر فكذلك النظر الى ذات الله عز وجل يورث الحيرة
والدهش واضطراب العقل فالصواب اذن ان لا يتعرض لمجاري الفكر في ذات الله
وصفاته فان اكثر العقول لا تحتمله بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء وهو ان الله
عز وجل مقدس عن المكان منزه عن الاقطار والجهات وانه ليس داخل العالم ولا خارجه
ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه قد حير عقول اقوام حتى انكروه اذ لم يطيقوا
سماعه ومعرفته بل ضعفت طائفة عن احتمال اقل من هذا اذ قيل لهم انه يتعالى عن ان
يكون له راس ورجل ويد وعين وعضو وان يكون جسما مشخصا له حجم ومقدار فانكروا
هذا وظنوا ان ذلك قدح في عظمة الله وجلاله حتى قال بعض الحمقى من العوام ان هذا وصف
بطيخ هندي لا وصف الاله لظن المسكين ان الجلالة والعظمة في هذه الاعضاء وهذا لان
الانسان لا يعرف الا نفسه ولا يستعظم الا نفسه فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة
فيه نعم غايته ان يقدر نفسه جميل الصورة جالسا على سرير وبين يديه غلمان يمتثلون
امره فلا جرم غايته ان يقدر ذلك في حق الله تعالى حتى يفهم العظمة بل لو كان
للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لانكر ذلك وقال
كيف يكون خالقي انقص مني افيكون مقصوص الجناح او يكون زمنا لا يقدر على الطيران او يكون
لي آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوري وعقول اكثر الخلق قريب من هذا
العقل وان الانسان لجهول ظلوم كفار ولذلك اوحى الله عز وجل الى بعض انبيائه لا تخبر عبادي

عبادي بصفاتي فينكروني ولكن اخبرهم عني بما يفهمون ولما كان النظر في ذات الله
عز وجل وصفاته خطرا من هذا الوجه اقتضى ادب الشرع وصلاح الخلق بان لا يتعرض
لمجاري الفكر فيه لكنا نعدل الى المقام الثاني وهو النظر الى افعاله وعجائب صنعه
وبدائع امره في خلقه فانها تدل على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه وتدل على كمال علمه
وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته فينظر الى صفاته من آثار صفاته فانا لا نطيق النظر الى
الارض مهما استنارت بنور الشمس ونستدل به على عظم نور الشمس بالاضافة الى نور القمر
وسائر الكواكب لان نور الارض من آثار الشمس والنظر في الاثر يدل على المؤثر دلالة ما وان
كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر وجميع موجودات الدنيا اثر من آثار قدرة الله تعالى
ونور من انواره بل لا ظلمة اشد من العدم ولا نور اظهر من الوجود ووجود الاشياء كلها نور
من انوار ذاته تعالى وتقدس اذ قوام وجود الاشياء بذاته القيوم بنفسه كما ان قوام نور الاجسام
بنور الشمس المضيئة بنفسها ومهما انكسف بعض الشمس جرت العادة بان يوضع طست ماء حتى يرى
فيه الشمس فيمكن النظر اليها فيكون الماء واسطة يغض قليلا من نور الشمس حتى يطاق النظر
اليه فكذلك الافعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نبهر بانوار الذات بعد
ان تباعدنا عنه بواسطة الافعال فهذا سر قوله عليه السلام تفكروا في خلق الله ولا تفكروا
في ذات الله **بيان كيفية التفكر في خلق الله عز وجل** اعلم ان كل ما في الوجود سوى
الله فهو فعل الله عز وجل وخلقه وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف
ففيها عجائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته واحصاء ذلك غير ممكن لانه لو كان
البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي بل عشر عشير ذلك ولكنا نشير
الى جمل ليكون ذلك كالمثال لما عداه فنقول الموجودات المخلوقة منقسمة الى ما لا يعرف اصلها
فلا يمكننا التفكر فيها وكم من الموجودات التي لا نعلمها كما قال تعالى سبحان الذي خلق الازواج
كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون وقال وننشئكم فيما لا تعلمون والى ما يعرف اصلها
وجملتها ولا يعرف تفصيلها فيمكننا ان نتفكر في تفصيلها وهي منقسمة الى ما ادركناه بحس البصر
والى ما لا ندركه بالبصر اما الذي لا ندركه بالبصر فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي واما المدركات بحس
البصر فهي السموات السبع والارضون وما بينهما والسموات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها
وحركاتها ودورانها في طلوعها وغروبها والارض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وانهارها

ومجاريها وحيوانها ونباتها وما بين السماء والارض وهو الجو بسحبه وغيومها وامطارها
وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها فهذه هي الاجناس الشاهدة
من السموات والارض وما بينهما وكل جنس منها ينقسم الى انواع وكل نوع ينقسم الى اقسام ويتشعب
كل قسم الى اصناف ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامها في اختلاف صفاتها وهيئاتها ومعانيها
الظاهرة والباطنة وجميع ذلك مجال الفكر فلا تتحرك ذرة في السموات والارض من جماد ونبات
وحيوان وفلك وكوكب الا ومحركها هو الله عز وجل وفي حركتها حكمة او حكمتان او عشر او الف
حكمة كل ذلك شاهدة لله تعالى بالوحدانية ودالة على جلاله وكبريائه وهي الايات الدالة عليه وقد
ورد القرآن بالحث على التفكر في هذه الايات كما قال ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل
والنهار لايات وكما قال ومن آياته من اول القرآن الى آخره فلنذكر كيفية الفكر في بعض الايات فمن آياته
الانسان المخلوق من النطفة واقرب شيء اليك نفسك وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله
تعالى ما تنقضي الاعمار في الوقوف على عشر عشرها وانت غافل عنها فيا من هو غافل عن نفسه
جاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرها وقد امرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال
وفي انفسكم افلا تبصرون وذكر انك مخلوق من نطفة قذرة فقال تعالى قتل الانسان ما اكفره من اي
شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم اماته فاقبره ثم اذا شاء انشره وقال تعالى ومن
آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون وقال الم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق
فسوى وقال الم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين وقال اولم ير الانسان انا خلقناه من
نطفة فاذا هو خصيم مبين وقال انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه ثم ذكر كيف جعل النطفة
علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاما فقال تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه
نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة الآية فتكرار ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه
فسدت وانتنت كيف اخرجها رب الارباب من الصلب والترائب وكيف جمع بين الذكر والانثى و
القى الالفة والمحبة في قلوبهما وكيف قادهما بسلسلة المحبة والشهوة الى الاجتماع وكيف استخرج النطفة
من الرجل بحركة الوقاع وكيف استجلب دم الحيض من اعماق العروق وجمعه في الارحام ثم كيف خلق
المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة
حمراء ثم كيف قسم اجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية الى العظام والاعصاب والعروق والاوتار
واللحم ثم كيف ركب من اللحوم والاعصاب والعروق الاعضاء الظاهرة فدور الراس وشق السمع

والبصر والانف والفم وسائر المنافذ ثم مد اليد وجعل فيها اصابع وقسم رؤوسها بالاظفار وقسم
الاصابع بالانامل ثم كيف ركب الاعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة
والرحم والمثانة والامعاء كل واحد على شكل مخصوص لعمل مخصوص ثم كيف قسم كل عضو من هذه
الاعضاء باقسام اخر فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو
فقدت طبقة منها او زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الابصار فلو ذهبنا نصف ما
في احاد هذه الاعضاء من العجائب والايات لانقضت فيه الاعمار فانظر الآن الى العظام وهي اجسام
قوية صلبة كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ثم جعلها قواما للبدن وعمادا له ثم قدرها بمقادير
مختلفة واشكال مختلفة فمنها صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ولما كان
الانسان محتاجا الى الحركة بجملة بدنه وببعض اعضائه مترددا في حاجاته لم يجعل عظمه عظما واحدا
بل عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة وقدر شكل كل واحد منها على وفق الحركة المطلوبة
ثم وصل مفاصلها وربط بعضها بالبعض باوتار انبتها من احد طرفي العظم والصقه بالطرف
الاخر كالرباط له ثم خلق في احد طرفي العظم زوائد الخ

كتاب ذكر الموت وما بعده وهو العاشر من المنجيات

وهو آخر الارباع الاربعة من كتاب احياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابرة وكسر به ظهور الاكاسرة وقصر به آمال القياصرة
الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة حتى جاءهم الوعد الحق فارداهم في الحافرة فنقلوا
من القصور الى القبور ومن ضياء المهود الى ظلمة اللحود ومن ملاعبة الجواري والغلمان الى مقاساة
الهوام والديدان ومن التنعم بالطعام والشراب الى التمرغ في التراب ومن انس العشرة الى وحشة
الوحدة ومن المضجع الوثير الى المصرع الوبيل فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزا واتخذوا
من دونه حجابا وحرزا وانظر هل تحس منهم من احد او تسمع لهم ركزا فسبحان من انفرد بالقهر
والاستيلاء واستأثر باستحقاق البقاء واذل اصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ثم جعل الموت
مخلصا للاتقياء وموعدا في حقهم للقاء وجعل القبر سجنا للاشقياء وحبسا ضيقا عليهم الى يوم
الفصل والقضاء فله الانعام بالنعم المتظاهرة وله الانتقام بالنقم القاهرة وله الشكر في السموات

والارض وله الحمد في الاولى والاخرة والصلوة على محمد ذي المعجزات الظاهرة
والايات الباهرة وعلى آله واصحابه وسلم كثيرا اما بعد فجدير بمن
الموت مصرعه والتراب مضجعه والدود انيسه ومنكر ونكير جليسه والقبر
مقره وبطن الارض مستقره والقيامة موعده والجنة والنار مورده ان لا يكون
له فكر الا في الموت ولا ذكر الا له ولا استعداد الا لاجله ولا تدبير الا فيه ولا تطلع
الا اليه فلا تعريج الا عليه ولا اهتمام الا به ولا حوم الا حوله ولا انتظار ولا
تربص الا له وحقيق بان يعد نفسه من الموتى ويراها في اصحاب القبور فان
كل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت وقد قال عليه السلام الكيس من دان نفسه وعمل
لما بعد الموت ولن يتيسر الاستعداد للشيء الا عند تجدد ذكره على القلب ولا يتجدد
ذكره الا عند التذكر بالاصغاء الى المذكرات له والنظر في المنبهات عليه ونحن
نذكر من امر الموت ومقدماته ولواحقه واحوال الاخرة والقيامة والجنة والنار
ما لا بد للعبد من تذكاره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار ليكون ذلك
مستحثا على الاستعداد فقد قرب لما بعده الرحيل فما بقي من العمر الا قليل والخلق عنه غافلون
اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في
شطرين الشطر الاول في مقدماته وتوابعه الى نفخة الصور وفيه ابواب
الباب الاول في فضل ذكر الموت والترغيب فيه اعلم ان المنهمك في الدنيا
المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره واذا
ذكر به كرهه ونفر منه اولئك الذين قال الله تعالى فيهم قل ان الموت الذي تفرون منه
فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم ذكره فيذكره ليتأسف على
دنياه ويشتغل بمذمته وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدا واما التائب فانه يكثر
ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفي بتمام التوبة وربما يكره الموت
خيفة من ان يختطفه قبل تمام التوبة وقبل اصلاح الزاد وهو معذور في كراهة الموت
ولا يدخل هذا تحت قوله عليه السلام من كره لقاء الله كره الله لقاءه فان هذا ليس يكره
الموت ولقاء الله وانما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره وهو الذي يتأخر

عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه فلا يعد كارها
للقاء وعلامة هذا ان يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه والا التحق بالمنهمك
في الدنيا واما العارف فانه يذكر الموت دائما لانه موعد للقائه لحبيبه والمحب لا ينسى قط
موعد لقاء الحبيب وهذا في غالب الامر يستبطئ مجيء الموت ويحب مجيئه منه انه لما حضرته
الوفاة قال حبيب جاء على فاقة لا افلح من ندم اللهم ان كنت تعلم ان الفقر احب الي من
الغنى والسقم احب الي من الصحة والموت احب الي من العيش فسهل علي الموت حتى القاك
فان التائب معذور في كراهة الموت وهذا معذور في حب الموت وتمنيه واعلى
منهما من فوض امره الى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتا ولا حيوة بل يكون احب الاشياء اليه
احبها الى مولاه فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء الى مقام التسليم والرضا وهو الغاية
والمنتهى وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل فان المنهمك في الدنيا ايضا يستفيد
بذكر الموت التجافي من الدنيا اذ ينغص عليه نعيمه ويكدر عليه صفو لذته وكل ما يكدر
على الانسان اللذات والشهوات فهو من اسباب النجاة بيان فضل ذكر الموت كيف
ما كان قال النبي صلى الله عليه وآله اكثروا ذكر هادم اللذات اي نغصوا به اللذات حتى
ينقطع ركونكم اليها فتقبلوا على الله تعالى وقال عليه السلام لو ان البهائم تعلم ما تعلمون ما اكلتم منها
سمينا وقالت عائشة يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء احد قال نعم من يذكر الموت في
اليوم والليلة عشرين مرة وانما سبب هذه الفضيلة كلها ان ذكر الموت يوجب التجافي
عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للاخرة والغفلة عن الموت تدعو الى الانهماك في
شهوات الدنيا وقال عليه السلام تحفة المؤمن الموت وانما قال هذا لان الدنيا سجن المؤمن اذ لا
يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدافعة شيطانه فالموت اطلاق له
من هذا العذاب والاطلاق تحفة في حقه وقال عليه السلام كفى بالموت كفارة لكل مسلم وانما عنى به
المسلم حقا المؤمن صدقا الذي سلم المسلمون من لسانه ويده وتحقق فيه اخلاق المؤمنين
ولم يتدنس من المعاصي الا باللمم والصغائر فالموت يطهره ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر و
اقامة الفرائض وقال عطاء الخراساني مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلاه الضحك فقال
شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات قالوا وما مكدر اللذات قال الموت وقال انس قال
النبي ص اكثروا ذكر الموت فانه يمحص الذنوب ويزهد في الدنيا وقال عليه السلام كفى بالموت

مفرقا فقال كفى بالموت واعظا وخرج النبي صلعم الى المسجد فاذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال اذكروا الموت اما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وذكر عند النبي صلعم رجل فاحسنوا الثناء عليه فقال كيف كان ذكر صاحبكم للموت قالوا ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال فان صاحبكم ليس هنالك وقال ابن عمر اتيت النبي صلعم عاشر عشرة فقال رجل من الانصار من اكيس الناس واكرم الناس يا رسول الله فقال اكثرهم ذكرا للموت واشدهم استعدادا له اولئك هم الاكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة الآثار قال الحسن فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فيها فرحا وقال الربيع بن خثيم ما غائب ينتظره المؤمن خير له من الموت وكان يقول لا تشعروا بي احدا وسلوني الى ربي سلا وكتب بعض الحكماء الى رجل من اخوانه يا اخي احذر الموت في هذه الدار قبل ان تصير الى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يبكون كان بين ايديهم جنازة وقال ابراهيم التيمي شيآن قطعا عني لذة الدنيا ذكر الموت والوقوف بين يدي الله وقال كعب من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها وقال مطرف رايت فيما يرى النائم كان قائلا يقول في وسط مسجد البصرة قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ما تراهم الا والهين وكان عيسى عليه السلام اذا ذكر عنده الموت يقطر جلده دما وكان داود عليه السلام اذا ذكر الموت والقيامة يبكي حتى تنخلع اوصاله فاذا ذكر الرحمة رجعت اليه نفسه وقال ابو سليمان الداراني قلت لام هرون اتحبين الموت قالت لا قلت لم قالت لو عصيت آدميا ما اشتهيت لقاءه فكيف احب لقاءه وقد عصيته **بيان تحقيق ذكر الموت** اعلم ان الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوات الدنيا فلا ينجع ذكر الموت في قلبه فالطريق فيه ان يفرغ العبد قلبه عن كل شيء الا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه كالذي يريد ان يسافر الى مفازة مخطرة او يركب البحر فانه لا يتفكر الا فيه فاذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك ان يوثر فيه وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه وانفع طريق فيه ان يكثر ذكر اشكاله واقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصرعهم تحت التراب ويتذكر صورهم في مناصبهم واحوالهم ويتفكر كيف محا التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت اجزاؤهم

اجزاؤهم في قبورهم وكيف ارملوا نساءهم وايتموا اولادهم وضيعوا اموالهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم فمهما تذكر رجلا رجلا وفصل في قلبه حاله وكيفية حياته وتوهم صورته وتذكر نشاطه وتردده وتامله للعيش والبقاء ونسيانه للموت وانخداعه بمواتاة الاسباب وركونه الى القوة والشباب وميله الى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع وانه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله وكيف كان ينطق وقد اكل الدود لسانه وكيف كان يضحك وقد اكل التراب اسنانه وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج اليه الى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت الا شهر وهو غافل عما يراد به حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه فانكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء اما بالجنة او بالنار فعند ذلك ينظر في نفسه انه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم وقال ابو الدرداء اذا ذكرت الموتى فعد نفسك كاحدهم وقال ابن مسعود السعيد من وعظ بغيره فملازمة هذه الافكار وامثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه فعند ذلك يوشك ان يستعد له ويتجافى عن دار الغرور والا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا فينبغي ان يتذكر في الحال انه لا بد من مفارقته نظر ابن مطيع ذات يوم الى داره فاعجبه حسنها ثم بكى فقال والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ولولا ما نصير اليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا اعيننا ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته **الباب الثاني في طول الامل** وسبب طوله وكيفية معالجته وفضيلة قصر الامل **فضيلة قصر الامل** قال النبي صلعم لعبد الله بن عمر اذا اصبحت فلا تحدث نفسك بالمسا واذا امسيت فلا تحدث نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك فانك يا عبد الله لا تدري ما اسمك غدا وروي عن علي عليه السلام انه عليه السلام قال ان اشد ما اخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الامل فاما اتباع الهوى فانه يعدل عن الحق واما طول الامل فانه حب الدنيا ثم قال الا ان الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ويبغض واذا احب عبدا اعطاه الايمان الا ان للدين ابناء وللدنيا ابناء فكونوا من ابناء الدين ولا تكونوا من ابناء الدنيا الا ان الدنيا قد ارتحلت مولية الا ان الآخرة

قد ارتحلت مقبلة الا وانكم في يوم عمل ليس فيه حساب الا وانكم توشكون في يوم
حساب ليس فيه عمل وقالت ام المنذر اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية الى الناس فقال
ايها الناس اما تستحيون من الله عز وجل قالوا وما ذاك يا رسول الله فقال تجمعون
ما لا تاكلون وتاملون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون وقال ابو سعيد الخدري
اشترى اسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار الى شهر فسمعت النبي صلى الله عليه وسلم
يقول الا تعجبون من اسامة المشتري الى شهر ان اسامة لطويل الامل والذي نفسي بيده
ما طرفت عيناي الا ظننت ان شفري لا يلتقيان حتى يقبض ولا رفعت الا ظننت اني لا
اسيغها حتى اغص بها من الموت ثم قال يا بني آدم ان كنتم تعقلون فعدوا انفسكم
الموتى والذي نفسي بيده ان ما توعدون لآت وما انتم بمعجزين وعن ابن عباس
ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالتراب فاقول يا رسول الله ان الماء منك
قريب فيقول ما يدريني لعلي لا ابلغه وروي انه عليه السلام اخذ ثلاثة اعواد فغرز عودا
بين يديه والآخر الى جنبه واما الثالث فابعده فقال هل تدرون ما هذا قالوا الله
ورسوله اعلم قال هذا الانسان وهذا الاجل وذلك الامل يتعاطاه ابن آدم و
يختلجه الاجل دون الامل وقال عليه السلام مثل ابن آدم والى جنبه تسعة وتسعون منية ان
اخطاته المنايا وقع في الهرم وقال ابن مسعود هذا المرء وهذه الحتوف حوله شوارع
اليه والهرم وراء الحتوف والامل وراء الهرم فهو يامل وهذه الحتوف شوارع اليه
فايها امر به اخذه فان اخطاته الحتوف قتله الهرم وهو ينظر الامل قال عبد الله خط
لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا وخط خطوطا الى جنب الخط وخط خطا
خارجا فقال اتدرون ما هذا قلنا الله ورسوله اعلم فقال عليه السلام هذا الانسان
الخط الذي في الوسط وهذا الاجل محيط به وهذه الاعراض الخطوط التي حوله تنهشه ان
هذا نهشه هذا وذاك الامل الخط الخارج وقال انس قال النبي صلى الله عليه وسلم يهرم ابن آدم ويبقى
معه اثنان الحرص والامل وفي رواية وتشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر
قال عليه السلام نجا اول هذه الامة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه بالبخل والامل وقيل
بينا عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الارض فقال عيسى عليه السلام اللهم انزع
منه الامل فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة فقال عيسى عليه السلام اللهم اردد اليه الامل فقام

فقام يعمل فسأله عيسى عن ذلك فقال بينا انا اعمل اذ قالت لي نفسي الى
متى تعمل وانت شيخ كبير فالقيت المسحاة من اليد واضطجعت ثم قالت لي
نفسي والله لا بد لك من عيش ما بقيت فقمت الى مسحاتي وقال الحسن قال صلى الله عليه وسلم
اكلكم يحب ان يدخل الجنة قالوا نعم يا رسول الله قال قصروا من الامل وثبتوا
آجالكم بين ابصاركم واستحيوا من الله حق الحياء وكان عليه السلام يقول في دعائه
اللهم اني اعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة واعوذ بك من حياة تمنع خير الممات
واعوذ بك من امل يمنع خير العمل الآثار قال الحسن السهو والامل نعمتان على بني آدم ولولا
هما ما مشى المسلمون في الطرق وقال الثوري بلغني ان الانسان خلق احمق ولولا ذلك لم
يهنا العيش وقال سعيد بن عبد الرحمن انما عمرت الدنيا بقلة عقول اهلها وقال
سلمان الفارسي ثلث اعجبني حتى اضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه وغافل وليس
بمغفول عنه وضاحك ملء فيه ولا يدري اساخط رب العالمين عليه ام راض عنه وثلث
احزنني حتى ابكاني فراق الاحبة محمد وحزبه وهول المطلع والوقوف بين يدي الله لا
ادري الى الجنة يؤمر بي او الى النار وقيل للحسن يا ابا سعيد الا تغسل قميصك فقال الامر
اعجل من ذلك ودخل شقيق الى استاذ له يقال له ابو هاشم الرماني وفي طرف كسائه شيء
مصرور فقال له استاذه ايش هذا الذي معك قال لوزات دفعها الي اخ لي وقال احب
ان تفطر عليها فقال يا شقيق وانت تحدث نفسك انك تبقى الى الليل لا كلمتك ابدا قال
فاغلق دونه الباب ودخل الدار وقال ابو بكر المزني بينا سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام
اذ اتي بحجر منقوش فطلب من يقرأه فاتي بوهب بن منبه فاذا فيه ابن آدم انك لو رايت قرب
ما بقي من اجلك لزهدت في طول املك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك
وحيلك وانما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك واسلمك اهلك وحشمك وفارقك
الولد والقريب ورفضك الوالد والنسيب فلا انت الى دنياك عائد ولا في حسناتك زائد
فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة فبكى سليمان بكاء شديدا **بيان السبب في طول
الامل وعلاجه** اعلم ان طول الامل له سببان احدهما الجهل والآخر حب الدنيا اما حب
الدنيا فهو انه اذا انس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقلت على قلبه مفارقتها فامتنع
قلبه عن الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه والانسان

مشغوف بالأماني الباطلة فيمني نفسه أبداً بما يوافق مراده وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا فلا يزال يتوهمها ويقدرها في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه فيلهو عن ذكر الموت ولا يقدر قربه فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوف ووعد نفسه وقال الأيام بين يديك فإلى أن تكبر ثم تتوب وإذا كبر فيقول إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة أو ترجع من هذه السفرة أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له أو تفرغ عن قهر هذا العدو الذي يشمت بك فلا يزال يسوف ويؤخر ولا يخوض في شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عدة أشغال أخر وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد يوم ويفضي به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبها فتطول عند ذلك حسرته وأكثر أهل النار صياحهم من سوف يقولون واحزناه من سوف والمسوف المسكين لا يدري أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخاً ويظن أنه يتصور أن يكون للخائض في الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيهات ما فرغ منها إلا من اطرحها فما قضى أحد منها لبانته وما انتهى أرب إلا إلى أرب وأصل هذه الأماني كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله عليه السلام أحبب من أحببت فإنك مفارقه وأما الجهل فهو أن الإنسان قد يعول على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب وليس يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا من عشر أهل البلد وإنما قلوا لأن الموت في الشبان أكثر وإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة ولا يدري أن ذلك غير بعيد وإن كان ذلك بعيداً فالمرض فجأة غير بعيد وكل مرض فإنما يقع فجأة وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع ومن ليل ونهار لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب فهو أبداً يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه ويشيع الجنائز ولا يقدر أن تشيع جنازته لأن هذا قد تكرر عليه وألفه من مشاهدة موت غيره فأما موت نفسه فلم يألفه ولا يتصور أن يألفه فإنه لم يقع وإذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعده فهو الأول وهو الآخر وسبيله

وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لا بد أن تحمل جنازته ويدفن في قبره ولعل اللبن الذي يغطى به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري فتسويفه جهل محض وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه أما الجهل فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة وأما حب الدنيا فالعلاج في إخراجه من القلب شديد وهو الداء العضال الذي أعيا الأولين والآخرين علاجه ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فإن حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطي ملك الأرض من المشرق إلى المغرب فكيف وليس لكل عبد من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منغص فكيف يفرح بها ويترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة فنسأل الله أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا أما من كان مستعداً فقد فاز فوزاً عظيماً وأما من كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خسراناً مبيناً فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لا محالة وكيف تتفتت عظامها وليتفكر أن الدود يبدأ بحدقته اليمنى أولاً أو باليسرى فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود وما له من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله عز وجل وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأهوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الأكبر فأمثال هذه الأفكار هي التي تجدد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له

بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره

اعلم أن الخلق في ذلك متفاوتون فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبداً قال الله تعالى يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه وهو الذي يحب الدنيا حباً شديداً قال النبي عليه السلام الشيخ شاب في طلب الدنيا وإن التفت ترقوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل ما هم ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها ولا يقدر لنفسه وجوداً في عام قابل ومنهم من يأمل مدة الصيف والشتاء فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف

ومنهم من يرجع امله الى يوم وليلة فلا يستعد الا لنهاره فاما للغد فلا قال عيسى ع
لا تهتموا برزق غد فان يكن غدا من اجالكم فستاتي ارزاقكم مع اجالكم وان لم يكن
غدا من اجالكم فلا تهتموا لاجال غيركم ومنهم من لا يجاوز امله ساعة كما قال عيسى عليه السلم
يا عبد الله اذا اصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء واذا امسيت فلا تحدث نفسك
بالصباح ومنهم من لا يقدر البقاء ايضا ساعة كان النبي صلعم يتيمم مع القدرة على الماء قبل
مضي ساعة ويقول لعلي لا ابلغه ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كانه واقع به فهو
ينتظره وهذا الانسان هو الذي يصلي صلوة مودع وفيه ما نقل عن معاذ انه لما سأله
النبي صلعم عن حقيقة ايمانه قال ما خطوت خطوة الا ظننت اني لا اتبعها اخرى وكما نقل
عن الاسود وهو حبشي انه كان يصلي ليلا ويلتفت يمينا وشمالا فقال له قائل ما هذا
قال انظر ملك الموت من اي جهة ياتيني فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله
وليس من امله مقصور على شهر كمن امله شهر ويوم بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله
فان الله لا يظلم مثقال ذرة ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ثم يظهر اثر قصر الامل في المبادرة
الى العمل وكل انسان يدعي انه قصير الامل انه مبادر الى العمل وكل انسان هو كاذب وانما
يظهر ذلك باعماله فانه يعتني باسباب ربما لا يحتاج اليها في سنة فيدل ذلك على طول امله
وانما علامة التوفيق ان يكون الموت نصب عينه لا يغفل عنه ساعة فليستعد للموت
الذي يرد عليه في الوقت فان عاش الى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بانه لم يضيع
نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه ثم يستانف مثله الى الصباح وهكذا اذا اصبح
ولا يتيسر هذا الا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه فمثل هذا اذا مات سعد
وغنم وان عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة فالموت له سعادة والحيوة له مزيد
فليكن الموت على بالك يا مسكين فان السير حاث بك وانت غافل عن نفسك ولعلك
قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا يكون كذلك الا بمبادرة العمل اغتناما لكل نفس
امهلت فيه **بيان المبادرة الى العمل وحذر آفة التاخير** اعلم ان من له اخوان غائبان
ينتظر قدوم احدهما في غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر او سنة فلا يستعد للذي يقدم
الى شهر او سنة وانما يستعد للذي ينتظر قدومه غدا فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار فمن
انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسي ما وراء المدة ثم يصبح كل يوم وهو

في انتظار السنة بكمالها لا ينقص منها اليوم الذي انقضى وذلك يمنعه من مبادرة العمل ابدا
فانه ابدا يرى لنفسه متسعا في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال النبي صلعم ما ينتظر احدكم
من الدنيا الا غنى مطغيا او فقرا منسيا او مرضا مفسدا او هرما مفندا او موتا مجهزا او
الدجال فالدجال شر غائب ينتظر او الساعة والساعة ادهى وامر وقال ابن عباس
رضي الله عنه قال النبي صلعم لرجل وهو يعظه اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك
وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحيوتك قبل موتك
وقال عليه السلم نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ اي انه لا يغتنمهما ثم يعرف
قدرهما عند زوالهما وقال عليه السلم من خاف ادلج ومن ادلج بلغ المنزل الا ان سلعة الله
غالية الا ان سلعة الله الجنة وقال النبي صلعم جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء
الموت بما فيه وكان عليه السلم اذا انس من اصحابه غفلة او غرة نادى فيهم بصوت رفيع
اتتكم المنية راتبة لازمة اما بشقاوة واما بسعادة وقال ابو هريرة قال النبي صلعم انا النذير
والموت المغير والساعة الموعد وقال ابن عمر خرج النبي صلعم والشمس على اطراف السعف
فقال ما بقي من الدنيا الا مثل ما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه وقال عليه السلم مثل الدنيا مثل ثوب
شق من اوله الى آخره فبقي معلقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط ان ينقطع وقال جابر
كان النبي صلعم اذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كانه منذر جيش يقول
صبحتكم مسيتكم بعثت انا والساعة كهاتين وقرن بين اصبعيه وقال ابن مسعود تلا رسول الله
صلعم فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام فقال ان النور اذا دخل الصدر
انفسح فقيل يا رسول الله هل لذلك من علامة تعرف فقال نعم التجافي عن دار الغرور
والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله وقال السدي الذي خلق الموت والحيوة
ليبلوكم ايكم احسن عملا اي ايكم اكثر للموت ذكرا واحسن له استعدادا واشد منه خوفا
وحذرا وقال حذيفة رضه ما من صباح ولا مساء الا ومناد ينادي ايها الناس الرحيل الرحيل
وتصديق ذلك قوله تعالى انها لاحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم ان يتقدم او يتاخر
قال في الموت وكان يقول الحسن في موعظته المبادرة المبادرة فانما هي الانفاس لو
حبست انقطعت عنكم اعمالكم التي تتقربون بها الى الله عز وجل رحم الله امرءا نظر الى نفسه
وبكى على ذنوبه ثم قرأ الآية انما نعد لهم عدا يعني الانفاس آخر العدد خروج نفسك

اخر العهد وفراق اهلك اخر العهد من الدنيا فراقه وقال بعض المفسرين في قوله تعالى
فتنتم انفسكم قال بالشهوات واللذات وتربصتم قال بالتوبة وارتبتم قال شككتم
حتى جاء امر الله قال الموت وغركم بالله الغرور وقال ابو عبيدة الناجي دخلت على
في مرضه الذي مات فيه فقال مرحبا بكم واهلا وحياكم الله بالسلام واحلنا واياكم
دار المقام هذه علانية حسنة ان صبرتم وصدقتم واتقيتم فلا يكون حظكم من هذا
الخير رحمكم الله ان تسمعوه بهذه الاذن وتخرجوه من هذه الاذن فان من رأى محمدا
صلى الله عليه وآله فقد رآه غاديا ورايحا لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولكن
رفع له علم فشمر اليه الوحا الوحا النجا النجا علام تعرجون اتيتم ورب الكعبة كانكم و
الامر معا رحم الله عبدا جعل العيش عيشا واحدا فاكل كسرة ولبس خلقا ولزق بالارض
واجتهد بالعبادة وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى ياتيه اجله
وهو على ذلك **الباب الثالث في سكرات الموت وما يستحب من الاحوال عند الموت**
اعلم انه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات
الموت بمجردها لكان جديرا بان يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه
شهوته وغفلته وحقيقا بان يطول فيه فكره ويعظم له استعداده لا سيما وهو في
كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك وقال لقمان
لابنه يا بني امر لا تدري متى يلقاك استعد له قبل ان يفجاك والعجب ان الانسان لو
كان في اعظم اللذات واطيب مجالس اللهو فانتظر ان يدخل عليه جندي فيضربه خمس
خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه وهو كل نفس بصدد ان يدخل عليه
ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل فما لهذا سبب الا الجهل والغرور واعلم
ان شدة الالم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة الا من ذاقها ومن لم يذقها فانما
يعرفها اما بالقياس الى الالام التي ادركها واما بالاستدلال باحوال الناس في النزع على
شدة ما هم فيه فاما القياس الذي يشهد له فهو ان كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالالم
فاما اذا كانت فيه الروح فالمدرك للالم هو الروح فمهما اصاب العضو جرح او
حريق سرى الاثر الى الروح فبقدر ما يسري الى الروح يتألم والمؤلم يتفرق على اللحم
والدم وسائر الاجزاء فلا يصيب الروح الا بعض الاثر فان كان في الالام ما يباشر

نفس الروح ولا يلاقي غيرها فما اعظم ذلك الالم وما اشده والنزع عبارة عن مؤلم
نزل بنفس الروح فاستغرق جميع اجزائها حتى لم يبق جزء من اجزاء الروح المنتشر
في اعماق البدن الا وقد حل به الالم فلو اصابته شوكة فالالم الذي يجده انما يجري
في جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي اصابه الشوك وانما يعظم اثر الاحتراق
لان اجزاء النار تغوص في سائر   ذكر رحمه الله تعالى وظايف من السنن و
الواجبات لكل داخل الحمام من حفظ العورة عن نظر الغير وحفظها عن مس الغير
وغض البصر عن عورة الغير والنهي عن كشفها هذا من الواجبات ومن السنن
التستر وقصد التنظيف تزينا للصلوة واعطاء الحامي الاجرة قبل الدخول ودخول
بعضه اليسرى عند الدخول ويقول بسم الله الرحمن الرحيم اعوذ بالله من الرجس
النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم والدخول وقت الخلوة وان يتذكر حر
النار بحرارة الحمام ويقدر نفسه محبوسا في البيت الحار ساعة ويقيسه الى جهنم
فانه اشبه بيت بجهنم النار من تحت والظلام من فوق نعوذ بالله منها بل العاقل لا
يغفل عن ذكر الاخرة في لحظة فانها مصيره ومستقره فيكون له في كل ما يراه من ماء
او نار او غيرهما عبرة وموعظة فان المرء ينظر بحسب همته فاذا دخل بزاز وبقال
ونجار وحائك دارا معمورة مفروشة فاذا تفقدتهم رأيت البزاز ينظر الى الفرش
يتأمل قيمتها والحائك ينظر الى الثياب يتأمل نسجها والنجار الى السقف يتأمل
تركيبها والبناء الى الحيطان يتأمل كيفية احكامها واستقامتها فكذلك سالك طريق
الاخرة لا يرى من الاشياء الا ما يكون له موعظة من الاخرة بل لا ينظر الى شيء الا ويفتح الله
له طريق عبرة فان نظر الى سواد تذكر ظلمة اللحد وان نظر الى حية تذكر افاعي جهنم
وان نظر الى صورة قبيحة تذكر منكرا ونكيرا والزبانية وان سمع صوتا هائلا تذكر
نفخة الصور وان رأى شيئا حسنا تذكر نعيم الجنة وان سمع كلمة رد او قبول في سوق
او دار تذكر ما ينكشف من اخر امره بعد الحساب من الرد والقبول وما اجدر ان
يكون هذا هو الغالب على قلب العاقل اذ لا يصرفه عنه الا مهمات الدنيا فاذا نسب
مدة المقام في الدنيا الى مدة المقام في الاخرة استحقرها ان لم يكن ممن اغفل قلبه واعميت
بصيرته ثم ذكر رحمه الله من جملة الفضايل المكروهة في التحية بتغطيتها بالكبريت استحبابا

لاظهار علو السن توصلا الى التوقير وقبول الشهادة والتصديق بالرواية عن الشيوخ
وترفعا على الشباب واظهارا لكثرة العلم ظنا بان كثرة الايام تعطيه فضلا وهيهات
فلا يزيد كبر السن الجاهل الا جهلا فالعلم ثمرة العقل وهي غريزة لا يؤثر الشيب فيها
ومن كان غريزته الحمق فطول المدة يؤكد حماقته وقد كان الشيوخ يقدمون الشباب
بالعلم كان عمر يقدم ابن عباس وهو حديث السن على اكابر الصحابة ويسئله دونهم
قال ابن عباس لي اوتي الله تعالى عبدا علما الا شابا والخير كله في الشباب ثم تلى قوله تعالى قالوا
سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم وقوله انهم فتية آمنوا بربهم وقوله وآتيناه الحكم صبيا
وروي عن مالك انه قال قرأت في بعض الكتب لا تغرنكم اللحى فان التيس له لحية وقال
ابو عمرو بن العلاء اذا رايت طويل اللحية صغير الهامة عريض اللحية فاقض عليه بالحمق وقال
قال علي بن الحسين من سبق اليه العلم قبلك فهو امامك فيه وان كان اصغر سنا منك
وقال يحيى بن معين لاحمد بن حنبل وقد رآه يمشي خلف بغلة الشافعي رحمه الله يا
عبد الله تركت حديث سفيان بعلو وتمشي خلف بغلة هذا الفتى وتسمع منه فقال
احمد لو عرفت لكنت تمشي من الجانب الآخر ان علم سفيان ان فاتني بعلو ادركته بنزول
وان عقل هذا الشاب ان فاتني لم ادركه بعلو ولا بنزول ۞ ومن الخصال المكروهة
نتف بياضها استنكافا من الشيب وقد نهى النبي صلعم عن نتف الشيب وقال هو نور المؤمن
وهو في معنى الخضاب بالسواد وعلة الكراهية ما سبق والشيب ۞ روي ان السلف
كانوا يعزون بعضهم ثلثة ايام اذا فاتت احدهم التكبيرة الاولى ويعزونه سبعا اذا فاتتهم
الجماعة ۞ اذا فرغ من الوضوء واقبل على الصلوة ينبغي ان يخطر بباله ان ظاهره
وهو مطرح نظر الخلق فينبغي ان يستحيي من مناجاة الله تعالى من غير تطهير قلبه وهو موضع نظر
الرب ۞ قيل في قوله تعالى سيماهم في وجوههم من اثر السجود هو نور الخشوع فانه يشرق
من الباطن على الظاهر ۞ قوله تعالى لا تقربوا الصلوة وانتم سكارى قيل سكارى من كثرة
الهم وقيل من حب الدنيا وهب ان المراد به ظاهره ففيه تنبيه على سكر الدنيا اذ بين فيه
العلة فقال حتى تعلموا ما تقولون وكم من مصل لم يشرب الخمر وهو لا يعلم ما يقول في صلوته ۞

منتخب المنقذ من الضلال

بسم الله الرحمن الرحيم

اما بعد فقد سالتني ايها الاخ في الدين ان ابث لك غاية العلوم واسرارها
وغائلة المذهب واغوارها واحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب
الفرق مع تباين المسالك والطرق وما استفدته اولا من علم الكلام وما اجتويته ثانيا
من طرق اهل التعليم القاصرين لدرك الحق عن تقليد الامام وما ازدريته ثالثا من طرق
التفلسف وما ارتضيته اخرا من طريق التصوف فابتدات لاجابتك الى مطلبك بعد الوقوف
على صدق رغبتك فقلت مستعينا بالله تعالى ومتوكلا عليه ومستوفقا منه وملتجئا اليه
اعلموا احسن الله ارشادكم والان للحق قيادكم ان اختلاف الخلق في الاديان والملل ثم
اختلاف الائمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق بحر عميق غرق فيه الاكثرون
وما نجا منه الا الاقلون وكل فريق يزعم انه الناجي وكل حزب بما لديهم فرحون وهو الذي
وعدنا سيد المرسلين صلوات الله عليه وهو الصادق المصدوق حيث قال ستفترق امتي
ثلثا وسبعين فرقة الناجية منها واحدة فقد كاد ما وعد ان يكون ولم ازل في عنفوان
شبابي منذ راهقت قبل بلوغ العشرين الى الآن وقد اناف سني على الخمسين اقتحم لجة
هذا البحر العميق واخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور واتوغل في كل مظلمة
واهجم على كل مشكلة واتقحم كل ورطة واتفحص عن عقيدة كل فرقة واستكشف اسرار مذهب
كل طائفة لاميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع لا اغادر باطنيا الا واحب ان اطلع على
باطنيته ولا ظاهريا الا واريد ان اعلم حاصل ظاهريته ولا فلسفيا الا واقصد الوقوف على
كنه فلسفته ولا متكلما الا واجتهد في العثور على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفيا الا واحرص
على الاطلاع على سر صوفيته ولا متعبدا الا واترصد ما يرجع اليه حاصل عبادته ولا زنديقا
الا واتجسس وراءه للتنبه لاسباب جراته في تعطيله وزندقته وقد كان التعطش الى درك
حقائق الامور دابي وديدني من اول امري وريعان عمري غريزة وفطرة من الله تعالى
وضعتا في جبلتي لا باختياري وحيلتي حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت علي
العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبي اذ رايت صبيان النصارى لا نشو لهم الا على التنصر
وصبيان اليهود لا نشو لهم الا على التهود وصبيان الاسلام لا نشو لهم الا على الاسلام وسمعت

الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال كل مولود يولد على الفطرة فابواه
يهودانه وينصرانه ويمجسانه فتحرك باطني الى طلب حقيقة الفطرة الاصلية وحقيقة
العقائد العارضة بتقليد الوالدين والاستاذين والتميز بين هذه التقليدات و
اوائلها تلقينات وفي تميز الحق منها عن الباطل اختلافات فقلت اولا في نفسي انما مطلوبي
العلم بحقائق الامور فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي فظهر لي ان العلم اليقيني هو الذي
ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ولا يتسع
القلب لتقدير ذلك بل الامان من الخطا ينبغي ان يكون مقارنا لليقين مقارنة لو تحدى باظهار
بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا لم يورث ذلك شكا وانكارا فاني اذا علمت
ان العشرة اكثر من الثلاثة فلو قال قائل لا بل الثلاثة اكثر بدليل اني اقلب هذه العصا ثعبانا
وقلبها وشاهدت ذلك منه لم اشك في معرفتي بسببه ولم يحصل لي منه الا التعجب من كيفية
قدرته عليه فاما الشك فيما علمته فلا ثم علمت ان كل ما لا اعلمه على هذا الوجه ولا اتيقنه
هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به ولا امان معه وكل علم لا امان معه فليس بعلم
يقيني **القول** في مداخل السفسطة وجحد العلوم ثم فتشت عن علومي فوجدت نفسي
عاطلا عن علم موصوف بهذه الصفة الا في الحسيات والضروريات فقلت الان بعد حصول
الياس لا مطمع في اقتباس المشكلات الا من الجليات وهي الحسيات والضروريات فلا بد من
احكامها اولا لاتيقن ان ثقتي بالمحسوسات واماني من الغلط في الضروريات من جنس
اماني الذي كان من قبل في التقليديات او من جنس امان اكثر الخلق في النظريات ام هو
امان محقق لا غدر فيه ولا غائلة له فاقبلت بجد بليغ اتامل في المحسوسات والضروريات
وانظر هل يمكنني ان اشكك نفسي فيها فانتهى بي طول التشكيك الى ان لم تسمح نفسي بتسليم الامان
في المحسوسات واقواها حاسة البصر وهي تنظر الى الظل فتراه واقفا غير متحرك وتحكم بنفي
الحركة ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف انه متحرك وتنظر الى الكوكب فتراه صغيرا
في مقدار دينار ثم الادلة الهندسية تدل على انه اكبر من الارض في المقدار هذا وامثاله من
المحسوسات تحكم فيها حاكم الحس باحكامه ويكذبه حاكم العقل تكذيبا لا سبيل الى دفعه
فقلت قد بطلت الثقة بالمحسوسات ايضا ولعله لا ثقة الا بالعقليات التي هي من الاوليات
كقولنا العشرة اكثر من الثلاثة والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد والشيء

الواحد لا يكون حادثا وقديما موجودا ومعدوما واجبا ومحالا فقالت المحسوسات
بم تامن ان تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقا بي فجاء حاكم
العقل فكذبني ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي فلعل وراء ادراك العقل
حاكما آخر اذا تجلى كذب العقل في حكمه كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه وعدم
تجلي ذلك الادراك لا يدل على استحالته فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلا و
ايدت اشكالها بالمنام وقالت اما تراك تعتقد في النوم امورا وتتخيل احوالا و
تعتقد لها ثباتا واستقرارا ولا تشك في تلك الحالة فيها ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن
لجميع متخيلاتك ومعتقداتك اصل وطائل فبم تامن ان يكون جميع ما تعتقده في يقظتك
بحس او عقل هو حق بالاضافة الى حالتك لكن يمكن ان يطرا عليك حالة تكون نسبتها الى
يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك وتكون يقظتك نوما بالاضافة اليها فاذا
وردت تلك الحالة تيقنت ان جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها ولعل
تلك الحالة ما تدعيه الصوفية انها حالتهم اذ يزعمون انهم يشاهدون في احوالهم التي
اذا غاصوا في نفوسهم وغابوا عن حواسهم احوالا لا توافق هذه المعقولات ولعل
تلك الحالة هي الموت اذ قال رسول الله صلى الله عليه وآله الناس نيام فاذا ماتوا
انتبهوا فلعل الحياة الدنيا نوم بالاضافة الى الآخرة فاذا مات الانسان ظهرت
له الاشياء على خلاف ما شاهده الآن ويقال له عند ذلك فكشفنا عنك غطاءك
فبصرك اليوم حديد فلما خطرت لي هذه الخواطر وانقدحت في النفس حاولت لذلك
علاجا فلم يتيسر اذ لم يكن دفعها الا بالدليل ولم يكن نصب الدليل الا من تركيب العلوم
الضرورية الاولية فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل فاعضل هذا الداء ودام
قريبا من شهرين انا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال
حتى شفى الله تعالى عن ذلك المرض والاعتلال وعادت النفس الى الصحة والاعتدال
ورجعت الضروريات العقلية مقبولة حكمها موثوقا بها على امن ويقين ولم يكن
ذلك بنظم دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله في الصدر وذلك النور هو
مفتاح اكثر المعارف فمن ظن ان الكشف موقوف على الادلة المحررة فقد ضيق رحمة
الله الواسعة ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الشرح ومعناه في قوله

فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام قال هو نور يقذفه الله تعالى في القلب فقيل له وما علامته قال التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود وهو الذي قال ان الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن ذلك النور ينبغي ان يطلب الكشف وذلك النور ينبجس من الجود الالهي في بعض الاحايين ويجب الترصد له كما قال عليه السلام ان لربكم في ايام دهركم نفحات الا فتعرضوا لها والمقصود من هذه الحكايات ان يعلم كمال الجد في الطلب حتى تنتهي الى طلب ما لا يطلب فان الاوليات ليست مطلوبة انها حاضرة والحاضر اذا طلب فقد واختفى ومن طلب ما لا يطلب فلا يتهم بالتقصير في طلب ما يطلب

القول في اصناف الطالبين ولما كفاني الله تعالى هذا المرض بفضله وسعة جوده انحصرت اصناف الطالبين عندي في اربع فرق المتكلمون وهم يدعون انهم اهل الراي والنظر والباطنية وهم يزعمون انهم اصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الامام المعصوم والفلاسفة وهم يزعمون انهم اهل المنطق والبرهان والصوفية وهم يدعون انهم خواص الحضرة واهل المشاهدة والمكاشفة فقلت في نفسي الحق لا يعدو هذه الاصناف الاربعة فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق فان شذ الحق عنهم فلا يبقى في درك الحق مطمع اذ لا مطمع في الرجوع الى التقليد بعد مفارقته اذ من شرط المقلد ان لا يعلم انه مقلد فاذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده وهو شعب لا يراب وشعث لا يلم بالتلفيق والتاليف الا ان يذاب بالنار ويستانف له صنعة اخرى مستجدة فابتدرت لسلوك هذه الطرق واستقصاء ما عند هذه الفرق مبتدئا بعلم الكلام ومثنيا بطريق الفلسفة ومثلثا بتعليمات الباطنية ومربعا بطريقة الصوفية

القول في بيان مقصود علم الكلام وحاصله ثم اني ابتدات بعلم الكلام فحصلته وطالعت كتب المحققين منهم وصنفت فيها ما اردت ان اصنف فصادفته علما وافيا بمقصوده غير واف بمقصودي وانما مقصوده حفظ عقيدة اهل السنة عليهم وحراستها عن تشويش اهل البدعة فقد القى الله سبحانه الى عباده على لسان رسوله صلى الله عليه وآله عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم كما نطق بمعرفته القران والاخبار ثم القى الشيطان في وساوس المبتدعة امورا مخالفة للسنة فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على اهلها فانشا الله تعالى طائفة المتكلمين وحرك دواعيهم لنصرة الحق والسنة الماثورة فمنه نشا علم الكلام واهله ولقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله اليه فاحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة والتغيير لما احدث من البدعة ولقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله اليه فاحسنوا الذب عن السنة ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم اضطرهم الى تسليمها اما التقليد او اجماع الامة او مجرد القبول من القران والاخبار وكان اكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئا فلم يكن الكلام في حقي كافيا ولا لدائي الذي كنت اشكوه شافيا نعم لما نشات صنعة الكلام وكثر الخوض فيه وطالت المدة تشوف المتكلمون الى محاولة الذب عن السنة بالبحث عن حقائق الامور وخاضوا في البحث عن الجواهر والاعراض واحكامها لكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى فلم يحصل منه ما يمحق بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق ولا ابعد ان يكون قد حصل ذلك لغيري بل لست اشك في حصول ذلك لطائفة ولكن حصولا مشوبا بالتقليد في بعض الامور التي ليست من الاوليات والغرض الآن حكاية حالي لا الانكار على من استشفى به فان ادوية الشفاء تختلف باختلاف الداء فكم من دواء ينتفع به مريض ويستضر به آخر

القول في حاصل الفلسفة وما يذم منها وما لا يذم وبيان ما سرقوه من كلام اهل الحق ومزجوه بكلامهم لترويج باطلهم في ضمن ذلك وكيفية حصول نفرة النفوس عن ذلك الحق وكيفية استخلاص صرف الحقائق الحق الخالص عن الزيف في البهرج من جملة كلامهم ثم اني لما ابتدات بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة علمت يقينا انه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوي اعلمهم في ذلك العلم ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب ذلك العلم من غور وغائلة فاذ ذاك يمكن ان يكون ما يدعيه من فساده حقا ولم ار احدا من علماء الاسلام صرف عنايته وهمته الى ذلك ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم حيث اشتغلوا بالرد عليهم الا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد لا يظن الاغترار بها بغافل عامي فضلا عمن يدعي دقائق العلوم فعلمت ان رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمي في عماية فشمرت عن ساق الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة بمعلم واقبلت على ذلك في اوقات فراغي من التدريس والتصنيف في العلوم الشرعية وانا ممنو بالتدريس والافادة لثلاثمائة نفس من الطلبة ببغداد فاطلعني الله تعالى بمجرد المطالعة

في هذه الاوقات المختلسة على من يتعلم علومهم في اقل من سنتين ثم لم ازل اواظب
على التفكر فيه بعد فهمه قريبا من سنة اعاوده واردده واتفقد غوائله و
اغواره حتى اطلعت ما فيه من خداع وتلبيس وتحقيق وتخييل اطلاعا لم اشك
فيه فاسمع الان حكايته وحكاية حاصل علومهم فاني رأيتهم اصنافا ورأيت علومهم
اقساما وهم على كثرة اصنافهم تلزمهم وصمة الكفر والالحاد وان كان بين القدماء
منهم والاقدمين وبين الاواخر منهم والاوائل تفاوت عظيم في البعد عن الحق و القرب
منه اعلم انهم على كثرتهم واختلاف مذاهبهم ينقسمون الى ثلاثة اقسام الدهرية
وهم طائفة من الاقدمين جحدوا صانع المدبر العالم القادر وزعموا ان العالم لم
يزل موجودا كذلك بلا صانع ولم يزل الحيوان من نطفة والنطفة من حيوان كذلك
كان وكذلك يكون ابدا وهؤلاء هم الزنادقة الثاني الطبيعيون وهم قوم اكثروا
بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات واكثروا الخوض في علم تشريح
اعضاء الحيوانات فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته ما اضطروا معه الى
الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الامور ومقاصدها ولا يطالع التشريح
وعجائب منافع الاعضاء مطالع الا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير
الباني لبنية الحيوان ولا سيما بنية الانسان الا ان هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر
عندهم لاعتدال المزاج تاثير عظيم في قوام قوى الحيوان فظنوا ان القوة العاقلة من
الانسان تابعة لمزاجه ايضا وانها تبطل ببطلان مزاجه فتنعدم اذا انعدم فلا
يعقل اعادة المعدوم كما زعموا فذهبوا الى ان النفس تموت ولا تعود فجحدوا الاخرة
وانكروا الجنة والنار والقيامة والحساب فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ولا للمعصية
عقاب فانحل عنهم اللجام وانهمكوا في الشهوات انهماك الانعام وهؤلاء ايضا
زنادقة الثالث الالهيون وهم المتاخرون منهم مثل سقراط وهو استاذ افلاطون
وافلاطون استاذ ارسطاطاليس الذي هو رتب لهم المنطق وهذب العلوم وحرر لهم
ما لم يكن محررا من قبل وانضج لهم ما كان فجا من علومهم وهم بجملتهم ردوا على الصنفين
الاولين من الدهرية والطبيعية واوردوا في الكشف عن فضائحهم ما اغنوا به غيرهم و
كفى الله المؤمنين القتال بتقاتلهم ثم رد ارسطاطاليس على افلاطون وسقراط ومن كان

كان قبله من الالهيين ردا لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم الا انه استبقى ايضا من
رذائل كفرهم وبدعتهم بقايا لم يوفق النزوع عنها فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم
من المتفلسفة الاسلاميين اعلم ان علومهم بالنسبة الى الغرض الذي نطلبه
ستة اقسام اما الرياضيات فيتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة
العالم وليس يتعلق منه شيء بالامور الدينية نفيا واثباتا بل هي امور برهانية لا
سبيل الى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها وقد تولدت منها ان كل من نظر فيها يتعجب من
دقائقها ومن ظهور براهينها فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة ويحسب ان
جميع علومهم في الوضوح وفي وثاقة البرهان كهذا العلم ثم يكون من سمع من كفرهم وتعطيلهم
وتهاونهم بالشرع ما تداولته الالسنة فيكفر بالتقليد المحض ويقول لو كان الدين حقا
لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم وكم رأيت من يضل عن الحق بهذا العذر
ولا مستند له سواه واما المنطقيات فلا يتعلق شيء منها بالدين نفيا واثباتا
بل هو نظر في طرق الادلة والمقاييس وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها و
شروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه فان العلم اما تصور وسبيل معرفته الحد واما
تصديق وسبيل معرفته البرهان وليس في هذا ما ينبغي ان ينكر بل هو من جنس ما
ذكره المتكلمون واهل النظر في الادلة الا انهم يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات
ومزيد الاستقصاء في التعريفات والتشعيبات واما الطبيعيات فهو بحث عن
اجسام العالم السماوات وكواكبها وما تحتها من الاجسام المفردة كالماء والهواء
والنار والتراب ومن الاجسام المركبة كالحيوان والنبات والمعادن وعن اسباب
تغيرها واستحالتها وامتزاجها فذلك يضاهي بحث الطبيب عن جسم الانسان واعضائه
الرئيسة والخادمة واسباب استحالة مزاجها وكما ليس من شرط الدين انكار علم الطب
فليس من شرطه ايضا انكار ذلك العلم الا في مسائل معينة ذكرناها في كتاب تهافت
الفلاسفة وما عداها مما يجب المخالفة فيها فعند التامل يتبين انها مندرجة تحتها
واصل جملتها ان تعلم ان الطبيعة مسخرة لله تعالى لا تعمل بنفسها بل هي مستعملة من جهة
فاطرها والشمس والقمر والنجوم والطبائع مسخرات بامره لا فعل لشيء منها بذاته
عن ذاته واما الالهيات ففيها اكثر اغاليطهم فما قدروا على الوفاء

بالبراهين على ما شرطوه في المنطق ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيه ولقد قرب مذهب رسطاليس فيها من مذاهب الاسلاميين على ما نقله الفارابي وابن سينا ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع الى عشرين اصلا يجب تكفيرهم في ثلثة منها وتبديعهم في سبعة عشر ولابطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين صنفنا كتاب تهافت الفلاسفة واما المسائل الثلث فقد خالفوا فيها كافة الاسلاميين في ذلك قولهم ان الاجسام لا تحشر وانما المثاب والمعاقب هي الارواح المجردة والعقوبات روحانية لا جسمانية ولقد صدقوا في اثبات الروحانية ولكن كذبوا في انكار الجسمانية وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به ومن ذلك قولهم ان الله يعلم الكليات دون الجزئيات وهذا ايضا كفر صريح بل الحق انه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ومن ذلك قولهم بقدم العالم وازليته فلم يذهب احد من المسلمين الى شيء من هذه المسائل واما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات وقولهم انه عالم بالذات لا بعلم زائد وما يجري مجراه فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك **واما السياسات** فجميع كلامهم فيها يرجع الى الحكم المصلحية المتعلقة بالامور الدنياوية والايالة السلطانية وانما اخذوه من كتب الله المنزلة على الانبياء صلوات الله عليهم ومن الحكم المأثورة عن سلف الانبياء **واما الخلقيات** فجميع كلامهم فيها يرجع الى حصر صفات النفس واخلاقها وذكر اجناسها وانواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها وانما اخذوها من كلام الصوفية وهم المتألهون المثابرون على ذكر الله تعالى وعلى مخالفة الهوى وسلوك الطريق الى الله تعالى بالاعراض عن ملاذ الدنيا وقد انكشف لهم في مجاهداتهم من اخلاق النفس وعيوبها وآفات اعمالها ما صرحوا بها فاخذتها ومزجوها بكلامهم توسلا بالتجمل بها الى ترويج باطلهم ولقد كان في عصرهم بل في كل عصر جماعة من المتألهين لا يخلي الله تعالى العالم منهم فانهم اوتاد الارض كما روي في الخبر حيث قال صلى الله عليه وآله بهم يمطرون وبهم يرزقون ومنهم كان اصحاب الكهف وكانوا في سالف الازمنة على ما نطق به القرآن وتولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية في كتبهم آفتان آفة في حق القابل وآفة في حق الراد اما آفة في حق من رده فعظيمة اذ ظنت طائفة من الضعفاء ان ذلك الكلام اذا كان مدونا في كتبهم وممزوجا بباطلهم ينبغي ان يهجر ولا يذكر بل ينكر على كل من يذكره اذ لم يسمعوه اولا الا منهم فسبق

الى عقلهم الضعيف انه باطل لان قائله مبطل وهذه عادة ضعفاء العقول يعرفون الحق بالرجال لا الرجال بالحق والعاقل يقتدي بسيد العقلاء علي صلوات الله عليه حيث قال لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف اهله فالعاقل يعرف الحق ثم ينظر في نفس القول فان كان حقا قبله بل ربما يحرص على انتزاع من اقاويل اهل الضلال عالما بان معدن الذهب الرغام ولا بأس على الصراف ان يدخل يده في كيس القلاب وانتزع الابريز الخالص من الزيف والبهرج مهما كان واثقا ببصيرته وانما يزجر عن معاملة القلاب القروي دون الصيرفي البصير ويمنع من ساحل البحر الاخرق دون السباح الحاذق ويصد من مس الحية الصبي دون المعزم البارع ولعمري لما غلب على اكثر الخلق ظنهم بانفسهم الحذاقة والبراعة وكمال العقل والآلة في تمييز الحق عن الباطل والهدى عن الضلالة وجب حسم الباب في زجر الكافة عن مطالعة كتب اهل الضلال ما امكن اذ لا يسلمون عن الآفة التي سنذكرها اصلا وان سلموا عن الآفة التي ذكرناها ولقد اعترض على بعض الكلمات المبثوثة في تصانيفنا في اسرار علوم الدين طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم ولم تنفتح الى اقصى غايات المذاهب بصائرهم وزعمت ان تلك الكلمات من كلام الاوائل مع ان بعضها من مولدات الخواطر ولا يبعد ان يقع الحافر على الحافر وبعضها يوجد في الكتب الشرعية واكثرها موجود معناها وهب انها لم توجد الا في كتبهم فاذا كان ذلك الكلام معقولا في نفسه مؤيدا بالبرهان ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة فلم ينبغي ان يهجر وينكر ولو فتحنا هذا الباب وتطرقنا الى ان يهجر كل حق سبق الى خاطر مبطل لزمنا ان نهجر كثيرا من الحق ولزمنا ان نهجر جملة من آيات القرآن واخبار الرسول وحكايات السلف وكلمات الحكماء والصوفية واقل درجات العالم ان يتميز عن العامي الغمر فلا يعاف العسل وان وجده في محجمة الحجام ويتحقق ان المحجمة لا تغير ذات العسل وان نفرة الطبع عنه مبنية على جهل العامي منشؤه ان المحجمة انما صنعت للدم المستقذر فيظن ان الدم مستقذر لكونه في المحجمة ولا يدري انه مستقذر لصفة في ذاته فاذا عدمت الصفة في العسل وكونه في ظرفه لا يكسبه تلك الصفة فلا ينبغي ان يوجب له الاستقذار وهذا وهم باطل وهو غالب على اكثر الخلق **الآفة الثانية** آفة القبول فان من نظر في كتبهم كاخوان الصفا وغيره

فأي ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية والكلمات الصوفية ربما استحسنها وقبلها
وحسن اعتقاده فيها فتسارع الى قبول باطلهم الممزوج به بحسن ظن حصل فيما راه
واستحسنه وذلك نوع استدراج الى الباطل ولاجل هذه الافة يجب الزجر عن
عن مطالعة كتبهم لما فيها من الغرر والخطر كما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزالق
الشطوط وكما يجب صون الصبيان عن مس الحيات يجب صون الاسماع عن مختلط تلك
الكلمات وكما يجب على المعزم ان لا يمس الحية بين يدي الطفل اذا علم انه سيقتدي به و
يظن انه مثله بل يجب عليه ان يحذره منها بان يحذر هو في نفسه بين يديه فكذلك يجب
على العالم الراسخ مثله وكما ان المعزم الحاذق اذا اخذ الحية وميز بين الترياق
والسم واستخرج منه الترياق وابطل السم فليس له ان يشح بالترياق على المحتاج اليه
كذلك الصراف الناقد البصير اذا ادخل يده في كيس القلاب واخرج منه الابريز الخالص
واطرح الزيف البهرج فليس له ان يشح بالجيد المرضي على من احتاج اليه فكذلك
العالم وكما ان المحتاج الى الترياق اذا اشمازت نفسه عنه حيث علم انه مستخرج من الحية
التي هي مركز السم وجب تعريفه والفقير المضطر الى المال اذا نفر عن قبول الذهب المستخرج
من كيس القلاب وجب تنبيهه على ان نفرته جهل محض وهو سبب حرمانه عن الفائدة التي
هي مطلبه وتحتم تعريفه بان قرب الجوار بين الزيف والجيد لا يجعل الجيد زيفا كما
لا يجعل الزيف جيدا فكذلك قرب الجوار بين الحق القول في مذهب التعليمية و
غائلتهم ثم اني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهيمه وتزييف ما يزيف منه علمت
ان ذلك ايضا غير واف بكمال الغرض وان العقل ليس مستقلا بالاحاطة بجميع المطالب
ولا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات وكان قد نبغت نابغة التعليمية وشاع بين
الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الامور من جهة الامام المعصوم القائم بالحق عن لي ان ابحث عن
مقالاتهم لاطلع على ما في كنانتهم ثم اتفق ان ورد علي امر جازم من حضرة الخلافة
بتصنيف كتاب منكشف عن حقيقة مذهبهم فلم يسعني مدافعته فابتدات بطلب كتبهم
جمع مقالاتهم وكان قد بلغني بعض كلماتهم المستحدثة التي ولدتها خواطر اهل العصر
لا على المنهاج المعهود من سلفهم فجمعت تلك الكلمات ورتبتها ترتيبا محكما مقارنا
للتحقيق واستوفيت الجواب عنها حتى انكر بعض اهل الحق مني مبالغتي في تقرير حجتهم قال

وقال هذا سعي لهم فانهم كانوا عاجزين عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات
لولا تحقيقك لها وترتيبك اياها وهذا الانكار من وجه حق ولقد انكر احمد بن
حنبل على الحرث المحاسبي في تصنيفه في الرد على المعتزلة فقال الحرث الرد على اهل البدعة
فرض فقال احمد نعم ولكن حكيت شبهتهم اولا ثم اجبت عنهم فبم تامن ان يطالع الشبهة
من يعلق ذلك بفهمه ولا يلتفت الى الجواب او ينظر الى الجواب ولا يفهم كنهه وما ذكره
احمد حق ولكن في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر واما اذا انتشرت فالجواب عنها واجب ولا
يمكن الجواب عنها الا بعد الحكاية نعم القول في طرق الصوفية ثم اني لما
فرغت من هذه العلوم اقبلت بهمتي على طريقة الصوفية وعلمت ان طريقتهم انما تتم
بعلم وعمل وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن اخلاقها المذمومة
وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله تعالى
وكان العلم ايسر علي من العمل فابتدات بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل كتاب قوت
القلوب لابي طالب المكي وكتب الحرث المحاسبي والمتفرقات الماثورة عن الجنيد والشبلي
وابي يزيد البسطامي قدس الله ارواحهم وغيرهم من المشايخ حتى اطلعت على كنه مقاصدهم
العلمية وحصلت ما يمكن ان يحصل من طريقتهم بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات
وكم من الفرق بين ان يعلم الانسان حد الصحة وحد الشبع واسبابهما وشروطهما وبين
ان يكون صحيحا شبعان وبين ان يعرف حد السكر وانه عبارة عن حالة يحصل من استيلا
ابخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر وبين ان يكون سكران بل السكران لا يعرف
حد السكر وعلمه وهو سكران وما معه شي من علمه والصاحي يعرف حد السكر واركانه
وما معه من السكر شي والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة واسبابها وادويتها
وهو فاقد للصحة فكذلك فرق بين ان تعرف حقيقة الزهد وعزوف النفس عن
الدنيا فعلمت يقينا انهم ارباب احوال لا اصحاب اقوال وان ما يمكن تحصيله بطريق العلم
فقد حصلته ولم يبق الا ما لا سبيل اليه بالتعلم والسماع بل بالذوق والسلوك وكان
قد حصل من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها بالتفتيش عن صنفي العلوم
الشرعية والعقلية ايمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الاخر فهذه الاصول الثلاثة
من الايمان كانت قد رسخت في نفسي لا بدليل معين محرر بل باسباب وقراين وتجارب

لا يحصل تحت الحصر تفاصيلها وكان قد ظهر عندي انه لا مطمع في سعادة الاخرة
الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى وان راس ذلك كله قطع علاقة القلب
عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاقبال بكنه الهمة
على الله تعالى وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل
والعلائق ثم لاحظت احوالي فاذا انا منغمس في العلائق وقد احدقت بي من
الجوانب ولاحظت اعمالي فاذا احسنها التدريس والتعليم واذا انا فيها مقبل
على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الاخرة ثم تفكرت في نيتي في التدريس فاذا
هي غير خالصة لوجه الله تعالى بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت
اني على شفا جرف هار واني قد اشفيت على النار ان لم اشتغل بتلافي الاحوال
فلم ازل اتفكر فيه مدة وانا بعد على مقام الاختيار اصمم العزم على الخروج من بغداد و
مفارقة تلك الاحوال يوما واحل العزم يوما واقدم فيه رجلا واوخر عنه اخرى ولا تصدق
لي رغبة في طلب الاخرة بكرة الا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية فصارت شهوات
الدنيا تجاذبني بسلاسلها الى المقام رغبة في طلب الاخرة بكرة الا ويحمل عليها جند الشهوة حملة
فيفترها عشية فصارت شهوات الدنيا تجاذبني ومنادي الايمان ينادي الرحيل الرحيل فلم
يبق من العمر الا قليل وبين يديك السفر الطويل وجميع ما انت فيه من العلم والعمل رياء
وتخييل فان لم تستعد الان للاخرة فمتى تستعد وان لم تقطع الان هذه العلائق فمتى تقطع
فعند ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الفرار من بغداد ثم يعود الشيطان ويقول
هذه حالة عارضة اياك ان تطاوعها فانها سريعة الزوال فان اذعنت لها وتركت
هذا الجاه العريض والشان المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص والامر المسلم الصافي عن
منازعة الخصوم ربما التفتت اليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة فلم ازل اتردد بين تجاذب
شهوات الدنيا ودواعي طلب الايمان والتقوى قريبا من ستة اشهر اولها رجب سنة
ثمان وثمانين واربعمائة وفي هذا الشهر جاوز الامر حد الاختيار الى الاضطرار اذ اقفل الله
على لساني حتى اعتقل عن التدريس فكنت اجاهد نفسي ان ادرس يوما واحدا تطييبا
للقلوب المختلفة فكان لا ينطلق لساني بكلمة ولا استطيعها البتة فاورثت هذه العقلة في
اللسان حزنا في القلب بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب فكان لا ينساغ لي

في شربة ولا تنهضم لي لقمة وتعدى ذلك الى ضعف القوى حتى قطع الاطباء طمعهم من
العلاج وقالوا هذا امر نزل بالقلب ومنه سرى الى المزاج فلا سبيل اليه بالعلاج الا
بان يتروح السر عن الهم الملم ثم لما احسست بعجزي وسقط بالكلية اختياري التجات
الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له فاجابني الذي يجيب المضطر اذا دعاه وسهل على قلبي
الاعراض عن الجاه والمال والاهل والولد واظهرت عزم الخروج الى مكة وانا ادبر في
نفسي سفر الشام حذرا من ان يطلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمي في المقام بالشام
فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم ان لا اعاودها ابدا فاستهدفت
لائمة اهل العراق كافة اذ لم يكن فيهم من يجوز ان يكون للاعراض عما كنت فيه سببا ديني
اذ ظنوا ان ذلك هو المنصب الاعلى في الدين وكان ذلك مبلغهم من العلم ثم ارتبك الناس
في الاستنباطات وظن من بعد عن العراق ان ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة واما
من قرب من الولاة فكان يشاهد الحاحهم في التعلق بي والانكباب علي واعراضي عنهم
وعن الالتفات اليهم والى قولهم فيقولون هذا امر سماوي وليس له سبب الا عين اصابت
اهل الاسلام وزمرة اهل العلم ففارقت بغداد وفرقت ما كان معي من مال ولم ادخر
الا قدر الكفاف وقوت الاطفال ترخصا بان مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفا على
المسلمين فلم ار في العالم مالا ياخذه العالم لعياله اصلح منه ثم دخلت الشام واقمت بها قريبا
من سنتين لا شغل لي الا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب
الاخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية فكنت اعتكف مدة
في مسجد دمشق اصعد منارة المسجد طول النهار واغلق بابها على نفسي ثم رحلت عنها
الى بيت المقدس ادخل كل يوم الى الصخرة واغلق بابها على نفسي ثم تحركت في داعية فريضة
الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ
من زيارة الخليل عليه السلام فسرت الى الحجاز ثم جذبتني الهمم ودعوات الاطفال الى الوطن فعاودته
بعد ان كنت ابعد الخلق عن الرجوع اليه واثرت العزلة به ايضا حرصا على الخلوة وتصفية
القلب للذكر وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعيشة تغير في وجه المراد
وتشوش صفوة الخلوة فكان لا يصفو الحال الا في اوقات متفرقة لكني مع ذلك لا اقطع طمعي منها
فيدفعني منها العوائق واعود اليها ودمت على ذلك مقدار عشر سنين وانكشفت لي في اثناء

هذه الخلوات امور لا يمكن احصاوها واستقصاوها والقدر الذي اذكره لينتفع به اني علمت
يقينا ان الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة وان سيرتهم احسن السير وطريقتهم
اصوب الطرق واخلاقهم ازكى الاخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين
على اسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم واخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه
لم يجدوا اليه سبيلا فان جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور
مشكوة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به وبالجملة فماذا يقول
القائلون في طريقة طهارتها وهي اول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى و
مفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلوة استغراق القلب بذكر الله تعالى واخرها
الفناء بالكلية في الله تعالى وهذا اخرها بالاضافة الى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب
من اوائلها وهي على التحقيق اول الطريقة وما قبل ذلك كالدهليز للسالك
اليه ومن اول الطريقة تبتدئ المكاشفات حتى انهم وهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة
وارواح الانبياء عليهم السلام ويسمعون منهم اصواتا ويقتبسون منهم فوائد ثم يترقى الحال من
مشاهدة الصور والامثال الى درجات يضيق عنها نطاق النطق فلا يحاول معبر ان يعبر
عنها الا اشتمل لفظه على خطاء صريح لا يمكنه الاحتراز منه وعلى الجملة ينتهي الامر الى قرب يكاد
يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول وكل ذلك خطاء وقد بينا وجه
الخطاء في كتاب المقصد الاقصى بل الذي لابسته تلك الحالة لا ينبغي ان يزيد على ان يقول
فكان ما كان مما لست اذكره فظن خيرا ولا تسال عن الخبر وبالجملة فمن لم يرزق منه شيئا بالذوق
فليس يدرك من حقيقة النبوة الا الاسم وكرامات الاولياء على التحقيق هي بدايات الانبياء
فكان ذلك اول حال رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث اقبل الى جبل حرا حتى كان يخلو فيه
بربه ويتعبد حتى قالت العرب ان محمدا عشق ربه وهذه حالة يتحققها بالذوق من يسلك
سبيلها ومن لم يرزق الذوق فيتيقنها بالتجربة والتسامع ان اكثر معهم الصحبة حتى يفهم ذلك
بقراين الاحوال يقينا ومن جالسهم استفاد منهم هذا الايمان فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم
ومن لم يرزق صحبتهم فليعلم امكان ذلك يقينا بشواهد البرهان على ما ذكرناه في كتاب عجائب
القلب من كتاب احياء علوم الدين والتحقيق بالبرهان علم وملابسة تلك الحالة ذوق والقبول
من التسامع والتجربة بحسن الظن ايمان فهذه ثلث درجات يرفع الله الذين امنوا منكم والذين اوتوا

العلم درجات ووراء هؤلاء القوم جهال هم المنكرون لاصل ذلك المتعجبون من
هذا الكلام يستمعون ويسخرون ويقولون العجب انهم كيف يهذون وفيهم قال الله تعالى
ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا العلم ماذا قال انفا اولئك
الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا اهواءهم ومما قد بان لي بالضرورة من ممارسة طريقتهم حقيقة
النبوة وخاصيتها ولا بد من التنبيه على اصلها لشدة مسيس الحاجة اليها **القول** في حقيقة
النبوة واضطرار كافة الخلق اليها اعلم ان جوهر الانسان في اصل الفطرة خلق خاليا ساذجا
لا خبر معه من عوالم الله تعالى والعوالم كثيرة لا يحصيها الا الله تعالى كما قال وما يعلم جنود ربك
الا هو وانما خبره من العوالم بواسطة الادراك وكل ادراك من الادراكات خلق ليطلع به
الانسان على عالم من الموجودات ونعني بالعوالم اجناس الموجودات فاول ما يخلق في الانسان
حاسة اللمس فيدرك بها اجناسا من الموجودات كالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة
واللين والخشونة وغيرها واللمس قاصر عن الالوان والاصوات قطعا بل هي كالمعدومة في حق
اللمس ثم يخلق له البصر فيدرك به الالوان والاشكال وهو اوسع عوالم المحسوسات ثم ينفتح فيه السمع
الاصوات والنغمات ثم يخلق له الذوق وكذلك الى ان يجاوز عالم المحسوسات فيخلق فيه التمييز وهو
قريب من سبع سنين وهو طور اخر من اطوار وجوده فيدرك فيه امورا زائدة على عالم المحسوسات
لا يوجد منها شيء في عالم الحس ثم يترقى الى طور اخر فيخلق له العقل فيدرك الواجبات والجائزات
والمستحيلات وامورا لا توجد في الاطوار التي قبله ووراء العقل طور اخر ينفتح فيه عين اخرى
يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل وامورا اخر العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن
ادراك المعقولات وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز وكما ان المميز لو عرض عليه مدركات
العقل لاباها واستبعدها فكذلك ابى بعض العقلاء مدركات النبوة واستبعدها وذلك
عين الجهل اذ لا مستند لهم الا انه طور لم يبلغوه ولم يوجد في حقهم فظنوا انه غير موجود في نفسه و
الاكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الالوان والاشكال وحكي له ابتداء ذلك لم يفهمها ولم يقر بها
وقد قربها الله تعالى ذلك على خلقه بان اعطاهم انموذجا من خاصية النبوة وهو النوم اذ النائم يدرك
ما سيكون من الغيب اما صريحا واما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير وهذا لو لم يجربه الانسان
من نفسه وقيل له ان من الناس من يسقط مغشيا عليه كالميت ويزول عنه احساسه وسمعه وبصره فيدرك
الغيب لانكره ولاقام البرهان على استحالته وقال القوى الحساسة اسباب الادراك فمن لا يدرك الشيء

مع وجودها وحضورها فبان لا يدرك مع ركودها ادل واحق وهذا نوع قياس يكذبه
الوجود والمشاهدة وكما ان العقل طور من اطوار الآدمي يحصل فيه عين يبصر بها انواعا من
المعقولات والحواس معزولة عنها فالنبوة ايضا عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور يظهر في
نورها الغيب وامور لا يدركها العقل والشك في النبوة اما ان يقع في امكانها او في وجودها
ووقوعها او في حصولها لشخص معين ودليل امكانها وجودها ودليل وجودها وجود معارف في العالم لا يتصور
ان ينال بالعقل كعلم الطب والنجوم فان من بحث عنها علم بالضرورة انها لا تدرك الا بالهام
الهي وتوفيق من جهة الله تعالى ولا سبيل اليه بالتجربة فمن الاحكام النجومية ما لا يقع الا في كل الف
سنة مرة فكيف ينال ذلك بالتجربة وكذلك خواص الادوية فتبين بهذا البرهان ان في الامكان
وجود طريق لادراك هذه الامور التي لا يدركها العقل وهو المراد بالنبوة لا ان النبوة عبارة
عنها فقط بل ادراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل احدى خواص النبوة ولها خواص
كثيرة سواها وما ذكرناها قطرة من بحرها وانما ذكرناها لان معك انموذجا منها وهو مدركاتك
في النوم ومعك علوم من جنسها كالطب والنجوم وهي معجزات الانبياء فلا سبيل اليها للعقلاء
ببضاعة العقل اصلا واما ما عدا هذا من خواص النبوة فانما يدرك بالذوق في سلوك طريق
التصوف لان هذا انما فهمته بانموذج رزقته وهو النوم ولولاه لما صدقت به فان كان للنبي
خاصية ليس لك منها انموذج فلا تفهمها اصلا فكيف تصدق بها وانما التصديق بعد الفهم
وذلك الانموذج يحصل في اوائل طريق التصوف فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل
ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس اليه فهذه الخاصية الواحدة تكفيك بالايمان باصل النبوة
فان وقع لك الشك في شخص معين انه نبي ام لا فلا يحصل اليقين الا بمعرفة احواله اما بالمشاهدة
او بالتواتر والتسامع فانك اذا عرفت الطب والفقه يمكنك ان تعرف الفقهاء والاطباء بمشاهدة
احوالهم وان لم تشاهدهم فلا تعجز ايضا عن معرفة كون الشافعي فقيها وكون جالينوس طبيبا
معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير بل بان تتعلم شيئا من الطب والفقه وتطالع كتبهما وتصانيفهما
فيحصل لك علم ضروري بحالهما فكذلك اذا فهمت معنى النبوة فاكثرت النظر في القرآن والاخبار
يحصل لك العلم الضروري بكونه عليه السلام على اعلى درجات النبوة واعضد ذلك بتجربة ما قاله في
العبادات وتاثيرها في تصفية القلب وكيف صدق في قوله عليه السلام من اعان ظالما سلطه الله عليه
وكيف صدق في قوله من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم وكيف صدق في قوله عليه السلام من

اصبح وهمومه هم واحد كفاه الله هموم الدنيا والآخرة فاذا جربت ذلك في الف والفين وآلاف
حصل لك علم ضروري لا تتمارى فيه فمن هذا الطريق فاطلب اليقين بالنبوة لا من قلب العصا ثعبانا
وشق القمر فان ذلك اذا نظرت اليه وحده ولم تنضم اليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر ربما ظننت
انه سحر وتخييل وانه من الله تعالى اضلال فانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء وترد عليك
اسولة المعجزات فاذا كان مستندها كلاما منظوما في وجه دلالة المعجز فينخرم ايمانك بكلام
مرتب في وجه الاشكال والشبهة عليها فليكن مثل هذه الخوارق احد الدلائل والقرائن في جملة
نظرك حتى يحصل لك علم ضروري لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين كالذي يخبره جماعة بخبر
متواتر لا يمكنه ان يذكر ان اليقين مستفاد من قول واحد معين بل من حيث لا يدري ولا يخرج
عن جملة ذلك ولا بتعيين الآحاد فهذا هو الايمان القوي العلمي واما الذوق فهو كالمشاهدة
والاخذ باليد ولا يوجد الا في طريق الصوفية فهذا القدر في حقيقة النبوة كاف في الغرض الذي
اقصده الآن وسأذكر وجه الحاجة اليه **القول في سبب معاودته نشر العلم بعد
الاعراض عنه** ثم اني لما واظبت على العزلة والخلوة قريبا من عشر سنين وبان لي في اثنا
ذلك على الضرورة من اسباب لا احصيها مرة بالذوق ومرة بالعلم البرهاني ومرة بالقبول
الايماني ان الانسان خلق من بدن وقلب واعني بالقلب حقيقة الروح التي هي محل معرفة
الله تعالى دون اللحم الذي يشاركه فيه البهيمة والميت وان البدن له صحة وسلامة ولا ينجو الا
من اتى الله بقلب سليم وله مرض فيه هلاكه الابدي الاخروي ان لم يتداركه كما قال الله تعالى
في قلوبهم مرض وان الجهل بالله سم مهلك وان معصيته اتباعا بمتابعة الهوى داؤه الممرض وان
معرفة الله تعالى ترياقه المحيي وطاعته بمخالفة الهوى دواؤه الشافي وانه لا سبيل الى معالجته
لازالة مرضه وكسب صحته الا بالادوية كما لا سبيل الى معالجة البدن الا بذلك وكما ان ادوية
البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل بل يجب فيها تقليد الاطباء
الذين اخذوها من الانبياء الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الاشياء فكذلك بان لي
على الضرورة ان ادوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الانبياء
لا يدرك وجه تاثيرها ببضاعة العقل بل يجب فيها تقليد الانبياء الذين ادركوا تلك الخواص
بنور النبوة لا ببضاعة العقل وكما ان الادوية تركب من اخلاط مختلفة النوع والمقدار و
بعضها ضعف البعض في الوزن والمقدار فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر هو من قبيل الخواص

فكذلك العبادات التي هي ادوية القلوب مركبة من افعال مختلفة النوع والمقدار
حتى ان السجود ضعف الركوع وصلوة الصبح نصف صلوة الظهر في المقدار فلا يخلو عن
سر من الاسرار التي هي من قبيل الخواص التي لا يطلع عليها الا بنور النبوة فلقد تحامق و
تجاهل جدا من اراد ان يستنبط بطريق العقل لها حكمة او ظن انها ذكرت على الاتفاق لا عن سر
الهي فيها يقتضيها بطريق الخاصة وكما ان في الادوية اصولا هي اركانها وزوائد هي متمماتها
ولكل واحد منها خصوص تاثير في اعمال اصولها كذلك السنن والنوافل متممات لتكميل آثار
اركان العبادات وعلى الجملة الانبياء اطباء امراض القلوب وانما فائدة العقل وتصرفه
ان عرفنا ذلك وشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة
فاخذ بايدينا وسلمنا اليها تسليم العميان الى القائدين وتسليم المرضى المتحيرين الى الاطباء المشفقين
فالى هاهنا مجرى العقل ومخطاه وهو معزول عما بعد ذلك الا عن تفهيم ما يلقيه الطبيب
اليه فهذه امور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة في مدة الخلوة والعزلة
ثم راينا فتور الاعتقادات في اصل النبوة ثم في حقيقة النبوة ثم في العمل بما شرحته النبوة و
تحققنا شيوع ذلك في الخلق فنظرت الاسباب فتور الخلق وضعف ايمانهم بها فاذا هي اربعة
سبب من الخائضين في علم الفلسفة وسبب من الخائضين في طريق التصوف وسبب من
المنتسبين الى دعوى التعليم وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس فاني تتبعت
مدة احاد الخلق اسال عن شبهته وابحث عن عقيدته وسره وقلت له ما لك تقصر فان كنت
تؤمن بالاخرة ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا فهذه حماقة فانك لا تستحسن ان تبيع
الاثنين بواحد فكيف تبيع ما لا نهاية له بايام معدودة وان كنت لا تؤمن به فانت كافر
فدبر لنفسك في طلب الايمان وانظر ما سبب كفرك الخفي الذي هو مذهبك باطنا وهو سبب
جرأتك ظاهرا وان كنت لا تصرح به تجملا بالايمان وتشرفا بذكر الشرع فقائل يقول انه
لو وجب المحافظة عليه لكان العلماء اجدر بذلك وفلان من المشاهير بين الفضلاء لا يصلي
وفلان يشرب الخمر وفلان ياكل الاموال من الاوقاف واموال اليتامى وفلان ياكل ادرار
السلطان ولا يحترز من الحرام وفلان ياكل الرشوة على القضاء والشهادات وهلم جرا الى امثاله
وقائل ثان يدعي علم التصوف ويزعم انه قد بلغ مبلغا ترقى عن الحاجة الى العبادة
وقائل ثالث يتعلل بشبهة اخرى من شبهات اهل الاباحة وهؤلاء هم الذين ضلوا عن طريق

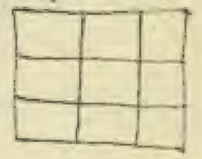
عن طريق التصوف وقائل رابع لقي اهل التعليم فيقول الحق مشكل والطريق اليه
منسد والاختلاف فيه كثير وليس بعض المذاهب اولى من البعض وادلة العقول
متعارضة فلا ثقة براي اهل الراي والداعي الى التعليم متحكم لا حجة له فكيف ادع
اليقين بالشك وقائل خامس يقول لست افعل هذا تقليدا ولكني قرات علم
الفلسفة وادركت حقيقة النبوة وان حاصلها يرجع الى الحكمة والمصلحة وان المقصود
من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في
الشهوات فما انا من العوام الجهال حتى ادخل في حجر التكليف وانما انا من الحكماء اتبع
الحكمة وانا بصير بها مستغن فيها عن التقليد هذا منتهى ايمان من قرا علم الفلاسفة
الالهيين منهم وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وابي نصر الفارابي وهؤلاء هم المتجملون
يقرا القران ويحضر الجماعات والصلوة ويعظم الشريعة بلسانه ولكنه مع ذلك لا
يترك شرب الخمر وانواعا من الفسق والفجور واذا قيل له اذا كانت النبوة غير صحيحة
فلم تصلي فربما يقول لرياضة الجسد وعادة لاهل البلد وحفظا للمال والولد وربما
قال الشريعة صحيحة والنبوة حق فيقال له فلم تشرب الخمر فيقول انما نهي عن الخمر لانها
تورث العداوة والبغضاء وانا بحكمتي محترز عن ذلك وانما اقصد به تشحيذ خاطري
حتى ان ابن سينا كتب في وصيته له انه عاهد الله تعالى على كذا وكذا وان يعظم الاوضاع
الشرعية ولا يقصر في العبادات الدينية ولا يشرب الخمر تلهيا بل تداويا وتشفيا
فكان منتهى حالته في صفاء الايمان والتزام العبادات ان استثنى شرب الخمر لغرض
التشفي فهذا ايمان من يدعي الايمان منهم وقد انخدع بهم جماعة وزادهم انخداعا
ضعف اعتراض المعترضين عليهم اذا اعترضوا عليهم بمجاهدة علم الهندسة والمنطق
وغير ذلك مما هو ضروري لهم على ما بيناه من قبل فلما رايت اصناف الخلق
قد ضعف ايمانهم الى هذا الحد بهذه الاسباب ورايتني مليا بكشف هذه الشبهة كان
افتضاح هؤلاء اسهل عندي من شربة ماء لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم اعني طرق
الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمترسمين من العلماء انقدح في نفسي ان ذلك
متعين في هذا الوقت محتوم فقلت فما يغنيك الخلوة والعزلة وقد عم الداء و
مرض الاطباء واشرف الخلق على الهلاك ثم قلت في نفسي

حتى تشتغل بان تكشف هذه الغمة وتصادم هذه الظلمة والزمان زمان الفترة والدور
دور الباطل ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم الى الحق لعاداك اهل الزمان باجمعهم
وانى تقاومهم فكيف تعايشهم ولا يتم ذلك الا بزمان مساعد وسلطان متدين
قاهر فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة تعللا بالعجز عن
اظهار الحق بالحجة فقدر الله تعالى ان حرك داعية سلطان الوقت من نفسه لا بتحريك من
خارج فامر امر الزام بالنهوض الى نيسابور لتدارك هذه الفترة وبلغ الالزام حدا كان
ينتهي لو اصررت على الخلاف الى حد الوحشة فخطر لي ان سبب الرخصة قد ضعف فلا
ينبغي ان يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة وطلب عز النفس و
صونها عن اذى الخلق ولم ترخص لنفسك عسر معاناة الخلق والله تعالى يقول الم
احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا امنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم
الاية ويقول عز وجل لرسوله وهو اعز خلقه ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا
على ما كذبوا واوذوا حتى اتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبا الم
ويقول تعالى يس والقران الحكيم الى قوله لتنذر قوما ما انذر اباؤهم فهم غافلون الى قوله
انما تنذر من اتبع الذكر وشاورت في ذلك جماعة من ارباب القلوب والمشاهدات
فاتفقوا على الاشارة بترك العزلة والخروج من الزاوية وانضاف الى ذلك منامات
من الصالحين كثيرة متواترة تشهد بان هذه الحركة مبدا خير ورشد قدرة الله تعالى
على راس هذه المائة وقد وعد الله سبحانه باحياء دينه على راس كل مائة فاستحكم الرجا
وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات ويسر الله تعالى الحركة الى نيسابور للقيام
بهذا المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين واربعمائة وكان الخروج من بغداد في ذي
القعدة سنة ثمان وثمانين واربعمائة وبلغت مدة العزلة احدى عشرة سنة وهذه
حركة قدرها الله تعالى وهي من عجايب تقديراته التي لم يكن لها انقداح في القلب في هذه
العزلة كما لم يكن الخروج من بغداد والنزوع عن تلك الاحوال مما خطر امكانه اصلا بالبال
والله تعالى مقلب القلوب والاحوال وقلب المومن بين اصبعين من اصابع الرحمن وانا
اعلم اني وان رجعت الى نشر العلم فما رجعت فان الرجوع عود الى ما كان وكنت في ذلك
الزمان انشر العلم الذي يكتسب به الجاه وادعو اليه بقولي وعملي وكان ذلك قصدي

وقصدي ونيتي واما الان فادعو الى العلم الذي به يترك الجاه وبه يعرف سقوط
رتبة الجاه هذا هو الان نيتي وقصدي وامنيتي يعلم الله تعالى ذلك مني وانا
ابتغي ان ابتغي ان اصلح نفسي وغيري ولست ادري اصل الى مرادي ام اخترم دون
غرضي لكني اومن ايمان يقين ومشاهدة انه لا حول ولا قوة الا بالله واني لم اتحرك
لكنه حركني واني لم اعمل لكنه استعملني فاساله ان يصلحني اولا ثم يصلح بي ويهديني
اولا ثم يهدي بي وان يريني الحق حقا ويرزقني اتباعه ويريني الباطل باطلا
ويرزقني اجتنابه ونعود الان الى ما ذكرنا من اسباب ضعف الايمان ونذكر
طريق ارشادهم وانقاذهم من مهالكهم اما الذين ادعوا الحيرة بما سمعوه من اهل
التعليم فعلاجهم ما ذكرناه في القسطاس المستقيم ولا نطول بذكره في هذه الرسالة
واما ما توهمه اهل الاباحة فقد حصرنا شبههم في سبعة انواع وكشفناها في كتاب كيميا
السعادة واما من فسد ايمانه بطريق الفلسفة حتى انكر اصل النبوة فقد ذكرنا
حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة بدليل وجود العلم بخواص الادوية والنجوم
وغيرهما وانما قدمنا هذه المقدمة لاجل ذلك واوردنا الدليل من خواص الطب
والنجوم لانه من نفس علمهم ونحن نبين لكل عالم بفن من العلوم كالنجوم والطب
والطبيعة والسحر والطلسمات مثلا من نفس علمه برهان النبوة واما من اثبت النبوة
بلسانه وسوى اوضاع الشرع على الحكمة فهو على التحقيق كافر بالنبوة انما هو مومن
بحكيم له طالع مخصوص يقتضي طالعه ان يكون متبوعا وليس هذا من النبوة في
شي بل الايمان بالنبوة ان يقر باثبات طور وراء العقل ينفتح فيه عين يدرك بها
مدركات خاصة والعقل معزول عنها كعزل السمع عن ادراك الالوان والبصر عن
ادراك الاصوات وجميع الحواس عن ادراك المعقولات فان لم يجوز هذا فقد اقمنا
البرهان على امكانه بل على وجوده فان جوز هذا فقد ثبت ان ههنا امورا تسمى
خواص لا يدور تصرف العقل حواليها اصلا بل يكاد العقل يكذبها ويقضي باستحالتها
فان وزن دانق من الافيون سم قاتل لانه يجمد الدم في العروق لفرط برودته والذي
يدعي علم الطبيعة يزعم ان ما يبرد من المركبات انما يبرد بعنصري الماء والتراب فهما العنصران
الباردان ومعلوم ان ارطالا من الماء والتراب لا يبلغ تبريده في الباطن الى هذا الحد

ولو اخبر طبيعي بهذا ولم يجربه لقال هذا محال والدليل على استحالته ان فيه نارية
وهوائية والهوائية والنارية لا تزيدها برودة فيقدر الكل ماء وترابا فلا يوجب هذا
الافراط في التبريد فان انضم اليه حاران فبان لا يوجب اولى ويقدر هذا
برهانا واكثر براهين الفلاسفة في الطبيعيات والالهيات مبنية على هذا الجنس فانهم
تصوروا الامور على قدر ما وجدوه وعقلوه وما لم يالفوه قدروا استحالته ولو لم
تكن الرؤيا الصادقة مالوفة وادعى مدع انه عند ركود الحواس يعلم الغيب لانكره المتصفون
بمثل هذه العقول ولو قيل لواحد هل يجوز ان يكون في الدنيا شيء هو مقدار حبة يوضع
في بلدة فياكل تلك البلدة بجملتها ثم ياكل نفسه فلا يبقى شيء من البلدة وما فيها ولا يبقى
هو في نفسه لقال هذا محال وهو من جملة الخرافات وهذه حالة النار ينكرها من لم ير النار
اذا سمعها واكثر انكار عجائب الاخرة هو من هذا القبيل فنقول للطبيعي قد اضطررت
الى ان تقول ان في الافيون خاصية في التبريد ليست على قياس المعقول بالطبيعة فلم لا يجوز
ان يكون في الاوضاع الشرعية من الخواص في مداواة القلوب وتصفيتها ما لا يدرك
بالحكمة العقلية بل لا يبصر ذلك الا بعين النبوة بل قد اعترفوا بخواص اعجب من هذا
فيما اوردوه في كتبهم وهي من الخواص العجيبة المجربة في معالجة الحامل التي عسر عليها الطلق
بهذا الشكل يكتب على خرقتين لم يصبهما ماء وينظر اليهما الحامل بعينها ويضعهما تحت
قدميها فيسرع الولد في الحال الى الخروج وقد اقروا بامكان ذلك واوردوه في عجائب
الخواص وهو شكل فيه تسعة بيوت يرقم فيها ارقام مخصوصة يكون مجموع ما في
جدول واحد خمسة عشر قرأته في طول الشكل وعرضه او على التاريب فليت شعري
من يصدق بذلك ثم لم يتسع عقله للتصديق بان تقدير صلاة الصبح بركعتين
والظهر باربع ركعات والمغرب بثلاث لخواص غير معلومة بنظر الحكمة وسببها اختلاف
هذه الاوقات وانما يدرك هذه الخواص بنور النبوة والعجب انا لو غيرنا العبارة
الى عبارة المنجمين لاعترفوا باختلاف هذه الاوقات ورتبوا احكاما فنقول اليس
يختلف الحكم في الطالع بان يكون الشمس في وسط السماء او في الطالع او في الغارب
حتى يبتنى على هذا في تسييراتهم اختلاف العلاج وتفاوت الاعمار والآجال ولا فرق
بين الزوال وبين كون الشمس في وسط السماء ولا بين المغرب وبين كون الشمس

هذا الشكل معروف ... وهو مذكور في كتب الطلسم



في الغارب فهل لتصديقه سبب الا ان ذلك يسمعه بعبارة منجم لعله جرب كذبه مائة
مرة فلا يزال يعاود تصديقه حتى لو قال المنجم اذا كانت الشمس في وسط السماء و
نظر اليها الكوكب الفلاني والطالع الفلاني فلبست ثوبا جديدا في ذلك الوقت قتلت
في الثوب فانه لا يلبس الثوب في ذلك الوقت وربما يقاسي فيه البرد الشديد
ويسمعه من منجم قد عرف كذباته فليت شعري من يتسع عقله لقبول هذه البدائع
ويضطر الى الاعتراف بانها خواص معرفتها معجزة بعض الانبياء كيف ينكر مثل ذلك فيما
يسمعه من قول نبي صادق مؤيد بالمعجزات لم يعرف قط بالكذب واذا انكر الفلسفي
في امكان هذه الخواص في عدد الركعات ورمي الجمار واعداد اركان الحج وسائر تعبدات
الشرع لم يجد بينه وبين خواص الادوية والنجوم فرقا اصلا فان قال قد جربت شيئا
من النجوم وشيئا من الطب فوجدت بعضه صادقا فانقدح في نفسي تصديقه وسقط من
قلبي استبعاده ونفرته وهذا لم اجربه فبم اعلم وجوده وتحقيقه وان اقررت بامكانه
فاقول انك لا تقتصر على تصديق ما جربته بل سمعت اخبار المجربين وقلدتهم
فاسمع اقوال الاولياء فقد جربوا وشاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع واسلك
سبيلهم تدرك بالمشاهدة بعض ذلك على اني اقول وان لم تجربه فيقتضي عقلك وجوب
التصديق والاتباع قطعا فانا لو فرضنا رجلا بلغ وعقل ولم يجرب الطب فمرض وله
والد مشفق حاذق بالطب يسمع دعواه معرفة الطب منذ عقل فعجن له والده دواء
وقال هذا يصلح لمرضك ويشفيك من سقمك فماذا يقتضيه عقله وان كان الدواء مرا
كريه المذاق ان يتناوله او يكذب ويقول انا لا اعقل مناسبة هذا الدواء لتحصيل
الشفاء ولم اجربه فلا شك انك تستحمقه ان فعل ذلك فكذلك يستحمقك اهل البصائر
في توقفك فان قلت فبم اعرف شفقة النبي صلى الله عليه وسلم ومعرفته بهذا الطب
فاقول وبم عرفت شفقة ابيك وليس ذلك امرا محسوسا بل عرفته بقرائن احواله
وشواهد اعماله في مصادره وموارده علما ضروريا لا تتمارى فيه ومن نظر في اقوال
رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ورد من الاخبار في اهتمامه بارشاد الخلق وتلطفه في حق الناس
بانواع الرفق واللطف الى تحسين الاخلاق واصلاح ذات البين وبالجملة الى ما يصلح
به دينهم ودنياهم حصل له علم ضروري بان شفقته على امته اعظم من شفقة الوالد

علی لدیه فاذا نظر الی عجایب ما ظهر علیه من الافعال والعجایب لعینه لقد ... عنه
فی الفراق والاخبار وما ذکره فی آخر الزمان وظهور ذلک کما ذکر علم علما ضروریا
انه بلغ الطور الذی وراء العقل وانفتحت له العین التی ینکشف فیها الغیب والخواص
والامور التی لا یدرکها العقل فهذا هو منهاج تحصیل العلم الضروری بصدق النبی
تجرب وتامل القرآن وطالع الاخبار تعرف ذلک بالعیان وهذا القدر یکفی فی تنبیه
المتفلسفة ذکرناه لشدة الحاجة الیه فی هذا الزمان واما السبب الرابع وهو ضعف الایمان
بسبب سوء سیرة العلماء فیتداوی هذا المرض بثلثة امور احدها ان تقول ان العالم
الذی تزعم انه یاکل الحرام معرفته بذلک کمعرفتک بتحریم الخمر والربا بل بتحریم الکذب
والغیبة وانت تعرف ذلک وتفعله لا لعدم ایمانک بانه معصیة بل لشهوتک التی غلبت
علیک فشهوته کشهوتک وقد غلبته کما غلبتک فعلمه بمسائل وراء هذه یتمیز بها
عنک لا یناسب زیادة زجر عن هذا المحظور المعین وکم من مؤمن بالطب لا یصبر
عن الفاکهة وعن الماء البارد وان زجره الطبیب عنه ولا یدل ذلک علی انه ضار
او علی تعتقد ان العالم اتخذ علمه ذخرا لنفسه فی الآخرة فیظن ان علمه ینجیه ویکون
شفیعا له حتی یتساهل معه فی اعماله لفضیلة علمه وان جاز ان یکون زیادة حجة علیه
فهو یجوز ان یکون زیادة درجة له وهو ممکن فهو وان ترک العمل یدلی بالعلم واما
انت ایها العامی اذا نظرت الیه وترکت العمل وانت عن العلم عاطل فتهلک بسوء عملک
ولا شفیع لک الثالث وهو الحقیقة ان العالم ما یعرف ان المعصیة سم مهلک والآخرة
خیر من الدنیا ومن عرف ذلک فالعالم الحقیقی لا یقارف معصیة الا علی سبیل الهفوة ولا
یکون مصرا علی المعاصی اصلا اذ العلم الحقیقی ما یعرف به ان المعصیة سم مهلک والآخرة
خیر من الدنیا ومن عرف ذلک لا یبیع الخیر بما هو ادنی وهذا العلم لا یحصل بانواع
العلوم التی یشتغل بها اکثر الناس فلذلک لا یزیدهم ذلک العلم الا جرأة علی
معصیة الله تعالی واما العلم الحقیقی فیزید صاحبه خشیة وخوفا ورجاء وذلک یحول
بینه وبین المعاصی الا الهفوات التی لا ینفک عنها بشر فی الفترات وذلک لا یدل
علی ضعف الایمان فالمؤمن مفتن تواب وهو بعید عن الاصرار والاکباب هذا
ما اردت ان اذکره من ذم الفلسفة والتعلیم وآفاتهما وآفات من انکر علیهم

علیهم لا بطریقه ونسأل الله العظیم ان یجعلنا ممن
آثره واجتباه وارشده الی الحق وهداه و
الهمه ذکره حتی لا ینساه وعصمه من شر نفسه وعصمه
له حتی لم یؤثر علیه سواه واستخلصه لنفسه
حتی لم یعبد الا ایاه تم الکتاب المنقذ من
الضلال علی ید الحقیر الفقیر الی الله الغنی
محمد مؤمن القاشانی تمت الکتاب علی
ید العبد الفقیر العاصی اقل الاحقر
عبد الحسین محمد علی رحمه الله
تعالی فی هذه السنة

٣٠٢١

القصيدة اللامية المهدوية

بنفسي واهلي الحجة المرسل … بوعد حق وعد الوعد من حق تحلي
فكم زحمت قوم بترويج شرعكم … وليس لهم من شرعكم قدر خردل
انتهم كثرى ويدعون كلهم … الى شرعه سلطان بدعوة اهل
اصولكم بعض الفضول المزخرف … وحاصلهم تضييع عمر المحصل
فشانهم اشقى على الدين خطوة … واشقاهم لم يتركون بصيقل
وبالجهل اقوام في سكر والهوى … وهم في شباك الشرك من كل كامل
نعم صهبنا بعض التقى وبمكتفى … واعينهم ينعقوا او كالنبل
فهل للترشيد كان قلوبهم … معلقة في شأن السماك المزيل
واعينهم قد اسهرت طول ليلهم … وهم في اضطراب لا كالحلم المجمل
فيا بنى اهل العصر بحرين لهم … حفاة عراة بكاء مثل ثكل
امام الورى يا حجة الله في الورى … اب لليتامى عصمة للارامل
بر بفتح الله ابواب فتنفتح … وتجري ينابيع الهدى متضافرا
هنا نقلب الارواح تطوى لها الثرى … ويكشف جلباب الحقائق شاكل
وتقتل شيطان الهوى شر قتلة … على يد مقتل الكفر عند الصياقل
وينزل عيسى من سماء فيقتدي … بمهديينا قد نال ارفع منزل
يعود به دين الاله مجددا … سليما من الشرك الخفي واجلل
وتظهر اركان الحقائق كلها … وتلقى رسوم الفرقة الخاذل
وعلمهم اليوم علم حقيقة … ببال وحال ثم حال تمهل
هم القوم قد ذاقوا حلاوة وده … فلم ينقطع في سعيهم بالتعلل
وصوم حريم الوصل تحت قلوبهم … وسقي بماء القدس من غير ناهل
يسيحون في ارض الحقائق كلها … فتطوى لهم اصقاع تلك المراحل
فما هاموا الا في دعائم العصر هم … وشوق الا تلك الكرام الاماثل
واقر عيون ناظرة بظهورهم

لقد طالت الاحلام واشتد غمنا … ومن عظم القوم الخليل الجليل
ووا عظمهم يبكي على عرش الفلك … خضوع على الدينار كعبد مذلل
ودال مفتقر القوم قد جاد نشرا … وليس لهم فقر باصل ماثل
ومنهم حكيم فلسفي تحيلا … بحر هيولي الفكر عند التعقل
وصوفيهم لم يصفه كدر الهوى … لما لهم معبود لهم في التذلل
وقد جاء من اصفى الى نار معتد … تعبد من التصفيف المسلسل
ظهورهم لحدود وبطونهم … خوافي واركان لهم في التزلزل
وليس لجاه القوم لمع لامع … ولم يشهدوا اشياء لو بالتقول
تنفقت سهام في وجوههم … جلودهم مثل الترب المرمل
يقولون يا رب اتحف دعوتنا … ظهور ولي العدل الجليل وتكمل
هو الفتى البادي الختم ولاية … ولا بد تشريع وتكوين اول
تعادل السماء دورة ملكية … ويبسط في الارض ما بسط المنازل
ترى ضوء اقتبس ملكية … سيحييه الانفاس حول التناول
اراضي النفوس مغرب … وارواحها قد خلصت عن تنزل
به يقتل الدجال ذو الاعور اللعين … لقد صد عن خير نبيا وشمائل
فيعجب اهل العصر مقبلا … بلا شوب اشراك لو مجدلا
وتحيي آثار العلوم تماما … علوم رسوم قد مضت كالسلاسل
فتلك العلوم الاسنية ابدت … واقبل على الحق لا ابتعاد مدل
ترى صبغة الرحمن صانعت وجوههم … وان صباغ الحب صبغ التجمل
واحشائهم فوق نكاية قد تقطعت … لما قران يثنى بهم بالتنزل
ينالون كنز الارض ارض الحقائق … وانظارهم مفتاح تلك المعاضل
فيا رب عجل يوم آل محمد … وفرج لهم من كل كرب وتكمل
وصلت يا ابد اصحقهم وسائل

[illegible]

سئل ابو الزهير عن الشعر فقال ليس كما ... وعامي مقطع وزن في مقدار

[illegible]

الحمد لله اقرارا بنعمته ولا اله الا الله اخلاصا لوحدانيته
وصلى الله على محمد سيد بريته
والاصفياء من عترته اما بعد فان من
فضل الله على الانام ان اغناهم بالحلال
عن الحرام وقال جل ثناؤه وانكحوا الايامى منكم و
الصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا
فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم
ان محمد بن علي بن موسى خطب ام الفضل
بنت عبد الله المامون وقد بذل لها
من الصداق مهر جدته فاطمة بنت
محمد صلى الله عليه وآله وهو خمسمائة
درهم جيادا

الحمد لله ... الانعم ... واشهد ان لا اله
الا الله شهادة ... وصلى الله على محمد ...
تمام الاسلام ... النكاح ... امر الله
عز وجل ... ثم قال قضاء الله ... رسول الله صلى الله عليه ...
واني ... فاطمة ... رسول الله
قال ... خمسمائة درهم ... واشهد ...
ان يقبله ...
محمد ... الذي ... من بين الانام ...
وخواتيم ... الرجال والنساء ...
عمران على الانام ... اشهد
من ... الانام ...
وكتبه ... لا اله الا الله ...

[illegible]

